٤٦
کتابخانه
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

اللسان العربي

مجلة دورية للأبحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب في العالم العربي

سجل لأعمال

- مجامع اللغة العربية
- المجالس العليا للعلوم والآداب والفنون
- الجامعات والمعاهد العلمية
- الهيئات والمراكز والشعب الوطنية للتعريب
- رجال الفكر والعاملين لإعلاء اللغة العربية وجعلها في مستوى اللغات العالمية الحية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

العدد السادس

شماره ثبت ۱۲۰۴۳۸
رده‌بندی
تاریخ ۲ - ۳ / ۱۳۸۶

يصدرها:
المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي
(جامعة الدول العربية)
(الرباط المغرب الأقصى)

دراسات وأبحاث

- لغة القرآن وذكرى نزول القرآن
  للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله
- عبقرية الفكر العربي وشموله يحدوان الى خط نهج جديد فى تدوين تاريخ الادب العربي
  للاستاذ بهجة الاثري
- اللغة والمجتمع الانساني
  للاستاذ احمد عبد الرحيم السايح
- العربية بين حماتها وغزاتها
  للاستاذ فاضل الجمالي
- اللغة العربية بين مؤيديها ومعارضيها
  للاستاذ ياسين رفاعية
- كيف تفجرت طاقات اللغة العربية
  للاستاذ حامد حسن
- الخط العربي : نشاته وتطوره
  للدكتور الطاهر احمد مكي
- الاسماء الثنائية فى اللغة العربية
  للاستاذ عبد الهادي الفضلي
- ترجمة القرآن الى لغات شرقية وغربية
  للشيخ طه الولي
- العرب اول الفلكيين
  للاستاذ عبد الحق فاضل
- كيف تبلور الفكر العربي فى علم الطب ؟
  للدكتور شوكت الشطي
- نحن على مفترق الطرق
  للدكتور محمد يحيى الهاشمي
- كيف انطلقت النهضة الفكرية الحديثة من لبنان العربيـــة
  للاستاذ محمد جميل بيهم
- الدراسات العربية والاسلامية بالولايات المتحدة
  بقلم روم لانـــدو الاستاذ بجامعـــة فرنسيسكـــو
- دور العرب فى تطور العلوم الطبيعية
  للدكتور البير ديتريش
- الازدواجيات وتعدد اللهجات واللغات
  للاستاذ محمد السرغيني

لغة القرآن وذكرى نزول القرآن

للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله
الاستاذ بدار الحديث الحسنية
(جامعة القرويين)
الامين العام للمكتب الدائم للتعريب

احتفل العالم العربي والاسلامي هذه السنة بالذكرى المئوية الرابعة عشرة لنزول دستور الاسلام : القرءان الكريم .

وكانت مناسبة رائعة جدد فيها العالم الاسلامي تعلقه بدينه الحنيف ، وتمسكه بعروته الوثقى وتضامنه من اجل اعلاء كلمة الله .

فقد عرفت بيوتات الله كما عرفت الكليات والجامعات والمؤسسات الاسلامية تجمعات كبرى حيى فيها المسلمون المسيرة الانسانية الكبرى التي يقودها القرءان فى هذا العالم منذ اربعة عشر قرنا ويستنيرون من مشعلها الوضاء بايمان وقوة وعزم .

ولم تقتصر هذه الذكرى على المهرجانات بل صدرت عن الهيئات والاحزاب والمؤسسات فى انحاء آسيا وافريقيا واوربا والشرق وامريكا منشورات ودراسات تؤكد للعالم ان الاسلام قوة ، وان اكبر قوة تربط المسلمين فى شرق الارض وغربها هي اعتصامهم بالقرءان .

وصادفت هذه الذكرى الخالدة ذكرى ماجدة أخرى تعزز فى تواكب له مغزاه الرائع بدء انبثاق نور القرءان الكريم ، وهذه الذكرى هي موافقة موعد الحج هذه السنة لميقاته فى حجة الوادع التي كانت آخر حجة للرسول عليه السلام ، ونزلت فيها آخر آية من القرءان الكريم : (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ..) نعم وافق اليوم الثامن من شهر مارس 1968 تاريخ حجة الوداع (السنة الحادية عشرة للهجرة) وهو ثامن مارس 631م.

فكان من حسن حظ العالم الاسلامي انه احتفل فى هذه السنة الحاسمة فى تاريخ الاسلام بذكريين وقف خلالهما وقفة تأمل وامل لاستخلاص العبر وجمع العدة لتحول جذري فى وجهة حضارة الاسلام .

وقد بادر المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي تخليدا للذكريين بتنظيم استفتاء علمي على مستوى عالمي حول علاقة الاسلام باللغة العربية ، وزعه على آلاف العلماء والباحثين والادباء ومراكز الاستعراب والاستشراق فى أوربا وآسيا وامريكا .

وقد توصل المكتب بجملة وافرة من الاجوبة ذات القيمة العلمية البليغة نشرنا نماذج منها فى هذا العدد من مجلة « اللسان العربي » ونوالي نشر نماذج اخرى فى عدد لاحق .

واروع ما امتازت به هذه الذكرى بادرة سامية قام بها **صاحب الجلالة ملك المغرب المعظم الحسن الثاني ايده الله** فخصص سنة بكاملها للاحتفال بموسم خالد يشرف الانسانية فى هذه الفترة ان تعيش فى هالة انواره . فقد اصدر حفظه الله الامر **لوزارة الاوقاف**

والشـؤون الاسلاميـة المغربيـة بدعوة ثلة من علماء الشريعة واقطاب الفكر من الخليج الى المحيط لالقـاء محاضرات والاسهام فى ندوات وتجمعات ترصص وحدة الفكر الاسلامي وتستخلص دروس نهضتنا الجديـدة من دستور القرءان وانبثقت بوادر أخرى **عـن سمـو امير دولة الكويت ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الكويتية** التي قررت احياء التراث الاسلامي ونشر كل ما يتعلق بعلوم القرءان مما تحويـه خزائن العالـم من مخطوطات نادرة ، وحفلت الصحافة والاذاعة والتلفزة بالبحوث والدراسـات الاسلاميـة كللـت فى المغـرب (**بالمصحف الحسني**) الذي كان تحفة فنية رائعـة وزعت على مختلف الهيئـات الدينيـة والجامعـات والكليات والجوامع فى الشرق والغرب كعنوان للرباط الوثيق الذي يصل المسلمين فى جميع انحاء العالم .

ولم يفت **وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة المغربيـة** ان تشارك مشاركة فعالـة فى احياء هـذه الذكرى وابراز معالمها الوضاءة فى طابـع مقـدس ، فاشرفت على ندوات علمية خاصـة نوقشـت فيهـا اوضاع العالم الاسلامي الحاضرة ومكانة الدراسـات الاسلامية فى مختلف الجامعات ومراكز الاستشراق ، كما تشكلت لجان علمية لاعادة تنظيم مناهج التعليـم الديني والقرءاني فى المدارس والمعاهد ووضع معاجـم قرءانية واعداد موسوعة عن علوم القرءان وتطور لغة القرءان معززة بدراسات موازية لمصادر السنة وشروح مواتية لتطورات العصر على ضوء هدى القرءان ، وكان **جامع الازهر** الشريف بالقاهرة كنظيريه **جامع القرويين** بفاس **وجامع الزيتونة** بتونس مسرحا لاشعاعـات ربطت الحاضر بالماضي وانارت سبل الهدى مستنيرة بهدي القرءان .

عبقرية الفكر العربي وشموله يحدوان إلى خط نهج جديد في تدوين تاريخ الأدب العربي

للأستاذ بهجة الأثري
عضو المجمع العلمي العربي – بغداد

لما بدأ (العرب) التدوين فى القرن الاول للهجرة، جروا فيما دونوا من شيء مع الفطرة بعيدين من التكلف والتعمل والتعقيد ، وعنوا فى كتابة ادبهم باثبات الرواية – وهي مصدره الاول الاصيل – فى امانة بالغة .. تزمتوا فيها تزمتا شديدا ، التزاما للصدق ، وتقديرا لما فى أعناقهم من هذه الامانة وما يجب عليهم من أدائها سالمة الى الاجيال .

ذلك شأن تفردوا به بين الامم قاطبة ، ولم يرو لنا التاريخ ضريبا لهم فيه .

وتحت سلطان هذه النزعة الامينة الصادقة المتثبتة ، على نفوسهم واقلامهم ، حرروا نصوص الروايات والآثار ، معارضة وضبطا وتفسيرا ؛ ثم حفلوا بأخبار من صدرت عنهم هذه النصوص والآثار، من شعراء وأدباء ، فدونوها فى ايجاز تارة واطناب تارة ، ونقصوا السير ، واحصوا ما انتج فى كل فن من فنون الادب وكل لون من الوان الثقافات .. سالكين فى ذلك مسالك مختلفة وان تقاربت فى الغايات ، على ما هو مشاهد محس فيما خلفوا من تراث زاخر عظيم على توالي العصور ، وما برح الخلف يتابع السلف على نهجه ، والجيل يقفو اثر الجيل ، ويتوفر على تدوين الآثار القيمة مما يجد من ادب وعلم ، فى ازمانه واقاليمه ، ما دنا منها وما بعد ، على قدر ما يتسع له الذرع ، ويتوافر من مادة التأليف ؛ وما فاتهم حين استبحروا فى الحضارة والعمران ، واتسعت معارفهم ، أن يستجدوا الطريف الممتع الخصب من مذاهب النقد وطرائق الموازنة ، فيلونوا بها التأليف بألوان جديدة .. تكسبه القوة ، وتخلع عليه غلائل الجدة ومطارف الحسن والرواء .

وهكذا كان تدوينهم نتاج الافكار والعقول والضمائر ، تدوينا طبيعيا حرا ، طليقا من القيود الثقال ، تسجيلا ووصفا واحصاء ونقدا وموازنة، لم يخرجوا به فى معظم أحواله عن الفطرة والطبع ، ولم يفلسفوه ، ولم يربطوا تاريخه بالاحداث ، وانما تركوا لمن شاء أن يفهم مما يقع له من آثاره ما يشاء ، وأن يستنبط منها ما يستطيعه بالقدر الذي يسمو اليه ادراكه ، أو تحاوله ارادته ، فيقف عندما استنبط راضيا به أو ساخطا عليه ، أو يتجاوزه فيستزيد منه ويسعى وراءه فى الآفاق القاصية من محيطاته وعبيه العميقة أبلغ العمق ، والواسعة سعة ينقلب عنها البصر خاسئا وهو حسير . ذلك بأن امتداد تاريخهم واختلاف تقلباته ، وانبساط رقعة الاوطان التي انتشروا على اديمها ما بين المشرق والمغرب ، وقد تنوعت طبائعها وامزجتها ، وتباينت فيها وجوه المؤثرات ، ثم كثرة ما انتجوا فى الحقب الطوال من ولائد الافكار ، وتعدد صوره ، وتنوع الوانه : كل هذا وغير هذا ، لم يأذن بتدوين ادبهم على غير هذا المنحى الذي ذكرت . وهو اذا اذن به استدعى طاقات قوية قوة خارقة : تعين على تقصي آثاره ، واستحضار

مضامين هذه الآثار ، وما اختلف منها وما تشابه ، وتنسق ذلك كله تنسيقا علميا ، وتدرسه دراسة جماعية ، متأملة مستأنية ، نقاشا وتحقيقا يخلصان بها الى نتائج تصدق على هذا الادب فى جملته وتفصيله ؛ ولم يتوافر شيء من هذا ، ولا أحسبه سيتوافر بعد زمن طويل أيضا ، فليس حدوث مثله بالطلب السهل الميسور . وهذا باب واسع ينفذ منه الى آفاق بعيدة ، وليس يعنيني منه ها هنا غير اللمحة الدالة مما يقال فيه .

ولما كان هذا العصر الحديث ، وحدث الاتصال فيه بأوربة ، وجدت آداب الفرنجة مدونة ومؤرخة بأسلوب مغاير لهذا الاسلوب العربي . وهو فى جملته منطق بنطاق التاريخ السياسي عندهم ، وموصول به ، ومقسوم الى عصور متميزة ، جعلت لكل عصر منها معالم من الاحداث الكبرى تفصل بينها ، ووصل فيها أفق الفكر وانتاجه بأفق السياسة والاجتماع والاقتصاد ، قصدا الى تبين المؤثرات فى الآثار ، وتعرف الظلال والالوان التي تتخالف فيها من عصر الى عصر تبعا لذلك .

ولقد ذهب بريق هذا المذهب فى تدوين تاريخ الادب بأبصار كتاب العرب المحدثين منذ أول الاتصال بأوربا ، وبفرنسا خاصة ، كما يكون الشأن عادة عند الالتقاء بشيء جديد ، فبادروا الى اصطناعه قبل أن يفحصوه ، ويتعمقوا فى درسه ، ويلاحظوا الفرق بين طبيعة أدب أمة واخرى ، ويتدبروا القياس كما ينبغي أن يكون التدبر لقانون ما يراد تطبيقه ، وجروا وراءه سراعا مهطعين ، ينقلون أقلامهم على آثار ما رسمه الاوربيون ، فيما حاكوهم به من كتابة موجزات فى تاريخ الادب العربي ، غالبها تعليمي ، او مفصلات غلبت عليها طبيعة الفهرسة وقلت حظوظها من التقصي والغوص الى الاعماق ، ولم يكتبوا فيه في حقيقة الامر ــ الا بقدر ما يحسو العصفور بمنقاره من نغب من البحر المحيط . وقسموا الادب العربي فيما كتبوا من ذلك وفاقا لهذه الطريقة الاوربية الى عصور تاريخية ؛ اخضعوا جملة انتاج العقل العربي فيها لعوامل السياسة خاصة ، ظانين ــ وظننت ظنهم فى مطلع الشباب ــ ان هذا المذهب يصلح ان يكون فى جملته وتفصيله مذهبا عاما ، ويحسن تطبيقه على الادب العربي وتدوين تاريخه كما يدون التاريخ العام ، تدوينا يجسد أطواره من عصر الى عصر ، ويعطي من الاحكام الجامعة والنتائج المرضية معطيات قيمة تطابق الحقيقة والواقع من أمره !

ولا ريب عندي فى أن هذا المذهب فى حد نفسه ــ بقطع النظر عن امكان الانتفاع بتطبيقه فى كتابة تاريخنا الادبي ، بأبعاده وأغواره وأزمانه ــ هو مذهب موفور الحظ من مسحة التفكير والتنظيم ، وعليه طابع الاصالة المنهجية التي تحدث فى البحث أشياء من جمال التبويب والتنسيق ، وتجمع النظائر والاشباه، وتوضح الاقدار المشتركة بينها توضيحا ما ، لا شك فى غنائه وجدواه عند ارادة ادراك علاقة الآثار بالمؤثرات ، فيما يمكن حصره والسيطرة على أبعاده من شيء ، وحين تتسنى الاحاطة التامة بوسائله ، وتتيسر القدرة التي تستطيع الغوص والاستنباط والخلق .

ثم هو مذهب توائم طبيعتهطبيعة الآداب الاوربية عامة ، بوحداتها المتعددة والصغيرة ، وانفصال كل وحدة منها عن الاخرى انفصالا سياسيا وتاريخيا ، وانفصالا لغويا وأدبيا من حيث استقلال كل منها بلغتها الخاصة ، وأدبها الخاص ضمن حدودها الضيقة ، ونحو ذلك من أشياء يسهل معها تشخيص السمات وتبين المميزات .

ولكن هل كان الادب العربي فى مناشئه وطبيعته كذلك ؟ ومتى ؟ وانى ؟ فنخضع تدوين تاريخه العام لهذا المذهب على هذا النحو بحيث نبلغ به النتائج الصحيحة التي تصدق عليه ؟ جواب هذا التساؤل عندي ، ولست أتعجل به من غير تدبر : « لا » مشحونة بكل دلالة نفيها القاطع ، متمثلا فى حرفيها المستعليين الشامخين !

فلا ريب أن الادب العربي يتميز بخاصتين عظيمتين ، باين بهما آداب هذه الوحدات الاوربية وغيرها ايضا ، فامتنع بهذه المباينة ــ فيما أرى ــ اخضاعه اخضاعا تاما لما أخضعت له من قانون دونت به تواريخها الادبية العامة .

اما احداهما ، فتلك هي ما انبسط لهذا الادب من أوطان ترامت ما بين بلاد الفال فى الغرب وتخوم الصين فى الشرق ، وبين حواشي البسفور شمالا واليمن وحضرموت جنوبا ، وما حظي به من مشاركة عبقريات من مختلف الشعوب فى بنائه ؛ وما استوى بذلك لآفاقه من أبعاد وأغوار ، وما زخر فيه من آثار متنوعة اذا استطاع الاحصاء لشيء ما ان يحيط بأفراده حصرا ، فلن يبلغ من آثاره مدى يحصرها فى حدوده ، ويعطيها صورة عامة صادقة .

واما الاخرى ، فتلك هي طبيعته الخاصة ، ومناشئه ، وينابيعه التي تشق مجاريها الدافقة طرقها فيه الى « لا نهايتها » ، وترفده دائما بما يمنحه استقلال الشخصية وحماية وجودها بالصمود امام الاعاصير ، بل القدرة على التأثير فى مجاري أحداث الحياة نفسها ، فيفرض عليها سلطانه كما سنرى فيما يأتي من حديث .

ونحن اذا تدبرنا هذا كله بازاء هذا الاسلوب الاوربي فى تدوين تاريخ الادب مقسما الى عصور سياسية .. اتضحت لنا صورة الصعوبة فى تطبيقه على ادبنا ان لم نقل بتعذر تطبيقه عليه ، وبدت لنا هذه المعالم الفاصلة بين ادب عصر وآخر ، فى ضعفها ، اشبه بالحدود والحواجز التي اقامتها دول الاستعمار فى الوطن العربي ، واتخذت منها « مناطق نفوذ » لها، تتحكم فى مواردها ومصادرها ومصايرها على نحو ما تشاء . ولكن هذه الحدود والحواجز ، كانت امام مور الامة العربية اضعف من ان تثبت له او تحول دون الاماني القومية ان تتلاقى على هدى من امرها العظيم .

كذلك كان شان هذه التقاسيم السياسية في تحديد طبيعة الادب العربي ، فانها حين فرضت عليه، عجزت ــ من هذا المنطلق المقيد ــ عن الوفاء بتمثيل الصور الصحيحة لابعاده واغواره فى مختلف بيئاته وعهود تاريخه .

ونحن حين نمضي فى ملاحظة الاحداث السياسية والاجتماعية على وجه الزمن كله ، نجدها تجري ابدا متلاحقة ومتلازمة بالضرورة تلازم اجزاء الزمن الذي تحدث فيه ، كل حادث منها ينشأ وهو منفعل باسباب وعلل تتقدمه متصلة بحادث سابق ، فما يكون فى يومنا من حادث جديد ، فلأحداث الامس الدابر اثر فى حدوثه ، وله بها اتصال وثيق مباشر ؛ وان بدا للنظرة القاصرة قائما بنفسه ، وما يكون من احداث فى غد آت انما هو مرتبط باحداث يومنا كذلك ، وهكذا الشان كله فى احداث الحياة ؛ تدور فى هذه الحلقة المفرغة دوران الافلاك فى مساراتها .

ثم نمضي فى ملاحظة تولد الافكار ؛ فنجد الفكر الانساني ــ اي فكر كان ومتى واين وكيف ــ لا ينبع من الاذهان ابتداء ، وانما ينبع من أفكار تقدمته وولدته ، وان خرج احيانا مباينا لها في الصورة والشكل ؛ او بدا منفصما عنها فى النزعة والمعنى والغاية . وهو كما يكون مؤثرا فيما يحدث بعده من افكار ، يخضع لعوامل شتى سبق زمن وجودها زمن ظهوره ومنها تولد من بعد وتركب فى صورة من الصور. وعلى هذا النحو تتلاحق أجزاء السلسلة الزمنية متماسكة ، وتتلاحق كذلك الافكار آخذا بعضها برقاب بعض ، وتتتابع ، ويتولد فكر من فكر ، وتنتقل مؤثرات عصر سابق الى عصر لاحق ، فتظهر اثرها في حياته العامة وفى جملة افكاره وآدابه . على هذا قام قانون الوجود ، واطردت سننه منذ ازله ، وسيطرد على ذلك كذلك الى ابده ، فما ثم من شيء فيه الا يولد من شيء سابق له ، ثم ينمو رويدا حتى يبلغ نضجه فى الوقت المقدر له ، فيظهر فيه سويا يحسب الساذج حصاده ابن يومه كما يتوهمه عند ظاهر عيانه ، ولا يكاد يذكر اوائله ومناشئه فى زمن سبق ونبت فيه من بذاره .

ثم ، هذه الاحداث السياسية التي تحدث فى زمن ما ، انما تحدث آثارها الحقيقية فى الحياة عامة ، وفي المعاني الانسانية خاصة ، بله الصور والاشكال ، في اناة وبطء ، فلا يظهر منها ما يظهر الا بعد ريث من الزمن يمضي على لقاحها ، كما يكون من شان المواليد .

وهي ــ بعد ــ احداث متغايرة ، تعتري الحياة ، فتحدث لذلك آثارا متغايرة ، تتشابك فيها المؤثرات ، فيتعذر تبين عناصر كل حدث منها على انفراده ، وتعرف مدى عمله فى خلق تلك الآثار .

واذا كان الامر كله كذلك فى جملة شانه ، ولست احسبه يكون غير ذلك ، فلا جرم يكون مؤدى هذه التقاسيم للعصور السياسية ــ حين نفرضها على الادب العربي ــ اننا ندخل بها عليه فسادا ــ واي فساد ــ ما فى ذلك ريب ، اذ نضيف الى عصر لاحق نتاج عصر سابق حمل فى نفسه كل عوامله ومؤثراته وخصائصه ؛ ونحن ــ الى هذا ــ لا نملك الوسيلة الى تحليل عناصر كل حدث نتخيل له تأثيرا فى الصور والمعاني ، والى تشريحها لادراك عملها فى الآثار الادبية ، وتمثيلها فى شكل ما من الاشكال ، يصف حكما عاما صحيحا يصدق عليها ولا يفيل ، فنجور بالاول على الاشياء ، ونفتئت على الحقائق ، ولا ينتهي بنا الثاني الى فائدة مستخلصة توضح ما نحاول تبينه من السمات الصحيحة من خلال ركام الاحداث .

واذا نحن وسعنا الافق ، ومددنا ابصارنا الى خط ابعد واعمق ، وفحصنا طبيعة تغليب العوامل السياسية فى هذه التقاسيم ، واعطائها صفة السلطان المطلق او شبه المطلق الذي يتحكم فى مصاير الاشياء ،

وتفهمنا مؤدى ذلك .. انتهينا منه الى تصوير هـذا الادب فى معظم حالاته ذنبا وراء السياسـات لاصقـا باعجازها ، او عبدا لها قنا ، مجرورا ابدا بخطمهـا ، ومصرفا بهراواتها ، او محبوسا على الخسف بأجرتها، كما تريد له ، لا كما يريد ، دون أن تكون له فى نفسـه قوة يمتنع بها عن قبول هذه التبعية الذليلة ، أو هوى فى التمرد على توجيهاتها له وسيطرتها على حريته .

وانى يكون ادب ـ تستقيم له حياة وترتقـي به لغة ـ حين يكون هذا شأنه من التبعية الذليلة وفقدان الحرية ؟ وهل عرف الادب العربي الاصيل منطلقا لـه من غير هذه الحرية ؟ وهل تنفس الا من جوانها الطلقة نواسمها الصافية المنعشة للارواح والاكباد ، والباعثة القوة والنشاط فى عروقه ؟

نخلص من هذا الى أننا نجـد انفسنـا من هذا المذهب بازاء قانون خاص ان صلح لكتابة تاريخ عام به لآداب هذه الوحدات الاوربية الصغيرة ، فان التجارب فى تطبيقه فى تدوين تاريخ أدبنا ، قد انتهت بنا ولا ريب الى الاخفاق فى ابراز قسماته الدقيقة ، ورسم صورته الصحيحة ، وتوضيح أصالته وهي تعلو على الخلاف والشبهـات .

فلا مندوحة لنا اذن من اطراحه وتركه الا ما فيه من مسحة التفكير والتنظيم ونحوهما ، ومن التماس قانون آخر غيره ، نكتب به هذا التاريخ كتابة تحقـق صورته الصحيحة على وجه افضل واكمل واصدق .

فما هذا القانون الجديد الذي ادعو الى التماسه؟ ما روحه ؟ وما طبيعته ؟ واين نلتمسه ؟

بديهي أن ادب كل امة تحكمـه قوانين لغتهـا ، وروحها المفرغ فى هذا الادب ، قبل أن تحكمه المؤثرات الخارجية ، وكل ادب اصيل كالادب العربي ـ يستمد وجوده واستمـراره من روح الامة بعيدا عن التقليـد والمحاكاة لاي ادب كان ـ يتميز عادة ، بشخصية قوية، قوامها الوضوح والصدق ، وبلاغها التأثير والابداع .

واللغة العربية ـ وهـي وعاء العقـل العربـي ومبدعاته ـ تتميز بخصائص نشأت فيها من روح الامة العربية وتجاربها خلال الآماد التي اجتازتها من لـدن ولدت مع العرب الى أن بلغـت بهم كمـال نضجهـا ، واستوت فى أروع صورها البلاغية التي مثلت الاعجاز فى القرءان الكريم ، فعلت بذلك على مجرد « التعبيـر عن المقاصد » كما يقال فى تعريف اللغات ، وانتهـت بهذه الخصائص الى تحمل معاني الوجود ومبدعـات العقـول .

ولن يختلف عالمان فى انها **تميـزت مـن هـذه الخصائص اولا بهيآتها وموازينها وقوانين اشتقاقها ، وتميزت ثانيا بكمال مخـارج حروفهـا مهموسـة او مجهورة ، وبروعة موسيقاهـا وحـلاوة نغمها ودقـة جرسها ، وتميزت ثالثا بهذا الفيض الغزير من مادتها وفرط غناها من الالفاظ الموضوعة بازاء مختلف المعاني وادق الفروق** . وهي بكل اولئك تسلس ـ فى طواعية تامة ـ قياد التعبير عن التشكلات التي تعرض للنفس الانسانية فى المنشط والمكره وشتى الاحوال ، وتساوق اغراضها ، وتتلون بألوانها جميعا ، فتلين وتعذب حتى لكأنهـا لا تعرف غير اللين والعذوبـة فى مثل الغـزل والحنين والمواجد والاشواق، وتشتد وتصلب فى مواطن العنف القوة ، فتبدو وكأن الفاظها وجملها قد قبست من لهب النار ، أو قدت من معادن الحديد ... وهي فى هذا وغيره ، تجري دائما على توافق تام مـع روح الموضوع واندماج كامل فى صميمه ، وهكذا **تتشكـل باشكال الاشياء ، وتبرز مع كل حالة موقعة بايقاعهـا وحركة روحها توافقا وانسجاما** كما تتناسق وتتوافق فى الرقـص الايقاعـي لقطـات الرجـل مـع صفـق « الصفاقات » أو نقرات اليد على « الطار » بحساب .

ولست ادري اكان ابن حمديس ـ شاعر صقلية ـ لمح فى راقصته خاصية اللغة العربية هذه فى توافـق ايقاعها ، ام لمح فى اللغة العربية خاصية رقص الراقصة فى توافق لقطات رجلها ونقرات الطار ... حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصـة لقطـت رجلهـا
حساب يـد نقـرت طارهـا ؟

هذه واحـدة .

واخرى ان اللغة العربية ـ الى هذه الخاصيـة الرائعة بكل اوصافها وسماتها ـ تمتاز بشيء اكبـر من هـذا ...

تمتاز بالشحنات النفسية ، وطاقات الحيـاة الناميـة التي تعمل فى باطنها دائما فتغذيها وتقويها ، وتمنحها القدرة البالغة فى التأثير والابداع .

ذلك بما افرغته الامة العربية فيها ، فى آمادهـا الطويلة ، من قوة روحها ، ورهافة حسهـا ، ووقـدة شعورها ، وحركة خيالها ، وعمق تصورها ، وسعـة حريتها المكتسبة من طبيعة الصحراء ولانهاية الفضاء ، وما الى ذلك وغيره من اخلاق ومعان وتجارب ، ومن **مثل انسانية رفيعة ونبيلة افرغها كتـاب الدعـوة الاسلامية المعجز ، وادب النبوة الحي ـ وهما المثلان**

الاعليان لادب العرب ـ في جملة الفاظها وتراكيبها ، ومعانيها ، ومدلولاتها ، فكانت منها كالجبلة (Protoplasm) في خلايا الاجسام العضوية من نبات وحيوان .

هذه ثانية . واستطيع ان اقول في جزم ووثوق انها **القانون الحي** الذي يحكم هذه اللغة العظيمة ، ويعمل في ضميرها دائما ، ويجدد في شرايينها وعروقها دمها الحار ما اختلف عليها الجديدان ، وما التزم اهلها قوانين الحياة والبقاء وادركوا مدى ارتباط حياتهم بحياة لغتهم . وهو قانون كما قلت قد ابدعه روح الامة ، ومنه اشتق ، ومن معطياته ـ وهي باب من البحث يستغرق الاعمار ويستنفذها قبل ان تبلغ تمثله او تلم به ـ هذا الادب الحي ما تجدد على تقلب الشمس طلوعا ومغيبا ، وهذه العلوم اللسانية وغيرها من علوم اسلامية واخرى دخيلة صيغت بهذه اللغة ، مما تعاونت الامم التي دانت بالاسلام على مشاركة العرب مشاركة صادقة اصيلة في انتاجه وابداعه على امتداد الوطن الاسلامي الكبير ، وفي مختلف الازمنة ، وتمثلت فيه عبقرياتها في اروع الصور .

ومن فعل هذا القانون في **حياة اللغة العربية وامتدادها الى ما وراء وطنها الاول** .. انها قد اصبحت على وجه الزمان **مناط احترام الامم التي دانت بالاسلام** ، لانها لسان الدين ، فتبنوها اعظم تبن لشيء عرف في التاريخ ـ وهي امم ذوات لغات واديان وعقائد شتى ـ منذ احسن العرب لقاءهم ايام تحملوا وحي السماء الى الابيض والاحمر والاسود على اديم المعمورة ، من غير تمييز عنصري من هذا التمييز الذي تمارسه السياسة الامريكية في هذا العصر ، عصر الذرة والفضاء ، وبلغوهم رسالته فاحسنوا التبليغ ، وهدوهم بمثلها ، وربما كان هؤلاء يحسون في اعماقهم هذه المثل مبهمة ، فلا يكادون يتصورونها ، او يطلبون التعبير عنها فلا يجدونه ،**فعبرت لهم عنها هذه اللغة العربية تعبيرا وجدوا فيه زاد الارواح ، وري الاكباد ، وغذاء العقول** ، واحسوا اعمق الاحساس انهم اعطوا منها جزيلا جليلا ، فشغفوا به حبا ، وتعلقوا باللغة التي اقلت اليهم امانته ، فاطرحوا اديانهم وعقائدهم لدين الله ، **وتركوا لغاتهم (او كادوا) للغة العرب** ، ووجدوا لها في مذاقهم حلاوة ، وفي اسماعهم جرسا ، لا عهد لهم بمثلها في لغاتهم ، فاقبلوا عليها اقبالا منقطع النظير ، وقد اشتهر فيه كيف **انجذب شباب اسبانيا اليها** ، فتعلقوا بها تعلق الحب بل الهيام ، حتى رفع الآباء الذين لم ترتفع عن بصائرهم الغشاوات عقائرهم بالشكوى من هجر ابنائهم لغتهم اليها ، وكيف **سارعت امم في الشرق والغرب لتدارسها** ، وكيف تمثلها اصحاب العبقريات خاصة فملكوا من ناصيتها ما كان يمتلكه اهلها الاصلاء منها ، وتناغوا بها ،**وابدعوا فيها روائع الآثار في الشعر والنثر والفلسفة والحكمة** ، وفي كل علم اصلوه وفن مارسوه . وقد عاش ما كتبوه بلغة القرءان ، وسيعيش الى ما شاء الله ، **مصادر حية قوية** تثوب الى الانتفاع بها الاجيال بعد الاجيال . ولقد اوحت كثرة هؤلاء **العباقرة من الاعاجم في الاسلام** الى ابن خلدون قولته المشهورة في « المقدمة » : « **اكثر حملة العلم في الاسلام كانوا من الاعاجم** » او كما قال ، ولم يزغ قلمه بها عن جادة الصواب ، وان خاله من غابت عنهم دلالتها جائرا ، ولست اتهم منهم مخاطبا بفهمه حين ادله على ما تشير اليه عبارته بحق من عظمة العرب والعربية ، ومن هذه العظمة انها **تمتص العبقريات من كل امة تتصل بها وتتذوقها لتبدع ابداعها للغة العربية دون لغاتها !!** وما انفك هؤلاء العظماء ـ الى جانب ابداعهم هذا لها على تراخي الايام ـ **يتناغون بها دون لغاتهم** ، وهو امر لا **يعرف نظيره في تاريخ العالم** ، ومن هذا التناغي عبارات عجيبة صدرت عنهم ، وركبت الينا اعناق الدهور ، تصف **عظمة العربية** في نفوسهم ، ولا تغفل تقديس العرب . ومن روائع ذلك قول امام العربية في عصره جار الله محمود الزمخشري التركي وهو يفتتح كتابه (المفصل في النحو) : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وابى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز ، وانضوي الى لفيف الشعوبية وانحاز » .

ولست واجدا في كلام كلمة احر واحلى وازكى من كلمة الفيلسوف الرياضي المؤرخ العظيم احمد بن محمد البيروني، من اهل خوارزم ، وهو يتمطق بحلاوة العربية ويقول : « **والله لان اهجى بالعربية احب الي من ان امدح بالفارسية** » !

ذلك فعل هذا القانون الذي يحكم اللغة العربية، والادب العربي ، في حياتهما وانتشارهما . وقد دل عمله الدائب في باطنهما انه قد ادى وظائفه بقوة ويقظة في مختلف الاحوال : اداها كما ينبغي ان يكون اداء شيء حين كان السلطان السياسي الى العرب ، وكانوا القوامين على الحياة العامة في الوطن الاسلامي كله من مشرقه الى مغربه .

واداها كذلك حين تعرضت الاوطان الاسلامية للحركات الداخلية الهدامة ، وللغزو من شرق ومن

غرب ، فمضى باللغة العربية الى غايتها غير قاعد بها عن عمل فى أدب أو علم أو فكر .

وأداها على هذا النحو وذاك حين انتهى السلطان الى غير العرب ، لعصور طويلة خلت ، امتدت من سقوط بغداد فى يد المغول وزوال الدولة العباسية بذلك فى سنة 656 هـ الى عهدنا هذا الذي ما برح الصراع مشتدا فيه بين الامة العربية والخلف الاستعماري اليهودي فى عنف بالغ الخطورة على امتداد اديم الوطن العربي ما بين المحيط الاطلنطي والخليج العربي .

اقول : ادى هذا القانون وظائفه خير ما يكون الاداء فى هذه الحقبة الطويلة ، كما اداها فى الحقب التي سبقته ، واحسب أن اداءه هذه الوظائف حين صار السلطان الى غير العرب او حين تعرض للشر والغزو والعدوان ، لم يصب بعجز ولم يخامره فتور او ضعف ، لان القوة الدافعة التي تعمل فى باطنه لا تغالب ، ولا تنال منها المؤثرات أو تهزمها ، لانها تقبس اقباسها ودفعها من مصادر نفسية تتقد جذواتها ابدا ولا يخبو لها أوار ، وربما بدت لنا فى هذه العصور ـ اذا لاحظنا الاعاصير التي تناوحت حولها من داخل ومن خارج فثبتت لها راسخة شامخة ـ اشد وقدا ، واعلى سنا وسناء مما كانت عليه فى دهرها القديم ، وشأنها هذا هو شأن النار حين تنكس ، فيرتفع لهبها ، ويشتد وقده وضرامه ، وما أكبر شبهها فى هذا بما شبه به منقذ الامير الشاعر المجاهد قوة عزيمته ، وتأبيه ان يلين للايام التي تحاول أن تنال منه ، حين قال :

كم تفض الايام مني ، وتأبى
همتي ان تنال مني مناها
انا في كفها كجذوة نار
كلما نكست تعالى سناها

وكأنه اياها عنى بهذا ، ولم يعن نفسه ، لان القوة التي كان يستشعرها فى نفسه ويغالب بها عوادي البغاة على الوطن العربي ابان حروب المئتين بين الشرق والغرب هي قبس من روح الامة ، وروح الامة هذا هو روح أدبها الحي الخالد ، أفرغته فيه افراغا ، وامتزجت به ، فاصبحا متلازمين بالضرورة ، لا ينفصم شيء منهما عن شيء .

والصورة التي اريد ابرازها لهذا القانون ، تتوضح معانيها بتعزيزها بالتمثيل لها ، فهي بدونه تبقى صورة غامضة مبهمة ... غير ان هذا التمثيل يستغرق كتابا ضخما ، وموقفنا يستدعي الاقتضاب والاستقطاب ، لو امكن ان تستقطب سبع مائة سنة فى دقائق .

ومع هذا فانني مضطر ان اقول فى هذا شيئا ، وسأقف عند هذه السبع مائة عام التي هي العصر الوسيط كله وقفة قصيرة لا معدى لي عنها .

وننظر الان كيف صورت اقلام المؤرخين ادبه الذي اجرت عليه هذا القانون الاوربي عند كتابة تاريخه ؟

الصورة السياسية العامة لهذا العصر والاحداث العظمى التي حدثت فيه وتناوشته من شرق وغرب ، كانت هي الاطار الذي وضع الادب العربي فى داخله .

وهي صورة ـ كما نعلم جميعا ـ تتوثب فيها اشباح ذئاب بشرية يقال لها مغول وتتار ، انثالت على الوطن الاسلامي والعربي من أواسط آسيا شرهة نهمة تتحرق من جهل وخرق وغباء ظمأ الى الدم والتخريب والتدمير ، واشباح ذئاب بشرية اخرى يقال لهم الاوربيون ، تتفصد عروقهم عصبية ، وتتنزى نفوسهم حقدا وطيشا ، بعضهم يغزون الوطن من اطرافه كما كان من الاسبان فى الاندلس فيطاردون اهله ، ويقتلونهم ، ويفرضون على من استبقوا منهم الردة عن دينهم أو الجلاء ، وآخرون منهم يغزون قلبه ويقيمون على ثراه سوق القتال قرنا بعد قرن ، وهم ينثالون عليه موجة اثر موجة من البر ومن البحر ، ليجروا دماء اهليه على ثراه انهارا ، وليبيدوهم ويرثوا ديارهم .

سيطرت اخيلة هذه الصورة الراعبة على اذهان المؤرخين الذين ارخوا الادب العربي ، فذهلوا عن سواها ، ولم يكادوا يبصرون الا سوادها القاتم وظلال اشباحها على الحياة .

وكان أول شيء فعلوه أن سموا هذا العصر الوسيط كله ـ وفيه اجزاء مهمة اختلفت صورتها عن هذه الصورة ـ « العصر المظلم » . وهي تسمية احسبهم نقلوها الى تاريخنا عن المؤرخين الاوربيين الذين اطلقوا تعبير (Dark ages) على فترة من تاريخ اوربا بين انهيار الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادي وبداية عهد الرينسانس (Renaissance) فى القرن الخامس عشر . ولكن هذا العصر ـ فى آماده الطويلة التي تخالفت احداثها واحوالها وصورها السياسية ـ لم يكن كله ظلاما كما تخيلوه ، وتحدثوا عن دوله المتتابعة ـ وهي دول تركية فى الغالب ـ

حديثا مجملا متشابها او يكاد يكون متشابها ، ولم يحاولوا أن يميزوا بين صفاتها ، ويتبينوا مواقف الملوك والسلاطين من العرب والاسلام واللغة العربية ومن العلوم النقلية والعقلية والدخيلة .

وعرضوا للادب فى الوطن العربي ، دون الاوطان الاسلامية التي لم تتخل عن الاسلام وعن لغته ، بل خصوا بحديثهم اجزاء منه ، واغفلوا اجزاء اخرى مهمة كانت مباءات له غنية كل الغنى بثرائها منه ، وكانت النفوس فيها ريا من العربية .

فماذا نشأ عن هذا ، وما الاحكام التي انتهوا الى استنتاجها ووسموا بها ادب هذا العصر ؟

نشأ عن هذا اخطاء جمة خطيرة ، من اوضحها هذه الصفات المتشابهة المتماثلة التي اجروها عليه ، ما عرفوه منه وما لم يعرفوه ، وهذا الطابع الباهت الذي طبعوه به وهو يصف ركوده وركود اللغة ركود الموت ، ويغفل الاشارة الى قوته ومصادر هذه القوة اغفالا يكاد يكون تاما .

وجملة الصورة التي رسموها له اراها تمثل صورة انسان خديج ذميم مشوه ، جامد النظرات ، منطمس القسمات ، متغضن الاسرة ، منكمش متقبض كاحدب (نوتردام) او احدب (بغداد) ، عنيت الاحدب الذي ادى صورته الينا شاعر التصوير الابتداعي ابو الحسن بن الرومي فى بيتيه المشهورين :

قصرت اخادعه وطال قذاله
فكأنه متربص ان يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة
واحس ثانية لها فتجمعا

وهو الى ذلك قابع فى سرداب بارد رطب مظلم ، لا يلتمع فيه من بارق الا مثل ما يكون فى الفترات من نار الحباحب تحت الحندس البهيم .

ذلك ما يرسمه هذا القانون الاوربي الذي ارتضاه مؤرخونا المحدثون من صورة لادب هذا العصر وحياة اللغة العربية فيه كما اتخيلها كلما اقرا ما كتبوه في ايجازه أو تفصيله .

فهل هو كذلك حقا وصدقا ؟

القانون النفسي الحي الذي يحكم اللغة العربية ويقوم الادب العربي به كما اسلفت ، تنفي اجابته عن هذا التساؤل صدق هذه الصورة القاتمة على ادب العصر الوسيط وحياة اللغة العربية فيه ، وتكاد ترسم له صورة اخرى مغايرة لهذه الصورة فى كثير من قسماتها واوصافها ، ولا اقول : فى كل قسماتها واوصافها .

وهي تتسق ، ويتهيأ لها الاستقرار فى نصابها التام كلما تناولت هذه الاجابة التاريخ من مختلف جوانبه ، وجرت وراءه تتقصى كليات حوادثه وجزئياتها ، والتمست الرغبات فى الطبائع والميول فتدارستها ، وفاءت الى القوانين النفسية التي تعمل عملها الدائب فى روح الامة وعقلها ولغتها وادبها جميعا، فجعلتها المحور والاساس لكل ذلك .

وحسبي الان ، وقد طال بي نفس الكلام ، ان ادل على هذا فى هذا الموقف .

اما تفاصيل ملامح هذه الصورة التي ستتناولها هذه الاجابة ، وهي تقتضينا متسعا من الوقت لا نملكه فى هذه اللحظات ، فأدعها الى وقت آخر ، واكل امر ما قدمت الى العلماء النقاد .

اللغة والمجتمع الانساني

للأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح
من علماء الازهر ـ القاهرة ـ

اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة بني الانسان ، لان الله خلق هذا النوع اضعف قوة ، من كثير من أنواع الحيوانات الاخرى ، التي تعيش معه على الارض ، ولكن الله عوض الانسان عن قوة الجسم والسلاح ، قوة العقل ، ومنحه الاستعداد للكلام والتفاهم . فدعا بعض افراد الانسان بعضا للتفاهم والتعاون على اتقاء عادية الحيوان ، وعلى جلب المنافع، وتحصيل المرافق ، واضطره ذلك الى سكنى المدن ، وانشاء المجتمعات ، ولذلك قال فلاسفة الاجتماع « الانسان مدني بطبعه » اي انه مضطر الى سكنى المدن ، ليتم فيها تعاونه وقدرته على استغلال ما اعد له في هذه الدنيا من مقومات حياته .

وكانت اللغة هي الاداة التي تكشف لبعض الافراد عما في نفوس الآخرين . وقد كان التفاهم الانساني أول الامر ، بالاشارات التي لايزال بعضها في لغة الجماعات البدائية ، والتي تظهر في الطفل قبل ان يتعلم الكلام ، ثم حصل التفاهم بالاصوات التي تألفت منها الكلمات في اللغات المختلفة (1)

فاللغات اصلا اصوات ، وليست كلمات ، فان الكلمة صوت يرمز الى معنى ، وكتابة الكلمة رسم يرمز الى هذا الصوت ، والصوت هو الاصل .

والصوت يصنعه الهواء ، يخرج من رئة الانسان، وتقوم الحنجرة ، ويقوم اللسان ، ويقوم الفم ، وحتى الانف ، باعطائه شكلا خاصا ، هو الكلمة المسموعة .

واللغة فعله من لغوت اي تكلمت . واصلها لغة ككرة ، وقلة ، وثبة . كلها لاماتها واوات ، لقولهم كروت بالكرة ، وقلوت بالقلة ، ولان ثبة كانها من مقلوب ثاب يثوب .

وقالوا فيها : لغات ، ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها لغي يلغى اذا هذى قال :

ورب أسراب حجيج كظم
عن اللغا ورفث التكلم

وكذلك اللغو قال الله سبحانه وتعالى : « واذا مروا باللغو مروا كراما » اي بالباطل ، وفي الحديث « من قال في الجمعة صه فقد لغا » اي تكلم (2)

وقد يصعب على الباحث ، معرفة متى واين وكيف بدات اللغة . الا أننا لا نعدو الصواب ، اذا قلنا : انها بدات عندما تكونت أول جماعة انسانية في هذا الوجود، ولا نعدو الصواب ايضا ، اذا قلنا : ان الجماعة الانسانية الاولى ـ أيا كان طابعها ـ عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة ، الناتجة عن علاقات الافراد بعضهم ببعض ، والناتجة عن علاقة الانسان بالبيئة والطبيعة . وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها ، تولد النشاط الانساني في استخدام الصوت ، لتكوين الفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الاصوات ، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الاذن . تجسد هذا النشاط الانساني

المتميز عن كائنات الطبيعة الاخرى ، فى صيحات موسيقية ، تومي بممان سحرية ، تختلف فى دلالتها باختلاف موسيقاها .

بذلك تكون العنصر الاساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده ، فاللغة بظهورها ـ كمرحلة عليا فى مجريات التطور ـ خارجة خروجا تلقائيا من صور سبقتها للنشاط الحيواني كان رد فعلها الحتمي، هو تحويل تلك الصور والضروب التي كان السلوك الجماعي يجيء على غرارها ، يضيف بعدا جديدا الى ابعاد الخبرة الانسانية ، ما نطلق عليه انسانية الوجود ، فالتعبير الرمزي عن الاشياء يحولها من اشياء قائمة بذاتها ، منفصلة عن الوجود الانساني ، الى جزء من هذا الوجود ، فمثلا تسمية الساق الخشبية المنبثقة من الارض والمنتهية بافرع ووريقات خضراء بلفظ « شجرة » هو بمثابة اذابتها فى الوجود الانساني تقع تحت سيطرته وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء ـ اي اطلاق لفظ لغوي عليه ـ هو الخطوة الاولى للسيطرة على وجوده ومزجه بالوجود الانساني بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن هذا الوجود ، والقوة فى التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوي ، تكمن فى انبثاق مواضيع من هذا الرمز ، لا تمت للشيء المرموز به أصلا بصلة مباشرة ، وان كان هذا لا يتم الا بعد عدة مراحل من التطور اللغوي ،ومن هنا يتبين الفرق الاساسي بين التعبير الرمزي عن الاشياء والافعال برسمها والتعبير الحركي ـ الرقص ـ الذي من الصعب ان يتولد عنه شيء آخر ، بخلاف اللفظ اللغوي الذي يملك تلك الامكانية .

وليست على هذا الاساس ، البيئة التي يحيا فيها الانسان ، يعمل ويبحث مادية فقط . بل ثقافية كذلك ، فأفعال الانسان وكيفية ادائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والانسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث فى التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والاهداف والمعتقدات التي تحملها الالفاظ اللغوية ، فى طيها وتوحي بها .

والمشكلات التي تبعث على التقصي والبحث انما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولا تقتصر الاعضاء التي تختص بهذه العلاقات ، على العين والاذن واللسان ، بل من أدواتها كذلك ، تلك المعاني المتطورة على مر الحياة ، مضافا اليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة ـ اذن ـ في مركب العناصر التي يتألف منها المحيط الثقافي للانسان ، مكانا ذا دلالة خاصة ، وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة أيضا فهي فى حد ذاتها نظام ثقافي ، وهي :

أ ـ الاداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك النظم الاخرى والعادات المكتسبة .

ب ـ والالفاظ التي تتغلغل خلال الصور ومضموناتها فى آن واحد معا ، أعني الانظمة الثقافية الاخرى ومضموناتها .

ج ـ وتتميز بتركيب خاص بها له قابلية التجرد باعتبار اللغة « صورة » من الصور ، ولهذا التركيب ـ اذا ما تجرد فى صوره ـ تأثير حاسم من الوجهة التاريخية .

واللغة التي جاءت على هذا الوضع ، هي اللغة باوسع ما اريد لها من معنى ، فاللغة بهذا المعنى المتوسع ، هي الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى ، وعن طريقها تنتقل ، وهي ذلك التدوين الذي يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها فى متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهة اخرى ، فان الافكار أو المعاني لا وجود لها الا فى رموز يستحيل فهمها دون الرجوع اليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز ، نوعا من البقاء الضروري لوجود الاشياء المرموز اليها ، بعد ان كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي عنها (3) .

ومن هذا يتبين ان علاقات العالم الداخلي النفساني والعالم الخارجي ، تتجسم فى التعابير المختلفة ، توجد بوجودها ، وتنعدم بانعدامها ، انها شرط وعلة لها ، وبما ان الموضوع والذات ، اي المفعول والفاعل ، يلتقيان فى الشعور الفردي ليتحققا ، كان لزاما على الدراسات النفسانية أن تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير واصنافه .

فاللغة فن تقني (لان لها نماذج وقواعد متفقا عليها) ولكن حقيقتها تندمج فى حقيقة تاريخية ، التاريخ الفكري والنفساني والصناعي والجغرافي للامة أو للامم المتكلمة بهذه اللغة ، ونقصد هنا بالتاريخ الماضي طبعا ، ولكنه ماض يسترسل من الحاضر مع التأكيد بأن الحاضر لاينحصر فى الحال ، بل هو ما يعبر عنه النحويون « بالمضارع » اي الحال والمستقبل ، لان ما يقوم به الانسان فى الحاضر انما هو انجاز لما يريد ان يكون عليه ما بعد الحاضر ، فالمستقبل ليس مرادفا للبعيد كما ان الحاضر ليس منحصرا فيما قد حضر فحاضر ليس وصفا لحالة ، بل اسم فاعل ، اي انه الزمن الذي يقع فيه فعل فعليا .

فالحاضر يختلف عن الماضي ، لان الماضي قد انتهى كحركة مباشرة ، ولم يبق الا في اشارة أو في ذاكرة . ويخالف ايضا المستقبل لان المستقبل يصوب اتجاهه نحو الامام ويتقمص الآمال .

فالمتكلم يغير اللغة ولكنه يخضع لاسسها ومصطلحاتها ، كي يفهم ، فالكلام اداة للتفاهم ، لا غاية في ذاته . ان المتكلم يرمي من وراء الكلام أن يفهم المستمع انه يريد تواصلا .

لكن خلافا ، لما يمكن ان نظنه ان الانسان الاول ، لم يتكلم ليعبر عن مفاهيم وافكار ، ولم يتكلم لانه كان له شيء يجب ان يقال ، بل العكس ، لقد فهم وفكر وافهم لانه تحدث ، حيث ان ما راج في خاطره قبل أن يتكلم لم يكن مكيفا في شكل أولي يرمي الى قصد ، وانى له ان يقصد الافهام قبل أن يحصل عنده فهم هو نفسه ؟

ان التفكير واللغة وجهان لواقع واحد . ان الجد الاول للانسانية لم يعبر عما فكر فيه لانه كان يفكر ، بل فكر لانه تكلم ، وهو لم يتحدث الا بعد أن انتهى من الحركة ، فللافعال ــ اي ما يقابل الاسماء ــ الاسبقية والمكان الاول ، والافعال آخر ما يضيع من الذاكرة . ان اللعب وهو عمل جماعي من أول الحركات التي يقوم بها الطفل ، فكل لعب في الحقيقة ، ملاعبة ، واداة اللعب بالنسبة للصبي غالبا ما تكون هو من يلعب معه من اقرانه ، أو من الكبار ، فالاتصال الاول بين الصبي وعالم الاحياء ، هو الثدي ، وعند النظام نلهيه بثدي لا لبن له ، أو باشياء جامدة تشبه الثدي ، فاللعب عالم مصطنع بين الواقع واللاواقع ، اي حركات رامزة يتعدى الرمز عند الطفل دور الوساطة ويصبح غاية في ذاته ، نعني أن الرمز يتركز في الشعور كأنه هو الواقع ، ويصير الواقع شيئا اجنبيا (4) .

وان اول اداة للتعبير اخترعها الانسان ، هي الآلة مثل الحجرة والعصا وهذه الادوات ان هي الا افعال مجسمة ، فالمعول شيء مشترك بين الانسان والحيوان .

يقلع (الشامبانزي) غصنا من الشجرة ، ليستعمله كما يستعمل الانسان العصا . لكن الفرق هنا ، هو ان القرد يستعمل آلته في الحالة الحاضرة ، في حين أن الانسان يخلق بينه وبين الآلة صلات يملكها فيقول : هي لي ، هي لك ، هي لنا ، فيذخرها ثم ينقحها ويطورها ، ومن هنا يكسبها معاني جديدة ، وكرد فعل لذلك ، تكسبه هي بدورها كلمات جديدة (افعالا واسماء) فهناك اذن : (دياليكتيك) للتطور الانساني في علاقاته بالادوات ، يؤثر بها ثم فيها ، وهي بدورها تؤثر فيه . فالانسان يتطور بقدر ما تتطور ادوات العمل .

فالانسان يمتاز عن الحيوان في علاقاته بالآلات في كونه يستعملها ، وقد استعملها امس ، ويستعملها الآن ، ويحتفظ بها لما بعد .

وبمجرد ما أصبحت الآلة مصاحبة للانسان اي متصلة بالتاريخ تكونت حولها عادات جماعية : نعني اعرافا تقنية تتوارثها الاجيال (صنع الآلة وكيفية استعمالها واصلاحها) والاستعمال مجموعة عمليات تنشأ عنها نتائج يرجوها العامل لفائدة مباشرة او للمبادلة ، اي الآلة اول واسطة بين الانسان والعالم ، بين الانسان والمجتمع . فاللغة لا تنتعش الا في البيئات الغنية بالآلات ، بالاشياء المصنوعة والمكتشفة ، لان كل لغة انما هي ادوات حضارية ، ان الجد الاول للانسان قد استعمل العصا في الصيد ، وقلد صوت الحيوان ، ثم تلفظ بمسميات للعصا وللصيد ، وللصوت وللطير ، فالحياة تدور حول اشباع الحاجيات ، وهذا الاشباع يدفع الى العمل ، والعمل يدفع الى اكتشاف الآلات أو الى صنعها ثم ترقيتها .

هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول اعمال مشتركة ، فتتجلى مختلف التعابير من علامات واشارات ولغات ورموز .

من هذا التحليل نصل الى اصل المعرفة ، واصل الاحداث التاريخية ، واصل المجتمع الانساني ، وبالتالي هنا يبدأ التفكير الفلسفي .

ان الفلسفة بطبيعة وظيفتها ، تشتغل بمعرفة الانسان والعالم وعلاقاتهما ، فهي تبحث فيهما ، والبحث حديث ، والحديث نقاش كلامي .

والانسان هو الحيوان الذي يتكلم ، اي يصنع العالم بالالفاظ ، فتصبح كل لفظة اما مفتاحا لفهم ، أو اداة مواصلة واتجاه ، واما تحديدا لسلوك فردي ، أو جماعي ، فالكلمات كالاوراق النقدية والاسلحة او الخاتم السحري في يد الانسان ، يكفيه أن ينطق ليحدث شيئا في شعوره ، ورد فعل في شعور الآخرين ، ومن هذا التجاوب الشعوري ، ينتج صدى يحرك الطبيعة الخارجية ، فالكلام خلاق ، ان الكلمة الواحدة تحدث احيانا فسادا ، واحيانا اصلاحا . واذا لم يتسبب عنها شيء محسوس عند المتكلم ، ربما حصل ذلك عند

المستمعين ، او عند متكلم آخر ، مرة اخرى ، فالكلمة كالدرهم الذي يحتفظ بقيمته التداولية سواء انتقل الى بائع والى مشتر ، او لم ينتقل « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة »

فالبحث في الكلمات من حيث تركيبها المادي ، ومدلولاتها المحسوسة ، وآثارها النفسانية ، يلتقي في ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الانسان ، وحول المعرفة . ومن هنا كان التأمل في اللغة فلسفة وعلما ، وبما أن اللغة حركات وعلامات واشارات ورموز اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم اداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة في نفس الوقت ، مادة للبحث واداة له ، اذ انها تأمل ينعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئا خاصا بفرد ، بل ملكا مشتركا ، انه (بين) : بين المرء وشعوره ، بين الشعور كحالات واحساسات ، وبين ابرازها كأحداث ، بين المعنويات والماديات ، بين (الانا) والآخرين ، بين الانسان والعالم .

اللغة هي الواسطة العظمى والصغرى في الغياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير (الانا) ونداء للاخرين ، اي دعوة ودعاء ، فالمرء يعطي كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام امام نفسه وامام المجتمع ويقيد سلوكه ويفرض عليه مسئولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعني ان انسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، الى مستوى العناصر « الانطولوجية » ربما استطعنا ان نقول : الانسان جسم وروح ولغة (5) .

بعد هذه الفذلكة الفلسفية في الكلمة والمفهوم والتعبير ، نعود الى جوانب هامة من اللغة فنقول : اذا اردنا ان نعرف اهداف اللغة المكتوبة والمتكلم بها والتي قال عنها ابن جني في الخصائص ، والجرجاني في التعريفات : انها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم . وجدنا انها :

1 ـ هي اداة التفكير الانساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي ، يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 ـ نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الانسان كوجود مستقل ، ويتجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين :

احدهما الى خارج ذات الانسان يقوم بعملية نقل الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمرحلة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الانسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعي والترابط الانساني ، والتفاهم البشري (6) .

وقد لخص العالم « اولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

1 ـ انها تجعل للمعارف والافكار البشرية ، قيما اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على افكاره وتجاربه .

2 ـ وانها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلا بعد جيل .

3 ـ وانها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 ـ وانها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشري البصير الى ما هو عليه الآن ، بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته ، ولا يتأتى هذا التعاون الفكري ، الا بالتفاهم وتبادل الافكار بين أفراد المجتمع ، والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم الى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الاولية (7) .

فاللغة اهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها ، واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية نجد ان اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمبادىء تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي ، دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع ، انما تقع في كونها من جهة ضربا من السلوك البيولوجي الخصيص بأدق المعاني ، ناشئا تلقائيا من المناشيء العضوية الاولى ، وفي كونها في الوقت نفسه ـ من جهة اخرى ـ تضطر الفرد الواحد من افراد الناس ان يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين ، وان ينظر الى الامور ، وان يجري عليها البحث من زاوية

لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء او اطرافا متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لاشك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الموجه والهدف لنشوء اللغة . ولكن الذي لاشك فيه ايضا ، أنها تهم اول ما تهم شخصا آخر – المستمع – او اشخاصا آخرين ، يوجه اليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (8) .

واذا اردنا ان نعرف اللغة ، تعريفا جامعا مانعا – كما يقول علماء المنطق والاصول – على ضوء تحديد ماهيتها ، فاننا نجد ذلك فى منتهى الصعوبة ، ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مانع ، فسنجد اننا انتهينا الى نص لا يمكن ان يكون تعريفا ابدا ، يقول الدكتور تمام حسان : ان تعدد مظاهر اللغة من صوتية ، الى كتابية ، الى اشارية حركية ، الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك ، لابد ان يفرض على نص التعريف الذي نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا ، اذ يصبح وصفا مسهبا لعدة امور ، كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك ان يلجأ العلماء فى تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (9) .

وقد قال بعض العلماء فى بيان التعريف : ان اللغة وسيلة لايضاح الافكار . وقد رد العالم « تاليران » على ذلك بأن اللغة وسيلة لاخفاء الافكار ، لا لايضاحها. وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعترض على هذا التعريف بان المرء قد يتكلم الى نفسه احيانا ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره ، اذ يكون قد عرفها فعلا ، وادركها ادراكا اعمق مما تستطيع كلماته أن تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد . وصالح لان يكيف بالكيفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا ان نفسر كلام المرء الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال « هنري دولاكروا » : اللغة هي دالة الفكر.

والحقيقة ان اللغة ، فى عمومها ، ذات وظيفة هامة جدا يمكن ان تلخص فى امرين :

1 – امر فردي : هو قضاء حاجة الفرد فى المجتمع.

2 – امر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فاما بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة ، فواضح ان طبيعة التخصيص تبدو فى وظيفة كل فرد ، بحيث لايمكن أن يكون خبازا او نساجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد فى اموره على غيره من أصحاب هذه المهن ، وان يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا من حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة وهو : تهيئة الوضع المناسب ، لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية ، فان اللغة اصل وجذر لكل ما يمكن ان نتصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحساس ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، او دين بلا لغة ، او فكرة بدونها ، او احساس لايترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، او ارادة تقوم بغيرها ، او عمل يتحقق بعيدا عنها .

ان الشركة فى كل اولئك ، هي الحياة الاجتماعية، ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (10) .

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من اهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي نتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هي اللغة .

فمهمة اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تعكسه ، وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها ، وتنسيقها بحيث تصبح مطية للمعاني ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة ، وشارة للواقع .

قال الامام محمد عبده : اللغة مجلى للفكر وترجمان له (11) .

وجاء عن محمد المبارك : ان اللغة سبيلنا الى اكتشاف جواني الامة التي تتكلمها ، واستكناه خصائص روحها التي تكمن وراء برانيها (12) .

ومما هو جدير بالذكر ان انظار العلماء اختلفت ـ فى تعريف جامع مانع للغـــة ـ طبقا للمفاهيم التـــي يدرسونهـــا .

ولذلك نرى فريقا يعرفها على أساس عقلـــي أو نفسي ، ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف ، وهو : ان اللغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الافكار ونقلها من شخص الى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة العالم الامريكي « سابيـــر » . وينظر علماء الفلسفـــة والمنطق الى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الافكار فيقول الاستاذ جفوتز فى كتابـــه « مبـــاديء دروس المنطق » : ان للغة ثلاث وظائف :

1 ـ كونها وسيلة للتوصيل . 2 ـ كونها مساعدا آليا للتفكير . 3 ـ كونها اداة للتسجيل والرجـــوع .

وينظر علماء المجتمع اليها باعتبار وظيفتها فـــي المجتمع ، فيعرفها العالم اللغوي الامريكـــي (ادجـــار ستير تفنت) بانها : نظام من رمـــوز ملفوظة عرفيـــة بوساطتها يتعاون ويتعامل اعضاء المجموعة الاجتماعية المعينـــة .

ومن التامل فى هذه المجموعة من آراء العلمـــاء يتبين أن تعريف علماء النفس والمنطق يهدف الى ناحية واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة فى المجتمع الانسـاني لانها لاتقف عند حد التعبير عن الافكار ، وتوصيلها الى الاذهان كما يقول علماء المنطق لان ذلك يقصر وظيفـــة اللغة على طبقة من الناس هم اهل الفكر ، حال اشتغالهم بامـــور فكريـــة .

ولا يمكن ان يقال ان اللغة اداة لنقل الافكار ، وانما هي وسيلة للتعاون والترابط بين أفراد المجتمع ، فاننا نتبين كثيرا من الناس يتكلمون فى موضوعات ، وليس يعنيهم نقل افكارهم الى غيرهم ، وانما يكون القصـــد من حديثهم الترفيه والتسليـــة ، أو النظر فى امـــور تخصهم فى ادارة شئونهم .

وبذلك يبـــدو أن راي علماء المجتمـــع بتعريفها تعريفا يتناسب مع وظيفتها فى المجتمـــع هو خيـــر ما تعرف به اللغة ، واذا كان ذلك صحيحا فينبغـــي أن تشير الى تعريف الاقدمين للغـــة : وهـــو انها اصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (13) وهـــذا التعريف للجرجاني وابن جني . ومن الملاحظ أن هذا التعريـــف قد تمشى مع وجهة علماء المجتمع تمشيا دقيقـــا لان الاصوات ما هي الا الرموز الصوتية التي تنبـــيء عـــن مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج اليه الانسان فـــي حياته سواء كان احتياجا عـــاديا كشئون الناس فـــي حياتهم المتمشية مع احتياجاتهم فى كـــل أوقاتهم ، أم كان احتياجا ضروريا كاحتياج الباحث للتعبير عـــن الافكار القائمة بنفســه لتوصيلها الى أذهان الدارسين .

وان اللغة ذات أثر قوي فى حياة المجتمع الانسـاني، لانها السبيل لفهم الاشياء المحيطة بالناس ، والطريـــق لارتباط افراد المجتمـــع بعضهم ببعض ، والموصـــل للافكار القائمة بالاذهان ، والمهيئة لرقي الامم فى شتـــى نواحيهـــا (14) .

وقال (جون لوتز) : الوجود البشري ملتحـــم باللغة. فاللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك الناس فى كل لحظة ، وترافق المجتمعات فى أطوارهـــا التاريخية المتلاحقة ، فيصيبها ناموس التغير الحتمي الذي يجعلها اداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمـــز والايحاء ، عـــن حياة المجتمعات العقليـــة والحسية ، ومعيارا دقيقا لرقيها او انحطاطها فى ميدان الثقـــافـــة والعلـــم والحضـــارة .

واللغـــة لذلك لاتعرف التحجر ، وهي قـــدرة على العمل ، قدرة كامنة ، وهي لا تفتأ تتغير شكـــلا ومبنى ، تتغير حروفها واصواتها أو صيغتها وبناؤها أو من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى الـــى آخر ، أو تضيف الى معناها معنى آخر جديـــدا دون ان تتـــرك الاول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقـــوام التـــي تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مرتبطان ، وهمـــا سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل لغة على اخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائـــل المتبعـــة لتنمية اللغات واغناء تراثها التعبيري .

الامة البدائية حتما لغتها بدائية وغير مصقولـــة ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تـــؤدي المعاني الحسية والمجردة ، فهـــي لذلك تقتصـــر على التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نمـــوا ، تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل سمة لفظـــا مناسبـــا .

ان اللغـــة تمنح الانسان بالاضافـــة الى وراثته البيولوجية خطا آخر للاستمرار ، يجعل الثقافـــة ، وتراكم المعرفة ، أمرا ممكنا .

وقد اتاح العلم الحديث للغة ممكنات ووسائـــل متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية فى صورهـــا

النظرية والتطبيقية ، كما اتاح للالفاظ المعنوية المجردة انطلاقات جديدة مالت بها نحو وضوح اكثر ، وتخصيص ادق ، واصبحت الكلمات بفضل تقدم الآداب والفنون غنية بالايحاءات التي تعمقت اغوار النفس البشرية حتى صار عدد من الفاظ اللغة عالما من الاشارات والرموز المعبرة عن ادق المعاني المجردة واعمقها (15) .

وقال الدكتور عثمان امين : وشواهد الماضي وتجارب الحاضر في الشرق والغرب تثبت في وضوح ان اللغة على الاطلاق هي اقوى عوامل الوحدة والتضامن بين اهلها ، حتى لقد ذهب العالم اللغوي (ادوارد سابير) الى ان اللغة هي على الارجح اعظم قوة من القوى التي تجعل الفرد كائنا اجتماعيا ، ومضمون هذا الراي امران : الاول ان اتصال الناس بعضهم ببعض في المجتمع البشري لا يتيسر حصوله بدون اللغة ، والامر الثاني ان وجود لغة مشتركة بين افراد قوم او امة من شأنه ان يكون هو نفسه رمزا ثابتا فريدا للتضامن بين الافراد المتكلمين بها (16) .

وقال الفيلسوف (فشته) : ان اللغة تلازم الفرد في حياته ، وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخص رغباته وخطراته . انها تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين . انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الاذهان (17) .

ولنتعمق في مفهوم اللغة ، فاذا هي اهم واعز ما ملكته النفس البشرية من حيث جريانها في عروق الانسان مجرى الدم ، حتى ان كل تعد حيالها يعتبر تعديا حيال الشخصية الانسانية ، وهناك من الفلاسفة علماء اجلاء حاولوا تفسير اللغة باصطلاحات فلسفية دقيقة .

فمن قائل : انها ليست الا مجموعة اختلقها الفكر البشري ، وامكن تعديلها حسب المباديء الموضوعة من قبل .

وقد بذلت جهود جبارة في سبيل ابداع لغات مصطنعة ، الا انها باءت بالفشل كما شهد بذلك تاريخ الانسانية .

وكثير من علماء اللغة يردون نشأة اللغة وازدهارها الى العواطف الانسانية ، وهذا هو الاقرب الى الصواب ، لان اول مدرسة يربى فيها الطفل هي مدرسة الامومة ، وفيها يرضع الطفل من امه اللغة كما يمتص خصائصها الذاتية تماما بتمام .

ويمتاز لسان الانسان بقدرته على التعبير عن الاحاسيس والمشاعر تعبيرا ذا قوة ودلالة .

والفكر الانساني له الاهمية العظيمة في سبيل تقدم اللغة ونموها وازدهارها ، فاللغة هي الصق الاشياء بالانسان واعسرها انفكاكا عنه ، وهي الرابطة التي تربط بين الانسان ، ومعاني الحياة والكون والمجتمع .

جاء في الابنيشد (18) : ان لم يكن النطق موجودا لم نهتد سبيلا الى معرفة الحق ولا الباطل ، ولا الصدق ولا الكذب ، ولا الفرح ولا السرور ، والفضل لفهمنا لمعنى هذه المظاهر ، وادراك مفهوم هذه المشاعر ، يرجع الى النطق ، ولذلك حق لنا ان نتبصر في النطق ونتعمق فيه (19) .

وقال العالم الهندي همايون كبير : لعمري ان ذلك — يشير الى النطق — من الآلاء التي خصص الله بها الانسان ، دون سائر خلقه ، من ان يقدر على تحليل الموقف وتفكيكه فاقتباسه منه النتائج الممتعة ثم تطبيقها في ظروف اخرى ملائمة حيث دعت الحاجة الى ذلك . ولا شك ان معظم الفضل في ذلك لعائد الى لسان الانسان . وان التقدم في اللغة يدل على مدى التقدم الذي احرزه المجتمع او افراده . ونخرج من كل هذا الى ان اساس اللغة ينبعث عن التأثيرات العاطفية وتقدمها ورقيها ويرد الى التفسح في الفكر ، وتغلب البشر العلمي على العالم ، الا انها قد تتسامى فتجاوز حدود العواطف والفكر كليهما ، حيث انها تنشيء رباطا يربطهما ، فترتد وسيطا ومحيطا معا ، وهي اذن — لاشك — اوسع نطاقا وافسح مجالا ، فان الكل في مجموعه اوسع واكبر من اجزائه (20) .

فاللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع — اي مجتمع — فوحدة الغايات والمباديء تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء او الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي دوره كرمز مشترك متفق عليه ، من كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

وعلماء اللغات : صنفوا اللغات وبوبوها وحللوها ، فوجدوا بينها اشباها ، استطاعوا بناء عليها ان يصنفوها ثلاثة اصناف على قدر الامكان ، وهي صنوف ليست متميزة ، بعضها عن بعض كل التمييز ، ولا متفاصلة كل التفاصل .

1 ـ الصنف الاول : اللغات العازلة وهي لغات فيها الكلمة الواحدة غير متغيرة لا تشتق منها كلمات . انها اسم ، وفعل ، وصفة ، وظرف فى آن واحد ، واكثر هذه اللغات كلماتها ذات مقطع واحد ، واكثرها عندها للكلمة الواحدة اكثر من صوت واحد ، تنطقها نغمة عالية ، او تنطقها نغمة منخفضة ، او تنطقها متقاصرة ، ولكل من هذه الانغام للكلمة الواحدة معنى بذاته .

وتتعدد الانغام وتختلف ، فاللغة الصينية الكنتونية بها ست نغمات ، وكذا السيامية ، اما لغة (برما) فلها نغمتان .

ومن اللغات العازلة Isolating اللغات الصينية التبتية .

ومن اللغات العازلة كثير من لغات افريقيا وهي تبلغ ما بين خمسمائة الى سبعمائة لغة .

ومن اللغات الهندية الاوربية ، وهي غير عازلة ، لغات مالت الى هذا المزاج العازل بعض الشيء لاسيما الانجليزية مثال ذلك لفظ Light انه اسم وفعل وصفة . النور او ينير او منير ، ويفرق بين المعاني الثلاث موضع اللفظ من الجملة ، اي السياق .

2 ـ الصنف الثاني : اللغات اللاصقة وهي التي تؤلف الكلمات فيها باللصق فيتغير معناها ويتبدل .

واللصق يكون باضافة مقطعين بعضا الى بعض فتكون كلمة لها معنى جديد ، او قد تصنع الكلمة من اكثر من مقطعين .

وهذا الصنف اللاصق Agglutinative من اللغات هو اكثر الصنوف الثلاثة فى اللغات عددا ، وهي يتضمن اللغة السومرية القديمة ، ولغة أورال والقوقاز ، واللغات الدرافيدية واليابانية والكورية ، ولغات المحيط الهادىء ، واللغات الافريقية ، واللغات الوطنية لمواطني امريكا الاصليين .

3 ـ الصنف الثالث : اللغات المتصرفة ، وهي اللغات التي تدخل كلماتها التصريف ، فالكلمة يتغير بناؤها ، فتدل على معنى جديد ، كتب ، يكتب ، كاتب ، مكتوب ، كتاب ، كتب وما الى ذلك .

ويدخل فى هذا الصنف اللغات الهندية الاوربية ، وكذا اللغات السامية ومنها اللغة العربية وكذا الحامية .

ويلاحظ أن بعضا من هذه اللغات المتصرفة Infectional ما يضيف الى الكلمة مقطعا تصدر به الكلمة فيتغير معناها Préfixe اي سابقة ، أو مقطعا تذيل به الكلمة فيتغير معناها Suffixe اي لاحقة او كاسحة ، وهذا من صفة اللغات اللاصقة (لا المتصرفة) ومعنى هذا ان اللغات قد لا تكون لاصقة خالصة أو متصرفة خالصة .

ومثال اللغات المتصرفة التي مالت الى اللصق ، اللغة الانجليزية فنقول Hope ومعناها « الرجاء » ، ونقول Hopeful ومعناها مليء بالرجاء ، ونقول Hopeless ومعناها « لا رجاء فيه » ، ونقول Sense ومعناها « معنى » ونقول Non sense ومعناها « لا معنى له » وهلم جرا .

واذا اردنا أن نصرف اصول اللغات ، وهل هي من أصل واحد ، أم من أصول متعددة ؟

وجدنا ذلك فى منتهى الصعوبة ، فالعالم لم يكشف للآن أصول اللغات الاولى ، ولم يعرف اي الاصول ـ من اللغات التي توصل اليها ـ أصل ، الا انه مما لا يسوغ انكاره أن العلم لم يعرف الكلمة الاخيرة وهو كل يوم يأتي بجديد ، ولعله يأتي بجديد يوصل الى قديم ، ممتدة جذوره فى الماضي السحيق .

ولغات العالم التي هي من اصول غير معروفة نذكرها فيما يلي :

1 ـ السامية وفروعها وهي : العربية والحبشية والحامية والعبرانية .
2 ـ الملاي والبولينز .
3 ـ الدرافيدية .
4 ـ البنتو .
5 ـ الاوربية الهندية وهي تتفرع الى :

أ ـ الايرانية الهندية وهي : الافغانية ، الاردو ، الهندستانية ، البنغالية ، الكردية ، السيلانية ، الفارسية ، السنسكريت .

ب ـ السلتية ، وهي : الويلزية ، الارلندية ، البريتونية .

ج ـ الالبانية .

د ـ الجرمانية التيوتونية ، وهي : الدنمركية ، الانجليزية ، الالمانية ، يدسن « اي الاسرائيلية الالمانية » ، السويدية ، الايسلندية ، النرويجية .

هـ ـ البلطيك ، وهي : اللثوانية ، الليتية .

و ـ السلافية ، وهي : البولاندية ، الروسية ، البلغارية ، التشيكية ، السلوفاك ، السلوفين .

ز ـ الارمنيـــة .

ح ـ أ ـ اللاتينية ، ب ـ الايطالية الرومانسية ، وهي : الرومانية ، البرتغالية ، الاسبانية ، الفرنسيـة ، الطليـانيـــة .

ط ـ اليونانيـــة .

هذه هي شجرة اللغات الاوربية الهندية .

6 ـ اليابان ، كوريا .

7 ـ الاورال وما اليهـــا .

8 ـ منغـــوليا .

9 ـ الصين والتبت (الهند الصينيـة) وهـي : الصينية ، تيلاندية ، برماوية ، وما اليها (21)

تلك اصول لغات العالم ، وهي تعطي فكرة عامة عـــن عائلات لغات الارض المختلفة ، وما تفرع منها ، والفرع الواحد يحمل لغات متشابهات .

ان جذورا نشأت منها اللغات ، لكـــن التاريـــخ طواها وهي اليوم ترقد فى اعماقة يعجز الانسان عـــن استشفافها ، وليس للانسان الا الحاضر مـن هـــذه اللغات ، وهذه اللغات الحاضرة انما هـــي انسال تلك اللغات البعيدة الغابرة .

والولد كثيرا ما يحمل من اجداده ، سمات تـدل عليهم مهما طال الزمن . بل كل الكائنات الحية ، تحمل الخصائص الذاتية لآبائها تبعا لقانون الوراثـة ، مـــع موافقة قانون التطور العام .

كذلك اللغات تطورت مع الزمن تبعا للقانون العام، الا ان الوراثية تدل على الاصـــل او ترشد اليـــه ، او تحتفظ بعناصر اصيلة من الاصول الاولـــى .

مـراجـــع البحـــث

1 ـ مجلة « المعرفـــة » السنة الاولى ج 3 ص 11 مايو 1960 المملكة السعودية .
2 ـ الخصائص لابن جنـي ج 1 ص 31 ـ 32 ط الهلال بالفجالة (مصر) 1331 هـ
3 ـ مجلة « اللسان العربي » العـــدد 3 ص 54المغرب ـ الرباط 1385 هـ
4 ـ مجلة « دعوة الحق » العدد 5 السنة السادسة 1382 هـ المغرب
5 ـ نفس المصدر السابق ص 29 ـ 40
6 ـ مجلة (اللسان العربي) العدد 3 ص 55 الرباط ـ المغرب 1385 هـ
7 ـ كتاب (اللغة العربية) لعبد العزيز عبد المجيد ج 1 ص 19 ـ 20 القاهرة 1961 م
8 ـ مجلة (اللسان العربـــي) العـــدد 3 ص 55 الرباط 1385 هـ
9 ـ مجلة (المجلـــة) العـــدد 114 يونيه 1966 القاهـــرة
10 ـ مجلة (المجلـــة) العدد 114 مقال الدكتـور تمام حسان ـ القاهرة
11 ـ مجلة (المنـــار) للسيد رشيد رضا المجلد 3 ص 303 ـ القاهرة
12 ـ مجلة (منبر الاسلام) مقال عبقرية اللغة يوليو 1961 م ـ القاهرة
13 ـ الخصائص لابن جني ج 1 ص 21 ط الهـــلال1331 هـ القاهـــرة وكتاب التعريفات للجرجاني مادة « لغـــة » .
14 ـ كتاب (اللهجات العربية) لابراهيم نجا مطبعة السعادة بمصر 1965 م
15 ـ مجلة (اللسان العربي) ع الاول ص 28 المغرب1381 هـ
16 ـ كتاب (فلسفة اللغة العربية) للدكتور عثمـان امين ص 16 ـ 17 ـ القاهرة ومحاضرات الموســـم الثقافي لجامعة الازهر 1962 م
17 ـ مجموعة (تراث الانسانية) المجلد 2 العدد 3 سنة 1964 م ـ القاهرة
18 ـ الابنيشد : مجموعة كتب دينية هندوسية ـ الهنـــد
19 ـ مجلـــة (ثقافـــة الهنـــد) المجلد 11 بحث (انيرودها بهارى سرن) ـ الهند
20 ـ مجلة (ثقافـة الهنـــد) العدد 2 المجلـد 11 مقال البروفيسور (همايون كبيـر) ـ الهنـد
21 ـ مجلة (العـربـــي) العدد 98 يناير 1967 ـ الكويت

العربية بين حماتها وخصومها

للأستاذ فاضل الجمالي

رئيس الحكومة العراقية سابقا
استاذ فى الجامعة التونسية

نص محاضرة قيمة القاها حضرة الاستاذ الجليل فاضل الجمالي فى العاصمة التونسية وقد اتحفنا جنابه بها فننشرها شاكرين .

اني لست من علماء العربية ولا من ادبائها كما اني لست من الاختصاصيين فى علم اللغات . وما انا سوى عامل بسيط فى حقل الثقافة والتعليم اعتبر نفسي خادما امينا وجنديا مخلصا من جنود العربية ليس اكثر . وما سابديه هو ثمرة اختبارات واجتهادات شخصية فى الحقول الاجتماعية والسياسية والتعليمية وهي الحقول التي عشت فيها وعملت . ولذلك فما سابديه هو عرضة للنقد والتعليق واكون ممتنا لكل من يتناولني بالنقد البناء والارشاد السديد .

واذا ابديت بعض الملاحظات عن سير العربية فى بلاد المغرب العربي الكبير فلا يعني ذلك عدم تقديري للمصاعب الجسيمة التي خلفها الاستعمار لاقطار المغرب العربي الكبير فى حقل اللغة العربية . كما لا يعني نكراني الجهود المحمودة التي يقوم بها اولو الامر فى هذه الاقطار فى سبيل احياء العربية وانعاشها . وانما (وهذا هو المهم) لاني اعتبر نفسي واحدا من ابناء المغرب العربي الكبير واتحدث كمواطن يريد لابناء قومه المزيد من العزة والتقدم ولاسيما فى الحقل الثقافي والقومي .

واذا ما دعوت الى العناية بالعربية واحلالها المحل اللائق بها فى حياتنا القومية فلا اريد بذلك الانقاص من اهتمامنا باللغات الاجنبية التي اعتبر العناية بها ضرورة حياتية بالنسبة لنا كامة تسير فى طريق النهوض والقضاء على التخلف . فالعالم المتمدن اليوم يؤكد على اضافة لغتين اجنبيتين على الاقل الى اللغة الام. هذه هي النزعة الجديدة الناشئة عن تقلص المسافات بين الشعوب وعن الترابط المتزايد بين الامم فى الحقول السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . فاذا دعوت الى احلال العربية محلها اللائق بها فى الحياة القومية ولاسيما فى معاهد التعليم كما سترون فلا اعني بذلك تقليل الاهتمام بالافرنسية او الانكليزية او غيرهما من اللغات . وانما اقول ان اي اهتمام باللغات الاجنبية لا يجوز ان يكون على حساب العربية وبنسبة القصور اليها كما يحاول البعض ان يبرر . انا اؤمن بسياسة المراحل التي يتزعمها فخامة الرئيس الجليل الحبيب بورقيبة فى موضوع التعريب واحلال العربية محلها الطبيعي فى التعليم ومع الاخذ بهذه السياسة وعلى ضوئها ادعو : الى احلال العربية محلها اللائق بها فى حياتنا اليومية وفى ثقافتنا وفى المعاهد التعليمية على اختلاف انواعها وجميع مراحلها مع تهيئة الظروف الضرورية لذلك .

اللغة فى حياة الامة :

اسمحوا لي بعد ابداء هذه الاحترازات الضرورية ان ابدا اولا بالتحدث بايجاز عن **مكانة اللغة فى حياة الامة :**

ان من يتتبع ماجريات الاحداث بمطالعة الصحافة العالمية قد اطلع ولابد على حركات عنيفة شغلت الصحافة واجهزة الاعلام العالمية فى الشهور الاخيرة الى جانب الحوادث الدامية فى الشرق الاوسط وفى الفيتنام . وهذه الحركات تتعلق باللغات القومية والمشاكل التي تنجم عنها :

1) فى صيف 1967 قامت ضجة سياسة كبرى فى العالم الغربي حين زار الرئيس ديغول « كيبك » فى كندا وتحمس الناطقون باللغة الافرنسية الى تثبيت كيانهم اللغوي وما يتبع ذلك من تحديد وتوكيد شخصيتهم القومية والسياسية الافرنسية .

2) فى الهند قامت مظاهرات صاخبة ودموية مؤخرا حول اللغتين الهندية والانكليزية . فهناك فئات فى الهند تتكلم بغير الهندية وهي لذلك تتمسك باللغة الانكليزية كلغة رسمية للبلاد وتتظاهر ضد اللغة الهندية . وهناك فئات تتكلم بالهندية وتريدها أن تكون اللغة الرسمية للبلاد فهي تتظاهر ضد اللغة الانكليزية. ولم يرض اي الفريقين على سياسة الحكومة التي قررت أن تكون اللغتان الهندية والانكليزية رسميتين .

3) فى بلجيكة استقالت الوزارة وحل مجلس النواب من جراء المشاكل الناجمة عن الصراع بين المتكلمين بالفرنسية والمتكلمين بالفلمندية . ولا تزال الازمة قائمة على ما نعلم .

4) فى القدس المحتلة قررت اسرائيل فرض تعليم العبرية على أبناء العربية من مسلمين ومسيحيين .

هذه أمثلة من بقاع العالم المختلفة تدلنا على ان اللغة تلعب اليوم دورا خطيرا بين بني البشر فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .

ان الروابط النفسية التي تدخل فى تكوين شخصيات الشعوب والكتل البشرية المستقلة هي روابط العنصر والدين والقومية . واللغة تلعب دورا اساسيا فى تكوين كل من هذه الروابط ولاسيما فى الرابطة القومية . فاللغة وما تحمله من ثقافة هي الاساس فى الرابطة القومية . هذا وان الرابطة العنصرية قد فقدت اهميتها فى العصر الحديث بعد اندحار النازية فى الحرب العالمية الثانية وبعد ثبوت بطلان نظرية الرس بسبب تمازج العناصر والتلاقح فيما بينها الامر الذي جعل موضوع نقاوة الدم والعنصر خرافة تقريبا . أما رابطتا الدين والقومية فما تزالان قائمتين فى العالم اليوم . والرابطة القومية التي هي رابطة الثقافة واللغة هي اكثر الروابط انتشارا بين أمم الارض اليوم . هذا وان اسرائيل هي الدولة الوحيدة فى العالم اليوم التي تبني كيانها على الاسس العنصرية والدينية والقومية معا .

اللغة هي المقوم الاساسي للرابطة القومية . وبها تتميز شخصية أمة عن أخرى . ولذلك فهي عنصر اساسي فى تكوين الذاتية القومية وانيتها . فاذا قلت انا فلان . فمعنى ذلك أني أنتمي الى الامة الفلانية وان لي شخصية تتكون من جسدي وعقلي وروحي . فالجسد حصلت عليه بالوراثة البيولوجية عر طريق آبائي واجدادي . أما الفكر والروح فهما ارثان اجتماعيان مظهرهما اللغة والدين معا . فاحترام ابناء اي قوم لشخصيتهم وذاتيتهم يتطلب احترامهم للغتهم واعتزازهم بها . فمن أعز لغته القومية اعز ذاتيته وشخصيته ومن تهاون فيها أو اذلها فانما يذل شخصيته القومية وكرامته الانسانية . هذه حقائق معروفة ومعمول بها فى كل البلاد المتمدنة اليوم . أما البلاد التي تخلصت من ربقة الاستعمار حديثا فانها تعرف حق المعرفة ان الاستعمار كان يحاول طمس شخصية الامة المولى عليها واخضاع شخصيتها لشخصية الامة المسيطرة وذلك عن طريق نشر لغته واعلاء شأنها والازدراء والاهمال للغة القومية للشعوب المولى عليها .

لقد كان لي دور متواضع فى لجنة الوصاية فى مؤتمر سان فرانسيسكو سنة 1945 حيث كتب ميثاق منظمة الامم المتحدة . فبعد ان نجحنا فى درج حق الامم المولى عليها بالحكم الذاتي والاستقلال فى صلب ميثاق الامم المتحدة بادرت بالسعي لادخال نص فى الميثاق يضمن حماية الثقافة القومية (وفى مقدمتها اللغة القومية طبعا) للشعوب المولى عليها . معتبرا ان اللغة القومية الى جانب الدين تمثل الكيان الشخصي والقومي للبلاد التي كنا نجاهد من اجل تحررها واستقلالها . وقد نجحت فى الامر اذ وضع نص فى ميثاق الامم المتحدة يلزم الدول المستعمرة ان تحترم وتنمي الثقافات القومية للشعوب المولى عليها . ولن انسى اني اثرت حفيظة الزميل الفرنسي فى لجنة التدوين حين اكدت عروبة الجزائر . فانه سامحه الله قد هاج وماج وصرخ صرخة مدوية محتجا بأن الجزائر هي جزء من الوطن الام فرنسا . فما كان مني الا أن قابلته ببرودة دم وقلت له عفوا يا سيدى ان الجزائر بلد عربى مسلم يعتز بعروبته واسلامه . ومضت اللجنة فى صوغ المواد المطلوبة من الميثاق وانتهى الامر .

اللغة ايها السادة هي عنوان شخصية الامة ومظهر كرامتها ومعيار حضارتها . فان ارتقت اللغة وازدهرت فذلك دليل على ان الحضارة قد ارتقت . وان ذبلت اللغة او اهملت فذلك دليل على ان شخصية الامة قد ذبلت وانحطت .

ان التفاعل والتلاقح بين اللغات أمر طبيعي محمود على ان يكون على اساس الاحترام المتبادل

والاعتزاز باللغة القومية . اما تفضيل لغة على اخرى ومسخ اللغة القومية بحشوها بألفاظ من اللغة الاجنبية او باهمال استعمالها فهو « تبعية ثقافية » وهو تنفيذ لادارة المستعمر الذي سبق أن جاهدنا فتحررنا منه . وهذا ما يأباه كل مواطن حر . فما نريده لامتنا وللغتنا هو « التعاون الثقافي » مع اللغة الاجنبية وليس « التبعية الثقافية » . وقد يكون من السهل الانزلاق من التعاون الى التبعية عن غير قصد أو وعي . وهذا ما يجب أن يحذره الغياري من ابناء العربية في كل مكان .

ان عالم اليوم هو عالم تعاون وتبادل مصالح وليس عالم استيلاء وسيطرة . ولئن صدق هذا في حقل السياسة والاقتصاد فانه يصدق ايضا في حقل الثقافات واللغات . ولكن نزعة « تنازع البقاء وبقاء الاصلح » لا تزال موجودة عند الدول الكبرى في نظرتها الى ثقافتها . فهناك حروب ثقافية خفية احيانا تحاول امة بها الاستيلاء على ثقافة أمة اخرى . كما تحاول امة ان تتباهى بلغتها وثقافتها على لغات وثقافات الامم الاخرى ولقد عمد بعض علماء اللغة ومحبي السلام في اختراع لغة عالمية « كالاسبرانتو » او « الايدو » لاحلال السلام بين اللغات والثقافات فلم تفلح هذه اللغات ذلك لان الرابطة القومية هي رابطة قوية والامة تعتز باللغة القومية . ولذلك فاصبح من الضروري الاعتزاز باللغة القومية من جهة وتوسيع الافق الانساني بتعلم لغات اجنبية واحدة او اثنتين او اكثر من الجهة الاخرى . وهذا ما ندعو اليه .

مكانة اللغة العربية :

ان اللغة العربية هي لغة مائة مليون نسمة على الاقل وهؤلاء يعيشون في البقعة الممتدة من خليج البصرة شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . ومن جبال طورس وجبل الطارق شمالا الى جنوب السودان والصحراء الافريقية والمحيط الهندي جنوبا . وهناك خمس عشرة دولة مستقلة تتكلم بالعربية اليوم . وفوق ذلك فالعربية هي لغة الدين الاسلامي لغة القرآن الذي يقدسه ما يزيد على خمسمائة مليون نسمة كلهم يستقون من معين القرآن . ولذلك ولاهميتها الاممية فقد أصبحت من اللغات العالمية الرسمية المعترف بها في اليونسكو واخذت البلاد الشرقية والغربية الراقية تعنى بتدريسها في جامعاتها اليوم .

هذا وان اللغة العربية لم تكن لتعيش وتنتشر لولا الاسلام ولولا فضل القرآن عليها . فالاسلام كان وما يزال قوة رافعة في تحرير الشعوب الاسلامية من براثن الاستعمار . كما انه حافز قوي على البناء الاجتماعي والاخلاقي السليم . فبالاسلام حافظت اقطار المغرب العربي الكبير على كيانها السياسي . وبروح الاسلام قام المجاهدون الابطال في هذه الاقطار بتحرير بلادهم . ان لغة هذا شأنها تحملنا على التفكير جديا في مسؤولياتنا ازاءها اي ازاء ذواتنا وانفسنا . اذ ما اللغة سوى مرآة حياتنا ومظهر نفوسنا .

واسمحوا لي ان اسرد قصة جابهتها حول موقع اللغة العربية في تاريخ الحضارة الانسانية . اظنكم تتذكرون جميعا ان المانية النازية كانت تؤمن بمبدأ التفوق العنصري وان العنصر الآري في نظرها هو سيد العناصر وليس فوقه احد . وفي ذات يوم قبل الحرب العالمية الثانية جاءني مسؤول الماني يطلب مني مقالا أعرف فيه الامة الالمانية بالامة العربية لينشر في احدى المجلات الالمانية . شعرت بهذه المناسبة ان الواجب الوجداني يدعوني ان أصارح هؤلاء القوم اي النازيين بالحقيقة . وهي ان التاريخ لا يعرف حضارة تتسم بالسمو والشمول والاستمرار كالحضارة العربية الاسلامية التي تحويها اللغة العربية . فالحضارات الانسانية المختلفة قد تبرز وتتفوق كل واحدة منها في ناحية من نواحي الحياة ولمدة من الزمن محدودة ثم تغيب عن الوجود . فهذه حضارة اليونان عنيت بالفكر الانساني . وهذه حضارة الرومان عنيت بالتشريع والعمران . وهذه الحضارة الانكليزية عرفت بالتجارة واقتحام البحار وبالروح الرياضية . وهذه الحضارة الافرنسية عرفت بالتفوق بالآداب والفلسفة والمنطق والفن في الحياة . وهذه الحضارة الالمانية عرفت بالتفوق التقني والفلسفي . وعرفت الحضارة الايطالية بالتشريع وبالفنون الجميلة . الى ما هنالك من حضارات قديمة أو حديثة شرقية او غربية . فكل منها يعالج ناحية من نواحي الحياة ويمتاز فيها على حساب نواحي اخرى . اما الحضارة العربية ـــ الاسلامية التي تحملها وتحويها اللغة العربية فانها عنيت بنواحي الحياة كلها . فانها عنيت بأسمى معاني الانسانية . فهي أولا حضارة روحية واخلاقية ثم انها حضارة تشريع ثم انها حضارة فلسفة وفكر متفتح . ثم انها حضارة علمية درست الطبيعة والانسان دراسة تجريبية . ثم انها حضارة آداب وفنون جملية . ثم انها حضارة صناعة وتجارة . فاللغة العربية تحمل ثروة من الثقافة الانسانية لا تنضب . وما تزال دراسات المستشرقين ومن تتلمذ عليهم من المسلمين تخرج لنا كنوزا جديدة ثمينة من

التراث العربي الاسلامي تنشر في اللغات الاجنبية . واللغة العربية تحوي كل هذه الكنوز . لقد بهت النازيون بالمثال الذي اعددته لهم . فانه جاء مزعجا ومسخفا لكبريائهم . هذا ما قلناه للنازيين وهو كلام حق لا التواء فيه . ولكننا من الجهة الاخرى يجب أن نعترف بأن الامة العربية ومعها اللغة العربية قد تخلفت عن الركب الحضاري في العصر الحديث . وما ذلك ذنب اللغة ولا لقصور فيها . ولكنها محنة العروبة التي نعيشها اليوم : انقسامات وصراع داخلي ، وغزو خارجي ، وفقدان الربان الحكيم في معظم الاحوال قد أخر الامة العربية عن ركب الحضارة الانسانية فتأخرت اللغة في تأدية المفاهيم العلمية والتقنية الحديثة .

وها هي الامة العربية اليوم تجابه العالم من جديد . فان العرب قد تيقظوا على أصوات مدافع المستعمر في النصف الاول من هذا القرن . ولما أزيح كابوس الاستعمار سياسيا ترك وراءه الاخطبوط الصهيوني . فلابد للعرب من جمع الشمل واليقظة الجديدة للمساهمة في انشاء عالم جديد . عالم تزدهر فيه العربية في حقل العلوم والصناعات ازدهارها في الحقل الروحي والفلسفي والادبي . فازدهار اللغة العربية مرتبط ارتباطا مباشرا بازدهار الامة العربية وحضارتها . كما انها ذات صلة وثيقة بالدين الاسلامي وبمستقبل الاسلام في العالم .

حاضر اللغة العربية :

1) هناك نهضة علمية مباركة في العالم العربي اليوم وذلك لتوفر مئات العلماء والفلاسفة العرب في انحاء المعمورة . ويؤسفني كثيرا أن اقول ان نخبة من هؤلاء العلماء هم بعيدون عن بلادهم ويدرسون ويبحثون بلغة غير اللغة العربية . اتذكر اني تعرفت في باريس قبل ثلاثين سنة على استاذ تونسي كان يدرس الطب في جامعة باريس . واحسب أن الكثيرين منكم لا يعرفون ان أول من أجرى عملية جراحية على القلب وبرع في جراحة القلب هو طبيب أميركي من أصل لبناني هو الدكتور « دبكي » واسمه اللبناني (دبغي) . واظن الكثيرين منكم لا يعلمون ان أول طبيب اكتشف طريقة علمية لتشخيص مرض السرطان هو طبيب عراقي يعيش في أميركا اليوم . واظن الكثيرين منا لم يسمعوا باسم المرحوم الصباح اللبناني الذي اخترع عشرات الادوات الكهربائية في أميركا . واظنكم لا تعلمون ان اخصائي في فلسفة ابن خلدون هو أستاذ عراقي يدرس في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الامريكية. وان عديدين من أساتذة الاقتصاد والسياسة والزراعة والرياضيات العرب يعيشون في أميركا ويقومون بالتدريس في جامعاتها وينجزون الابحاث العلمية في مختبراتها . كل ذلك بلغة غير عربية . عاد هؤلاء السادة الى بلادهم وتيسر لهم الجو الصالح للبحث العلمي وقاموا بنشر أبحاثهم باللغة العربية الى جانب نشرها باللغة الاجنبية لاحتلت العربية مقاما علميا عالميا اليوم (1). فالعرب يأخذون العلم من الغرب كأبناء الغرب انفسهم وهم ليسوا أقل منهم ذكاء او انتاجا **لو تساوت الظروف** . فما على الامة العربية وقادتها اذن الا ان يهيؤوا الظروف المادية والمعنوية لابنائهم العباقرة ليقدموا الخدمات المطلوبة للغتهم وحضارتهم وللانسانية جمعاء .

2) تعريب التعليم عن المشرق العربي : اذكر هنا بأن معظم اقطار المشرق العربي كانت خاضعة للحكم العثماني الى نهاية الحرب العالمية الاولى . وكان التدريس في مدارسها باللغة التركية وكانت اللغتان العربية والفرنسية تدرسان كلغتين اضافيتين. فقد كانت التركية هي لغة الدولة الرسمية آنذاك فلما بدأ الحكم الوطني في العراق مثلا بدأنا بتعريب التعليم الابتدائي فورا . ثم اعقبتها الدراسة الثانوية وقد استعنا بكتب مصرية في بادىء الامر . ثم قمنا بوضع كتب عراقية .

اتذكر انا كنا جماعة صغيرة تجتمع قبل اربعين سنة بالضبط في دار الاستاذ ساطع الحصري وكنا نتباحث فنتفق على المصطلحات في التاريخ الطبيعي او الفيزياء او الكيمياء او في علم النفس . وكانت الكلمات الجديدة تعرض على المدرسين ومؤلفي الكتب الدراسية ليقوموا باستعمالها او للاعتراض عليها . هذا ولم نجد في العراق اية صعوبة تذكر في تدريس جميع فروع الدراسة الثانوية بالعربية مع تعريف الطلاب بما يقابل تلك المصطلحات باللغة الاجنبية .

3) حمل المدارس الاهلية والاجنبية على الاهتمام باللغة العربية وبالدروس القومية : ان قانون المعارف العامة في العراق يحتم على كل المدارس الاهلية والاجنبية ان تطبق البرنامج الرسمي في تدريس اللغة العربية والتاريخ والجغرافية والواجبات الوطنية باللغة

---

(1) يعمل المكتب الدائم الآن على الاتصال بمجموعة من هؤلاء العلماء لتجديد روابطهم مع اللغة العربية في الحقل العلمي وهو يكاتبهم ويستشيرهم كخبراء في مختلف شعب العلوم

العربية على أن يقوم بذلك مدرسون تصادق على مقدرتهم وزارة المعارف . كما أن على كل عراقي يدرس في الخارج ان يجتاز امتحانا باللغة العربية قبل أن تعادل شهادته .

4) ان الدراسة في الجامعات العراقية تكون باللغتين العربية والانكليزية وذلك حسب توفر الاساتذة وحسب فروع الاختصاص . فالاستاذ العربي يدرس في كلية الحقوق او كلية الاداب او كلية التربية باللغة العربية . والاستاذ الاجنبي يدرس باللغة الانكليزية والتدريس في كليات العلوم والطب والهندسة والزراعة هو باللغة الانكليزية على الاكثر . هذا ولا بد للدراسة الجامعية الحق من اتقان لغة اجنبية واحدة على الاقل .

5) تعريب اطارات الدولة : لقد سارعت الحكومة العراقية منذ بداية الحكم الوطني بتعريب الجهاز الحكومي واجبرت اطارات الدولة على تعلم اللغة العربية في صفوف مسائية . وهكذا بدأت الادارة ثم الجيش ثم البريد كلها تتعرب وكانت الصحافة من العوامل الفعالة في تشجيع حركة التعريب .

6) الترجمة الى العربية : في المشرق العربي حركة ترجمة واقتباس واسعة وسريعة للكثيرين من الكتب الادبية والفلسفية وبعض الكتب العلمية التي تصدر باللغة الافرنسية او الانكليزية او الالمانية . ومع أن هناك بعض المآخذ على ما ينقل وينشر بسرعة فائقة الى العربية الا ان العملية تبرر نفسها نظرا لانتشار الثقافة السريع في البلاد العربية من جهة ووفرة الانتاج الفكري العالمي من الجهة الاخرى . وان ما نرجوه هو تعاون وتنسيق بين ما يترجم الى اللغة العربية بين الاقطار العربية المختلفة . وهانا اذكر لكم على سبيل المثال اني وجدت في دكان كتبي في الدار البيضاء في صيف 1967 كتابا ترجم من الانكليزية الى العربية حديثا قام بترجمته الاساتذة دكتور عبد الحميد السيد والدكتور نجيب اسكندر ابراهيم والدكتور محمد الهادي عفيفي ولكن هذا الكتاب سبق أن ترجمته أنا في بغداد قبل اربعين سنة بالضبط ونشره الاستاذ ساطع الحصري . وهناك كتاب صدر في العراق في فلسفة التربية نقله الى العربية الاستاذ الدكتور عبد العزيز البسام واذا به يترجم وينشر في مصر بعد سنوات . وقد اطلعت على كتاب ترجمه اساتذةعراقيون حديثا في فلسفة التربية . مع أن الكتاب قد ترجمه استاذ سوري وطبع في مصر قبل اربعين سنة . وهلم جرا .

اذن فهناك ضرورة للاتصال والتعاون بين البلاد العربية . لا تعجبوا اذا قلت لكم اني لم اجد في المغرب آنذاك بعض ما نشر في تونس من المؤلفات ! البلاد العربية تحتاج الى شرايين حية يجري فيها دم الحياة ولابد لنا من أن نتخلص من داء تصلب الشرايين الذي ورثناه من عهود التخلف . (Scléroses)

7) المجامع العلمية : ان المجامع العلمية في الشرق العربي قامت بخدمات جليلة احيانا في حقل اللغة ووضع المصطلحات . ولكنها ترمي احيانا بالبرجماجية وبطيء الانتاج وقلة الاتصال بالجمهور المثقف في العالم العربي . ان المجامع العلمية يجب ان تنزل الى ميدان الحياة وان تتصل بالناس وبالهيئات الثقافية اذا شاءت أن تؤدي وظيفتها على الوجه الاكمل وهنا أيضا نشكو من قلة الاتصال والترابط بين ابناء البلاد العربية . فما يصدره المجمع العلمي في بغداد او المجمع العلمي في دمشق مثلا لا يصل الى تونس ولا نعرف عنه شيئا .

ولقد سررت في صيف 1967 بزيارة « المكتب الدائم لتنسيق التعريب فيالعالم العربي» في الرباط الذي يديره الاستاذ الفاضل عبد العزيز بنعبد الله وان هذا المكتب ليسدي خدمات جليلة في اعلاء شأن العربية وهو جدير بأن يحظى بالمؤازرة والتأييد الضروريين من قبل الجامعة العربية ومن قبل الهيئات العلمية واللغوية في كل الاقطار العربية .

8) ان المجلات العلمية والادبية هي من افضل الوسائل لانتشار اللغة العربية والربط بين رجال الفكر في العالم العربي . فهناك عدد لابأس به من المجلات يصدر في مصر ولبنان والعراق والاردن وليبيا وتونس والمغرب وكله من النوع الذي يقدم للقارىء افكارا جديدة بقوالب مقبولة الى الجمهور العربي . فمجلة الفكر التونسية مثلا ذات مستوى رفيع وكذلك حولية الجامعة التونسية التي يصدرها الاستاذ المنجي الشملي . وانا لنرجو لصحيفة الثقافة في جريدتي العمل والصباح النمو والاستقلال فهي تحمل مادة دسمة عادة .

9) ان الاذاعة والتلفزة باستخدامها العربية تقدم للشعب ثروة لغوية ترفع من مستواه الثقافي والادبي كما انها تعمل على توحيد الامة العربية . فالاذاعة

التونسية مثلا تقوم بخدمة مزدوجة . فانها باستعمالها اللغة « العروية » وهي التي يستعملها الاستاذ عبد العزيز العروي ترفع من مستوى التونسية الدارجة وتقربها من الفصحى المبسطة وهذه خدمة تستحق التقدير . ثم ان اذاعة المحاضرات والاخبار بالفصحى يعود السامعين على تفهم لغتهم القومية الرفيعة ويساعد على انتشارها .

10) من أعظم مقومات اللغة العربية مواعظ الائمة فى المساجد ولاسيما أيام الجمعة . فصلاة الجمعة عدا فوائدها العظيمة من النواحي الروحية والاجتماعية والاخلاقية فهي فرص لسماع أرقى ما وصلت اليه العربية : لغة القرآن والحديث . ومن المؤسف والمحزن حقا أن أكثرية الفئة التي تدعي بأنها متثقفة تعزف عن اداء فريضة الجمعة وفى هذا العزوف خسارة روحية وانسانية وقومية لا تقدر .

11) وأخيرا اود أن اشيد بالفوائد القوميةواللغوية التي تسديها فرقة الرشيدية للموسيقى التونسية . فهذه الفرقة باحيائها التراث الموسيقي والادب الاندلسي تحبب العربية الى السامعين وتدخلها فى عقولهم وقلوبهم .

ان هذا الاستعراض السريع لواقع اللغة العربية يدلنا على أن العربية بخير والحمد لله . فهي سائرة فى طريق البعث والانتشار ، ولكن ليس بالسرعة المطلوبة ولا بالشكل المرتجى . ولكنها سائرة فى طريق الحياة طريق النمو والتطور بكل تأكيد .

حماة العربية وغزاتها

والآن نعود الى التعرف على حماة اللغة العربية وعلى غزاتها . من هم حماة اللغة العربية ؟ ان حماة اللغة العربية هم كل الذين يغارون على اللغة العربية فيستعملونها فى حياتهم اليومية ويعملون على الرفع من شأنها ونشرها بين الناس . ولكن الحماة هؤلاء يختلفون من حيث العقلية والمستوى والاسلوب . وهانا اود ان اشير الى أصناف ثلاثة من حماة العربية .

الصنف الاول هم **المتزمتون** وهم نفر من علماء العربية فى اللغة أو القواعد أو الكتابة من المتصلبين فى آرائهم المتمسكين بالقوالب والقواعد القديمة لا يسمحون بأية زحزحة أو تطور فى اللغة . وفى راي هؤلاء قل من يحسن القراءة والكتابة أو الخطابة فى العربية فيمن عداهم . اذكر مرة اني نشرت بحثا فى التربية والتعليم فى بغداد قبل نحو من ثلاثين سنة . فانبرى لي احد اساتذة العربية فانتقد ما كتبته من حيث اللغة والاسلوب فى تسع مقالات فى احدى الجرائد اليومية . ولما كنت غير مؤهل للاجابة على مقالات الاستاذ لاني لست من علماء العربية تبرع استاذ اكبر منه فى العربية فانتقد عربية استاذ العربية الذي انتقدني فى تسع مقالات ايضا وبرهن له على ان معرفته بالعربية ليست بأحسن كثيرا من عربيتي التي انتقدها.

المتزمتون فى اللغة لا يخلو منهم بلد عربي لحسن الحظ . أقول لحسن الحظ ذلك لان هؤلاء السادة يقومون بدور الخفير اليقظ الذي يحرس العربية الاصيلة ويحافظ على التراث القومي . ولكن العربية لا يمكن أن تتقدم وتتطور لو بقيت بأيدي المتزمتين وحدهم . والمتزمتون هؤلاء قد يسببون تثبيطا للهمم ويوجدون أعذارا للكسالى الذين يتقاعسون عن تعلم العربية بحجة انها لغة صعبة لا يتقنها انسان كما انهم يزودون أعداء العربية بسلاح يستخدم ضدها أحيانا . وقد خطر لي أن اشبه المتزمتين بالطبقة « الارستقراطية » فى عالم اللغة .

الصنف الثاني من الحماة : هم العلماء الميسرون فهؤلاء يعملون بالشعار الاسلامي المأثور « رب يسر ولا تعسر » . ان هؤلاء الاساتذة يقدرون تطور الازمان من جهة كما أنهم يقدرون تخلف الامة العربية ثقافيا فى الظروف الراهنة من الجهة الاخرى . ولذلك فهم يدعون الى تيسير العربية وتسهيلها من حيث القواعد ومن حيث التكلم . فانهم من جهة يدعون الى تشذيب القواعد العربية وحذف الكثير من الاغصان اليابسة منها . كما انهم يدعون الى التساهل فى لغة الحديث ويسمحون باستعمال اللغة الوسطى وهي اللغة الفصحى المبسطة التي تسكن فيها أواخر الكلمات . وكان شاعر العراق الكبير المرحوم معروف الرصافي أول من استعمل مصطلح « اللغة الوسطى » يوم كان مفتش « متفقد » اللغة العربية فى وزارة المعارف العراقية ومن كبار الاساتذة الميسرين استاذي المرحوم العلامة طه الراوي فقد كان رحمه الله من اساتذة العربيةالعراقيين الذين خدموا اللغة العربية خدمة جلى عن طريق تبسيط قواعد النحو وحذف الكثير من الحشو منها . كما أنه كان يسمح لطلابه بتسكين أواخر الكلمات أثناء الحوار . ومن شاء منكم التعرف على آراء المرحوم طه الراوي فليراجع كتابه « نظرات فى النحو واللغة » .

ان العربية الوسطى هي لغة التيسير وهي التي يستطيع كل عربي ان يستعملها ويفهم من الخليج الى المحيط .

ان استعمال اللغة الوسطى هو رد عملي على كل الذين يدعون بأن العربية صعبة وغير صالحة للاستعمال اليومي . وقد خطر لي ان اشبه العلماء الميسرين فى العربية بالطبقة البورجوازية فى اللغة .

اما الصنف الثالث من الحماة فهم الذين ليسوا من علماء العربية . ولكنهم من ابنائها فهم يستعملون العربية فى حياتهم اليومية فى الكتابة والتأليف والترجمة والتدريس والتجارة والصناعة فى البيت وفى المعمل وفى الدائرة وفى الحقل وفى الحافلة وفى كل مكان . ان هؤلاء ليسوا من علماء العربية واللغة ليست في حقل اختصاصهم ولكنهم يحبون لغتهم ويريدون خدمتها واثراءها وانتشارها . فهؤلاء يقومون بنقل وتداول الافكار الجديدة بالعربية ويعملون على نقل الكتب والمقالات علمية كانت او فلسفية او ادبية او تقنية الى اللغة العربية . فآلاف الكتب قد الفت فى العربيةوترجمت اليها فى الفلسفة والعلوم الطبيعية والاجتماعية والاداب والفنون فى المائة سنة الاخيرة . قام بذلك اناس درسوا فى الشرق وفى الغرب . ونقلوا ما تعلموه الى اللغة العربية . خذوا هذا المجلد كمثال « الفكر الفلسفي فى مائة سنة » بقلم جماعة من الاساتذة العرب اشرفت على اخراجه هيئة الدراسات العربية فىالجامعة الامريكية فى بيروت . ان هذا الكتاب يحوي قوائم بمئات المجلدات صدرت فى الحقل الفلسفي باللغة العربية فى المائة سنة الاخيرة .

لاشك فى ان البعض مما نقل الى العربية فيه ضعف او نقص نتيجة الاستعمال فى الترجمة او عدم اتقان العربية . كما ان بعض الترجمات فيها تزمت وتعقيد فهي ليست بالسهلة القراءة . ولكن حركة الترجمة والتأليف بالعربية تخدم العربية وتزيدها ثروة ثقافية . ان الذين يتثقفون بالثقافة الغربية اذا شاؤوا ان يبرهنوا عن اخلاصهم لامتهم ولغتهم ما عليهم الا ان يقدموا للعربية نتاج ابحاثهم ودراساتهم عن طريق الترجمة او التأليف . واني اميل الى تسمية هؤلاء « بالطبقة العاملة » فى اللغة العربية وقد تكون خدمتهم للغة أعظم من خدمة المتزمتين الارستقراطيين وعلى كل فهي ليست بأقل من خدمة الميسرين البرجوازيين .

اما وقد تحدثنا باختصار عن حماة العربية فلننتقل للبحث بايجاز ايضا عن « الغزاة » فغزاة العربية هم الذين يريدون نسفها من اساسها او الذين ينسبون اليها العقم وعدم الصلاح للحياة الجديدة حياة المادة فيعتبرونها رمز التخلف . ولذلك فهم يهملون استعمالها ويتبجحون باستعمال لغة اجنبية بدلها . وها نحن فيما يلي نشير الى بعض هؤلاء الغزاة فهم اصناف عديدة ومعظمهم ليسوا غزاة من الخارج بل غزاة من الداخل من ابناء العربية نفسها وان كانوا يشربون من كاس اجنبي .

1) نبدأ بالدعاة الى العامية والليتنة : هناك دعوة جاءت من اعداء العروبة والاسلام قديما دعوة يقصد بها ايجاد الشقة بين المسلمين وبين قرآنهم . كما يقصد بها تفريق الامة العربية الى قوميات عديدة متقطعة متقاطعة . وهذه الدعوة تفصح بالرجوع الى اللغة العامية والكتابة فيها وترك الفصحى ثم استبدال الحروف العربية بالاحرف اللاتينية وهو ما يدعى بالليتنة. ان هذه الدعوة قد باءت بالفشل دوما ولم تلق آذانا صاغية من ابناء العروبة فى اي بلد عربي . ولكنها كفكرة بقيت تخالج البسطاء او المتهوسين بين الحين والآخر. اظنكم مطلعين هذه الايام على معركة فكرية حامية الوطيس مستعرة فى لبنان نقرأ عنها فى الجرائد الاسبوعية كملحق النهار وفى جريدة الحياة . وهي ان احد الادباء اللبنانيين قد نشر كتابا **باللهجة العامية وبالاحرف اللاتينية** . ان هذا الكتاب لم يلق من يقرؤه على ما يظهر ولذلك فقد عاد الاديب يكتب بالفصحى وبالحروف العربية ليدافع عن نفسه . انا اعرف بأن هناك من ابناء الشعب من لم يسعدهم الحظ لينالوا الثقافة الكافية فينظمون الشعر بالعامية . وشعرهم لا يخلو من عواطف نبيلة وافكار جميلة احيانا . ولكن هذه مرحلة وقتية وسوف تزول بانتشار اللغة الفصحى المبسطة وهي لا تتناول الا جزءا ضئيلا من حياة الامة. اما الذين يدعون الى جعل اللغة العامية لغة الثقافة والحياة العامة فانهم يهرفون بما لا يعرفون . باية لهجة عامية تكتب وكم عدد اللهجات العامية الموجودة فى كل بلد . انا اعرف ان فى العراق مثلا ما لا يقل عن ست لهجات عربية عامية . فلاهل الموصل لهجة والفاظ تختلف كثيرا عن لهجة اهل بغداد والفاظهم . فهل نجزىء العراق الى اجزاء لغوية ونطبع لكل كتاب طبعات باللهجات المختلفة ؟ وهل البشرية اليوم تسير فى سبيل الترابط والاتصال ام فى سبيل العزلة والانفصال ؟

اما الكتابة باللاتينية فهو امر لا يتفق مع روح اللغة العربية ابدا : ومن النماذج الطريفة فى هذا البابكتاب وقفت عليه مؤخرا وهو « مختارات فى الادب العربي » طبع بالاحرف اللاتينية وضعه الاستاذ يواكيم مبارك وفق طريقة ابتدعها نيافة الكاردينال يوجين تيسران

عضو المجمع العلمي الافرنسي . ان من يطلع على هذا الكتيبمن ابناء العروبة يسارع فى الحكم بأن هذا الكتاب يجعل من الكتابة العربية شيئا اصعب كثيرا واعقد مما هي عليه . كما أنه يفقد الانسانية من فن هو من اجمل الفنون اعني به فن الخط العربي . كما انه يقضي على علاقة العرب بتاريخهم وفنهم وحضارتهم . وبهـــذه المناسبة اسمحوا لي أن أروي لكم هذا الحدث وهو انه : قبل اربع وثلاثين سنة كنت مديرا عاما لمعـــارف العراق (التربية والتعليم) فزارني المستشرق الانكليزي المعروف دنيسون روس Sir Denison Ross عائدا من ايران فحدثني عن مهمته هناك اذ كان قد ذهب الى ايران بدعوة من جلالة الشاه رضا بهلوي والد الشاهنشاه الحالي وكان جلالته قد دعا السير دنيس روس ليستشيره فى استبدال الاحرف الايرانية وهي الاحرف الجميلة التي نعرفها بأحرف لاتينية كمـــا كان قد فعل اتاتورك فى تركية . فأجاب السر دنيس اذا كان فى نية جلالتكم التخلي عن فنكم الجميل وتراثكـــم الحضاري الايراني لا بأس من تبديل الحروف اما اذا شئتم الاحتفاظ بالفن الايراني والتراث الحضـــــاري الايراني فيجب الاحتفاظ بالخط الايراني . وهكذا اخذ جلالة الشاه بنصيحة الاستاذ البريطاني الكبير .

ان اعداء العروبة والاسلام لهم أن يدســـوا ولهم أن يشوشوا قدر ما يشاؤون ولكن على ابناء العروبة والاسلام ان يكونوا حذرين .

2) نوع آخر من الغزاة هم من ابناء العروبة الذين يدرسون باللغات الاجنبية فيديرون اظهرهم على لغتهم العربية وذلك لعوامل شتى : منها ادعاؤهم بأن العربية لغة متخلفة وهي غير صالحة للابحاث العلميـــــة الحديثة . أما انها متخلفة فى المصطلحات التقنية ففي ذلك شيء من الحقيقة . ولكن ذلك يتطلب ازالة التخلف عنها باستعمالها والكتابة فيها لا تركها واهمالها . واما انها غير صالحة للابحاث العلمية فهو افتئات وجهل . فتاريخ اللغة العربية وازدهارها فى العهدين العباسي والاندلسي خير رد على ذلك . فقد حملت اللغة العربية آنذاك كل العلوم والفنون والافكار الانسانية . ثم ان ما صدر من الكتب والترجمات فى المشرق العربـــي فى العلوم الطبيعية فى المائة سنة الاخيرة يفند ادعاء من يدعي عدم صلاح العربية. هاءنا اعرض على حضراتكم كتابين حديثين أحدهما « الحمل والولادة » للاستـــاذ الدكتور مصطفى الخالدي استاذ التوليد والامـــراض النسائية فى الجامعة الامريكية فى بيروت سابقا وهو مختصر فن التوليد للممرضات والقابلات . وكتـــاب « مغامرات العقل » ترجمة الدكتور « محمد فياض » وكلا الكتابين يمثلان كتبا علمية تقاس بافضل ما ينشر فى أربا واميركا من حيث الاسلوب والاخراج والـــروح العلمي . اذن فاللغة العربية قادرة على هضم الحقائق العلمية الجديدة . ولقد سرني ما سمعته مؤخرا من أن مهندسا فاضلا هو الاستاذ « ابن الشيخ » قد القـــى محاضرة نفيسة باللغة العربية عن الاقمار الصناعية . اعتقد أن هذه الامثلة كافية للرد على هؤلاء الغزاة الذين يصمون العربية بالعقم وعدم الصلاح للحياة العلمية الجديدة .

3) نوع ثالث من الغزاة هم أولئك السادة الذين نشأوا فى عهد الاستعمار وكانوا فى خدمة الحكومـــة آنذاك فانهم تعودوا على استعمال اللغة الاجنبية لغة السيد والحاكم فأصبحت اللغة الاجنبية بذلك لغـــة الخواص بينما اللغة القومية هي لغة العوام . واصبح عندهم المتمدن يعني استعمال لغة أجنبية ومـــن لا يستعملها فهو متخلف . فلغة الشعب « العربيـــة » تصبح لغة التخلف . نحن فى العراق ورثنا ارستقراطية حاكمة من العهد العثماني تتحدث بالتركية فى حياتهـــا العائلية ثم جاءت فئة تتحدث فيما بينها بالانكليزية أو الافرنسية فى البلاد العربية . اي انهم يحاولون فرض ارستقراطية جديدة على الشعب ارستقراطية تستعمل اللغة الاجنبية . ولكن الزمان قد تبـــدل وعهـــد الارستقراطيات فى الحكم قد ولى الى غير رجعـــة . واصبحت الحكومات العصرية من الشعب واليه . فلابد للذين يتولون خدمة الشعب اليوم من أن يتكلموا بلغته اي باللغة القومية. اذن فعهد الغزاة هؤلاء منته والاجدر بهم أن يعودوا الى حظيرة شعوبهم فيتكلموا بلغـــة الشعوب اي العربية .

4) غزو الشباب المتثقف باللغة الاجنبية هو اخطر انواع الغزو الذي المعنا اليه . فالمفروض فى الشباب ان يكونوا حماة لقوميتهم حماة للغتهم . اذ هم رجـــال المستقبل وعليهم المعول . ولكن موجة من الانحلال والتراخي قد طغت على عديد من الشبان (والشابات بصورة خاصة) اذا صاروا يستعملون اللغة الاجنبية التي يدرسون بها فى حياتهم اليومية بدل العربية وصار البعض منهم اذا ما تحدث باللغة العربية يحشيهـــا بالكلمات والتعابير الاعجمية . كأن العربية قاصرة عن التعبير . وهم يحسبون ذلك تمدنا أو تفكها . وما علموا ان ذلك يعني انحلالا فى الكيان القومي وتراخيا خلقيا . ارجو ان يعلم الشباب المتثقف حق العلم ان التراخي فى احترام اللغة القومية يشبه كثيرا من يتراخـــى فى

تناول المسكر فانه سرعان ما يدمن على الشرب. وهذا يضعف الكيان الاخلاقي ويولد عدم الاكتراث بالمقدسات عامة . وهو ما يدعي في علم النفس « بالتكيف السلبي. فالشباب يتكيف سلبيا ازاء سلوك سيء يراه فلا يعود يكترث بوجوده ويتهاون في معالجته وهذا ما عبر عنه حكيم الشعراء اي الطيب المتنبي بقوله :

« من يهن يسهل الهوان عليه »

فأرجو الا يبتلى ابناؤنا وبناتنا الاعزاء بداء التهاون باحترام لغتهم القومية وتكريمها . فللشباب ان يتعلم اللغة الاجنبية ويتقنها كل الاتقان وله ان يستخدمها في الدرس والمطالعة وله ان يتحدث بها مع الاجانب حين يجتمع بهم في بلده او حين يسافر الى الخارج وفي نوادي اللغات التي تؤسس للتمرين على اللغة ولكن ليس من حق الشباب ولا يليق بكرامتهم ان يهينوا لغتهم القومية باهمالها في حياتهم اليومية واستعمال لغة اجنبية بدلها او بتلويثها بالفاظ اعجمية لها ما يقابلها بالعربية . اذا كنت لا تعرف العربية فما عليك الا ان تتعلمها فهي لغة امتك ولغة دينك . نحن من مشجعي تعلم اللغات الاجنبية واتقانها . تعلم ما استطعت من اللغات الاجنبية مثنى وثلاث ورباع . ولكن لغتك اولا ولا يجوز ان تغزو لغتك بتلويثها بالفاظ اجنبية لها ما يقابلها بالعربية . اسمحوا لي بهذه المناسبة ان اروي لكم حادثا فكاهيا حضرته في العراق قبل اربعين سنة تقريبا : كان احد الشبان العراقيين قد عاد من دراسته في انكلترا وضمني واياه مجلس من الاصدقاء فتحدث الشاب قائلا « اننا فيلندن كنا نشرب الفايف او كلوكتي في كل يوم » (اي نشرب شاي الساعة الخامسة كل يوم وكنا (نشرب التاي مع الميلك) اي نشرب الشاي مع الحليب ، فما كان من احد الاخوان الهزليين الا ان وجد اليه تنبلة صوتية مدوية من فمه وهي ما يعبر عنه في بغداد « ضربة بزيك » . فأضحك الحاضرين واخجل المتكلم فتاب ذلك الشاب وتادب غيره من العائدين من الدراسة في الخارج فلم يعودوا يتحدثون فيما بينهم بغير لغتهم القومية .

مقترحـــــات :

اما وقد استعرضنا بايجاز الحماة والغزاة وحددنا موقفنا منهم فها نحن نبدي اقتراحاتنا بكل صراحة واخلاص :

1) نحن نعتقد بأن اللغة العربية هي لغة حية خالدة وهي في وسعها أن تصبح لغة الفكر والعلم والفن كما انها لغة الروح والخلق والتشريع . انها كائن حي ينمو ويتطور بنمو وتطور الشعوب التي تتكلم بها . ولذلك فيجب ان تكون اللغة العربية هي **اللغة السائدة** في الحياة وفي المجتمع وفي التعليم في كل البلاد الناطقة بالعربية .

2) نحن نعتقد ان اللهجات العامية الدارجة سوف تتطور وتتحسن في كل البلاد العربية وتتفاعل فيما بينها وذلك بفضل انتشار وسائط النقل الحديثة ووسائل الاعلام المنتشرة وتعميم التعليم الابتدائي وتعليم الراشدين . ونأمل **ان تلتقي اللغة الدارجة باللغة الوسطى** التي هي فصحى مبسطة في الاستعمال اليومي ، اما اللغة الفصحى بشكلها القرآني والادبي الخالد فهي الهدف الاسمى الذي يجب ان يسعى اليه كل متثقف ينطق بالضاد .

3) نحن ندعو الى **تيسير العربية** كتابة وقواعد وكلا ما على ان يستغني عن كل ما هو حشو وزائد . الكتابة العربية جميلة في حد ذاتها وهي مصدر فن جميل وعدم كتابة الحركات القصيرة (الفتحة والضمة والكسرة) تجعل العربية شبيهة بالاختزال وفي ذلك فائدة عظمى في الاستعمال ولاسيما في عصر السرعة . ولذلك وجب الاهتمام بتعليم الالفاظ ومعانيها قبل القراءة . بحيث نفهم الكلمة من المعنى . فحين نكتب « ركب زيد الجمل » لا يمكن ان نقرأ « الجمل » جمل لان الجمل يركب و « الجمل » لا تركب . وعلى كل فنحن ندعو الى تأليف **لجان من اساتذة التربية والعربية** ليقوموا بتجاريب وابحاث حول تيسير تعليم العربية في مراحل التعليم المختلفة .

4) نحن نأمل ان تهتدي كتابات الدولة للتربية القومية في كل بلاد المغرب العربي الكبير الى **تعريب التعليم الابتدائي بالسرعة الممكنة** ذلك مع تدريس لغة حية واحدة لكل الاطفال الذين في وسعهم تعلمها . اي الذين يكون ذكاؤهم « متوسطا » اعتياديا فما فوق . فلا حاجة لتحميل الطفل ذي الذكاء دون الوسط بتعلم لغة اجنبية . **نحن نعتقد بان تعريب التعليم الابتدائي هو ضرورة تربوية ونفسية الى جانب كونه ضرورة قومية ودينية** فلا توجد امة راقية في العالم اليوم تعلم التعليم الابتدائي بغير اللغة الام .

5) نحن نرجو الاهتمام بتدريس العربية في الثانويات لجميع الطلاب في جميع المعاهد . والاستعداد لتدريس العلوم بالعربية في الثانويات تدريجيا . على ان تعرب

الاجتماعيات كالتاريخ والجغرافية والفلسفة بالسرعة الممكنة . ولابد من التأكيد على اتقان لغة اجنبية واحدة أو اثنتين فى الدراسة الثانوية .

6) نحن نرجو أن تصبح اللغة العربية لغةأساسية فى التدريس الجامعي الى جانب اللغات الاجنبية ولا يجوز فى رأينا قبول طالب مواطن الى الجامعة ما لم يكن اتقن العربية . كما لا يجوز تخريج شاب مواطن من الجامعة لا يستطيع استعمال العربية فى حقل اختصاصه .

7) نرجو أن يشجع الطلاب وجمهور الشعب على التحدث بلغتهم القومية صافية . واستمرار الاذاعة والتلفزة والصحافة على القيام بعملها النافع فى هذا الباب .

8) نرجو العمل السريع من أجل تسهيل تدريس العربية والتدرج فى تعليمها من الدارجة الى الوسطى الى الفصحى . وعدم جعلها حملا يثقل كاهل الطفل بحيث يمجها ويتهرب منها . ولابد من ترويج السواح المحادثة الملونة وكتب الحكايات البسيطة الملونة والمجسمة بأسعار رخيصة للاطفال . كما نؤمل الاكثار من وضع الاناشيد والاغاني الجميلة للاطفال بالعربية بحيث يتمرنون بلغتهم الجميلة فى أوقات فراغهم وفى أثناء تجوالهم .

9) نحن ندعو الى الاسراع بالترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية فى كل العلوم والفنون كما ندعو العلماء من أبناء الامة العربية أن يؤلفوا بلغتهم . ففي تونس مثلا نخبة ممتازة من الاساتذة الافاضل الذين برزوا فى العلوم والآداب والفلسفة فى أربا وهم يجيدون العربية اجادة تامة فالمأمول منهم أن يسارعوا بتغذية المكتبة العربية عن طريق الترجمة والتأليف وأن ينشروا ابحاثهم بالعربية والاجنبية فى وقت واحد وأن لا يقتصروا على نشر أبحاثهم باللغات الاجنبية فقط . كما يجري فى منشورات كلية الحقوق والاقتصاد وكلية الاداب ومركز الابحاث الاجتماعية . ان جعل المجلات العلمية ذات لغتين يكتب فيها بالعربية والافرنسية أو الانكليزية معا من الامور الممكنة والمألوفة فى البلاد الغربية . فمجلات علمية عديدة فى العالم تصدر بلغتين أو ثلاث . فلماذا تحرم الثقافة العربية من عبقرية الاساتذة التونسيين الافاضل ؟

10) نحن ندعو الى تأسيس مجامع علمية عربية فى كل الاقطار العربية على أن تضم هذه المجامع نخبة الاساتذة الممارسين فعلا للتدريس والبحث . ومن مهام هذه المجامع وضع المصطلحات الجديدة وتشجيع التعريب والاتفاق على المصطلحات محليا ثم اقليميا ثم عربيا . ويسرنا دعوة الاستاذ فرحات الدشراوي لهذه الفكرة ذاتها فنحن نضم صوتنا الى صوته .

11) تعريب البيئة : ان كل البلاد التي رزحت تحت نير الاستعمار الاجنبي لا تزال البيئة في هؤلاء بالاسماء والعناوين والتعابير التي هي من مخلفات الاستعمار . وبهذه المناسبة أود أن انحني باجلال لذكرى صديقي العزيزين المجاهدين علي البهلوان والطيب المهيري . فاني أطلعت على كل الجهود الحميدة الطيبة التي بذلها المرحومان فى سبيل تعريب البيئة واني لارجو ان يقوم الاخوان الكرام الذين خلفوا المجاهدين بالاستمرار على حمل مشعل التعريب . وأود أن أضرب السنما مثلا على ذلك . أنا قلما أذهب الى السنما فى حياتي ولكني صادف أن ذهبت الى السنما مرة واحدة فى تونس فوجدت نفسي فى جو غريب من البداية الى النهاية . فالعربية لا تعرف لها منفذا الى دور السنما على ما يظهر . وأرجو أن أكون مخطئا . وتساءلت كم يكون جميلا لو كانت أسماء السنما مثل « سينما السرور » أو « سينما الحرية » أو « سينما الكفاح » أو « سينما النصر » أو سينما الحبيب » بدل أسماء أعجمية لا تمت الى ثقافتنا بصلة . وما يقال عن السنما يقال عن ظواهر أخرى من مخلفات الاستعمار أرجو الا يتكيف الشعب ازاءها تكيفا سلبيا . فلا يعود يكترث بها ولا يحس بثقل وطأتها.

العربية والاسلام :

تحدثت لحد الآن عن العربية بوصفها لغة قوميةيتكلم بها مائة مليون نسمة . ولكن علينا أن نتذكر دوما أن اللغة العربية هي لغة القرآن وهي لغة الاسلام وهي بذلك لغة انسانية عالمية . فالانسانية كلها تحتاج اليوم الى الهداية الاسلامية فى كل مكان فلا الشيوعية العالمية ولا الراسمالية الصهيونية تضمن استقرار العالم وطمأنينته . فلابد للامة العربية من أن تحمل رسالة الاسلام : رسالة التوحيد والحق والاخاء الى الانسانية جمعاء . فالعربية التي نزل بها القرآن الكريم هي ملك الانسانية جميعا . وليست ملك العرب وحدهم والناطقون بالعربية يتحملون مسؤولية تاريخية كبرى لاداء رسالتهم الانسانية . أتذكر أني حضرت مؤتمر العالم الاسلامي بمكة المكرمة سنة 1965 وكان لي

شرف تراس اللجنة التربوية الثقافية فى ذلك المؤتمر . فاستمعت الى اخواني الافارقة من كل حدب وصوب يطالبون الدول العربية باساتذة لتعليمهم العربية وبكتب لاستعمالها لهذه الغاية . كما يطالبون بقبول طلبة من بلادهم ليأتوا الى الاقطار العربية لتعلمها . أما فى آسية فالحاجة الى أساتذة العربية كبيرة كذلك . وها هي الباكستان كادت تتخذ اللغة العربية لغة رسمية لبلادها لو تيسر لها العدد الكافي من المدرسين والاساتذة ولذلك فالامة العربية مدعوة للاهتمام بلغتها لا لنفسها فحسب بل للانسانية جمعاء . فمن واجب الامة العربية تكوين وتخريج اساتذة يعلمون الدنيا كلها رسالة القرآن ومبادىء العربية . ولنصغ الى العالم الهندي الكبير سماحة السيد أبي الحسن الندوي يقول فى خطاب له :

« ان مصير المسلمين فى كل بلد مرتبط بمصير العرب . فاذا عز العرب المسلمون واذا ذل العرب ذل الاسلام والمسلمون أولئك الذين لا اعدل بهم قوما ولا اعدل بكتابهم كتابا ولا اعدل بلغتهم لغة ولا اعدل بحضارتهم حضارة . على ذلك احيا وعلى ذلك اموت .»

ثم ينتهي بقوله :

« الاسلام هو الذي يربطنا بكم ويربطكم بنا . هذا الاسلام الذي نريد ان نلتقى عليه فتولوا قيادته من جديد . لقد بدأت من هذا ولكني اختم فأقول الى القيادة العالمية من جديد أيها العرب » . !

اني أضم صوتي الى صوت هذا العالم الجليل وهذا يتطلب العناية الفائقة بديننا وبلغتنا العربية المحبوبة والقضاء على عوامل التخلف والتفسخ المؤثرة على حياتنا اليوم . وادعو الله جل وعلا بأن يوفق العرب فى كل مكان بأن يكونوا من حماة العربية ومن حاملي رسالة الاسلام الى الانسانية جمعاء . ولنذكر دوما قوله تعالى : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (1).

---

1) الزخرف 2

نداء إلى أصحاب الخزائن والمكتبات الثقافية والعلمية

لقد شرع المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي منذ سنتين فى تدوين موسوعة على صعيد المغرب العربي تتضمن التعريف بالحضارة المغربية وبلورتها على حقيقتها ، وقد الف لذلك شعبة بالمغرب الاقصى كما دعا الى تأليف شعب اخرى باقطار المغرب العربى الاخرى، وقد قطعت شعبة المغرب اشواطا بعيدة فى مراجعة جميع المصادر الموجودة بالخزانة العامة بالرباط باللغات العربية والفرنسية والانجليزية والالمانية، وتعمل الآن على استجلاء ما بقي من المصادر الموجودة فى الخزائن المغربية الرسمية الاخرى ، ولكنها فى حاجة الى الاطلاع على ما بقي من المصادر والوثائق بالمكتبات والخزائن العلمية التي هي فى ملك رجال يهتمون بالثقافة والعلم ، وكم تكون شعبة المغرب فى هيئة موسوعة المغرب العربي ممنونة لهم اذا ما تفضلوا فزودوها بلوائح لما يوجد لديهم من وثائق ومصادر حضارية على انهم سيكونون بذلك من المساهمين فى هذا المشروع العلمي الجليل الذي تعود فائدته على بلاد المغرب العربي خصوصا وعلى البلاد العربية والاسلامية عموما .

اللغة العربية بين مؤيديها ومعارضيها

للأستاذ ياسين رفاعية
(بيروت)

كانت الحكاية قديمة ، منذ طالب سعيد عقل باحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي وابدال اللغة العربية باللغة اللاتينية وهو الشاعر الذي شهرته اللغة العربية .. وطبعا لم تنجح دعوة سعيد عقل ، وقام بعده من يدعو الى العامية اللبنانية لغة للتخاطب والكتابة في آن واحد . وطبعا كانت تلك الدعوة اقليمية حاقدة،وكان لها مشجعون فلم يفسحوا المجال للرد على هذه الدعوات ومع ذلك ، لم تمض شهور حتى خمدت هذه الحركة ، وظل لواء العربية مرفوعا .. وصدر مؤخرا للدكتور كمال الحاج كتاب « في فلسفة اللغة » والذي يعتبر بمثابة ابرز دفاع عن الفصحى ، وقد صدر الكتاب عن دار النهار للنشر ، وللنهار ايضا ملحق ادبي يصدر اسبوعيا ويرأس تحريره الشاعر انسي الحاج وامانة تحريره الشاعر شوقي ابي شقرا ، وفي هذا الملحق دارت المناقشات التي سنحاول تقديمها في هذا المقال . وكان اول المتكلمين ايلي ابو خليل ، الذي دعا ، تعليقا على كتاب الدكتور الحاج ، الى احلال العامية اللبنانية محل الفصحى ، ثم دارت مناقشات حامية تبداها بما كتبه الاديب السوري الاستاذ ظافر القاسمي في ملحق النهار فقال : « الدعوة الى تغليب العامية على الفصحى وجعلها لغة الخطاب والكتاب ، قديمة يرجع تاريخها الى الحقبة التي انطلق فيها العرب من الجزيرة، وفتحوا بلاد فارس والروم ، وامتزجوا بامم كثيرة اخرى كالهند والاحباش والصين والصقالبة والترك وغيرهم ، وكانت الدعوة قائمة دائما على اختلاف في الاسباب وتعدد في الاساليب ، واليوم يتحرك منها الجامد ، ويستيقظ الراقد ، وتجد اقلاما مشرعة للذب عنها ، وللدفاع عن باطلها ، بلغة فصحى ، واسلوب اقرب الى السلامة ! ولا اريد ان اهاجم احدا ولا ان اشتم احدا ، ولا ان ابحث عن النيات التي تحتجب وراء الدعوة لانني رجل اقدس حرية الفكر واعتبر الحرية ملازمة للانسانية . لكنني ارى ان من حق الذين يؤمنون بالفصحى ، ان يعلنوا ايمانهم ، وان يدعوا اليه وان كان في رايي غير محتاج .

هؤلاء الذين يدعون الى تغليب العامية قوم جهلوا تاريخ اللغة العربية او انهم قراوه لكنهم لم يفهموه ، او انهم فهموه لكنهم لم يحفظوه ، او انهم حفظوه ثم نسوه . هذا التاريخ على طوله ، وتقادم عهده واتساع عمره المبارك ، ليس معقدا ، ولم يتخلله شيء من الاحاجي والالغاز ، بل هو واضح لكل من يقرا ويكتب . فكما ان فريقا من الامم المغلوبة يعشق اللغة العربية والف فيها وخدم ثقافتها ونشر لواءها ، واعلى اعلامها ، كذلك كان فريق آخر من الامم المغلوبة يسعى الى افسادها ، او الى تغليب لغته القومية عليها . فقد تعاقب الفرس والترك والتتر والديلم وغيرهم ، فماذا صنعوا ؟ انني لا اذهب الى التدليل بعيدا عن تاريخنا المعاصر . حكم الترك البلاد العربية ، وبخاصة سورية ولبنان ، خمسة قرون ، باسم الخلافة الاسلامية ، ولم يكتفوا بالفتح العسكري ، انما فرضوا ايضا لغتهم التركية لغة رسمية في الدواوين . دع ما حاول حزب الاتحاد والترقي في الفترة الاخيرة من حياة الامبراطورية العثمانية من جهد لتتريك العناصر العربية خاصة ، لكن خمسة قرون لم تصنع شيئا من طمس اللغة

العربية . ذلك ان نفوذ العثمانيين لم يكن ينحسر عن البلاد العربية حتى رايت اللغة العربية في المدارس والدواوين كانها لم تشهد خمسة قرون من الطي والحجاب .

وبعد أن يضرب الاستاذ القاسمي الامثال على قوة اللغة العربية وثباتها يتحدث عن الشاعر سعيد عقل اول من دعا الى ترك اللغة العربية فيقول : ولست اعجب للكسالى الذين لايحبون ان يتعبوا في تعلم هذه اللغة ، وفي دراسة قواعدها ، حتى ينطقوها نطقا صحيحا وحتى يكتبوها في اسلوب سليم . هؤلاء اذا دعوا الى العامية معذورون لانهم يحبون ان يستسلموا الى الراحة ، وان يبتعدوا عن التعب . لكنني اعجب لرجل عظيم ، قرشي الديباجة ، يقول الشعر برواء عباسي ساحر ، يمجد الامويين فيقول :

« واذا ما ضاقت الشام بهم
الحقوا الدنيا ببستان هشام »

تقرا شعره المعرب ، فيخيل اليك انه فر من جبل ابي نواس الى هذا الجبل ، او انه انتقل من شاطيء دجلة الى قمم الجبل الاخضر ، اعني به سعيد عقل ، لا استطيع ان اجد تفسيرا لدعوته الى العامية وبالاحرف اللاتينية أيضا . لقد استمع له الكثيرون مثلي وهو يدافع عن رايه في التلفزيون ، فما اقنع لانه كان يدافع عن العامية بالفصحى ، او بلغة هي اقرب الى الفصحى، وليصدقني سعيد عقل لو انه وضع بالعامية آلاف الكتب لضاعت كلها ولما حفظ الناس منها شيئا ، حتى في لبنان ، فما بالك في غير لبنان ؛ لكن هل يعرف سعيد عقل الملايين الذين يحفظون قصيدته « سائليني يا شام » او قصيدته « قرات مجدك في قلبي وفي الكتب » .

ويختم الاستاذ القاسمي رده على هذه الدعوة بالاشارة الى نقطتين هامتين ، الاولى : ان دعاة العامية يشبهون العامية باللغات الاوروبية التي انفصلت عن اللاتينية او اليونانية ، وفي رايي ان هذا قياس مع الفارق . ذلك ان اللغات الاوروبية قامت على دعائم عديدة احدها اللاتينية ، ويكفي ان ترجع الى معاجم الاشتقاق « الايتمولوجي » لترى ان كثيرا من الالفاظ يوناني او فارسي او روماني او انكليزي او عربي او غيره ، واحصى العلماء أصول الالفاظ في كل لغة وليس هنا مجال التفصيل .

ثم ان هذه اللغات قدمت الى الآداب الانسانية روائع جعلت منها لغات حية ، تناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وما زالت مصدر اعتزاز لاقوامها .

ونشأ من هنا ان اصبحت هذه اللغات بعد استقلالها ذات كلاسيكية معروفة ثابتة ، يدعو فريق الى التحرر منها ، ويدعو فريق الى التمسك بها . .

فأين هذا كله من العامية اللبنانية . . ؟

الثانية : لك ان تسميها دينية ، ولك ان تسميها اجتماعية ، اذا كنت ممن يفسرون الدين بانه ظاهرة اجتماعية . وفي الاحتمالين انها امر واقع لا خلاف فيه بين احد ، ذلك ان نصف سكان لبنان من المسلمين او اقل بقليل او اكثر بقليل ، فليس هذا مهما فهؤلاء المسلمون يتعبدون في كل يوم خمس مرات بقصار السور او بطوالها . . ومن ذاق بلاغة القرآن ، الذي قال عنه الوليد بن عقبة : « ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان له لصولة في القلوب ليست بصولة مبطل » لا يمكنه أن يهبط الى العامية ، كما لا يمكنه ان يكتب باللاتينية ، ومالي احصر تذوق بلاغة القرآن بالمسلمين وحدهم ؛ ان الذين اعرفهم من اخواني واصدقائي المسيحيين ، والذين يستظهرون بعض القرآن ، ويزينون به احاديثهم ، وكتاباتهم ، لايعدون ، ولو سألتهم : هل تعدلون عن هذه اللغة الى غيرها لاجابوك بالسلب .

وفي نظر عديد من المؤرخين المعاصرين ، وبعضهم من الفرنسيين ، ان هذا هو السر الخالد في بقاء العربية في شمال افريقيا عامة وفي الجزائر خاصة .

اللغة كائن حي ، ما في ذلك شك ، خاضع للتطور ولا بد له من مسايرة حاجات العصر ، لكنه بما زود به من عناصر الحياة ، يابى المسخ ، كما يابى الفناء .

وفي نفس العدد هناك مدافع عن العامية واقليمية لبنان ، وان الشعب اللبناني امة ليس لها علاقة بالعرب ويدافع عن سعيد عقل وهذا المدافع هو كمال وديع رحال يقول : الحرف المستعمل حاليا في كتابة العربية هو هندي لايمت الى العربية بصلة ، ولا اظنك ــ يقصد الدكتور زكي النقاش الذي دافع عن العربية في احد مقالاته ــ ترى سببا وجيها يحملنا على التمسك بهذا الحرف الغريب ما دام أصبح عاجزا عن أن يقوم بدوره على الوجه الاكمل ويؤدي المقاطع الصوتية المطلوبة من لغة حديثة متطورة ، زد ان الحرف اللاتيني حرف لبناني الاصل من جبيل كما يقول العلامة رينان والعلامة حتي .

وفي رد آخر من الكاتب السعودي جميل مقلان كتب يرد في هذا المجال على ايلي ابي خليل قائلا: انا لست عالما باللغات ، لكن باستطاعتي أن اقول ان المشاكل التي يراها الكاتب لا تحدث الا لمن درج لسانه

منذ الطفولة على لغة غير العربية الفصحى فى تعليمه ، كما يحدث لي عندما احاول ان اعبر عن افكاري بالكتابة الانكليزية رغم انني تعلمتها منذ المرحلة ما بعد الابتدائية الى الآن ..

ثم من زعم ان العامية العربية فى لبنان او مصر او العراق او الحجاز غير مفهومة تماما بالنسبة الى اختلاط افراد هذه الاقطار بفرد آخر ، انا افهم لهجة اللبناني والسوري والمصري والعراقي والتونسي ، ويمكنني التفاهم معه ، قد تختلف بعض المسميات انما ليس الى الحد الذي يمنع معه التفاهم ، كما هي حالي مع انسان غير عربي ..

كما ان اللغة العربية اثرت فى غيرها كالتركية والفارسية والاردية (فى الهند) والسواحلية (شرق افريقيا) والاندنوسية (الجاوية) حتى اللغات الاوربية، فليست هي ميتة او عاجزة .

واشار الكاتب الى ان لبنان سينحسر لو اعتمد اللهجة العامية كلغة رسمية له ، وعدد الاسباب كما يلي :

ا ـ لان لبنان بلد صغير وسكانه قلائل ، فاستعماله عاميته سيحصر نشاط فكره واشعاعه فى نطاق ضيق ولشعب صغير لايتجاوز المليونين وبذا ستخسر معظم الصحف والمجلات ودور الطباعة اللبنانية .

ب ـ ان لبنان يمثل التفاعل الخصب المنفتح مع الفكر الاسلامي والمسيحي واستعماله العامية سيحرم العالم العربي ويحرمه ثمرة هذا التفاعل .

ج ـ اذا احد فكر ان عامية لبنان ستتمدد او تنتشر فهو واهم ، فلو كان للهجة ان تنتشر وتنافس الفصحى ، لانتشرت العامية المصرية لعدد سكانها وموقعها الممتاز بين بلاد العرب .

د ـ ان التيار العالمي اليوم يندفع نحو كيانات اكبر واوسع واشمل ، نحو ما يوحد لا ما يفرق ، لهذا انشئت الامم المتحدة ولذا انشئت السوق الاوروبية المشتركة وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية وكتلة افريقيا وآسيا الى آخر هذه الجهود التجمعية . فكيف نحاول ، نحن العرب ، ان ننكمش وننغلق فقط تجاه جيراننا العرب الاقربين فى الوقت الذي ننفتح على الابعدين كالفرنسيين والانكلوسكسون وسواهم . ان هذه هي الرجعية الحق .

وانه لما يعد كسبا لانسان أن يتقن لغة يتكلمها حوالي مئة مليون ترتبط بهم مصالحه الاقتصادية وروابطه الاجتماعية ، وليس من المعقول ان هؤلاء كلهم امة من الهمج ولغتهم متحجرة والا لانقرضت كالفينيقية والفرعونية الميتة والاشورية او حتى لغات سبا وحمير من عرب الجنوب قبل الاسلام . فلا تنتشر لغة الا اذا كانت للامة رسالة وحضارة ، ولقد كانت للاسلام ولا تزال ، رسالة الامة العربية الى العالم ، ولا اعتقد ان دور الاديان والروح قد انتهى ، بل انه يتبلور ويعود بروح وتفسير جديدين للكون والحياة واما الحضارة فمكانة العرب فيها معروفة ..

ويختم الكاتب مقاله قائلا : اخيرا ـ على هذا البعض الذي لا تعجبه اللغة العربية ان يتبنى اية لغة يريد الا ان يرمي اللغة العربية واهلها بالموت فيقول: « لماذا لم تظهر فيها الروائع الخالدة منذ مئات السنين » . فهذا فى ابسط تحليل له هو جهل للتاريخ القريب ، فالامة العربية والتاريخ العربي لم يندثرا ويطوهما الزمن ويلفهما النسيان كفينيقية مثلا . الم يعلم الكاتب بأثر قصة الاسراء والمعراج ورسالة الغفران للمعري فى الشاعر الايطالي دانتي؟ الم يعلم بتأثير «الف ليلة وليلة » فى ادب العصور الوسطى فى اوروبا ؟ الم يعلم بتأثير الفلسفة الاسلامية فى القديس توما الاكويني ؟ وبتأثير قصة « حي بن يقظان » فى قصة روبنسون كروزو لديفو ، وغير ذلك من الروائع .

ثم هل اللغة العربية محدودة بحدود لبنان ؟ اليس بنوها منتشرين من المحيط الى الخليج ورمي لغتهم بالجمود والموت وعدم الابداع ابسط شيء يجرح كبرياءهم ويزعجهم ان يصدر ذلك من لبنان الذي يحبونه ويكنون له كل ود وخير والذي يعتبرونه اخا وشقيقا لهم ، لايفرقون بين كل بنيه ويحترمون معتقدات اهله ويودون منهم فى المقابل احترام مشاعرهم وتراثهم وتحري الدقة والموضوعية والانصاف فيما يكتبون ما داموا هم الاكثر انفتاحا والاكثر توعية » كما يقول الكاتب الفاضل .

وطبعا هناك مقالات اخرى اتخذت جانب ايلي ابي خليل ولكنها كلها كانت واهية لم تملك التبرير الكافي للصمود .. وقد اوقفت المناقشات مؤخرا الا ان الدكتور كمال الحاج صاحب الكتاب الذي اثار هذه الضجة نشر مقالا فى الملحق الادبي تحدث فيه عن الفلسفة البنيانية الجديدة لصاحبها كلود ليفي ستراوس، وكأن الدكتور الحاج اراد ان يرد على جميع هؤلاء بطريقة غير مباشرة فاورد فى هذا المقال قوله : نقدنا

للالحاد الستراوسي ، المزمع ان يكون ينطلق من اللغة ذاتها ، انجيل يوحنا سبق ستراوس الى اعطاء اللغة تلك المكانة البنيانية .

« فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » .

هذا قول يوحنا ، وهو قول بنياني حق بالاضافة الى انه قول لاهوتي حق « الكلمة » لفظة دلت في الفلسفة اليونانية على العقل الالهي الذي نظم العالم . وقد اخذها يوحنا بمعنى الكلمة الجوهرية الازلية .

ثم هناك الاسلام ، لقد سبق ستراوس أيضا الى الهنة اللغة العربية اذ جاءت وحدها الدليل على وجود الله . لذلك صمدت فى وجه الزمن الهروب ، اللغة العربية اصمد لغات الارض فى سابقات الزمن ولاحقاته، فى الماضي والمستقبل ، فريدة بين اللغات فى الازلية والابدية ، لكانها السرمدية ذاتا ، هذا بالتمام ما نصل اليه اذا طبقنا اقوال ستراوس عليها ، نصل الى انها بدون شك اللغة التي تناول الله بها الانسان من لسانه. ذلك ان الله كلمة ، والكلمة هي الله . من هنا اعجاز القرآن الكريم الذي هو ابتهال فى الفاظ ، هذا هو التعبد يوم يبلغ فى الوجدان كل مبلغ ، فتنبعث من النفس الآيات الهادية كأنها اجواق منغمة ، فى مثل رنين الجرس . لذا كان محمد صموتا لاينطق فى نبراته الا مرتلا . « ورتل القرآن ترتيلا » .. « واذكر اسم ربك، وتبتل اليه تبتيلا » .

لقد دفع محمد بسليقة الكلام الى حد لم يعد معه الانسان من بعده بحاجة الى كلام ابلغ وانفذ . وهكذا احلولى قوله ، وعذب ، وراق ، وكان ارجى في الاسماع واشد فى القلوب . ان اوجز كان مرضيا مقنعا ، وان اسهب كان مفهما مفسرا ، وان امر كان واعظا مرشدا ، وان حكم كان عادلا مستقيما ، وان اخبر كان موجبا مثبتا ، وان بين كان هاديا الى الصراط المستقيم . والكلام اذا كان مرصوفا بمثل هذه البلاغة ، منعوتا بمثل هذا الاشراق النافذ ، علت رتبته فتكوكبت النفس به ، وتسامت . ذلك هو الاعجاز ، تركيز نهائي فى وجه الزمان ، وثبات على الدهر ، وافحام يدل على انه سر الهي مكتوم . هو ديمومة السماء فى زوال الارض هو خرق للعادة المألوفة ، هو ارتفاع فوق الطوق البشري يروزه العقل مرة ، ولا يزنه ، الا يرجع خاسئا مرجوحا ، متى كان الكلام بهذه المثابة من الخطف والانجذاب كان هو ذاته التدليل على وجود الله .

أيضا وأيضا لسليمان الحكيم « ما كان فهو الذي سيكون ، وما صنع فهو الذي سيصنع فليس تحت الشمس شيء جديد . »

ان الحقائق التي اتت بها البنيانية ليست بجديدة، جميعها قيلت بشيء واحد يعتبر فيها ، الهنتها للغة التي اتخذتها اشارة الى ان الله غير موجود . الاسلام قطع الطريق على الالحاد الستراوسي ، لقد جاءت لغة القرآن الدليل الاكبر بالاعجاز على ان اللغة لا تصلح علميا ان تكون برهانا على الالحاد . وهكذا تتساقط منذ اليوم قواعد الالحاد الذي يعمل ستراوس على رفعه فوق نموذج اللغة ..

من هنا اراد الدكتور الحاج ان يؤكد سرمدية اللغة العربية وايضا على انها البرهان الوحيد على الايمان ووجود الله .. أفما يكفي كل هؤلاء الذين يحاربونها هذا الدليل المجيد ؟ .

كيف تفجرت طاقات اللغة العربية

للأستاذ حامد حسن
عضو المجلس الاعلى للآداب
(دمشق)

جمعت لغة العرب من الخصائص ، وتوفر لها من المميزات ، ما لم يجتمع ويتوفر فى غيرها من اخواتها الساميات .

فقد اخذت خير ما فيهن من الالفاظ والتعابير والمصطلحات ، لانها احدثهن انفصالا عن اللغة الام : فهي أوسعهن مفردات ، واكثرهن مترادفات ، والينهن حروفا ، واسهلهن مخرجا ، واعذبهن نطقا ، واصفاهن نغما وجرسا .

واللفظة العربية تمتاز عن غيرها من الفاظ اللغات الاخرى بانها تستدعي أختها استدعاء لحيفا ، لتقف الى جانبها بواسطة « المتعلق » وروابط الكلمات، والجمل، وادوات الفصل والوصل .

وهي الى جانب كل هذا تحتمل المعنيين :

1 — المعنى المباشر : وهو المعنى الذي وضع لمفهوم اللفظة منذ نشوئها .

2 — المعنى المجازي : وهو كما يدل عليه اسمه، اي ما تجاوز الحقيقة الى ما يقابلها لرابط بين المعنى الحقيقي ، وبين هذا المقابل .

ولقد ادخلت العصور الحديثة والتطور الحضاري على اللفظة العربية ، ظاهرة « التجسيد » ، ووسعت عالم طاقتها ، **وفجرت هذه الطاقة** ، فخلقت عوالم من الصور ، وكونت دنياوات من الاحاسيس ، ما كانت تحملها اللفظة العربية من قبل .

وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على **مرونة اللغة العربية** ، واستجابتها لمتطلبات الحياة ، ومقتضيات الحضارة . وانها **كائن حي** ، نام ، خاضع لنواميس التطور ، وقوانين الارتقاء .

ويتحلى الذهن العربي بالنقاء والصفاء ، والتفتح والانطلاق ، والتمرد والانعتاق من الحدود الضيقة ، وكل ذلك من معطيات الطبيعة الصحراوية ، المتفتحة الآفاق ، الملونة الجواء ، المترامية السعة والابعاد ، وانعكس كل ذلك على اللغة العربية ، وظهر فى مفرداتها وتعابيرها ، وصورها واغراضها .

واجتمع من كل ذلك للعربي جمال التعبير ، الى سعة الخيال ، وخصبه ، وحرارة العاطفة وتوقدها ، وامداء التطلع والتشوف ، وبلغ القول عنده غايته الجمالية ، فكانت البلاغة ، وكان الاقناع ، والبلاغة والاقناع هما كل ما ترمي اليهما اغراض التعبير فى كل اللغات .

وانك لتجد فيما تركه العرب من اشعارهم ، واقوالهم اللفظة المأنوسة المعبرة ، المسؤولة عن رسالتها فى الجملة ، والجملة الصحيحة المسؤولة عن دورها فى تادية الفكرة ، واغناء الصورة . تتساوق

كلماتها وتتناغم حروفها ، ويضاف الى هذا تزاوج فى الجمل المترادفة على المعنى الواحد لزيادة ايضاحه ، وتركيزه فى الذهن ، وتلوينه ، وعرضه بصور متعددة .

كما تجد التوازن والتوافق بين هذه الجمل ، والتجاوب الموسيقي ، وكل ذلك يشترك اشتراكا مباشرا ، ويتوزع توزيعا طبيعيا محكما ، ليعطينا المعنى المراد .

1 — الجمالية فى المقطع الصوتي :

لعل فى بيت البحتري الذي يصف به تموج الشمس على زجاج حيطان القصر الكامل — احد قصور الخلافة فى بغداد — وتشبيهه بأمواج البحر خير مثال للتجسيم الصوتي فى الكلمة .

وكأن حيطان الزجاج بجوه
لجج يمجن على جنوب سواحل

فهذا الاجيج الذي يحدثه حرف الجيم فى البيت يجسم لك صوت الامواج فى ساحل البحر .

وقال :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المذلة هائل

فالحروف والمقاطع التي تتألف منها لفظة « ترنم » الواردة فى البيت تعطينا صورة صادقة لصوت الحمام المترنم على شرفات القصر .

قال شاعر يصف كوخه :

غنة الاغن فيه ، وبه بحة الناي ، وبوح المزهر

فالنونات المشددة ، وحرفا الغين الواردة في صدر البيت تعطي صوت الاغن وغنته ، وصحل حرف الحاء فى عجز البيت يصور — صوتيا — بحيح الناي ، وبوح المزهر .

وكل الافعال الرباعية المضاعفة فى لغة العرب مثل زعزع ، ولعلع ، وزلزل ، ودمدم ، وجلجل ، هي اصوات تجسمت مقاطع وكلمات، وتضعيفها يعني تواتر الصوت ، وتكراره .

ويمكننا ان نطلق على هذه الزمرة الاخيرة من الاصوات اسم « حكاية الاصوات » لانها تحكي الصوت ذاته ، فى حين يمكننا — ومن باب الدقة — أن نطلق على الزمرة الاولى اسم « أصوات الحكاية » لانها تحكي الظاهرة النفسية ، وتصعد مخزون النفس من اللذة والالم عن طريق المقاطع الصوتية المختلفة .

2 — الجمالية فى اللفظة مفردة ومركبة :

اللفظة المفردة تقوم بدور هام فى اعداد النفس ، واحداث الاضطراب فيها ، ولكن دورها مركبة يكون اكثر عمقا فى الوجدان ، واقوى لمسا للاحساس ، واقدر على تحريك سواكن النفس ، واستثارة كوامنها، وادعى لبعث انفعالها وهيجانها .

واللفظة المفردة مهما أوتيت من تساوق الحروف، وتزاوج المخارج وتناغم اللفظ ، ومهما حملت من سعة المعنى ، وشموله ، وجلاله ، فانها لا تستطيع أن تؤدي الرسالة التي تؤديها وهي مركبة ، وانها لاشبه بالدرة الفريدة يزيدها انتظامها فى العقد بهاء ورونقا ولألاة .

فالتركيب فى اللغة العربية اذا تعهدته يد صناع، وتكفله ذوق سليم ، ونظمه عقل عليم بأسرار الجمال البياني اذا تم له كل ذلك تفجرت **طاقات الالفاظ وانداح عبيرها الآسر** ، وملأت جواء النفس ارتعاشا محببا ونشرت فى جوانبها وأعماقها ارتياحا عميقا .

لا يمكن لحجارة البناء مهما كان حظها من جودة الصقل ، ونصاعة اللون ، وكرم المعدن ، واستقامة الزوايا ، أن تستأثر باعجابنا ، وتستحوذ على تقديرنا، وهي مفردة ، متفرقة ، كما لو ضمت الى نظيراتها فى بناء القصر المنسق الجميل ، الذي صممته يد مهندس خبير بأسرار البناء .

ولنأخذ على سبيل المثال : لفظتي : ارتد النفس — بفتح الفاء — فماذا تعطياننا ؟؟ انهما تعطياننا المعنى المباشر الموضوع لهاتين اللفظتين فى طفولتهما وهو معنى لا يثير فينا هزة ، ولا يحدث فى أعصابنا زلزلة ، حتى ولا اختلاجة ، وما ذلك الا لانه أخذ بمعناه العادي البسيط على طريقة الاخبار أو الانشاء .. ولكن لنأخذه بمعناه المجازي ، ونضعه مع مقابل له يزيده وضوحا، ويكسبه بالمقارنة روعة وجمالا .

قال بشار بن برد — مخضرم الدولتين الاموية والعباسية — يصف حركات حبيبته :

صدت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المرتد

لقد احسن الشاعر توظيف هاتين الكلمتين ، وتمكن ببراعته وخبرته بصناعة البيان العربي ان يحملهما مسؤولية فنية ، وهذه المسؤولية هي : تشبيهه سرعة حركات حبيبته بسرعة تكسبها خفة ورشاقة وجمالا .

ونجد وراء هذه الصورة التي تتبادر اولا الى اذهاننا معنى ادق وابعد وغرضا اسمى واعمق وهو أن صاحبته رشيقة القوام ، وكثيرة الميسان ، وهي صفة محبوبة فى نساء ذلك العصر ، كما يوحي هذا التعبير الينا انها حيية خفرة ، تنفتل بخفة ورشاقة لتتقي الناظرين ، والخفر والحياء صفتان مرغوب فيهما فى المراة العفيفة .

والآن لناخذ لفظة « الشهوة » او جمعها « الشهوات » فعلى ما فى هذه اللفظة من مقاطع صوتية مثيرة ، كالشين المشددة المفخمة ، والهاء الحلقية ، والجهد الذي تبذله الشفتان فى التلفظ بمقطع الواو ، فان كل ذلك يظل مقصورا على حركات ، وانقباضات ، وانبساطات ، يقوم بها جهاز النطق ، لتهيئة النفس لقبول الاثر الخارجي ، ولكن اذا اخذنا هذه اللفظة مركبة مع غيرها كما أوردها العباس بن الاحنف ، فانها تخلق جوا أوسع ، وأصدى ، وانغم :

اتأذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر

فتوالي حركات هذه اللفظة وامتداد الصوت عند نطقها ، واختلاف هذا الامتداد بين الثنايا ، والصدر ، والشفتين ، واضافتها الى لفظتي السمع والبصر يخرجها من طفولة المعنى وبساطته الى عنفوانه وسموه وروعته .

وهل فاتك ان العباس بن الاحنف هو من شعراء العفة العذريين القانعين بشهوات السمع والبصر ، عن شهوات اللمس والذوق الحسيين ، وانه استطاع بهذا البيت ان يترفع بالحب عن الدنيا ، مع انه استعمل لفظة كان مدلولها — فى الاصل — للذوق واللمس الماديين .

ولفظة « تحير » تفيد التوقف ، وعدم الاهتداء ، ولما استعملها ابن أبي ربيعة فى محلها ، ونفث بها من مجاز المعنى ، اعطت جمالا اغنى ، وافقا ارحب ، وربيعا اخصب .

وهي مكنونة « تحير » منها
فى اديم الخدين ماء الشباب

فما الشباب على ترقرقه وصفائه فى الخدين ، وتوهجه بنار الشباب ، لم تكتمل ملاحته ، ولم تستفض روعته ، الا بهذا « التحير » .

هذا مع الاشارة الى اني أرغب فى التجاوز عن لفظة « اديم » الواردة فى بيت ابن أبي ربيعة ، واعتبرها ، تلقة ، غريبة ، نالت من جمال البيت ، وترف لفظه ، ولم يشر النقاد — قديما أو حديثا — الى ذلك مع انهم اشبعوا هذا البيت نقدا ودرسا واكثروا منه تمثيلا واستشهادا .

وعند كثير عزة نجد أمثال هذه الاوابد الشوارد التي يمتاز بها شعر العرب ، قال :

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى
فى الحسن — عند موفق — لقضى لها

فهل بادهتك الروعة وبهرك الجمال فى شبه الجملة المعترضة — عند موفق — ؟ ؟

واي معنى تحصل عليه اذا جردت البيت من هاتين اللفظتين المعترضتين ؟ ؟

من المتخاصمان ! ! عزة ، والشمس .

الشمس فى راد الضحى ، لا فى مستهل الصباح ولا فى اصفرار الاصيل ! !

ما هو الحكم المشروط ؟

هو ان يحكم لعزة على خصيمتها ليكون موفقا .

وهذه لفظة « تتقرى » وهي على شيء من الغرابة وخشونة اللفظ ، اخذها البحتري واستعملها فى ازالة شكه وارتيابه ، المغتلى ، عندما وقف يتأمل بدهشة وذبول صور الفرس والروم ، واعلامهم وسيوفهم ورماحهم المشرعة فى معركة انطاكية المرسومة على جدران ايوان كسرى ، حتى خيل اليه انهم أحياء — جد أحياء — .

ولا يفوتنك التعبير — جد أحياء — لما فيه من التأكيد والالحاح على السامع ليقنعه بانه يرى أناسا احياء ، لا صورا مرسومة على الجدران .

هذه اللفظة كما ذكرنا استخدمها هذا الشاعر للتأكد من الحقيقة عن طريق لمس اليد — لا بل اليدين متناوبتين فى اللمس ، أو متعاونتين — فجاءت كما ارادها طبعه السليم .

تحسب العين انهم جد احياء
لهم بينهم اشارة خرس

يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس

ومن التعابير الفنية الغنية التي تزخر بها لغة العرب قول الشريف الرضي :

ولقد مررت علـــى ديارهـــم
وطلولها بيد البلـــى نهـــب

وتلفتت عيني ، ومـــذ خفيـــت
عني الطلول ، تلفت القلـــب ! !

فالتفاتة العين شيء طبيعي لا يستثيرنـــا ، ولا يحدث فينا هزة ولا ارتعاشة ، أما تلفت القلب فهـــو الشيء الذي ينتزع اعجابنا ويحركنا لما فيه مـــن (تجسيد) اللفظة . والذي زاده امعانا فى الحسن ، وايغالا فى الجمال هذه المقارنة بين تلفت العين وتلفت القلب .

بين هذه الالتفاتة الطبيعية وهذا الالتفات المجازي، ومن التداعي للمشابهة ، والمناسبة ، أن نورد فى هذا المقام قول البحتري أيضا :

عذيري فيك مـــن لاح اذا مـــا
أطلت العتب « حرقنـــي » ملامـــا

فتعبير « حرقني » بلغ غاية الاجـــادة لما اجتمع للفظة « حرقني » من مقاطع صوتية هازة ولما فى وزن « فعل » من تعطيش عين الفعل وقوتها ، ولـــما فى اسناد « التحرق » للملام ونقلـــه من معناه الذي هـــو للنار الى المعنى المجازى ولما بين حرارة النار وحـــرارة الملام من مشابهة فى الايلام .

ويجدر بنا أن نشير هنا الـــى « الجماليـــة » فى المقاطع الصوتية الواردة فى صدر هـــذا البيـــت ، فامتداد الصوت فى الياء الساكنة المكسور ما قبلها فى لفظتي ، عذيري ، وفيك ، والالف الساكنة المفتوح ما قبلها فى الفاظ « لاح » « اذاما » يحمل شحنة عاطفية ترتاح اليها النفس فى هذا الانسياب الناغم .

* * *

والآن وبعد ما تقدم علينا أن نحاول ايجاد نوع جديد من الدراسة الفنية ، نطبق فيه ـــ بقدر الامكان ـــ المعايير والمقاييس الحديثة التي اشرنا اليها فى هذه الدراسة لتكون منهاجا جديدا يخرجنا منطاق الدراسات الكلاسيكية المعروفة .

نعتمد فى هذا المنهاج على ثلاثة عناصر :

1 ـــ البناء النغمي أو الموسيقي أو ما سميناه بجمالية المقاطع الصوتية ومدى تناسقه مع التوتـــر النفسي ، وقوة حركته وموجانه .

2 ـــ البناء التناسقي وتداعي الكلمات وتآخيهـــا وتماسكها وحيويتها .

3 ـــ البناء المنطقي أو عمل العقل المنظم من حسن عرض واغناء صور وتلوين آفاق .

على ضوء هذه الاسس والمقاييس سنتلمس الجمالية فى هذين البيتين ومدى الشحنة العاطفيـــة والوجدانية التي يحملانها ، والاثر الذي يتركانـــه فى النفس . ونرى هل توفرت هذه العناصر وما هـــي النسبة لكل منها .

ولما نزلنا واديا طله النـــدى
حيبا ، وبستانا من النور حاليـــا
أجد لنا طيب المكـــان وحسنـــه
منى ، فتمنينا ، فكنت الامانيـــا

1 ـــ اننا نجد التشديد المتعطش ، الذي يعنـــي التوقف لخلق شحنة من الاستثارة وتعميقها فى سبعة مواضع من البيتين ، وفى الالفاظ التالية : ولما ـــ طله ـــ الند ى ـــ حيبا النور ـــ أجد ـــ فتمنينا .

2 ـــ نجد الاطلاق الصوتي فى الالف الساكنـــة المفتوح ما قبلها فى خمسة عشر موضعا ـــ ولما ـــ نزلنا ـــ واديا ـــ الندى ـــ حيبا ـــ وبستانا ـــ حاليا ـــ لنا ـــ المكان ـــ منى ـــ فتمنينا ـــ الامانيا .

وهذا الانسياب الصوتي مع الالف الساكنة يعني راحة النفس يقذف ما تخزنه من الطاقة العاطفية .

3 ـــ نجد بوحا هامسا فى لين الواو والياء الساكنتين فى لفظتي ـــ النور ـــ وطيب ، وفى ضمة الهاء المشبعة من لفظة « حسنه » .

وهذا كله يشكل خطا بيانيا متعرجا للتوتر النفسي الداخلي ، والفترات الزمنية التي تستغرقها الذبذبات والاصوات فى اغوار النفس ، صاعدا مع الضمـــة واشباعها ، متناسبا ممتدا مع الفتحة ، مستقيما صلبا مع التشديد ، هامسا منغوما مع اللين والسكـــون ، هابطا رقيقا مع الكسرة .

ولعلك لم تفتك هذه الانات التي تبعثها فيك هذه النونات المتعاقبة فى شطر البيت الثاني منـــى ـــ فتمنينا ـــ فكنت الامانيا . فهذه « الغنة » التي يحدثها هذا الحرف النغيم تعطينا صورة صوتية مهموســـة ناغمة لما يعتمل فى اعماق النفس من انفعالات .

اما البناء المنطقي وتسلسل صوره فيتجلى فى ان الوادي المطلول يكون « حيبا متحليا بالنور والاريج ، ويصبح النزول به ـــ وهو على هذه الشاكلة ـــ حاجة طبيعية ملحة .

ثم جاءت لفظة لما الحينية لتضع الزمان بجانب المكان ، ليكون للقول مرتسم فى الذهن وتصور فى الخيال ، لان الذهن والعقل يتطلبان الحدود الزمانية والمكانية ، ومتى حصل الزمان والمكان اطمأن العقل وهدأ الذهن ودخلت الحادثة فى حيز الحصر والامكان والتصور .

وهنا ندرك أن قيام الزمان والمكان فى تصورنا والنزول فى الوادي الطليل بالانداء توفرت الاسباب الخارجية المثيرة للحواس ، فتم التداعي واستحضار الصور فتذكر الشاعر حبيبته .

وانظر كيف « نكر » الشاعر لفظة « منى » لتكون شائعة فى جنس الامنيات العديدة وكيف عرف لفظة (الاماني) فى قوله « فكنت الامانيا » والمعرف يستغرق كل الجنس لا بعضه .

ولو أردنا استقصاء الجمال فى هذين البيتين لاعوزنا وقت أطول ولكن حسبنا اننا اشرنا بعض اشارة ودللنا بعض تدليل على الجمال المتدفق منها متطعا ولفظا مفردا ومركبا .

تلك المامة عجلى ، ولمحة خاطفة ، بل ذلك غيض من فيض ، مما تزخر به لغة العرب — وخاصة فى الشعر — من جمال صوتي ، وتعبيري ومعنوي وهي خاصة تميزت بها لغتنا العربية عن الكثير من اللغات .

ولكن هذه الكنوز لا يمكن استخراجها ، والانتفاع بما فيها ، الا اذا توفرت فى المنقب الدارس الملكة الفنية ، والحس الرهيف ، والذوق الرفيع ، والعلم الواسع ، والاطلاع الشامل على اسرار الكلم العربي ، وأوتي القدرة على استجلاء معانيه واكتناه جمالاته ، وتفجير طاقاته فعلى أدباء الامة العربية أن يكتشفوا هذه الجوانب الجمالية المتميزة فى لغتهم ويكشفوها للعالم .

الخط العربي نشأته وتطوره

للدكتور الطاهر أحمد مكي

هذا بحث (1) قيم خص به الاستاذ الجليل الدكتور الطاهر احمد مكي استاذ الادب الاندلسي فى جامعة القاهرة ، مجلة « اللسان العربي » وحضرة الاستاذ ضليع فى تاريخ الحضارة الاندلسية ومختلف معالمها .

فنحن ننشر هذه الدراسة الشيقة شاكرين :

... نحن نواجه قضية علمية لا بأس من اسقاط الروايات التي عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة ، ولم يصبروا على محنة البحث ، فلاذوا بالاسطورة يجدون فى رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة .

فالحروف العربية ، عند هؤلاء ، انزلت على آدم عليه السلام ، كتبها فى طين وطبخه ، بين خطوط وكتب كثيرة ، قبل موته بثلثمائة سنة ، فلما أظل الغرق الارض اصاب كل قوم كتابهم . وقيل ان اول من وضعها اخنوخ ، وهو ادريس عليه السلام ، وقيل : « أول من كتب بالعربية اسماعيل » ، وان نفيسا ونصرا وتيما ودومة أبناءه وضعوا كتابا واحدا ، وجعلوه سطرا واحدا ، موصول الحروف كلها غير متفرق، ثم فرقه نبت وهميسع وقيذار، وفرقوا الحروف وجعلوا الاشباه والنظائر .

اما الشيخ شمس الدين بن الاكفانى فكان ، فى كتابه « ارشاد القاصد » أكثر التصاقا بالارض ، وتحريا للواقع ، وايمانا بالانسان ، فهو الذي صنع الخط ، « وبه ظهرت خاصة النوع الانساني من القوة الى الفعل ، وامتاز به عن سائر الحيوان ، وضبط الاموال ، وترتيب الاحوال ، وحفظ العلوم فى الادوار ، واستمرارها على الاطوار ، وانتقال الاخبار من زمان الى زمان ، وحمل السر من مكان الى مكان » .

وكان ابن خلدون (ت 808 هـ = 1406 م) أول عالم ، عربي أو غير عربي ، ربط بين الحضارة وابتداع الخط ، بين اجادته وتقدمها ، ثم تتبع مده داخل الجزيرة العربية : « انما يكون — الخط — بالتعليم ، وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغي فى الكمالات والطلب تكون جودة الخط فى المدينة ، اذ هو من جملة الصنائع ، وقد قدمنا ان هذا شأنها ، وانها تابعة للعمران ، ولهذا نجد اكثر البدو اميين لا يكتبون ولا يقرءون ، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا ، وقراءته غير نافذة ، ونجد تعليم الخط فى الامصار الخارج عمرانها عن الحد ابلغ واحسن واسهل طريقا ، لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد ، وان بها معلمين منتصبين لتعليم الخط ، يلقون على المتعلم قوانين واحكاما فى وضع كل حرف ،

1) فصل من مقدمة كتاب « دراسة فى مصادر الادب» الذي سوف تنشره دار المعارف فى القاهرة خلال الاشهر القريبة .

ويزيدون الى ذلك المباشرة بتعليم وضعه ، فتعتضد لديه رتبة العلم والحسن فى التعليم ، وتأتي ملكته على اتم الوجوه ، وانما اتى هذا من كمال الصنائع ووفورها، بكثرة العمران ، وانفساح الاعمال » .

« وقد كان الخط العربي بالغا مبالغه » من الاحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري، وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر، نسباء التبابعة فى العصبية ، والمجددين لملك العرب بارض العراق ، ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ، ومن الحيرة لقنته اهل الطائف وقريش فيما ذكر » . وصمت ابن خلدون ، احتراما لشرف الكلمة ، عندما غمت عليه نشأته ، فلم يشر الى الخطوات الاولى التي سبقت اتقانه وجودته عند أولئك وهؤلاء .

ولابن عباس رواية ، من بين روايات كثيرة تنسب اليه ، مؤداها : « ان أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان ، وبولان قبيلة من طيء ، نزلوا مدينة الانبار (1) ، وهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية ، فأما مرامر فوضع الصور ، واما أسلم ففصل ووصل، واما عامر فوضع الاعجام ، ثم نقل هذا العلم الى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر فى الناس وتداولوه » . وهي رواية الصناعة فيها واضحة ، والسجع الذي فى « مرة وسدرة وجدرة » يوحي بأنها شخصيات لا وجود لها الا فى مخيلة صانعها ، ويصعب على العقل أن يتصور ثلاثة من الغرباء ، التقوا عفوا أو قصدا ، يمكن أن يبتدعوا ، ببساطة وفى زمن قصير ، ابجدية كاملة ، لكن الرواية تضم اشارتين لهما اهمية بالغة ، أولاهما ان الخط العربي ، فى بعض مراحله ، أفاد من الرسم السرياني ، وأخراهما أن الانبار كانت من بين مواطن تعليم الخط العربي واذاعته فى بقية انحاء الجزيرة العربية .

وتأتي روايات اخرى فتفصل ما اجمله ابن عباس فى هذه الرواية ، فقد تعلم بشر بن عبد الملك الكندي الخط فى الانبار ، ثم خرج الى مكة فى بعض شأنه ، وهناك أصهر الى بني أمية ، فتزوج الصهباء بنت حرب ابن أمية ، وعلم اباها واخاها سفيان بن حرب الخط ، وتعلمه معاوية من عمه سفيان ، وتعلمه معه عمر بن الخطاب ، ثم شاع الخط فى سائر قريش .

وثمة روايات أخرى تزيد الامر تحديدا ، فتجعل انتقال الخط من الانبار الى الحيرة ، ومن الحيرة الى داخل الجزيرة ، ودور الحيرة فى الادب العربي ، والحياة العقلية العربية ، واضحا ومعروفا ، اجملـه ابن رسته فى كتابه « الاعلاق النفيسة » : « ان اهل الحيرة علموا قريشا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة فى صدر الاسلام » .

من الواضح اذن ان الخط العربي جاء الى الجزيرة العربية من خارجها ، من اطارفها ذات الحضارة المتقدمة ، والمتفاعلة مع ما جاورها من حضارات أكثر تقدما . ولم يتفق المؤرخون العرب على المكان الذي كان المصدر الاول ، ولا على أول ناقل له، وهو أمر طبيعي ، فالاقرب الى المنطق ، فى بيئة كانت، رغم صحاريها ، محور التقاء بين عدد من الحضارات، ومحطا للمسافرين من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ، وتحترف التجارة أو الحراسة أو الوساطة بين كل هؤلاء ، أن تأخذ عنهم جميعا ، وأن تقلدهم فيما يسبقونها ، وأن يتم ذلك على ايد كثيرة ، تمثلته على آماد طويلة ، فكان لهم اخيرا رسمهم العربي المستقل .

تلك وجهة نظر العرب القدامى ، أما البحث الحديث فسلك بالامر وجهة أخرى . حاول أن يتتبع نشأة الابجديات فيما حول الجزيرة العربية نفسها ، وأن يستنطق ما عثر عليه من نقوش فى أطارفها ، ورغم النتائج العلمية التي توصل اليها ، فان الكلمة الفاصلة لا تزال فى انتظار المزيد من الحقائق ، لان كنوز قلب الجزيرة العربية المطمورة من الشواهد والمخلفات والآثار ، اذا ما أميط اللثام عنها ، يمكن أن تسد الفجوات القائمة فى النظريات الحديثة ، وأن تحول كثيرا من الظنون والشبهات الى يقين .

---

1) مدينة قديمة فى العراق ، على الشاطىء الايسر للفرات ، فى الشمال الشرقي من العراق فتحها خالد ابن الوليد عام 634 م .

كانت شبه‌جزيرة سيناء الملاصقة لموطن الانباط(1) مهد أقدم نقوش أبجدية حصل عليها حتى الآن . وهذه النقوش قد كشفت حديثا عند سرابيط الخادم ، ونقلت الى متحف القاهرة . وقد قامت عدة محاولات لفك طلاسمها ، وهذه الكتابة من صنع العمال من اهل سيناء فى مناجم الفيروز ، ويرجع تاريخها الى سنة 1850 قبل الميلاد ، اي انها أقدم بنحو ستة قرون من نقش احيرام ملك جبيل (2) ، والتي وجدها العالم الاثري بيير مونتيه P. Montet واعتبرت التالية لاقدم النقوش الفينيقية المعروفة .

وبعد تطور الابجدية السينائية نقلت حروفها الى شمال الشام ، ثم حولت هناك الى الحروف المسمارية الفعلية ، كما تدل على ذلك لوحات راس الشمرة ، التي ترجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومن الواضح أن هذا الخط الذي كشف حديثا هو خط ابجدي سامي ، ورغم انه كتب بالقلم على لوحات من الفرين فان حروفه ليست مستعارة من الحروف السومرية الاكادية السابقة ، ففيه قد حولت الابجدية السينائية الى غرار الرموز (الوتدية) المسمارية .

ويرى العلماء المحدثون ان الكنعانيين ، وكانوا اول من استعمل طريقة للكتابة تستعمل فيها الحروف خالصة ، قد نقلوا طريقتهم فى الاصل عن الحروف الهيرو غليفية المصرية ، ولكن الهوة بين طريقتي الكتابة كانت دائما شاسعة ، فجاءت الكتابة السينائية الآن لتصل بين الكتابتين ، ولتكون الحلقة المفقودة بينهما . ونضرب لذلك مثلا فنقول ان السامي من اهل سيناء اخذ من الهيروغيلفية الرمز الذي شكله راس ثور (بصرف النظر عما يعني راس الثور فى اللغة المصرية) واطلق على راس الثور هذا فى لغته اسم « الف » ، ثم استعمل هذا الرمز ليدل وفق قواعد الاكرفونية على الصوت ، وبالطريقة نفسها اطلق على الرمز الذي يدل على البيت وسماه « بث » واستعمله للدلالة على الصوت (ب) وهكذا (3) .

والاصل السينائي للابجدية يشرح لنا كيف كان فى الامكان نقلها من ناحية الى جنوب بلاد العرب ، حيث مرت بتطور مستقل ، واستعملها المعينيون فى تاريخ ربما كان يرجع الى سنة 1200 ق . م . ومن ناحية أخرى كيف نقلت الى الشمال حيث الساحل الفينيقي ، ولقد نقلت الابجدية مع التجارة فى الفيروز الذي كان يبيعه العرب الى الفينيقيين ، كما انها بالمثل تماما نقلت مع التجارة من الفنيقيين الى اليونان ، واصبحت أم الابجديات جميعا (4) .

وأقدم رسم عربي وصل الينا كان مشتقا من خط المسند (5) اليمني ، وهذا مشتق بدوره من الخط الكنعاني ، ووصل الينا فى نقوش تحمل ثلاثة انواع متقاربة منه ، عثر عليها فى منطقة واسعة فى شمال شبه الجزيرة العربية ، تمتد من دمشق حتى منطقة العلا ، هي النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية . والخط اللحياني لا يكاد يختلف عن خط المسند الذي اشتق منه ، ويسير مستعرضا من اليمين الى الشمال. والخط الثمودي مشتق منخط المسند ايضا، واتجاهاته غير ثابتة ، وغالبا يتجه من اعلى الى اسفل . والخط الصفوي يشبه الخط اللحياني غير انه مختلف الاتجاهات ، فتارة يقرا من اليمين الى الشمال واخرى من الشمال الى اليمين . وحروف الهجاء فيها كلها ترسم متفرقة ، واغفلت الحركات القصيرة ، واصوات المد

---

1) فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد جاء الانباط ،كقبائل بدوية ، من الموضع الذي يعرف باسم ما وراء الاردن ، وجعلوا عاصمتهم البتراء ، وهي فى العبرية سلع ، وفى العربية الرقيم ، واسمها الحديث وادي موسى . وكان الانباط يتكلمون اللغة العربية ، ويستخدمون الحروف الآرامية ، وبلغت البتراء اقصى درجات الغنى والرخاء فى القرن الاول الميلادي ، وكان الانباط يكونون حلقة هامة فى السلسلة التجارية التي كانت عاملا فى ازدهار بلاد العرب الجنوبية ، وبعد القرن الاول الميلادي فقدت مزايا المركز الممتاز ، واخذت دولة الانباط تتدهور . ثم انطوت تحت راية الامبراطورية الرومانية ، واختفى تاريخ البتراء بعدها لعدة قرون .

2) جبيل مدينة من اشهر مدن الفينيقيين ، ويطلق عليها فى المصادر اللاتينة اسم بيبلوس .

3) فيليب خوري حتى : تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، ص 84 ، الطبعة الثانية ، القاهرة 1949 .

4) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

5) سمي المسند لان معظم حروفه خطوط تستند الى اعمدة ، وكان علماء المسلمين هم الذين انتبهوا الى هذه الظاهرة ، واطلقوا عليه هذا الاسم .

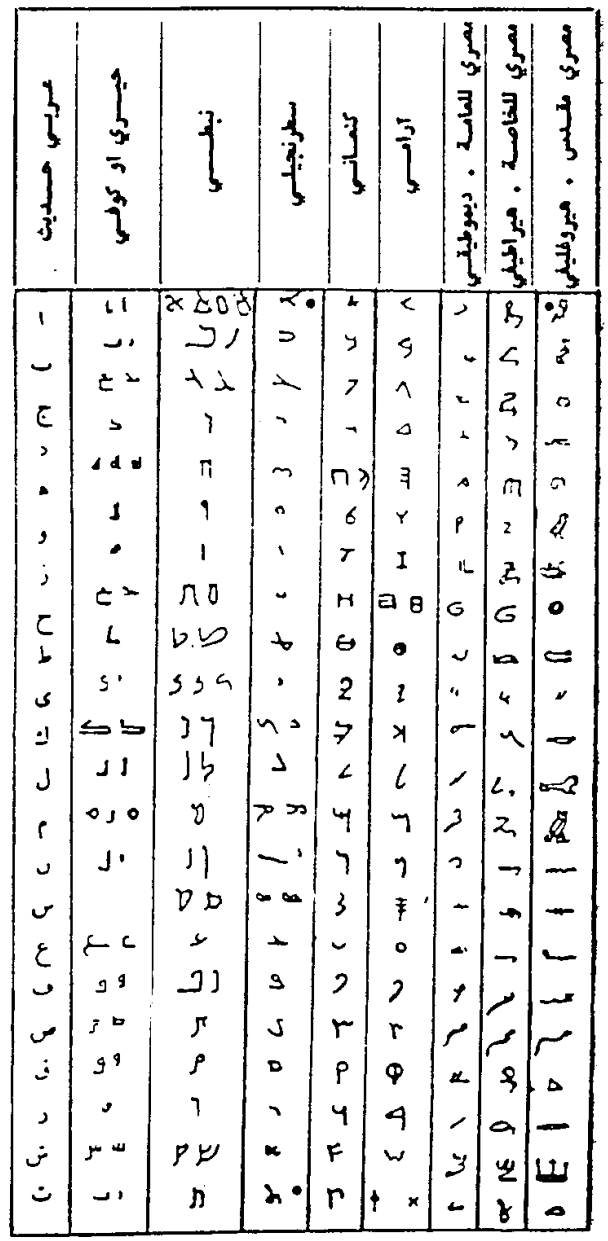

الطويلة اغفالا تاما ، وكانت مجردة من الاعجام . وبعض حروفها يستخدم للرمز الى اكثر من صوت واحد .

لدينا عدد من النقوش يمثل تطور الخط العربي الذي نكتب به الآن فى مراحله المختلفة ، منذ كان تقليدا للخط النبطي ، او هو الخط النبطي محورا ، الى ان استقام فنا قائما بذاته ، له اصوله وقواعده واساتذته والوانه على النحو الذي يعرف به اليوم . وخارج عن موضوعنا ان نعرض لكل هذه النقوش ، فلذلك موضعه من الدراسات السامية ، وانما يعنينا أن نشير الى بعض منها ، بما فيها الخط النبطي ، لتعين على تصور مراحل تدرج الخط العربي .

فقد عثر فى ام الجمال ، جنوب حوران ، من اعمال شرقي الاردن ، على نقش من ثلاثة سطور ، آرامي اللغة ، نبطي الخط ، وصورته :

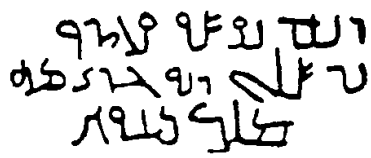

وكلماته فى حروف عربية حديثة هي :

1 — دنه نفسو فهرو .
2 — بر سلى ربو جذيمت .
3 — ملك تنوخ .

وترجمته الى اللغة العربية :

1 — هذا قبر (1) فهر .
2 — ابن سلى مربى جذيمة .
3 — ملك تنوخ .

وقد وجد النقش بلا تاريخ ، ويرجح المستشرق الالماني انوليتمان Enno Littman والكونت ذي فوجويه De Vogüé انه يرجع الى عام 270 م ، ويميل ليتمان الى ان كاتب النقش عربي يعرف الآرامية ، لانه وضع اسماء الاعلام العربية فى قالب آرامي بزيادة حرف الواو فى كلمات : نفس وفهر ومربى . ويرى أن حرف الواو الزائد وضع لينوب عن التنوين فى حالة الرفع ، ولعل كاتب هذا النقش اراد باثبات الواو ان يدل القارىء على النطق الصحيح للكلمة . ويضم النص حروفا غير مرتبط بعضها ببعض ، مثل حرف السين من كلمة « نفسو » فى السطر الاول ، والياء من كلمة « جذيمت » فى آخر السطر الثاني ، أما كلمتا « سلى » و « ملك » فرسمهما قريب جدا من رسمهما العربي الاسلامي .

ويليه نقش « النمارة » ، وقد عثر عليه ديسو Dussaud وماكلر Macler عام 1901 م ، على بعد كيلو متر واحد من النمارة القائمة على انقاض مخفر روماني قديم شرقي جبل الدروز ، على مقربة من دمشق ، واطلق عليه اسمها ، وكتب تخليدا لذكرى الملك امرىء

1) كلمة نفس تعني قبرا فى اللغة العربية البائدة .

القيس بن عمرو المتوفى عام 328م ، وكان ملكا على الحيرة وامتد نفوذه حتى بادية الشام ، ويحمل تاريخ سنة 223 من سقوط سلع ، وهي توافق تاريخ وفاة الملك ، وصورة النقش :

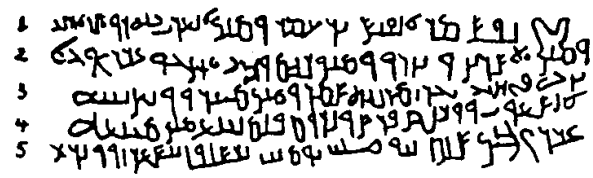

وكلماته فى حروف عربية :

1 — تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج .

2 — وملك الاسدين ونزرا وملوكهم وهرب مذحجوا عكدى وجا .

3 — بزجى فى حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

4 — الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

5 — عكدي هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول بلسعد ذو ولده .

وترجمته الى العربية :

1 — هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج .

2 — وملك الاسدين ونزارا وملوكهم وهرب مذحج بقوته وجاء

3 — الى نزجى فى حبج نجران مدينة شمر ، وملك معدا وانزل بنيه

4 — الشعوب . ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

5 — فى القوة . هلك سنة 223 يوم 7 كسلول (1) ، ليسعد الذين ولدهم .

والنقش ، كما ترى من صورته ، مدون بالرسم النبطي المتصل الحروف ، ويشتد وجه الشبه بينه وبين الرسم العربي فى أول مراحله ، ويشتمل على جمل كثيرة تتفق كل الاتفاق مع اللغة العربية الباقية ، مثل : « فلم يبلغ ملك مبلغه » و « نزل بنيه الشعوب » و « ملك العرب كلها » و « هلك سنة » ، ويمكن القول أن هذه الجمل اقدم ما وصلنا مدونا من الاسلوب العربي الذي جاء فيه الادب الجاهلي . وكان الرايفيه انه كتب باللغة الآرامية ، ويضم بعضا من الكلمات العربية ، ولكن كثرة هذه الكلمات ، واتفاقها مع العربية الباقية ، جعل المستشرق انوليتمان يرى العكس ، ويقرر أنه نقش عربي مكتوب بالقلم النبطي ، ويشتمل على بعض الالفاظ الآرامية ، واكثر كلماته تبدو واضحة يستطيع أن يتبينها اي تارىء مثقف معاصر مع شيء من التأمل ، ففي السطر الاول : نفس مر القيس بن عمر ملك العرب . وفى الثاني : وملك الاسدين ونزروا وملوكهم ... وفى الثالث : ... مدينة شمر وملك معد (2) . وفى الرابع : الشعوب ... فلم يبلغ ملك مبلغه . وفى الخامس : عكدي ، هلك سنة ... يوم ...

ثم عثر على نقشين هامين أحدث تاريخا من نقش « النمارة » ، ويمثلان فى تاريخ الخط العربي تطورا اكثر تقدما ، فرسمهما مستقل عن الرسم النبطي ، او قطع مرحلة هامة فى طريق الاستقلال عنه . وفيهما تقترب صورة الحرف من الصورة التي نستخدمها الآن، ولا يجد المرء صعوبة كبيرة فى قراءة كلماته ، وقد اكتشف الاول منهما الاثري ساخو Sachau عام 1879 ، واطلق عليه نقش « زبد » ، اسم مدينة خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، فى الجنوب الشرقي من مدينة حلب ، ووجد على احد ابواب المعابد المقامة للقديس سرج ، ويرجع تاريخه الى عام 512 م ، وهو مدون فى ثلاث لغات : العربية القديمة ، والسريانية واليونانية، وصورة ما بقي من الكتابة العربية هي :

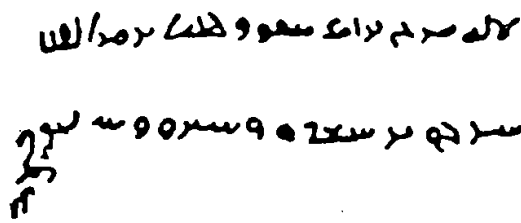

ورسمها بالحروف العربية المعاصرة هو :

1 — م الاله سرجو بر امت منفو وهنىء بر مر القيس .

2 — و سرجو بر سعدو وسترو و (شر) يحو بتميمي .

---

1) كسلول : كانون الاول .

2) التبس الامر على الدكتور ناصر الدين الاسد فى تفسيره كلمات النقش ، فجعل سطوره اربعة وهي خمسة ، واسقط السطر الثالث تماما ، وفسركلمات السطر الرابع على انه الثالث ، والخامس على انه الرابع . انظر : « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » ، ص 28 و 29 .

ويشتمل النص على اسماء اعلام عربية يظن انها اسماء الذين اشتركوا فى بناء الكنيسة ، ويرى المستشرق الفرنسي بلاشير Blachere ان النص العربي ربما اضيف الى النقش فى زمن متاخر لانه ليس ترجمة للنص السرياني اليوناني ، وسائر كلمات النقش ، كما يبدو من الصورة ، عربية الخط ، على اختلاف العلماء فى قراءتها .

والنقش الثاني احدث من نقش « زبد » بأكثر من نصف قرن تقريبا ، وعثر عليه العالم فتزتين Wetztein فى حوران اللجا الواقعة جنوب دمشق ، شمال غربي جبل الدروز ، عام 1864 ، ومكتوب باللغتين اليونانية والعربية ، ووصل الينا قسمه العربي سليما كامل الكلمات ، وهو نصب تذكاري اقيم حسب عبارة النص اليوناني للقديس يوحنا المعمدان، ويحمل تاريخ عام 463 حسب تقويم بصري ، او ما يعادل 568 للميلاد ، وصورته :

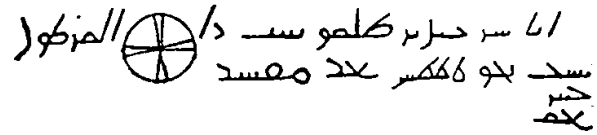

وكلماته فى الرسم العربي الحديث :

1 — أنا شرحيل بن ظلموا (= ظالم) بنيت ذا المرطول (= الكنيسة) .
2 — سنت 463 بعد مفسد .
3 — خيبر
4 — بعم (= بعام) (1) .

وهذا النقش هو اول نص جاهلي عربي كامل فى كل كلماته ، وبه اصبح بين ايدينا نموذج لطريقة كتابية تكونت نهائيا ، ولا تختلف عن بقية النقوش التي سنعثر عليها فيما بعد الهجرة الا فى اشياء قليلة مردها الى المواد المستعملة ، او مهارة النقاش .

أما اقدم كتابة اسلامية وصلت الينا ، فنصب على قبر رجل يدعى عبد الرحمن بن خير ، وعثر عليه فى الفسطاط . ويعود تاريخه الى 31 للهجرة (= 652 م) ويوجد فى متحف الآثار الاسلامية بالقاهرة ، وهو النقش الوحيد الذي بين ايدينا من هذه الفترة المبكرة من تاريخ الكتابة العربية . وذكر الدكتور ناصر الدين الاسد ان « الدكتور محمد حميد الله عثر على عدة نقوش على قمة الطرف الجنوبي لجبل سلع ، فى المدينة المنورة ، خارج سورها الشمالي ، ويرجح — اى الدكتور حميد الله — ان هذه النقوش ترجع فى تاريخها الى غزوة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة » . لكن الدكتور ناصر الاسد اكتفى بهذه الاشارة ، دون أن يورد نص هذه النقوش او صورتها ، واحالنا على المصدر الذي اعتمد عليه ، وهو مجلة الثقافة الاسلامية Islamic Culture وهي ليست بين يدي ، ولا فى مكنتي الآن ، لازجع اليها (2)

وصورة النقش فيما يلي :

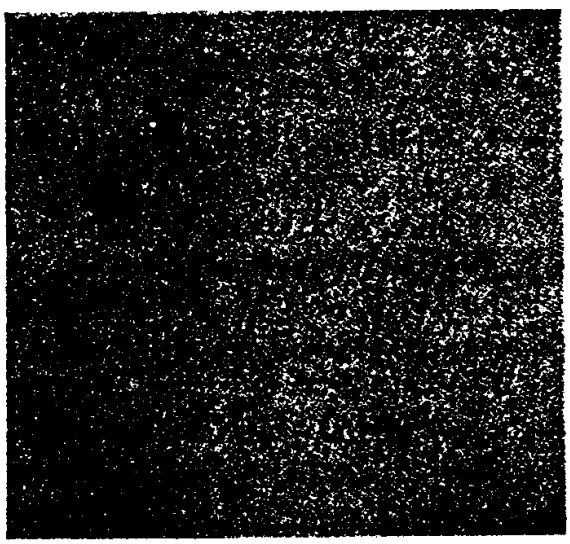

ونصه :

1 — بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر
2 — لعبد الرحمن بن خير الحجازي اللهم اغفر له (3)

---

1) كان ليتمان اول من فك رموز (مفسد خيبر بعام) ، وكانت قبله مبهمة ، ويرى انها تشير الى غزوة احد امراء بني غسان لخيبر ، ويستدل بفقرة جاءت فى كتاب « المعارف » لابن قتيبة : « ثم ملك بعده الحارث بن أبي شمر ... وكان غزا خيبر فسبى من اهلها ، ثم اعتقهم بعد ما قدم الشام » .

2) مصادر الشعر الجاهلي ، ص 32 .

3) يلاحظ ان الكلمات مجرد من الاعجام ، والرمز الى اصوات المد الطويلة ، ولذلك قرئت على اوجه كثيرة . فقرأ فيت G. Wiet الكلمة الرابعة « خير » ، وقراها ولفنسون « جبر » ويرى ليتمان انها يمكن ان تقرأ « جابر » أو « جبار » أو « جبير » . وقرأ فيت الكلمة الخامسة « الحجري » وآثر ولفنسون « الحجازي » .

3 — وادخله فى رحمة منك وآتنا معه
4 — استغفر له اذا قرا هذا الكتاب
5 — وقل آمين وكتب هذا
6 — لكتب (الكتاب) فى جمدى (جمادى) الا
7 — خر من سنت احدى و
8 — ثلثين (ثلاثين) .

ويلاحظ أن التأثير الاسلامي واضح فى النقش ، وبعض كلماته مقتبس من القرآن . ولدينا نقشان آخران يرجعان الى هذا القرن ، اولهما عثر عليه فى قبة الصخرة ببيت المقدس ، ويرجع الى عام 72 هـ = 691 م ، والثاني نقوش قصر برقة ، وتحمل تاريخ 81 هـ = 700 م .

لكن كتابة النقوش لها طريقتها ، والكتابة العادية لمتطلبات الحياة اليومية ، أو تسجيل الوثائق الادبية، لها طريقة اكثر بساطة ، واشد اناقة ، واقدم ما لدينا منها ثلاث رسائل بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، والى المنذر ابن ساوى ، والى النجاشي فى الحبشة ، وقد عثر على ما يظن انه الاصول الحقيقية لهذه الرسائل ، ومهما يكن الراي فى أصالتها ، فجانب الرسم منها يصور ، دون ريب طريقة كتابة الرسائل فى القرن الاول الهجري .

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتابه الى المقوقس ، عظيم القبط فى مصر ، مع حاطب بن ابي بلتعة ، سنة ست من الهجرة ، وزعم بعض المستشرقين أنهم وجدوا النسخة الاصلية للكتاب فى الصعيد (1) ، وصورتها :

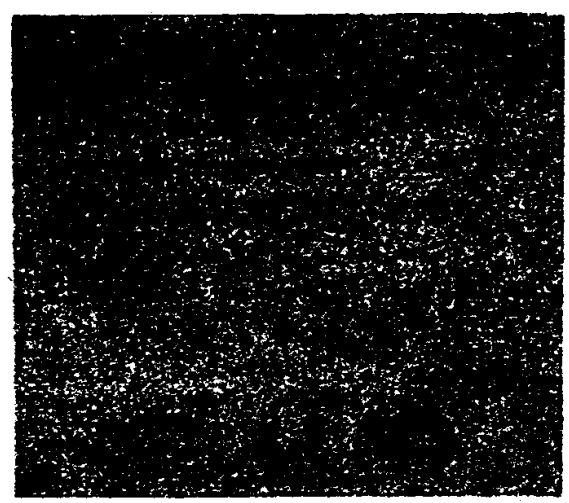

ونصها :

1 — بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ور
2 — سوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على
3 — من اتبع الهدى اما بعد فاني
4 — ادعوك بدعاية الاسلام اسلم
5 — تسلم يؤتك الله اجرك مرتين
6 — فان توليت فعليك اثم كل القبط
7 — يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة
8 — سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله
9 — ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا
10 — بعضا اربابا من دون الله فان
11 — تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسـ
12 — ـلمون .

وارسل الثانية الى المنذر بن ساوى العبدى صاحب البحرين ، حملها اليه العلاء بن الحضرمي ، وكتبت اليه ردا على رسالة منه الى الرسول عند ما دعاه الى الاسلام وصورتها :

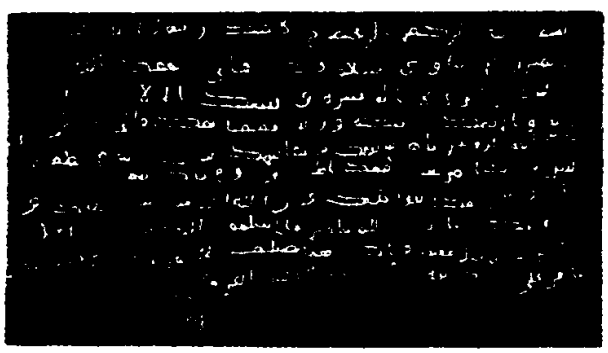

ونصها :

1 — بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى
2 — المنذر بن ساوى سلام عليك فاني احمد الله
3 — اليك الذي لا اله غيره ، واشهد أن لا اله الا
4 — الله وان محمدا نبيه ورسوله أما بعد فاني اذكرك
5 — الله عز وجل فانه من ينصح فانما ينصح لنفسه وانه من يطع
6 — رسلي ويتبع امرهم فقد اطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي
7 — وان رسلى قد اثنوا عليك خيرا وانى قد شفعتك فى

1) راجع مجلة الهلال ، سنة 13 ، ص 103 و 160.

8 ــ تومك فاترك للمسلمين ما اسلموا عليه وعفوت عن اهل

9 ــ الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن

10 ــ اقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

ولم يتيسر لي رؤية أصل الرسالة الموجهة الى نجاشي الحبشة ، أو صورة لها ، ولو أن نصها موجود فى معظم المصادر التاريخية ، ويلاحظ ان التشابه كبير ودقيق بين رسم هاتين الرسالتين ، وبين الرسم الذي كتب فيه النقش الذي عثر عليه فى الفسطاط .

وثمة مجموعة من اوراق البردي ، يرجع اقدمها الى عام 40 للهجرة = 660 للميلاد ، عثر عليها فى مكان قريب من اهرام سقارة ، وفى الفيوم واخميم والاشمونين والبهنسا وميت رهينة وأدفو ؛ ووجد بعضها متلاصقا متماسكا متحجرا ، مطموسا بالتراب ، ووصل بعضها الآخر ممزقا كله أو بعضه لرطوبة الارض ، أو بفعل النيران ، ووجدت محفوظة فى جرار من فخار أو سلال، أو ملفوفة فى ادراج صغيرة ، مربوطة وعليها طابع المؤلف وخاتمه وتسرب معظمها الى مكتبات ومتاحف فيينا وبرلين وباريس ولندن . وقسم منها مكتوب باللغة اليونانية ، والقسم الآخر مكتوب باللغة العربية ، وقام بنشر هذا القسم الاخير ادولف جروهمان Adolf Grohmann استاذ اللغات السامية وتاريخ الحضارة الشرقية فى الجامعة الالمانية فى براج ، واهمية هذه الوثائق من الناحية الادبية محدودة للغاية أو معدومة ، لان جلها عقود ووثائق تتصل بحياة الناس اليومية من بيع وشراء ، ولكنها ذات اهمية بالغة فى التاريخ لتطور الخط العربي ، وبخاصة فى مراحله الاسلامية المبكرة ، قبل أن تصبح الثقافة أمرا شائعا والخط فنا يهوى ويدرس ويعلم .

تدل هذه الوثائق على وجود كتابة منذ الفتح الاسلامي ، ذات اشكال مستديرة تختلف تماما عن الكتابة الكوفية الموجودة على المباني والنقود ونسخ القرآن القديمة . وازاء هذا الواقع دعا المستشرق سلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy الى اعادة النظر من جديد فى الراي القائل بأن الخط الكوفي سابق للكتابة العادية السريعة ، والتي عرفت بالنسخي ، لان استخدام هذا يظهر فى أوراق البردي ، فى الوقت الذي كتب فيه بالكوفي على المسلات والمباني . والحق ان هذا القول يصدق على كتابات القرن الاول الهجري السابع الميلادي ، أما كتابات القرن السادس الميلادي ، القرن الذي سبق مولد الاسلام ، فمن الصعب تأكيد هذه الحقيقة أو انكارها ، لاننا لا نملك من هذا العصر سوى نقوش فحسب ، وليس بين أيدينا نموذج واحد للكتابة العادية التي تؤدي اغراضا عاجلة ، وتخط على ما كان يكتب عليه فى تلك الحقبة من الزمن (1) . وتفسير هذا التباين باختلاف المواد المستعملة للكتابة عليها لا قيمة له لان الكتابة العادية سرعان ما حلت ، فيما بعد ، محل الكتابة الكوفية حتى على الحجر (2) .

ويعتقد برجيه Berger ان التباين بين الخط الكوفي والخط النسخي يعود الى اسباب جغرافية ، فالكوفي كان يكتب فى بلاد العرب وسواحل سورية ، أما النسخي فكان مستعملا فى مصر ، التي ظلت بعيدة عن التأثيرات السريانية فاحتفظت بحرية تصرفها ، وانها لتبدو كأنها الوارث الوحيد للانباط (3) . وقد حاول بلاشير أن يجرد هذه النظرية من قيمتها ، وأن يرد التباين الى الاستعمال نفسه ، فالكتابة العادية السريعة (النسخي) هي المستخدمة فى الاغراض العاجلة والمراسلات والعقود الرسمية او الخاصة ، والكوفية مخصصة للنقوش وحفظ النصوص الدينية ، واستدل على ذلك باستخدام الخط الكوفي فى نقش الفسطاط (4) . والواقع أن الخط الذي كتب به نقش الفسطاط ليس كوفيا ، بل هو الى الخط النسخي اقرب ، وأن يكن فى صورة سانجة غير متقنة (5) .

وبالجملة فان الخط العربي ، كما يرى برجيه « تولد تدريجيا ، بعد ان مر بمراحل عديدة من التطور الوئيد ، من كتابة السكان الذين كانوا يحتلون شمال شبه الجزيرة فى القرون الاولى للميلاد » .

---

(1) Blachère, Régis : Histoire de la Littérature Arabe des Origines à la fin du XVe siècle de J.-C., vol. I, 60 sqq., Paris, 1952.
(2) Février, J. : Histoire de l'Ecriture. Vol. I, 263, Paris, 1949.
(3) Berger, Ph. : Histoire de l'Ecriture. Vol. I, 291, 293. Paris, 1891.
(4) Blachère : Histoire de la Littérature Arabe, Vol. I, 63.

(5) انظر ص 50 .

وخضع هذا التطور لنفس القانون الذي خضعت له كل الكتابات التي اشتقت من الكتابة الآرامية ، لقد كان تغيرا تدريجيا « أجد به ودفعه فى تيار الاستعمال طريقة الوصل بين الحروف التي نرى تطبيقاتها الاولية فى نقوش تدمر وحوران » (1) لقد تولد الشكل الكوفى من السطرنجلي ، واشتق هذا من السرياني ، وكان مستخدما عند النصارى اليعقوبيين فى العراق ، بينما اشتق النسخي (أو الحجازي) من الخط النبطي ، وكان يستخدم فى المنطقة بين حوران والحجر (حديثا مدائن صالح) ، وفى أواخر القرن السادس كان مستخدما فى دومة الجندل (الجوف الحالي شرقي نجد) وفى الحجاز ، وبحكم المركز التجاري الهام الذي احتلته مكة فى الجزيرة العربية فى هذا القرن وقبله ، فمن المحتمل ان هذا الخط كان اكثر انتشارا مما نظن . ويمكن أن نوجز تطور الخط العربي فى الرسم التالي :

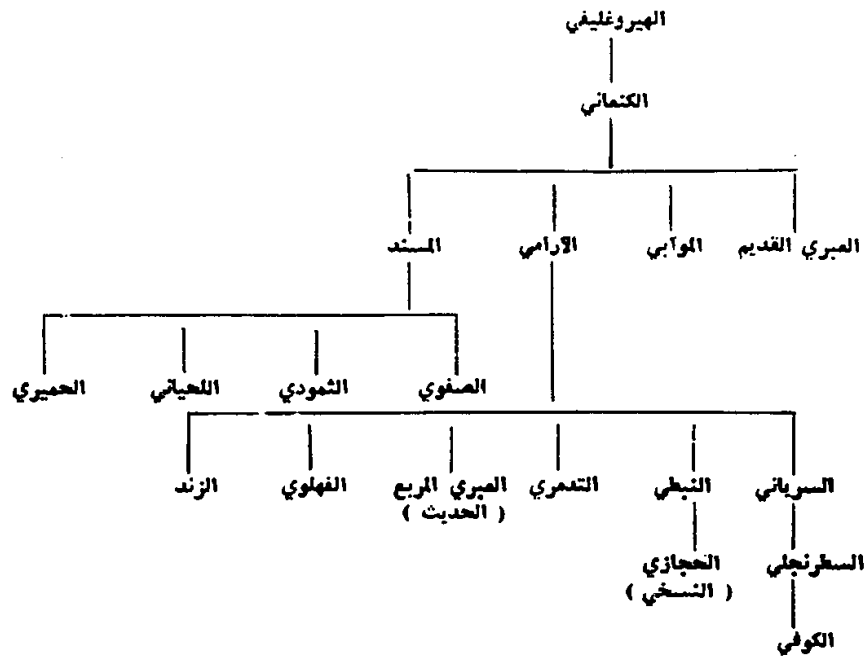

ويلاحظ فى هذه النقوش ، وكتابات صدر الاسلام، انها خالية من النقط والاعجام خلوا كاملا ، وهي ظاهرة تشترك فيها كل الابجديات السامية القديمة ، باستثناء الابجدية الحبشية . ويراد بالاعجام تمييز الحروف المتشابهة ، وبالنقط ، أو الشكل ، وضع علامات تدل على حركات الحروف ، قصيرة أو طويلة ، وفى عصور تالية لصدر الاسلام ، نجد من يستخدم النقط بمعنى الاعجام أحيانا .

وأول محاولة للنقط كان دافعها وهدفها ، كبقية العلوم الاخرى ، الحفاظ على دقة ضبط ألفاظ القرآن الكريم ، ولما كان الناس يقرأون فى مصاحف عثمان رحمه الله وهي غير منقوطة ولا معجمة فيخطئون القراءة ، فكلمة « نتلو » قراها حفص بن سليمان بن المغيرة « تبلو » وقراها عبد الله بن مسعود « تتلو » وكلمة «سسا» قراها حفص «تثبيتا» وقراها مجاهد بن جبر « تبيينا » . والآية « جعل السقية (السقاية) فى رحل أخيه» قراها رجل « جعل السفينة فى رجل أخيه»، وأمثلة أخرى كثيرة ، وقف عليها حمزة الاصفهاني مؤلفا كاملا هو « التنبيه على حدوث التصحيف »(2) . ويروي المؤرخون أن أبا الاسود الدؤلي المتوفى عام 69 هـ = 688 م جزع للامر ، ودخل على زياد بن أبيه وهو والى العراقين ، فقال له : « أصلح الله الامير ! اني أرى العرب قد خالطت هذه الاعاجم ففسدت السنتهم . أفتأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم ؟» فأبى عليه زياد ذلك ، ثم عاد فأمره بما نهاه عنه ، لانه

(1) M. de Vogüé : Syrie Centrale, p. 12, Paris.

(2) مخطوط بمكتبة البرلمان بطهران — ايران ، تحت رقم 282 .

سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول : « اصلح الله الامير . توفى ابانا وترك بنون ... » فوضع ابو الاسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، وحروف الجر والرفع والنصب والجزم ، واخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها (1) ثم وضع اول قواعد النقط : نقطة اعلى الحرف للفتحة، وبين يديه للضمة ، وتحته للكسرة ، وللتنوين نقطتان، ولم يضع علامة للسكون ، واعتبر اهماله علامة عليه.

ويبدو ان صنيع ابي الاسود الدؤلي لم يكن كافيا، فلم يوقف موجة اللحن والخطأ الفاشية. فكثر التصحيف وانتشر بالعراق ، بعد ان غبر الناس يقرأون فى مصاحف عثمان نيفا واربعين سنة ، الى ايام عبد الملك بن مروان ، وادرك الحجاج ذلك واعيا خطره « وفزع الى كتابه ، وسألهم ان يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال : ان نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط افرادا وازواجا ، وخالف بين اماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغبر الناس بذلك زمانا لا يكتبون الا منقوطا ، فكان التصحيف مع استعمال النقط ايضا يقع ، فأحدثوا الاعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالاعجام » . اورد هذا النص ابو احمد العسكرى فى كتابه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » ، وليس فيه ما يناقض الرواية الاولى ، فليس ثمة ما يمنع ان يكون ابو الاسود الدؤلي هو الذي بدأ الفكرة ، ثم جاء نصر بن عاصم فأتم ناقصها ، واكمل قواعدها ، وزاد على سابقه الاعجام . ويدعم هذا الراي عندي انا ابا الاسود جعل نقطه بمداد مخالف لما كتب به القرآن تحرزا ، ووضع نصر بن عاصم ، ومن بعده يحيى يعمر ، نقط الاعجام بنفس المداد الذي كان يكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط استاذهما ابى الاسود . وقد انتشرت تلك الطريقة واضاف اليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الاخرى ، وزاد اهل المدينة التشديد فجعلوها توسين يجعلان فوق المشدد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وابقوه على اصله مع الفتحة . وزاد اهل البصرة السكون فجعلوه جرة افقية فوق الحرف منفصلة عنه هكذا (ـــ) .

ظل الناس يكتبون على طريقة ابي الاسود ، ونصر بن عاصم ، طوال الدولة الاموية وصدر دولة بني العباس ، وفى الاندلس حتى اواسط القرن العاشر الميلادي ، فلما شاعت الثقافة ، واستكثر الناس من نقط الحروف واعجامها لتسهيل التعليم اشتبهت نقط الاعجام بنقط الشكل ، فاخترع الخليل بن احمد المتوفى 170 هـ = 786 م الشكل الذي نستعمله الآن ، فجعل الضمة واوا صغيرة تخط فوق الحرف ، والفتحة الفا مستعرضة تكتب اعلاه ، والكسرة ياء راجعة ترسم تحته ، والشدة راس شين مختزلة من « لفظ تشديد » ، والسكون راس خاء مختزلة من لفظ « تخفيف » ، وهمزة القطع راس عين مختزلة من لفظ « قطع » ، وهمزة الوصل راس صاد مختزلة من لفظ « وصل » (2) .

هل كان النقط والاعجام موجودين فيما قبل القرن الاول الهجري ، او بمعنى ادق قبل ان يبتدع ابو الاسود الدؤلي اولهما ، ونصر بن عاصم ثانيهما ؟ سؤال ليس من السهل الاجابة عليه نفيا او اثباتا فى بساطة . لان النقوش التي لدينا ، جاهلية او من آثار النصف الاول للقرن الاول الهجري ، غير منقوطة ولا معجمة ، ولا تحمل اية علامات لاصوات المد قصيرة او طويلة ، ولو ان النقوش العربية التي دونت بالخط النبطي ، واشرنا اليها من قبل ، تحمل بعض كلماتها اصوات المد الطويلة ، وبخاصة الواو والياء ، مثل كلمة « الشعوب » فى نقش النمارة (3) و « شرحيل »

---

1) لا تزال اولية النحو العربى مجهولة لم تدرس بعد، ولا اتصور ان الامر تم بالبساطة التي تذكرها المصادر الاولى ، وكلها تقرر ان ابا الاسود الدؤلي وضعه من ذات نفسه وانشائه او باشارة من الامام علي رضي الله عنه ، واية دراسة جادة فيما ارى ، لابد ان تدرس النحو العربي مقارنا بنحو بقية اللغات السامية الاخرى ، وسوف تلقى هذه من الضوءما يساعد على تكوين راي علمي فيما يتصل بنشأة النحو العربي ومراحل تطوره .

2) جانب الدكتور علي عبد الواحد وافى الصواب حين زعم فى كتابه : فقه اللغة ص 175 ، الطبعة الثالثة ، القاهرة 1369 هـ = 1950 م ، ان مؤرخي العرب ينسبون اختراع هذه الطريقة الى ابي الاسود الدؤلي ، والحق ان النقط كان من صنعه ، اما طريقة الرسم هذه فمن عمل الخليل بن احمد ، ولم يقل احد منهم ان ابا الاسود هو الذي ابتدعها

3) راجع ص 45 .

و «المرطول» فى نقش « حران » (1) واما الالف فاول ما نلقاها مكتوبة فى الرسائل النبوية الى المقوقس والمنذر بن ساوى (2) ، ولا نجد لاصوات المد القصيرة اية اشارة من اي لون فى اي نقش جاهلي ، ولم تصلنا كتابة جاهلية على رق او بردي .

اما بعد الاسلام ، وقبل ابي الاسود الدؤلي ، فيذكر الدكتور ناصر الاسد ، نقلا عن الدكتور ادولف جروهمان ، أن ثمة بردية يرجع تاريخها الى عام 22 للهجرة ، على عهد عمر بن الخطاب ، وهي مكتوبة باللغتين العربية والبونانية ، وان بعض حروفها منقوط معجم ، وهي حروف : الخاء والذال والزاي والشين والنون . ويذكر ، نقلا عن ج . س . مايلز G. C. Miles أن نقشا وجد بقرب الطائف يرجع تاريخه الى سنة 58 هجرية، على عهد معاوية بن أبي سفيان، وان اكثر حروفه التى تحتاج الى نقط منقوطة معجمة (3) .

لم يتيسر لي الاطلاع على البردية التي اوردها جروهمان ، ولا اكاد اطمئن اليها ، لان الرسائل النبوية كتبت قبلها بما لا يزيد على خمسة عشر عاما ، وانفق فيها الكتاب كل جهدهم فنا وتجويدا ، لانها موجهة من رسول الى ملوك وأمراء ، ويراد لها ، لكي تؤدي رسالتها كاملة ، ان تكون واضحة الخط ، كاملة الرسم، سهلة القراءة ، لا تحمل اعجاما . وان مصحف عثمان، وقد كتب بعد هذه الوثيقة بثمانية اعوام ، كان خاليا منه ، وما كان احوجه اليه ، فمن اجل الحفاظ على نصه فكر العلماء فى النقط والاعجام . ووجود نقش وحيد بعض حروفه معجمة ، ويرجع الى فترة لدينا منها نقوش أخرى غير معجمة ، لا يكفي لتاصيل قاعدة وتقرير حقيقة ، فربما أضيف اليه الاعجام فيما بعد ، عندما أصبح أمرا شائعا فى كتابة النصوص والوثائق.

لم يتعود الناس النقط ، او الضبط بمعنى ادق ، الا بعد فترة طويلة ، حين شاعت العامية ، وكثر اللحن . أما الاعجام فلدينا وثيقة ترجع الى سنة احدى وتسعين هجرية ، لم يعجم الكاتب منها على طولها النسبي غير كلمتين ، الكلمة الاولى من السطر الثاني عشر « يشتكيك » ، والكلمة الاولى من السطر الاخير « سنه » ، ظنا منه ان ترك اعجامهما يترك القارىء فى لبس ، وصورة الرسالة فى الصفحة المقابلة ، ونصها :

. . . . .	فادفع اليه ما كان
اما بعد فان هشام بن عمر	له بارضك من جاليته
كتب الي يذكر	ولا اعرفن ما رددت
جالية له بارضك	رسله او كتب الى
وقد تقدمت الى	يشتكيك والسلام
العمال وكتبت اليهم	على من اتبع الهدى وكتب
الا يؤوا جاليا فاذا	يزيد فى جمادى الآخرة
جاءك كتابي هذا	سنة احدى وتسعين

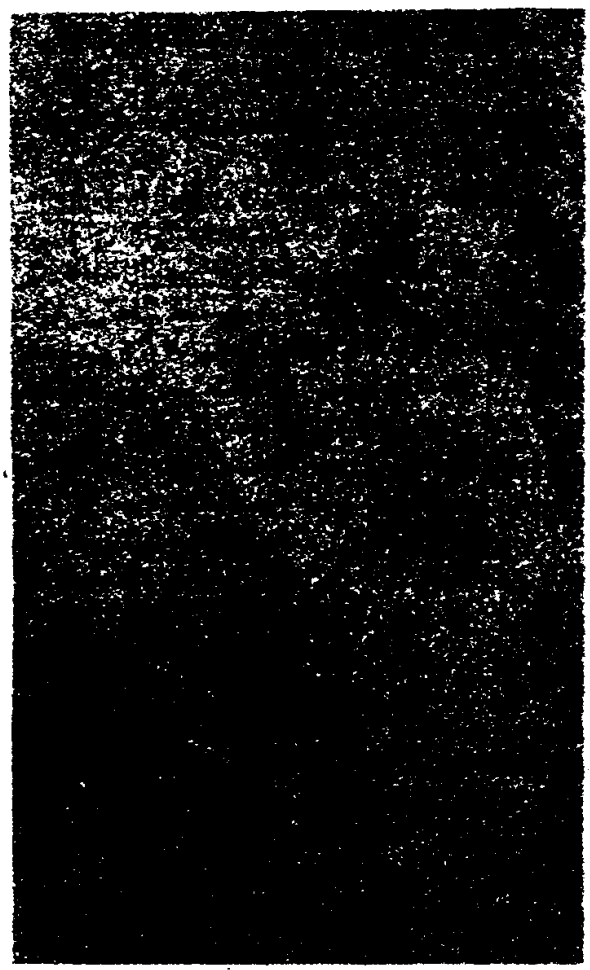

1) راجع ص 44
2) راجع ص 52 ، 53 .
3) مصادر الشعر الجاهلي ، ص 40 . والمصدران اللذان نقل عنهما هما :
(1) Adolf Grohmann: From the World of Islamic Papyri, pl. II (a).
وصورة البردية ووصفها ونصها مع ترجمتها فى ص 113 — 114 . ثم انظر ص 82 من نفس الكتاب .
(2) G. C. Miles: Early Islamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz, JNES, 7 (1948).
وصورة النقش هناك رقم 18 .

ولكني أشارك الدكتور ناصر الاسد رأيه ، فى أن عدم وجود الاعجام ـ والنقط لم يكن موجودا قطعا ـ فيما بين أيدينا من نقوش جاهلية ، لا يعني بالضرورة ان الاعجام لم يكن معروفا ولا مستعملا ، فربما كان ذلك « ناجما عن اطمئنان الكاتب الى ان كلماته هذه المنقوشة فى نجاة من التصحيف والخلط فى القراءة ، لانها اسماء اعلام ، وسنوات ، وكلمات بينهما من اليسير معرفتها وربما كان مما يسوغ له اهمال النقط فوق ذلك صعوبة فنية ومشقة عملية فى النقش » .

وفى عرض الدكتور الاسد للمشكلة خلط بين لفظي « النقط » و « الاعجام » ، فأورد كلمتي « منقوط معجم » و « ومنقوطة معجمة » (1) ، مما يوقع الدارس فى حيرة ، لان النقط يعنى به رسم اصوات المد والسكون ، لضبط نطق الكلمات ، على حين ان الاعجام يعنى به النقط الذي يفرق بين الاحرف المتشابهة ، والقول بجريانه فيهما على الترادف لا يزيل الشبهة ، لانه جاء بهما معا ، ولو استخدم احدهما دون الآخر لكان له فى الترادف مندوحة .

ومنذ العصر العباسي اخذ الخط الكوفي يتنوع حتى أربى على خمسين نوعا ، من اشهرها : المحرر ، والمشجر ، والمربع ، والمدور ، والمتدخل . وبقي الخط الكوفي مستعملا فى المباني والسكة الى القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي ، ثم نسى جملة ، حتى عاد اليه الفنانون فى عصرنا الحديث ، يحيون دارسه فيما يكتبون على جدر المباني زخرفة ، او يخطون من عناوين الكتب تجميلا .

اما خط الرسائل فكان لونا مستنبطا من الخط الكوفي والحجازي ، ابتدعه قطبة بن المحرر فى اواخر الدولة الاموية ، فاخترع خط « الجليل » الذي يكتب به على المباني ونحوها ، وتوجد نماذج متعددة على جدران مساجد القاهرة ومدارسها واربطتها وسبلها وخرائب قصورها . ثم « الطومار » وهو اصغر من « الجليل » ، وكانت تكتب به اسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود . وفى العصر العباسي ولد ابراهيم الشجري قلم الثلثين (اي ثلثي الطومار) ، واخترع من الثلثين آخر سماه « الثلث » . وولد يوسف اخوه من «الجليل» القلم الرياسي، وسمي كذلك لانه اعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون ، فأمر أن تحرر به الرسائل السلطانية ، ولا تكتب بغيره ، ثم عرف فيما بعد بقلم التوقيع .

واخترع الاحول المحرر قلم « النصف » ، « وخفيف الثلث » ، وقلما ليس فى حروفه شيء ينفصل عن غيره وسماه « المسلسل » ، وكانت تكتب به عامة الرسائل ، وغبار « الحلبة » وكان يكتب به فى بطائق الحمام الزاجل والرقاع وغيرها .

ثم جاء الوزير ابو علي محمد بن مقلة (2) ، واخوه ابو عبد الله الحسن ، المتوفى 338 هـ = 949م، فتم على ايديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه، على الاشكال التي نعرفها الآن ، فضبطا الحروف ، وقدرا مقاييسها وابعادها ، واحكما ضبطها ،واخترعا له القواعد ، وعنهما انتشر الخط العربي كامل الصورة فى مشارق الارض ومغاربها .

ثم اخترع الشكل الفارسي ، وكان استعماله عاما فى أواسط آسيا وفارس وابدع الخطاطون الاتراك فيما لدينا من اشكال للخط العربي ، وحولوا بعض انواعه وخاصة الرقاع (الرقعة) الى ما نعرفه الآن .

---

1) مصادر الشعر الجاهلي ، ص 40 .

2) كان ابن مقلة شيخ الخطاطين دون منازع ، تولى فى بدء حياته بعض اعمال فارس ، ثم اصبح وزير الخليفة المقتدر بالله سنة 316 هـ = 927 م ، ثم كاد له اعداؤه عنده فقبض عليه سنة 318 هـ ، وصادر امواله ونفاه الى فارس . واصبح وزيرا للراضي فوشى به اعداؤه ثانية فقبض عليه وعزل وبقي معتزلا الوزارة .

وحاول ابن مقلة ان يكيد لابن رائق امير الامراء ببغداد عند هذا الخليفة المستضعف ، فوشى به الخليفة الى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى . ثم ندم الراضي على ذلك ، وامر الاطباء بملازمته الى ان برأ ، فكان يشد القلم على ساعده ويكتب به . وكاد له ابن رائق عندما احس بأن الخليفة يفكر فى ان يوليه الوزارة ، فكانت النتيجة ان قطع لسانه ، واقام فى الحبس مدة طويلة ، قاسى فيها عناء شديدا ، ولم يزل به حتى توفى عام 328 هـ = 939 م ، ومن شعره :

ما سئمت الحياة لكن توثقت ... بايمانهم فبانت يميني
بعت ديني لهم بدنياي حتى ... حرموني دنياهمو بعد ديني
ولقد حطت ما استطعت بجهدي ... حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذة عيش ... يا حياتي بانت يميني فبيني

وارتقوا بالمسلسل الى الغاية ، وولدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايوني) . وكان اشهر خطاطيهم الحافظ عثمان بن علي ، وهو نابغة الخطاطين جميعا ، واختير معلم خط للسلطان احمد خان الثاني (خليفة من 1691م الى 1695 م) ، وللسلطان مصطفى خان الثاني (خليفة من 1695 م الى 1703 م) ، وكان يجلس كل يوم احد لتعليم الفقراء الخط مجانا ، ويوم الاربعاء لتعليم الاغنياء بأجر . واشهر المصاحف واكثرها تداولا مكتوب بخطه وقد نسخ منها خمسة وعشرين ، ومقدارا كبيرا من الرقاع والالواح واجزاء القرآن ودلائل الخيرات

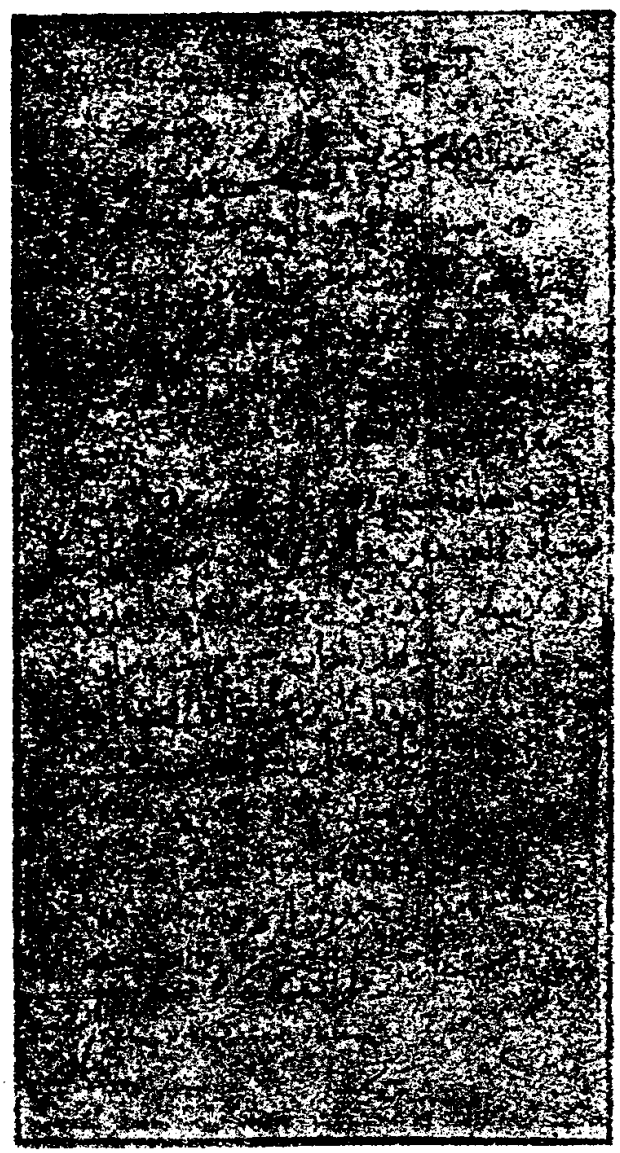

صورة وليقة مكتوبة على ورق البردى ترجع الى عام 393 هـ

وقد أوقف ابو العباس شهاب الدين احمد بن علي المعروف بالقلقشندي ، نسبة الى القرية التي ولد فيها، والمتوفى عام 821 هـ = 1418 م جانبا كبيرا من الجزء الثالث من موسوعته « صبح الاعشى » على الخط العربي ، تتبع فيه نشأته واشكاله وفنونه ، وقواعده وصوره وهندسة حروفه ، وما يكتب به ، وما يكتب عليه ، وقوانين الكتابة وآدابها وطرقها . ونظم زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري ، محتسب مصر ، الفية فى صناعة الخط وسمها « العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية .»

أما الاندلسيون والمغاربة فلم يسلكوا نهج ابن مقلة واصحابه ، فظلوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي الى الآن ، مع شيء من التعديل ، وابدعوا داخل هذا الاطار فنونا منه ، وربما مال « الجليل » عندهم الى بعض قواعد « الثلث » فى أواخر عصورهم، كما يشاهد على جدران الحمراء بغرناطة . ويختلف اهل المشرق عن اهل المغرب فى ترتيب الحروف ، فهي عند أولئك : أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ي . وهي عند هؤلاء : أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ي . كما يختلف اهل المغرب عن اهل المشرق فى اعجام الفاء والقاف ، فهم ينقطون « الفاء » بنقطة من اسفلها ، والقاف بنقطة واحدة من اعلاها . وفى استخدام الشكل اللاتيني المعاصر للارقام ، وهو استخدام سابق لموجة الاستعمار الاوربي المعاصر فى العالم الاسلامي ، وليس نتيجة له. ويرى علماء المغرب ، وهم على حق ، أن صور الارقام التي يستخدمونها عربية اصيلة ، وليست منقولة عن الرسم اللاتيني ، لان أوربا لم تكن تعرف هذه الارقام، وانما تعلمتها عن العرب ، عرفها جيربرت Gerbert (930 — 1003 م) فى الاندلس حيث تلقى دراساته العالية ، واشاعها بنفوذه حين أصبح بابا الكاثوليك تحت اسم سلفستر الثاني Silvestre II عام 999 م . ويتحدث عنه المؤلفون الغربيون القدامى كمخلص للعالم المسيحي (الاوربي) من ضنك الارقام الرومانية، وحامل معجزة الصفر والنظام العشري اليها من العرب ، وهو الذي طالع أوربا بأول كتاب من نوعه فى علم الحساب بالارقام العربية ، وقد وجد فيها الاوربيون متعة لا تعوض لعظم فائدتها وبساطة تركيبها . وقد تطورت هذه الارقام فى المشرق بينما احتفظ بها المغرب ، أو طورها قليلا ، وهم يستخدمون هذه الارقام الآن فيما يكتبون أو يطبعون . وسواء أكان

وغزا نبي من الانبياء عليهم السلام فقال لقومه لا يغزوا معي رجل بنى بناء لم يكمله ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها ولا رجل زرع زرعا ولم يحصده **وعليه** النكير في مرامة جيشه من غزة العدو بان يستعرض المكامن والمراصد ويرتب الطلائع على الموارد والمفاحص ويتخير المنازل بحسب الاحوال في كل زمان ومكان ويتغفل عن ابطال الارض نزلا واكثرها من عشب وماء ومنابع واحرسها اكنافا والحرابا ويعين حراسة يامن بها عسكره في الانفس والرحال وتسكن اليه النفوس في حال الدعة والخفض الامنة والتهيئة لوقت الحاجة فيكون لها اعون على المنازلة واقوى على المزايلة **وعليه** اعداد ما يحتاج اليه الجيش من زاد وعلوفة يتعرف لذلك عليهم في وقت الحاجة اذا نفذ زاد لم لتسكن نفوسهم اليه ويتقوون بماده يستغنون عن طلبها فيكونوا على المحاربة اوفى ولمنازلة العدو اقوى واصبر **وعليه** ان يتعرف احوال عدوه ويتسمع مع الضاعات وفي كل الاحيان اخبارهم حتى يعرف ما خوالهم ويعلم خاصهم واغراضهم ويتجسس في اذكاء العيون وبث الرصد ويعتمد من يثق به في استطلاع بغاة العدو ويتحرز من مكرهم وخدعهم ويلتمس الغرة في الهجوم عليهم ان رأى لذلك فرصة وتيسر له منهم غفلة فان الحرب خدعة وانتهاز الغفلة والثائر عند الحاجة **وعليه** ان يتعرف احوال الناس في عسكره وعمن يحتاجون الى الخروج في غارة او مقاتلة فينوب لذلك ويعرفه الخارجين في البعوث بتاميل الموثوق به في نجدته وبسالته وديانته وعلمه بالجهات فان اكثر ما يصابون في ذلك من اهانة رجال عدوهم الامتثال وان رأى المنع من ذلك لخوف من غرة او جمل عكامن العدو ناهى بالنهي عن الخروج حتى يعين اميرا او يعد جماعة تكون في المقاتلة ولا يكون الخروج لشيء من ذلك الا باذن وتحت نظر اميره وجماعة لا تركب النهر في اعمال ذلك عظيم

الباب السابع في امتثال الغازي امر امامه واميره عسكره وقائد جماعته

يجب على الغازي امتثال امر امامه او اميره عسكره او قائد جماعته وان خالفه في شيء من امره ما استطاع مما يراه من سنة في عمل او تدبير في رتبة او حيلة او تكبيرة على عدو او نكير في بعث كليحة او سرية او رايد او حراسة لجانب او كمين لغارة او تجريد جريدة لشغل ثغر او جلب عين او قوت او غنيمة واشباه ذلك من الوجوه التي للامير النظر فيها قال الله سبحانه واطيعوا الله

صفحة من مخطوطة « تحفة الانفس وشعار سكان اهل الاندلس » لابن هذيل الاندلسي ، وهي مكتوبة بخط اندلسي

الرسم الاصلي هو المستعمل عندهم ، او ما يجري عليه العمل عندنا في المشرق ، فمن الخير توحيده بين جناحي العالم العربي . فان الرسم متشابك ، يزداد كل يوم قربا ، فان الرسم المغربي للارقام وهو نفس الرسم اللاتيني ، يبدو اكثر فائدة واعم نفعا .

يستخدم الرسم العربي في وقتنا الحاضر عند جميع الشعوب الناطقة باللغة العربية ، ما عدا اهل مالطة فلهجتهم ترسم بحروف لاتينية ، وقد اتخذته أمم اخرى لا تتكلم العربية لتدوين لغاتها ، كالفرس وسكان مدغشقر وزنجبار ، واللغة الاوردية ، وكانت تدون به اللغة التركية ، قبل أن يثور كمال اتاتورك على ماضي وطنه وتاريخه ، فالغى الرسم العربي عام 1925 ، واتخذ عوضا عنه الرسم اللاتيني . ومع نهاية دولة المسلمين في الاندلس ، واكراه المسلمين قسرا على التخلي عن عقيدتهم ولغتهم وتقاليدهم ، اخذ المسلمون المتنصرون يكتبون لغتهم الاسبانية بحروف عربية ، وخلفوا لنا بعضا من تراثهم الثقافي بها ، وكان يطلق عليهم الموريسكوس Moriscos وعلى لغتهم الخمياادو Aljamiado كما ان بعض المؤلفات العربية دونت برسم غير عربي ، فدون عدد قليل منها في الاندلس بالرسم العبري ، وعدد آخر في المشرق بالرسم السرياني . وتبذل جمهورية الصومال الاسلاميةجهودا كبيرة لكتابة اللغة السواحلية التي يتكلمها سكان الصومال ، وسواحل افريقيا الشرقية ، وهي لغة غير مكتوبة حتى الآن ، بحروف عربية . وهي محاولة اذا قدر لها النجاح تفتح الطريق أمام الحرف العربي الى بقية دول القارة الافريقية .

وضعية اللغة العربية والثقافة الاسلامية في المؤسسات الاسبانية الرسمية

هناك ثمانية كراسي للعربية وللثقافة الاسلامية بكليات الفلسفة والآداب في اسبانيا (مدريد ، برشلونة ، غرناطة ، سرقسطة) وتتوفر بقية كليات الفلسفة والآداب على اساتذة مكلفين بالعربية . وبلغ طلبة **الاقسام العامة** العربية في الجامعة الاسبانية في السنة الماضية حوالي الفي طالب . ويتابع نحو سبعين طالبا تخصصهم في اللغات السامية .

وهناك مراكز اخرى تدرس فيها العربية وهي : المدرسة الدبلوماسية ، والاكاديمية العسكرية العامة ، واكاديمية المشاة ويبلغ فيها المتوسط السنوي خمسة عشر تلميذا كما تتوفر مدارس التجارة على العربية كمادة وهناك مشروع لتعميم تعليم العربية بين تلاميذ التعليم الثانوي . وفي المعهد الاسباني بطنجة يوجد كرسي استاذ للعربية كما أن هناك مراكز اخرى لتعليم العربية وهي : الدراسات العربية بغرناطة (90 تلميذا) ، والمدرسة المركزية للغات في مدريد (35 تلميذا) .

اما مراكز البحث في علوم العربية في اسبانيا فتشمل مدرسة الدراسات العربية بمدريد ، ومثلها بغرناطة ، وهما تابعتان للمجلس الاعلى للابحاث العلمية وتشمل كرسي « فرنسيسكو كوديرا » بمعهد فرناندو الكاثوليكي بسرقسطة ، وكراسي العربية ومصادرها بغرناطة ومعهد الدراسات الخليفية بقرطبة ، والمعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد .

الأسماء الثنائية في اللغة العربية

للأستاذ عبد الهادي الفضلي

استاذ اللغة العربية في كلية الفقه
(النجف الاشرف)

الاسماء الثنائيات في اللغة العربية ـ كما ينص هنري فليش ـ «مقتصرة على سبع وثلاثين كلمة» (1)

وقد بحثها المستشرقون وبعض علماء اللغة العربية المحدثين بحثا انتهى بجملة منهم الى ان « القول بالاصل الثنائي ثابت ومقبول » (2) .

غير ان انتهاء اللغويين الاقدمين الى القول بان الاسماء ثلاثية الاصول دعاهم الى ان يقفوا من الاسماء الثنائيات موقفا مضطربا ، فيه شيء من المحاولة التي قد لا تعد ناجحة الى درجها ضمن الاسماء الثلاثيات ، وغير ما يلمح الى القول بثنائيتها ايضا .

والذي لاحظته اننا نستطيع ان نصرف هذه الى الطوائف التالية :

1 ـ الاسماء العامة ، امثال : يد ، دم ، اخ ، اب ، حم ، فم .

2 ـ اسماء الافعال ، امثال : صه ، مه ، وي .

3 ـ اسماء الظروف ، امثال : اذ ، مع ـ على القول بظرفيتها ـ .

4 ـ اسماء الاشارة ، امثال : ذا ، ذي ، تا ، تي ، ذه ، ته .

5 ـ الاسماء الموصولة ، امثال : ذو (الطائية) ، من ، ما .

6 ـ اسماء الاستفهام ، امثال : من ، ما ، كم .

7 ـ اسماء الشرط ، امثال : من ، ما .

8 ـ الضمائر ، امثال : هو ، هي ، هم ، نا .

وفيما يبدو لي اننا متى حاولنا الكشف عن واقع كل من هذه الطوائف نجد ان اسماء الافعال منها ، لاتندرج ضمن نوع من انواع الكلمة لانها اصوات خاصة تعبر عن نوع من الانفعالات الخاصة ، وتلمس ذلك واضحا اننا لانقولها الا مصحوبة بانفعال تبدو اماراته على ملامح وجوهنا .

اما الظروف والاشارة والموصولات والاستفهام والشرط والضمائر ، فهي ادوات تستعمل وسائل يتوصل بها الى معان اخرى ، ونتبين ذلك من تضمنها معاني حرفية نسبية ، قائمة بين طرفين ، لاتستطيع ان تستقل في اعطائنا معانيها الخاصة . فهي ـ فيما

---

1) العربية الفصحى ص 52 (المعربة)
2) دراسات في اللغة ، الدكتور ابراهيم السامرائي ص 161

اراه ـ ينبغي أن تدرج ضمن الحروف ، لتأخذ مجموعة هذه الادوات طابعا موحدا فى مداليلها ومعانيها.

واللغويون متفقون على ثنائية الاصول فى الحرف، وكذلك الامر فى الاصوات . والاختلاف فى العمل النحوي او فى مواقعها فى الجملة العربية اعرابا وبناء عاملة ومعمولة ، لايضير فى توحيدها من حيث المعنى ـ بصفتها أدوات ـ ضمن مجموعة خاصة .

ومن هنا نستطيع ان ننتهي الى ان الاسماء الثنائيات فى اللغة العربية تقتصر على ما اسميته بـ (الاسماء العامة) والتي اعني بها ما عدا الادوات والاصوات .

ولعلماء اللغة العربية حول هذه الامثلة رايان: القول بثنائيتها ، والقول بثلاثيتها .

وقد استدل القائلون بثنائيتها : بوجودها ثنائية فى بعض اللغات السامية ، فقد وردت كلمة (فم) ثنائية فى اللغة العربية واللغة الاكدية (الاشورية والبابلية) ولغات جنوب الجزيرة والحبشة .. ووردت كلمة (سم) ـ اسم ـ وكلمة (دم) وكلمة (يد) ثنائية فى اللغة العبرية وفى لغات جنوب الجزيرة والحبشة .. وجاءت كلمة (اخ) ثنائية في اللغة العبرية ، وكلمة (حم) ثنائية فى لغات جنوب الجزيرة والحبشة (3) وهكذا .

وانتهوا من هذا ايضا الى انها « ترجع الى اساس لغوي سحيق » (4) ، الى مرحلة تاريخية بدائية ، كانت اللغة العربية فيها ثنائية الاصول ، وقد استطاعت هذه الاسماء أن تغالب التطور فتفلت من تاثيره ، وتحافظ على أصلها الثنائي .

واستدل القائلون بثلاثيتها : باستعمالها ثلاثية عند تصغيرها وتثنيتها والنسبة اليها ـ وهي من المباديء التي ترجع الاسماء الى اصولها ـ فيقال في يد (يدية) وفي دم (دمي) ، ويقال فى النسب (يدوي) و (دموي) و (ابوي) و (اخوي) ، ويقال فى التثنية (فموان) و (يديان) و (دميان) و (دموان) ، واستشهدوا لذلك بالنصوص التالية :

يديان بيضاوان عند محجز
قد يمنعانك ان تذل وتقهرا
هما نفثا في فيّ من فمويهما
على النابح العاوي اشد رجام
فلو انا على حجر ذبحتما
جرى الدميان بالخبر اليقين (5)

ومن هنا قالوا بإعراب هذه الاسماء لانها ثلاثية فلم تشبه الحرف فى الوضع ، وقالوا ببناء ما سواها من الثنائيات لانها اشبهت الحرف بالوضع .

ويبدو ان القول بان الشبه الوضعي عامل من عوامل بناء الاسم لايقوم على اساس ، وذلك لان الثنائيات المبنية من اسماء الاستفهام والشرط والاشارة والموصولة والضمائر شبهها الحرف قائم فى معناها ..

وامثال (مع) و (عل) لا تكون بحاجة الى التكلف فى عدها ثلاثية بتقدير حرف ثالث لها لا حجة تدعم وجوده وحذفه .

وربما كان عدم اعتبار مشابهة الاسم الحرف فى الوضع عند كثيرين من النحويين هو ما اشرت اليه من مجيء الثنائيات على نوعين من الاستعمال معربة ومبنية بما لا يقوم معه قياس فى صوغ قاعدة عامة ، يقول الصبان فى حاشيته على شرح الاشموني : « وانما قدم الوضعي مع انكار كثيرين له تقديما للحسي او اهتماما به لكونه فى مظنة المنع » (6) .

على اننا ـ فيما وقفت عليه ـ لا نقوى على الاقتصار على شبه الحرف وحده عاملا فى بناء الاسم ، وذلك لورود جملة من الاسماء المبنية لا شبه لها بالحرف ، امثال : حذام ونوار وامس وما يجري مجراها .

وقد نذهب الى اكثر من هذا : وهو ان شبه الحرف بصفته عاملا اساسيا فى بناء الاسم لديهم وبخاصة الشبه المعنوي ، نراه متخلفا فى بعض الامثلة كبعض مفردات الظروف مثل (مع) ، والظرف من معاني الحروف ، وله من امثلته ما هو مبني كاذ . ولعل محاولة بعضهم فى ان يوجه اعراب (مع) بمعارضة

---

3) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون ص 283 ـ 286 ـ 291 ـ 294 .
4) العربية الفصحى ص 53
5) مجالس العلماء ، الزجاجي ص 237 ـ 238 .
6) ج 1 ص 15

لزومها للاضافة ـ وهي من خصائص الاسماء ـ لشبهها بالحرف ما يشعر بذلك .

وربما كان المنهج الذي ينبغي ان تقام على اساس منه نتائج بحث مسألة البناء في الاسماء ـ تمشيا مع راي النحاة الاقدمين ـ ان نقسم الاسماء المبنية الى قياسية وسماعية ، ابوابا ومفردات ، فيقال : اسماء الشرط واسماء الاستفهام كلها مبنية ، واسماء الاشارة والاسماء الموصولة كلها مبنية عدا المثنى منهما .. وهكذا ، المفردات المبنية هي : حذام ، واذ ، .. والخ .

وفي امثال يد ودم التي جاءت معربة لا يتساءل عن علة اعرابها ما دام الوصل في الاسماء والاعراب ، والشبه الوضعي لا يصلح ان يقوم عامل بناء .

ومتى حاولنا المقارنة بين هذين المذهبين اللغويين في الاسماء ذوات الصوتين نجد : ان الاصول الثنائية اقرب الى طبيعة اللغة بصفتها ظاهرة اجتماعية تتاثر بعوامل التطور الاجتماعي وتمر بمراحله من البدائية فالتصاعد الى مرحلة النضج .

ووجود تلكم الثنائيات ذوات صوتين في بعض الساميات أيضا مما يقرب انحدارها من اللغة الاصل ، وبقاءها متحدية عوامل التطور .

والشواهد على ثلاثيتها التي رواها اللغويون الاقدمون جاءت شذوذا ، يقول الصبان : « وكذا راعوه (يعني الاصل الثلاثي) في التثنية على شذوذ فقد جاء شذوذا يديان ودميان ودموان » (7) ، ويقول الزجاجي : « وقد قالت العرب على التمام : فموان ، فجعلوا الميم مكان الواو ، والواو مكان الهاء ، وهذا غلط منهم » (8) .

ونجد ايضا ان كلمة (يد) وردت في القرآن الكريم ثنائية في حالة تثنية في ثلاث وثلاثين آية .

وفي اب واخ وحم ، ربما نستطيع ان نثبت ثنائيتها ببقاء استعمالها حتى الآن ثنائية ، وان نذهب الى ان الثلاثية جاءتها نتيجة اشباع الحركات ومدها ، وبه نلتقي مع وجهة النظر القائلة بان حروف العلة في هذه الاسماء علامات اعراب .

على ان القول بان هذه القلة من الاسماء ذوات اصول ثنائية لايتنافى مع عد الثلاثية مبدءا عاما للتاصيل في اللغة العربية ، بعد ان يفهم ان هذه الثنائيات جاءت شذوذا بتحديها عوامل التطور اللغوي الذي مرت به العربية في عهود تاريخ حياتها كظاهرة اجتماعية.

وفيه مضافا الى ذلك ما يلقي الضوء على تاريخ بناء الاسم في اللغة العربية .

واخيرا : هذه محاولة تتطلب كثيرا من الدراسة الوافية التي قد تنتهي بنا الى نتائج مقبولة ، قمت بها لاشير الى بعض النقاط المهمة في المسالة .

---

7) ص 15 ـ 16
8) ص 237

ترجمة القرآن إلى لغات شرقية وغربية

بقلم الشيخ طه الولي

سكرتير جمعية المكتبات اللبنانية
(بيـــــروت)

لقد كان ظهور الاسلام حدثا عالميا خلق حركة انسانية كبرى ترتبت عليها نتائج ضخمة لم تقف عند الحدود الجغرافية للبلاد التي شهدت بوادره الاولى بل هي قد تجاوزت هـذه الحدود الـى ما وراءهـا واستمرت تفاعلاتها الفكرية تنتقل من بلد الى بلد ومن زمن الى زمن حتى فرضت نفسها على تطور الحضارة العالمية واصبحت احدى الظواهر الاساسية لتطلـع الانسان الى حياة افضل ، وبذلك لم يجد اهل العلم من رجال الفكر على اختلاف لغاتهم ومذاهبهـم بـدا من العودة الى الكتاب الذي ضم بين دفتيه شعائر هـذا الدين واركانه ، للاطلاع عليه ودراسته وفهمه . وهكذا اصبحت ترجمة القرءان هدفا لمحاولات جدية قام بها الاصدقاء والخصوم على حد سواء فى الشرق او في الغرب . وما تزال هذه المحاولات مستمرة حتى الآن وكلها ترمي الى نقل النص العربي للقرءان الكريم الى اللغات الاخرى مع الرغبة الملحة فى ان يكون هذا النقل صورة صادقة تعكس آي الذكر الحكيم الى الالسـن التي يترجم بها .

ولسنا هنا فى مجال تحليـل هـذه الترجمـات ومناقشتها فى قربها او بعدها عن الغرض الذي تسامت اليه ، وانما نحن نريد اعطاء القارىء صورة تاريخية عن هذا الموضوع الخطير والاشخاص الذيـن ندبـوا انفسهم له .

وليس من شك ، فى ان الترجمة الحرفية للقرءان الكريم ستبقى الضالة المنشودة كما انها ستبقى كذلك الغاية التي لن تدرك لان ترجمة الوحي الالهـي الذي نزل به الروح الامين على قلب سيد المرسلين ليسـت بالامر الهين ، وفى ذلـك يقول المستشـرق الالمانـي « فيشـــر » :

« لا يداخل الذين تعمقوا باسرار العربية شك فى انه لا يوجد بين تراجم القرءان سواء اكانت كاملة أم قاصرة على بعض آيات منه ـ ترجمة تفي بالمطالب اللغوية الدقيقة » .

القـرءان الكريـم في اوربـا

ان التوتر الدائم الذي كانت تتميز به العلاقات بين الاسـلام والنصرانيـة لا سيما خـلال الحروب الصليبية وبعدها ، كان يقف حجر عثـرة يحول دون اطلاع الاوربيين على القرءان الكريم ، سـواء بلغتـه العربية الاصيلة او مترجما الى احدى اللغات الاوربية السائـدة .

وعندما أقدم العالم الايطالي : « باكانيني » على طبع القرءان الكريم فى مدينة البندقية سنة 1530 ميلادية، بادر البابا بولس الثالث (1534 ـ 1537) الى اصدار

الامر المشدد باتلاف كافة النسخ المطبوعة فى الحال . غير ان البابا الكسندر السابع (1555 – 1567) عاد فالغى امر البابا السابق وسمح بطبع القرءان الكريم لمن شاء كما سمح بترجمته والقيام بدراسته . (1)

اول ترجمة للقرءان الكريم فى اوربا (2)

ان اول ترجمة للقرءان الكريم فى اوربا كانت باشارة من بطرس المحترم (Petrus Venerabilis Abbot of Glugny) رئيس ديركلوني ، المتوفى سنة 1157 ميلادية . فبعد ان قام هذا برحلة الى اسبانيا بين سنتي 1141 – 1143 وبمساعدة ريمون الطليطلي كما هو مظنون « الف لجنة راسها روبرت الراتيني » (انكليزي) Robert of Retina الذي كان برتبة رئيس الشمامسة بمدينة بمبلونا يساعده راهب والماني يدعى هرمان (Hermann) ورجل آخر يقال له بطرس الطليطلي الا انه من الراجح ان هذا الاخير هو المترجم الحقيقي للقرءان الكريم ، اذ كان يجيد العربية اجادة تامة .

وتمت هذه الترجمة حوالي سنة 1143 ميلادية وارسلت بعد انجازها الى رئيس دير كلوني العام برنردوس الذي وضعها تحت تصرف رجال الكنيسة ليستعملوها فى استكمال دراساتهم اللاهوتية او القيام باعمال التبشير الدينية . وكان ظهور هذه الترجمة بعد الحملة الصليبية الثانية باربع سنوات .

وقد اتى على ذكر هذه الترجمة المفهرس الالماني شتور فى الصفحة (421 – 427) من الفهرس الذي وضعه بعنوان « المكتبة العربية » ، وكذلك اشار اليها مفهرس الماني آخر يدعى « بيفان مولر » فى الصفحة 213 ، والجدير بالذكر ان هذه الترجمة بالذات هي التي طبعها تيودور بيبليياندر (Theodor Bibliander) فى بازل سنة 1543 (3) ونقلت بعد ذلك ، الى الايطالية والالمانية والهولندية .

وقد ظهرت فيما بعد طبعات اخرى لترجمة بيبليياندر وذلك سنة 1550 وسنة 1721 فى مدينة ليبزغ (Lepzig) كما طبع فى هذه المدينة ايضا ترجمة لاتينية للقرءان الكريم مع اصله العربي سنة 1768 قام بها جوستاس فريد ريكوس فورياب (Justas Fredricus Foriep) وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بان الكتاب الذي نشره العالم الايطالي « اندريا اريفايانية » سنة 1547 بعنوان : قرءان محمد (L'Alcorno de Macometto) لم يكن فى الواقع سوى الترجمة الايطالية عن الاصل اللاتيني الذي وضعه كما ذكرنا من قبل ، روبرت الراتيني . وهذه الترجمة بالذات هي التي نقلت فيما بعد الى الالمانية وطبعت سنة 1616 والى الهولندية سنة 1647 وطبعت فى هامبورغ .

ولقد ترجم القرءان الكريم مرة اخرى الى اللاتينية على يد الاب لويس مراكشي (Lowis Marracci) وذلك سنة 1698 وقد تضمنت هذه الترجمة الاصل العربي والترجمة اللاتينية والاغلاط المصححة .

اسطورة اللعنة التي تصيب من يطبع القرءان الكريم او ينشره

ومن الطريف ان رجال الدين النصارى فى اوربا حاربوا القرءان الكريم ، عن طريق اطلاق الشائعات بان من يطبعه او يحاول طبعه فانه يلاقي الموت الزؤام قبل ان يحل اجله الطبيعي وبذلك بزوا المصريين الذين طالما اشاعوا بان من يمس رأس الملكة الفرعونية « نفرتيتي » تصيبه اللعنة المؤكدة فى الحال .

---

1) عبد القادر الاعظمي فى كتابه – تحت راية القرءان . نقلا عن نشرة الرسالة الصادرة فى بون بالمانيا ص 2 عدد 38\1963 م .
بيد ان الدكتور محمد حميد الله ذكر (في مقال له نشرته مجلة الافكار والفنون الصادرة بالمانيا 1965) ان الذي امر باتلاف النسخ المطبوعة من القرءان الكريم فى اوربا هو الكسندر السابع المشار اليه في متن الكلام .

2) ويقول الداعية النصراني القس صموئيل زويمر الذي نقلت عنه جزءا من هذه المعلومات ، يقول بان هذه الترجمة بقيت مجهولة فى اوربا نيفا واربعمائة سنة حتى قيض لها من يظهرها للوجود مرة ثانية (تراجم القرءان – المقتطف ص 529 مجلد 46).

3) الا ان الشيخ عبد القادر الاعظمي يقول ان بيبليياندر هو نفسه قد ترجم القرءان الكريم الى اللغة اللاتينية . (ص 2 من نشرة الرسالة فى بون 1963 نقلا عن كتابه « تحت راية القرءان ») .

القرءان الكريم في المانيا

على انه بالرغم من حرب الاعصاب التي شنتها الكنيسة على اتباعها ، لكي تصرفهم عن الاهتمام بطبع القرءان الكريم ، فانه ما ان حل القرن السابع عشر للميلاد ، حتى ظهر هذا الكتاب المقدس فى المانيا نفسها على يد المستشرق « هيابل » الذي نقله الى الالمانية عن الترجمة الايطالية للنسخة الاصلية التي وضعت فى الاساس باللغة اللاتينية . (1)

محاولات المانية لتعميم القرءان الكريم فى المانيا

ولقد جرت فى ذلك الزمن عدة محاولات جدية لتعميم طبع القرءان الكريم فى المانيا ، ويقول المؤرخ الالماني المعروف « ولهلم ايرنست تيننتزل » من مدينة « جوتا » فى احد اعداد مجلته الشهرية « مكالمات شهرية يا اصدقاء » الصادرة سنة 1662 ميلادية : « علمنا من البرفسور يوهان اندرياس دانتز ، استاذ اللغات الشرقية ، انه مزمع على طبع القرءان باللغة العربية ... وقد ذكر « فون اوست » بفايفر من لوبيك بالمانيا عن طبعات القرءان . وذلك فى مقدمة كتابه « علوم الدين فى اليهودية والاسلام » الذي ظهر سنة 1687 ، فى هذا الوقت الذي يسعى فيه كثيرون من الذين يدرسون اللغات الشرقية وعلومها للحصول على نسخ مطبوعة للقرءان ، تقرر طباعة مجموعة جديدة للقرءان .. ولكن هذا الحلم لم يتحقق آنذاك لصعوبات وقفت بوجه كل من الرجلين ا . هـ .. » (2)

اول طبعة للقرءان الكريم في المانيا

واول طبعة لترجمة القرءان الكريم فى المانيا كانت عن اللاتينية ، وتلتها ترجمات اخرى احداها لسكويجر (Schweigger) كانت عن الايطالية وطبعت فى تورنبرغ سنة 1616 (3) وفى سنة 1293 سنحت الفرصة للناشر هينكلمان فى المانيا وتم له طبع القرءان الكريم عام1694. وتقع هذه الطبعة فى 560صفحةبحجم 5ر17 ــ 5ر21 سنتم ولقد لقى هنيكلمان الاحترام من الجميع من اعلن عن عزمه بطبع القرءان ، وفى مقدمة هذه الطبعة التي بلغ عدد صفحاتها 80 صفحة ضمن هينكلمان آراءه الشخصية فى الآداب والعلوم الشرقية والعربية . وفى نهايتها ابدى اسفه لقلة ما يعرفه الاوربيون بصورة عامة عن العرب واللغة العربية .

ولا تزال نسختان من طبعة هينكلمان للقرءان الكريم موجودتين فى المانيا احداهما فى المكتبة العامة بمدينة هامبورغ ، والاخرى بمكتبة جامعتها (4) .

طبعات قديمة اخرى للقرءان الكريم فى المانيا

ثم توالت طبعات القرءان الكريم فى المانيا من ذلك طبعة لفردريك مجرلين (Frederick Megerlin) التي صدرت فى فرنكفورت سنة 1772 ميلادية وطبعة ترجمة سيل (Sale) الانكليزية التي نقلها الى الالمانية ثيو ارنولد (Theo Arnold) التي طبعت فى لمجو (Lemgo) سنة 1746 ميلادية على ان احسن الترجمات الالمانية قام بها بويسون (Boysen) سنة 1773 ميلادية وهي التي نقحها فيما بعد وهل (G. Wahl) سنة 1828 .

وهناك طبعة اولمان (Ulmann) سنة 1953 التي اعيد طبعها مرارا .

عرض سريع للترجمات الاوربية والشرقية للقرءان الكريم

الترجمات الاوربية القديمة

الفرنسية : ترجم القرءان الكريم الى الفرنسية اندرو دورايو (Andrew du Ryer) الذي كان قنصلا

---

1) تحت راية القرءان للشيخ عبد القادر الاعظمي نشرة الرسالة الصادرة فى بون سنة 1963 ص 2 .

2) نفس المصدر السابق .

3) القس صموئيل زويمر فى مقال نشره بمجلة المقتطف ، مجلد 46 ص 529 وما بعدها تحت عنوان « تراجم القرءان » .

4) الشيخ عبد القادر الاعظمي العراقي فى كتابه « تحت راية القرءان » عن نشرة الرسالة الصادرة فى بون ص 2 عدد 38 سنة 1963 .

ويقول الدكتور محمد حميد الله فى مقال له بعنوان : (الالمان فى خدمة القرءان) ، نشرته مجلة « الافكار والفنون » الصادرة فى المانيا ان اول نسخة مطبوعة وصلتنا قام بها ابراهام هينكلمان ــاهـ.

وكان هينكلمان هذا من رجال الكهنوت فى كنيسة القديسة سان كاترين بها مبورغ وهو من المنتمين الى حركة البيتسم التي تعني : الاحترام والطاعة والورع .

عاما لفرنسا فى مصر ، وكانت له معرفة حسنة باللغتين التركية والعربية ، وطبعت ترجمته سنة 1647 ميلادية وفى سنة 1783 ميلادية طبعت ترجمة سفاري Savary ثم تلا ذلك ترجمة كازيميرسكي (Kasimirski) التي طبعت مرتين سنة 1840 و 1841 ميلادية ، ثم طبعة ثالثة سنة 1875 ، وفى سنة 1852 طبعت ترجمة يونية .

السويدية : سنة 1874 ميلادية تولى تورنبرغ (G. G. Tornberg) ترجمة القرءان الكريم الى اللغة السويدية .

الاسبانية : فى القرن الثالث عشر طلب الفونس العاشر ان تترجم سورة المعراج الى اللغة الاسبانية فقام بهذا العمل طبيبه الخاص الدون ابراهيم ، وقد نقلت هذه الترجمة الى الفرنسية بواسطة بونا منتورا دى سيف (Bona Venturada Seve)

الهولندية : واول ترجمة هولندية نقلت عن ترجمة سكويكر (Schweigger) وطبعت فى هامبورغ سنة 1641 ميلادية ، ثم ترجمة جلاسماكر (J. H. Glasemaker) التي اعتمد فيها على ترجمة راير الفرنسية ، وقد طبعت فى ليدن (Leyden) سنة 1658 ، ثم طبعت هذه الترجمة مرتين ، احداهما في سنة 1698 ، والاخرى سنة 1734 .

وفى سنة 1806 قام بترجمة القرءان الكريم الدكتور كيزر (Keyser) الذي كان يتولى تدريس الشريعة الاسلامية بجامعة دلفت (Delfet) وطبعت هذه الترجمة باللغة الهولندية فى مدينة هارلم .

الروسية : وفى سنة 1776 ميلادية ظهرت ترجمة روسية للقرءان الكريم في مدينة بترغراد (لينغراد اليوم) .

الايطالية : وفى سنة 1547 ميلادية قام اندر اريفابين (Ander Arrivabene) بنقل ترجمة بيبلياندر اللاتينية الى الايطالية . ومن الترجمات الايطالية ترجمة اكيلو فراكاسي (Aquilio Fracassi) احد اساتذة الفنون الملكية بميلانو سنة 1914 . وقدم لها بمقدمة عن التراجم الايطالية القديمة مع ملخص للسور وشرح اسمائها .

الانكليزية : واول ترجمة للقرءان الكريم باللغة الانكليزية هي التي قام بها الكسندر روس (Alexander Ross) نقلها عن ترجمة راير الفرنسية. ثم ترجمة الدكتور سيل (Sale) وهذا نقلها عن العربية راسا وذلك سنة 1734 . وقد طبعت هذه الترجمة مرارا مع مقدمة مسهبة تحت عنوان : «مقالة فى الاسلام » وقد وضع المترجم على هامش ترجمته بعض التفاسير عن البيضاوي . (1)

وكذلك ترجم القرءان الكريم الى الانكليزية القسيس رودويل (Rodwell) وهو انكليزي وجعل ترجمته وفقا لترتيب نزول الآيات تاريخيا ، وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر على هامش القرءان الكريم سنة 1833 ميلادية .

القرءان الكريم بالانكليزية شعرا : وقد حاول ريتشارد برتن مع آخرين ان يترجموا القرءان الكريم بالسجع الشعري ونشرت اجزاء من هذه الترجمة فى مجلة ادنبرغ سنة 1866 .

بلغة الاسبرانتو العالمية : هذه الترجمة قام بها خالد شلدريك (Khalid Sheldrake) وظهر بعضها فى مجلة (اسلاميك ريفيو (Islamic Review) وفيما يلي سورة الفاتحة بهذه اللغة .

(2) Sura « Al Fatihah »

« Pro la nomo de Dio la indulgema and
[malsevera.
Laudo estu al Dio, la majstro de la mondoj
Plena de kompato, Rego en la tago de la jugo
Al vi servu ni, kaj al vi ni pregu
Konduku nin en la gusta vojo,
Ne de tiuj kiu koleras kontrau via volo
Ne de tiuj kiuj eraras ».
Amin.

الترجمات الشرقية للقرءان الكريم

الفارسية : ان هذه اللغة هي اول ما ترجم اليه القرءان الكريم من اللغات ، غربية كانت او شرقية، وقد ذكر الفقيه الكبير شمس الائمة السرخسي في كتابه المبسوط (ص 37) ان الامام ابا حنيفة رحمه الله روى ان الفرس كتبوا الى مواطنهم سلمان رضى الله عنه ان يكتب لهم الفاتحة بالفارسية . فكانوا

---

1) نقلت هذه المعلومات عن القس صموئيل زويمر من مقاله المذكور من قبل .
2) نقلا عن القس صموئيل زويمر الداعية البروتستانتي فى مصر . من مقال له نشر بمجلة المقتطف مجلد 46 جزء 6 ص 529 سنة 1915 وما بعدها .

يقراون ذلك فى الصلاة حتى لانت السنتهم للعربية . وبذلك تكون هذه الترجمة اقدم ما عرف من ترجمات القرءان الكريم اطلاقا .

وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين ان موسى بن سيار الاسواري المتوفى سنة 255 هجرية كان يدرس تفسير القرءان الكريم بالفارسية .

ووصل الينا ترجمة القرءان الكريم على ايدي علماء ما وراء النهر فى سنة 345 هجرية للملك منصور ابن نوح السامانى ، واضافوا الى الترجمة تفسير الطبري المتوفي سنة 310 هجرية .

وفى العصور الحديثة ظهرت نسخة فارسية وعربية فى جزئين طبع كل سنة 1831 ميلادية . واشار برونيه (Brunet) الى ترجمة فارسية اخرى في اصفهان . وقد طبعت للشاه رافع الدين ترجمة فارسية وعلى هامشها تفسير باللغتين الفارسية والاردية (لغة الهند) .

السريانية : واول من ترجم القرءان الكريم من غير المسلمين هم السريان . فقد عثر على كتاب جدل ، فيه ترجمة آيات القرءان بالسريانية . وهو مخطوط على رق ، ما تزال محفوظة فى مكتبة مانشستر بانكلترا . ويقول الاستاذ مانكانا ان هذه الترجمة هي من وضع بارصليبي المعاصر للحجاج بن يوسف اي فى الثلث الثالث من القرن الاول للهجرة » .

العبرية : ذكرت دائرة المعارف اليهودية انه توجد بعض ترجمات للقرءان الكريم باللغة العبرية وان بعض اجزاء من هذه الترجمات توجد فى المكتبة البودلية (Bodelian) باكسفورد بانكلترا تحت رقم 1221 . وفى فهرست تلك المكتبة ، عنوان لكتاب عبراني يشتمل فى آن واحد على التوراة والترجوم والقرءان الكريم .

وقد ترجم القرءان الكريم من اللاتينية الى العبرانية يعقوب بن اسرائيل ، حاخام زنتي (Zante) سنة 1634 ميلادية ، ثم ترجمة هرمان ريكندرف (Hermann Reekendorf) وطبع فى ليبزغ سنة 1857 ميلادية .

الاوردية (الهندية) : اقدم الترجمات الاردية (لغة الهند الرئيسية) قام بها الشيخ عبد القادر ابن الشاه ولي الله ، طبعت فى دلهي سنة 1790 ميلادية وظهرت فى طبعات مختلفة مع الاصل العربي . وترجم القرءان الكريم الى الاردية كذلك الدكتور عماد الدين امرتسار (Amritsar) وقد طبعت ترجمته فى « الله آباد » وهي اول طبعة بحروف اردية افرنجية .

وهناك طبعة 1315 هجرية اسمها (القرءان الكريم) وفيها الاصل العربي وترجمته بالفارسية والاوردية .

الجاوية : ترجم القرءان الكريم الى لغة مالي بجاوة مع تفسير البيضاوي وظهرت ترجمة باللغة الجاوية سنة 1913 لرجل كان يسمي نفسه خادم سلطان تركيا .

البنجالية ـ (الهند) : وسنة 1908 بدا القس « وليم جلود ساك » بترجمة القرءان الكريم الى لغة بنجالي فى الهند .

التركية : كان السلطان عبد الحميد الثاني يمنع منعا باتا ترجمة القرءان الكريم الى اللغة التركية على انه بعد اعلان الدستور سنة 1908 بدا بعض الكتاب الاتراك في ترجمته الى اللغة التركية وسط مقاومة بعض المتمسكين من المحافظين على القديم واول ترجمة من هذا النوع ظهرت لابراهيم حلمي كما ظهرت كذلك ترجمة اخرى فى المجلة التركية (اسلام مجموعة سي) لمحررها سليم ثابت بقلم رجل كان يوقع اسمه : خ. ن.

ولا بد من الملاحظة بان هذه الترجمات الشرقية لم تكن فى الواقع ترجمة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة بل هي عبارة عن تفسير لآيات القرءان الكريم .

ومن هذا القبيل ما وضع كل من فرجنيل (M. F. Fargenel) وبوفات (M. L. Bouvat) من شرح للقرءان الكريم باللغة الصينية فى مجلة ريفودي موند مسلمان (Revue du Monde Musulman) (جزء 4 ص 540) .

قائمة باللغات التي ترجم اليها القرءان فى سائر انحاء العالم ، وعدد كل منها : (1)

1 ـ ارغونية	1
2 ـ اسوجية	6

1) ص 31 من مجلة الافكار والفنون الصادرة بالمانيا 1965 فى مقال للدكتور محمد عبد الله بعنوان : الالمان فى خدمة القرءان .

3 ـ افريقانيه (لهجة من الونديزية بالحرف العربي) 2 لاتين 4
4 ـ البانية 2
5 ـ الخميادو (اسبانية بالحرف العربي) 35
6 ـ المانية 42
7 ـ انكليزية 57
8 ـ اوكرانية 1
9 ـ ايسبرانتو 1
10 ـ برتغالية 4
11 ـ بلغارية 2
12 ـ بشنافية (يوغسلافية بالحرف العربي) 2
اللاتيني 9
الروسي 2
13 ـ بولونية ـ بالعربي 1
لاتيني 7
14 ـ بوهيمية (من تشيكوسلافاكية) 3
15 ـ تركية ـ باللاتيني 23
= بالايغورى القديم 3 قطعات
= بالعربي (فى فهرست الدكتور ماجد يشار اوغلو) 60 تقريبا
16 ـ دانماركية 3
17 ـ روسية 11
18 ـ رومانية 1
19 ـ ايطالية 11
20 ـ فرنسية 33
21 ـ فنلندية 1
22 ـ لاتينية 42
23 ـ مجرية (هنكارية) 6
24 ـ نروجية 1
25 ـ ولنديزية 7
26 ـ اسبانية (باللاتيني) 18
27 ـ اليونانية 3

نداء إلى أصحاب الاختصاص العرب

وجه المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي نداء الى جميع رجال الاختصاص في العلوم واللغة ننشره فيما يلي :

في اطار المعجم العلمي العام الذي سيصدره المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي بناء على منهاجه العشاري ، نرجو من سيادتكم موافاتنا فى اقرب وقت ممكن بما يعن لكم من مصطلحات تقترحونها في مادة اختصاصكم أوملاحظات على مصطلحات غير موفقة فى نظر سيادتكم او ما عثرتم عليه اثناء بحثكم من مصطلحات عربية قديمة تعبر عن مفاهيم جديدة . وغير خاف عنكم أن الجامعة العربية قد بعثت بمذكرة الى جميع وزراء الخارجية العرب تطلب منهم فيها المساهمة فى اعداد هذا المعجم ماديا وادبيا .

وان المكتب قد قرر أن يكون معجمه هذا وافيا بجميع المصطلحات المستوعبة لقابلية الحياة ، لذلك يرى من الضروري الاتصال بجميع الهيئات العلمية واللغوية وبكافة الافراد العلميين لهذا الغرض .

وقد وافانا لحد الآن ثلة من الاساتذة العلماء بجملة من المصطلحات والملاحظات ادرجناها باسمهم فى جزازيات المكتب الدائم التي هي المصدر الاساسي للمعجم العلمي العام .

العرب أول الفلكيين

للأستاذ عبد الحق فاضل

نعم ، انما نقصد ان نقول انهم (اول) الفلكيين في التاريخ الانساني ، على ما يظهر ، لا اعظمهم شأنا ولا ابعدهم صيتا ، لان بعد صيتهم وعظمة شأنهم في العلوم عامة وعلم الفلك خاصة ، خلال عصور الازدهار الاسلامية ، منقبة لم يعد يجهلها الا جاهل .

ومن بقايا تجوابهم واستكشافاتهم في القارة السماوية ، خلفوا لنا من آثار اقدامهم في اللغات الاوربية عددا كبيرا من الالفاظ العربية كأسماء النجوم ومصطلحات الفلك ، ومنها في الانكليزية مثلا : Algedi (الجدي) ، Altair (الطائر)، Algieba (الجبهة) ، Algenib (الجنب) ، Aldaberan (الدبران) ، Betelguese (منكب الجوزاء) ... Nadir (النظير) ، Zénith (السمت ، سمت الراس) ، Azimuth (السموت ، سمت السموت) ...

كذلك لا نقصد بقولنا ان العرب اول الفلكيين حتى الاكديين العرب (وهم قدامى البابليين) بالرغم من أن ابناء الرافدين هم الذين وصلتنا منهم اقدم المعارف الفلكية مدونة ومدروسة ، وهي اساس تقسيماتنا الزمنية الحاضرة للسنة والشهور والساعات ... بالاضافة الى معرفتهم سبع كواكب سيارة ومن عددها هذا قسموا الايام اسابيع ...

وشيء شبيه بذلك يمكن ان يقال عن قدامى ابناء النيل الذين اتضح من الدراسات الحديثة للغتهم انهم ساميون ، اي عرب .. بعد ان كان المظنون انهم حاميون وهؤلاء ايضا عرب لكنهم ابعد نسبا اي اقدم عهدا بمغادرة الجزيرة العربية . بل لقد اثبتت لنا دراستنا اللغوية ان الآريين ايضا ينتمون الى هذه الجزيرة العربية المقفرة الولود !

غير ان الذي نقصده بقولنا ان العرب اول الفلكيين هو ان سكان **العربة** (= الجزيرة العربية) قد كانوا على درجة فائقة من الاهتمام بمراقبة النجوم والعلم بحركاتها المتشابكة ومواقيتها الدورية منذ العهود الحجرية المجهولة .. قبل عهود التدوين وقبل اختراع الكتابة وقبل أن يتحضر النيليون والرافدانيون بالوف السنين .. اي منذ نحو عشرة آلاف سنة .. ان لم نقل اكثر !

هذه الحقيقة المذهلة تخبرنا بها اللغة على كل حال .

ان لفظة (**الآن**) تعني الوقت ومنها (**الاوان**) . والفعل هو (آن **أينا**) اي حان الوقت و (آن **اونا**) اي تمهل في المشي ، واصل المعنى قضى وقتا في المشي اي من معنى الوقت ايضا .. ولا سيما ان (**الأيـن**) كذلك يعني التعب ، الذي يسبب التمهل في المشي .

وقـــد تطـور (**الأون**) فصار ينطـــق مقلوبا (**النـوء**) . ومما يؤيد ان (الأون) كان يعني الوقت قديما هو ان مقلوبة المستحدث منـه اي (النـــوء) ما زال يعني (**الآن**) في الانكليزية بصورة (now)

وقـــد كان من معاني (النوء) عند العـــرب: **سقوط نجم من المنازل في المغرب وطلوع رقيبه وهـو نجم يقابله من ساعته في المشرق في كل ليلة الى ثلاثـة عشر يوما . وهكذا كل نجم منها الى انقضاء السنـة ما خلا الجبهة فان لها اربعة عشر يوما .. والانـواء كانت عندهم ثمانية وعشرين معروفة المطالع في ازمنة السنة كلها يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلـة (1) نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابلـه في المشرق من ساعتهوكلاهما معلوم مسمـى . وانقضاء هذه الثمانية وعشرين كلها مع انقضاء السنة ثم يرجع الامر الى النجم الاول . وكانت العرب في الجاهلية اذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لابد من ان يكون عند ذلك مطر او رياح فينسبون كل غيث يكون عند ذلك الى ذلك النجم فيقولون « مطرنا بنوء الثريا او بنـوء الدبران »** ــ (المنجد ــ مادة : نـــوء)

وليس من المعقول ان القوم الذين لهم كل هـذه المعرفة الدقيقة عن (الانواء) ليست لهم معرفة دقيقة اوسع نطاقا في شؤون فلكية اخرى ، وانما هذا شأن اناس كانوا يرقبون النجـــوم ويرصدون حركاتهـــا ومواضعها خلال ايـام الحول ويحـــددون العلاقات المعقدة بين بعضها وبعضها في المكان من رقعة السماء وفي الزمان من مدار الـسنة .. بطريقـــة يسعنـــا مطمئنين ان نسميها (**علميـــة**) . وان كـان فـــي معلوماتهم شيء من خطأ فتلك سجية (العلم) دائما . وستاتي اجيال تجد في علم جيلنا هـذا الكثير مـــن الاخطاء في الفلك وغيره .

ولسنا ندري الآن الى اي حد كانوا يستفيدون من هذه المعرفة الفلكية في حياتهم العملية بالاضافـة الى اهتدائهم بها في اسفار البراري وملاحـة البحار ، لكننا نعلم ان امثال هذه المعلومات الفلكية ما زالت من المعارف العامة في مختلف انحاء الجزيرة العربية حيث يتحدث حتى الرعاة والعامة من الناس عن حركـات النجوم ومواعيدها ويقرنون بهـا المواسم المناخيـة والنباتية والحيوانية والتجارية والصحية ...

والاغلب ان هذا تراث موروث عن الجاهلية .

لكن اصطلاح (الجاهلية) انما يعني العهد العربي الوثني القريب من عهد ظهور الاسلام . فالى اي امـد يمكننا ان ندفع هذه المعلومات الفلكية الثمينـة الى وراء ؟ الف عام ؟ الفي عام ؟ ثلاثة آلاف ؟ ..

ثم من الذي يقول ان هذه المعرفة من استنباط العرب انفسهم لا من مقتبساتهم عن جيرانهم المصريين والاكديين ؟

اللغة هي التي تقول ذلك . بل انها تزعم ما هو ادعى الى الدهشة والعجب . تزعـم ان المصريـين والاكديين هم الذين اقتبسوا معارفهم الفلكية الاولى عن ابناء المعربة الاقدمين !

يظهـر مـن القرائـن الترسيسية في البحث اللغوي (2) ان العرب استعملوا كلمة (**الآن**) ايضـا بمعنى النوء ، ولا غرابة في ذلك فان المعجم العربـي حافل بالالفاظ التي تحمـل المعانـي المتشابهـة والمتواشجة والمغلوطة والمتضادة مما يعرفـه كل ذي المـام ولو يسير بهذه الامور . فمن معنى تمام السنة عند عودة النجم (النوء) الاول الى الظهور اطلقـوا على السنة كلمة (الآن) . وان كان هذا المعنى قـد ضاع من الكلمة بصيغتها هذه في عربيتنا المعجميـة الباقيـة فان صيغتها هـذه (آن an) بنفسهـا ما زالت تعني السنة في الفرنسية ! اما في العربية فقد صارت تنطق (**عـام**) !

ومن معنى تجدد الانواء استعملوا كلمة (النوء) بمعنى الجديد ، وهي باقية بهذا المعنى في الفارسيـة بصيغـة (نـــو ــ naw) ومنها (نوروز) : اليوم الجديد ، اي راس السنة . وتنطق الكلمة في الانكليزية (نيـــو ــnew) ويؤثلونها (= يؤصلونهـا) من

---

1) في الاصل ثلاثة عشر ليلة ، وهو من الاغـــلاط المطبعية فيما يظهر .

2) الترسيس طريقة لنا في دراسة اللغة تعني البحث عن رس الكلمة اي بدايتها منذ نطق بها الانسان الاول تقليدا لاحد الاصوات الطبيعية ، مع تعقيب تطورات الكلمة حتى اصبحت على الصيغة التي تشكلت بهـا في معنى حديث قد يكون ثقافيا راقيا . وقد اوضحنا ذلك بعنوان « علم الترسيس » في مجلـة « اللسان العربي » ــ الرباط ــ العدد : 5 غشت (آب) 1967 .

السكسونية (neowe) وقد وردت قبل ذلك في الاغريقية بصورة (**نيوس** ـ neos) وفي اللاتينية بصيغة (**نوفوس** ـ novus) ، وهي في الايطالية (**نوفه** ـ nove) وفي الفرنسية (**نوفوه** ـ nouveau) . ومعلوم ان حرف السين زائد في آخر الكلمتين الاغريقية واللاتينية يلحق بالاسماء عندهم ، وصلب الكلمة فيهما النون والواو فحسب .

ومن معنى الرياح والتغيرات الجوية ظهرت في بعض الدارجات العربية صيغة (**النو**) ـ بتشديد الواو ـ بمعنى الحالة او الطور او المزاج .

وظهرت كلمة (**التنوع**) تعبيرا عن كل ذلك فصار العرب ينطقون (النوء) بالعين (**النوع**) ـ على طريقة بعضهم في العنعنة ـ بمعنى الصنف ، على اعتبار كل (نوع) جديدا او مغايرا لسواه من الانواع ، ومن هنا كان (التنويع) يتضمن شيئا من معنى التجديد والتغيير . و (النوع) تشبه صيغة (نو) ـ المشددة ـ بالدارجة ، وصيغة (نو) ـ المخففة الساكنة ـ بالفارسية .

ومن هذا المعنى توجد في الانكليزية (novel) التي تعني الطريف والنادرة والقصة ، و (novelty) التي تعني البدعة والطرافة .. وكلتاهما من الفرنسية وتنطقان فيها nouvelle و nouveauté وهما من nouveau (جديد) المنحدرة من اللاتينية المذكورة آنفا .

ومن معنى الامطار التي كانوا يعتقدون انها تقترن بتبدل الانواء صار (النوء) منذ العهد الجاهلي يعني في العربية **المطر** . و (**علم الانواء**) يعني عندنا اليوم علم تعرف الاحوال الجوية وله في كل قطر خبراء وديوان مخصوص يرتبط بالملاحة الجوية على الاخص

ومن معنى الرياح والامطار صار البحارة العرب منذ القدم فيما يبدو يطلقون (النوء) على اعاصيرهم وتقلبات اجوائهم البحرية ، وهذا هو مفهوم الكلمة اليوم عند سواد القراء مما يدل على اثالته . وادل من ذلك على اثالة هذا المفهوم الملاحي لكلمة (النوء) هو انها تعني السفينة في الفارسية بصيغة (**ناو**) ! وهي في الاغريقية (naus) ، وفي اللاتينية (navis) ، وفي الفرنسية (navie) ، وفي الايطالية (nave) . ومنها في الانكليزية (navy) اسطول او قوة بحرية ، و (naval) اسطولي او سفيني .

ومن معنى السفينة في العربية (**النوتي**) « ملاح السفينة في البحر خاصة » .

وهذه الالفاظ بمعانيها المتطورة من لفظة (النوء) ومن معاني مجموعة الانواء وتجددها وارتباطها على قولهم بمناخ الارض ـ حديثة طبعا بالنسبة الى (النوء) الذي استحدثت منه . ولا ندري كم من الاجيال انقضت حتى استحدثت هذه الالفاظ من النوء لكن الاغلب انها كانت اجيالا طوالا . واقدم من (النوء) كلمة (آن) التي تعني السنة في الفرنسية ، والتي من لفظها نشأت الفاظ : العام والآون والنوء نفسه .

والذي يعتقده الباحثون ان الجزيرة العربية كانت غابة كثيرة الماء والنبات والحيوان والانسان ثم اخذ الجفاف يعمها منذ عهد انقضاء الحقبة الجليدية الاخيرة اي قبل نحو عشر الف سنة .

والذي نراه شخصيا ، بل الذي ارتنا اياه اللغة ، ان (**الآريين**) هم اوائل العرب المهاجرين الذين نزحوا من معربتهم منذ اخذ يكتسحها الجفاف والمحل وانطلقوا الى العراق ومن ثم هاجر بعضهم الى ايران وما وراءها واستقر الباقون في العراق ، كما انطلق آخرون الى سورية حيث استقر من استقر واستمر في الهجرة من استمر غربا الى مصر وما وراءها ، وشمالا الى البر الاناضولي وما وراءه ، اي اوربا . فنحن لا نعتقد ان جميع الآريين قد قدموا اصلا من الهند او اواسط آسيا ، بل لابد ان الكثيرين منهم قدموا راسا من المعربة في موجات مختلفة عن طريق آسيا الصغرى وشمالي افريقيا (ناهيك بالساحل السوري الذي انطلق منه الفنيقيون فيما بعد في كل اتجاه) .

ثم كانت هجرة (**الحاميين**) الى افريقيا شماليها وشرقيها .

ثم كانت هجرة (**الساميين**) الى الهلال الخصيب وشرقي افريقيا .. فاستقروا مع من كان قد استقر من اسلافهم المهاجرين الاوائل في العراق وسورية ومصر والحبشة .

ولا نستطيع الآن تحديد هذه الهجرات فهي متوالية ومختلطة ومتشابكة ومتعددة الازمنة ومختلفة الاتجاهات ، تكدس بعضها فوق بعض واندمج بعضها ببعض . الا انه كان من نتيجة المخيض هذه المجموعات اللغوية الثلاث : الآرية والحامية والسامية ، التي

يتضح مما تقدم انها مجموعات مكانية اكثر منها زمانية ، تمثل هجرات عربية قدمى امتزجت وتفاعلت على مدى الاجيال . وكل ما يسعنا ان نقوله ان تلك الهجرات بدات منذ بدا المحل يلتهم الجنة المعربية قبل اكثر من عشرة آلاف سنة . وثمة حقيقة تاريخية خطيرة اخرى يمكننا ان نستشهد بها لتؤيد لنا هذا الامر وهي ان التحريات التنقيبية فى العراق تنبيء ان هذا التاريخ يتفق مع بدايات عهد الاستقرار السكني فى ارض الرافدين وبناء المساكن المتقاربة في جماعات بشرية زراعية ـ اي بداية تأسيس الحضارة. وذلك فيما يظهر اول عهد الانسان بانشاء القرية .. ثم المدينة . (مع احتساب القرون التمهيدية التي لابد ان يكون المهاجر العربي قد قضاها قبل ان ينتقل من حياة الترحل الى حياة الاقامة)

وبتعبير آخر ان اولئك المؤسسين هم العرب الاوائل الذين استوطنوا العراق بينما استمر شطر منهم فى المسير شرقا عبر بلاد فارس او شمالا عبر الاناضول ، فكانوا اوائل الآريين . وكون الآريين شعبة من نفس القوم الذين اسسوا الحضارة الرافدانية يبرئهم من وصمة العجز عن انشاء الحضارة ابتداءا ، ولو انهم فى الواقع قد اقتبسوا كل حضارة لهم قديمة فى الشرق الآسيوي والغرب الاوربي من حضارة اخوانهم فى وادي الرافدين ، على ما يقول الباحثون .

فما دامت تلك الالفاظ البحرية والزمانية ـ التي اعتبرناها حديثة بالنسبة الى كلمة (النوء) ـ موجودة فى اللغات الآرية فمعنى ذلك ان العرب قد عرفوا (الانواء) الفلكية ، لانقول بتلك الدقة الجاهلية حتما ولكنهم عرفوا على كل حال شيئا عن تعاقبها وعلاقاتها التي منها انبثقت تلك الالفاظ ـ قبل ان ينسلخ الآريون من المجموعة العربية فى المنطقة ، منذ عشرة آلاف سنة .. او اكثر . ولو وجدت هذه الالفاظ فى الآريات الاوربية فقط لجاز القول انها قد تكون حديثة الاقتباس عن طريق الكنعانيين (الفنيقيين) مثلا ؛ لكن وجودها فى نفس الوقت فى الفارسية وهي لغة آرية اصيلة (وليست فرعا من السنسكريتية كما كان يعتقد سابقا) يدل على قدم هذه الالفاظ ودخولها الآريات منذ عهد الهجرات الاولى ، ولعلها موجودة في السنسكريتية ايضا، لكن فقدان المراجع لدينا فى عربيتنا الراهنة يحول دون تحققنا من ذلك .

فهل من غرابة ان ينبغ من العرب بعد ذلك ابناؤهم من الرافدانيين والنيليين فى هذا الفن ويخلفوا لنا اقدم القواعد المعروفة لعلم الفلك ويصبحوا اساتذة البشرية فيه ؟ ولا غرابة من ثم ان يطلق الشمريون (السومريون) لفظة (آن) على قبة الفلك نفسها اي السماء وهي اعظم الآلهة (أبو الآلهة) عندهم وعند اخلافهم الاكديين الذين كانوا ينطقون الاسم (آنو) ـ بضم آخره على طريقتهم .

قلنا مرارا ، ونقولها مرة اخرى : ان درس اللغة اشبه بعلم التنقيب الآثاري ، قادر على ان يكشف لنا حتى مالا يستطيع التنقيب الآثاري نفسه ان يكشفه من الحقائق التاريخية المجهولة التي خرجت عن متناول المنقب الا انها لاتزال فى متناول اللغوي وحده .. لان ابناء الغابة المعربية لم يسجلوها في مسطورات لهم كتابية ولا نقوش جدارية ولا صور كهفية ولا شقف من الفخار .. وانما سجلوها لنا تسجيلا مفيدا عفويا فى لغتهم ، وانصرفوا .

وهذا الامر الذي تقدم بنا حديثه يمثل واحدة من الحقائق التاريخية ـ بل القبتاريخية ـ الخطيرة ، التي انعم علينا بها (الغوص) فى (بحر) اللغة .

ليت المرحوم حافظ ابراهيم يعلم اية نبواة اعجازية قذف فى مسمع الدهر ساعة حكى لنا ان اللغة العربية دام عزها قالت ذات يوم :

انا (البحر) فى احشائه الدر كامن

فهل سالوا (**الغواص**) عن صدفاتي؟

(نزيل المغرب العربي) **عبد الحق فاضل**

كيف تبلور الفكر العربي في علم الطب ؟

للدكتور شوكت الشطي

ان العثمانيين أمراء أتراك تسموا باسم مؤسس سلالتهم عثمان الاول فتولوا السلطة والسلطان ما بين 1326 — 1516 م فى قسم من بلاد اوربا وكثير من بلاد آسيا وافريقية وجميع البلاد العربية بمشرقها ومغربها ثم تولوا الخلافة على المسلمين فى مختلف الديار حتى سنة 1916 . وقد اجلوا اثر انتهاء الحرب العالمية الاولى عن البلاد العربية . وقد حكم العثمانيون فى جملة ما حكموا البلاد العربية مدة تقرب من ستة قرون . فكيف كان حال الطب فى تلك الحقبة من الزمن .

ويحسن بهذه المناسبة أن نبين اختلاف الحال بين القرن التاسع عشر والقرون التي سبقته . فقد احتل العثمانيون البلاد العربية وكان الطب العالمي علما عربيا يفاخر به العرب وتعج بلادهم بملاجئه ومشافيه ويفخر الغرب بنقله عنهم واقتباسه منهم والتتلمذ عليهم .

وقد رافق احتلال العثمانيين للبلاد العربية بدء انحطاط فيها حتى عادت سيرتها العلمية منبثقة من قوة التسلسل ومنبعثة من تاريخها القديم فلم ينبغ فى القرن الخامس عشر من بلاد الشام رجل احدث عملا علميا عظيما (1) .

استمر الانحطاط فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فلا جديد ولا تجديد الا النظر فى قضايا قديمة لاكتها الالسن وقدمت فى صددها آراء تستند الى نقل ونصوص لا الى بحث وفحوص ، فلا ابداع ولا اختراع والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية . وكان يحكم البلاد العربية اقطاعيون همهم جمع ضريبة تفرضها الحكومة المركزية ولكن على الرغم من الانحطاط المحسوس فى حركة العقول فقد كان فى بلاد الشام علماء ممتازون وحتى عالمات نابغات (2) .

---

(1) ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوالا يولون المدارس فى الشام احدا من ابناء العرب زاعمين ان العلماء فى العرب كثيرون وانهم ان ولواعربيا كثر الطالبون وعجزوا عن ارضائهم وحصر الترك عنايتهم بالاستانة .

(2) بينهن عائشة الباعونية عاشت فى الشام وتوفيت فى القاهرة سنة 1516 م . وفاطمة بنت عبد القادر قريمزان عاشت بين سنة 1477 و 1558 م فى حلب واليها انتهت الرياسة العلمية فى زمنها .

لقد برز فى العلوم والفنون بضعة افراد فى بلاد الشام وعلى راسهم داود الانطاكي وهو رحالة ضرير شغف بقراءة كتب الطب والتاليف فيها ، اشتهر طبه وكتابه « تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب » وهو مختصر جامع لفنون الطب ، ولابد لنا من التوقف عند هذا المؤلف وكتابه الذى ظل المرجع المعول عليه حتى طلائع النهضة الطبية فى القرن التاسع عشر .

ولد داود فى انطاكية سنة 950 هـ — 1544 م وتوفى سنة 1008 هـ — 1599 م. جاء عنه بقلم مؤرخ عصره شهاب الدين محمود الخفاجي فىكتابه « ريحانة الالباب وزهرة الحياة الدنيا » ما ننقله بالحرفالواحد كنموذج عن ادب ذلك العصر ولغته : « الرئيس داود الحكيم ضرير ، بالفضل بصير ، اذا جس نبضا لتشخيص مرض عرض ، اظهر من اعراض الجواهر كل غرض ، يفتن الاسماع والابصار ويطرب بجس النبض ما لا يطربه جس الاوتار ، له فى كل علم ، سهم مصيب ، كثر كلام الناس فى اعتقاده ، ونقل عنه رشح قطرات من خفي الحاده ثم لما كثر اللغط فيه ارتحل للبيت العتيق ، فطافت به المنية من كل فج عميق فقضى نحبه ولقي ربه » (1) .

وقد طبعت تذكرته هذه لاول مرة فى سنة 1838 م ، 1254 هـ ، ثم اعيد طبعها بضع مرات وعلق عليها الكثيرون (2)

ولقد كان القرن الثامن عشر تتمة ما سبقه من ضعف فى بطء الحركة العلمية فاقتصر الطب على وجود متطببين لا يتجاوز مدى معارفهم حد بعض الحقائق الاساسية التي كانوا يتلقونها شفاهيا وكان اكثرها تقليديا وتوسع بعض منهم فى معلوماته الطبية فقرأ الكتب القديمة أو كتاب داوود الانطاكي . ولم يكن فى ذلك العهد من يستحق ان يطلق عليه لقب طبيب حتى فى المدن الكبرى، اما فى المدن الصغرى والقرى فكان يتعاطى المهنة الطبية اشخاص توارثوها عن الآباء والاجداد يستمدون فيها بعض التجارب والادوية وكان من بينهم نسوة يصفن العقاقير ويداوين العيون (3) وقد وجد عدا اولئك ممارسون جوالون ، كان لبعضهم خبرة فى خلع الاسنان واجراء عملية الحصاة والساد (كاتاراكت) . وكان يعول فى الجراحة على الحلاقين الذين كانوا يتعاطون ايضا الحجامة والفصد وكان للطب البدوي (4) الذي يعتمد على الكي والادوية النباتية شأن عظيم وكانت هنالك وصفات يعتمدها الناس فى المدن والقرى منها معالجة

---

(1) وله تآليف منها شرح قصيدة ابن سينا فىالروح وكتاب « الدرة المنتخبة ، فيما صح من الادوية المجربة» و كتاب «نزهة الاذهان، فىاصلاح الابدان» ومنهاالتذكرة الصغرى والتذكرة الكبرى فى الطب وهذا الكتاب هو اشهر مؤلفات الانطاكي واكثرها ذيوعاذكر فيه ما روي فى كتب اطباء اليونان والعرب مع الزيادة والتعديل ومسايرة طرق المعالجة عند اهلزمانه . يروى الباحث فى التذكرة معلومات طبية ذات فائدة كبرى والى جانبها معلومات اخرى مستمدة منروح عصره وبعض مجرياتهم الخرافية سمجة ومستهجنة لا يسع القارىء الا التعجب من اثباتها الىجانب الآراء الصحيحة ولا شك ان لذلك اسبابا قد يكون من بينها الانسجام والتجاوب مع ما يستشفىبه الناس حينها من وسائل نفسانية .

(2) وكان من اكثر الباحثين فى التذكرة والمتعمقينبموضوعاتها الدكتور رمزى مفتاح الذى بعث التذكرة بعثا جديدا بكتابه النفيس المسمى « احياء التذكرة »فجعله قنطرة بديعة تصل بين الطب القديم والطب الحديث .

(3) اشتهرت من بينهن فى بغداد فرحة خاتونفاستشفى على يديها عدد كبير من سكان هذا البلد .

(4) ما من احد عرفاهل البادية الا راى عندهمن اساليب المعالجة ما يحلو ذكره من فائدة ، يعالج البدو الجروح النازفة بصب مغلى السمن عليها ثميغمسون قطنة فى السمن البارد ويضعونها على الجرح الى ان يبرأ واذا كان الجرح صغيرا رشواعليه الملح او بن القهوة ، اما اذا كان الجرح كبيرا وواقعا فى طرف وكان النزف غزيرا استعانوا علىارقائه بربط العضو واذا دخلت رصاصة فى يد احدهم او رجله ولم يستطع طبيبهم اخراجها بسكين او مسلةحفر حفرة فى الارض واشعل فيها نارا شديدة ثم اخرج منها النار واضجع المصاب فى وضع يلاصقبه العضو الذى فيه الرصاص تراب الحفرة فيخرج الدم من الجرح ثم تخرج الرصاصة ثم يصب الدبسأو الزيت على الجرح ليلتئم .

الكلب بكي محل العضة وبالثوم اكلا وضمادا وبالحلتيت شربا وضمادا ويعزل المعضوض اربعين يوما بشرط أن لا ينظر الماء ولا اللون الاحمر ومنها معالجة الزهرى بتبخير المريض بالزئبق مع بعض عقاقير منها جوز السرور ومنها علاج الرمد بقطرة من تفاح وعلاج السرطان بالكي بالحديد المحمى ومعالجة الرثية بالضرب بورق القريص او بلسع النحل فى محل الالم ومعالجة داء الحفر بالليمون الحامض ومعالجة الديدان ببزر القرع وبمغلى قشر شجر الرمان شربا وبأكل حب الآس والترمس والكرنب ومعالجة لدغ الثعبان والعقرب بتدمية مكان العضة ومصه مع الربط فوق مكان اللدغ ثم الكي بالنار على محل اللدغ ومعالجة البرداء الحادة بمغلى اوراق الصفصاف والمزمنة بأكل الطحال وبالاخص طحال القنفذ ومعالجة الجذرى بمنقوع قشور الجذري فى حليب مرضعة لبنت ومعالجة الحصبة بمغلى النوفر والعناب والزهورات وبالدبس العنبي ومعالجة السعال الديكى برب السوس وشراب الرمان وبالعسل ومغلى التين أو منقوعه المائي وبشرب ما يرشح فى حفرة تصنع فى قرص اللفت وتملأ بالسكر (1) .

ولقد بدات فى غرة القرن التاسع عشر تباشير العلوم الرياضية والطبيعية تقبل على البلاد العربية خاصة مصر وسوريا وذلك على اثر غزوة نابليون لهما قريب القرن التاسع عشر ما بين 1798 و 1799 فقد تركت تلك الغزوة اثرا نبه البلاد العربية الى قيمة العلم ذلك لان نابليون صحب معه العلماء ووسائل التعليم ورغب فى اقامة علاقات ودية مع اهل البلاد بلغت به الى مباشرة مراسيمه — فرمانات — باسم الله الرحمن الرحيم واختياره لنفسه لقب الشيخ الكبير والجلوس ليلة عيد المولد فى الجامع الازهر وهو معمم بعمامة جميلة ويرتدى جبة حريرية واسعة يصغى بخشوع الى السيرة النبوية .

ولقد اشرف بنفسه على خطة تضمن نشر العلم فى مصر فبلغ عدد العلماء الذين رافقوا اسطول الغزو 175 عالما فى مختلف العلوم وكان فى مستودعاته مئات الصناديق مليئة بالكتب والاجهزة مما يكفى لتاسيس جامعة كاملة وكان من بين العلماء الذين صحبوه أطباء وفلكيون وعلماء طبيعيون (2) . ولقد وضع مرافقوه من العلماء بتشويق منه وبالتآزر مع المواطنين **معاجم عربية فرنسية** وانشاوا صحفا جديدة وقاموا بدراسات عن الطاعون الشرقي والتراخوما والتهابات العيون .

وقد جلب نابليون معه **مطبعة عربية** اقامها فى القاهرة وكانت هذه المطبعة ثالث مطبعة وجدت فى بلاد العرب (3) .

لقد ايقظت حملة نابليون على مصر الافكار فنبهت الى سبات الجهل الذى كان مخيما على البلاد فما كاد يطل القرن التاسع عشر حتى بدت تباشير الحركة العلمية فى الديار المصرية فى أيام محمد على الكبير واخذ قبس من نورها يشع فى بلاد الشام ولكن انى لذلك القبس أن يبدد ظلمات الجهل ويقطع دابر الدجالين والمنجمين والسحرة والمشعوذين ويحارب الاعتمادعليهم من أبناء الشعب ما لم تنشأ بيوت العلم ويؤتى بالاطباء ، ذلك ما فعله محمد علي فجلب الاطباء من اوربا وعهد اليهم العناية بصحة جنوده وكان على راسهم ومن المعهم الطبيب الفرنسي كلوت بك الذي استدعي الى مصر سنة 1825 ليتولى رئاسة أطباء الجيش المصري فاشار على بوزاري طبيب محمدعلي باتباع القانون الفرنسيفى أمر الاطباء

---

(1) ومنها معالجة الخناق بشراب التوت ودهن الورد أو دهن الخطمية واللبخات كما يطلى حلق الطفل بدهن الورد ومنها معالجة النزلة الصدرية بالحجامة من الظهر وبمغلى الزهورات مع ماء الشعير ، ومنها معالجة الهيضة بالهقط وهو اللبن المجفف والرمان الحامض المشوى بقشره كما يسقى المصاب خليط الثوم بالماء ويوقف الاسهال بدبس الرمان والسماق والشاي الكثيف والخشخاش ومنها معالجة انيرقان بأن يعصر فى أنف المصاب قثاء الحمار ومنها معالجة البحة بأكل الكرنب نيئا ومطبوخا .

(2) اتفقوا على ان لا تفسير لاصل العالم الا بماينسجم مع القوانين الطبيعية دون قوة خارقة وكان نابليون يتردد فى قبول رأيهم ويجيبهم : «قولوا ما تشاؤون ولكن ما الذي خلق هذه الاجرام فى الفضاء ؟ » .

(3) اما المطبعة الاولى فوجدت فى لبنان فى القرن السابع عشر وكذلك الثانية فى قرية خنشارة سنة 1724 .

وبانشاء مجلس للصحة يكون بوزاري رئيسا له (1) .

ولقد اشتهر كلوت بتوفيقه فى مكافحة الطاعون فى مصر (2) ، كما استعمل التطعيم ضد الجذري فقل انتشاره فى القطر المصري (3) . وخطر له أن ينشىء **مدرسة طبية** بجانب المستشفى المبحوث عنه فعرض الامر على مسامع محمد على فاستصوبه وأمره أن يشرع فيه ثم انشئت مدرسة طبية بأبي زعبل . وما لبثت أن اعترضته **صعوبة اللغة** فالاساتذة الذين عزم على استخدامهم لا يعرفون العربية والتلاميذ لا يعرفون اللغة الاجنبية فأقام **مترجمين بين المعلمين والمتعلمين** ثم اعترضته صعوبة ثانية جاءت من الزعم بمخالفة الدين الاسلامي للتشريح فتباحث مع رجاله فسكتوا عن التشريح . ولما تغلب كلوت على كل المصاعب عين مديرا للمدرسة الطبية فى مطلع سنة 1827 فاختار لها أساتذة من الفرنسيين والايطاليين.

ولقد سعى كلوت الى **تعريب الكلية** فاختار اثني عشر تلميذا وسار بهم الى باريس ليعودوا اساتذة فى كلية الطب فصحت فراسته فيهم وعادوا الى مصر مزودين بالاختصاص فكانوا اركان تعليم الطب ونهضته فى مصر .

وفى سنة 1837 نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل الى القاهرة (4) وفتحت مدرسة لتعليم القابلات فى الولادة وانشئت مستشفيات كثيرة .

ولقد صحب كلوت ابراهيم باشا الى بلاد الشام فزار دمشق (5) وبيروت (6) وصيدا وعكا وجبل الكرمل وتوجه الى الناصرة لما كان الطاعون فيها وزار نابلس وبيت المقدس وغزة وطبب المرضى وابقى له فى الشام ذكرا جميلا .

وصادف ان دعي كلوت بك وهو فى بيروت لعيادة الامير بشير فى سراي بيت الدين فتعرف فيها على بشارة جلخ وكان نبيها عارفا بجملة صناعات منها صناعة تصليح الساعات فدفع كلوت ساعة الى بشارة ليصلحها فصلحها وأعادها اليه بعد أن نقش عليها اسم صاحبها كلوت واراد هذا ان يكافئه بالمال فاعتذر باباء فسر منه وقال لبشارة علي بما تشتهي فقال يا سيدي هو ذا ولدي وحشاشة كبدى يوسف اضعه بين يديك راجيا أن تستصحبه معك الى مصر ليتعلم الطب هناك فاستصوب كلوت هذا الرأي وعرضه على الامير بشير . ولما كان هذا الامير راغبا فى تقدم بلاده تقدم الى الحكومة المصرية بواسطة

---

(1) وقد استبعد بوزاري المذكور فى بادىء الامرمن المجلس المقترح كلوت ، ولما لم تسر الامور فى المجلس على ما يرام اسندت الى كلوت عضوية المجلس فأدخل فيه النظامات الصحية الحديثة آنذاك واستعان به على أهل المفاسد الذين وقفوا لاعمال المجلس بالمرصاد وعني بأحوال الجيش الصحية فى السلم والحرب فاوجد مستشفى عسكريا ثم جعله عموميا لجميع المرضى فتكللت أعماله بالنجاح .

(2) كان يموت منه فى جائحة سنة 1830 فى القاهرة وحدها الفا نفس كل يوم فقام هو وتلامذته بمقاومة الطاعون ومعالجة المصابين به الى ان تقشعت غيوم الوباء فأنعم عزيز مصر على كلوت برتبة بك ثم فشا الطاعون سنة 1835 فنهض كلوت وثلاثة من الاطباء لمقاومته ومكث على هذه الحالة باذلا جهده ستة اشهر فأنعم عليه العزيز مرة ثانية وذلك برتبة جنرال ولم تكن تعطى لمثله .

(3) كان يفتك سنويا بما يعادل ستين الفا من الاطفال .

(4) ثم اقفلت المدرسة الطبية فعاد كلوت الى فرنسا وبقي فيها الى أن استدعي لاعادة فتحها فعاد الى القطر المصري وبقي فيه حتى سنة 1869 ثم رجع الى وطنه وتوفي سنة 1868 .

(5) وكان فى حاشية ابراهيم باشا فى الشام طبيبان كان لهما مهارة فى الطب القديم وهما الشيخ علي شورى وولده الشيخ عبد الرحمن فدرسا فى الشام بدمشق وطببا فيها وكان عبد الرحمن مجازا من القصر العيني فى القاهرة .

(6) وكان ذلك فى عهد الامير بشير الشهابي الكبير الذي عرف عنه استعمال وسائل وقائية منها تعميمه لقاح الجذرى ومباشرة ذلك بتطعيم عائلته كما استعمل فى مكافحة الطاعون اساليب مجدية منها وضع المصاب فى خيمة خارج قريته ومنع أهل بيته من ترك منزلهم مقدما لهم المساعدات اللازمة للعيش ومنع ايضا أهل القرية الموبوءة من ترك قريتهم وتصدير البضائع منها ومجيء اهل القرى المجاورة السليمة اليها وامره باقفال المحلات الموجودة على طرقات القرى المصابة حتى يزول الداء منها . وكان لهذه التدابير اثرها فى عدم انتشار الطاعون فى لبنان .

كلوت بك ملتمسا منها ان تجيزه بارسال بعض الشباب اللبنانيين الى مصر ليتعلموا فيها الطب فانتخب الامير خمسة شبان من دير القمر وكان فى صحبتهم يوسف بن بشارة المذكور .

ولقد تدعمت فى بلاد الشام اليقظة العلمية بالعلماء والمهندسين والاطباء والزراعيين الذين جلبهم معه ابراهيم باشا الى سوريا فى حملته عليها سنة 1832 فاثروا فى افكار الشعب ونبهوا افراده الى ما هم عليه من تاخر وجهل وكان الاطباء يداوون جرحى الجيش ومرضاه والاهلين .

وفى سنة 1840 م اي بعد خروج ابراهيم باشا من ديار الشام ، سمح بدخول الارساليات الى البلاد السورية ومنها فلسطين فانتشرت فيها بعثات التبشير (1) من انجليزية وفرنسية وامريكية وغيرها تتخذ التطبيب وسيلة للتبشير حتى قل ان تجد ارسالية بدون مدرسة أو عيادة طبية على ان المبشرين الفرنسيين سبقوا المبشرين فقد بداوا عملهم منذ القرن السابع عشر ونشطوا خاصة فى القرن التاسع عشر بعد زوال حكم ابراهيم باشا من بلاد الشام . وكان التطبيب المجاني وتقديم العلاج من اهم عوامل التبشير التي قام بها الغربيون فى بلادنا فبينما كانت الحكومة العثمانية تعجز عن حماية الحجاج كانت البلاد من عمان حتى تبوك ومدائن صالح عرضة **لغزوات المبشرين باسم الطب** كما كانت صحراء سوريا والحجاز مسرحا لهم (2) .

ولقد قدم الى سنة 1842 طبيب انكليزي مع اول بعثة انكليزية سياسية وفدت الى حلب وبدا يداوي المرضى . وفى حدود سنة 1862 حضر الى حلب المستشرق الامريكي ورتبات وتعاطى مهنة الطب وبقي فيها مدة خمس سنين ثم سافر الى بيروت ليسهم فى تاسيس **فرع الطب فى الكلية السورية الانجيلية** . وكان الدكتور ورتبات فى سني وجوده بحلب قد درس الطب لبعض المتشوقين لطلبه وتحصيله فعلمهم اياه وعلمهم علوما اخرى كالكيمياء والنباتات والحيوانات ومفردات الطب والاقرباذين والطبيعيات وكان منهم الشيخ محمد فائز الكيالي والسيد بكري زبيدة والشيخ الافندي الملقب بالحكيم ، ونصري الحكيم ، والشيخ محمود السنكري ، والياهو حابير ثم تعاطى هؤلاء المهنة الطبية فى بيوتهم واتخذوا فيها عياداتهم يعالجون المرضى ويصرفون لهم الادوية فافادوا كثيرا واستفادوا كسب عيشهم وبقى منهم اناس حتى عام 1920 (3) .

ولقد بدات المنافسة بين جمعيات التبشير التى كانت تظهر الدعوة الى الايمان بالله ويبطن مشجعوها تقاسم التركة العثمانية يوم ينتهى نزاع الرجل المريض واعني به دولة بني عثمان واذا قصر الامريكيون عملهم على بيروت الذي كانوا ينوون بدءه فى دمشق على ما يقال (4) فان الفرنسيين كانوا متوغلين فى دمشق وحلب ووجه الفريقان الهمة الى

---

(1) ولا يجوز ان يعزب عن البال انه وجد في حقبة من هذا الزمن رهبان وقسس كانوا يقومون بالمعالجة فى الاديرة فادوا خدمات انسانية عظيمة .

(2) وصال المبشرون وجالوا حتى فى المدن وكانت بعثة راهبات مبشرات تطبب مجانا فى مدخل سوق القطن قرب سوق مدحت باشا المعروف بالطريق القديم .

(3) ودليلا على أن هؤلاء المتطببين الذين عالجوا المرضى وخدموا الطبابة فى زمن قل فيه وجود الاطباء المأذونين لم يكونوا دجالين ولا جهلة . اذكر الشهادة الآتية التي كان منحهم اياها الدكتور ورتبات وهي صورة عن النسخة التي لا تزال محفوظة عند الدكتور محمد علي الحكيم حفيد الشيخ محمد الافندي كتبت بالعربي وفيما يلى نصها :

اني انا المحرر اسمي ادناه اشهد بأن السيد محمد الافندي قرا على من الدروس الطبية علم التشريح والفيسيولوجيا والكيمياء وطالع معي ايضا المواد الطبية ، والاقرباذين ، وعلم النباتات واشهد ايضا بأن معرفته العامة بهذه العلوم كانت حسنة ، حرر فى 20 ايلول عام 1866 . واليك سيرة واحد منهم هو الشيخ ابراهيم الخلاصي ، قال فيه العلامة البيطار فى تاريخه ما خلاصته : انتهت اليه رياسة الطب فى عصره ، وكان الخاص والعام معترفا بعمله وقدره ، انفرد بمعرفة الداء من النبض والقارورة ، وللناس عنه حكايات معروفة ، وله مشاركة فى بعض العلوم ، وشعر فى سلك اللطافة منظوم ، توفي فى اليوم السادس من شوال سنة 1255 — هـ 1838 م .

(4) يقال ان النية كانت متجهة الى تاسيس **الجامعة الامريكية فى دمشق** فى حي الميدان وان ظروفا محلية حالت دون ذلك .

فتح المدارس ولم يكن من نتاجها استحداث **كليتي الطب الاميركية** ــ المدرسة السورية الانجيلية ــ **والفرنسية** ــ **كلية الطب اليسوعية** ــ فحسب بل **وكليتي الطب العثمانية في دمشق واستانبول .**

ويعيد البحاثون كتفكهة عن هذه المنافسة ما قاله فان ديك احد كبار مؤسسي الجامعة الاميركية حينما كان في طريقه الى قرية لبنانية لتأسيس مدرسة فيها حيث لقيه صديق وسأله عن رحلته فقال : انني ذاهب الى فتح مدرستين فقال الرجل ضاحكا : «الاتكفي مدرسة واحدة يا دكتور» فأجاب فانديك : «متى فتحت مدرسة فان الجمعية الكاثوليكية ستفتح مدرسة اخرى في نفس القرية» .

ويبدو لنا ان محمدا بن احمد الاسكندراني (1) هو احد متطببي النصف الاخير من القرن التاسع عشر في دمشق ومن اوائل الاطباء المتخرجين من مدرسة طبية رسمية استنتجنا ذلك مما جاء في سيرته وما لمسناه من علم غزير في مؤلفاته .

وقد جاء في مقدمة احدها قوله : كنت منذ زالت عني تمائم الطفولية ونيطت بي عمائم الرجولية ممن شغف بتعاليم الطب ليالي وأياما وانهمك في دراسته على قدر الطاقة سنين واعواما فنيطت بي خدمة العساكر البحرية في ثغر الاسكندرية المحمية وذلك الى غاية سنة 1256 هـ ــ 1839 م وكنت اذ ذاك ببر الشام فتشرفت بخدمة العساكر السلطانية الى غاية 1258 هـ ــ 1841 م ثم اقمت بدمشق الشام معتنيا بمداواة اهلها الاماثل الاعلام .

وكان من بين الاطباء المتطببين والاطباء الرسميين الدكتور ميخائيل مشاقة : 1800ــ1888 م مؤلف كتاب «مشاهد العيان» (2) ، نشأ علامتنا في دير القمر فتعلم القراءة والكتابة ثم سكن دمياط عند اخواله من آل عنحوري وهناك مال الى دراسة الرياضيات والموسيقى والفلك فلمع فيها . وقد أصيب في شبابه بمرض اقعده اشهر متوالية فتألم لذلك كثيرا واحب ان يتعلم صناعة الطب . كان يتتلمذ على كل طبيب اجنبي يأتي الى لبنان من بلاد الشام وحينما زحفت الجيوش المصرية على بلاد الشام ، سوريا ولبنان ، التحق مشاقة بخدمة الامير بشير واستأذن مولاه بموافقة الهيئة الطبية التي كانت بالجيوش المصرية وعلى راسها الطبيب المشهور كلوت فذهب معها الى حمص ودمشق يطبب جرحاها ويعتني بالذين اصيبوا بالطاعون الذي فتك بالحملة فتكا ذريعا وقصد سنة 1845 مصر وتتلمذ في **المدرسة الطبية المعروفة بقصر العيني** بالقاهرة وواظب على دروسها ومستشفياتها حتى نال **لقب دكتور** ثم عاد الى دمشق . وكان الطبيب ميخائيل مشاقة يمارس مهنة الطب (3) .

---

(1) قال فيه اخونا الاستاذ جميل الشطي : «كان المترجم حكيما في كل شيء ، قنوعا فيما يأخذه من المرضى ، يطبب الفقراء ويعطيهم العلاج مجانا توفي عقيما سنة 1306 ــ 1887 وكان طبيبا للحكومة العثمانية في مستشفى الغرباء ودائرة البلدية مدة طويلة ، وكان يجتمع عنده بعض العلماء والوجهاء . تخرج علي الاسكندراني عدد من الاطباء منهم عبد الرحمن شورى وعبد الفتاح كحالة فقد قرأ عليه قانون ابن سينا وكان حاذقا يحسن تشخيص الداء في وصف الدواء . وقد صنع المترجم رسالة في الهيضة سماها : «الازهار المجنية في مداواة الهيضة الهندية» ، وهي رسالة لطيفة جاء في آخرها : ثم طبع هذه الرسالة سنة 1292 هـ ــ 1870 م

(2) وترجع اهمية هذا الكتاب الى انه من المراجع الصحيحة في تاريخ سوريا ولبنان في القرن التاسع عشر .

(3) وصف الاستاذ جرجي زيدان الدكتور مشاقة فقال : انه زاره في منزله بدمشق عام 1883 فشاهده عالما ذا هيبة ووقار يجلله الشيب ويلبس العمامة والجبة وكان يتعصب لزيه الشرقي ، خدم الدكتور مشاقة وطنه العربي الكبير ثم كانت له جولات موفقة في حقول العمل لصالح ومواساة المساكين والمحرومين وله كتب كثيرة في الدين والعلم والفلك والتاريخ وله رسالة في الالحان الموسيقية العربية وقد احب دمشق حبا عظيما فسكن فيها ينعم بظلالها وكان كثير النباهة والكياسة وشديد المهارة في الاعمال اليدوية وعود يده اليسرى احكام العمل كاليمنى فكان يضرب بها على العود فكانت له احسن معين يوم فلج شطره الايمن وكان بينه وبين المرحوم علامة دمشق ومفتي الشام المرحوم محمود افندي حمزة مذكرات في الرياضيات والمنطق وكذلك بينه وبين الامير عبد القادر الجزائري وكان حبيبا الى جميع الولاة والرؤساء والاعيان وأهل العلم والفضل من سائر الملل عاش تسعا وثمانين سنة عيشة صالحة شغل اكثرها بعلاج انفس الناس واجسامهم وكان صابرا في مرضه نحو 18 سنة الى ان اغمض عينيه في دمشق في 8 تموز 1888 . وله من العمر 89 سنة .

الدكتور حسين عودة : هو احد اولاد المتطبب مصطفى اغاعـــودة اوفده ابراهيم باشا لدراسة الطب فى القصر العيني حاز شهادة الدكتوراة فى الطب من المدرسة الطبية الخديوية سنة 1291 هـ 1872 م .

الطبيب سليمان الخوري : 1832 م — 1902 م برع فى كثير من المعارف وحصل الطب اولا بنفسه ثم درسه على بعض الاطباء المصريين وفى سنـــة 1849 اوفد الباب العالي طبيبا من قبله **لامتحان الاطبـــاء والجراحين والصيادلة** فى ولايات الاناضول وسوريا فلما وصل الى حمص لم يجد فيها من يحسن التطبيب سوى صاحب الترجمة فاعطاه اجازة بذلك وصدر امـــر ســـام من نظارة الداخليـــة سنة 1294 هـ — 1876 م يعترف به طبيبا قانونيا (1) .

داوود ابو شعر : تخرج من كلية الطب الامريكية ببيروت سنة 1877 وضع كتابا فى الطب جاء فى تقريظه انه كتاب بديع النسق لازم لجميع القراء على اختلاف طبقاتهم يبحث عن الصحة بعبارة بسيطة واضحة مع نصائح عديدة مؤيدة بدلائل الاختبار واتبعه بنشـــر مقالات طبية عديدة ثم وضع مع زميل لـــه المتخـــرج ايضا من مدرسة الطب الامركية فى بيروت امين ابـــو خاطر كتابا آخر فى الطب سمياه كتاب « مغنى اللبيـــب عن الطبيب » .

الحافظ حسن شـاويش 1871 — 1910 : **هو** خالنا حسن بن محمود بن حسن الشاويش **من عائلة** اشتهرت بالتصوف والتجارة نشأ فى حجر والـــده الحافظ محمود آغا الشاويش فرباه تربية دينية ادت الى حفظه القرآن وتوسعه فى علم الحديث .

اشتهر بين الناس بفضله وعلمه وادبه وتواضعه كان متقنا للغات التركية والفارسية والفرنسية كما كان ذا اطلاع واسع على اللغة العربية وفقهها وقد اهله الى اتقانها بيئته العلمية ودراسته فى الازهـــر الشريف .

ولقد قدرت سجاياه الخلقية فى الاستانة واعجب علماؤها بجمعه بين العلوم الدينية والكونية فاعلوا مكانته وصار الكثيرون من رجالات الدولة والديـــن يتقربون منه لينتفعوا من علمه ويستمعوا الى صوته الرخيم يرتل به القرآن الكريم على القراءات السبع احسن ترتيل وذلك عند افتتـــاح حلقـــات الـــدروس الدينية فى جوامع القسطنطينية خاصـــة فى شـــهـــر رمضان المبارك .

صلاح الدين القاسمـــي 1305 هـ — 1887 م — 1334 هـ — 1915 م : قال فيه محب الدين الخطيب ما ملخصه : فى مكتب عنبر (2) اكتشفت معادن الخيـــر فى امثال صلاح الدين القاسمي وكان معلم العربية فيه شيخا تركيا ارسلوه ليعلم العربية فى عاصمة العروبة (3) . دخل كلية الطب بعد دراسة ثانوية تعلم فيهـــا

---

(1) سنت الدولة العلية سنة على كل طبيـــب تصد معالجة المرضى فى بلادها ان ياتي الاستانـــة ويمتحن فى مجلسها الطبي حتى اذا وجدت معارفـــه كافية فى علم الطب وعمله اعطته **البراءة السلطانية** مؤذنة له بالتطبيب وقد ذهب الى الاستانة سنة 1843 كثيرون من الاطباء السوريين الذين درسوا الطـــب وامتحنوا الامتحان المطلوب فاظهروا من البراعة مـــا اهلهم لنوال الديبلومات السلطانية وهم الاطباء امين ابوخاطر واسكندر بارودي وجرجي باز وابراهيـــم ثابت وسليم الجريديني وباخوس الحكيم وخليل خير الله وسليم داود واسعد سليم ويوسف سليم وابراهيم صليبي وابراهيم مطر وانطون نوفل وحبيب كحيـــل واسكندر مشاقة والفرد بابولاني وقد طبب الثلاثـــة الاخيرون بدمشق نستنتج من ذلـــك ان الحكومـــة العثمانية شعرت بنقص الاطباء الرسميين فى بلادها فسمحت لكـــل من تعاطى الطـــب او تعلم الطـــب فى مدارس اجنبية ان يثبـــت كفاءتـــه فى فحص يقـــدم الى المجلس الطبي فاذا نجح فيه سمح له بمعاطاة مهنـــة الطب فى البلاد العثمانية وعاد طبيبا رسميا ويبدو ان عدد الذين تقدموا للفحص امام المجلس المذكور لم يكن كافيا لذلك اوفد الباب العالى طبيبا من قبله لامتحان الاطباء والجراحين والصيادلة فى ولايات الاناضـــول وسوريـــة وكان من بين الناجحيـــن فى هذا الفحـــص طبيبنا المترجم .

(2) مدرسة ثانوية كانت الوحيدة فى بلاد الشام فى عهد السلطان عبد الحميد

(3) كانت العروبة يومئذ عنوانا لمدلول نسبـــة العرب منذ الف سنة . فى هذا الجو نشأ النابغـــة العبقري صلاح الدين القاسمي برعاية شقيقه الاكبر العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي واخوان له فى حلقة نورانية كانت تسمى حلقة الشيخ طاهـــر الجزائري انتهت بقيام «جمعية النهضة العربية» سنة 1324 هـ 1906 م وما بعدها كان الدكتور صلاح الدين القاسمي كاتم اسرارها .

التركية والفارسية والفرنسية ومبادىء العلوم الكونية الى جانب ما كان يتلقى من بيته من الدين وعلوم العربية نال شهادة دكتور فى الطب سنة 1914 ثم كان له نشاط علمي وقومى وادبي تدل على ذلك محاضراته العديدة ومقالاته الكثيرة عن العلم والاجتماع والقومية فى الامم وكان من أوائل من نبهوا الى **الخطر الصهيوني** كما تناول اسلوب المنفلوطي بالنقد فى دراسة طويلة سماها نظرة فى النظرات نظم الشعر فى صباه المبكر جمع آثاره اخوه المرحوم الدكتور مسلم القاسمي ، وقد كان يرى فيه تدوته ومثله الاعلى ، ولكن المنية عاجلته في السنة التي نال فيها شهادة الطب . توفي صلاح الدين القاسمي فى الحجاز عام 1334 — 1916 ولقد عاش عبقريا سابقا لسنه منذ امسكت انامله القلم ليعبر به عما فى نفسه من اخلاص للعرب ولغتهم وعلمهم وللقومية العربية ودعوة لتأسيس دولة عربية .

ولقد آن لنا اتماما للبحث أن نشير بكلمة عابرة الى كليات الطب فى البلاد العثمانية وعن اسهامها بالنهضة الطبية فى البلاد العربية اسهاما تختلف درجاته من كلية الى أخرى مبتدئين بـ :

كلية الطب العثمانية بالاستانة وكان من الذين تعلموا الطب ثم علموا فن التشريح فيها :

الدكتور يوسف الرامي المولود فى فالوغا سنة 1855 والمتوفى فى سنة الفيل سنة 1916 . وقد وضع الدكتور رامي اكثر **المصطلحات العلمية** التي كانت مستعملة فىكلية الاستانة وقد **اقتبسها من المصطلحات العربية** . وقد تخرج من كليتي الاستانة الطبية والعسكرية عدد كبير من الاطباء السوريين .

كلية الطب الامريكية فى بيروت : اسست سنة 1866 **وبدأ التدريس فى فرعها الطبي سنة 1867 باللغة العربية** واستمر كذلك خمس عشرة سنة ثم **استبدلت باللغة الانجليزية** وقد ادى المتخرجون منها خدمات جلى ولمعوا فى جميع الميادين وكان من بينهم زعيم سياسي واجتماعي كبير هو الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الذي اغتالته يد آثيمة فحرمت بلاد العرب من حنكته وعلمه وواسع خبرته وفيها تعلم وعلم الدكتور سامي الحداد وقد تميز عن اقرانه بخدمة التراث العربي والكشف عن كنوزه وذخائره واسهامه فى التعريف بابن النفيس الطبيب الدمشقي الذي كشف الدورة الدموية الصغرى .

كلية الطب الفرنسية فى بيروت : بدا التدريس فيها سنة 1883 باللغة الفرنسية فتخرج منها عدد كبير من الاطباء خدموا البلاد العربية حيث وجدوا خاصة فى لبنان خدمة عظيمة .

هذا واذا كانت **كلية الطب اليسوعية** لم تبدل لغتها الفرنسية فان الآباء اليسوعيين وهم من كبار المسهمين فى تأسيسها عوضوا عن **اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية** فيها بما اوجدوه من **معاجم عربية** ومعاجم عربية اعجمية عديدة وبما طبعوه من **مخطوطات عربية فاسدوا بذلك للتراث العربى وللغة العربية خدمة كبرى .**

كلية الطب العثمانية بدمشق (1) ، باشرت عملها فى دمشق 1903 واستمرت حتى سنة 1918 وتخرج منها 110 اطباء و 152 صيدليا عمل نفر قليل منهم فى الاناضول بينما عمل الباقون فى البلاد العربية خاصة بلاد الشام منها . وقد نقلت كلية الطبالعثمانية ابان الحرب الكبرى الى بيروت حيث انتفعت من المدرسة الطبية اليسوعية واستعملت وسائلها الفنية فانتسب اليها عدد كبير من شباب لبنان ، بعضهم لدراسة الطب وبعضهم للتخلص من الخدمةالعسكرية وكان لنا من بين هؤلاء صديق استطاع بفضل براعته فى الادب الفرنسي اجتياز بعض الفحوص بسهولة فائقة منها درس النباتات الطبية وكان لا يعلم من ذلك الا القليل وقد سأله استاذ النبات آنذاك اسماعيل حقي عن الورد فسرد له كل ما جاء فى الادب الفرنسي عنه وكان الاستاذ التركي طبيب القلب ومولعا بالادب الفرنسي فأخذ بما حدث ولم ينتبه الى شروده الا بعد حين فقال للطالب هل لك ان تحدثني عن فائدة طبية للورد فأجابه الطالب : يستعمل ماؤه منشطا ويعرف بماء الورد . ولم ينجح الطالب المذكور ببراعته الادبية فى اللغة الفرنسية من مادة النبات الطبي فحسب بل كان الاستاذ المذكور شفيعا له فى باقي المواد وقد تم له النجاح فى اكثرها .

تلك هى سيرة ملخصة عن حالة الطب فى مشرق البلاد العربية فى حكم الدولة العثمانية فما هو حاله فى مغربها : كان الطب فى المغرب العربي كمشرقه

---

(1) استطاع بعض رجال الفكر العربي انيقنعوا الحكومة العثمانية بتأسيس **كلية طبية بدمشق** تابعة للجامعة العثمانية فاصدر السلطان عبد الحميدسنة 1901 أمرا بانشاء مدرسة طبية تركية اللغة .

يعتمد على تجارب العجائز والحجامة والفصادة وجبر الاعضاء المكسورة ومع ذلك فقد كان دوليل قنصل ملك فرنسا هنري الرابع طبيبا فى البلاط المغربي سنة 1606 . اما الاطباء المغاربة فكانوا قليلين مع ان الاوبئة غير قليلة ومنها الطاعون وكان يظهر ويأوه مرة فى كل عشر سنين او خمس وعشرين سنة . اما الامراض المنتشرة فكان منها الداء الافرنجي الذي نقله المهاجرون اليهود (1) من الاندلس الى المغرب بعد سنة 1492 ويروى أن عشر السكان كانوا مصابين به وكانت لاسم المرض مرادفات منها مرض الدنيا او المرض الكبير او مرض النساء . وكان من بين الامراض الشائعة داء المفاصل وتضخم الغدة الدرقية والقرع والجرب والجذام وكان المتطببون يعتمدون على كتاب داود الانطاكي «التذكرة والنزهة» وكانت لبعضهم بعض المهارة فى الجراحة الصغرى وكانوا يستعملون فى تضميد القروح الزيت الغليان والقطران الساخن او الحناء والفحم وصمغ الصنوبر وكانوا يرقون النزف بمساحيق مستحصلة من القرع الصغير — يقطين — ودقيق الفول فاذا اعياهم الامر خاطوا حافتي الجرح فى شكل منحرف وكان النمل يستعمل بدلا من الخياطة فيسلط على حافتي الجرح ويقطع صدره فيبقى فكاه عالقين وبهما تتم الخياطة .

وكانت تقلع الاسنان المسوسة بادوات خاصة وتداوى أمراض الاذن بالجاوي والزعفران والزيت ، اما العيون فكان للكحالين أساليب مفيدة فى معالجة امراضها وخاصة الرمد منها وكانوا يزيلون غشاوة العين المانعة من الابصار بحذق زائد ، بل وكانوا يتقنون عمليات أصعب من هذه .

وذكر كودار فى وصف المغرب وتاريخه (2) ان الكي اعظم دواء للجراحات بالمغرب والجزائر وان ذلك قد يسفر عن نتائج عجيبة فقد اجريت لجرحى عرب اراد جراحون فرنسيون قطع اطرافهم المجروحة فعولجوا بنجاح الكي بواسطة حديدة محماة .

اما فى التبنيج فكان الاطباء المغاربة يستعملون السيكران وهو عشب مخدر وذكر الدكتور ميكريز فى كتابه الاخبار الصادر عام 1859 بالجزائر ان الاطباء المغاربة كانوا يستخدمون وسائل الايحاء والتنويم فى معالجة مرضاهم واجراء عمليات جراحية لهم بحيث يتوصلون الى درجات شتى من التنويم وذلك بتعليق زجاجة لامعة امام المريض فينام بينما المباخر ترسل روائح العطر والعود (3) .

وكثيرا ما تستعمل اعضاء بعض الحيوانات لمعالجة الامراض وقد اشار الشيخ عبد الرزاق صاحب كشف الرموز الى خواص بعض اعضاء الحيوانات منها معالجة داء الكلب بمثقال — غرام — من كلية الكلب العقور بمجرد قتله. ونشر بنسيون بحثا حول الطب والاطباء بالمغرب قبل الحماية فى مجلة المغرب الطبي سنة 1951 ذكر فيه أن المصاب بالحصبة كان يوضع فى غرفة يكسى فراشها وجدرانها واغطيتها بلون احمر .

وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات تقريبا ويعمد بعض الناس الى التلقيح ضد الجدري بمادة تستخرج من بثور ودمامل العجل والناقة .

وكان الجذام منتشرا بالمغرب وكانت بفاس حارة الجذمى ثم نقلت الى الكهوف بعيدا عن المدينة وقد شاهد الدكتور مارسيت عام 1885 أن سكان هذه الحارات كانوا كلهم اصحاء ويسكن الحارة ما يقرب من ثلاثمائة شخص وفيها مسجد وسجن وسوق واهلها يتاجرون ويزرعون ولم يكن يسمح لغير المجذومين بالدخول الى الحارات الا اهل مراكش .

وكثيرا ما كانت تتعرض بلاد المغرب لجائحات الكوليرا والتيفوس ويذكر ان الطاعون افقد طنجة سنة 1818 خمس سكانها واما الكوليرا فظهرت فى المغرب لاول مرة عام 1834 فاتخذت المحاجر الصحية للوقاية منها وكانت توجد فى جميع مدن المغرب لجنة صحية ومن ممثليها المحتسب .

وكان فى كل بلد عدد من المتطببين وقد ظل الامر كذلك الى أن فتحت كلية قصر العيني الطبية ابوابها فأرسل عبد السلام العلمي للدراسة فيها وقد وضع فيها كتابا سماه «ضياء النبراس» أورد فيه أساتذته بالقصر العيني الذي أسسه عام 1827 الدكتور كلوط بأمر من الخديوي محمد على وقد وضع ايضا تصنيفا مختصرا لشرح تذكرة الانطاكي سماه ضياء النبراس

---

(1) راجع كودار فى تاريخه ص 461 (نقلا عن كتاب «الطب والاطباء بالمغرب» للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله) .

(2) راجع كودار فى تاريخه ج 1 — 238 .

(3) رينو ص 131 . (نقلا عن كتاب الطب والاطباء) .

فى حل مفردات الانطاكي بلغة فاس فطبع فيها سنة 1318 هـ — 1900 م .

ولقد اشار رينو الى اجتماع عقده اربعة من علماء فاس فى 8 شوال سنة 1310 هـ — 1892 م لامتحان طبيب مغربي فشهدوا له بذلك بعد اطلاعهم على تضلعه فى الطب وقوانينه .

وقد عاش بالمغرب فى العهد العلوي اطباء اجانب كما اسست بعثات التبشير منها الفرنسيسكان مستشفى بفاس ومصحات فى طنجة وذلك بين 1727 و 1794 واسست الارساليات البروتستانية ايضا فى اواسط القرن التاسع عشر مستشفيات بالمغرب

هذا وارى من واجبي اخيرا ان ابين ان اما اتيت على ذكره قد لا يكون وافيا بتمام المقصود ولكنه يؤلف فى كل حال محطة انطلاق لبحوث اهم ، ودراسات اتم لذلك عنونته بالنظرات كما سبق ان ذكرت ، اعترافا مني بما يكون فيه من نقائص وهفوات راجيا من كل قارىء لهذه الدراسة ان يعتبر نفسه مساهما في وضعها ومشاركا فيها بارشاده اياي الى مكامن الخطيئات وبيان صحيحها . انه ان قام بذلك اسدى لي وللتاريخ خدمة مشكورة وقدم حسنة مبرورة فيتحول بذلك من ناقد كاشف للعيوب الى متمم للنقائص فى بلوغ الهدف المطلوب والسلام .

نحن على مفترق الطرق

للدكتور محمد يحيى الهاشمي

رئيس جمعية الأبحاث العلمية
حلب (سوريا)

ما كادت الحرب العالمية الاولى تضع اوزارها حتى شاهدنا يقظة فى دنيا العرب ووعيا قوميا وحاجة ماسة لتبديل الاساليب القديمة بأساليب جديدة تتمشى مع تطلبات الزمن ورغبتنا فى النهوض الى مصاف أرقى الامم . ولكن سرعان ما سرنا فى هذا الطريق باحتدام الصراع بين القديم والحديث ، بين تراث آل الينا عن السلف الصالح الذين جددوا واجتهدوا وسعوا وناضلوا وكان لهم شانهم فى تلك الازمنة الغابرة وكانوا نبراسا فى ظلمات القرون الوسطى ، بل بنوا ذلك الجسر الموصل تراث الاوائل بالعصر الحديث ، وبين المدنية العصرية التي نشاهد آثارها واضحة جلية للعيان ، لا يقدر ان ينكرها منكر ولا أن يجحدها جاحد .

ان تفوق الغرب على الشرق كان السبب فى أن يشد كثير من ابناء امتنا الرحال الى الغرب ، للارتشاف من مناهله العلمية وليطبقوا ما تعلموه علما وعملا عند العودة الى الوطن . وعند العودة الى الوطن ذهبوا مذاهب شتى ، منهم من وجد الطريق الى وطنه وبلاده، وبقي بروحه عربيا مخلصا ، فافاد البلاد بعلمه وافاض من روحه الاصيلة الوثابة . فكان من جملة العوامل فى رقي البلاد وتقدمها . ومنهم من أصبح غريبا بروحه وتفسه ، فشن حربا شعواء على كل مظهر من مظاهر الشرق ، فمقت البلاد ومقتته البلاد ، فكنا من الخاسرين له ولجهوده . كم فرد من امتنا هجر وطنه لانه لم يجد مجالا للعمل فيه ، فخسرناه وكسبه غيرنا. وهناك من كان ضائعا بين الشرق والغرب ، وموزعا بين عالمين ، لا الشرق يعجبه ولا الغرب يطربه ، يشعر بالتناقض الفكرى فى نفسه، ذائقا الم الانقسام الباطنى على اشده ، وقد يحدث هذا الانقسام المؤلم التوتر العقلي الذي يفضي الى اصابة الارادة بالشلل ويكون الباعث على الكسل مع فقدان سرور العمل والانتاج وسيادة التردد والملل . ولعل ذلك الانسان ينطفيء بالتدريج كما ينطفيء المصباح الذي يستهلك زيته دون ان يكون له مدد . وان هذا الانطفاء هو اشد كارثة واعظم فاجعة من الانطفاء المفاجيء الذي يشعر الانسان بغتة بظلمة قاتمة بعد نور وضاء ، فيكون باحثا عن ذلك النور الساطع عندما يحس بفقدانه الآلي . اما في الانطفاء التدريجي ، فيستدرج الانسان من حيث لا يشعر الى الظلمة .

هكذا نجد فى يقظتنا الحديثة طرقات شتى وسبلا مختلفة ومشاكل معقدة ، يحتم الواجب القومي والانساني علينا ايجاد الصراط المستقيم الموصل الى الهدف . وان نقوم فى حل مشاكلنا بصورة مضبوطة وبسرعة فائقة ، لان الزمن الحاضر يكره الابطاء والاهمال ويتطلب الانجاز السريع . وان الواجب الملقى على كاهلنا هو اشد خطورة من واجب الغرب فى انتقاله من جمود القرون الوسطى الى النهضة الحديثة ، لان الغرب تدرج فى ذلك . اما نحن فاننا مضطرون الى اخذ النتائج كما هي واقتباسها اقتباسا تاما . من اجل ذلك يقتضي ان تكون الحلول من اجلنا سريعة ومضبوطة فى آن واحد .

نحن على مفترق الطرق فى تبديل المفاهيم القديمة بمفاهيم جديدة تتفق مع الزمن . كنا فى القديم نكرم

وفادة الضيف ونغالي في ذلك ، فنقدم للغريب مايشتهي ونهمل القريب ، ويقول الشاعر حافظ ابراهيم في هذا الصـــدد :

امـة قـد فـت في ساعدهـــا
بغضهـــا الاهـــل وحب الغـــربـا

وان بقاء هذه السجية في بلادنا دون تعديل ودون يقظة فكر ، قد يجعل بلادنا مطمحا للغرباء الذين يجعلون الحياة صعبة على ابناء الوطن . واننا لنجد في البـلاد الاسكندينافية كالنرويج مثلا ، قوما يعرفـــون كـــرم الضيف ، ولكنهم يتخذون كل الاسباب لقطع دابـــر منافـــة الاجنبي ، فانهم لا يألون جهدا في الحذر من ان يقطع عليهم الغريب طريق العيش ، فممنوع على كـــل اجنبي أن يدخـــل بلادهم للكسب الا باذن خـــاص ، فنجدهم رغم اكرامهم لوفادة ضيوفهم عارفين بامـور اقتصادياتهم ، لا يدعون مجالا للغير ليـد في وجوههم باب الكسب ، ان مثل هذه التدابير تتخذ في سويسرة وانكلترة وغيرهما من البلدان ، وما احوجنا اليها فـي كثيـر من الاحيـــان .

كـــان من مفهوم المروءة في القديم ايصال العدو الى مأمنه عندما يستجير بنا خائفا مذعورا . ان مثل هذه السجية هي من كرم الاخلاق ، وقد تغنـى بهـــا العربي قديما ، ولكنها لا تنفع اليوم ، وتكون السبب في ان يطمع العدو فينا ويتغلغـــل في قلبنا اذا ما نشبت الحرب بيننا وبينه ، لانه عندما يقع في ازمة او يتحرج موقفه يستجير فنجيره . ان هذه الاستجابـــة تنـــم ولا شك عن خلق كريم ، ولكنها تعطي الاطمئنان لمـن يريد أن يتربص بنا الدوائر ويتجسس علينا ، فيطلـع على نواحي القوة فيحذر شعبه من الاصطدام بهـــا ، ويدل على نواحي الضعف ليسحقنا بها سحقا ، فنحن هنا على مفترق الطرق . اما ان نعدل مفاهيمنا الماضية، واما أن نرضـى بتقويـة التيـارات المعاديـــة أو ان نأتي بمفهوم جديد لا نترك فيه اى مطمع لطامع ، فنكون بذلك رحماء بيننا وبين من يود مخلصا ان يحقن الدماء في العالم ، اشداء على من يريد سحقنا وابادتنا من الوجود والتطاول على كرامتنا . ويجب علينا فـي الوقت ذاته ان لا نضيع اخلاقنا القديمة والتي فتحت لنا قلوب البشر واوجدت لنا اصدقاء في جميع اطراف العالم ، واننا اذا اضعناها نكون في الحقيقة قد اضعنـا ذاتيتنا . فنحن اذن نخشى من خسران ذاتيتنـــا .

وقد ورد في الانجيل : « مـاذا يفيـــد لو ربحت العالم وخسرت نفسك » . وتذكيـــرا بتلك المطالب السامية والتي يجب علينا ان لا نضيعها الفت كتـــابا بعنوان : « المثل الاعلى في الحضارة العربيـــة » (1) . فبينت فيه مثلنا العليا في الدين والفلسفة والتصوف والادب والعلوم الايجابية . والطبيب المثالي حنين بن اسحاق قد رضي بالموت على أن يخون مهنته ، فقـــد طلب الخليفة العباسي منه دواء يريد قتل عدوه ، فابى حنين اعطاء ذلك رغم الترغيب بالمال والتهديد بالقتل . ولما سأله الخليفة عن سبب الامتناع عن تقديم السم ، اجاب حنين ، بأن هناك سببين : الدين ومهنة الطب ، الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا ، فكيف بأصحابنا واصدقائنا . والصناعة تمنعنا من الاضـــرار بابناء الجنس البشري لانها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم ، ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الاطباء عهدا مؤكدا بايمان مغلظة الا يعطوا دواء قتالا او مؤذيا ، ولم ار ان اخالف هذين الامرين من الشريعتين ، ووطنت نفسي على الموت ، ما كان الله ليضيع من بذل نفسه في طاعته وسوف يثيبني . فاجاب الخليفة انهما لشريعتان جليلتان وامر بصلته وحمل المال بين يديه . ثم تابعت بحثي في المثل الاعلى في المعرفـــة النفسية والدلائـــل والاعتبار على الخلق والتدبير ورسالة العلم بعنـوان: « العلم يرفع المستوى » ، وتراث الحضارة العربيـــة . وهذا الفصل عبارة عن مقال ترجمته عـــن الفرنسية نشرته مجلة الاونسكو قبل انعقاد مؤتمره في الوطـــن العربـــي في بيروت تشرين الاول (اكتوبر) 1948) . وعقدت فصلا عن خالد بن الوليد مثلنا الاعلى ، فعندما عزله عمر ظل يجاهد بنفس الحماس والاخلاص ، ولمـا سألوه عن سبب ذلك اجاب بانه لا يقاتل في سبيل عمر بل لاعلاء كلمة الله . وعالجت موقف ابي بكر من مـوت الرسول والمثل الاعلى في الحكم فاتخذت مثلنا الاعلـى عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . ولخصت كتاب ظل الله في الغرب للكاتبة سغريد هونكه الذي ترجـم منذ مدة قريبة الى اللغة العربية وتطرقت الى أن الامة العربية امة وسطى مشيرا الى الآية القرآنية الكريمـة: « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . » وعقدت فصلا عـن ان الحضارة العربية نفسها هي مثل اعلى لانها لعبت في الماضي بالمقارنة مع الحضارات القديمة اكبر دور فـي التاريخ . واخيرا ذكـرت وضعنا الحاضر وكيفيـــة معالجته و « العرب في نهضتهم الاخيرة » . ومما قلته:

1) نشرته دار الكتاب العربي ، بيروت ، ومكتبـــة النهضـــة ، بغـداد 1964 .

« لا يوجد زمن من الازمنة بحاجة الى ان تتألف فيه قلوب ابناء الوطن على اختلاف طوائفهم ونزعاتهم كزماننا الحاضر ، وبذلك نتكاتف على العمل المشترك بدلا من ان يضرب بعضنا وجوه بعض . » وبينت اهمية الثبات على المبدأ . واخيرا وجهت نداء الى المربين يلزمهم تلقين حب الوطن ، ويظهر أن كلماتي ذهبت مثل صيحة في واد أو نفخة في رماد ، لان الصدى الذي وجدته من عالم الغرب كان اكثر من عالم العرب ، وهذا يدل على اننا لا نزال نغط في سباتنا . فنحن اذن على مفترق الطرق ، اما ان نستيقظ حقيقة وندرك متطلبات العصر الحاضر ، واما ان نتابع نومنا فنصبح نسيا منسيا .

نحن نتغنى بالذكاء الآني المفاجىء، وقد جر علينا الغلو في ذلك اهمال الدراسة الجدية والتصاميم المدروسة . وكان الارتجال رائدنا في كثير من اعمالنا . جر علينا هذا الارتجال مصائب عديدة أوقعتنا في بلبلة كنا في كثير من الاوقات لا نعرف الخروج منها . وقد مضى زمن الارتجال والعبقرية العفوية ، واتي زمن الدرس الجدي الشامل من كل الوجوه والاحتمالات .

ان من أهم الامور في وقتنا الحاضر توحيد المصطلحات العلمية ، كي نتخلص من البلبلة اللغوية التي هي اشبه ببنائي برج بابل ، فعند انتهائهم من البناء نظرا لابتعادهم عن بعضهم بعضا لم يفهوا لغة بعضهم . وان أهم عمل نقوم به (كما سبق أن بينت ذلك في المؤتمر العلمي العربي الثالث المنعقد في بيروت عام 1957) بأن يعهد ذلك الى متخصصين في العلوم الذين عانوا التدريس في هذه المادة مدة طويلة ، سواء كان ذلك في التعليم العالي أو التعليم الثانوي :

لا يعرف الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعانيها

ومن الضروري تاليف الكتب المفصلة بهذا الخصوص ووضع كشاف ابجدي لتكون هذه الكلمات حية . ولا بد من اقرار كثير من المصطلحات الاجنبية وعدم اضاعة الوقت في البحث عن الكلمات النابية والشاذة ، بل الاهتمام بما يمكن أن يعرفه الجمهور ، فمثلا لقد اصطلحوا على كلمة المعدن الذي هو ذلك الجسم اللامع البراق بالفلز . وفي الحقيقة ان هذا خام المعدن ، كذلك احتاروا في كلمة مينرال Minéral فيمكن تسمية ذلك بالفلز أو المستمدن (1) . والمعدن هو الجسم البراق المعروف Métal وهذا هو في عرف الناس المعدن فليس من الضروري تبديل هذا المفهوم . ولا بد لي بخصوص التسميات اللغوية اعطاء بعض الملاحظات :

من الضروري تجنب ذكر كلمة نشادر التي يكثر ذكرها في كتب الكيمياء المقررة ، لان النشادر هو ليس امونياكا بل كلور الامونيوم $ClNH_4$ الذي يقابله لفظ Salmiaque . اما الامونياك فهو روح النشادر NH_3 لا النشادر كما يسمى حمض كلور الماء روح الملح . ان تسميتنا للنشادر تارة NH_3 أمونياك وتارة امونيوم NH_4 يبعدنا عن روح الدقة ويوقعنا في بلبلة نجهل بها اللغة العامية والعلمية ، فينتج عن ذلك الالتباس بين كلور الامونيوم $ClNH_4$ الذي هو في الحقيقة النشادر وبين الامونياك NH_3 . حتى ان غاز النشادر هو غاز كلور الامونيوم وليس بامونياك . وعندنا في المثل العامي : « عند البدو كله صابون ... »

وهناك ايضا فرق كبير بين الامونياك NH_3 الذي يوجد بصورة حرة وبين مركبات الامونيوم التي نسميها كلها بالنشادر ، فالامونيوم NH_4 هو جذر لا يوجد بصورة حرة بل عرفت مركباته مثل كلور الامونيوم وكبريتات الامونيوم .. الخ وهو شبيه بالمعادن القلوية مثل الصوديوم (Na) والبوتاسيوم (K) حتى انه امكن استعماله حرا بشروط خاصة ، ولكن سرعان ما يتفكك . حتى ان محلول الامونياك في الماء يشكل ماءات الامونيوم NH_4OH شبيه بماءات الصوديوم او البوتاسيوم $NaOH$ ، KOH واذا قلنا محلول النشادر كما اصطلحت عليه الكتب في سوريا بمحلول الامونياك قد يتبادر الى الذهن محلول كلور الامونيوم في الماء . واذا اصطلحنا بالنشادر ما يقابل الامونياك ، فيكون ذلك ايجاد لغة جديدة لا يعرفها احد ولم تذع الاذاعة الكافية في عامة البلدان العربية ، فضلا عن ذلك فهي توقعنا في بلبلة جديدة من جراء عدم تفريقنا بين الامونياك والامونيوم . واذا تعصبنا للفظة النشادر (بضم النون وفتح الدال) لاصلها الايراني والتي تعود الى كلمة سنسكريتية هندية نافاسار Navasara ، فان كلمة آمون تعود الى الاله المصري عمون ، وعلى كل ففي العلم لا يوجد تعصب وان كلمتي آمونياك وآمونيوم مصطلح عليها ومفهومة من جميع الكيميائيين .

---

1) اما تسمية اللافلز بما يقابل Métalloïde والذي اصطلح عليه بشبه المعدن فهو خطأ محض .

ان اضافة الياء للدلالة على الحد الادنى من المركبات ، خطأ فادح ، لان جميع المصطلحات في جميع الامم تسمى الحد الادنى في ذلك مثل Ferrique فليس من المصلحة الشذوذ ؟ !

ان استقامة كلمة كحول التي انتقلت الى اللغات الاجنبية ليس من « الغول » كما يظن الكثيرون بل من الكحل وذلك للطفه . واول من استعمل هذه التسمية هو برسيلزوس (1493 – 1541) الطبيب السويسري الشهير كما جاء في كتاب هولميارد عن صانعي الكيمياء (Makers of Chimestry, E. J. Holmyard, Oxford 1931, p. 111/112).

حيث ورد ان برسيلزوس هو اول من اعطى اسم الكحول لروح الخمر . وفي الاصل هو اسم لطلاء العين الاسود الذي تستعمله نساء الشرق . والكحل او الكحول اكتسب بالتدريج هذا الاسم معنى لكل مسحوق ناعم ومجزأ . وبعد ذلك بالتحويل الطبيعي اصبح هذا المدلول بمعنى « احسن وادق » شيء في المادة . ومن المحتمل ان برسيلزوس كان ينظر الى روح الخمر كأنه « احسن جزء » في الخمر فسماه كحول الخمر او بتعبير بسيط الكحول ، وبالطبع لقد ثوبر على استعمال هذه الكلمة ، وان المدلول القديم صار اليوم مهجورا تماما . »

وقد نبهت الى ذلك مرارا عديدة وخاصة في المؤتمر العلمي العربي الثالث .

في انحلال المواد الدسمة في البنزين من الضروري تبيان نوع البنزين هل هو البنزين الكيميائي $C_6 H_6$ المستحصل من تقطير الفحم الحجري ، فيقتضي تسميته بنزين القطران او البترول اما وقود السيارات فهو غازولين واذا اردنا تسميته بالبنزين ايضا يقتضي تسميته بنزين النفط . .

وهناك ايضا الاثير البترولي الذي يستعمل ايضا لاستخلاص الزيت من البذور النباتية فاستعمال كلمة بنزين لكل هذه المسميات هو خطأ فادح .

من الخطأ تسمية الآنيلين $C_6 H_5 NH_2$ بالنيلين، حيث يقع الالتباس بينها وبين النيلة Indigo التي يختلف تركيبها عن الآنيلين تماما . فمادة الآنيلين التي هي اساس الصباغات الآنيلينية تستحصل من البنزين (المستخرج من تقطير الفحم الحجري) بنترجته وبعد ذلك بمعاملته بالهيدروجين الوليد . اما النيلة التي تستخرج قديما من نبات النيلة والمستعملة في الصبغ باللون الازرق ، فالمادة الاصلية في استخراجها صنعيا هي النفتالين التي هي عبارة عن حلقتين من حلقات البنزين المذكور ، بطرق معقدة لا مجال لتبيانها هنا . ومما يجب الاشارة اليه ان الصباغين في بلادنا (سوريا) يعرفون جيدا التفريق بين النيلة والآنيلين، فيستعملون الاولى في صبغ الازرق والثانية للتلوين باللون الاسود بمعاملتها مع ثاني كرومات البوتاسيوم ولا ادري ما هو المسوغ لتسمية التكنيك Technique بكلمة تقنية ، أوليس الافضل الرجوع الى الاصل ؟

يجب علينا ادراك قيمة الزمن في عصر السرعة ، وعندي انه من الضروري اخذ المصطلحات الحديثة كما هي في كثير من الاحيان ، فنحن محتاجون لدراسة الكتب الاجنبية ، واذا اصطلحنا على المكتشف الجديد بغير ما عرف به يبعدنا ذلك عن الركب ، ويكون حجر عثرة في سبيل تقدمنا في العلم ، فبدلا من تضييع الاوقات الثمينة مثلا في ايجاد مفهوم جديد للبنسلين ان نقوم في استحصاله ومعرفة كنهه ومعياراته . وعندما يتاح لنا اكتشاف جسم جديد عند ذلك لنا الحق ان نصنع له مفهوما جديدا نرغم غيرنا عليه .

وفي وضع تخلفنا علينا مجاراة القافلة ، ولم تكن اجدادنا قديما متعصبة في قبول اللفظ الاعجمي فقالوا جغرافيا وفلسفة وارطماطيقا . . . الخ فما الداعي لتعصبنا نحن اليوم ، مع بعدنا عن العلوم بعدا عظيما . اتذكر عندما كنت في لجنة الكيمياء من المؤتمر العلمي العربي الثالث واردنا ايجاد مصطلح جديد من اجل كلمة Polymérisation ، وبعد اخذ ورد ونقاش طويل اضطررنا الى اخذ كلمة بامرة ، نعم قد يقتضي نحت الكلمة لكي يسهل نطقها على اللسان العربي ، ولكن يلزم عدم اضاعة الاوقات في الكلمات بل من الضروري الترجمة ، حتى يقتضي عدم الاكتفاء بالترجمة بل فتح مخابر لتفهيم القوانين العلمية ، لان هذه العلوم من العلوم التجريبية. ويمكننا الاعتناء بما هو مهم في الصناعة ورفع المستوى الاقتصادي . نعم ان العلم للعلم ، ولكن من الضروري ان يتقدم ذلك بعض مراحل تطبيقية هامة من شأنها جذب الانسان للعلم .

وفي البناء العلمي يلزم ان نبتديء في البناء من الاسفل لا من الاعلى ، كما سبق ان حللت ذلك في مجلة العلوم (عدد 12 ، عام 1967 ، ص 63 وما بعدها) . واني بعد رحلة علمية الى ديار الغرب (وخاصة المانيا الاتحادية) دامت ما يقرب من اربعة اشهر ، زرت معاهد الكيمياء والجيولوجيا والمينرالوجيا بصورة خاصة ، فأيقنت بأن المسافة بيننا وبين الامم المتقدمة شاسعة جدا . واذا كنا جادين في العلم يلزم ان تكون جامعاتنا ومعاهدنا العلمية في العلوم الايجابية على نسق الجامعات العالمية التقدمية ، فالذرة مثلا

التي لانكاد نعرف عنها الا امورا نظرية فقط ، نجدهم يتداولون اجهزة رنين النواة والمجهر الالكتروني والدماغ الالكتروني وغير ذلك من الآلات العالية الثمن والحديثة ببساطة جدا كما يلعب عازف البيانو الماهر على البيانو ... الخ

فهم يبدأون فى البلاد التقدمية باعطاء الطفل الالعاب العلمية التي يرى فيها لذة ومتعة وشحذا للملكات ، ولا يكاد الطفل يمشي عندهم الا وتكون العابه تخدم غاية علمية صناعية يأخذها لهوا ولعبا وفرحا ومسرة . وكم من اساطين العلم فتقت هذه الالعاب قابلياته فكان من كبار المكتشفين فى العالم .

ان نقطة هامة لا نفهمها حتى الآن ، الا وهي ان كل ابداع فى الفكر لاياتي عن طريق القسر والاكراه ، لانهما يبعثان الكدر ، بل عن طريق الانطلاق وهذه تبعث السرور والفرح ، ففي الاول تنكمش النفس وفي الثانية تتفتح .

ان الدراسة العالية تبنى على الدراسة المتوسطة وهذه على الابتدائية ، حتى انه لايكفي للطالب ان يرى الاجهزة بل لابد له من ممارستها ومعرفة فائدتها العلمية .

ان تقدمنا فى العلم كثيرا لاينفعنا بل ينفع غيرنا ، كم من ذوي الهمم العالية من العرب ذهبوا للتخصص فى الغرب ، وقليل منهم قد رجعوا الى الوطن .

وقد سالني احد المخبرين الصحفيين : هل في الامكان وجود متخصصين فى الذرة عندنا ؟ فاجبته انه فى الامكان ذلك على الشرط الداب والعمل المتواصل فى حقول العلوم الطبيعية من الفيزياء ، والكيمياء ، على ان نقوم قبل كل شيء بالتحرر العقلي والقضاء على الجمود الفكري ، واقرار مبدأ التحرر الذاتي والبحث الشخصي ، وبدون هذا المبدأ لا يمكن لنفوسنا أن تتهيأ لفهم العلوم الطبيعية فهما جيدا . ومن الضروري فتح باب البحث والاستقصاء على مصراعيه لنسير فى طريق الكشف والابداع .

ان المبدأين العظيمين من التحرر والانسانية ، هما ضروريان فى جميع مراحل البحث العلمي ، والتحرر لابد منه خاصة فى المرحلة الاولى من فهم الطبيعة ، حتى اذا لم نقم فى عمل الخطوة الاولى ، فلا يمكننا متابعة السير ، طبعا انه ليس من الضروري تقديس شخص معين . لان هذا التقديس مخالف لمبدأ التحرر والانعتاق وعدم الخضوع الاعمى . من الضروري اذن الارتكاز على مبدأين : التحرر الفكري والرحمة والرافة ..

فنحن هنا ايضا على مفترق الطرق ، اما ان نعرف هذا الاقتباس الذي من شانه ان يوصلنا الى الابتكار مع مراعاة الرحمة والانسانية ، او نعيش على هامش الحياة فاقدي العزة والكرامة ، فلا يكفي ان نعيش ونقهر الموت

بل نود عيشا لائقا بعيدا عن الذل والهوان . والخطر جاسم بابادتنا كما سبق لشعوب اوروبا وابادة العرق الاحمر من سكان امريكا الاصليين ، رغم وجود حضارة لهم ، كما اثبت البحث الاثري ذلك . ولم يبق منهم الا عدد قليل جدا ، يريد المهاجرون الاوروبيون المحافظة عليهم ، كما يحافظ الانسان على نوع غريب من الحيوان .

نحن بحاجة شديدة لتبديل النزعة السكونية « ستاتيك » التي تفضي الى الشلل والاستعاضة عنها بنزعة حركية « ديناميكية » رائدها الانتقال من القول الى الفعل .

برهنا فى مناسبات عديدة على امكانية الفرد ونشاطه وحيويته ، ولكن يجب علينا معرفة كيفية ضم جهود هؤلاء الافراد الى جهود جماعة قوية ، لان جهد الفرد لا قيمة له تذكر بجانب جهود الجماعة . فالفوائد الناجمة عن التضامن والتعاون والتعاطف المنظم لا يمكن حصرها ، وان الاضرار التي تحدث من فقدانها عظيمة جدا ، وقد تكون السبب فى تدهور الامة وسقوطها . ان تطوير الميول والعواطف التي تؤلف خميرة الحياة الاجتماعية حجم الفوائد للبلاد والعباد ، فيجب علينا تعوده لنتلافى اخطاء وقعنا بها في الماضي .

اذا سال احد منا المانيا المغلوبة على امرها ما رايها بعمل هتلر السابق ؟ وجد الالمان لايقولون ان هتلر اخطأ ، بل يقولون نحن اخطأنا فى زج انفسنا فى الحرب الماضية ، لانهم يعتقدون ان ذلك الرجل هو فرد منهم لا قدرة له بالسيطرة عليهم وقيادتهم رغم انفهم وفيهم حيوية ونشاط .

ان الشعور بالمسؤولية العامة التي يجب على الامة ان تتحملها هو الذي يخلق الوعي الاجتماعي

ويصحح الاخطاء الماضية ، اما اذا القت الامة التبعة على كاهل فرد من الافراد وابتعدت عن التفكير في المصير وايجاد حل جماعي ، عند ذلك يكون من الصعب عليها السير متكافلة متضامنة الى الامام .

نعم لقد دبت الحياة الجماعية فينا ، ولكن يجب علينا طلب المزيد من ذلك ، وان لا نكون قانعين بهذا القدر اليسير ، فرجال التربية والاجتماع يرون قوة المجتمعات البشرية وقدرتها لاتتعين بعدد الافراد الذين يؤلفونها ، بل تتناسب مع شدة الروابط التي تربط بعضهم ببعض . ويضربون لذلك مثلا بأن صلابة الاحجار والصخور لاتكون لعظم حجومها ، بل تتناسب مع تماسك اجزائها ، فتشبه بعض الامم بالاحجار اللينة وبعض منها بالاحجار الصلبة واخرى بالصخور الصلدة . واذا كنا من الذين يريدون مقاومة الانواء والعواصف للاعراب عن وجودنا ، فعلينا ان نكون كالجلاميد القاسية ، لا كالتراب الهش الذي يتفتت لاية صدمة من الصدمات ولا يقاوم هبوب الرياح .

ان مثلنا اليوم كالمثل المضروب عن فقيه صحب نوتيا في نزهة بحرية في سفينة ، فسال الفقيه النوتي ، هل تعرف البلاغة ؟ فأجاب النوتي بلا ، فقال الفقيه اضعت نصف عمرك ، ثم ساله عن البديع والعروض وغيرهما ايضا ، فلما كان الجواب كذلك نفيا في كل مرة ، كان الفقيه يصرح له بانه اضاع في كل اهمال لهذه المواد جزءا من عمره . ولما عصفت زوبعة بالسفينة واوقعتها في البحر ، سال النوتي الفقيه : هل تعرف السباحة ؟ فأجاب الفقيه بالنفي ، عند ذلك قال النوتي : والآن اضعت عمرك كله ! ! وفي ذلك تذكرة لاولي الالباب .

نحن على مفترق الطرق في كل امر من امورنا ، فاما حياة او موت ! وفي قلب بلادنا العزيزة تكمن شرذمة من شذاذ الآفاق تريد القضاء علينا ، القضاء المبرم . وعلى قدر ادراك عظم المسؤولية الملقاة على كاهل امتنا جميعا يكون حظنا في النجاح والنصر المبين .

كيف انطلقت النهضة الفكرية الحديثة من لبنان العربية .

للأستاذ محمد جميل بيهم

رئيس المجمع العلمي اللبناني سابقا
عضو مجمعي دمشق وبغداد

اتيح للبنان فى غضون التمدن الحديث أن يدرك تقدما فى الشؤون المالية والاجتماعية والثقافية لم يدركه قطر عربي آخر ، فما هي الاسباب ؟

هذه دراسة لا يستوعبها مقال فى مجلة ولذلك فاني اقتصر على الناحية الثقافية فيها ، والتزم مع الاقتصار الاختصار .

على ان لبنان فى هذه الناحية لا يعود الى سبب واحد ، بل هو نتيجة لعوامل كثيرة هاكم اهمها :

اثر العوامل الدينية فى نهضة لبنان :

كان ساحل الشام مجازا لحجاج بيت المقدس ، وكان هذا المجاز وسيلة لاختلاط سكانه بأهل التمدن الحديث فى قدومهم وعودتهم ولاقتباسهم افكار هذا التمدن بالاضافة الى تلقف أخلاقه وتقاليده .

ولما انتهت المرحلة الاولى من الصراع بين الدول الاوربية وبين السلطنة العثمانية وذلك بانتصار السلطان سليمان القانوني – 1520 – 1566 – تسابقت هذه الدول الى عقد المعاهدات معه لتامين مصالحها السياسية والاقتصادية ، وتقربت اليه ونالت فرنسا منه حق الاعتراف لها بحماية البطريرك الماروني وسائر نصارى الشرق العثماني .

وكان الموارنة بلبنان قد اعترفوا فى القرن الخامس عشر بسلطنة البابا فأفضى هذا الاعتراف الى عنايته بهم عناية الراعي برعيته .

فاذا بالآباء اليسوعيين يبادرون الى انشاء مدرسة فى روما ، أواخر القرن السادس عشر ، تعني بتعليم اللغتين العربية والعبرانية ، واذا بالبابا غريغوريوس الثالث يأمر بعد ذلك بانشاء المدرسة المارونية عام 1584 – ويسلم ادارتها لليسوعيين . فكانت هذه المدرسة نواة نهضة لبنان الثقافية الحديثة فعدا أولئك الذين انتشروا فى باريس وفلورنسا وفينا وبادوا وغيرها من خريجيها ، واشهرهم الحقلاني والسمعاني وعريضة وعدا الذين شغلوا وظائف في أوربا كالقس مخائيل الغزيري الترجمان فى بلاط كيرولوس الثالث ملك اسبانيا فعدا هؤلاء وأولئك فان فريقا من خريجيها عادوا الى لبنان وتولوا فيه ارفع المناصب الكهنوتية ، وكان منهم المطارنة والبطاركة . وكان هذا الفريق المثقف قد تنشق أجواء النهضة الحديثة فبثها فى أوساط ملته بالاضافة الى نشره العلم والمعرفة .

وكانت باكورة أعماله مدرسة حوقة عام 1632 ، ثم مدرسة عين ورقة – 1789 – وسواهما على أن النهضة المارونية بلبنان كانت حافزة لسائر الطوائف

للبقظة ولا سيما الكاثوليك اتباع روما ، فانشأ غريغوريوس الاول راعي الارمن الكاثوليك مدرسة بزمار – 1788 – ، كما وضع مخائيل جروة بطريرك السريان الكاثوليك الاسس لمدرسة الشرفة ، وفتح اغناطيوس مطر بطريرك الكاثوليك مدرسة عين تريز – 1811 – .

وفي غضون ذلك تألفت الرهبنات الوطنية لدى الموارنة والروم الملكيين ، فساهمت في فتح المدارس وفي ترجمة بعض الكتب الدينية اللاتينية الى العربية ، وطبعتها على مطابع ايطاليا التي كانت قد اصدرت منذ اوائل القرن السادس عشر بعض النشرات الدينية العربية ، والكتب العلمية واشهرها جغرافية الادريسي والصالحي وقانون ابن سيناء . ولما لجأ الامير فخر الدين المعني الثاني الى ايطاليا ، في غرة القرن السابع عشر ، شاهد هذه المطبوعات العربية هناك تباع باثمان معتدلة . على ان اللبنانيين كانوا قبل ذلك ، قد حاولوا الاستغناء عن مطابع اوربا بانشاء المطابع في وطنهم لاصدار النشرات الدينية والكتب . وكانت اولى المطابع مطبعة دير قزحيا – 1610 – وكانت احرفها باللغة السريانية، ثم كانت اولى المطابع بالاحرف العربية بلبنان تلك التي صنعها الشماس عبد الله زاخر الحلبي في دير ماريوحنا الطبشة بترية لخنشارة ، وذلك في اواسط القرن الثامن عشر .

فهذه المدارس والمطبوعات ، وكذلك الارساليات الاجنبية الدينية كانت نواة النهضة الحديثة بلبنان . وهي وان كانت ذات لون ديني الا انها لم تلبث ان تطورت مع الزمن ، واصطبغت بالصبغة العلمانية .

وهنا مجال للتنويه بما كان لامراء لبنان الاقطاعيين من اثر في تنشيط النهضة الحديثة . فهم كانوا يحرصون على محاكاة الملوك في تقريب المثقفين ومكافأتهم . فكانت رعايتهم لهؤلاء في عداد الحوافز للاقبال على العلم والادب ، وحسبنا الاشارة الى ما كان بين حاشية الاميرين يوسف الشهابي وبشير الشهابي الكبير من ادباء وشعراء . هذا فضلا عن الموظفين المثقفين كسعد الخوري وجرجس باز وفارس جدعون الباحوط وغيرهم من ادباء سوريا .

اثر السياسة في النهضة اللبنانية :

شبت الثورة الافرنسية في اواخر القرن الثامن عشر فهزت اوربا ، ثم انتقلت شظاياها الى الشرق الادنى مع نابليون بونابرت حينما احتل القطر المصري وحاول ان يحتل بلاد الشام . وكان نابليون يريد ان يتخذ من البلاد العربية مطية له لادراك الهند بالاتفاق مع امرائها ولكن انكلترا كانت له بالمرصاد فردته على اعقابه ، غير انه لم ينسحب من مصر الا بعد ان القى فيها بذور النهضة تلك البذور التي تمت وربت في جيل لاحق وشملت البلاد العربية الاخرى ، على ان فرنسا لم تتخل في اعقاب هذا الاندحار عن اهدافها التوسعية البعيدة المدى ، ولم تتخل ايضا عن فكرة الثأر من لندن فاختارت بيروت وجبل لبنان مركزا استراتيجيا لتحقيق هذه الاماني ، وراحت تتقرب من محمد علي عزيز مصر ، والامير بشير الشهابي الكبير امير لبنان وتعمل لتوثيق الصلات بينهما . وكانت خطواتها الثانية اغراء عزيز مصر بالحملة على بلاد الشام سنة 1831 للانطلاق منها الى عاصمة آل عثمان غير ان فرنسا فشلت مرة ثانية حينما ردت تركيا ابراهيم باشا الى مصر سنة 1840 بمؤازرة انكلترا وحلفائها .

وهذا الصراع بين فرنسا وانكلترا بالشرق الادنى كانت له نتائج اخرى بالعالم الغربي لم يلبث ان رأى هذا الشرق مشرع الابواب امامه بعد ان كان موصدا وما كان ذلك يعود الى احتلال نابليون مصر بالقوة ، وخروجه منها بالقوة ، وانما يرجع الى ترحيب الشرق الادنى بصداقة الغرب ، في اعقاب ما كانت تركيا تخفض جناح الذل للندن وحلفائها الذين انقذوها من الغزو المصري وتصغي لنصائحهم وحيال هذه البادرة الجديدة التي عرضت وقربت بين الشرق والغرب تحفز هذا للعمل في سبيل تحقيق امانيه المختلفة في بلاد السلطنة العثمانية عن طريق البعثات الدينية للتبشير .

وقد نشرت احدى صحف الاستانة في عام 1894 خبرا مفاده : ان عدد مدارس الامريكان في السلطنة بلغ وقتئذ 812 تضم 43037 تلميذا ، عشرون الفا منهم من الاناث .

والارجح عندي ان الانكليز هم الذين اثاروا الامريكان في عزلتهم باسم الدين ، ونشطوهم لايفاد هذه البعثات الى الشرق الادنى في غضون الحرب الباردة التي كانت تنشب بينهم وبين الافرنسيين حول هذه البلاد ، وذلك بغية ان تكون تلك البعثات ظهيرة لهم ضد اللاتين .

وكانت تركيا توصف وقتئذ بالرجل المريض حسب تعريف نقولا قيصر روسيا ، وكان المستعمرون يترقبون موتها واقتسام ارثها ، وكانت فرنسا ترى

ان بلاد الشام وفى مقدمتها لبنان حق طبيعي لها فى هذا الارث فشق عليها نشاط الارساليات الامريكية التي لا تختلف فى نظرها عن البعثات الانكليزية فوثبت للعمل واستعانت برجال الدين على الرغم من انها لم تكن تواليهم وامدتهم بالمال فاذا بآباء العازاريين يفتحون مدرسة لهم فى قرية عينطورة بلبنان ـ1843ـ واذا باليسوعيين يفتحون مدرسة اخرى فى قرية غزير ـ 1844 ـ وهكذا دواليك حتى امتلأ لبنان بمدارس الرهبان والراهبات الفرنسية والانكلوسكسونية .

وكانت الدول الباقية التي تراقب هذا الصراع بين لندن وباريس وتمني مثلهما نفسها بأن تنال نصيبا من الارث تعلم بأن فتح القلوب من شأنه أن يسهل فتح المعاقل ، وان ليس خيرا لفتح القلوب من امثال هذه المدارس ، فاذا بالروس والالمان والايطاليين فضلا عن الانكليز يبادرون الى ايفاد مرسليهم للشرق الادنى فى منتصف القرن التاسع عشر ، واذا هؤلاء ينشئون المدارس فى كل مكان ولا سيما فى القدس وبيروت وجبل لبنان وسرعان ما اشتدت المنافسة بين البعثات الدينية ، وكان اثرها بين الامريكان والافرنسيين ، فلما نقل المرسلون الامريكيون مطبعتهم من مالطة الى بيروت سنة 1846 سارع اليسوعيون الى انشاء مطبعتهم الكاثوليكية ، ولما نقل الامريكان مدرستهم من قرية عبيه الى بيروت ورفعوها الى كلية الانجيلية عام 1896 ـ خف اليسوعيون الى نقل مدرستهم من غزير الى بيروت وجعلوها كلية . ولما فتح الامريكان فى هذه المدينة مدرسة للبنات سنة 1841 ، بادر الافرنسيون الى انشاء اثنتين : مدرسة راهبات القديس يوسف ، فمدرسة اخوية ابنة الاحسان ـ 1843 ـ وظلت حدة هذا التنافس تتزايد حتى امتلأت البلاد بالمدارس ، وارتفع شأن الكليتين الى جامعتين او مدينتين عالميتين حافلتين بكل وسائل التربية والتعليم ، وكان لابد لهذه الارساليات من نشرات ومجلات تستعين بها على التبشير فظهرت نشرة مجموع فوائد 1851ـ ، ومجلة اعمال الجمعية السورية ـ 1853 ، ومجلة مجموع العلوم ـ 1868 ، واخبار انتشار الانجيل ـ 1863 ، ومجلة النشرة الشهرية ـ 1866 ، ومجلة اعمال شركة مار منصور دى بول ـ 1868 فضلا عن مجلة المشرق وغيرها .

وهكذا اصبحت بيروت وجبل لبنان ميدان معركة ثقافية بين الدول حولتهما فى آخر المطاف الى مركز اشعاع فى الشرق الادنى ، خصوصا وان المعركة اثارت نشاط الطوائف الوطنية المختلفة ودفعتها الى فتح المدارس حفاظا على كيانها ومذاهبها او حفاظا على مبادئها السياسية والقومية .

مساهمة تركيا فى نشر المعارف ببيروت وجبل لبنان

كانت ولاية بيروت وامارة جبل لبنان حافلتين فى القرن التاسع عشر بالعلماء والادباء . اشتهر بين المسلمين احمد البربير (توفي عام 1811) واحمد عمر دبوس ، وعمر اليافي (ت 1818) وابراهيم الحر العاملي والامير حيدر احمد الشهابي (ت 1834) والحاج حسين بيهم (ت 1859) والامير محمد ارسلان (ت 1864) واحمد فارس الشدياق (ت 1817) وغيرهم ، واشتهر بين المسيحيين عدد من آل اليازجي وآل البستاني وآل النقاش ، وعلى راسهم الشيخ ناصيف اليازجي ، والمعلم بطرس البستاني ، ومارون النقاش . هذا فضلا عن رشيد الدحداح (ت 1889) وكثيرين غيرهم . واما بين النساء المسيحيات فعدا السيدات السبع اللواتي كن باكورات المعلمات فى المدارس وهن راحيل زوجة بطرس البستاني ، وسلامة وحنة ، وخزما ، ولولو ، وكفا ، وسوسان . فبعد هؤلاء لمع اسم هند نوفل ، ووردة اليازجي ، ومريم نحاس .

غير أن الثقافة كانت على وجه عام محصورة في طبقة خاصة من الناس ، اما عامة الشعب فكانت على الاكثر لا تزال متخلفة حتى ان بعض تجار ذلك العصر كانوا يستعينون بكتاب يدورون عليهم بأقلامهم ومحابرهم لقراءة الرسائل التي ترد اليهم ولكتابة الاجوبة عليها .

واما السلطنة العثمانية التي كانت فى صدر ايامها منصرفة للفتح والتي امست فى أواخر عهدها منهمكة فى الدفاع عن نفسها ، ومشغولة باخماد الثورات فى بلادها فهي لم تعن بنشر المعارف الا في عاصمتها ، هذا الى انها كانت تعلق انشاء المطابع على رخصة مسبقة منها ، ولكن الثورة الفرنسية وما خلفت من احداث واهمها فتح باب المسألة الشرقية على مصراعيه كان كل ذلك حافزا للسلطان سليم ـ 1789 ـ 1808 ـ على التفكير فى المصير فوطد العزم على اصلاح الجيش ونشر المعارف على غرار اوربا . ولقد كبر هذا العزم على طغمة المحافظين فاثاروا الانكشارية على السلطان ، وخلعوه وقتلوه بتهمة الفكر ، وكان وراءهم بعض الدول المستعمرة التي ارادت دفن كل اصلاح فى تركيا بدفن من يكفر فيه

كيلا يؤخر الاصلاح ادراكها نصيبها من تركة الرجل المريض .

ولما استوى محمود الثاني على عرش السلطنة (1808 – 1839) ثأر للسلطان سليم بالقضاء على الانكشارية وتبنى برنامجه الاصلاحي ، وعلاوة على انشائه الجيش الحديث ، فقد اقام فى العاصمة المدارس الابتدائية والمعهد الطبي ، واوفد البعثات الى المعاهد العلمية الاوربية .

ثم لما امسى الباب العالي بالاستانة خاضعا لدونينغ ستريت فى لندن وسائر الدول التي انقذت السلطان عبد المجيد (1839 – 1861) من الغزو المصري لم يسع هذا السلطان الا الامتثال لنصائح حلفائه ، وبالاضافة الى نشرة التنظيمات وغيرها من اللوائح الاصلاحية ، فقد استهل عمله بانشاء المدارس المعروفة بالرشيدية والاعدادية فى بعض الولايات . ثم ما ان صار العرش للسلطان عبد العزيز (1861–1876) المعاصر للخديوي اسماعيل بمصر ، وكان كلاهما مجددا وعمرانيا حتى تبدل الجو واصبحت العناية بنشر العلم وتنشيط الادب هواية لهما . وكم لهما من اياد بيضاء على الادباء والعلماء بما بذلا لهم من المال والتنشيط . وكان بطرس البستاني واحمد فارس الشدياق ومارون النقاش ، وسليم فى طليمة الذين ادركوا رعاية هذين العاهلين على ان السلطان عبد الحميد الثاني (1786 – 1909) ، الذي كان معروفا بالتضييق على الحريات لم يسعه مع ذلك الا مجاراة تيار التقدم العالمي ، فاستهل حكمه بتقرير انشاء المدارس الرشدية والاعدادية والعسكرية فى ولاية بيروت وغيرها . والواقع أن هذه المدارس انما كانت تعنى باخراج الموظفين من مدنيين وعسكريين فلم يقبل عليها غير الراغبين فى هذه الوظائف وهم قلة فى ولاية بيروت خلافا للبلاد العربية الاخرى، ومن هنا ظل المجال مفتوحا امام المدارس والمعاهد الاجنبية لتتولى تربية النشء الجديد على هوى كل منها حتى لم يبق فى لبنان اثر للوحدة الوطنية .

المنافسة الغربية وبعث النهضة العلمية الوطنية

دولة اجنبية كانت تحكم بيروت ولبنان فى القرن التاسع عشر ، ومدارس اجنبية كانت تستأثر بتربية الناشئة وتعليمها فكانت العاقبة ان البلدين فقدا القيم الوطنية واختلفا عليها واعتمدا فى تقرير المصير على ما توحيه المشاعر الدينية وروحها . وبهذه المشاعر ادرك باكرا اولو الالباب من البلدين ما سوف تكون العاقبة اذا استمر اولادهم يتربون ويتعلمون فى مدارس اجنبية لكل منها طابع مذهبي خاص وهدف سياسي . وفي غمرة هذا الاشفاق على المصير فكرت كل طائفة فى الاعتماد على نفسها . فاذا بنا نرى هذه الطوائف تبادر الى فتح المدارس وكانت كلها ، ما عدا المدرسة الوطنية التي انشأها بطرس البستاني (1863) ، مدارس ذوات صبغة مذهبية ومليـة ، فقد انشأ الروم الارثوذكس مدرسة الثلاثة اقمار فى سوق الغرب (1852) التي انتقلت من بعد الى بيروت والدروز المدرسة الداودية فى عبيه (1862) ، والكاثوليك المدرسة البطريكية (1866) والموارنة مدرسة الحكمة (1875) ، واليهود مدرسة الاتحاد الاسرائيلي (1884) ؛ وفى هذا الاسم دلالة على أن امانيهم المعروفة كانت قديمة وشاملة ، واما المسلمون فقد الفوا جمعية المقاصد الاسلامية الخيرية (1295 هـ – 1878) التي تولت مهمة فتح المدارس الابتدائية للاناث والذكور التي اصبحت الآن اغنى الجمعيات بلبنان حتى اذا دخلت سنة 1895 نهض الشيخ احمد عباس ، وفتح المدرسة العثمانية التي تحولت بعد سنين قلائل الى كلية ، وقد كنت من بواكير المتخرجين منها .

وهنا مجال للاشارة الى محمد عبد الله بيهم الذي كانت له اياد بيضاء على المؤسسات العلمية ، والذي كان فى طليعة اعيان بيروت الذين حثوا المسلمين على التزود بالمعرفة . وقد ملأ جدران بيروت وغيرها من المدن بشعارات تدعو الى الاقبال على العلم من امثال : – تعلم يا فتى فالجهل عار – ولا يرضى به الا حمار .

فهذه المدارس الوطنية كلها اخرجت شبابا كان لهم فى خدمة هذا البلد وفى رفع اسمه نصيب كبير ، ولكن العيب فيها انها كانت تخلق نهضة طائفية لا اثر للجامعة الوطنية فيها .

اما وان خريجي هذه المدارس لم يجدوا فى وطنهم الجو الملائم للاعراب عن افكارهم او لتأمين معاشهم فقد اضطر كثيرون منهم للهجرة وكانت مصر فى عهد الخديوي اسماعيل ، اقرب البلاد اليهم وارحبها صدرا لاستقبالهم فاقاموا فيها نهضة صحافية جبارة كانت تتمثل بمجلتي المقتطف والهلال وبجريدتي الاهرام والمقطم ، ثم هاجر آخرون الى مصر فى مستهل عهد الاحتلال الانكليزي ومنهم من تولوا اكبر الوظائف فيها وبالسودان ، ومنهم من اصبحوا هناك فى عداد اقطاب التجارة . وفضلا عن هؤلاء واولئك فان فئة من

المثقفين انتشروا فى اوربا والامركيتين ، ورفعوا راية لبنان عالية حيث حلوا سواء اكان ذلك فى الثقافة ام التجارة ام السياسة ، على ان المختلفين من المثقفين لم يهنوا ولم يستكينوا امام الضغط الحميدي ، بل راحوا يستفيدون من ثقافتهم ايضا ويفيدون .

وعلاوة على انشائهم المدارس والمطابع فقد اصدر خليل الخوري جريدة الاخبار (1857) ، وبطرس البستاني نفير سوريا (18760) ، وبطريس البستاني وولده سليم مجلة الجنان (1870) ، وجريدة الجنة ، ثم تدفق سيل الصحف فى بيروت تباعا ، ولا سيما عقب اعلان الدستور العثماني سنة ـ 1908 ـ . وما زال يتدفق حتى اصبحت بيروت بالنسبة لعدد السكان اكبر بلاد العالم صحافة .

وفى تلك الحقبة التمعت فى بيروت اسماء كثيرين من الادباء نساء ورجالا نذكر منهم بالاضافة الى اصحاب الصحف : ابراهيم الحوراني والامير شكيب ارسلان ومصباح رمضان وابراهيم اليازجي وفضل القصار وحسن بيهم وزينب فواز وهنا كوراني واستير مويال وهي يهودية .

وضع لبنان الاقتصادي واثره فى النهضة الثقافية

لما تفاقمت المزاحمة بين الدول الصناعية على صعيد تصريف مصنوعاتها اتخذ كل منها فى سواحل الشرق الادنى مراكز تجارية لتكون نقطة الانطلاق لنشر هذه السلع فى الشرقين الادنى والاوسط ، وكان اهمها مرافيء ازمير والاسكندرية وبيروت .

وكانت بيروت فى العهد العثماني صلة بين الغرب من جهة وبين سوريا الكبرى والاناضول والعراق وايران من جهة ثانية فازدهرت وتزايد عدد سكانها ، ولا سيما بعد ثورة لبنان المعروفة بثورة 1860 فبعد هذه الثورة ، قامت الشركات ذوات الامتياز كشركات الماء والغاز والخطوط الحديدية ، والمرفأ والبنك العثماني وحصر الدخان ، وناهيك بالشركات الاخرى والمؤسسات من اجنبية ووطنية .

وهذا الازدهار المطرد فى الناحية الاقتصادية رافقه بصورة طبيعية اقبال على المدارس والمعاهد العلمية بغية الاستعداد للاستخدام فى هذه الشركات والمؤسسات فضلا عن الوظائف الحكومية التي كانت تتعدد وتتزايد تبعا لتوسع الجهاز الحكومي ، والى هذا سنحت وقتئذ فرصة اخرى ملائمة للمثقفين اللبنانيين فى البلاد العربية التي تطورت ، ولم يكن عندها من ابنائها ما يملأ الفراغ ابان هذا التطور فتمت الانطلاقة ابتداء من مصر والسودان فى عهد الحماية الانكليزية .

ولما شرع تجار بيروت يبنون اقتصادياتهم على اسس جديدة معتمدين على انفسهم دون الاجانب ازدادت الحاجة الى الشباب المثقف ثم برزت حاجة ماسة الى الاخصائيين والفنيين عندما اقبل اولئك التجار على انشاء المصانع ، وعندما اقبلت الحكومة على تعمير المرافق تجاوبا مع هذه الحاجات المختلفة خف كثيرون من متخرجي المعاهد العلمية فى بيروت الى اوربا فامريكا للالتحاق بجامعاتها الكبرى من اجل التخصص او من اجل استكمال دروسهم العالية . فكان ذلك مساعدا على رفع المستوى العلمي فى كل من بيروت التي كانت تابعة لولاية سوريا ، وفى متصرفية لبنان .

وقد رافق كل ذلك عامل آخر كان له اثر بالغ فى النهضة والتجدد واعني به الاختلاط الشديد بين اللبنانيين عامة والبيروتيين خاصة وبين اصحاب التمدن الحديث . فكما حفلت بيروت بالعلماء والادباء الذين جاءوا اليها للتعليم ولادارة المعاهد العلمية الاجنبية ، فضلا عن الارساليات فقد امتلأت ايضا برجال الاعمال الاقتصادية ، وفى عدادهم اصحاب المهن والفنون . ومن جهة ثانية فان تجار بيروت واصحاب المصانع وطلاب المدارس العالية وغيرهم كانوا يؤمون بلاد الغرب دون انقطاع فيتأثرون بها سواء ارادوا او لم يريدوا ذلك لان فى كل جماعة من الناس ذرات من ارواحهم تتهادى فوقهم وتجعل ذلك الجو متفقا مع مستواهم الاجتماعي . وما اشد ما يتأثر المقيم بين طبقات الناس من روحهم واخلاقهم صالحة كانت ام فاسدة .

فهذا الاختلاط الدائم بين الغرب والبيروتيين واللبنانيين كان من حسناته تسرب روح النهضة الحديثة اليهم ومدارها الاعتماد على النفس والتوثب الى ارتفاع المستوى الاجتماعي .

* * *

هذه العوامل منفردة ومتحدة هي مصدر النهضة الفكرية والاجتماعية بلبان ثم ما ان ازدادت فى عهد الاستقلال بالسياسة الحرة الحكيمة حتى نعم هذا البلد الصغير باسم كبير . واصبحت صحف العالم تتحدث عنه ، واذا تحدثت فلا يقتصر على وصف محاسنه الطبيعية فقط وانما تتناول عمرانه وازدهاره ونشاط اهله . ولا شك ان ذلك يسر سائر البلاد الشقيقة لان لبنان بلد عربي ، واذا اثنى احد عليه فانما يعود الثناء الى العالم العربي قاطبة .

الدراسات العربية والاسلامية بالولايات المتحدة

بقلم روم لاندو
الاستاذ بجامعة فرنسيسكو
تعريب وتحليل الاستاذ محمد بن زيان

يقيم الآن بمراكش عاصمة جنوب المغرب الاستاذروم لاندو Rom Landau الكاتب الشهير المعروف بوفرة تآليفه حول المغرب فى العهود الاخيرة ، وخاصةبكتابه القيم حول جلالة محمد الخامس ، ومغرب ما بعد الاستقلال ، وقد القى فى الرباط محاضرة قيمةحول الاستشراق فى الولايات المتحدة ، وقد تفضل جنابه فخص المجلة بهذا البحث الذي نقدم عنهشاكرين هذا التحليل الضافي :

استهل الاستاذ محاضرته معتذرا عن عدم امكانه مخاطبة الحضور المغاربة بلغة الضاد التي يقول عنها انها اغنى واقدم بكثير من اللغتين : الانجليزية والفرنسية ، وانها هي اللغة المختارة التي تحققت بها معجزة القرءان الكريم فى عهد كان اهل انجلترا وفرنسا يتكلمون بلغات ولهجات لم يكن فى مستطاع مالرو او برنارشاو ، ولا فى مستطاع شيكسبير وفولتير ان يفهموا شيئا منها . ويزيد هذه الفكرة تأكيدا فيقول :

« اننا نحن الانجليز والفرنسيين لسنا سوى « اثرياء جدد » من الناحية الثقافية ، فى حين انكم (اي انتم العرب) تتوفرون على لغة عريقة ، وقد تركز وجودها منذ القرن السابع الذي لم تكن تعرف فيه لا الفرنسية ولا الانجليزية » .

ويعطي بعد ذلك بيانا عن الصعوبات التي يعانيها الباحث الذي يدرس الاستشراق فى الولايات المتحدة، خلافا لما يجده من السهولة وغزارة المادة متى قام بالبحث فى فرنسا او انجلترا معللا ذلك باسباب رئيسية ثلاثة وهي :

اولا : الغزو الاستعماري الذي جعل الانجليز والفرنسيين يوجهون عناية كبرى الى معرفة العرب والمسلمين ، وقد استولوا على معظم بلادهم فى القارتين الافريقية والاسيوية ، فدرسوا تاريخهم وحضارتهم وديانتهم ولغتهم ، وتكاثر عدد المستشرقين فيهم ، وظهر الاعلام والنبغاء ، الا ان معظمهم كانت لهم نزعات سياسية ، بينما لم يسبق للولايات المتحدة ان استولت على بلد عربي او اسلامي ، فلم تكن اذن في حاجة الى معرفة العالم العربي والاسلامي .

ثانيا : بعد امريكا عن البلاد العربية والاسلامية ومدى اتساع الولايات المتحدة التي تقدر المسافة فيها بين سان فرنسيسكو ونيويورك بخمسة آلاف كيلومتر وهي تقريبا المسافة الفاصلة بين باريز وموسكو او بين نيويورك والمغرب الاقصى . فليس غريبا اذن ان يكون

الامريكيون قد جهلوا حتى كلمة الاسلام الـذي كانوا يطلقون عليه عبارة « المذهب المحمدي » . وحسب المواطن الامريكي ان يسعى لمعرفة عالمه الخاص الشاسع الاطراف وهو يتكون من ثمان واربعين ولاية يختلف بعضها عن بعض فى شتى النواحي .

اما فرنسا وانجلترا فهما رقعتان صغيرتان جدا بالنسبة لذلك العالم الجبار .

ثالثا : اشتغال الولايات المتحدة باليابان والصين وروسية والمانيا . ويقول الاستاذ روم لاندو فى هذا الصدد ان الصين وحدها لها جالية بسان فرنسيسكو ، اصبحت عبارة عن اعظم مدينة صينية تعرف خارج بلاد الصين ، بينما لا يكون العرب والمسلمون فى الولايات المتحدة سوى اقلية ضئيلة جدا باستثناء الجالية اللبنانية التي استوطنت منذ امد بعيد هوليود ولوس انجليس ، وقد تألفت بصفة عامة من عرب مسيحيين وانطبعت بطابع امريكي صرف ، فلم يقم افرادها من جراء ذلك بالدعاية للعروبة ولا للاسلام طبعا كما يفعل لصالح بلادهم وتاريخهم وحضارتهم غيرهم من الصينيين واليهود والفرنسيين والالمان .

وبعد هذه المقدمة اشار الاستاذ روم لاندو الى انه قضى فى التدريس بجامعة سان فرنسيسكو اربعة عشر عاما ثم دخل الى صميم الموضوع فقال :

« لما وصلت الى سان فرنسيسكو لم يكن يوجد بها كرسي للتدريس خاص بالمغرب ، وكان اذ ذاك في مجموع الولايات المتحدة عدد قليل جدا من الجامعات التي تهتم بالاستشراق . وقد ادهشني الاقبال على دراسة الاسلام وعلى محاضراتي التي كانت هي الاولى من نوعها فى غرب الولايات المتحدة ، الواقع على ساحل المحيط الهادىء . وكانت محاضراتي فى موضوع الاسلام والمغرب العربي . والحقيقة انه كان يوجد بجامعة برينستون وهارفار واربع او خمس جامعات اخرى كرسي للاستشراق ، وكان بعض الاساتذة يعتبرون فى مستوى المستشرقين الانجليز او الفرنسيين .

« واني اشرع فى الحديث عن المستشرقين بذكر الحقيقيين منهم ، اي الذين وجهوا عنايتهم خاصة للقرءان .

« ولعلكم تعرفون **ليفي دولفيدا** (Lévi de Lavida) وهو من كبار المستشرقين الايطاليين ، وقد اشتغل بما سموه نقد القرءان ؛ وفيه نقد سام ونقد بسيط ، يتعلق بالتعبير والاسلوب .

واذكر لكم ايضا **أرثور جفري** (Arthur Jeffrey) الذي لقي حتفه منذ سنتين فيما اظن ، وكان استاذا للغات الاسلامية بجامعة كلومبيا فى نيويورك ، وقد ترك عن القرءان مؤلفات لا تخلو من الاهمية ، منها ترجمة لهذا الكتاب . الا ان اسم هذا الرجل بقي مجهولا خارج أوساط المستشرقين . ومنهم **ماك دونالد** (D. P. MacDonald) الذي اهتم خاصة بدراسة علوم الدين والفقه دون القرءان . فألف الكثير فى هذا المجال . كما نذكر فى طليعة الذين تخصصوا في الشريعة الاسلامية بالولايات المتحدة **مجيد خدوري** وهو عراقي الاصل وامريكي الجنسية . قام بتاليف عدة كتب ، نخص بالذكر منها تأليفه عن الشافعي . ونشير ايضا الى **الدكتور شاخت** (Dr Schacht) الذي نشط فى البحث عن اصول الشريعة .

« وان انتم سألتموني عن وجود علماء مستشرقين فى مستوى الذين عرفناهم بفرنسا او انجلترا اجبتكم بنفي وجودهم فى الحالة الراهنة ، اذا كنا نقصد الاساطين والاعلام امثال الفرنسيين **كارادوفو** (Cara de Vaux) **ودوسلان** (De Slane) **ومسنيون** (Massignon) **وهانري تيراس** (H. Terrasse) ان شئتم لتضلعه فى تاريخ الفن المعماري ، وكذلك **ليفي بروفانصال** (Lévy Provençal) ، وامثال المستشرقين الانجليز كالسير **هاملتون جيب** (Sir Hamilton Gibb) وهو من كبار المستشرقين المعروفين بالرصانة ، **ونيكولسون** (R. A. Nicholson) الذي امتاز بأعظم مؤلف عن تاريخ الادب فى العالم العربي ، **ومنغمري واطس** (Mongomery Watts) الذي الف كتابا عن حياة محمد فى مكة ، وآخر عنه فى المدينة بصرف النظر عن مؤلفاته العديدة فى علوم الدين والفلسفة ، وكذا الاندلس . ومن الذين اخصهم بالذكر فى هذا الصدد صديقي الاستاذ **اربيري** (Arberry) الذي لم يسبق لغيره فى تاريخ انجلترا ان جمع بين تدريس الفارسية والعربية ، وقد انفرد فى جامعة كمبريدج بهذين الكرسيين ، منذ خمسة عشر عاما ، وهو الذي اتحفنا بأبدع ترجمة انجليزية للقرءان ، كما نشر ايضا اكثر من خمسين كتابا ؛ من بينها ترجمات جديدة لما خلفه عمر الخيام بالاضافة الى تآليفه عن التصوف وعن ابن الرومي والشافعي ؛ كما قام بترجمة شعراء المغرب فى القرنين الرابع والخامس عشر وابن حزم والشعراء المحدثين المصريين .

« وهذه طبقة من المستشرقين لا وجود لمن يماثلها الآن فى الولايات المتحدة » .

ثم يواصل المحاضر عرضه عن تطور الاستشراق في هذه البلاد ، ويركز الكلام على ما سماه بالدراسات « الاكديمية » ، فيذكر ان الولايات المتحدة قد انشات كراسي لهذا النوع من التدريس في سبع عشرة جامعة، اشهرها : جامعة برينستون ، وشيكاغو ، وميشيكان ، وبالتيمور ، وبالاخص هارفار التي هي اقدم جامعة امريكية حيث انها اسست منذ سنة 1636 ـ اي بعد ان حل الانجليز بأمريكا بست سنوات . وكان المشرف اخيرا على الاستشراق في هذه الجامعة الهامة ، هو الاستاذ الانجليزي السير هاملتون جيب الذي لم يال جهدا في الاعتناء بنشر الثقافة والعلوم الاسلامية .

ومما يدل على هذا الاعتناء وكذلك على اقبال الامريكيين على الاستشراق ، ان السير هاملتون جيب طلب في سنة 1960 من الاستاذ روم لاندو ان يقدم من سان فرنسيسكو الى هارفار لالقاء محاضرة حول فلسفة ابن العربي ، فلبى الاستاذ الدعوة وقطع مسافة خمسة آلاف كيلومتر وتحدث امام عدد كبير من الاساتذة والطلاب المتقدمين ، ووجد من بين الحضور طائفة جاءت للاستماع والاستفادة من واشنطون ونيويورك ، وقد نظمت بعد المحاضرة حفلة عشاء القيت فيها الخطب « ولم يكن هذا كله لا على شرف كارل ماركس ولا شوبنهاور ولا ديكارت ولا افلاطون ، وانما كان على شرف فيلسوف يجهله المسلمون انفسهم على وجه العموم (كذا) » .

وبالاضافة الى الجامعات السبع عشرة المذكورة اشار المحاضر الى جامعة هارتفورد وهي مؤسسة دينية قديمة تمتاز بما تقوم به من النشاط في ميدان المقارنة بين الاسلام والمسيحية . كما لفت الانظار الى وجود قسم عربي في جامعة ماكسوال ولاية الاباما وهي مؤسسة انشئت في قاعدة خاصة للطيران ، وذلك زيادة على ما يوجد في الولايات المتحدة من مدارس عسكرية تقرر تعليم العربية فيها كمدرسة موتري بكاليفرنيا وغيرها . اما خارج الولايات المتحدة فقد اسست منذ قرن جامعة امريكية هامة في بيروت ، واخرى في القاهرة ، وثالثة في مدينة طنجة بالمغرب منذ ثلاث سنوات ، يقضي فيها الدبلوماسيون الامريكيون عاما او عامين ، وهم يعملون ستة ايام في الاسبوع ، وثمان ساعات في كل يوم .

ثم ان الحكومة الامريكية جادة في العمل على تشجيع دراسة اللغة العربية في المستوى الجامعي ، فبلغ عدد المنح المخصصة لذلك حاليا 900 منحة ، ولم يعرف لهذا القدر سابق .

ومواد التعليم في الاقسام العربية بالجامعات الامريكية هي العلوم السياسية والاقتصادية على وجه العموم ، علاوة على اللغة والتاريخ والفلسفة ، وكذلك الفنون ، وان كانت هذه الاخيرة تحتل في الحالة الراهنة مكانة تافهة .

وبناء على خبرته الواسعة في ميدان التدريس الجامعي بالولايات المتحدة ، يذكر الاستاذ روم لاندو ان طلاب هذه البلاد يتوقون الى الفلسفة اليونانية والارسطاليسية منها بصفة خاصة . وبما ان ابن رشد هو الذي يرجع له الفضل الاكبر في نقلها وتاويلها والتوسع فيها فانهم يهتمون به اهتماما شديدا ، وهو الناقل العبقري لعلم المنطق ، وواضع الاسس العلمية الكبرى التي كانت سببا لانطلاق النهضة الغربية ، وقد تطورت اوربا بعد ذلك حتى انجبت نيوطون وآينشتاين. كما يهتم طلاب الولايات المتحدة أيضا بسائر مفكري الاسلام وعلماء الطب والرياضيات .

ثم يعود المحاضر الى التعليم الجامعي ويذكر ابرز الشخصيات في مجال الاستشراق .

فمنهم الاستاذ فيليب حتي (Pihilip Hitti) اللبناني الاصل الذي انشأ القسم العربي بجامعة برينستون ، وهي الجامعة الكبرى التي قضى فيها آينشتاين السنوات العشر الاخيرة من حياته . اما فيليب حتي فانه معروف بكثرة ما كتبه عن لبنان وتآليفه في تاريخ العرب العام .

ومنهم الاستاذ الامريكي كارلتون كون (Carleton S. Coone) الذي يشيد به المحاضر باعجاب كبير ، ويقول عنه انه شغل كرسي علم الآثار والانسان في جامعة هارفار قبل ان يشرف على احد المتاحف الكبرى . ومن اهم مآثره ابحاثه القيمة وتآليفه العظيم عن البربر الذي يضعه الاستاذ روم لاندو في طليعة ما كتبه في هذا الموضوع العلماء الانجليز او الفرنسيون . وقد الف كتابا آخر بعنوان « القافلة » تكلم فيه عن البربر وعن الفرس والاتراك واليهود .

ومنهم الاستاذ كويلريونج (Cuyler Young) خلف الاستاذ حتي في جامعة برينستون ، وله دراسات خاصة عن تركيا .

ومنهم الاستاذ جورج رانتز (George Rentz) بجامعة ستانفورد الذي يتقن لغة الضاد اتقانا عجيبا وقد شارك في الموسوعة العربية بمقال رائع حول جزيرة العرب . وتوجد في نفس الجامعة الدكتورة كريستينة هاريس(Dr Christina Harris) ولها اختصاص في المسائل المصرية .

ومنهم الاستاذ الكندي كانتول سميت (Cantwell Smith) وهو مشتغل فى جامعة برينستون بدراسة الاسلام فى الباكستان .

ومنهم غوستاف فون كرونبوم (Gustave von Grunebaum) وهو يهودي الماني يشغل فى جامعة كاليفرنيا بلوس انجليس كرسي اللغة العربية .

ومنهم ويليام يال (William Yale) وسيدني فيشير (Sidney Fisher)

وفيما يخص خزانات الكتب فان للولايات المتحدة ثروة تضاهي ثروة استنبول ومدريد ، ويوجد اهمها بجامعات برينستون وهارفار ويال ، وهي غنية بالمخطوطات النفيسة والنادرة الوجود .

ومن جملة ما ينشر فى الولايات المتحدة مجلتان لا تقلان اهمية عن المجلات الانجليزية والفرنسية : احداهما ذات صبغة سياسية يصدرها بواشنطون معهد الشرق الاوسط اربع مرات فى السنة وهي ، وان كانت تحمل عنوان«مجلة الشرق الاوسط» فانها تشمل العالم العربي كله بما تدونه عنه من الاخبار التي تكاد تكون يومية ، الى جانب ما ياتي فيها من نقد للكتب المتعلقة بالاستشراق .

والثانية مجلة « العالم الاسلامي » التي تصدر فى هارتفورد ، ولها صبغة فلسفية ودينية .

ولقد عرفت الجامعات الامريكية طائفة من الاساتذة والكتاب العرب الذين استوطنوا الولايات المتحدة واتخذوا الجنسية الامريكية ، منهم الاستاذ خدوري العراقي الاصل ، والاستاذ حتي اللبناني ، اللذان سبق ذكرهما .

ومنهم الاستاذ شارل عيسوي بجامعة كلومبيا فى نيويورك ، والعراقي السيد محمد المهدي الذي كان يدرس اللغة العربية فى سان فرنسيسكو ، وهو الآن مشتغل بالقضية الفلسطينية التي يعد احد زعمائها في امريكا .

ومنهم الاستاذ الهواري السوري الذي يعمل بجامعة آن اربور (Ann Arbor) بولاية الميشيكان ، وقد قام بابحاث قيمة حول الغزالي .

ومنهم الاستاذ فائز الصايغ الذي الف كتبا عديدة فى مواضيع سياسية عربية .

اما المصنفات التي نشرت باللغة الانجليزية في الولايات المتحدة ، فنذكر من بينها مقدمة ابن خلدون فى ثلاثة اجزاء ، ورحلة ابن بطوطة ، وغير ذلك من التآليف التي الفها بعض المحدثين امثال طه حسين وعلال الفاسي الذي ترجم كتابه فى « تاريخ الحركات الاستقلالية فى المغرب العربي » وادريس الشرايبي الذي ظهرت طبعة امريكية لقصته الفرنسية « الماضي البسيط » ومحمد اقبال الفيلسوف الباكستاني الشهير الذي يتمتع بنفوذ كبير فى اوساط المستشرقين .

واما كتب خليل جبران فانها نقلت الى اللغة الانجليزية ولقيت اقبالا عظيما بحيث اصبحت تباع بمئات الآلاف ، ولا سيما كتابه المشهور الذي صدر تحت عنوان « النبي » .

وهناك كتب اخرى الفت حول المغرب العربي الا ان معظمها يمتاز بصبغة سياسية ، ونذكر من بين مؤلفيها السادة : دوكلاس اشفورد (Douglas Ashford) وشارل كالاغير (Charles Gallagher) ولورنا هاهن (Lorna Hahn) وريشار براس (Richard Brace) وداود كوردون (David Gordon) وشارل ستيوار (Charles Steward) وبول باولس (Paul Bowles) وهو امريكي يقيم بمدينة طنجة ، وقد نشر عدة قصص تتعلق بالمغرب والجزائر .

واخيرا اشار الاستاذ روم لاندو فى محاضرته الممتعة الى المراكز والاندية الاسلامية التي يقول عنها انها تركزت فى نحو عشرين مدينة امريكية ، وان المترددين عليها من مسلمين وغيرهم من الذين اعتنقوا الاسلام ينظمون الحفلات الدينية والمحاضرات ، كما يقيمون الصلوات فى مساجد شيدت لذلك ، ومن بينها خصوصا مسجد واشنطون الذي يمتاز بسعته واناقته وابهته .

دور العرب في تطور العلوم الطبيعية

للدكتور البير ديتريش
استاذ بالجامعات الالمانية وعضو
مجمع جوتنجن العلمي

القى الدكتور البير ديتريش Albert Dietrich محاضرة قيمة بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط اوضح فيها حضرته بايجاز الدور الهام الذي قام به العرب فى تطوير العلوم الرياضية والطبيعية فوضعوا بذلك الاسس الثابتة التي كانت منطلقا لازدهار العلم الحديث فى الرياضيات والفلك والفزياء والكمياء والطب والصيدلة .

والدكتور ديتريش شخصية بارزة فى الاستشراق ، وله اختصاص فى دراسات الفلسفة السامية وتاريخ العرب ، وقام بالتدريس فى عدة جامعات ومعاهد عليا ، منها جامعة هيدلبرج ، وجامعة جوتنجن فى المانيا حيث اصبح عضوا فى المجمع العلمي، كما قام بأبحاث شيقة ، منها دراسات حول الوثائق العربية فى اوراق البردي من القرن السابع الى العاشر، واصول الشريعة الاسلامية والعقاقير والطب عند العرب .

وقد تفضل حضرة الاستاذ فخص مجلتنا بهذا البحث القيم الذي ننشره له شاكرين .

كان الشرق سباقا الى وضع دعائم تطور العلوم، وذلك فى ما بين النهرين ومصر . ولا يختلف اثنان في أن اليونان باعثي فكرة العلم المسيطرة حتى اليوم ، اليونان الذين بلغوا بالعلوم الطبيعية الى مكانة انارت الطريق للاجيال اللاحقة ، قد اقتبسوا عن المصريين والبابيلونيين الكثير من علوم الرياضيات والفلك والطب، وبعد ان غشى الانحطاط اليونان هب الشرق، وقد دان بالاسلام ، فاستعاد مشعلها .

واما الاوربي الذي يحاول تقويم العلاقات الثقافية بين الاسلام واوربا ، فربما يبدو له الغرب بمظهر المعطي والاسلام بمظهر القابل ، وسرعان ما يفضح هذا الغرور بنظرة الى تاريخ العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب ، والحقيقة ان الشرق كان المعطي طوال العصور الوسطى والغرب القابل ، فان الصليبيين راوا باعينهم تفوق الحضارة الاسلامية على حضارتهم المسيحية . وقد اتسعت الاقطار لهذه الحضارة ، بعد فتوحات القرنين الاول والثاني للهجرة ، ففاقت دار الاسلام ملك الاسكندر ذي القرنين والامبراطورية الرومانية فى اوج عزهما ، اذ امتدت من الاندلس وشواطيء المحيط الاطلنطي الى الهند وآسيا الوسطى ومن جبال القوقاز الى بلاد السودان، ونعمت شعوبها بأمان المواصلات والتنقلات حتى بعد ان سقطت الخلافة سياسيا ، وقسمت المملكة الى دويلات وامارات متعددة .

وعجب العجاب ان هذه الحضارة قد طبعت بطابعها شعوبا مختلفة الاصل واللغة ، فيها العربي

والفارسي والتركي والقبطي والآرامي والاسباني والبربري وغيرها ، وهذه الحضارة ذاتها توطدت على عناصر متنائية كانت هي خلاصتها كالشرق القديم واليونان والنصراني واليهودي ، وعلى الاخص الدين الاسلامي ، دعوة النبي العربي . وكان هذا الدين وشريعته ، وكلاهما جاء بالعربية ، امتن وثاق واشد طابع التحم بهما قوام هذه الحضارة المتعددة الاوجه والواحدة معا .)

وبما ان العلم اتخذ في هذه الحقبة العربية لغته الوحيدة تقريبا ، وبما ان الاسلام جاء بلسان نبي عربي، صح لنا الكلام عن « العلم العربي » ، حتى لو كان دعاته ليسوا عربا فحسب ، بل فرسا واتراكا وسوريين وغيرهم .

قادتنا هذه المقدمة الوجيزة الى طلب موضوعنا. ولكي نلم ببعض ما ساهم به العرب في العلوم الطبيعية، اقترح تقسيم بحثنا الى نقاط ثلاث :

1 — طور ترجمة امهات العلم من اليونانية الى العربية .

2 — وصف انتقالها الى الغرب على ايدي العرب .

3 — الابتكارات التي تأتت عن العرب ، فتقدموا بها على من سبقهم .

ويمكننا وصف الطور الاول بالانفعال ، والثاني بالوساطة ، والثالث بالخصب والانتاج .

طور الترجمة :

منذ نهاية القرن الثاني للهجرة حتى نهاية القرن الرابع ، نشطت حركة النقل والترجمة في الاقطار الاسلامية ، لا سيما في بغداد مقر الخلافة العباسية . وقد عهد الى المترجمين بنقل أهم المؤلفات اليونانية الى العربية ، والتوفيق بينها وبين متطلبات الحضارة الفكرية الاسلامية ، وذلك في علوم اعتبرها العرب ذات اهمية وفائدة ، كالطب والفلك والجغرافيا والكيمياء والرياضيات ولاسباب سنأتي على ذكرها بعد حين ، الحقت الفلسفة بهذه العلوم ، وما عتمت ان اصبحت قبلة اهتمام المسلمين ، فأسرت انظارهم شخصية ارسطو طاليس، كما ترينا الشروح والتعليقات التي كتبت حول مؤلفاته في المنطق وما بعد الطبيعة . وللتبحر في فهم ارسطو طاليس قام العرب بنقل عدد كبير من كتب شراحه المتأخرين ، وفي حين لم يشغل افلاطون مكانة كبرى لديهم نجد أن افلوطين صاحب الافلاطونية الحديثة قد اتخذ عند الفلاسفة المسلمين مكانة عليا وفي الطب نقلت كتب ابقراط وجالينوس ، وديسقوريدس في هيولى الطب ، اي الصيدلة ، وفي الرياضيات آثر العرب كتاب « الاصول » ، اي اصول الهندسة ، لاوقيلدس ، وفي الفلك والجغرافيا لقيت كتب بطلموس القيمة كبير اهتمامهم .

ولا حاجة الى تعداد اسماء اخرى ، ولنتساءل الآن عن المبادىء التي قادت خطاهم في انتقاء ما نقلوه. لقد سبقت اشارتنا الى دافع المنفعة المرجوة منها. والعجب في أن هذا الدافع عينه ، كان الحافز القوي على اهتمامهم الزائد بالفلسفة اليونانية . ويزول عجبنا عند علمنا ان الطب ، في العصور القديمة ، بني على اساس الفلسفة . واما العرب ، فقد ارادوا تفهم المبادىء الفلسفية ، بغية التعمق في المصنفات الطبية ، فكان أن دخلت الفلسفة العالم العربي عن طريق الطب ، وما فتئت ان شملت باقي العلوم ، واخصها العلوم الدينية واللاهوتية ، فاستتب أثرها وعظم تأثيرها . اما نقلة الساعة الاولى فغير مسلمين ، بل اكثرهم من اتباع الكنائس المسيحية الشرقية ، لا سيما النساطرة السوريين . ثم انضم اليهم المسلمون الناطقون بالضاد، وتزعموا بعد حين حركة النقل والترجمة .

نقل الحضارة الى الغرب

وكانت هذه معالم الخطوة الاولى . اما في المرحلة الثانية ، وهي نقل هذه الحضارة الآمنة في حضن الاسلام الى الغرب ، فكان منها للترجمة والنقل ايضا الفضل العميم ، وذلك في مراكز مشهورة ، كسالرنو ونابولي في ايطاليا ، وبلرم في صقلية ، وخصوصا طليطلة في اسبانيا . وتم النقل من العربية الى اللاتينية ، لغة العلم الوحيدة في الغرب يومئذ ، مارا احيانا باللغة العربية لان النقلة لم يكونوا مسلمين بل معظمهم يهودا ونصارى . ويمكن القول بأن دور العرب في هذه المرحلة كان سلبيا ، لكن فضلهم الوافي انهم لم ينطووا على معارفهم بل فتحوا كنوزهم امام المتعطش الى المعرفة ، فأروا بذلك مثلا حيا للروح العلمية الحق . واول ما استرعى انتباه الغرب في تلك الحقبة ، اي في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد ، هي الشروح والتفاسير العربية لكتب ارسطو طاليس، لا سيما تآليف اعلام الفلسفة الاسلامية الثلاثة ، وهم

الفارابي فى القرن الرابع الهجري وابن سينا فى القرن الخامس ، وابن رشد فى القرن السادس . وكفى ذكر هؤلاء ، لان مؤلفاتهم المنقولة الى اللاتينية ، اضحت نقطة انطلاق العصر الذهبي فى الفلسفة المدرسية في اوربـــا .

وفى الطب لدينا شاهد، واقرب منالا من الفلسفة، على مدى تأثير الحضارة الاسلامية فى الغرب . فكان كتاب « القانون فى الطب » للفيلسوف الطبيب ابن سينا ، عمدة الطب العلمية واساسا لتقسيمه فى الغرب، وقد بقي طوال خمسمائة سنة ، النص المعتمد عليه فى كليات الطب الاوربية . واتبع ابن سينا فى قانونه اليونان ، فجمع تعاليمهم ، لا سيما تعاليم جالينوس ، ثم نسقها فى منهج شاف ، وحذا حذوه باقي الاطباء العرب ، مرددين دوما انهم يتبعون « القدماء » اي اليونان . ولا شك ان هذا قد سهل على اوربا القرون الوسطى الركون الى الطب العربي .

اما فى علم الرياضيات ، فاوربا مدينة لاشهر ممثليه بين المسلمين ، وهو الخوارزمي مبتكر علم الجبر ، وناشر الارقام الهندية التي تدعى فى الغرب « الارقام العربية » حتى اليوم . واما علم الطبيعيات ، فقد درس مؤلف العلامة ابن الهيثم ، المسمى « كتاب المناظر » ، فى مدارس اوربا حتى القرن السابع عشر . وقد اكتسح الغرب علم الفلك الاسلامي ، القائم على تعاليم بطليموس ، وكون فيه صورة العالم السماوي حتى ظهور كوبرنيكوس .

ويخطيء من يقول ان المسلمين اكتفوا بالاقتباس عن اليونان تراث حضارتهم وبحمله كما هو الى الغرب، وسنرى فى سياق بحثنا انهم زادوا الكثير عليه من ثمرة خبرتهم . ومما لقوه خارج بلادهم لا سيما في الهند. وكونهم تتلمذوا لشعب مبارك كالشعب اليوناني لا يحط من كرامتهم بل يعلى شان حضارتهم فيه كتب لهم ان يتفوقوا على الاوربيين بمراحل ويسبقوهم بأجيال . وهم انفسهم يدعون حفظهم الامين لآراء القدماء مما لا يعني انهم لم يكملوها فى وجهات عدة . ففي بدء القرن الخامس للهجرة يوضح احد كبار العلماء المسلمين ، وهو ابو الريحان البيروني ، أولى شروط الابحاث العلمية ؛ فيعدد منها المداومة على العلم منذ الحداثة ، وتلقن اللغات ، وطول العمر ، ووفرة المال للقيام بالرحلات العلمية وشراء الكتب والادوات اللازمة ، ثم يزيد قائلا : « من النادر ان تتوفر جميع هذه الشروط لدى شخص واحد فى ايامنا ، لذا وجب ان نحصر اهتمامنا فى الاطلاع على ما وصل اليه الاقدمون ونسعى لتكميله حيث امكن ذلك . فان الاعتدال فى جميع الامور ممدوح ، اما من حاول فوق طاقته فقد جنى على نفسه وعلى ممتلكاته .

هذا ، وفضل المسلمين على تاريخ الفكر البشري، انهم حفظوا ذلك التراث الثقافي ونشروه فى الاقطار ، انما هذا نصف الحقيقة فقط ، ونصفها الآخر هو ما سبق تنويهنا به ، وما سيشغل بحثنا الآن اي **ابتكاراتهم فى العلوم الطبيعية** . وقد عززت هذه الابتكارات عوامل تاريخية لابد من ذكر بعضها . اولا : نشوء امارات عديدة بعد ان فككت عرى وحدة الخلافة العباسية ، فراح الامراء يتفاخرون بتزيين عواصمهم بحلية الحياة الفكرية . فلم تعد بغداد وحدها مركز الانتاج العلمي بل ازدهرت الى جانبها مراكز اخرى ، كغزنه وسمرقند ومروطوس ونيسابور والري واصفهان وشيراز فى ايران ، والموصل فى العراق ، ودمشق فى سوريا ، والقدس فى فلسطين ، والقاهرة فى مصر ، والقيروان وفاس ومراكش فى افريقيا الشمالية ، وطليطلة واشبيلية وقرطبة وغرناطة في اسبانيا . واما العامل الثاني فهو فريضة الحج ، اذ ان تلاقي العلماء اثناءه قد وطد التعارف بينهم ، وجمعهم من مختلف الانحاء، وعزز الرباط بينهم بتجدد اداء هذه الفريضة ، وكانت تقام اثناء الحج المحاورات العلمية ، وتنقل المخطوطات ، ويدرس العلماء على أيدي غيرهم ، ويؤلفون مصنفاتهم . فانتشر بذلك العلم بسرعة فى انحاء دار الخلافة ، وكثر الاهتمام به والوعي لاثمار جديد ؛ على ما حدثنا البخاري فى « صحيحه » حين يقول : « ليبلغ الشاهد الغائب ، فان الشاهد عسى ان يبلغ من هو اوعى له منه » .

وهنا نرجع فنقول : ان العناية الكبرى التي اولاها العرب التراث اليوناني لم تمنعهم من اخصابه بمعارفهم الجديدة والتفوق عليه ، لا سيما بكمية ما احدثوه . فعندما نقل العرب عن الهنود النظام العشري وكملوه بلغوا به درجة جعلتهم يعتبرون بحق مؤسسي علم الحساب . وقد نهضوا بعلم الجبر أيضا الى مستوى علم دقيق ، ووضعوا أساس الهندسة التحليلية ؛ وكانوا اول من تعاطى علم المثلثات الكروية. وفى مجال الطب يعجز عد ابتكاراتهم لا سيما فى علم الادوية والاغذية والادوات الطبية . وفى علم الفلك توفرت لهم مراقبات جديدة ، كما قاموا باختبارات فى علم الكيمياء تكاد تكون من العصور الحديثة . ثم قوموا علم المناظر ووسعوا افق الجغرافيا بشكل غير منتظر. هذه هي مآثر باهرة جعلت الحضارة الاسلامية تتولى

زعامة الحياة العلمية منذ منتصف القرن الثاني حتى اواخر القرن الخامس الهجري . وفيها لم تكن اللغة العربية لغة القرءان والتفسير والحديث والفقه فحسب بل اضحت لغة للعلم غير منازعة .

واذا قابلنا بين العالم الاسلامي والعالم الغربي في النصف الاول من القرن الحادي عشر الميلادي اقتبسنا من ذلك عبرة . قد ازدهرت آنئذ في القاهرة مدرسة للرياضيات عرفت شهرة واسعة على يد ابن يوسف الفلكي وابن الهيثم الفزيائي . وعاصرهما في بغداد الكرخي الرياضي في اوج خصبه الفكري ، وفي ايران ابن سينا ، وفي افغانستان البيروني . وراح هؤلاء العلماء وامثالهم في هذه الحقبة يجابهون اصعب مشاكل الهندسة اليونانية ، ويقدمون حلولا للمعادلات المكعبة مستعينين بقطع المخروطات ، عاكفين على درس الاشكال الهندسية كالمثمن وذي التسعة اضلاع المتساوية الزوايا . فتقدموا بعلم المثلثات الكروية والهندسة التحليلية وغيرها اشواطا . واما في الغرب فلا نجد في هذه البرهة من الزمن سوى مقالات مقتضبة شحيحة الفحوى ، تدور حول الروزنامة واستخدام الالواح الحسابية وما شابه ذلك ، وقد حفظ لنا التاريخ مراسلة بين عالمين غربيين من سنة 1065 ميلادية تكفي للشهادة على فقر العلماء آنئذ ، لان مستواها العلمي أكثر ما يقال فيه انه احرى بالعصور السابقة لفيثاغورس ، فكأني بها ترجع الى مستوى الحساب الذي يداوله سكان مصر القديمة قبلهم بسبعة وعشرين قرنا .

مآثر العرب في العلوم الطبيعية

هذا وليست غايتي ان اقدم لحضراتكم قائمة بمآثر العرب في تاريخ العلوم الطبيعية ، فلن يفي بحقها مجلد ضخم ، لذا عمدت ، فيما تبقى لي من الوقت ، الى امثلة بدت لي شديدة الاهمية .

يعي كل تلميذ ، منذ حداثة سنه ، الفرق بين الارقام الرومانية والارقام العربية ، وهو لا يرى عجبا في استعمال الارقام العربية في العمليات الحسابية ، ولن يخطر بباله الاستعاضة عنها بالارقام الرومانية ، حتى في اسهل العمليات ، كالجمع والطرح والضرب والقسمة ، ولكن قل من يعي المجهود العقلي الجبار الذي سبق ابتكار هذه الارقام ، وجعلها اساسا لعلم الحساب . اما الحدث الحاسم في هذا التطور ، فهو ابتكار الصفر . اذ به اعطيت للارقام قيمة حسابية ، فكان اول مقدمات تطور الرياضيات فيما بعد ، ولا شك ان خطورة هذا الحدث وبعد تأثيره يبرران البحث في تاريخه .

ان ما سماه الغرب « الارقام العربية » ، كما سبق القول ، ليست عربية الاصل حقا . وقد حملت النزاهة العلمية العرب على ان لا يتعدوا بنسبة هذه الارقام الى انفسهم . فالمسعودي ، المؤرخ البغدادي ، الواسع العلم ، يخبرنا ان سكان الهند ، كانوا قديما اكثر سكان الارض تمدنا وارفعهم اخلاقا . ساد بينهم النظام ، وتملكت في ديارهم الحكمة . وانه بامر من ملكهم براهمان الكبير اجتمع نخبة من العلماء، لتصنيف ابحاث قيمة في علم الفلك . وهؤلاء العلماء هم الذين ابتدعوا نظام الارقام التسعة المعروف بالنظام الهندي. وبعد المسعودي بقليل الف ابو عبد الله محمد الخوارزمي أول دائرة معارف لعلوم عصره ، وسماها « مفاتيح العلوم » . وفي باب الحساب من هذه المجموعة يروي لنا الخوارزمي ان قوام النظام الهندي تسعة ارقام ، يضاف اليها الصفر ، فتتسع للتعبير عن اعداد لا نهاية لها . ويزيد ان هذا النظام لم يلق في عصره رواجا ، لان علماء الفلك يومئذ قد آثروا النظام التقليدي ، المبني على الحروف الابجدية ، وهو النظام الذي سماه العرب حساب الجمل . وقد اعتبر النظام العددي الجديد اولا دخيلا مستنكرا ، ولم ينتشر الا ببطء ولعل السبب في ذلك انه كان بادىء الامر سرا وقف عليه القليلون ، وان علماء الفلك اكتفوا بالنظام التقليدي ، الوافي بحاجتهم في حساب الدرجات والدقائق والثواني . وهذا ما يشير اليه الخوارزمي حين يقول :

« حساب الهند قوامه تسع صور يكتفى بها في الدلالة على الاعداد الى ما لا نهاية له ، واسماء مراتبها اربعة ، وهي الآحاد والعشرات والمئون والالوف : فالواحد يقوم مقام العشرة ، ومقام مائة ، ومقام الف ، ومقام عشرة آلاف ، ومائة الف ، والف الف الى ما لا نهاية له من العقود ، ويقوم الاثنان مقام العشرين ، ومقام المائتين ، ومقام الالفين ، والعشرين الفا ، والمائتي الف ، والالفي الف ، وكذلك سائر العقود على هذا القياس ... وانما يعرف ذلك بمراتب الوضع ... والدوائر الصغار تسمى الاصفار ، توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها اعداد » .

الى هنا كلام مؤلف الموسوعة . اما كلمة «صفر» العربية فتعني « فارغ » او « عديم الوجود » ، وهي

مرادفة لقيمة الصفر الحسابية الذي يشغل مكانا فارغا في سلسلة الاعداد . واما « صفر » فهي ترجمة حرفية للعبارة الهندية « شونيا » اي «فارغ»، التي دل بها الهنود على مكانة الصفر في علم الحساب. واما الدائرة الصغيرة المذكورة التي كانت شكلا للصفر ، فاصبحت عند العرب نقطة . فدرجت عند العرب عامة كصورة للصفر . **واقدم وثيقة خطية عن تداول الارقام الهندية في الشرق الاسلامي ، هي بردية عربية كتبت في مصر عام 292 للهجرة . لكننا نعرف من موضع آخر أنها درجت في الاوساط العلمية قبل هذا التاريخ بنصف قرن تقريبا ، سنة 236 . وذلك بشهادة ما وصل الينا من أقدم كاتب حفظت مؤلفاته الرياضية العربية ، وهو العالم الايراني محمد بن موسى الخوارزمي** . ولنقف قليلا بصحبة هذا العالم ، فاسمه وكتبه لا تزال حية في عرف اللغة حتى ايامنا الحاضرة .

لقد ترعرع الخوارزمي وسط مجتمع متعطش للعلم ، ينهله من كل صوب وعند كل امة ، ثم التحق بنخبة من العلماء في مكتبة بيت الحكمة ، الذي اسسه الخليفة المامون في بغداد ، ليصنف ابحاثه القيمة في علمي الفلك والجغرافيا . وبين مؤلفاته كتابان توجه بهما الى عامة الناس ، عنوان أحدهما « كتاب الجبر والمقابلة » ولا يخفى ان كلمة « الجبر » هي اصل التعبير Algèbre الذي اقتبسته اللغات الاوربية وقد ضمن الخوارزمي كتابه هذا مبادىء علم الجبر حتى حل المعادلات من الدرجة الثانية .

اما الكتاب الثاني فانه فقد في أصله العربي ، وحفظ في ترجمة لاتينية ، ترجع الى القرن الثاني عشر الميلادي بعنوان Algenithmi de numéro Indorum كتاب الخوارزمي في الارقام الهندية . والف الخوارزمي هذين الكتابين بطلب من الخليفة المامون. وقد اراد الخليفة بهما ترسيخ الحساب الهندي في عقول رعاياه ، ليسهل عليهم تصفية أمورهم ، كتقسيم الميراث ، وحد الاوقاف ، وقسمة الممتلكات، وحل القضايا الشرعية ، وتبادل العملة ، ومسح الاراضي ، وبناء السدود ، وما شابه ذلك . فكان امر الخليفة حقا عملا عمرانيا جبارا ، لباه الخوارزمي بنوع كفى حاجات العصر ووفى بها . فبعد ان وصف طريقة كتابة الاعداد بالارقام الهندية ، شرح بالتفصيل عملية الجمع ، لا سيما حالة تفوق مجموع اعداد الآحاد الباقية في مرتبة الآحاد . « اما اذا لم يبق عدد معين في هذه المرتبة » ـ هكذا يلقن المؤلف قارئه ـ « فضع فيها دائرة كي لا تبقى فارغة . وهذا امر لازم كي لا تنقص المراتب بفراغ واحد منها فتؤخذ المرتبة الثانية بمكانة الاولى » .

وقد قلنا آنفا ان هذه الدائرة دعيت بالعربية « صفرا » اي فراغا . وعنه اقتبست اللغات الاوربية كلمات Cifra, Chiffre وعرف الغرب مؤلفات الخوارزمي ، وبها الارقام الهندية ، منذ القرن الحادي عشر الميلادي . فان اعتناق هذه الارقام واصلاحها ونقلها الى الغرب هي مأثرة ثقافية باهرة كتبها العرب لانفسهم ، وخلدت في تاريخ الحضارة بخلود العلم ، والحياة اليومية تذكرنا دوما بذلك ، فكيف نتصور اليوم دليل الهاتف ، او الروزنامة او حسابا ، او كتابة فاتورة ، او غيرها دون الارقام العربية ؟

وللعلماء المسلمين طول الباع في علم المثلثات السطحية والكروية ، الذي لم يعرفه اليونان بالحصر، لان علماءهم لم يتوصلوا الى نهج معرفة اضلاع المثلث وزواياه على اساس معطيات ثلاثة . واما المسلمون فهم اول من استعان بالجيب وظل الزاوية Sinus و Tagente كمقدرات لحساب المثلثات ، فوضعوا بهذا ، الشروط الاساسية لتكميل علم الفلك والملاحة والمساحة . وقد بلغ هذا العلم اوجه في القرن السابع للهجرة ، على يد رياضي عبقري فارسي الاصل ، كان وزير مالية هولاكو المغولي هو نصير الدين الطوسي المدعو « بالمحقق » . فكتابه المعنون « الشكل القطاع » قد حوى من المعارف ما لم يصل اليه الغرب الا بعد اجيال ، وذلك أن الغرب في بادىء الامر لم يتقبل علم المثلثات عن الطوسي مباشرة بل تقبله عن السابقين له الذين لم يبلغ مستوى تآليفهم مستوى ابحاث الطوسي ، فيعالج عالمنا في الكتب الاربعة الاولى ، مسائل عامة تتعلق بحساب المثلثات كما عرفها « الاقدمون » ، وبالاخص بطليموس ، مبينا ان هذا لم يستوعب جميع حالات توحيد الاقواس ، وفي الكتاب الخامس الموازي حجما للكتب السابقة معا ، يعكف الطوسي على صلب علم المثلثات الحقيقي ، وذروته معالجة قضية الجيب الكروية ، وتقديم الحلول الشافية .

علم الفلك

وننتقل الآن من علم الهندسة الى علم الفلك ، فنذكر قبل كل شيء محمد بن جابر البتاني ، الذي عاش ما بين القرنين الثالث والرابع للهجرة . واتبع هذا

العالم الشهير مؤلف بطليموس فى الفلك ، مصلحا لآراء من سبقه ، كثابت بن قرة والخوارزمي بمراقباته الخاصة ، معتمدا على بعض القواعد من علم المثلثات تظهر هنا لاول مرة . واما اهم مؤلفاته ، فهو كتاب « الزيج » بالفارسية ، اي الجدول بالعربية . ويصف البتاني غرضه فى المقدمة قائلا :

« اني لما اطلت النظر فى هذا العلم ، وادمنت الفكر فيه ، ووقفت على اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم ، وما تهيأ على بعض واضعيها من الخلل فيما اصلوه فيها من الاعمال ، وما ابتنوها عليه ، وما اجتمع ايضا فى حركات النجوم على طول الزمان ، لما قيست ارصادها الى الارصاد القديمة ، ... اجريت فى تصحيح ذلك واحكامه على مذهب بطليموس فى الكتاب المعروف بالمجسطي ، بعد اتمام النظر وطول الفكر والرؤية ، مقتفيا اثره متبعا ما رسمه ، اذ كان قد تقصى ذلك من وجوهه ، ودل على العلل والاسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعددي الذي لا تدفع صحته ، ولا يشك فى حقيقته. فامر بالمحنة والاعتبار بعده ، وذكر انه قد يجوز ان يستدرك عليه فى ارصاده على طول الزمان ، كما استدرك هو على ابن خس وغيره من نظرائه لجلالة الصناعة ، ولانها سمائية جسيمة ، لا تدرك الا بالتقريب » الى هنا كلام الفلكي .

ووقف البتاني على مجموعة من الادوات مدهشة عددا وحجما ، منها اسطرلابات ، وراصدات فلكية ، وآلة خاصة لتحديد زاوية ارتفاع الشمس ، وكرة سماوية ، وساعات شمسية افقية وعمودية . وقد توصل الى دقة مذهلة فى مراقبته للاجرام السماوية ، مما احله فى ذروة الشهرة . وحين نقل مؤلفه الى اللاتينية ، اثار الاعجاب فى انحاء اوربا .

وهنا لابد من الكلام عن مشكلة علاقة الشمس بالارض . فقيل ان عالما يونانيا ، من القرن الرابع قبل الميلاد، اثار لاول مرة فى التاريخ، قضية فحواها ان الارض تدور حول الشمس ، ثم جاء بطليموس بعده بخمس مائة سنة تقريبا ، فاقر العكس وجعل الشمس تدور حول الارض ، ورغم انه كان مخطئا فى رايه ، فان سلطته العلمية قد اقنعت الانسانية مدة اربعمائة والف 1400 سنة بذلك ، الى ان جاء كوبرنيكوس ودحض نهائيا زعم بطليموس . ولكن قبل كوبرنيكوس بأجيال ، حمل ابو الريحان البيروني بالشك على صحة قول بطليموس ، اذ قال فى « تاريخ الهند » بعد ان عرض آراء بعض علماء الفلك الهنود فى دوران الشمس حول الارض ، ما يلي :

« ليست حركة الارض دورا بقادحة فى علم الهيئة شيئا ، بل تطرد امورها معها على سواء ، وانما تستحيل من جهات اخرى ، ولذلك صارت اعسر الشكوك فى هذا الباب تحليلا ، وقد اكثر الفضلاء من المحدثين بعد القدماء الخوض فيها وفى نفسها ، ونظن انا قد اربينا عليهم فى المعنى ، لا الكلام ، فى كتاب « مفتاح علم الهيئة » .

وجدير بالذكر ان احد علماء المغرب ، وهو ابو علي الحسن المراكشي ، قد الف ، بعد البيروني بمائتي سنة، كتابا عنوانه : « جامع المباديء والغايات، فى علم الميقات» تكلم فيه عن اسطرلاب بني على اساس تعاليم البيروني القائل بدوران الارض حول الشمس، وثبوت الاجرام السماوية ، ما عدا الكواكب السيارة السبعة . ويزيد هذا العالم بقوله : ان البيروني مخطيء ، **والاصح ما أقره قبله الرازي وابن سينا من ان الشمس تدور حول الارض** . فنرى على كل حال من خلال ذلك ، ان قول بطليموس ، رغم انتشاره وعمق تأثيره ، لم يأسر عقول جميع العلماء المسلمين، وقد سبق ان شك بعضهم فى صحته قبل كوبرنيكوس بأربعمائة سنة .

وقد تتلمذ الغرب فى الفلك لمعلم آخر ، هو ابن الهيثم اول من قال بأن جميع الاجرام السماوية ، حتى الكواكب الثابتة ، ترسل نورا خاصا بها ، ما عدا القمر ، الذي يتقبل ضوءه من الشمس . وكانت هذه النظرية مفتاح اكتشاف آخر اهم ، اقتبسه الغرب عن « اشعة النظر » نحو الشيء الذي تراه . فخالف العالم العربي هذا التعليم قائلا : ان هيئة الشيء المرئي هي التي ترسل الاشعة نحو العين ، فتتقبل العدسة شعاعها . فلم يكن ابن الهيثم قلب نظريات الاقدمين فى خواص الحواس والنور رأسا على عقب فحسب ، بل انه اضحى مبدع هذا القانون الطبيعي، الذي اثبتت صحته التجربة . وبذا وفق ابن الهيثم الى الجمع بين المعرفة النظرية والتجارب المنسقة ، اي « الاختبار » .

وهنا نصل الى نقطة اساسية لا بد لنا من الوقوف عندها برهة من الزمن ، وهي ان اهم ما ادركته العصور الوسطى فى العلوم الطبيعية ، ربما هي مباديء البحث التجريبي ، فبين الطرق العديدة التي اتبعتها هذه العلوم ، كالمراقبة والقياس والعد

والاستقراء والاستدلال والتجربة ، احتلت التجربة مكانة رفيعة ، وهنا كان المسلمون سباقين اذ وضعوا اسسها قرب نهاية القرن الخامس للهجرة، ثم تلقتها اربا عنهم وبلغت بها الى المقام الذي هي عليه اليوم. واعجابنا بالعلوم اليونانية ، يجعلنا نقف حيارى أمام الفراغ الذي يغشى بعض طرقهم ، لا سيما واننا نرى ان علماءهم اتبعوا طريقة التجربة بديهيا ، لكنهم لم يوفقوا الى جعله منهجا تاما ، او قاعدة تسير خطاهم بأمان . وقد تطور هذا المنهاج شيئا فشيئا على ايدي علماء الكيمياء والمناظر العرب ، ثم على ايدي علماء الفيزياء والميكانيكا المسيحيين ، وبقيت فيه نقائص منعته من ان يبلغ الذروة التي اكتسبها ، في القرن السادس عشر الميلادي ، عند الفنان والبحاثة الايطالي المشهور ليونار دوفنسي Léonard de Vinci ثم بعده بقرن عند مواطنه غليلي Galilée الايطالي ايضا . فهذان العالمان جعلاه منهج العلوم الطبيعية غير المنازع ، كما لا يزال الامر حتى ايامنا الحاضرة . الا ان ذلك لا يخفى ما كان للعلماء المسلمين في القرون الوسطى من فضل يعتبر اساسا لكل كمال.

الطب العربي

ولا شك ان العلوم الطبيعية العربية ، عرفت شأو كمالها في الطب ، فكانت له مكانة لا تنازع ، وللاطباء كرامة لا تمس . وقد وجهت عناية خاصة لجمع اخبار الاطباء ، نتجت عنها الكتب العديدة في سيرهم ، « ككتاب طبقات الاطباء والحكماء » لابن جلجل ، و « كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء » لابن القفطي ، ولا سيما « كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة . وعندما انتشر الطب العربي في الغرب ، تداولته ايدي العلماء وعقولهم حتى أن اسماء اطباء كالرازي وابن سينا وغيرهم ، اشتهرت في اوربا كشهرتها في دار الاسلام ، وذلك ان طب الغرب في تلك الآونة ، كان يقتات من فتات اهتمام العلماء ، ويحتل آخر درجة في برامج التدريس في الاديرة ، عكس ما كان عليه في الاسلام . ولقد ارتكز الطب العربي على مؤلفات اليونان التي تشربها الاطباء العرب ، فأثمرت وترعرعت على ايديهم .

وقد اهتم العرب بشؤون المارستانات (المستشفيات) فجعلوها مثالا للقرون التابعة . فقيل ان مدينة قرطبة في منتصف القرن الرابع الهجري تفوقت على بغداد بعدد مستشفياتها ؛ اذ وجد فيها ما لا يقل عن خمسين مستشفى . وبنيت دور المرضى هذه في انقى مواقع المدينة وجهزت بالمياه الوفيرة لاجل الحمامات ... وقيل عندما تقرر بناء مستشفى في بغداد عهد الى الرازي باختيار الموقع المناسب . فوزع هذا في جميع انحاء المدينة قطعا من لحم الغنم الطري وامر بتعليقها في الهواء الطلق طوال يوم بكامله ، ثم جمعها وتفحصها وحيث تبين اطهرها ، اي حيث ظهر انقى هواء في المدينة ، امر ببناء المستشفى الذي عمت شهرته في الخافقين .

وكانت المستشفيات غنية الموارد مجانية ، تفتح ابوابها للجميع من فقراء واغنياء ، فان الاوقاف التي كانت تكتب لها حال تأسيسها، وفت بتكاليفها الباهظة. اما رئيس الاطباء ، فكان ينتخب من بين اطباء المستشفى وذلك باجماع زملائه . ويخبرنا ابن أبي اصيبعة عن ابن المجد بن أبي الحكم رئيس اطباء المارستان النوري وهو المستشفى الشهير الذي بناه نور الدين محمود ابن زنكي في دمشق ، عن تفاصيل نهار رئيس الاطباء ، فيقول :

كان ابو المجد يدور على المرضى بالمارستان ، ويتفقد احوالهم ويعتبر امورهم ، وبين يديه المشارفون والقوام بخدمة المرضى ، فكان جميع ما يكتب لكل مريض من المداواة والتدبير ، لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك . قال : كان بعد فراغه من ذلك ، وطلوعه الى القلعة وافتقاده المرضى من اعيان الدولة ، يأتي ويجلس في الايوان الكبير الذي للمارستان ، وجميعه مفروش ، ويحضر كتب الاشتغال ، وكان نور الدين رحمه الله ، قد وقف على هذا المارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت في الخرستانين اي خزانتي الكتب اللذين في صدر ايوان ؛ فكان جماعة من الاطباء والمشتغلين يأتون اليه ، ويقعدون بين يديه ، ثم تجري مباحث طبية ، ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب الى داره .

واعتنى المسلمون عناية خاصة بالشؤون الصحية، **فمن الخطأ الاعتقاد بان الرياضة وتمارين تقوية البدن هي ابتداع عصرنا الحديث** . فابن سينا مثلا يعالج في قانونه التمارين الرياضية ، والتغذية والرقاد ، وهو يحدد التمرين الرياضي بأنه حركة طوعية يقوم بها الجسم كي ينعش التنفس ، وهو جزء جوهري من العلاج شريطة أن يقام به تحت عهدة طبيب وبنوع ملائم . ويقسم ابن سينا هذه التمارين الى خفيفة وثقيلة، سريعة وبطيئة ، ونادرة او متكررة . والتمارين

السريعة هي المبادرة في الركض والملاكمة والسير بعجلة ورمي القوس او الرمح واللعب على الآلات الرياضية والقفز على ساق واحد ، والمثاقفة بالسيف او بالرمح ، وركوب الخيل ، والمشي على اطراف اصابع القدم مع تحريك الذراعين . اما التمارين البطيئة فهي التأرجح وركوب الخيل او العجلة ، والسير بها على مهل . والتمارين الثقيلة او الصعبة هي الركض السريع على مسافات معينة ، والمباراة بالايدي او الاكواع ، والعاب الكرة او المضرب والمصارعة ورفع الاثقال ، وسباق الخيل ، وما شابه ذلك . والمهم في كل ذلك ان تراعى مقدرة كل فرد وبنيته وتقسم التمارين تقسيما حكيما لتأتي بالنتيجة المرغوبة .

وبعد هذا ينتقل ابن سينا الى الكلام عن المعالجة بواسطة الحمامات الصحية والتمسيد ، ثم المعالجة بالماء البارد . اما الحمام الساخن فيجب أن ينتج اعتدال الحرارة والرطوبة ، وان لا تطول مدته ، وان تفرق بينه وبين التمارين الرياضية مدة من الزمن . وقال ان حمام الماء البارد لا يواتي الا الاصحاء فقط ، لا الكهول او الاطفال . وقد يؤخذ الحمام البارد بعد الساخن فيقوي البشرة ويحفظ للجسم حرارته . اما التمسيد قبل الحمام فيجب ان يكون قويا يعقبه حالا الغوص في الماء حتى الرقبة مدة ان يالف الجسم حرارة الماء دون ان يقشعر . وبعد الخروج من الماء تؤخذ كمية وافرة من الطعام ويقلل تناول السوائل . وعلى الممرض الانتباه الى المدة اللازمة لتعود الى الجسم حرارته العادية ولونه الطبيعي ، فاذا تم ذلك بسرعة كان العلاج مواتيا والا وجب تقصير مدة الحمام . اما صحية العلاج بالماء البارد فتعرف اذا ادفن الجسم من الداخل الى الخارج وشعر الانسان باستراحة ورخاء . نقف عند هذا الحد وقد تأكدنا من ان العرب بنوا علم الصحة على مباديء سليمة وعرفوا طرق علاج علمية اكسبتهم اياها خبرة الحياة وقربهم مما لا نزال نقوم به في ايامنا الحاضرة .

ولنلق الان نظرة على **الجراحة في الطب العربي** . يقول محمد بن زكرياء الرازي في مقالته « في الحصى في الكلى والمثانة » ما يلي :

« من الامارات الدالة على ان الحصاة قد بدات تجمع صفاء البول بعد الكدر والثقل الرملي وثقل في البطن وتمدد حتى لكان شيئا معلقا منه وخاصة اذا انبطح العليل » .

ويوضح الرازي ان العلامات المذكورة هي العلامات العادية الدالة على الحصاة والامساك والقرحة في الكلى. ثم يفحص اطوار المرض ويذكر الادوية التي تمنع تكون الحصاة او التي تكسرها . وبعد ذلك يعدد الادوية المسكنة للوجع والعلاجات لابعاد الحصاة . ومن المبين ان الرازي يقف من المرض قبل كل شيء وقفة طبيب ، فلا يعمد الى العملية الجراحية الا عندما تنفد جميع حيل العلاج ويصبح الوجع غير مطاق بحيث يشكل خطرا على حياة المريض .

واما تشريح جثة الانسان ، فلم يسمح به الدين الاسلامي ولا الدين المسيحي في البدء . فان الجثمان ومراسيم الدفن من القدسيات ، ولم يجرؤ احد على الخروج عن هذا الاعتقاد . اما في العالم اليوناني والعالم الروماني ، فلم يكن الجثمان محاطا بهذا الاحترام ، ومع ذلك عندما اراد جالينوس ، ان يتبحر تلامذته في علم التشريح ، اشار عليهم بالاستعاضة عن الجثمان بجثث الحيوانات ، لا سيما السعدان . ولكن لم تكن تعدم الفرص التي تسمح بفحص جسم الانسان عن كثب، فان هياكل الاناس التيعثر عليها اثناءالحفريات، او تلك التي بقيت من اناس ذهبوا ضحية الدواهي ، او فريسة كواسر الحيوانات ، قد تمكن المراقب النبيه من الاطلاع على تكوين جسم الانسان اطلاعا متينا . وقد حفظ لنا عبد اللطيف بن يوسف البغدادي في كتابه « الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر » خبرا فريدا في نوعه جاء فيه :

ومن « عجيب ما شهدنا ، ان جماعة ممن ينتابني في الطب ، وصلوا الى « كتاب التشريح » لجالينوس ، فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان، فأخبرنا أن بالمقس قريب القاهرة تلا عليه رمم كثيرة، فخرجنا اليه فراينا تلا من رمم ، له مسافة طويلة ، يكاد يكون ترابه اقل من الموتى به ، يحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات في قرب العهد وبعده ، فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها واوضاعها ، ما افادنا علما لا نستفيده من الكتب ، اما انها سكتت عنها ، اولا يفي لفظها بالدلالة عليه ، او يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس اقوى دليلا من السمع . فان جالينوس ، وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس اصدق منه ... فمن ذلك عظم الفك الاسفل ، فان الكل قد اطبقوا على انه عظمان ، بمفصل وثيق عند الحنك ... والذي شاهدنا من حال هذا العضو ، انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في اشخاص كثيرة تزيد على الفي جمجمة

بأصناف من الاعتبارات ، فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ، ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه » .

ويظهر من هذا الخبر المهم جليا ان وصف جالينوس لفك الانسان غير مطابق للواقع ، ومع ذلك تناقلته البشرية مدة الف سنة كحقيقة لا ترد ، الى ان جاء عبد اللطيف بما ظهر بفضل مراقبته الدقيقة المحكمة ما هو الاصح . فان شهرة جالينوس في الطب، التي سيطرت على العقول في القرون الوسطى حتى العصور الحديثة ، لم تقنع هذا العالم العربي ، بل نراه يعرض عن التقاليد ، ويلجأ الى الاختبار والحكم العلمي السالم ، فيصل الى الدرجة العلمية والانتاجات المنشودة .

ولا يسعني الا ان اذكر مثلا آخر يدل على هذا الاستقلال الفكري الكفيل بتقدم العلوم . فكان عمدة علم الادوية والاغذية عند العرب كتاب ديسقوريدوس اليوناني ، وقد نقل في وقت مبكر الى العربية بعنوان : « المقالات السبع من كتاب دياسقوريدوس وهو هيولي الطب في الحشائش والسموم . وما كل العلماء العرب يوسعون هذا الكنز بحواصل مراقباتهم واختباراتهم ، كما يشهد بذلك « كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية » الذي يعتبر بحق اشهر ما كتب في هذا العلم، وهو من تاليف ابن البيطار العالم الاندلسي الشهير المولود في مالقة والمتوفى في القاهرة . ولابن البيطار معاصر ورفيق له في التلمذة ، لم يحقق اسمه حتى الآن ، وهو مؤلف جليل القدر في علم الادوية والاغذية حفظ في مخطوط وحيد في اسطنبول ، ويخبر هذا المؤلف انه قرا كتاب ديسقوردس ومقالة لابن جلجل في ذكر الادوية التي لم يذكرها ديسقوريدوس وذلك عام 583 هجرية ، على عبد الله بن صالح الشجار معلم ابن البيطار في حانوت في مراكش . وبعد دروسه ضمن هذا العالم نتائج ابحاثه المؤلف المذكور انفا ، وذلك عام 600 هجرية . ويطيب لي ان اسرد على مسامع حضراتكم فقرة من مقدمة هذا الكتاب علها تظهر طرق التعليم في ذلك العهد وتشيد بذكر المؤلف واستاذه . قال تلميذ ابن صالح الشجار ما يلي :

« وكنت لما قرات كتاب دياسقوريدوس هذا على الشيخ ابن محمد عبد الله ابن صالح الكتامي ثم الحريري الشجار ، اكرمه الله ، وفي حانوته بحضرة مراكش ، حرسها الله ، سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة للهجرة،اذا بلغت ذكر دواء لم يجله دياسقوريدوس، وكان مما عاينه هو وعرفه ، املي علي جليته حسب ما عاينه . واذا بلغت ذكر دواء له اصناف لم يصنفه املي علي اصنافه التي عاين ، واذا بلغت ذكر دواء جلاه غير انه ربما قصر في تجليته له ، او جلاه على غير ما عاينه هو ، ثم تمم جلية المقصر في جليته وحكى ما حكى دياسقوريدوس على غير ما عاينه هو على ما عاينه ، واذا بلغت ذكر دواء صنفه وجلاه غيره انه ربما خالف في التجلية للاصناف ما عاينه هو . اعني او مع جلية هذا الصنف على ذلك الصنف وجلية ذلك على هذا . عرفني بذلك ، واذا بلغت ذكر دواء عاينه ولم يعرف له اسما قال لي : اعرف هذا الدواء وشاهدته بموضع كذا ولكني لا اعرف له اسما مشهورا اليوم ، واذا بلغت ذكر دواء لم يعرفه ولا عاينه قال لي : لم اعاين هذا الدواء ولا اعرفه ، واذا بلغت ذكر دواء لم يقصر دياسقوريدوس في شيء مما ينبغي ان يذكر فيه عرفني بذلك ايضا ، وربما حكى لي حكايات على بعض ادوية ، اما عن نفسه واما عن غيره ، لها معونة في غرض هذا الكتاب ، وكان مع هذا يعرفني بالاسماء المشهورة الواقعة على الادوية المعروفة عنده وقت قراءتي عليه مما عرف لها اسما باي لسان كان ، وينبهني على ما وقع الغلط فيه من الادوية من طريق الاسماء فاستعمل بذلك غيره في زماننا هذا وما قرب منه ، وكنت اعلق ذلك كله بمحضره ، ثم قرات عليه بعد الفراغ من كتاب دياسقوريدوس المقالة التي لابن جلجل في اسماء الادوية الواقعة فيه وفي الادوية المستدركة عليه مما لم يذكرها في كتابه هذا ، مقتفيا الطريقة المذكورة في كتاب دياسقوريدوس » .

ان كل هذا يرينا ان العلماء المسلمين فصلوا بين المعارف الاكيدة الثابتة وبين الملتبسة المشبوهة ، بين المتوارث والمشاهد بام العين . واذا ما عرفنا ان الابحاث الطبية ، قد لجأت اكثر ما يكون الى الجمع والتنسيق ، معرضة عن التجربة الفردية ، ثم اتجهت نحو الاوجه الادبية ، لقدرنا حق قدره هذا السعي الحثيث الواعي لاستملاك معرفة يقينية عن طريق التقارب المباشر مع الطبيعة .

وعندما احتل العرب الاسكندرية ، كانت الفلسفة اليونانية المتاخرة شائعة في انحاء مصر ، وكان العلماء مشتغلين بفرع علمي نشا تحت تاثيرها ، **هو علم الكيمياء** . وقد بني هذا العلم يومئذ على مبدا فحواه ان المعادن ، كالانسان ، كائنات حية تولد وتعيش ثم تموت ، وانها قابلة للتطور والاكتمال ، بحيث انه قد يحول معدن غير ثمين كالرصاص مثلا ، الى معدن

ثمين كالذهب . وما أن وجه العلماء المسلمون اهتمامهم الى هذا العلم ، حتى نبذوا ذلك القول ، ولكن ليس بدون بعض الكفاح مع مناصريه من علمائهم . فان الكندي فيلسوف العرب المشهور حمل على الكيمياء في مقالتين ، واذا بالرازي يهب الى دحضهما ، وفي حين يناصر الفارابي الكيمياء ، نرى ابن سينا يقاومه ، وحجته في ذلك شبيهة بحجة العلماء العصريين ، وهي **أن المعادن مختلفة عن بعضها بصفات لازمة لا تتحول.** والطبيعة نفسها لا تسلك طريق تحويل معدن وتثمينه، فكيف يتمكن العلم من ذلك ! ويرد آخرون بقولهم : ان اخذنا اي معدن كالفضة أو الرصاص ، أمكننا اكسابه صفات غريبة عنه كصفة الذهب مثلا ، ولكن يستحيل اكسابه جميع صفات الذهب ، وقد عرف العرب منها أربعة عشر 14 . واذا اردنا تحويل معدن الى معدن آخر ، وجب نقل جميع صفات المنقول لا جزء منها فقط ، وهو مستحيل . لذا وجب القول بان ما ينتج عن تحويل جزئي ، ليس معدن الذهب بل هو مزيج بينه وبين معدن آخر . فكان ان هذه المعرفة وذلك الرد الصريح على الكيمياء القديمة قد شقا لعلم الكيمياء الجديدة طريقه الحقيقية .

لماذا تفوق الاسلام على اوربا في العصور الوسطى ؟

قبل ان اختم حديثي هذا تسمحوا لي ، سيداتي سادتي ، بأن اتساءل واياكم لحظة ، عن العامل الذي مهد للاسلام في العصور الوسطى التفوق على أوربا ، وجنى تلك المآثر المنيرة في العلوم . واجرؤ غير مجازف على القول ، **بانه نظرة المسلم الى الطبيعة .** فان الطبيعة هي للمسلم مجموعة المخلوقات بأسرها لا غير . وقوانينها مظاهر تتجلى فيها ارادة الله خالقها، ولذا كان بديهيا ، ان التبحر في فهمها ، والاطلاع على دقائقها ، واستكشافها يقود الانسان الى معرفة ارادته تعالى عن احسن السبل . وأما العصور الوسطى المسيحية ، فاقرت بعكس ذلك اذ قالت : ان الايمان والعلوم الطبيعية نقيضان لا يجتمعان ، فنتج عن نظرة المسلمين خير للعلوم ، لا سيما وقد لاقت في القرءان الكريم والحديث النبوي حافزا ، وهما يدعوان المؤمن الى تأمل الطبيعة ، فيرى من خلال نظمها وقوانينها عمل الله خالقها . فعندما سمع المسلمون مثلا قول النبي : « ما انزل الله داء الا انزل له شفاء » فهموا حالا من ورائه ، ان استقراء الادوية وطرق العلاج ، هي اسهام في اتمام مشيئة الله ، فكان ان تقدست الابحاث الطبية بقداسة واجب نصه الايمان عليهم . وهذا القول يصح في بقية العلوم . وفي كتب الحديث الكبرى، نجد ابوابا كاملة يحث فيها المومن على اكتساب العلم ، كما جاء في سنن أبي داود :

« من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سهل الله له طريقا من طرق الجنة ، وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع ، وان العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الارض والحيتان في جوف الماء ، وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وانما ورثوا العلم ، فمن اخذه اخذ بحظ وافر » .

الازدواجيات وتعدد اللهجات واللغات

بقلم الأستاذ محمد السرغيني
مفتش اول بوزارة التربية الوطنية بالمملكة المغربية

القى الاستاذ محمد السرغيني محاضرة قيمة تصدى فيها لبحث مشكلة الازدواجية اللغوية فى التعليم بالمملكة المغربية ، وقد ابدى آراءه على ضوء خبرته فى هذا المجال مستهلا عرضه بالتعريف الصحيح لمدلول اللغة ثم اوضح بعد ذلك الفرق بين اللغة واللهجة قبل ان يدخل فى صميم موضوع محاضرته التى نقدم فيما يلى اهم ما جاء فيها :

الازدواجية العامة وقضية الفصحى والعامية :

... ولنلق الآن نظرة خاطفة على ما يطلق عليه الازدواجية اللغوية ، حاصرين بحثنا فى النطاق المحدود للتعليم فى بلادنا المغربية وما طرأ عليه من تغيير خلال السنوات الاخيرة .

عندما يلتحق الطفل المغربى بالمدرسة لاول مرة يكون قد انتقل تدريجيا وطبيعيا من مرحلة التكلم بلغة الطفولة العذبة الجميلة الى مرحلة اللهجة المحلية الخاصة التى تعلمها عن طريق التقليد فى المحيط العائلى والوسط القومى ، فتعود منذ نعومة اظفاره استعمالها فى بيئة اسرته ومجتمع اقرانه الصغار .

وبمجرد دخوله الى حجرة الدرس فى السنة السادسة او السابعة من عمره يجد نفسه امام معلم يخاطبه بلغة اخرى ، وان كانت هى الاصل ، الا انها تختلف اختلافا كبيرا عن العامية او الدارجة . فنرى طفلنا منذ اتصاله بهذه المؤسسة الموقرة يضطر الى مراعاة قوانين اصطناعية خاصة بتلك اللغة التى تكتب وتقرا اكثر مما تستعمل فى المخاطبة وهى خاضعة لقواعد النحو والصرف والاملاء وغير ذلك .

ومما لا شك فيه ان هذا التحول فى كلام الطفل وارغامه على النطق بالفاظ عربية جديدة تخالف جل المفردات المكتسبة بصورة طبيعية تلقائية وهذا امر لا يهون على عقل متعلم مبتدىء صغير . وغير خاف على رجال الفكر والعلم والتربية ما لهذا التحويل من خطورة واضرار فى تكوين الطفل وما له من آثار بالغة فى نفسيته وتطوير عقليته .

وحسبنا دليلا على هذا التأثير الخطير ما يعانيه التلامذة من صعاب للتمكن من لغتهم الجديدة، وما يبذله المعلمون من جهود مستمرة للوصول بهم الى التعبير السليم قصد الفهم والتفهيم .

ولعل هذا هو السبب الرئيسى الذى جعل بعض المربين ينادون باستعمال اللغة الام ، اداة

ووسيلة للتعليم ، مقترحين عند امم شتى العمل قدر الامكان على التقريب بين التعبير الشفوى المتداول والتعبير الكتابى الفصيح .

اما بالنسبة لنا ، فالفرق لا يزال كبيرا والبون شاسعا بين اللغة العربية واللهجات المحلية وانى لست اغالى ولا اعدو الحق اذا قلت ان تلميذنا يكون مزدوج اللغة ، بكل ما تنطوى عليه العبارة من معنى، منذ اللحظة الاولى من حياته المدرسية .

والحقيقة ان قضية الفصحى والعامية ليست خاصة بالمغاربة وحدهم ، فهى تعم العرب جميعا فى مشارق الارض ومغاربها من المحيط الى الخليج ، والمصيبة ، كما يقول المثل ، اذا عمت هانت ، ولكن ليس معنى هذا ، ان نضرب عنها صفحا ونتركها لسير التاريخ والاحداث ، تفعل بها ما تشاء ، بل من واجبنا كمربين ان نلقي عليها بعض الاضواء ونتناولها بالدرس والتمحيص ، لعلنا نصل فى يوم الى حلول نسبية تساعدنا على تبسيط عملية التربية وتسهيلها .

والواقع هو ان المشكلة قد شغلت وما زالت تشغل بال المربين وتثير الجدل والمناقشة بين المفكرين فى مختلف البلاد العربية منذ مدة يسيرة .

اذن ، فنحن عرب اليوم ، بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس فى جميع البلاد العربية ، وبين لهجات عامية متعددة اصبحت كل منها وسيلة للتفاهم فى بعض المناطق المحدودة من البلاد العربية .

ولا حاجة الى القول بان هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية وكرامتها من وجوه عديدة ومؤثرة تأثيرا قويا على المواطنين عموما والمتعلمين منهم خصوصا .

فكل امة من الامم محتاجة الى لغة موحدة تزيد افرادها تجاوبا وتماسكا فتشكل عاملا من اقوى عوامل التوحيد . لان مهمة اللغة فى الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية لا تنحصر فى ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون فى قرية او مدينة واحدة، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم او قطر واحد بل هى ضمان التفاهم والتخاطب والتجاوب بين جميع ابناء الامة على اختلاف مدنهم واقاليمهم .

والتاريخ الحديث ملىء بالامثلة البليغة الدالة على الجهود الجبارة التى كان ولا يزال يبذلها عدد غير قليل من الامم والدول فى هذا السبيل حفظا على استقلالها وضمانا لوحدتها .

الازدواجية الخاصة

هذه نظرة موجزة عن الازدواج اللغوى العام المشترك بين العرب. وهناك نوع من الازدواجية خاص بطبقة لا يستهان بها من المغاربة الناطقين بلهجة بربرية كتشلحيت او تمازيغت مثلا . فاذا كان الطفل المتكلم بالعربية الدارجة تعترض سبيله عراقيل لا يحصى لها عد حين شروعه فى تعلم العربية الفصحى ، فما بالك بالطفل الذى تعود استعمال لهجة محلية اخرى بعيدة كل البعد عن لغة الضاد ، وذلك رغم العوامل المؤثرة فى نشر هذه اللغة من كثرة مواصلات واجهزة اذاعية وغيرها ؟ فمشكلة هذا الصنف من الاطفال ، فى بعض القرى والبوادى ، تكتسى صبغة خاصة متركزة فى ازدواج لغتين اثنتين مختلف كل الاختلاف عن ازدواج العامية والفصحى عند الطفل الحضرى .

ويزداد هذا المشكل حدة اذا كان الطفل من النازحين الى المدن وضواحيها طلبا للعمل والكسب مع افراد اسرته . فانه كثيرا ما يرى نفسه ملزما بتعلم الفصحى ، وهى لغة التلقين فى المرحلة الاولى للتعليم ، وفى نفس الوقت تفرض عليه هجرته الى المدينة اكتساب لهجة عربية محلية عن طريق الاحتكاك اليومى بمواطنيه الذين اصبح يعيش فى وسطهم الجديد بالنسبة اليه .

ومن الطاف الله الخفية انه يتلقى لهجته الثانية بصورة عفوية دون ان يلجأ الى معلم او مدرسة . ولكن لا ينبغى ان يغيب عن الاذهان ما ينجم عن هذه « الثلاثية» (او التريكلوسى كما يعبر عنها الفرنسيون) من اضطراب وارهاق فى تربية النشء وتكوينه تكوينا سليما .

وهكذا ، نشاهد طفلنا ، وهو لا يزال فى بداية التكون ، يجابه صعوبات الازدواجية او الثلاثية احيانا .

الازدواجية الاستعمارية :

ويا حبذا لو كان الامر يقف عند هذا الحد بالنسبة لاطفالنا ! لكن الاقدار شاءت ان تضاف الى

مشكلة ازدواجيتنا العامة وازدواجيتنا الخاصة بما فيها من لهجة ثالثة احيانا ، ازدواجية اخرى من نوع غريب : وهى التى تسلطت على جل الاقطار العربية فى حالة سباتها وركودها وقد اخذ المغرب نصيبه من هذه البلية عن طريق الاحتلال الفرنسى جنوبا والاسبانى شمالا ، ذلك الاحتلال الذى فرض لغتيه فرضا فى الميادين الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وفى طليعتها طبعا ميدان التعليم . فما لبثت اللغة الاجنبية ان اكتسحت مرافق الادارة وبسطت سيطرتها المطلقة على المؤسسات التعليمية لتنفذ اخيرا الى الاذهان وتستولي على القلوب والعواطف باسم التقدم والحضارة والتقنية مدة نصف قرن تقريبا .

ولنختصر الآن الكلام عن المراحل التى مر بها تعليمنا الابتدائى العصرى قبل ان نتخلص لوصف الازدواجية الاستعمارية . فتعليمنا الابتدائى فى عهد الاحتلال كاد يكون فرنسيا صرفا فى الجنوب واسبانيا فى الشمال ، اذا نحن استثنينا تلك السويعات التى كانت تخصص لمادة اللغة العربية فكانت ميزة هذا التعليم خلال السنوات الاخيرة للحماية الازدواج مع ميل كفة الفرنسية او الاسبانية ووجود لغة سائدة واخرى مسودة كما يشهد بذلك بعض المربين الاجانب انفسهم .

ومنذ سنة 1956 دخل تعليمنا الابتدائى فى مرحلة دقيقة من حياته تعرب فيها تدريجيا القسم التحضيرى ، فالابتدائى الاول ؛ مع بقاء ازدواجية متساوية فى الابتدائى الثانى والمتوسطين . وفى السنوات الثلاث الاخيرة – قبل اكتوبر 1967 – رجحت الكفة نهائيا لفائدة العربية ، فاصبحت المواد الاساسية كلها معربة مع الاحتفاظ بعشر ساعات اسبوعيا لتعليم اللغة الفرنسية لاسباب سنشرحها فيما بعد .

فما هو مصير الطفل فى ذلك وهو طبعا مسير لا مخير ؟ اننا نراه بعد ازدواجيته الاصلية (عامية وفصحى) وازدواجيته الخاصة (لهجة محلية وفصحى وعامية) مطالبا بتحمل ازدواجية جديدة ، ليس لها من الازدواجية الا الاسم ، لان اللغة السائدة فيها قد اصبحت العربية والمسودة هى الفرنسية . ومما يزيد فى الطين بلة انه لاسباب موقتة ولكنها قاهرة ترجع الى قلة اطرنا التعليمية فى المواد العلمية ، نحاول جعل اللغة المسودة فى الابتدائى هى السائدة فى الثانوى ، وفى ذلك من التناقض التربوى ما فيه .

فتصوروا معى لحظة ، ما يتطلبه اكتساب لغة واحدة والتصرف فيها من استعدادات فطرية ومواهب عقلية وجهود مضنية من المعلمين والمتعلمين على السواء ، فضلا عن كون الامر يتعلق بتعلم ثلاث لغات بالنسبة للبعض واربع بالنسبة للبعض الآخر !

ان ازدواجنا الاصلى له وحده من العواقب السيئة ما يستعظم . وطفلنا المغربى كسائر الاطفال فى العالم . لا يمكننا ان نحمله اكثر مما يطيق .

ولنترك فى هذا الصدد الكلام لالبير ميمى ليصف لنا الازدواجية الاستعمارية . قال فى كتابه: « وصف المستعمر » (بفتح الميم) :

« وتتجلى هذه البلبلة الجوهرية بصفة خاصة فى شخصية المستعمر (بفتح الميم) ، وتكتسى صبغة رمزية فى الازدواجية الاستعمارية . وهذا بمجرد ما يتخلص من الامية يسقط فى هوة تزاحم اللغتين ان ساعده الحظ على ذلك لان معظم الذين اصابهم الاستعمار لا سبيل لهم الى تحمل مشاق تلك الازدواجية فلا يستعملون غير لغتهم الاصلية التى لا تكتب ولا تقرأ ولا تمكنهم الا من ثقافة سماعية تافهة مشكوك فى فعاليتها .

« اجل ان هناك اقلية من المثقفين قد تشبثوا بخدمة لغتهم القومية تخليدا لها واحياء لماضيها الزاخر بالعلم والمعرفة ولكن هذا اللون من الثقافة الراقية قد فقد منذ زمن بعيد كل اتصال بالحياة اليومية فتوارى عن ادراك رجل الشارع الذى اصبح يضعه فى منزلة المخلفات المقدسة وينظر الى الذين يحملون رايته من الشيوخ الفضلاء كما ينظر الى الذين يسيرون وهم يعيشون فى حلم قديم

« ويا حبذا لو كان للغة الام فى الحالة الراهنة سلطان على الحياة الاجتماعية فاستعملت عند الوقوف امام شبابيك الادارة وسيطرت فى المواصلات البريدية . فهذا ايضا لم تحلم به لان المصالح كلها ، ادارية كانت ام قضائية او فنية ، ابت الا ان تستعمل لغة المستعمر وهى اللغة البارزة على الصوى الكيلومترية ولافتات المحطات والشوارع وصكوك المخالصة حتى ان المستعمر (بالفتح) الذى لا يعرف سوى لغته امسى غريبا فى بلده .

« وقد تحتمت ضرورة الازدواجية فى الوضع الاستعمارى بحكم استعمالها فى كل اتصال وكل ثقافة وكل تقدم غير ان الفرد المستعمر المزدوج اللغة لا يتخلص من قيود هذا الحصار الا ليواجه كارثة ثقافية ليس فى امكانه ان يتغلب عليها بصفة نهائية.

« على ان عدم المطابقة بين اللغة الام ولغة التثقيف غير خاص بالمستعمر (بالفتح) وحده ولكن الازدواجية الاستعمارية لا يمكن ان تقارن بغيرها لان الحصول على لغتين ليس معناه امتلاك اداتين للتعبير فحسب بل هو المشاركة ايضا فى عالمين نفسانيين وثقافيين والعالمان المعنيان هنا واللذان لكل منهما لغته الخاصة متنازعان متناضلان : الا وهما عالم المستعمر وعالم المستعمر .

« هذا واللغة الام التى تغذيها احاسيس المستعمر (بالفتح) واهواؤه واحلامه والتى يتحرر بها حنانه واندهاشاته وتنطوى على اقوى ما يكنه من طاقة عاطفية هى اللغة بالذات التى انحطت قيمتها وضاعت كرامتها سواء بين المواطنين او بين الشعوب . فاذا ما سعى وراء مهنة او مكانة واراد ان يعيش بين اهل بلده او سائر العباد تعين عليه قبل كل شىء ان يخضع للغة الاجنبية لغة المستعمرين الذين استعبدوه : فلا غرابة ان تخرج اللغة الام من المعركة التى يخوضها المناضل عن كيانها صاغرة مقهورة فلن يلبث هو نفسه ان ينظر اليها لامر ما بعين الاحتقار فيتجنب استعمالها ويتجاهلها لدى الاجانب ولا يرتاح له بال الا اذا كان تعبيره بلغة المستعمر .

وخلاصة القول ان الازدواجية الاستعمارية ليست من ذلك النوع الذى تتعايش فيه لهجة شعبية بجانب لغة فصحى مهذبة مع انتمائهما الى عالم عاطفى واحد ، كما انها ليست مجرد ثروة متوفرة الفائدة بتعدد اللغات مع الاتسام بالحياد المناسب : انها ماساة لغوية ..»

مشكلة تعدد اللغات :

ولنرجع الى ما نحن بصدده، وهو التاثير اللغوى فى التكوين التربوى : عامية وفصحى او لهجة محلية وفصحى ، او عامية ولهجة وفصحى ، ثم ازدواجية دخيلة ، هذا هو ما يقاسيه تلميذنا المغربى فى التعليم الابتدائى العصرى العمومى .

اما اذا ابتسم له الحظ فعبر الطور الاول الثانوى ثم وصل الى الطور الثانى منه فانه يصبح «بولكلوت» (اى متعدد اللغات) بكل ما تحمل الكلمة من معنى بحيث يتحتم ان يحاول تعلم لغة او لغتين اجنبيتين علاوة عن العربية الفصحى وما تلقنه منذ طفولته الاولى من عامية او لهجة خاصة بالوسط الذى عاش فيه .

فلا غرابة ان يصل هذا التلميذ المسكين الى نهاية دراسته الطويلة المضنية منهوك القوى ولم يحصل سوى على قشور من تلك اللغات التى هي فى الحقيقة اداة للتبليغ لا غاية فى حد ذاتها .

نوع التعليم	لغة الطفل قبل الدخول الى المدرسة	لغة التعليم فى الابتدائى	لغة التعليم فى الثانوى	اللغة الاجنبية	مجموع اللغات واللهجات
الاصلى والحر المعرب	العامية او اللهجة المحلية او هما معا	العربية الفصحى	العربية الفصحى	الاولى والثانية اجبارية	4 او 5 (3)
الحر العصرى	» »	الازدواجية	الازدواجية	لغة اجنبية ثانية	4 او 5 (3)
العصرى العمومى	» »	الازدواجية	الازدواجية	لغة اجنبية ثانية	4 او 5 (3)
تعليم البعثة	» »	اللغة الفرنسية	اللغة الفرنسية	لغة اجنبية اولى وثانية	4 او 5 (3)

فماذا يستخلص من ذلك كله ؟

اذا ما طرحنا من الحساب لغة الطفل قبل دخوله الى المدرسة ،سواء كانت هذه اللغة عربية عامية ام لهجة من اللهجات المحلية ، يظهر لمن يلقى نظرة على الجدول ان عدد اللغات الملقنة متساو فى كل نوع من انواع التعليم ، لغة اصلية ولغتان اجنبيتان ، بحيث لا حاجة الى التشاؤم . ولكن الشيء الذى يتحتم علينا كمربين ، لنا كلمتنا فى التكوين ، هو الحكم على عمق المسائل لاعلى ظواهرها. فالامر هنا ليس متعلقا بعدد اللغات ، بل فى درجة استعمالها اى اعتبارها كلغات اساسية للتعليم والتلقين ، او كلغات ثانوية تكميلية للتثقيف .

1 ـ ان الحالة عادية وطبيعية فى الشعبة الاصلية والحرة المعربة حيث الامور تجرى مجراها الطبيعى وفقا للمناهج المطبقة فى سائر البلدان المتقدمة : لغة اصلية موحدة فى الابتدائى هى العربية الفصحى ولغتان اجنبيتان فى الثانوى . وهذه الشعبة ، هى مثال التعليم النموذجى القومى للمستقبل ، اذا ما توفرت على الاطر الصحيحة والتجهيزات الضرورية

2 ـ وكذلك الامر فى تعليم البعثة ، فان الحالة طبيعية بالنسبة للاجانب الذين يتلقون تعليما ابتدائيا متينا بلغة اصلية موحدة هى الافرنسية تضاف اليها لغتان اجنبيتان فى الثانوى . ولكن بالنسبة للمغاربة الذين اختاروا لابنائهم هذا النوع من التعليم ، فالحالة مخالفة تمام المخالفة لما سبق . فلغة تعليمهم هى الفرنسية عوض العربية التى لا يتعلمونها الا كلغة اجنبية فى الثانوى .

فحصصها الاسبوعية ضئيلة طبعا ، وبرامجها خاضعة لنظام دخيل . فمن اجل ذلك ، لا يمكن للمتخرج من مدارس البعثة ، باستثناء بعض الشواذ ، ان يعرف من اللغة العربية وآدابها وعلومها وحضارتها الا المقدار الذى يعرف عن الانجليزية او الاسبانية ، من اختار هذه اللغة او تلك فى دراسته الثانوية . وقد نجد من التلامذة من يعوضون لغتهم القومية بلغة اخرى من اللغات الحية اما فى البداية ام فى النهاية ، الشيء الذى يؤدى الى انفصال يكاد يكون كليا عن معالم الحضارة العربية والمقومات الاسلامية .

كما ان هناك صنفا من المواطنين الاسرائيليين المغاربة ، لا يقبلون الا على تعليم البعثة ومعظمهم يختارون فى دراستهم الثانوية كل لغة اجنبية الا العربية ، وليس المقام مناسبا لشرح اسباب هذا الاختيار .

والحقيقة بالنسبة للجميع ، ان كل واحد يبحث عن تعليم متين ، يقدم بلغة واحدة فى الابتدائى ، مع اجتناب اخطار الازدواجية الموجودة فى غيره .

3 ـ اما فيما يخص الشعبتين الاخيرتين من حر عصرى معرب ، وعمومى عصرى ، فيتميزان بازدواجيتهما فى الابتدائى والثانوى . والشعبة العصرية العمومية كما هو معروف هى المشتملة على جل التلاميذ المغاربة والتى يصرف عليها القسط الاوفر من ميزانية التربية الوطنية ، فنجد اللغة العربية واللغة الاجنبية فيها تتنازعان من اجل البقاء ليحتفظ كل منهما بالدرجة الاولى فى التعليم والتلقين ، وتتقاسمان الحصص الاسبوعية التى لا يمكن ويا للاسف الزيادة فيها لاسباب تربوية غير خفية عنكم .

وهذه الحالة التى اصبح الكل مقتنعا بأنها حالة استثنائية ، موقتة ، منافية للانظمة التعليمية السليمة ، هى التى جعلت تعليمنا يدور فى حلقات مفرغة ، ولاسباب عدة ، اوجزها ايجازا فى النقط التالية :

1 ـ الازدواجية المعمول بها فى الابتدائى لم يبق لها من الازدواجية الا الاسم بل اصبحت بتراء ، غير قادرة على اداء رسالتها التهذيبية لكون لغة التعليم فى الاقسام كلها من التحضيرى الى المتوسط الثانى صارت كما قلنا هى العربية ، ولم يحتفظ باللغة الاجنبية الا كلغة ثانية فى الابتدائى الثانى والمتوسطين . ورغم الحصص المخصصة لها ، فلا اطرنا التعليمية الابتدائية المغربة ، ولا طرق التعليم المنتهجة بقادرة على اخراجنا من الورطة بجعل اللغة الاجنبية فى المستقبل اداة صحيحة لفهم العلوم وتمثيل التقنيات ، الشيء الذى يؤدى حتما الى عملية تحويلية خطيرة فى الثانوى .

2 ـ الازدواجية الحقيقية التى مكنت بعض المغاربة من التصرف فى لغتين اثنتين ، تصرف المالك فى ملكه ، والتى كثيرا ما كان يرجع الفضل فيها الى الجهود المبذولة داخل المدرسة وخارجها من طرف المعنيين بالامر انفسهم ، اقول ان هذه الازدواجية صارت فى خبر كان .

ولم يبق كما اشرت الى ذلك فيما سلف ، الا ناطق بالعربية على قدر الامكان ، وبالفرنسية او الاسبانية فى نطاق محدود ، او مخضرم تتفاوت معرفته فى هذه او تلك ، لا هو يحسن الاولى ولا هو يحسن الثانية .

3 ـ واذا كانت نتائج التعليم قد اتصفت بشىء من الجودة فى فترة من حياة الحماية وبعدها بقليل ، فلم يكن يرجع الفضل فى ذلك الى الازدواجية ، حيث لم تكن هناك ازدواجية بل لغة غالبة ولغة مغلوبة ولغة مسيطر عليها .

كان الفضل فى النتائج المحصل عليها يرجع اولا واخيرا الى كفاءة المعلمين واساتذة وايمانهم كل الايمان بأداء رسالتهم ونشر لغتهم . اضف الى ذا وذاك قلة المتعلمين وحرص تلك الاقلية على التحصيل ، دون ملل او كلل . فلغة التعليم كانت لغة المستعمر ، واللغة العربية انما كانت تعلم بقصد التبرك ، وقد كان فى ذلك بالفعل من البركة ما كان .

4 ان جميع الاموال التى تصرف فى تعليم قشور من اللغة الاجنبية فى الابتدائى ، تذهب هباء منثورا بالنسبة لجميع الاطفال الذين يتعذر عليهم الدخول للثانوى حيث لا يمكنهم الانتفاع بها حتى فى بيئتهم الاجتماعية .

5 ـ اما بالنسبة لمن يلجون ابواب الثانوى ، فتنعكس الآية ، وتصير اللغة التى كانت السائدة هى المسودة والعكس بالعكس . وعملية كهذه ، زيادة على ما تتطلبه من مصاريف باهظة واستيراد من المعلمين والاساتذة ، تقتضى تحويلا فى المكاسب والمفاهيم ، وتغييرا فى الطرق والاساليب لا مثيل له فى النظم التعليمية السليمة . وهذه النقطة بالذات هى التى تسترعى اهتمامنا كمربين وتحتم علينا ان نفكر مع المسؤولين فى ايجاد الحلول الناجعة لها لصالح الوطن والمواطنين .

الحلول المقترحة

يجب اولا التفكير جديا فى حل جذرى نهائى لمشكلة الازدواجية الدخيلة بحيث تصير لغة التعليم موحدة فى جميع انواعه. وهذا لا يتاتى طبعا الا اذا وضع تصميم محكم ، مدقق لمدة محددة يضمن تهيىء الاطر اللازمة لتعريب كل المواد الدراسية سواء كانت ادبية ام اجتماعية ام علمية ورياضية .

وتكوين هذه الاطر ، وان كان عسيرا ، هو وحده الذى سيمكننا من حذف اللغة الاجنبية من الابتدائى ومتابعة عملية التعريب سنة بعد سنة فى الثانوى ، فترجع المياه الى مجاريها الطبيعية ويصير تعليمنا مسايرا للاسس التربوية المعمول بها عند كثير من الامم الناهضة :

تعليم ابتدائى قومى موحد ، لغته العربية وتعليم ثانوى موحد ايضا، لغته العربية، مع الاحتفاظ بلغة اولى حية ولغة ثانية اذا اقتضى الحال ذلك ، نظرا لمكانة هذه او تلك فى ميدان الحضارة والعلم والتقنية .

واعتقد ان دراسة لغة اجنبية واحدة ، ابتداء من الطور الاول الثانوى، دراسة متقنة وبالاساليب السمعية البصرية الحديثة كافية تمام الكفاية ، لمن يود فى المستقبل التخصص فى العلوم والتقنيات . ومن الطلبة فى عصرنا هذا ، من يتوجهون الى الخارج لاول مرة ، بعد حصولهم على الباكلوريا ، فيقضى سنة كاملة فى تعلم لغة اجنبية من الالف الى الياء ، يستعملونها كأداة فى تعليمهم العالى . فما بالك اذا كانوا قد درسوا تلك اللغة كما قلنا خلال سبع سنوات وبحصص مناسبة ، قبل اقبالهم على التعليم العالى .

ويجب ثانيا ان نفكر مع اخواننا العرب فى الوسائل التى ستساعدنا فى المستقبل البعيد على التخلص من بلبلتنا الحالية ، كما اشرنا اليها فى اول حديثنا ، حتى ننعم بنعمة لغة موحدة وموحدة ، فى جميع الاقطار العربية .

ولقد خطر ببال كثير من المفكرين واللغويين ثلاثة سبل اساسية للوصول الى هذه الغاية :

1) السعي وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة ، اى لهجة من اللهجات العامية على جميع البلاد العربية .

2) السعي وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب فى كل قطر من الاقطار العربية

3 ـ السير على طريقة متوسطة بين الاولى والثانية على اساس تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى .

ولا حاجة للبيان ان الطريقة الاولى ، اى طريقة تعميم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلادالعربية،

غير منطقية وغير عملية . فلابد اذن من التوجه الى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة واسس متينة، وممثلون اقوياء فى جميع الاقطار العربية . فيبقى الحل منحصرا فى الطريقتين الاخيرتين وحدهما ، اللتين لا زالتا تتطلبان القيام بأبحاث علمية واسعة النطاق ، تتناول اللغة الفصحى واللغات الدارجة فى وقت واحد وتدرس القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .

ومن المعلوم انه اخذ يتكون فى بيئات المثقفين فى جميع البلاد العربية ، وذلك منذ زمن نوع من لغة التخاطب ، يطلق عليها بعض المستعربين اسم « العربية العصرية » اقتبست الشىء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من الاساليب العلمية .

فيجدر بنا ان نتعمق ونتوسع فى دروس هذه التطورات وتدوينها لنستفيد منها ونستنير فى تقرير خططنا الاصلاحية .

وقد اثار الاستاذ هنرى بيريس ، فى مقدمة كتابه « الآداب العربية والاسلامية من خلال النصوص الى التخلص من هذه الازدواجية الخطيرة كما سماها » :

« يمكننا ان نتصور بسهولة ، حلا للمشكل ، وهذا الحل سيأتى به الزمان . نعم ، فبانتشار التعليم ، ستتطور اللهجات ، دون ان تنقرض نهائيا، وستقترب شيئا فشيئا وقليلا قليلا من اللغة الفصحى، التى ستزداد هكذا بالفاظ جديدة »

وفى هذا الباب، عقد الاستاذ الكبير، الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتاب فقه اللغة، فصلا قيما لمن اراد ان يتوسع فى مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث ، مضمنه ان الطريقة المثلى هى ان ندع الامور تجرى فى مجاريها الطبيعية . فللغة قوانينها وللظواهر الاجتماعية نواميسها التى تسير عليها ، ومن ضياع الوقت فى غير جدوى ان تحول مجرى هذه القوانين او صدها عن عملها ، اذ لا نستطيع الى تغييرها سبيلا ولن نجد لسنتها تبديلا

هذه ايها الاخوة نظرة مختصرة عن قضية الازدواجيات ، ومشكلة تعدد اللغات ، واثر ذلك كله فى تربية ابناء الشعب العربى عموما وابناء المغاربة خصوصا . وانتم ترون معى ان لكل مشكل وجها خاصا ، يتطلب حلولا جذرية على الصعيد المحلى ووجها آخر عاما يقتضى بعض الحلول الممكنة على صعيد عالمنا العربى .

ومهما يكن من امر ، فاذا ما تغلبنا على حل مشكلنا الخاص المتعلق بالازدواجية الدخيلة وتنظيم دراسة اللغات الاجنبية فى مدارسنا ، نكون قد قطعنا اشواطا بعيدة فى طريق التربية والتعليم . ونكون قد ضربنا بالحجرة عصفورين . لان استعمال لغة موحدة وموحدة فى التعليم معناه التعريب الشامل والتوحيد الكامل ، وتتميم المغربة ، والسير بخطى ثابتة نحو قسط لا يستهان به من سياسة التعميم . وهى المبادىء التى اتفقت عليها بالاجماع اللجنة الملكية للتعليم ، تلك اللجنة التى كنت احد مقرريها .

وفى الختام ، انى لاعتقد اعتقادا جازما واقول مع المستشرق المبقرى ، يوهان فاك : « قد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد على انه اقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية عن مقامها المسيطر . واذا صدقت البوادر ، ولم تخطىء الدلائل ، فستحتفظ ايضا بهذا المقام العتيد ، من حيث هى لغة المدنية الاسلامية ، ما بقيت هناك مدنية اسلامية »

واملنا اخيرا ان يردد ابناؤنا فى القريب ، والابتسامة تعلو محياهم، والفرح يملأ صدورهم : « المغرب وطننا والعربية لغتنا ، وعليها وعلى رب العالمين ، نعتمد فى تربيتنا »

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

الاستفتاء حول علاقة الإسلام باللغة العربية

الاستفتاء حول علاقة الإسلام باللغة العربية

المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي

١ ـ السؤال الموضوع :

هل هناك تلازم أو ارتباط ما بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ؟ وفى حالة الايجاب ما هو مدى هذا التلازم أو هذا الارتباط ؟

اسئلة ايضاحية

هل تناصرون الراي القائل بوجود علاقة سببية بين الاسلام واللغة العربية وانه لولا الاسلام لما تأتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم كما أنه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام ؟ ـ مهما كان جوابكم هل يمكنكم أن تتفضلوا بالاستدلال على صحة رايكم بواقع بيئتكم الاقليمية وبماضيها ؟

هلا تلاحظون فى بلدكم بصفة خاصة وفي البلاد الاسلامية بصفة عامة أن الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف وأن العكس بالعكس ؟

ما هو مدى تاثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات أو اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية أو لدى الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية أو الاسيوية ؟

اذا كان هنالك تاثير ما للهجتكم الاقليمية في تعابيركم العربية المحلية فما هي نسبته ومداه ؟

ما هي المكانة التي يجب أن تحتلها العربية في بلدكم بالنسبة للغات الاجنبية ؟

وانتظارا لجواب حضرتكم تفضلوا بقبول خالص تحياتنا ، والسلام .

حفظ اللغة العربية ووحد لهجاتها

للأستاذ محمد طه النمر

مدير الادارة الثقافية
(جامعة الدول العربية)

1 ـ لا شك ان هناك ارتباطا بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ولكن هذا الارتباط لا يصل الى الحد القائل بانه لولا انتشار الاسلام لما تأتى للغة العربية أن تنتشر فى العالم ولا الى الحد القائل بانه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرءان لما انتشر الاسلام،ذلك ان القرآن هو كتاب الله الذي انزله على رسوله ليبين ما قصد اليه الاسلام من عبادة الله وحده والايمان بالآخرة والنشر والحساب ومجازاة المؤمن ومعاقبة الكافر ونظام العبادة والفرائض والتحليل والتحريم واحكام الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعتق والمداينة والرهن وغير ذلك مما تقتضيه مصالح الناس فى الدنيا على اختلاف الزمان والمكان ، فهو **مرجع للاسلام والمسلمين** يقراونه ويتفهمونه ويتعبدون به فى كل بلد اسلامي ، وهو يحمل فى طياته اسباب البقاء باعتباره منزلا من عند الله لا باعتباره مصوغا باللغة العربية ، قال الله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . فالاسلام غزا بقاع العالم التي لا تعرف العربية ودخل فى الاسلام أناس لا يتكلمون اللغة العربية من الانجليز والامريكيين والروس والهنود والصينيين وغيرهم ، فهو فى غير حاجة لانتشاره الى اللغة العربية تجذبه وراءها فى طياتها ولكنه يغزو القلوب بما اودع فيه من حكمة او موعظة حسنة او آداب عالية لا يختلف فى تقديرها ذوو الفطرة السليمة ، وبما ساق من عبر بسرد قصص الطغاة وعواقب البغاة ، وبما حوى من استدلال عقلي على قدرة الله ووجوده وعلى وجوب الاقرار بوحدانيته ، وبما هدى الى مكارم الاخلاق وشرع لحقوق الاسرة والامة .

والآثار التي عادت على اللغة العربية من نزول القرءان بها يمكن اجمالها فيما يأتي :

1 ـ **حفظها من الانقراض** كما حدث لغيرها من اللغات الاثرية القديمة .

2 ـ **توحيد لهجاتها فى اللهجة العذبة** التي نتحدث بها الآن .

3 ـ التوسع فى استعمال بعض الالفاظ العربية لتتسع للمعاني الدينية .

4 ـ محاكاة اساليبه الرائعة فى الحديث والخطابة والكتابة والشعر .

5 ـ **احداثه لكثير من العلوم اللغوية والشرعية** مما اعطى اللغة العربية ثروة عظيمة من الاصطلاحات والاساليب الفنية .

على ان هذا لا يمنع من ان يقبل على اللغة العربية من عمر قلبه بالايمان بغية التعمق فى معرفة اسرار الاسلام والاستزادة من آدابه وأحكامه ، فيكون النمو الاسلامي فى هذه الحالة راسيا قصد به التعمق فى الدين لا افقيا لنشر الاسلام والاستكثار من المسلمين .

2 – اما الشق الآخر من السؤال الذي يسأل عن مدى تأثر الوعي الاسلامي والوازع الديني باللغة العربية فيقويان بقوتها ويضعفان بضعفها ، فأرى ان هذا **التاثير غير مطرد** بدليل ان اللغة العربية في عصر المماليك عندما كانت فى منتهى الضعف وجمدت قرائح الشعراء والكتاب لاعجمية الولاة والحكام فى الوقت الذي ساد الاهتمام بالدين والتأليف فيه وانتشر بناء المساجد وعلت قبابها وضربت مآذنها فى كبد السماء ترجع التكبير والابتهال .

3 – وليس من شك فى ان الفكر الاسلامي قد أثر عن طريق لغة القرآن فى اللهجات واللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية وفي الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية والاسيوية ، ولكنه تأثير ضئيل جدا لا يتعدى ما تتطلبه العبادة او يحتاج الى التدليل به العلماء والمؤلفون فى هذه الاقطار او عند هذه الجاليات فى مؤلفاتهم عند شرح خطة او تقرير مذهب .

4 – اما لهجتنا الاقليمية فقد اثرت تأثيرا ضئيلا – بما انحدر اليها من كلمات مصرية قديمة او كلمات اغريقية أو نحوهما مما أدى اليه اختلاط المصريين بالاجانب – فى تعبيراتنا العربية .

5 – واما المكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية فى بلادنا بالنسبة للغات الاجنبية فهي المكانة التي تجب **للغة الوطن من السمو والسيادة** وتسمح للغة الاجنبية بالعيش فى ظلالها بالقدر الذي يكفي للتفاهم مع الاجانب ويجعل منها نافذة للاطلاع على معارفهم وثقافتهم .

واني – اذ ارجو ان اكون الى جانب الصواب فيما ابديت من راي – اقدم لسيادتكم موفور التحية والاحترام ....

الإسلام مهد السبيل : لعالمية اللغة العربية كأداة علم وحضارة

للأستاذ : روكس بن زائد العزيزي

ممثل الرابطة الدولية لحقوق الانسان في الاردن

لا شك أن انتشار الاسلام في أول عهده ، كان عاملا من أهم العوامل ، في انتشار اللغة العربية ، وزادت أهمية ذاك العامل ، بعد أن نقلت الدواوين من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية :

أ — القبطية في مصر .

ب — الفارسية في العراق .

ج — والرومية في سورية .

لان مصالح الناس ارتبطت ارتباطا وثيقا رسميا بلغة الفاتحين ، أصحاب السيادة . فأمسى الذي يريد أن يضمن لنفسه مركزا مرموقا في الدولة الجديدة ، مرغما على تعلم اللغة العربية ، سواء أدان بالاسلام ، أم لم يدن به .

*

وليس الامر خاصا باللغة العربية وحدها، فالناس في كل زمان مولعون بتقليد الغالب في كل شيء. فلما ساد اليونان تغلبت لغتهم ، ولما ساد الرومان سادت لغتهم، ولما توالت انتصارات فرنسا، انتشرت اللغة الفرنسية ولما ساد الانكليز سادت لغتهم في الهند . وعندما حكم البرتغاليون انتشرت لغتهم بحكم المصالح المعاشية .

*

أما السؤال الايضاحي ففيه نقطتان مختلفتان وهما :

أ — انه لولا الاسلام ، لما تأتى لـ (اللغة العربية) أن تنتشر في العالم .

ب — انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن ، لما انتشر الاسلام .

فجوابي على النقطة الاولى هو الايجاب ، وقد سبق لي أن أكدت ان اللغة العربية مدينة للاسلام بانتشارها ، لان اتساع رقعة الامبراطورية العربية ، وارتباط مصالح الناس المعاشية والاجتماعية ، والسياسية والدينية بأصحاب السلطة — العرب — مهد بل عمل على نشر اللغة العربية ، وفرض انتشارها .

اما النقطة الثانية ، فهي شهادة لروعة اللغة العربية ، ولجمالها ، ولكمالها ، ولسحرها ، ودليل على انها فرضت نفسها بعد أن مهد لها الاسلام ، فجعلت الاسبانيين يعشقونها ، ويعشقون من أجلها العلم ، فأضحت الاندلس ، في أيام حكم العرب ، خالية من الامية ، والاميين ، في الوقت الذي لم يكن في أوربا من يلم بالقراءة والكتابة ، سوى الطبقة العليا من القسيسين والرهبان .

واتخذ (غليوم) خلف (روجه) ملك صقلية اللغة العربية لغة بلاطه ، وجعل شعاره (الحمد لله) .

والبابا (سلفستر) الثاني نظم قصائد باللغة العربية موزونة مقفاة ، ومثله فعل (فردريك) الثاني ملك صقلية ، اذ نظم الشعر بالعربية ، وجمع في بلاطه طائفة من علماء العرب وشعرائهم ، ليضفي على

بلاطه هيبة قصور خلفاء دمشق وبغداد ، وامـــراء قرطبة واشبيلية ، اجل كان هذا كله ، وزاد عليه ، ان اللغة العربية بقيت لغة التقليد فى الحب ، والعلم والشعر ، فى ايطالية والمانية ، ولا سيما فى صقليـة وبروفنسا ، مع هذا كله ، فاني لا **ارى ان اللغة العربية وسحرها وجمالها ، كانت سببا فى انتشـار الاسلام .** فكل دين — فى رايي المتواضع — يحمل عناصـــر انتشاره فى تعاليمه ، لا فى لغته . فلقد دانت امم كثيرة بالاسلام ، من غير ان تعرف اللغة العربية ، ولا غيرت لغاتها من اجل الاسلام ، ولا من اجل القرآن ، وقدكان العكس ، فقد ترجم القرآن الكريم الى لغات القوم ، وليس فى ذلك تحيف لقدر القرآن الشريف .

*

ففي العالم اليوم خمسمائة مليون مسلم ، من كل امة ، ومن كل لغة ، ومن كل لون فهلنفرض عليهم تعلم اللغة العربية ، لنعترف لهم بانهم مسلمون ؟

ونظرة بسيطة ترينا ان المسلمين موزعون هكذا بحسب احصاء سنة 1965 .

ا — عرب فى آسية 24 اربعة وعشرون مليونا .
ب — ترك فى الاناضول 17 سبعة عشر ميلونا .
ج — ايرانيون فى ايران 16 ستة عشر مليونا .
د — افغانيون فى افغانستان 10 عشرة ملايين .
هـ — هنود وباكستانيون 85 خمسة وثمانون مليونا.
و — فى جاوى 56 ستة وخمسون مليونا .
ز — روسيون 25 خمسة وعشرون مليونا .
ح — افريقيون 100 مائة مليون .
ط — اوربيون وامركيون 3 ثلاثة ملايين .
ي — صينيون 50 خمسون مليونا .

وقد احتفظو بلغاتهم ، واحتفظوا باسلامهـم ، وترجموا القرآن الكريم ، ففهموا دينهم من غير حاجة الى اللغة العربية . واكثر من هذا ، فان مسلمي الصين عرب اصلا ، نسوا لغتهم ، وظلوا مسلمين ، فهـــم منحدرون من الكتيبة التي ارسلها الخليفة ابو جعفر المنصور ، نجدة للامبراطور (سوتسونغ) سنة 755 للميلاد ، يوم ثار عليه (اللوشين) فكافأهم الامبراطور بالاقامة فى اهم مدن الصين ، فتزوجوا بصينيـات ، وتناسلوا على طول الدهر ، وقد كان شرف هـؤلاء القوم يفوق الوصف ، لانهم اتصفوا بالصدق والعدل، والصلاح ، وكان الذي يتقلد منهم منصبا يتمتـــع باحترام الناس وبحبهم . والذي يتعاطى التجارة منهم ، يمتاز بحسن المعاملة ، وبطيب السمعة ، وكـــان الناظر اليهم يخالهم يؤلفون اسرة واحدة وقد استطاعوا بفضل كل ذلـك ، ان ينمـوا ويكثروا ، على نقيـض دعاة الاديان الاجنبية عن الصين ، الذين لم يتقدموا خطوة . وقد وثق امبراطور الصين بهؤلاء العـــرب فقربهم ، ووصل بعضهم الى اعلى مراتب الحكم ، والى قيادة الجيش .

*

فلو كانت اللغة التي نزل بها اي كتاب مقدس او كتب بها ، او لغة مؤسس الديانة نفسه ضرورية لنشر ذلك الدين ولانتشاره فى العالم ، لكان يجب ان تكون — بناء على هذا القياس — اللغة التي تكلم بها السيد المسيح (الارمية) وبشر بها ممهدة لنشر الديـــن المسيحي ، ولكانت اللغة اليونانية القديمة التي كتبت بها الاناجيل — ماعدا انجيل لوقا الذي كتب بالارمية ، وفقدت نسخة الارمية فاعيدت كتابته باليونانية — لكانت سبيلا الى نشر الدين المسيحي ، ولكان بالتالي ، يجب على كل مسيحي أن يتكلم لغة السيد المسيح ، او لغة الاناجيل — على اقل تقدير — وليس الامر كذلك ، بل لقد ماتت (الارمية) وانطوت اليونانية القديمة ، ولم يقف موت (الارمية) و (اليونانية القديمة) حاجزا دون انتشار الديانة المسيحية فى العالم .

*

وقد لاحظنا ان اللغة العربية — على الرغم من سحرها وجمالها ، وعلى الرغم من كونها **لغـة القرآن** الكريم — لاحظنا ، انها عجزت **ان تشـق طريقها الى اكثر الامم التي دانت بالاسـلام** ، ولم يحل ذلـك دون انتشار الاسلام .

وحكم (الغساسنة) الذين هم عمال للروم ، ديارنا الاردنية ، وكانت العربية لغة الغساسنـة ، ولغة الارادنة ، مع هذا فقد ظل القوم هم واعقابهم ، على نصرانيتهم وظلت القبائل النصرانية القوية فى البلاد تحتفظ بنصرانيتها وبلغتها العربية ، وتقاليدها ولم تحولها لغتها العربية عن دين آبائها واجدادها — على رغم المساعدات التي قدمتها تلك القبائل النصرانية لاخوانها العرب المسلمين الفاتحين ، كبني تغلب ، وعشيرة العزيزات التي تنتمي الى بني شيبان وكانت فيها سدانة العزى وعبادتها ، فقـــد ساعـــدت فى واقعة (مؤتة) وبقيت نصرانية ، ومسلموا الاردن كانوا يجهلون القرآن والكتابة ، ولم يكن بينهم من نحو مائة واربعين سنة من يقرا القرآن ، ومع هذا فانهم لم ينصرفوا عن اسلامهم ، فصاموا وصلوا وحجـوا ،

وكان سؤال الرجل منهم ، او استحلافه بالقرآن الكريم ، يجعله يقر حتى بجريمة القتل نفسها ، خوفا من ان يحلف يمينا فاجرة ، ولو كان المقام يتسع لذكر حوادث بعينها ، لذكرتها .

اذا ، فانا لا استطيع ان اطمئن الى الراي القائل: « انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام ! »

*

لما كون الوعي الاسلامي ، والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف ، فالواقع في اعتقادي ، ان المسالة ليست مسالة قوة لغة ، ولا هي مشكلة ضعف لغة ، لكنها مسالة عقيدة تلامس القلب ، والعقل والضمير . وكل دين في الدنيا ، لابد له من ان يمر باربع مراحل :

ا — المرحلة الاولى — مرحلة اعتناق الدين ، والايمان بحقائقه ، وندعوها — اصطلاحا — دهشة الدين ، وتصحبها استماتة في سبيل هذا الدين ، وتقديس لكل عقيدة من عقائده ، والتقيد بكل اوامره ونواهيه ، ومحاولة الاقتداء بمعلم هذا الدين وبحوارييه الى درجة ان تابع هذا الدين يستلذ الشهادة في سبيل نشر هذا الدين ، والجهر به ، ولسنا في حاجة الى ذكر مواكب الشهداء لكل دين من الاديان ، في دهشة الدين ، فالامر مشهور ، ومحاولة البرهنة عليه ، من باب محاولة اقامة الدليل على طلوع النهار والشمس مشرقة ، وفي هذه المرحلة ، تكون الرابطة الدينية اقوى من رابطة النسب نفسها ، واقوى من الرابطة القومية .

ب — المرحلة الثانية ، وهي مرحلة ظهور مفسرين لحقائق الدين ، وتسرب الخلاف بينهم ، بسبب خلافهم على فهم الالفاظ وتفسيرها على ظاهر اللفظ او على باطنه ، وهنا ، تبدأ الرابطة الدينية تفتر !

ج — المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة الشكوك ، والفلسفات والبدع ، وانقسام اتباع الدين الى فرق وطوائف ، يكفر بعضها بعضا ، وقد يذبح بعضها بعضا عن عمد وتصميم ، وهو يعتقد انه يتقرب الى الله بذبح اخيه ليحيى الدين ، لانه مخالف له في الراي — وصحف التاريخ ملأى بالشواهد على صحة ما نقول ، وفي هذه المرحلة ، يقضي على اي امل ، في جعل الدين رابطة بين اتباعه ، حتى بين ابناء الطائفة الواحدة .

د — المرحلة الرابعة — وهي مرحلة يصبح فيها الدين — اي دين — مجرد عنوان عزة اجتماعية ، وتراث انساني ، يحافظ عليه كما يحافظ الرجل على نسبته الى آبائه واجداده ، ومن هنا ، ارى ان قوة **الوازع الديني الضميري وضعفه ، لا علاقة لهما بازدهار اللغة** ، ولا بضعفها ، اقول مخلصا ، ان الوازع الديني امر خاص بالضجر المهذب ، لا علاقة له باللغة ، وقد عرفت انانيا يكاد بعضهم يكون حجة في علوم الدين ، وفي علوم اللغة ، ومع هذا ، فقد كان ضجر الواحد منهم (اوسع من جراب الكردي) كما يقول الارادنة ! .. اي لا اثر للوازع الديني في نفوسهم ، ورايت ناسا لا يعرفون من اللغة العربية شيئا ، مع هذا فقد كانوا مثلا اعلى في الاخلاق ، وفي الدين العملي الذي هو حسن المعاملة والبر بالبشر .

*

والذي اراه ، ان روح العصر قد زعزع العقائد الدينية في النفوس ، وقلب مفاهيم الناس ، وغير نظرتهم الى اصول الحياة والى فروعها ، وهز القيمة الروحية والاجتماعية والخلقية ، من اجل هذا اصبح الدين علاقة شخصية بين الانسان وخالقه ، ولم يعد للدين — اي دين — ذاك الاثر السياسي والاجتماعي الذي كان له فيما مضى . بصرف النظر عن اللغة التي جاء بها كتاب ذلك الدين المقدس ، ونطق بها مؤسس ذلك الدين .

*

عندي ان صرخة بطرس الناسك ، ونداء البابا اللذين اثارا حروبا اغرقت الشرق والغرب بطوفان من الدماء وزجا البشرية في جحيم من الاحقاد ، لو كانا في يوم الناس هذا ، لاسرع الناس الى بطرس الناسك يزجونه في مستشفى المجاذيب ، ولكان الاحتقار ، والاعراض ، هما الرد العملي على نداء قداسة البابا الذي دعا الى الحروب الصليبية التي كانت برصا لضمير النصرانية !..

*

اقول ذلك ، لان البشرية قد اجتازت هذه المرحلة واصبحت تتجه اتجاها قوميا ، وانسانيا ، لا يسمح لاعظم رؤساء الدين مهما يكن نفوذه الادبي ، ان يغير في حدود دولة من الدول ، ولو كيلو مترا واحدا . فحلت الاخوة الوطنية ، والرابطة القومية محل الرابطة الدينية .

*

فاسس الدين مهذبا للضمير الفردي ، ومنظما للطبيعة البشرية .

انا لا انكر قيمة اللغة العربية لانها لغة القرآن الكريم ، ذلك التراث العظيم ، فهي اذا شيء مقدس في نظر كل مسلم ، سواء اعرفها أم لم يعرفها ، ولا انكر قيمتها التاريخية ، فقد كان عدد المؤلفات الفلسفية والتاريخية والدينية والفكرية والجغرافية ، التي كتبت بها خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع والثاني عشر للميلاد ، اعظم ما كتب بأية لغة ، وما يزال لها اثر واضح في لغات الغرب ، التي استعارت منها مقررات علمية وفنية شاهدا على ما نقول ، وما زالت حروفها اوسع الحروف انتشارا بعد حروف اللاتينية ، من اجل هذا يجب الاحتفاظ بها ، والمحافظة عليها وعلى حروفها كتراث انساني خالد ، نزل به كتاب يقدسه خمسمائة مليون من البشر .

لكن ليس معنى هذا ان ازدهار اللغة العربية ، يعني بالضرورة ارتقاء الضمير ، ولعل **ازهى اعصر اللغة العربية اطلاقا ، كان يحمل اشنع انحراف في سلوك الامة ، وفي ضميرها !..**

*

اما في خصوص تاثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات أو اللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية غير العربية ، أو لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية أو الاسوية فانني اعتقد ان تاثير الفكر الاسلامي في الاقطار غير العربية ، جاء عن طريق الشريعة الاسلامية نفسها ، وتطبيقها العملي ، لا عن طريق اللغة العربية ، اقول هذا على الرغم من تسرب الفاظ عربية قرآنية في كل لغة يدين اهلها بالاسلام ، أو حكم اهلها العرب ، وبرهاني على ذلك ، ان اللغة الفارسية كان اهلها اشد الناس اتصالا بالعرب فحكمهم العرب ، ودانوا بالاسلام ، مع ذلك ، فان اللغة الفارسية لم تغير شيئا من احكامها ، لا من اجل القرآن الكريم ، ولا من اجل اللغة العربية .

فاللغة الفارسية لم تستعمل التنبيه ، ولا فرقت في الصفة بين المذكر والمؤنث ، ولا اشترطت المطابقة بين الصفة وموصوفها ، مع أن اللغة الفارسية من اكثر اللغات تاثيرا باللغة العربية من حيث الالفاظ ، فلناخذ مثلا المصدر (النقلي) الذي يدعوه بعض العلماء المصدر (الجعلي) الذي يحيق بآخره كاسعة (يدن) نحو : فهميدن ــ الفهم . طلبيدن ــ الطلب .

ومع هذا فتاثير الفكر الاسلامي في القوم لم يأتهم عن طريق اللغة ، بل عن طريق الدين والشريعة .

*

وقد اتضح لي من دراسة اللهجة الاردنية ، ولا سيما لهجة البادية والدساكر القريبة من البادية ، اصولا وفروعا ، ووضعي معجما خاصا بها ، انها من اقرب اللهجات الى العربية الفصحى ، ان لم تكن اقربها اطلاقا ، اذ يمكن رد الكثير الكثير من الفاظها الى الفصيح وتاثيرها في تعابيرنا واسع ، حتى ان بعض الادباء ادخلوا كثيرا من الالفاظ الاردنية العامية في اشعارهم ، فوجدت مكانها اللائق بها ، ولعلها زادت المعنى اصالة وعمقا ، كما فعل الشاعر الاردني المعروف (مصطفى وهبي التل) .

*

وقد وضعت انا نفسي قصة عنوانها (وطنية خالدة) ومجموعة قصص عنوانها : (ازاهير الصحراء) استعملت فيها كثيرا من اللهجة الاردنية الصحيحة والذي يقراها لا يفرقها عن الفصحى في شيء سوى النطق ببعض الاحرف .

صحيح ان استعمال اللهجة الاردنية بين ادباء الاردن ليس عاما ، لكن تاثير تلك اللهجة عندهم واضح على اي حال .

*

هذا وللغة العربية ، المكانة الاولى في ديارنا ، وهي لغة التعليم في مراحل التعليم كلها ، ويجب ان تظل لها هذه المكانة ، مع احدى اللغات العالمية الحية، لانها رابطة من اعظم الروابط القومية . ومن الخير لنا ان نهتم بلغتنا اهتماما يحفظها بخير ،على شرط ان لا نحول اللغة غاية بنفسها ، لان تحويل اللغة غايةيقتلها، ويقتل فكرنا معها ، ويجعل ابناءنا يكرهونها بل يمقتونها، ويمقتوننا معها ، وليس لي في هذا المقام ، الا ان الجأ الى كلمات الدكتور (طه حسين) القائل : « فالتلميذ اذا ذهب الى المدرسة واستمع الى استاذ اللغة العربية في النحو والصرف ، أو في البيان ، لم يستفد من استاذه ، الا شيئا واحدا ، وهو النفور من الاستاذ ، والنفور من اللغة العربية ، والانصراف الى شيء آخر يلهيه ويريحه من هذا العناء الثقيل ! »

هذا هو رايي ، الذي املاه علي الاخلاص المؤسس على التجربة .

أهم دعائم هذه الآراء

1 — القرآن الكريم .
2 — صحيح أبي عبد الله البخاري .
3 — حضارة العرب لغوستاف لوبون .
4 — الغزالي البارون كارادوفو — ترجمة عادل زعيتر .
5 — في صحبة الغزالي — أبو بكر عبد الرزاق المحامي
6 — الغزالي — الدكتور حسين أمين .
7 — مختصر تاريخ العرب ، والتمدن الاسلامي للسيد ابن علي
8 — التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
9 — لماذا تأخر المسلمون للامير شكيب ارسلان .
10 — العرب للدكتور فليب حتى
11 — المستشرقون لعقيقي
12 — محاضرات في الادب للدكتور شوقي ضيف
13 — فوائد مسجلة مخطوط .
14 — عشيات وادي اليابس ديوان شعر لمصطفى وهبي التل .
15 — وطنية خالدة وازاهير الصحراء .
16 — تعلم الفارسية .
17 — اسطورة الادب الرفيع
18 — ترجمة القرآن عبد الرحيم محمد علي
19 — القرآن والاحوال المناخية محسن عبد الصاحب المظفر .

لا صلة بين اللغة العربية والوعي الإسلامي

للأستاذ عبد الرحمن بشناق

عضو مجلس أمناء المكتبة العامة
لامانة العاصمة (الاردن)

من الواضح ان الاسلام سبب جوهري من أسباب انتشار اللغة العربية ، لغة القرءان والصلاة والعبادة ، ولغة المسلمين الفاتحين . ولكني لا ارى كبير جدوى من ان نستشف الغيب لنرى ماذا كان يؤول اليه الاسلام لو لم تكن العربية لغة القرءان .

ولا أجد صلة بين الوعي الاسلامي وما يعتري لغة الضاد من قوة أو ضعف . فاللغة الفصحى اليوم هي لغة الصحافة والاذاعة ولغة عدد ضخم متزايد باطراد من تلاميذ المدارس والجامعات ، ومع هذا فلا يوجد دليل على ان الوعي الاسلامي قد ازداد الان عنه قبل خمسين سنة او مائة سنة حين كانت العربية الفصحى تقاسي من الجهل والتاخر . لكني أعتقد من ناحية أخرى انه لو زاد الوعي الديني واتجه الناس الى قراءة القرءان الكريم لاستفادت اللغة الفصحى وقويت وصلحت .

أما تاثير القرءان فى لغات الاعاجم من المسلمين فيظهر فى النسبة العالية من الكلمات العربية التي تجدها فى اللغة التركية وفى لغات بلاد البلقان التي اسلم اهلها على يد الترك ، وفى اللغة الاسبانية وما تاثر بها من لغات .

اللهجة الفلسطينية الاردنية قريبة من الفصحى وهما تتقاربان باطراد بسبب انتشار التعليم انتشارا سريعا فى الاردن . ولهذا فليس للهجة الاقليمية هاهنا اثر خاص فى التعابير الفصحى التي يكتب بها المتعلمون.

المكانة اللائقة باللغة العربية فى بلدنا وفى كل بلد عربي هي الصدارة . وعلى الاقطار المغربية التي ابتليت بالحكم الفرنسي زمنا طويلا ان تسارع الى احلال اللغة العربية محلها اللائق لتستعيد هذه الاقطار عنصرا أساسيا من عناصر حضارتها وكيانها .

العربية لغة عالمية خالدة لأنها لغة القرآن

للأستاذ محمد عادل الشريف
أمين الفتوى - ووكيل المفتي العام - الأردن

شارك المكتب الدائم للاتحاد البريدي العربي فى استفتاء المكتب الدائم للتعريب بالرباط حول (علاقة الاسلام باللغة العربية) .

وقد وافانا بأجوبة قيمة لعدد من رجال الفكر فى المملكة الاردنية الهاشمية تلقاها من معالي وزير المواصلات الذي اشرف فى المملكة الاردنية الشقيقة على تنسيق هذه الابحاث وقد أصدر الاتحاد البريدي العربي الموقر هذه المجموعة فى كتيب صغير خاص بالاستفتاء فى الاردن .

ومن جلة هذه الدراسات بحث قيم لفضيلة الشيخ محمد عادل الشريف أمين الفتوى بالديار الاردنية ننشر مقتطفات ضافية منه شاكرين :

ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الامم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، واذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها فان الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية احرص الناس على حياة لغتهم فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة اخرى ، ولو تضافرت عليها أمم الارض جميعها ، لانها لغة القرآن الذي هو معجزة الرسالة ومطلع الهداية ، وقد كتب محمود بك سالم فى مقال (عليكم باللغة العربية) : (انها لغة المستقبل ولا شك انها لاتموت كغيرها من اللغات وتبقى هي اللغة الحية حتى يرفع القرآن نفسه من بين المسلمين لا سمح الله) .

ولا يخفى أن للغة العربية عصورا فقد مرت بها خمسة عصور .

العصر الاول — عصر الجاهلية وينتهي بظهور الاسلام ومدته نحو مائة وخمسين سنة .

العصر الثاني — عصر صدر الاسلام ويشمل بني امية ويبتدىء بظهور الاسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ .

العصر الثالث — عصر بني العباس ويبتدىء بقيام دولتهم وينتهي بسقوط بغداد فى أيدي (التتار) سنة 1665 هـ .

العصر الرابع — عصر الدول المتتابعة التركية — ويبتدىء بسقوط بغداد وينتهي بمبدأ النهضة الاخيرة سنة 1220 هـ .

العصر الخامس — عصر النهضة الاخيرة ويبتدىء من حكم الاسرة العلوية بمصر وينتهي فى سنة 1950م .

ففي العصر الاول كانت لغة العرب من أغنى اللغات وأعرقها قدما وأغزرها مادة وهي على ما هي

عليه من قوة وتناسق اجزائها لغة قوم اميين لم يكونوا فى حكمة اليونان ولا صنعة الصين ذهبوا وبقيت سائرة بعدهم مع كل جيل ملائمة لكل زمان ومكان ولا عجب أن بلغت مكانتها شأوا بعيد المدى اذ كان لها من عوامل النمو والازدهار والرقي ما قلما يتهيأ لغيرها وذلك لما فيها من اختلاف طرق الوضع والدلالة والتصريف والاشتقاق وما فيها من المجازات وتعدد المترادفات ولما تشرفت به من نزول القرآن الكريم والسنة النبوية بلسانها وما رواه لنا منها ائمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النبوي هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التي سكنت جزيرة العرب ، ولا يعلم بالضبط جميع الاسباب التي ادت الى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب فى بعض وغاية ما علم من الآثار الحجرية وبعض الروايات انه كان لجنوبي الجزيرة وشماليها لغات متميزة كل التميز عن العربية التي رويت لنا درست وبقيت منها اشباح تتراءى احيانا فى بعض لهجات العربية الاخير وطرق اعرابها واشتقاقها ، اما سبب اختلاف لهجات العرب فهو ان الامة العربية تألفت اخيرا من شعبين عظيمين (القحطانيين) او (اليمانيين) و (النزاريين) وتشعب من كليهما شعوب وقبائل لها لهجات مختلفة الفروع متحدة الاصول ، ولا ننسى أن البيئة ونزوح الديار ووسائل المعيشة كل ذلك بالاضافة الى غيره قد ابقى فى كلام كل قبيلة ميزات ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة او لغتها .

العصر الثاني : عصر الاسلام : كانت اللغة العربية لاتعدو اغراض المعيشة البدوية واثارة المنازعات والمشاحنات الا ان روحا من الله تنسم بين ارجائها فأيقظها من رقدتها وارشدها الى التعاون على البر والتقوى فى معاشها ولغتها وجماعتها فظهر ذلك جليا واضحا فى الاسواق التجارية اللغوية الاجتماعية وفى الاذعان فيها الى الفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما لان يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحد فكان ذلك ايذانا من الله باظهار الاسلام فيهم ولكن نفوسهم لم تألف هذا النمط الجديد وبينما هم كذلك جاء النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لاما شعثهم ، موحدا كلمتهم مهذبا طباعهم مبينا لهم طريق الحق وجادة الصواب بشريعة واسعة تتمثل فى كلام الله ورسوله وكان من نتيجة ذلك أن اسست لهم جامعة قومية مع التفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وتفهمهم شريعة كلامه وخضوعهم بعد لزعامة ورئاسة قومه وخلفائه وولاته وفتوحهم تحت الويتهم ممالك الاكاسرة والقياصرة وغيرها من جبال البرانس (جنوبى فرنسا) الى الهند والصين) .

شاعت اللغة العربية منذ ما قبل الاسلام بتأثير الاسواق مثل (عكاظ) وغيره بالجوار والمصاهرة فتوحدت لغات العرب وتمثلت جميعها فى لغة قريش واندماج سائر اللهجات العربية فيها واكثرها يرجع الى نزول القرآن بلغتهم وظهورها حسب الدعوة منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على ايديهم لانهم كانوا هم القائمين بأمر الاسلام بعد فتح مكة ومنهم كان الخلفاء والامراء وقادة الجيش ورجالات الدولة وبحكم الضرورة كانت لغتهم هي اللغة الرسمية بين كل القبائل وانتشرت اللغة العربية فى ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح (المغازى) ، وتقربت الاعاجم اليهم لتعليم لغتهم والدخول فى دينهم المستمد من القرآن العربي المبين ومن هنا اتسمت اغراض اللغة العربية بسلوكها منهجا دينيا فثبتت العقائد الدينية التي جاء بها الاسلام من اثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته ، ووضحت الشريعة باستنباط الاحكام المناسبة والملائمة للاحوال الشخصية زمانا ومكانا ، ولا حاجة اذا لذكر باقي العصور التي تعاقبت على اللغة العربية ، وقد قال ابن خلدون فى مقدمته وهو المؤرخ المشهور : (اعلم ان القرآن نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه واغراضه كان النبي صلى الله عليه وسلم يبين لهم المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ بين لهم اسباب نزول الآيات ومقتضى الحال ..) يقول صلى الله عليه وسلم (انا سابق العرب الى الجنة وصهيب سابق الحبشة الى الجنة ، وسلمان سابق فارس الى الجنة) ثم قال (من احسن منكم ان يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالفارسية لانها اقرب الى القلب واسهل فى التخاطب) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (تعلموا العربية فانها تزيد فى المروءة) . وقال الزمخشري (الله احمد ان جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعربية وانى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز (اي انفصل) وانضوى الى لفيف الشعوبية (اعداء العربية) وهنا يجمل بنا أن نذكر ما قاله محمد جاد المولى بك : كان العرب قبل البعثة المحمدية قد وقعت بينهم الفرقة وتشتت الالفة كانوا اخوان وبر ودبر اذل الامم دارا لاياوون الى جناح دعوة يعتصمون بها وصلوا قبل البعثة المحمدية الى هاوية الانحلال الاجتماعي بما لم يعهد له مثيل فى تاريخ الامم الى ان قال (وقد جرت سنة الله فى الكائنات ان يأتي بالنور بعد الظلمة وبالمطر بعد المحل) . ومن سنته ايضا ان يبعث رسولا متى وصل الانحطاط البشري الى ذروته رحمة بعباده ورأفة بخلقه .

درجة انتشار الاسلام :

جاء فى فقه اللغة للثعالبي (من احب الله تعالى احب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ومن احب رسوله العربي احب العرب ومن احب العرب احب العربية التي نزل بها افضل الكتب على افضل العجم والعرب ومن احب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها ومن هداه الله للاسلام وشرح صدره للايمان اهتم بها كاهتمام تحصيل زاده لنفسه .

يلاحظ أن الاسلام يواكب اللغة العربية ففي المكان الذي تكثر فيه المعاملات يكون الاسلام فيه أكثر انتشارا وتعتبر (تابورا) حصن الاسلام المنيع فى افريقيا الشرقية يقدر سكان هذه العاصمة بنحو (35) الف نسمة منهم (25) الف نسمة يدينون بالاسلام ويوجد بمدينة (تابورا) وضواحيها نحو (30) مسجدا ومدرسة لتحفيظ القرآن واربعة مساجد كبيرة خصص احدها للعرب واما باقي المساجد فعبارة عن مبان بسيطة من القش ولا تقام صلاة الجمعة بانتظام الا فى مساجد العرب وتقوم المكاتب الدراسية بتعليم النشء القراءة والكتابة بالحروف العربية وبتلقينهم القرآن .

ولقد ثبت تاريخيا ان المسلمين الغرباء تمكنوا حتى سنة 1911 المتداخلة فى سنة 1912 من التغلغل الى قلب المناطق العربية من افريقيا الشرقية ونشر الدعوة الى الاسلام بين الوطنيين كما استطاعوا وضع هذه البلاد تحت نفوذهم الاقتصادي والتجاري وما ذلك الا للتطور الفكري نحو الافكار الاسلامية بين قبائل الوطنيين من حين لآخر . ولقد انتشر الاسلام فى الاراضي السودانية من تلقاء ذاته تمشيا مع اللغة العربية بدون اي مجهود يذكر . الفتح الاسلامي كان فى آونة نهضة فكرية اتجهت فيها الاذهان الى المطالبة بديانة ثابتة الدعائم صحيحة الاصول .

ومن العوامل السياسية التي ساعدت على انتشار الاسلام تدخل القبائل الاسلامية فى الاوساط الوثنية بطرق سليمة كما تم لهم ذلك فى السودان العربي ، اما العوامل الاجتماعية التي ساعدت على نشر الديانة الاسلامية فى تلك الاقاليم فكانت اقوى حجة وانجح اثرا الا انها لاتعتبر سببا اوليا مثل العوامل السياسية حيث انها كانت تعمل على انتشار الدين بطرق بعيدة المدى ولكنها كانت فى كثير من الاحوال تاتي بنتائج انجع من العوامل السياسية الاولى فان الاسلام كان ولا يزال فى نظر اهالي السودان يعتبر فى مرتبة عالية من الثقافة والتحضر بالنسبة لعبادتهم القديمة .

ولقد ساعدت الفتوحات العظيمة على انتشار الاسلام بسرعة فائقة داخل البلاد تمكن ما يزيد على (50) الفا من الغولبا المسلمين من جعل ما لايقل عن (245) الفا من العبيد الوثنيين يدخلون الاسلام وذلك لمعرفتهم باللغة العربية .

تاثير الفكر فى اللغة :

للفكر اثر عظيم فى اللغة ولولا الفكر لم يكن لوجودها اية فائدة. الفكر هو الذي يربط الالفاظ بمعانيها وهو الذي يتوسل به الانسان الى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة او يبتدع فيها اساليب يضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها .

اما اللغة فهي تصور ما يخطر فى الفكر من المعاني وهي التي تجعل المعاني محفوظة باقية . يقول احد الفلاسفة : ان الافكار التي تودع فى الالفاظ كالشرارات التي لاتبرق الا لتذهب وهنا نتساءل هل يمكن اتحاد البشر فى لغة ؟ قال العالم الفرنسي ديكارت : (ان تعدد اللغات ادى الى صعوبة التفاهم بين الافراد والجماعات وهذا ما جعل سير المدنية بطيئا) وجاء الطبيب البولوني Esperanto اعتمد على (28) حرفا ووضع له (16) (لودفيج زامنهوف) فوضع اللسان المسمى (الاسبرانتو) قاعدة معظم كلماته من اللغة الرومانية والانجليزية . وفى العالم جمعيات تدعو لهذا اللسان يقدرونها بنحو (1776) جمعية وفى المانيا وحدها من هذه الجمعيات (441) جمعية مركزها الرئيسي فى مدينة (لايبتسيق) — ولجمعيات العالم كلها مركزان اساسيان احدهما فى (جنيف) والآخر فى (باريس) وفى أوروبا وأمريكا والصين واليابان صحف تصدر بهذه اللغة وفى دائرة المعارف الالمانية بلغ عدد المتكلمين بها قرابة (130) الفا .

وخلاصة القول انه ليس من الهين ولا من السهولة بمكان أن توضع لغة تتلقاها كل الامم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، واذا فرضنا ان شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها فان الشعوب التي تنطق (بالضاد) احرص الناس على حياة لغتهم فمن المحال أن يستبدلوها بلغة اخرى .

ولنشرع الآن فى الاجابة عن الاسئلة :

هناك تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة بل هناك ارتباط لان انتشار الاسلام متوقف على انتشار وقوة اللغة فى اي مكان أو زمان بل كل منهما متوقف على الآخر فبدون اللغة العربية لاينتشر الاسلام لان القرآن

الكريم (الذي انزل على النبي العربي فى غاية البلاغة والفصاحة ولا يمكن للغات الاجنبية أن تعبر عما جاء فيه) قد تحدى الامم باسرها (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لاياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وكذلك الاحاديث النبوية .

فالاسلام كان أكثر ذيوعا وانتشارا فى البلاد التي تحمل طابع العربية أو تتكلم بالعربية أو ان الاسلام يكون اكثر انتشارا عندما ينفر المرشدون والموجهون العالمون باللغات الاجنبية بالاضافة الى اللغة العربية .

ان للاسلام ثقافة مبتكرة مستقلة تستمد نورها من وحي القرآن الكريم والسنة المطهرة دون أن يكون لاية أمة من أمم الارض على المسلمين يد فيها .

فلقد كان للمسلمين فقه أوسع ما عرف فى علوم التشريع والاجتهاد واوضحه نظرا واصدقه مخرجا وها هي ذي آثار ثقافتهم بارزة فى كتبهم كأصدق شاهد على صفاء أذهانهم واستنارة افكارهم وما كان سطوع هذه الكواكب المشرقة وما لها من التاثير لاخراج الناس من الظلمات الى النور الا بسبب احرازهم على أوفر جانب من الثقافة الفكرية وتضلعهم فى اللغة العربية التي تمكنوا بفضلها من نشر الاسلام .

ولندع الحكم بين اللغة العربية واي لسان اعجمي لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الاعجمي فهو الذى قد يصغى اليه الناس متى انسوا فيه الانصاف ويتلقون حكمه بالقبول . والذى اقوله وانا على بينة مما أقول ان أساليب اللغة العربية اقرب الى النظم الطبيعية من اللسان الالماني مثلا فان فيه ضروبا من التصرف كالافعال المركبة من قطعتيها احداهما اول الجملة وثانيتهما عند انتهائها فالسامع لايعرف معنى الفعل ومن هنا يفقد الكلام ترتيبه الطبيعي ومن أجل هذا فان اصحاب اللغات سبقونا الى عقد المجامع اللغوية منذ احقاب فالمجمع اللغوي فى المانيا تألف سنة 1617 ، والمجمع اللغوي الافرنسي سنة 1634 واننا لا ننسى بأن كلمات كثيرة حدثت فى اللغة الغربية واصبحت تجري على السنة ادبائنا مما تشتد الحاجة فيه الى مجمع لغوي اصبح اليوم فى ايدينا .

اسئلة ايضاحية :

1) ان السبب المباشر فى انتشار الاسلام هو صحة الدعوى التي جاء بها رسول الامة العربية لانها قامت على الحجة والبرهان والمنطق السليم ومما ذلل الدعوة فى قلب الجزيرة العربية طبيعة الجزيرة نفسها ومعرفتها للغة العربية اصالة وسليقة .

(وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون) (سورة الزخرف) اي ان هذا القرآن شرف لك ولقومك وسوف تسالون عن التفريط فيه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (27) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (الزمر) .

كانت العرب بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام على دين أبيه ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم تعبد الله وتوحده وكان العرب آنذاك يعبدون الحجارة وقد ظهر منهم أفراد لم ترقهم عبادة الاحجار والاشجار ، فكانوا يعبدون الله على ملة ابراهيم الا انهم كانوا ينتظرون نبيا عربيا يخلصهم من هذه المعبودات والخرافات ينتظرون من يجمع شتاتهم ومعنى هذا أن لغة ابراهيم هي العبرانية وهم العرب الاقحاح فلم تصل دعوته الى اعماق قلوبهم وقد كان ابراهيم فى الحجاز يدعو الناس الى دين الله كان غير قادر على افهام العرب اللغة العبرية لغته ولغة ولده اسماعيل ولذلك دعا ربه وهو يبني البيت (الكعبة) مع ولده اسماعيل فقال (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم (129) (البقرة) . وقد جرت سنة الله فى الكون انه كان يرسل لكل أمة رسولا منها لتفهم وتعي منه ما يقول قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) (4) (ابراهيم) .

ان نزول القرآن عربيا فى العرب وفى جزيرة العرب كان بمثابة اقامة الحجة اذ لم ينزل لهم كتابا اعجميا لايعرفونه ولا يفهمونه كما انه لم يرسل لهم رسولا اعجميا لايفهمون حديثه ولذلك قال سبحانه (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ((103 النحل) . فآياته واضحة يفهمها العرب لانها لغتهم ولئلا يكون للعرب على الله حجة قال تعالى : (ولو نزلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، آاعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء (44 فصلت) .

اما اليوم فان الاستعمار بشتى أنواعه والوانه قد عزز عصاه فى أكثر الدول العربية والدول الاسلامية

فتدخل فى نظمها ودراساتها ومناهجها وقد نجح المستعمر فى تضليله وتمويهه .

2) ان الوازع الديني يقوى فى النفوس متى كان دعاة الوعظ والارشاد واعين لرسالتهم . فقد كان بلدنا قبل الاستعمار البريطاني اقوى ايمانا واصلب عودا ويقينا . وكان العهد العثماني غير مشجع للعلم والتعليم لكنه كان يقوي ويشجع النواحي الدينية حرصا على سمعة الاسلام والمسلمين وتنفيذا لاحكام القرآن . اما عهد الاستعمار فكان عهد حرية واباحية ولا دينية .

3) ان القرآن الكريم والحديث النبوي قد سلكا فى البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ وان فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم قد زاد فى مجال اللغة بسطة بما نقل اليها من المعاني العلمية او المدنية ففضل الاسلام على اللغة العربية يظهر فى غزارة مادتها وبراعة أساليبها واتساع افقها ومذاهب بيانها وكثرة الاغراض التي يتسابق اليها فرسان الخطابة والكتابة والذي أحاول الحديث عنه هو أثر لغة القرآن بالثقافة الاسلامية فى تغذية الفكر الانساني ومسايرة التطور العلمي والاجتماعي ، فقد سطع نور الاسلام على وجه المعمورة فلم يجد من ثقافات الامم الغابرة الا امشاجا من حكمة اليونان وآداب الرومان وتعاليم المسيحية على ما أصابها من تحريف فحمل الملك (غوستينان) على الفلاسفة والحكماء انتصارا منه لآراء الكنيسة الغربية التي كان من قواعدها يومئذ اضطهاد العلم والعلماء والقسوة على الحكمة والحكماء ففر من وجه العسف الروماني جم غفير من الفلاسفة واستعملوا النظريات الفلسفية للذياد عن آراء فريق من المسيحيين حتى امتزجت نظرياتهم بهذه الآراء وكان منهما مذهب (الافلاطونية الجديدة) وهو مذهب كنسي اكثر منه فلسفي وهكذا أخذ أثر الثقافةالقديمة يضعف ويتضاءل أمام جور المتعسفين من حكام الرومان حتى قام بناء الاسلام الشامخ فى اقل من ربع قرن اكمل الله فيه على يد خير امة أخرجت للناس . فكل قطر من الاقطار الاسلامية غير العربية التزم اللغة الرسمية السائدة لدولة ذلك القطر وقد أشرنا الى أن للاستعمار اليد الطولى فى تكييف الشعب من حيث العناية باللغة والدين فللنواحي السياسية دخل فى قوة وضعف كل من الاسلام ولغته ، اما الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية والآسيوية فانهم كانوا يعتنقون الاسلام على قدر وعيهم وثقافتهم وخبرتهم باللغة العربية فالنظر الى المثقفين هو من حيث المستوى الثقافي العلمي واما عامة الناس فى الجاليات الاسلامية فيسودهم التقليد فى التمسك بالاسلام .

4) قد تعوق اللهجة الاقليمية أحيانا التعابير العربية المحلية لانها مزيج من لهجات اكتسبتها من اقاليم اخرى .

5) اننا فى الاردن نهتم تلقائيا وعقيدة باللغة العربية كلغة للتخاطب ولابد لنا من مجمع لغوي لكل قطر للاشراف على تهذيب ما طرأ على اللغة وما قد يطرأ عليها . ولابد من العناية باللغات الاجنبية الاخرى ولكن المكانة التي تحتلها العربية فى هذا البلد هي الاولى وختاما اشكر القائمين على المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي .

العربية إنما ازدهرت وانتشرت في ظل حضارة الإسلام

بقلم الأستاذ خليل العزيزي

(الاردن)

ان المتتبع لتاريخ العرب يرى أن اللغة العربية قبل الاسلام كانت محصورة فى الجزيرة العربية وما يليها من بعض المناطق مثل مشارف الشام والعراق فى المناطق التي كانت تسيطر عليها دولتا الغساسنة والمناذرة .

وحتى فى داخل الجزيرة نفسها فلم تكن السيادة تامة للسان عربي واحد بل كان فى الجزيرة العربية لسانان هما لغة القحطانيين ولغة العدنانيين وكان البون بينهما شاسعا حتى ذهب أحد أئمة اللغة العربية وهو أبو عمرو بن العلاء الى رفض اعتبار اللغة الحميرية لغة عربية (1) .

كما أن سيادة اللغة العربية فى الجزيرة العربية كانت مهددة كذلك بغزو خارجي .

فنفوذ الحبشة فى اليمن وجنوب الجزيرة العربية كان من المحتمل أن يؤدي الى انتشار اللغة الحبشية فى تلك المناطق لو استمر نفوذ الحبشة السياسي فيها . وكذلك الامر بالنسبة للشمال فنفوذ الفرس والروم السياسي كان لابد أن يؤدي الى سيادة ثقافتهم وبالتالي لغاتهم على مناطق نفوذهم التي كانت تتوسع شيئا فشيئا قبل مجيء الاسلام .

فما الذي حال دون انقسام اللغة العربية فى داخل الجزيرة الى لغات ؟ وما الذي حال دون تغلغل النفوذ الثقافي واللغوي للاقوام المجاورة داخل الجزيرة العربية؟

وما الذي حمل اللغة العربية خارج نطاق الاماكن التي كانت تقطنها القبائل العربية ؟ حتى وصلت الى أواسط الهند وتخوم الصين شرقا والى المحيط الاطلسي وسهول فرنسا وأواسط ايطاليا شمالا وغربا .

لاشك أن العرب قبل الاسلام لم يفعلوا ذلك وان هذا **الامتداد للغة العربية انما كان بفضل الاسلام ،** فمنذ أن بدأت الدعوة الاسلامية بالانتشار سارت معها اللغة العربية باعتبارها لغة كتاب الاسلام وهو القرآن الكريم .

ففي داخل الجزيرة العربية وحد الاسلام العرب على لغة واحدة هي اللغة التي انزل فيها القرآن وهي لغة الشمال أو لغة العدنانيين ، وبعد أن حقق الاسلام الوحدة الفكرية والوحدة السياسية للجزيرة العربية أصبحت لهجة قريش هي اللغة الرسمية فيها وبدأت تتلاشى اللهجات الاخرى المختلفة ولم يبق منها سوى ما تناقله الدارسون والرواة من شذرات قليلة نقلوها كأمثلة على اختلاف هذه اللهجات أو اللغات كما كانوا يسمونها .

اما خطر تغلب اللغات الاجنبية على بعض ارجاء الجزيرة كالحبشية والفارسية والرومية فقد زال بقيام دولة الاسلام القوية التي حفظت الجزيرة العربية قاعدة اسلامية عربية وأخرجت كافة القوى التي يمكن أن يأتي

---

(1) تاريخ الادب العربي لاحمد حسن الزيات ص 14 .

منها اي خطر سياسي او ثقافي من جزيرة العرب . أما حمل اللغة العربية خارج حدودها القديمة فقد تولاه الفتح الاسلامي الذي اكتسح جزءا ضخما من قارات العالم القديم الثلاث فى فترة قصيرة من الزمن واصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة الاسلامية فى عهود الراشدين والامويين والعباسيين فاقبلت شعوب الاقطار المفتوحة على تعلم اللغة العربية .

أولا — انها ضرورة حتمية للدين الاسلامي الذي اصبح دين اكثرية تلك الشعوب لما راوه من بساطته وجماله وسماحة اهله .

وثانيا — انها اللغة الرسمية التي لابد منها لكل من يريد أن يكون له نصيب من الادارة او السلطة .

وثالثا — انها تتيح لمن يتعلمها أن يتنقل بين ارجاء العالم الاسلامي فى آسيا وافريقيا واوروبا دون أن يحتاج الى معرفة اللغات الاقليمية التي كانت سائدة قبل انتشار الاسلام .

هذا تأثير الاسلام على اللغة العربية من حيث امتدادها الجغرافي غير أن ثمة تأثيرا آخر للاسلام على لغة الضاد **وهو تحويلها من لغة بدائية** تكاد تنحصر مفرداتها بحياة البادية وما فيها من حيوان وطبيعة وادوات حياة بدائية الى لغة حضارة وعلم تستوعب مطالب الحضارة المعقدة المختلفة وتعبر عن كافة قضاياها ومشاكلها وذلك ان الاسلام اقام فى الاقطار المفتوحة مع جزيرة العرب **حضارة جديدة** لها مميزاتها وخصائصها الذاتية مستفيدا من الحضارات القديمة التي كانت تسود مناطق العالم الاسلامي **فورثت حضارة الاسلام حضارات الهنود والفرس والرومان واليونان والمصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين وشعوب شمال افريقية وقوط اسبانيا** وصهر جميع هذه الحضارات وضم اشتات تلك المجتمعات بحضارة جديدة يمثلها المجتمع الاسلامي ، وكان لابد لهذه الحضارة الجديدة من لغة تعبر عن محتواها فكانت اللغة العربية وما كان **للغة العربية ان تكون كذلك لولا الاسلام .**

وبذلك كانت اللغة العربية فى المجتمع الاسلامي لغة الدين وما تفرع عنه من دراسات فقهية وعقائدية وقانونية وهي **لغة العلوم الطبيعية التي ازدهرت فى ظل حضارة الاسلام وهي لغة الفلسفة وهي لغة الادب .**

بل بفضل الاسلام وحضارته كان المثقفون من ارجاء العالم غير الاسلامي يضطرون الى تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة العلم والادب مما دفع بعض ملوك اوروبا وباباوات روما الى جعل **اللغة العربية اللغة الاولى فى بلاطهم ونشاطهم الثقافي .**

اما تأثير اللغة العربية على انتشار الاسلام وفرض انه لو لم تكن اللغة العربية هي لغة القرآن لما انتشر ذلك الانتشار فرغم ان هذا الفرض يوحي بما للغة العربية من خصائص الجمال والجاذبية والمرونة الا ان الواقع لايؤيد هذا الفرض وذلك ان انتشار الدين اي دين فى امم الارض لم يقترن يوما بلغة هذا الدين فالبوذية والمسيحية والاسلام وهي اكثر اديان العالم اتباعا واتباع هذه الديانات لاتتكلم اكثريتها لغة الدين الاصلية بل انه لا يتكلم لغة الانجيل الاصلية (وهي السريانية) احد من اتباع المسيحية .

والفضل الاول لانتشار اي دين انما هو فى امرين اثنين اولا طبيعة تعاليم هذا الدين كتجاوبها مع حاجات الانسان وبساطتها وسهولة فهمها ، والثاني نشاط دعاة الدين والطريقة التي يعرضونه فيها على الامم الاخرى.

وقد تهيأ للدين الاسلامي من بساطة عقيدة وتجاوبها مع حاجات الانسان سواء كان انتماؤه لمجتمع متطور كالمجتمعات الرومانية والفارسية أو لمجتمع بدائي كشعوب افريقيا ، كما تهيأ لهذا الدين دعاة مخلصون هم الرعيل الاول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلامذتهم الذين تجردوا للدعوة واحسنوا حملها وعرضها وكانوا القدوة الحسنة والمثال العملي لتعاليم الاسلام وما فيها من مبادىء العدل والمساواة والانسانية .

ومما يؤيد ان طبيعة الاسلام ونشاط دعاته هما عاملا انتشاره ان اغلبية المسلمين فى العصر الحاضر ليسوا من الشعوب التي تكلمت اللغة العربية اصلا او انها تكلمتها فى حقبة من تاريخها ثم تركتها وعادت الى لغاتها القومية بعد تصاعد الاتجاه القومي والاقليمي فى كثير من الاقطار الاسلامية وخاصة فى القرنين الاخيرين.

* * *

ان الوعي الاسلامي والوازع الديني سواء فى بلدنا او فى اي قطر اسلامي يتأثران بمؤثرات شتى ومختلفة قد تكون اقوى من تأثير اللغة فالتغيرات الاجتماعية والمشاكل الاقتصادية والسياسية والمدنية الغربية المروجة وما تمارسه من ضغط اجتماعي واخلاقي وسياسي عن طريق وسائل اعلامها والقوى الدائرة فى فلكها تشد الناس نحو نمط معين من الحياة وترويج

مذاهب اجتماعية وسياسية واخلاقية وفنية شتى فى المجتمعات الاسلامية كل ذلك يؤثر فى الوعي الاسلامي والوازع الديني ، كما ان الاتجاهات الفكرية التي تبدو وكأنها منبثقة فقط من داخل المجتمعات الاسلامية لها اكبر الاثر فى التأثير على الاسلام فى تلك المجتمعات فحركة مصطفى كمال فى تركيا كان لها أكبر الاثر على الاسلام فى تركيا بل وفى العالم الاسلامي كله اذ اتجه فى محاولته لتطوير تركيا الى دولة عصرية الى محاربة الاسلام وتقاليده وقطع علاقة تركيا بالشعوب الاسلامية الاخرى وخاصة العربية وقضى على الخلافة واتجه بتركيا كليا نحو الغرب وحضارته ومثله مع انه كان باستطاعته أن يحضر تركيا ويطورها مع ابقائها اذ ان الطاقة المبذولة لصراع الاسلام وهو دين ثابت الجذور عميق الاسس فى الشعب التركي ستحول هذه الطاقة من الهدم الى البناء ومن مصارعة الدين الى تنظيمه ومن هنا فشلت تجربة الاتاتوركية فى تركيا من عزل هذا البلد المسلم وسلخه عن الشعوب الاسلامية كما فشلت كذلك فى تطوير تركيا بأسرع مما تطورت فيه شعوب اسلامية أخرى لم تسلك نفس السبيل .

ومن مثال تركيا يمكننا أن نفهم كثيرا من الحركات السياسية والاجتماعية التي اثرت فى المجتمعات الاسلامية .

الا انه لاينكر تأثير اللغة العربية على الوعي الاسلامي عندما تتوفر عناصر هذا الوعي فان البلاد الناطقة باللغة العربية اقدر على فهم الاسلام لقدرتها على فهم القرآن والحديث وهما المصدران الاساسيان لتعاليم الاسلام ، أكثر من غيرها من الشعوب التي لاتتكلم العربية . الا انه فى نفس الوقت قد يكون فى بعض الاقطار الاسلامية غير العربية وعي اسلامي أقوى واشد مما فى بعض الاقطار الاسلامية العربية لاسباب أخرى كوجود قيادة اسلامية نوعا ما فى تلك الاقطار ولاشك أن باكستان خير مثال على ذلك .

* * *

أما تأثر اللغة العربية بالوعي الاسلامي فهو ولا شك وارد ، والواقع التاريخي للشعوب الاسلامية في الماضي والحاضر يؤكد هذا التلازم بين اللغة العربية والاسلام اذ انه كما سبق وبينت أن اللغة العربية انما سارت وانتشرت فى ركاب الاسلام وحلت حيثما حل ثم مضى الاسلام وحده الى كثير من الارجاء التي لم تتمكن اللغة العربية من اقتحامها او انحسر مد اللغة العربية وبقي الاسلام . وقد كان الاسلام المؤثر الاول فى الدراسات اللغوية الراقية والمؤلفات اللغوية والادبية المختلفة التي ملأت المكتبة العربية منذ القرن الثاني الهجري كما أن الاسلام هو الذي دفع كثيرا من الباحثين من غير العرب للتخصص فى مباحث اللغة العربية وآدابها والكتابة فيها ولاشك أن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وسيبويه ونفطويه وابن العميد والزمخشري وغيرهم من المسلمين غير العرب خدموا اللغة العربية والادب العربي كأحسن ما يخدم صاحب لغة لغته رغم أصلهم غير العربي .

كما أن **تبني بعض الشعوب الاسلامية غير العربية للغة العربية** حتى عصرنا الحاضر انما يعود الفضل فيه الى الاسلام فانتشار اللغة العربية فى **الصومال والسنغال ونيجيريا وموريتانيا** وبعض أرجاء **ايران وتركيا** انما يعود لارتباط شعوب هذه المناطق بالاسلام ولا تزال الامم الاسلامية كلها رغم تركها للغة العربية كلغة أساسية رسمية تستعملها كلغة دينية تتفاوت فى فهمها ولا تزال ايران وباكستان ومسلمو الهند يستعملون **الاحرف العربية لكتابة لغاتهم القومية** .

كما ان قوة اللغة العربية فى الاقطار العربية نفسها ترتبط الى حد كبير بالوعي الاسلامي فقد ظهرت فئة من المتادبين ومنتحلي البحث فى كثير من أرجاء الوطن العربي يدعون **الى هجر اللغة العربية الفصحى واحلال اللهجات العامية** محلها فى البحث والعلوم والادب وحاولوا الترويج لدعوتهم التي تحمل فى ثناياها الاماتة التامة للغة العربية وتؤدي الى قطع ماضي اللغة العربية بحاضرها كما يؤدي انتشار اللهجات العامية لو تم — لا سمح الله — الى تقطيع اصرة التفاهم الوحيدة بين شعوب الاقطار العربية وهي اللغة العربية الفصحى اذ ان اللهجات العامية فى الشعوب العربية متباينة اشد التباين وانه لاهون على العربي فى الاردن وسوريا ومصر والعراق أن يتفاهم مع العربي فى الجزائر والمغرب العربي بلغة اجنبية من أن يتفاهما كل بلغته العامية وقد جربت ذلك بنفسي مع عربي من المغرب التقيت به مرة فى أوروبا وكان لايحسن الفصحى فلم نستطع اطلاقا ان نتفاهم هو بلغته المغربية العامية وانا بأردنيتي الا بالفصحى مع القليل مما اعرفه من العامية المغربية .

والذين وقفوا فى وجه تيار العامية هم الذين يؤمنون بالارتباط بين اللغة العربية والاسلام والذين روجوا هم الذين يتمنون ان ينسلخ العرب عن الاسلام

وقد صرحوا بذلك تارة واخفوه تارة ولولا قوة الوعي الاسلامي وتأصل الاسلام بأكثرية الشعب العربي لكان لهذه الدعوات الهادمة نجاح ولادى ذلك الى زوال العربية بالتدريج وقيام لغات محلية تنفصل على المدى البعيد كليا عن اللغة العربية كما حدث بالنسبة للغة اللاتينية التي انقسمت الى لغات اقليمية وقومية لاتفاهم الآن بين المتكلمين بها كالاسبانية والبرتغالية والايطالية .

* * *

ومن المسلم به ان **مفردات ومصطلحات اي لغة انما تتكون من مجموع التراث الفكري والحضاري لتلك اللغة** وعلى قدر عمق الحضارة وسمعتها وشمولها يكون عمق اللغة المعبرة عن تلك الحضارة ويكون شمولها وسمعتها .

والدين من اهم دعائم الحضارات عامة واهم دعامة قامت عليها الحضارة الاسلامية بصفة خاصة . وقد تبين لنا مما سبق كيف كان دور الاسلام فى نشر اللغة العربية وتطويرها وجعلها لغة العلم والادب للمجتمع الاسلامي الكبير .

ورغم ان كثيرا من الاقطار الاسلامية غير العربية تركت استعمال اللغة العربية كلغة رسمية وانصرفت الى لغاتها المحلية الا ان تأثير الدين بالقوم وتأثرهم بالقرآن الكريم الذي يقرأونه ويحفظونه وقد لا يفهمونه جيدا جعل من **اللغة العربية والتراث العربي مصدرا أساسيا** تستمد منه تلك اللغات المختلفة كثيرا من مفرداتها وتعبيراتها .

ولا يحتاج من يسمع الى اهل **ايران** وهم يتكلمون الفارسية أو الى اهل **باكستان** وهم يتكلمون الاوروبية لايحتاج السامع اليهم الى أن يكون متخصصا بتلك اللغات ليعرف أن **نسبة كبيرة من مفردات هاتين اللغتين من أصل عربي** . وقس على ذلك كثيرا من لغات افريقية كاللغة السواحلية والهررية واللغات المحلية فى السنغال والصومال ونيجيريا وكينيا وغيرها من الاقطار الافريقية التي تضم نسبة عالية من المسلمين .

وحتى الجاليات الاسلامية المنقطعة كليا عن العالم الاسلامي جغرافيا كالمسلمين فى بعض أرجاء أوروبا وأمريكا يدخلون بحكم تأثرهم بالقرآن والدين كثيرا من الالفاظ العربية التي يشعر المسلم ان ترجمتها لاتؤدي المعنى الدقيق الذي تؤديه مفردات الاصل العربي وعلى قدر نحو تلك الجاليات ومكانتها بالمجتمع تتزايد قدرتها على اشاعة واستعمال امثال تلك التعبيرات .

* * *

اما تأثير اللهجة الاقليمية فى التعابير العربية المحلية فى الاردن فانه يبدو لي انه من المقارنة السريعة بين اللهجة الاردنية واللهجات العربية الاخرى ان اللهجة المحلية لسوريا الكبرى التي تضم سوريا والاردن وفلسطين وكذلك الاجزاء الغربية والجنوبية من العراق اقرب اللهجات المحلية للفصحى واكثرها تأثرا وبالتالي تأثيرا فيها الا انني أرى من ناحية اخرى أن هذا الموضوع يحتاج الى دراسة أعمق فى بحث مستقل لا يتسع له المقام .

* * *

وفى خصوص المكانة التي يجب أن تحتلها اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية فى الاردن نرى انه مما لاشك فيه ان اللغة العربية هي التي ينبغي أن تكون وحدها **لغة الدولة ولغة العلم والتدريس** فى جميع مراحل الدراسة حتى نهاية الدراسات الجامعية العليا وأن تعمل الدوائر العلمية المختصة الى اتمام النقص فى هذا الجانب **بترجمة جميع مصطلحات العلوم والمعارف والفنون الى اللغة العربية** اذ انني أومن انه اذا أرادت الامة العربية أن تحقق التقدم الواجب تحقيقه فى مجال العلم والمدنية الحديثة لابد أن تكون **اللغة العربية فيها هي لغة البحث العلمي** ليستطيع كل مثقف ان يساهم فى حقله وميدانه بنصيبه من البحث الذي يخدم تطوير المجتمع وحتى يكون العلم النافع فى جميع حقول المعرفة ميسرا لكل قارىء فى هذه اللغة .

اللسان العربي شعار الإسلام

للأستاذ عز الدين الخطيب التميمي

مدير الوعظ والارشاد
(الاردن)

التلازم بين الاسلام واللسان العربي تلازم وثيق العرى ، عميق الاثر ، اذ لايتصور الاسلام المؤثر دون العربية ، ولا يتصور انتشار العربية دون الاسلام ، لانهما متلازمان فى حقيقتهما ، ومتلازمان فى بقائهما ، ومتلازمان فى حركتهما وانتشارهما ، فان الاسلام والعربية طاقتان متحدتان أحدثتا فى حياة الانسان آثارا عظيمة فى تقدمه الفكري والعلمي والخلقي والاجتماعي .

ومعرفة مدى هذا التلازم بين الاسلام واللسان العربي تقتضي معرفة مدى التلازم بين اللسان العربي وبين مصدر الاسلام الاول واعني به القرآن الكريم ، اذ لايمكن للمرء أن يحكم الحكم الصحيح على مدى التلازم بين أمرين متلازمين اذا ضرب صفحا عن بحث التلازم واستقصائه بين أصولهما ، بل لابد من تحديد التلازم بين الاصول الاولى لكليهما عندئذ يخرج بالنتيجة الصحيحة فى الحكم على مدى التلازم .

وذلك ان القرآن الكريم كتاب عربي اللغة عربي الاسلوب ، فانه اللفظ العربي الذي انزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بما يدل عليه من معانيه ، ولذلك كان القرآن هو مجموع اللفظ المنزل والمعنى المشتمل عليه اللفظ ، فمعانيه وحدها ليست قرآنا ولا تسمى قرآنا ، والفاظه وحدها لا يتصور أن تكون دون معنى مطلقا لان اصل وضع اللفظ اللغوي قائم على ارادة معنى له . ولهذا فقد وصفه الله تعالى بوصف لفظه العربي ، قال تعالى « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . وقال « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون».

والقرآن الكريم كتاب بين العبارة ، سلس الاسلوب جزل الآداب ، فخم التعبير ، مستقيم الفكرة ، محدد الغاية ، منسجم الفكرة والغاية ، وقد ورد فيه آيات تدل دلالة قاطعة على التلازم الوثيق بين وضوح فكرته وبين عربيته ، قال تعالى « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » وورد فيه آيات تدل دلالة قاطعة على التلازم الوثيق بين عربيته وبين استقامة فكرته وانسجامها قال تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » . وورد فيه آيات تدل دلالة قاطعة أيضا على التلازم بين يسره وسهولته وبين عربيته قال تعالى « فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ولسان النبي هو اللسان العربي والتعبير « بانما » فى الآية له دلالته على التلازم بين يسره وعربيته . ووضوح الفكرة واستقامتها ويسرها هي العناصر الرئيسية التي تحقق للفكرة الثبات والبقاء والانتشار وذلك كله يجعلنا نجزم بالتلازم الوثيق بين

(1) من كلام ابن تيمية

القرآن الكريم وبين اللسان العربي وبالتالي يجعلنا نجزم بأن التلازم بين الاسلام والعربية أمر مفروغ منه . لان التلازم قائم بين اساس الاسلام وهو القرآن وبين اللسان العربي ، بل ان سر اعجاز القرآن قائم على كونه عربيا في اللغة والاسلوب ، ولست في هذا الموطن في معرض الحديث عن اعجاز القرآن وعن ادبه الشامخ وبلاغته الرفيعة واسلوبه المعجز ، لان الحديث هنا عن عربيته التي لم يخالطها شيء من الاعجمية قط قال تعالى « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته آعجمي وعربي » بصيغة الاستفهام الانكاري مما يجعلنا نجزم بانه ليس في القرآن لفظ غير عربي ، واما ما قيل عن وجود بعض الالفاظ غير العربية فيه من نحو سجيل وقسطاس واستبرق فانها الفاظ عربية بالتعريب ، اذ كل لفظ معرب بطرق التعريب الصحيحة هو جزء لايتجزأ من اللغة العربية .

ومجمل القول ان العربية والاسلام متلازمان تلازما وثيقا وهما في تفاعلهما وتأثيرهما اشبه بالمصباح المضيء، تياره الاسلام وجهازه الظاهر العربية وضوؤه المعاني السامية التي يستضيء الانسان بها فيحيى في نور بعيدا عن الظلمات .

لغة الاسلام واحدة :

لابد لهذا الدين الذي نزل لجميع البشر على صعيده من لغة واحدة تبين عن عقيدته وتفصح عن حضارته ، وتنبيء عن أفكاره وتعبر عن مفاهيمه ، وتضم أحكامه وحكمه وقواعده وتوضح حقائقه ومراميه، ومقاصده على الوجه الاكمل ، ومن العبث ان يؤدى على وجهه الاكمل بلغات متناثرة تعبر كل لغة عنه بطريقة لاتنسجم مع اللغة الاخرى ، فلابد ان يكون بلغة واحدة ليكون له لونه الخاص به وذاتيته المتميزة عما عداه ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان أمة الاسلام أمة واحدة بنص القرآن الكريم قال تعالى « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » وقال « انما المؤمنون اخوة » وقد اخبر النبي عليه السلام ان افراد هذه الامة وشعوبها وحدة واحدة في الفكر والشعور حيث قال «ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وكيف يتوثق بينهم ذلك التواصل الفكري والوجداني اذا كانت لغاتهم مشتتة والسنتهم مختلفة ؟ اذن لامحيص من جمعهم على لسان واحد ليتسنى لهم تثبيت وحدتهم والتفاهم على مصالحهم قال ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم « **اللسان العربي شعار الاسلام واهله** » ، واللغات من أعظم شعائر الامم التي بها يتميزون ، ولهذا كان كثير من الفقهاء أو أكثرهم يكرهون في الادعية التي في الصلاة والذكر ان يدعى الله أو يذكر بغير العربية .

على **أن اللغة اية لغة لاتكفي للتوحيد بين الافراد والشعوب** اذا كانت مجردة من العقيدة والرسالة فالصراع بين القبائل العربية في الجاهلية لم تمنعه اللغة العربية التي كان العرب جميعا يتحدثون بها ، ولم تحد هذه اللغة من غلواء هذا الصراع بل كانت القبائل العربية تزداد يوما بعد يوم في تنافرها وصراعها . واللغة الانجليزية لم تكف في توحيد الشعب البريطاني والشعب الاميركي فضلا عن انها لم تصلح لان توحد توحيدا صادقا بين الشعب الانجليزي والشعب الايرلاندي ، اذن لابد من عامل جوهري يلازم اللغة ويمتزج بها لكي يتحقق التوحيد والتأليف بين الشعوب ، ذلك العامل هو العقيدة الصحيحة الصادقة والنظام الصحيح المتجاوب مع فطرة الانسان ، وهذا لايتصور الا في الاسلام الذي تعتبر العربية جزءا منه ، والقرآن يصرح بذلك تصريحا تاما في كثير من المواطن . قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » اي بالاسلام الذي نعتبر العقيدة جزءا منه . وقال تعالى : « والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم » أي بالاسلام الذي تعتبر العربية جزءا منه .

وقد اراد الله تعالى اللغة العربية لهذا الدين لما فيها **من طاقة فذة في التعبير** والبيان ولما فيها من المرونة والاتساع ، وهي أقدر اللغات على الاداء وأقواها في الاشتقاق والنحت والتصريف وأغناها في المفردات والصيغ والاوزان ، ومع هذا كله فهي مرنة غاية المرونة تتسع لتعريب أسماء الاشياء التي تجد في حياة الانسان، وهذه الجوانب في اللغة العربية تعتبر من العناصر الرائعة لقوة هذه اللغة وصلاحيتها للبقاء ، وحركة الترجمة التي حدثت في العصور الاولى للاسلام تعطي الدليل الكافي على قدرة هذه اللغة ، اذا لم يكن هناك فن أو علم او ثقافة او فكر الا وفت هذه اللغة ببيانه ونقله لاهلها ، ولو كانت لغة قاصرة لما استطاع الاوائل ترجمة كل ما في علوم الامم وثقافاتهم من مصطلحات في مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء والرياضة ، ولما استطاع أساطين هذه العلوم الابداع في التعبير عن آرائهم وملاحظاتهم الدقيقة .

المسلمون يدركون التلازم بين العربية والاسلام :

ويعتمد الاسلام فى بيان عقيدته الشاملة عن عالم الغيب وعالم الشهادة وفى تقرير خطوطه العريضة واحكامه الشاملة وقواعده العامة فى التشريع الخالد الصالح لكل زمان ومكان يعتمد فى كل ذلك على اللغة العربية بما فيها من طاقة فى الصيانة والشمول والمرونة والاتساع ، وقد أدرك هذه الناحية فى امتزاج الطاقة العربية مع الطاقة الاسلامية المسلمون الاولون فقد كتب عمر الى أبي موسى الاشعري رضي الله عنهما : « أما بعد فتفقهوا فى السنة وتفقهوا فى العربية واعربوا القرآن فانه عربي » ، وفى قول آخر لعمر « تعلموا العربية فانها من دينكم » وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية يدل بصراحة تامة على أن **العربية من الدين** لاتنفصل عنه ولا ينفصل عنها وهما فى تفاعلهما كشجرة خضراء ممتدة الاغصان وارفة الظلال طيبة الاكل .

وقد استمد الفقهاء من هذه **الفكرة بعض الاحكام الهامة التي كان لها أثر كبير فى انتشار اللغة العربية بين غير العرب** من الناس ، منها : —

أولا — انه لايجوز للمسلم ان يتعبد الله تعالى فى الصلاة الا باللغة العربية تحقيقا لقوله تعالى « فاقرؤوا ما تيسر منه » اي من القرآن ، وقد قصر العلماء جميعا هذه الآية على قراءة القرآن فى الصلاة ، ولذا جعلوا القراءة فيها فرضا وهو انما يسره الله بلسان عربي مبين **فلا يقرأ الا بالعربية** ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال « صلوا كما رايتموني اصلي » وهو لم يصل الا باللغة العربية .

ثانيا — اذا كان رجل اعجمي اسلم حديثا واراد ان يصلي فهل يقرأ القرآن فى الصلاة بلغته لتكون صلاة صحيحة أم لابد من قراءة القرآن العربي ..؟ جميع الائمة على وجوب **القراءة بالقرآن العربي** والعاجز عنها يسكت فى الصلاة ولا يقرأ شيئا .

فمثل هذه الاحكام كانت ذات اثر كبير على انتشار اللغة العربية بين غير العرب من المسلمين لانه **يفرض عليهم أن يتعلموا العربية** ويحتم عليهم أن يقرؤوها فى صلاتهم قال ابن تيمية « واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا » .. وقال « وأيضا فان **نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب** فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا باللغة العربية وما لايتم الواجب الا به فهو واجب » .

ويتبين من ذلك أن **انتشار العربية كان متوقفا على انتشار الاسلام** اذا لم يقدم غير العرب من المسلمين على تعليم اللغة العربية الا لما تحمله اليهم من الدين والحضارة والقيم وقد اشار القرآن بالاشارة اللطيفة الى أن العرب لم ينتشر ذكرهم الا بالاسلام الذي انعم به عليهم وعلى غيرهم قال تعالى « فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم . وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » اي عن هذه النعمة التي بسببها ارتفع ذكركم وانتشر بين الناس . لانه بلسان عربي مبين — وهو لسانكم ، نرد على ذلك أن **القرآن الكريم كتاب العربية الاول ومصدر فكر المسلمين** لاتمر على المسلمين ساعة من ليل او نهار الا ويتلونه فى صلواتهم وخلواتهم ، ويتدارسونه فى مدارسهم ويتلقون حكمه واحكامه فى مساجدهم ويتعبدون الله به فى بيوتهم ويستشهدون به فى أحاديثهم يقتبس منه شعراؤهم ويستشهد به خطباؤهم فهو فى كل بيت ومدرسة ومنتدى لا يغيب عن المسلمين طرفة عين وهو فى أعلى مراتب البلاغة والفصاحة فكيف لايكون له اثر فى تقويم تعابيرهم وذوقهم وادبهم وسلوكهم ولهجاتهم ، ولو لم يكن هذا الكتاب موجودا بين أيدينا لرأيت العرب وقد انفصمت عرى لغتهم وتشعبت لهجاتهم بطريقة مخيفة رهيبة مذهلة .

التلازم فى التشريع وأثره :

وهذا التلازم بين اللغة العربية وبين نصوص القرآن والحديث جعل هذه النصوص ذات طابع متميز وخصائص فريدة رفعتها الى منزلة عالية لم يتطاول اليها تشريع سابق ولا يرقى الى منازعتها تشريع لاحق ولا عجب فى ذلك لان القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ولان الحديث صاحبه لاينطق عن الهوى . قال تعالى « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى » .

ومن الامور المدركة لاولى العلم أن النصوص التشريعية الاسلامية — لغزارة معانيها العامة التي تتناول الكليات والجزئيات هي أصلح النصوص التشريعية ميدانا للفكر والعقل ، وأوسعها مجالا للتعميم ، وأخصبها تربة لانبات القواعد التشريعية العامة . يتمثل ذلك فى طبيعة جملها وطبيعة الفاظها وطريقة سبكها وصياغتها من حيث تناولها للمنطوق والمفهوم والدلالة والتعليل والمقايسة ، مما يجعل استنباط الاحكام منها متيسرا دائما شاملا لاعمال الانسان مهما تنوعت وتفرعت وتعقدت .

ولكن هذه النصوص التشريعية مع ملاحظة انها جاءت تشريعا لجميع الشعوب والامم ، تقضي بضرورة توفر الاجتهاد ، وبحتمية وجود المجتهدين كعامل أساسي

فى تحقيق فاعلية هذه النصوص وايجابيتها وتطبيقها فى كل وقت على الحوادث المستجدة فى حياة الانسان والتي لاتدخل تحت الحصر ، ولولا الاجتهاد لبقيت الحوادث تتكاثر فى حياة الانسان دون معرفة حكم الله فيها وبذلك تصاب الشريعة بالتوقف ولا تتقدم خطوة واحدة لاعطاء الانسان حلا لمشاكله الطارئة .

وبما ان النصوص التشريعية الاسلامية بمميزاتها وخصائصها تلك ، جاءت عربية اللغة والاسلوب كان من **أهم شروط الاجتهاد أن يكون المجتهد عالما باللغة العربية** وضروب تعبيرها ، واقفا على أسرار بلاغتها وعلى وجوه دلالة الفاظها وجملها على المعاني ، ويشترط أن يتوفر فيه المعلومات اللغوية من نحو وصرف وبلاغة وما الى ذلك من علوم اللغة .

ولهذا كله **فقد أولى العلماء المسلمون عنايتهم بدراسة اللغة العربية وتقصيها واستقراء جوانب دلالات الالفاظ والجمل** فبحثوا — وبخاصة علماء الاصول — العموم والخصوص والاطلاق والتقييد والترادف والاشتراك والحقيقة والمجاز والمنطوق والمفهوم والامر والنهي ، نعم بحثوا كل ذلك بطريقة عميقة مستنيرة شاملة بحثا أصوليا تشريعيا ، مما لم يتيسر لامة تجاه لغتنا وديننا ، وبهذا يظهر الى اي مدى تتلازم اللغة العربية مع الشريعة الاسلامية فى البقاء والانتشار .

ولهذا فقد **خرجت اللغة العربية بعد مجيء الاسلام من لغة قومية الى لغة انسانية عالمية وخرجت من لغة سيف وجمل الى لغة رسالة وحضارة ودين** ، حتى لقد اصبح من المستهجن على المسلمين أن يتحدثوا بلغة غير اللغة العربية ، وهذا المبرد فى كتابه الكامل وهو فى مجال رايه فى تصنيف الناس الى نبلاء واخساء يعتبر احد الاخساء .. « رجل سمعته فى مصر يتكلم بالفارسية » ، وهذا ابن تيمية يحمل بشدة على من يعتاد **الخطاب بغير العربية** فى شؤون العامة ويعتبر تصرفه هذا منافيا لروح الاسلام ولغة القرآن ، يقول فى كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم » ، واما اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الاسلام ولغة القرآن حتى يصير ذلك عادة للعصر وأهله ولاهل الدار وللرجل مع صاحبه ولاهل السوق أو للامراء أو لاهل الديوان او لاهل الفقه فلا ريب ان هذا مكروه فانه من **التشبه بالاعاجم** .

ويذهب ابن خلدون الى ابعد من هذا فيرى أن **تعلم علوم العربية** من لغة وادب وقواعد وبيان ونحو وصرف ضروري **محتم على أهل الشريعة** « اذ مأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب من الصحابة والتابعين وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة .

وبدافع هذه النظرة الى العربية وعلاقتها بالاسلام قام المسلمون المتقدمون عندما سكنوا أرض الشام والعراق وخراسان ومصر والمغرب وأهلها يتحدثون بلغات أعجمية بتعويد أهل هذه الاقطار اللغة العربية حتى غلبت عليهم وانتشرت بينهم وأصبح ابناؤها فيما بعد هم **رواد العربية** وحفظة لسانها ، ومعجمات اللغة وكتب النحو والصرف خير دليل على صحة هذا القول ، ويبدا **الزمخشري الاعجمي وهو فى قمة علماء العربية** وفى قمة علماء التفسير يبدأ كتابه المفصل بقوله « الحمد لله على أن جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية » .

العربية هي اللغة الرسمية للدولة الاسلامية :

ثبت ان النبي عليه السلام وجه الكتب والرسائل الى ملوك الدول فى عصره يدعوهم الى الاسلام باللغة العربية وحدها ، ادعوك بدعاية الاسلام — أن تؤمن بالله وحده وعندما كانت هذه الرسائل تصل الى أصحابها يأمرون بترجمتها لادراك ما تحويه من معان وأغراض .

وتمسك الرسول باللغة العربية فى مخاطبته الملوك هو الاجراء السديد المنسجم مع عزة المؤمنين ومع علو رسالته وصدق دعوته ، فانه مرسل بالدعوة الاسلامية التي مصدرها هذا القرآن العربي فى لغته واسلوبه ، والدعوة الاسلامية هي دعوة التوحيد فى العقيدة والغاية ومن لوازمها توحيد النظام والفكر ومن لوازم ذلك كله توحيد اللغة التي يعبر بها عن ذلك كله والا أصيبت العقيدة والنظام والغاية بالاضطراب والفوضى فليس من السداد أن ينقض النبي دعوته بتبليغها بلغات متعددة والسنة مختلفة بل لابد من تبليغها بلغته هو والا كانت دعوة عابثة هزيلة .

وهكذا كان الخلفاء من بعده عليه السلام لايخاطبون الناس عربا وعجما الا باللسان العربي ولا يصدرون الاوامر والنواهي ولا يوجهون الكتب والرسائل الى الملوك والرؤساء فى العالم الا باللغة العربية ولم تصدر الاحكام من لدن القضاء ولم تدرس الكتب فى المساجد والمدارس والجامعات الا باللغة العربية وحدها ولهذا كانت **اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة** فى الشؤون

الداخلية والشؤون الخارجية من زمن النبي عليه السلام الى أواخر عهود الدولة الاسلامية ؟

المستشرقون يدركون التلازم :

وقد ادرك هذا التلازم بين الاسلام واللغة العربية كثير من المستشرقين وادركوا ان الآثار العظيمة لهذا الدين انما ترجع الى **امتزاج الطاقة العربية مع الطاقة الاسلامية** ، وادركوا أن العربية فى وجودها التاريخي والواقعي انما هي **لغة العقيدة والدين** وبامتزاجها تنمو الشخصية الاسلامية وتتميز عن غيرها بقوتها وشموخها. فاخذوا يعملون على **فصل الطاقة العربية عن الطاقة الاسلامية وتعميق الهوة** بينهما بشتى الوسائل والاساليب الخفية والظاهرة **لتمييع الشخصية الاسلامية وانحلالها** وقد تأثر بآرائهم نفر من الكتاب حتى ظهر فى العالم من يهتم باللغة العربية اهتماما منقطع النظير يؤلف الكتب ويدبج المقالات ويلقي المحاضرات فى اللغة العربية وعن اللغة العربية على انها لغة قومية بحت ، فجعلوها لغة فن وحب وجمال ولغة شعر وعطور وازهار ليبعدوها عن كونها لغة العقيدة ، وعن كونها لغة التشريع والنظام ، وتحقيقا لفكرة الفصل بين الطاقتين ظهرت فكرة الدعوة الى **نشر اللهجات العامية** الهزيلة بين الناطقين بالضاد امعانا فى تفتيت وحدتهم اللغوية كما ظهرت فى الاجزاء فكرة ترجمة القرآن الى اللغات الاجنبية وظهرت فكرة **تغيير قواعد اللغة العربية** وفكرة تلقين حروفها وتلقين قواعدها كل ذلك من اجل وضع حاجز كثيف بين ابناء هذا الدين وبين مصدر دينهم الاول .

نتائج فصل الطاقتين :

وكان من الطبيعي أن ينتج عن فصل الطاقة العربية عن الطاقة الاسلامية قتل روح الاجتهاد فى الشرع الذي به تظهر صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان واصبح الاسلام بعيدا عن الاذهان فى روائع تشريعه ، وبعد أن كان اسلاما مؤثرا له سيادته التشريعية وله وجوده الدولي صار اسلاما فرديا تأليفيا يكتب عنه الكاتبون ويقرأ عنه القارئون ، واصبح تشريعه معلومات لا اثر له فى الحياة العامة يقتصر وجوده كنظام الحياة على بطون الكتب لايجد له متنفسا الى عالم الحياة كتشريع ينظم شؤونا ونظاما يحل مشكلات .

وقد نتج عن فصل الطاقة العربية عن الطاقة الاسلامية أن اصبح المسلمون موزعين بين أجنحة وجدانية مختلفة ، وتقاذفتهم تيارات فكرية متضاربة ففقدوا وحدة الفكر ووحدة الشعور ووحدة اللغة واصبحوا وليس لديهم شيء يقدمونه للعالم ويعطونه للانسانية واضحوا عالة على غيرهم فى الفكر والعلم والاخلاق والقيم ، بعد أن كانوا على جانب عظيم من الثراء المادي والثراء الفكري المبدع .

واصبحت اللغة العربية كذلك تائهة بين ابنائها ، وابناؤها تائهين فى شأنها لايعرفون عنها وعن طاقتها الا القليل ويترنحون على اصوات دعوات تدعوهم الى تركها والتمسك باظلاف العامية الرخيصة التي لاتتلاءم مع أمة لها رسالة الخلود بين بني الانسان ، وقد غذيت الدعوة الى نشر العامية من قبل الذين يرون أن **اللسان العربي الفصيح سلم الى فهم القرآن** والسنة اذ فى تغذية العامية وتغذية انتشارها كسر لذلك السلم الذي يرقى به المسلمون الى فهم الكتاب والسنة ومراميها فى اسعاد الانسان ورفعة شأن المسلمين ، ولهذا فان الدعوة الى العامية دعوة مريبة عابثة ، والخوض فى تقصي اللهجات العامية واستقراء الفروق بينها خوض فيما لا طائل من ورائه ، فليحذر المخلصون من اضاعة جهودهم فى بحثها وبحث الفروق الموجودة بينها ، وليعملوا على واد الدعوة اليها ، وليفكروا فى انتشال ابناء أمتهم من حضيضها الى قمة الفصحى التي يتفاهم على صعيدها ابناء هذه الامة مهما تباعدت اوطانهم ، واكثر من ذلك فقد اصبح ما كان يراه الاقدمون خسة هو النبل عند ابناء العصر الحاضر ، فاذا رأيت عربيا يتحدث برطانة الاجنبي ارتفع فى نظرك بعد ان كان فى نظر المبرد خسيسا ، واصبح متحليا بالنبل بعد أن كان ابن تيمية يراه مرتبكا مكروها .

كما صار بعضهم يصفها بالجمود تارة وبالقصور تارة اخرى ، وبأنها لاتستجيب الى مطالب الحياة الحديثة ويقوم نفر بالدفاع عنها بحرارة وحماسة ، وها هو الشاعر حافظ ابراهيم يستنكر على من يزعم أن اللغة العربية لغة عقيمة جامدة ويستهجن أن توصف بالقصور وعدم الاستجابة الى مطالب الحياة الحاضرة ، ويلوم اهلها على ضعفهم ويعبر عن استهجانه واستنكاره ولومه بأبيات من الشعر على لسان اللغة العربية ومنها :

ايطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوادي فى ربيع حياتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي بها وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتسجيل اسماء لمخترعات

اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا
فياليتكم تأتون بالكلمات

مستقبل اللغة العربية متلازم مع مستقبل هذا الدين :

اللغة هي مجموعة من ألفاظ موضوعة للتعبير عن أشياء ومعان أي هي قوالب خاصة تشتمل على معان معينة والدافع الاصلي لوضع اللغة أية لغة هو ان الانسان كما قالوا قديما « مدني بالطبع يحتاج الى غيره من أبناء جنسه » ، فانه لايستطيع مطلقا أن ينفرد بالقيام بشؤون معاشه ولا يقدر أبدا أن يستقل بتحقيق ما يحتاج اليه من غذاء وكساء ومسكن ؛ فاجتماعه مع غيره أمر تحتمه فطرته ولهذا فهو مضطر الى العيش مع غيره من بني الانسان اضطراريا فطريا فكان لابد من أن يعرف كل فرد غيره ما في نفسه وأن يبين له ما يحتاج فبرزت الحاجة الى الفاظ يتعرف الواحد بها عما في ذهن الآخر ويعرفه عما في ضميره وهذا لايتأتى بشكله الصحيح الا باللغة .

فكان الدافع لوضع اللغات هو التعبير عما في النفس تحقيقا لغريزة البقاء في الانسان ، والعرب كغيرهم من شعوب الدنيا وهم من بني الانسان عاشوا معا في بيئتهم فوضعوا الفاظا خاصة كونت على الايام اللغة العربية لتحديد معاني الاشياء التي تحيط بهم وتقع في بيئتهم وقد اعتنوا بجمال الالفاظ وحسن هيئتها ؛ ولهذا كانت اللغة العربية قبل الاسلام لغة قومية بحتا ، وقد عرفت اللغة العربية بأنها عبارة عما حفظ من كلام العرب الخالص ونقل عنهم من الالفاظ الدالة على المعاني وهي لغة العرب البلغاء .

والحكم على اللغة قوة وضعفا يعتمد على مدى قدرة هذه اللغة في التعبير والابانة عن الاشياء والمقاصد وفي الترجمة عن خلجات النفس وأحاسيس الانسان ومتطلبات العقل وبقاء اللغة يعتمد أولا وآخرا على استعمال الفاظها من قبل الناس فاذا التزم الانسان التحدث بلغة كانت اللغة حية واذا هجرها اخذت في الافول والموت .

ولهذا تعمل الدول دائما وباستمرار على نشر لغاتها وحمل الناس على التحدث بها لتبقى حية ولتستطيع الدول نشر آرائها وافكارها ونظمها بين الناس ، فمثلا استولت بريطانيا وفرنسا على عدد من أقطار العالم فكان لوجودها في تلك الاقطار الاثر الظاهر في نشر اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية بين شعوب تلك البلدان ؛ وتعمل كافة الدول المستعمرة على نشر لغاتها في البلدان المستعمرة بكافة الوسائل وتجعلها اللغة الرسمية التي يجري بها التخاطب الرسمي ؛ الا ان الجماعات والشعوب مالم تقتنع بصواب عقيدة القوي وصواب غايته وشرف مقاصده ونبل مراميه بحيث يتصل ذلك بأحاسيسها فان الاستعمار يعمل على نشرها واذا تحقق انتشارها في فترة من الزمن فانه لايكون لها بقاء بل يكون انحسارها أمرا محتما .

فهناك فرق كبير بين انتشار اللغة العربية في الاقطار التي فتحها العرب الاوائل وبين انتشار لغات الدول المستعمرة (بكسر الميم) في الاقطار التي استولت عليها اذ يرجع انتشار اللغة العربية الى أنها لغة العقيدة والدين والرسالة المنسجمة مع فطرة الانسان مهما كان لونه ومهما كانت لغته ؛ وأما لغة المستعمر فانها لغة المستثمرين الجشعين الذين استولوا على الاقطار بدافع حب السيطرة وبدافع حب الاستغلال فتبقى لغتهم ما دامت سيطرتهم وما دام استثمارهم وتنحسر بانحسار سيطرتهم ، واما لغة العقيدة فتبقى ما بقي الدين .

ولاشك في أن سيطرة الغرب السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية على المنطقةالاسلامية لابد أن تزول مهما طال أمدها ومهما تبدلت صورها وأشكالها ومهما نسجوا لها من مخططات لتبقى لانها قائمة على أساس متداع سريع التقوض والافول وليس لاصحابها في نفوس المسلمين أية روابط من الود والاحترام والاخلاص فلسوف يتقلص هذا النفوذ وتلك السيطرة ، ولابد لهذا الكتاب العربي من العودة الى حياة المسلمين يتنفسون في ظله أنفاس الرضى ويعبون في ظله ماء الحياة ولسوف ترجع العربية لغة قوية يتفاهم على صعيدها ابناء هذا الدين .

القرآن

روح الإسلام والعربية جزء من هذه الروح

بقلم الاستاذ محمد محمود الرامينى

(الاردن)

الاسلام دين القرآن : والقرآن هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : وهو باللغة العربية د ون غيرها من اللغات ، لقوله سبحانه وتعالى: «قرآنا عربيا غير ذي عوج» وقوله «وكذلك انزلناه قرآنا عربيا» وقوله انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» وقوله «وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين».

فاذا وضح لدينا أن القرآن الذي هو اعظم كتاب نزل من السماء باللسان العربي ، على اعظم نبي آدمي، وهو عربي : ثبت ثبوتا جليا أن خير الكتب القرآن ، وخير الانبياء محمد ، وخير اللغات : العربية .

وقد نزل القرآن ابان مباريات العرب فصائحها بعضهم بعضا : ومناظراتهم وتناخرهم اي القبائل افصح ؟ وايها ابين ؟ وايها اوجز ؟ وايها بكلماتها القليلة اجمع ؟ حتى علت لغتهم ، وصفت عن كل كدر ، وخلت من كل ضعف ، فبحوارهم مع بعضهم ، وتنافسهم فى تخير الالفاظ ، وانتقائهم لاسهلها واخفها واحلاها ، قد تخلت عن الالفاظ المرذولة ، والكلمات المعقدة ، وهكذا فى ارتقائهم وعليائهم بها .

فما شعروا الا ورسول جاءهم بكتاب من عند الله ينطق بلسانهم ولغتهم ، يتحداهم ان كانوا فى شك منه ان يأتوا بسورة من مثله بقوله سبحانه وتعالى : «وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين» . ثم قال جل جلاله : « فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا » فظهر لنا بأن القرآن العظيم هو باعلى انواع اللغة العربية ، ولم يستطع الانس والجن عن أن ياتوا بسورة من مثله، وهو دين الاسلام الذي امرت المخلوقات باتباعه ، وفهم ما فيه .

واوجب عليها النظر والتدبر فى آياته ومواعظه وحكمه بقوله : « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب.» ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » .

فيجب أن يفهمه العالمون ، ويعقله الخلق اجمعون ولا يكون ذلك الا بفهم لغة العرب والوقوف عليها ، فهو لهذا جسم ، وهي لهذا روح ، ولا يمكن أن يكون هناك اسلام خال من اللغة العربية فهذا مرتبط بهذا ولازم له.

وانه مهما سار الاسلام فزمانه اللغة ، او القرآن فهو أبو اللغة وأمها ، فلا أرى رأيا أو وجها يفصل القرآن الذي هو الاسلام عن اللغة لقوله تعالى « قرآنا عربيا غير ذي عوج » والمراد بالعوج هنا لغة غير العرب ، حتى اذا ترجم القرآن الى اي لغة ، فقد ذهب جماله وبهاؤه ورواؤه ، فضلا عن اعجازه وعظمته ، وعلوه ورفعته ، وانه فوق متناول الخلق جميعا ، من أن يأتوا ولو بسورة من مثله .

والامر بين الاسلام الذي هو القرآن وبين اللغة العربية أعظم وأعلى بل واشد وأقوى من ان تكون له علاقة سببية ، فهما كالجسم والروح لايفترقان ابدا ولا غنى لاحد منهما عن الآخر وقد قضت مشيئة المولى الكبير أن يكون الامر كذلك .

وأما تلك الخيرة فالاليق عدم ذكرها ، لان فضل الاسلام على اللغة لا فضل اللغة على الاسلام .

هذا وكلما قوي الاسلام وانتشر ، انتشرت لغة الاسلام معه وقويت ، فانظر الى المواقع التي دخلها الاسلام من بلاد العرب الى أوائل الصين فى زمن الحجاج مع بني أمية . فقتيبة سار فى المشرق حتى بلغ الصين يفتح وينشر الاسلام . ومحمد بن القاسم كذلك فى بلاد السند والهند . وموسى بن نصير سار قبل مغرب الشمس لم يدع مدينة الا فتحها ونشر العلم والاسلام فيها ، فكانت اللغة العربية فى ذاك العهد الزاهر هي لغة العلم والدين والقرآن ، حتى كادت البشرية التي دخلت تحت راية الاسلام تترك لغاتها الاصلية الموروثة للغة الفصحى لغة أعظم كتاب دانت له البشرية « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ».

فكنت فى ذلك العصر كما أجمع المؤرخون على ذلك لاتدخل مسجدا فى دنيا الاسلام الا ورأيت عدة حلقات للعلم وقراءة القرآن وسائر العلوم التي لها المام بلغة العرب والقرآن ولا مدرسة الا وجدتها كذلك ، حتى ولا بيتا الا وفيه من يحفظ دينه بحفظ القرآن . فلغة كان يلهج بها أكثر سكان المعمورة لاجل القرآن الذي نزل بها . لاشك أن قوة القرآن قوتها ، وضعفه ضعفها . وهذا ليس فى الزمن القديم فقط بل هو ممتد الى يومنا هذا .

فما هو مدى تأثير الفكر الاسلامي من طريق لغة القرآن فى اللهجات ؟

ان القرآن الكريم الذي نقرؤه فى سائر بلاد الاسلام ، هو مصحف عثمان الامام المكتوب بلسان قريش ولهجتها من دون سائر العرب لان العرب اجمعوا حين جمع القرآن أن يكتب ويحفظ بلسان قريش . لانه عليهم نزل وفى دارهم استقر وبلهجتهم ثبت ، وبقي الى يومنا هذا فى سائر بلاد الاسلام كما كان واستقر ، ولذلك تجد جميع لهجات المتعلمين فى سائر بلاد الاسلام واحدة. ولو اقبلت الناس على العلم لما رأيت لهجة للعرب ولا فى بلاد العرب الا لهجة قريش الفصحى . لان القرآن قرىء بها وكل العلوم تبع للقرآن . ولا عبرة بلهجات العامة ، فتلك لا معول عليها .

أما أهل العلم والمعرفة فلا تؤثر فيهم اللهجة العامة ويترفعون عن أن يضعوا فى كتبهم شيئا منها لانحرافها وعدم ثباتها . ثم ان اللغة العربية ليست فى بلد من بلاد العرب أقوى منها فى بلد آخر . بل البلاء واحد ، والداء واحد .

ولقد تداعت أمم الافرنج من كل ناحية من نواحي حياتنا الدينية أو الدنيوية فأفسدت أو اضعفت كل شيء تالدا أو طريفا ومن جملة ما اضعفت ديننا ولغتنا . فوضعت بدل اللغة الموروثة العربية لغة الاجانب ، وبدل الدين واليقين ، الشك والتشكيك .

ازدهار اللغة العربية رهن بتطور الوعي الإسلامي

بقلم الأستاذ عبد الحليم عباس

المستشار الثقافي لوزارة الثقافة والاعلام (الاردن)

1 ــ لا اجد تلازما بين انتشار الدين الاسلامي، وانتشار اللغة العربية ، الا على مدى ضيق ومحدود، فالاقطار ــ غير العربية ــ التى دانت بالاسلام ، حافظت على لغاتها ، كما فى فارس وتركية مثلا .

2 ــ اذا كنت من الفريق الذى يناصر الرأي القائل بوجود علاقة سببية بين انتشار الاسلام واللغة العربية ، فانى ارى ذلك كما قلت فى الجواب على السؤال الاول ، ان هذا الانتشار على مدى ضيق .

3 ــ والسبب فى ذلك يعود الى ان **معجزة القرآن الكريم** ، عند الامم ــ غير العربية ــ التى تدين به ، **هي لهذه القيم الرفيعة** التى يدعو اليها ، وهذه الاخوة الانسانية الصادقة التى اعلى من شأنها ، ثم فى بساطة تعاليمه ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ».

4 ــ نعم ، الاحظ ، ان الوعي الاسلامى ، والوازع الدينى يقويان ويضعفان لما يعترى اللغة العربية ، من قوة او ضعف .

5 ــ ليس لى الاطلاع الكافى على مدى تأثير الفكر الاسلامى ، فى اللهجات الاقليمية للاقطار غير العربية

6 ــ المكانة التى يجب ان تحتلها اللغة العربية فى بلدى ، والتى تحتلها فعلا ، هى المكانة المثلى ، بالنسبة لغيرها من اللغات .

العربية تتسع شبكتها باتساع نفوذ القرآن

بقلم الأستاذ نديم الملاح

الاردن)

1 ـ ان انتشار الاسلام يتسبب عنه انتشار اللغة العربية لانها لغة القرآن الكريم مادة الاسلام واساس تعاليمه قال تعالى : «نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين ؛ بلسان عربي مبين »

ولا يقال لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام ذلك لان الذى **سبب انتشار الاسلام هو تعاليمه الانسانية السامية** فلو نزل القرآن بغير اللغة العربية لانتشرت تلك اللغة بانتشاره .

2 ـ من الخطأ ان يقال ان الوعي الاسلامى والوازع الدينى يقويان ويضعفان تبعا لقوة لغة الضاد وضعفها بل ان الصواب عكس ذلك اي ان الصواب ان يقال ان **لغة الضاد تقوى وتضعف تبعا لقوة الوعي الاسلامى** والوازع الدينى وضعفهما .

3 ـ يتعذر ان يحدد مدى تأثير الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن فى اللهجات الاقليمية بالاقطار الاسلامية غير العربية او لدى الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية .

وللهجتنا الاقليمية تأثير فى تعابيرنا العربية المحلية ولكن يتعذر معرفة نسبة ذلك التأثير ومداه

4 ـ المكانة الاولى هي التى يجب ان تحتلها اللغة العربية فى بلدنا بالنسبة الى اللغات الاجنبية للاسباب التالية :

أ ـ ان **اللغة العربية** هى **لغة القرآن الكريم** دستور الشريعة الاسلامية العامة .

ب ـ ان الجزيرة العربية هى الوطن الاصلى الاول لتلك الشريعة المنزلة لاصلاح البشر .

ج ـ ان كثيرا من المناسك الاسلامية موطنه ومحله تلك الجزيرة قال الله جل ذكره : « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير» وقال : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين». وقال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « كان كل نبي يبعث لامته خاصة وبعثت الى الاحمر والاسود» .

الهمنا الله الصواب واوزعنا ان نمضي مسرعين الى تضامننا والعمل لانقاذنا من مأساة العدوان انه خير مسؤول واكرم مأمول .

أهم الدول العربية إنما تعربت بفضل القرآن

بقلم الأستاذ مفتي محمد شفيع
مدير دار العلوم (كراتشي)

انى كلما فكرت فى امر انتشار الاسلام واللغة العربية فى انحاء العالم وجدت بينهما ارتباطا قوميا وسر هذا الارتباط هو ان العربية هي اللغة التى نزل بها القرآن ، وقد انتشرت تبعا لانتشار القرآن فى كل قطر من اقطار العالم فمنها ما غلبت عليه لغة القرآن فصارت الالسنة المحلية مهجورة كمصر والشام والعراق التى غلبت على اهلها اللغة العربية فأصبحت البلاد تسمى ببلاد العروبة ، ومنها ما لم تبلغ فيها هذا المبلغ ولكنها نالت لدى عوام المسلمين مكانة خاصة وحظوة اكيدة، فكلما ازداد التمسك بالقرآن ازداد التعلق بلغة القرآن، فهذا الحافظ الامام ابن تيمية يقول فى كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة اصحاب الجحيم » ما نصه :

« اما اعتماد الخطاب بغير العربية التى هى شعار الاسلام ولغة القرآن حتى يصير ذلك عادة للعصر واهله ولاهل الدار وللرجل مع صاحبه ولاهل السوق والامراء او لاهل الديوان او لاهل الفقه فلا ريب ان هذا مكروه فانه من التشبه بالاعاجم وهو مكروه كما تقدم ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا ارض الشام ومصر ولغة اهلها رومية وارض العراق وخراسان ولغة اهلها فارسية واهل الغرب ولغة اهلها بربرية عودوا اهل هذه البلاد العربية حتى غلبت على اهل هذه الامصار مسلمهم وكافرهم وهكذا كانت خراسان قديما ثم انهم تساهلوا فى امر هذه اللغة واعتادوا الخطاب بالفارسية حتى غلبت عليهم وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم ولاريب ان هذا مكروه وانما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى تلقنها الصغار فى الدور والمكاتب فيظهر شعار الاسلام واهله ويكون ذلك اسهل على اهل الاسلام فى فقه معانى الكتاب والسنة وكلام السلف بخلاف من اعتاد لغة ثم اراد ان ينتقل الى اخرى فانه يصعب .

واعلم ان اعتماد اللغة العربية يؤثر فى العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا ويؤثر ايضا فى التشبه بصدر هذه الامة من الصحابة والتابعين واللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ثم منها ما هو واجب على الاعيان ومنها ما هو واجب على الكفاية وهذا معنى ما رواه ابو بكر : حدثنا عيسى ابن يونس عن ثور عن عمر بن يزيد قال كتب عمر الى ابى موسى رضى الله عنه اما بعد فتفقهوا فى السنة وتفقهوا فى العربية واعربوا القرآن فانه عربى

اقتضاء الصراط المستقيم ـ طبع مصر ص 98)

فعلم مما وصفنا ان انتشار اللغة العربية وحسن قبولها فى انحاء العالم انما جاء لكونها لغة القرآن **ولولا القرآن ما عمت هذه اللغة فى كثير من الممالك العربية .**

ولكن لا نرى ان القرآن لو نزل بغير العربية لم يبلغ حسن قبوله وانتشاره هذا المبلغ فان الله سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه وابلاغه ونشره ولا يمكن ان يحول دون قصده ومشيئته حائل ولنعم ما قيل :

ان المقادير اذا ساعدت الحقت العاجز بالقادر

وأما تأثير الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن فى اللهجات واللغات الاقليمية فى الاقطار غير العربية فقد اتضح ذلك مما ذكرنا من كلام الامام ابن تيمية وهو الحق والصواب فيما نرى والتجارب شاهدة عليه .

ونؤكد هنا اننا نقصد باللغة العربية لغة القرآن لا اللغة العامية التى راجت وشاعت اليوم فى عامة البلاد العربية والمؤسف ان اخواننا العرب تهاونوا فى ترك لغة القرآن الى لغة ليس لها اى صلة بالقرآن ولا فضل لها على غيرها من اللغات العجمية .

وارى ان اعداء الاسلام لهم دسائس خفية فى ترويج اللغة العامية وهم اليوم قد اخذوا يؤلفون معاجم فى اللغة العربية على منهج العامية ويذكرون فيها معاني الفاظ القرآن على العرف العام اليوم خلاف ما نزل به القرآن والمسلمون عن ذلك غافلون حتى ان علماءهم يروجون هذه اللغة العامية الجديدة فى مدارسهم وهي من اسباب تحريف القرآن ؛ فالى الله المشتكى .

ونرى ان السعي فى تدريج هذه اللغة العامية فى البلاد لاحظ له من القرآن والاسلام ولا من الفكر الاسلامى فى شيء الا ان يرجعوا الى لغة القرآن فى مخاطباتهم ومقالاتهم ومكاتباتهم

واما المكانة التى يجب ان تحتلها العربية فى بلاد باكستان بالنسبة الى اللغات الاجنبية فهى تزيد **بحسب ازدياد الروح الاسلامى فى باكستان** فانها دولة جديدة اساسها الدين والاسلام فعلينا اهل باكستان ان نعتني باللغة العربية اشد الاعتناء والله الموفق والمعين .

العربية لغة القرآن والاسلام

بقاء العالم الاسلامي وحدة ثقافية رهن بسيادة اللغة العربية الفصحى على اللهجات العامية

للدكتور محمد يوسف

استاذ اللغة العربية بجامعة كراتشى (الباكستان)

يسرني ويسعدني ان البى دعوة المكتب الدائم لتنسيق التعريب الى ابداء رأيي فى موضوع العلاقة بين الاسلام واللغة العربية . والمكتب ، الذى اتابع سير اعماله باهتمام بالغ منذ تشريف السيد عبد العزيز بنعبد الله لنا بزيارته فى عام 1966 ، يستحق كل تقدير وشكر على اختياره هذا الموضوع بالذات للاستفتاء ، فان له **اهمية خاصة فى الآونة الحاضرة ولاسيما بالنسبة الى البلاد الاسلامية** غير العربية مثل الباكستان التى اعنى بشؤون اللغة العربية فيها ، هذا وانا استبشر بنظرة المكتب هذه الى ما وراء « العالم العربى » عسى أن تكون باكورة عمل جدى لاعادة العالم الاسلامى وحدة ثقافية كما كان الى ما قبل عهد الاستعمار الاوربى البغيض ، الذى اشتدت وطأته علينا فى كثير من نواحى التعليم والتربية بعد الجلاء العسكرى .

وبعد . فالتاريخ خير شاهد على انه لولا الاسلام لما تأتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم ، بل اقول لما تأتى لها ان تبقى حية ناعمة مزدهرة كما هي بدون ان يخشى عليها ما اخشى على لبد (اى اللغات القديمة كالسنسكرتية واليونانية واللاتينية) . فمن نافلة القول **انه لم يجمع شمل العرب** ولم يؤلف بين قلوبهم ولم يمكنهم من انشاء دولة ذات شوكة لهم وبسط نفوذهم داخل الجزيرة العربية وخارجها **الا الاسلام** ، وحتى لو اتفق لهم ان يتحمسوا لقوميتهم ويتعصبوا لجنسهم ووطنهم ثم يندفعوا بدافع الحمية الجاهلية لقهر جيرانهم من الفرس والروم والقبط والبربر والزنج والقوط لما وسعهم اجبار تلك الامم الاعجمية على التخلى عن لغاتها والاخذ بلغة العرب فى دورها واسواقها ومعابدها ومدارسها ودواوينها بل التعرب فى تفكيرها وميولها وعواطفها وآدابها وفنونها وكثير من عوائدها ـ كفى عبرة بما قاسيناه وشاهدناه من امر المستعمرين والامبرياليين فى العصر الحاضر : هجموا على كثير من بقاع الارض وغلبوا اناسا من مختلف الاجناس والاديان بالقوة المادية والاسلحة الحديثة الا انهم لم ينجحوا فى محاولتهم السافرة الوقحة للقضاء على اللغات المحلية واحلال لغتهم ـ لغة الحاكمين المتغلبين ـ مكانها فى الحياة العامة، وقصارى الامر انهم كونوا بجميع وسائل الترغيب والترهيب طبقة خاصة من عملائها واجرائها تثقفوا ثقافة اجنبية فى جهالة عمياء عن مقومات شخصيتهم وثقافتهم الاصيلة مع عزلة عاطفية وقطيعة جافة متغطرسة من بيئتهم الوطنية الطبيعية والدينية الخلقية . ولكن هذه الطبقة نفسها ـ مع انها لا تزال ضئيلة العدد بالنسبة الى مجموع عدد المواطنين ـ انما تتصنع وتتكلف اللغة الاجنبية فى وسطها الراقى لاغراض ومناسبات معينة ، اذن لا يملك الدهشة كل من يتتبع كيفية انتشار اللغة العربية من العراق الى الاندلس عبر التاريخ بعد الاسلام ولا يفوته ان يستخلص بسهولة ان **الاسلام هو الذى جلب الناس الى القرآن ولغة القرآن** حتى تعربوا عن طواعية وبدافع من انفسهم لا ادل على ذلك من ان **الاعاجم هم الذين** ساهموا بنصيب اوفر فى تدبير **وسائل تعلم اللغة العربية** من

النحو وعلم اللغة ، ولاؤكد مرة اخرى ان بقاء **اللغة العربية الفصحى على حالها فى المخاطبات والمكاتبات مدين للقرآن لا غير** ، فلولا ان سبقت كلمة ربنا « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » لتعرضت اللغة العربية لعوامل البلى والفساد والانقراض وتلاشت فى اللهجات العامية ـ تلك **اللهجات البدارجة التى نشات ، لا عن التطور الطبيعى كما يتبجح بعض المغرورين منا ، بل عن التدهور غير الطبيعى** فى اوضاعنا العلمية والاجتماعية ، والتى تهدد كيان الامة العربية وتمثل خطرا عظيما لجميع المؤمنين بالله وكتابه ، ـ ما من شك ان **اللغة العربية الفصحى احدى المعجزات** ، لا نظير لها بين لغات العالم ، فهى حية نافقة على قدم عهدها بين اللغات القديمة الاخرى ماتت وتوارت فى بطون الاوراق ، وما من شك ايضا ان هذه المعجزة تمت بصلة عضوية الى اعجاز القرآن .

والى جانب الامم المتعربة، اى التى اطرحت بالمرة لغاتها الاصلية واتخذت من اللغة العربية لغة المخاطبة فى جميع حاجاتها اليومية ، لحقت بركب الاسلام امم اخرى مستعربة ، اعنى التى خصت اللغة العربية بعنايتها الفائقة كلغة القرآن والدين والثقافة والآداب والعلوم ، فكانت هي اللغة الوحيدة التى تدرس فى مدارسها وكانت جميع مواد التدريس تحضر بها ، فاحتلت مكان الصدارة فى مقومات الثقافة ، ومع انها لم تصبح لغة المخاطبة فى الحاجات اليومية الا انها كسحت ميدان العلم والادب كسحا بحيث لم تبق للغات المحلية سوى زاوية البيت ومحلات الاسواق حتى اذا نشات اللغات المحلية وترعرعت بفضل بعض العوامل الطبيعية على مر الزمن وزحفت الى البلاطات والدواوين الحكومية وتسللت خائفة مذعورة معتذرة الى الادب والشعر لم تأمل قط فى الاستقلال الذاتى بل قنعت بالدوران فى فلك العربية والاخذ والاستفادة منها بالاستمرار لان العوام كانوا يبجلونها فوق كل لغة، والخواص لم يكن لهم غنى عنها فى كل ما يمت الى الدين والثقافة العامة العلمية والادبية بصلة . كفى شهادة على ذلك ما قاله البيرونى، احد الممثلين البارزين للاستعراب الآنف الذكر ، عن ولائه للغة العربية وتحرجه من اللغة التى الفها فى حضن امه ، يقول فى غير مواربة : « ان كل امة تستحلى لغتها التى الفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها ... وانا نفسى قد طبعت على لغة (يريد لغته الاصلية الخوارزمية) لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة فى الاكواب ، ثم انتقلت الى العربية والفارسية ، وانا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف ، **والهجو بالعربية احب الي من المدح بالفارسية** ، وسيعرف مصداق قولى من تامل كتاب علم نقل الى الفارسية كيف ذهب رونقه ، وكسف باله واسود وجهه، وزال الانتفاع به ، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والاسمار الليلية . (عن كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر)

فابرز اللغات المستعربة (على حد تعبيرنا) الدائرة فى فلك العربية بقوة الاسلام الجاذبية المغناطيسية هى الفارسية ثم التركية والاردوية ، وملامح الاستعراب البارزة للعيان هى :

(أ) الخط العربى .

(ب) الاولية للغة العربية فى برامج التعليم والتربية

(ج) النسج على منوال الآداب العربية فى انشاء الآداب المحلية . خذ مثلا اصناف الادب من المقامة والرسالة والشعر باوزانه وبحوره واقسامه من القصيدة والغزل، حتى انهم فى تدوين قواعد الفارسية والاردوية كما اعلم انهم حذوا حذو النحو العربى كلما وسعهم ذلك .

(د) **نقل الالفاظ الدينية والمصطلحات العلمية** والتعبيرات العلمية الدقيقة والادبية اللطيفة ، فضلا عن مناهج التفكير والتفاعل العاطفى مع الكون ووقائع الحياة وتطورات الذوق الفنى من **الآداب العربية الى** الآداب المحلية .

انما المهم ان **اللغة العربية ظلت محتفظة بمكان الصدارة** فى برامج التعليم والتربية فى ايران وتركيا والهند حتى بعد نشاة اللغات المحلية وآدابها ونقل بعض العلوم اليها لسهولة الكثرة الكاثرة من الجهال وانصاف المتعلمين ، لا لتمجيد اللغات المحلية واستغناء العلماء والمثقفين بها عن اللغة العربية ، فكلما كان محتما على الدارس ان يلم باللغة العربية ، قبل عنايته بالآداب المحلية كلما بقيت حركة النقل والرفد مستمرة قوية بينهما ، **فكانت اللغة العربية معينا لا ينضب** والآداب المحلية مستنقعا يرسب فيه ما فاض من المعين الاول من الالفاظ ومشتقاتها والمصطلحات والتعابير وقوالب الفكر والاخيلة والتيارات العلمية والادبية .

فبما ان حاجة المسلم الاولى للتدين والتثقف هى **درس القرآن باللغة العربية بقي العالم الاسلامي وحدة ثقافية** على الرغم من انقسامه الى دول ودويلات متعددة

ومعادية بعضها لبعض فى كثير من الاحيان ، لولا ذلك لما امكن لابن بطوطة ان يتقلد السفارة والقضاء فى الهند وجزائر مالديب من غير عسر او غرابة فى الامر . اذن يتضح لنا ان **بقاء العالم الاسلامى وحدة ثقافية انما هو رهن بسيادة اللغة العربية الفصحى على اللهجات العامية** فى البيئات العربية والمتعربة وعلى اللغات المحلية فى البلاد المستعربة .

لقد جرت الامور هذا المجرى الطبيعى طوال القرون الى ان ابتلينا بالاحتلال الغربى ـ انما نعنى فى هذا المقام بالجانب الثقافى منه ـ فانقلبت الاوضاع راسا على عقب ، ولنكتف بالقول فى **اهم النقاط التى كان لها تاثير قوي بعيد المدى فى مكانة اللغة العربية**، وهى كما يلى :

(أ) وضع حد لتفرد اللغة العربية بعناية المسلمين فى برامجهم التعليمية والتربوية ، بل الغاؤها كمادة اساسية اولية حتى فى بعض مناطق العالم العربى ، واحلال اللغتين الانجليزية والفرنسية مكانها كلغة العلوم الحديثة والحضارة الجديدة ، ولسنا كالنعام ندس راسنا فى الرمال وننكر الواقع ، بل **نعترف بتخلف اللغة العربية عن ركب العلم والحضارة تبعا لتخلف المسلمين** سياسيا وعلميا بوجه عام ، وعلى ذلك كان الاهتمام باللغتين الغربيتين نعمة فى ثوب نقمة لو اننا وضعنا نصب اعيننا الاستفادة منها بقدر الضرورة للحاق بركب العلم والحضارة، الا اننا مع الاسف تورطنا فى المحاكاة والتقليد الاعمى واتخذنا من اللغتين بالذات سمة وشارة للتقدم وكانت النتيجة اننا بدانا نزدرى بماضينا ونستخف بتراثنا الاسلامى ونجمجم القول فى ترديد **اتهامات الغربيين للغة العربية والدين الاسلامى بانهما يعوقان عن التقدم المنشود فى العصر الحاضر**، وياليتنا اقتدينا باسلافنا الذين احرزوا كنوز العلم فى جميع لغات العالم من اليونانية والفارسية والسنسكرتية حتى بلغوا القمة فى اقصر وقت ، وياليتنا اعتبرنا بالتاريخ المعاصر للامة اليابانية والصينية كيف انهما تملكتا العلوم الغربية فى مدة لا تزيد على نصف قرن بينما نحن لا نزال مستدينين ومستقرضين نعلل انفسنا بالقشر دون اللب لا غير . على كل حال استغل الغرب تعطشنا الى الرقي العلمى والمادى لتضليلنا عن طريق دعايات مغرضة هدامة، من اهمها **الدعاية الى القومية بدل «الاسلامية»** مستلزمة **استبدال اللهجات العامية واللغات المحلية بالعربية الفصحى** .

(ب) لم يبق الآن مجال للشك فى ان **النظرية القومية من مستحدثات الغرب** لا غير ، **وانها تخالف النزعة الاسلامية** على طول الخط ، كما يشهد بذلك المؤرخون الغربيون والمستشرقون انفسهم (1) . وكان من آثار هذه النظرية المشئومة فى البيئة العربية والمتعربة ان بدات اللهجات العامية تزاحم وتطغى على العربية الفصحى بدعوى ان الاولى طبيعية بالنسبة للولد من حيث انه يتعلمها فى حضن امه ويستعملها عن سليقة فى حين يكتسب الاخيرة بجهد شاق فى المدرسة ولا يزال يصطنعها ويتكلفها طول حياته عن قصد وروية لا لشىء الا لانها لغة القرآن ! كادت هذه الدعاية تلقى نجاحا ورواجا لولا ان تداركها الله بصورة لم تكن فى الحسبان ، فان العرب الذين اعتنقوا النظرية القومية لمشاكلة الغرب ومقاومته بسلاحه سرعان ما وجدوا القومية الاقليمية ضئيلة تافهة ناقصة العدد والعدة فتطلعوا الى القومية العربية الكبرى مكاثرين ومباهين بها الامم ، ولما افتقدوا اسا ثابتا مطردا للقومية العربية غير اللغة العربية الفصحى تنبهوا الى خطر اللهجات العامية عليها من حيث تقطيع اوصالهم فتمسكوا بالفصحى ابقاء على القومية لا اتقاء لها . على ان علاج القومية بالقومية انما يذكرنى بقول الشاعر :

وكاس شربت على لذة واخرى تداويت منهابها

كثيرا ما اتصفح التقارير مثل التى نشرت اخيرا فى مجلة «المعرفة» الدمشقية عن اعمال مؤتمرات الادباء العرب فلا اجد فيها كلمة ترمز الى اللغة العربية كلغة القرآن ولا يسعنى الا ان اقول : لن يصلح آخر هذه اللغة الا بما صلح به اولها . ولنتساءل : هل يسر العرب ان يطرد الخط والكلمات والآثار العربية من تركيا وايران لترجع الى وطنها القومى كجماعات المشردين ؟

(ج) ان نكبة اللغة العربية من جراء القومية الوطنية فى تركيا وايران ربما تفوق نكبة المسلمين بالاندلس من بعض النواحى فانها نكبة على لغة القرآن بايدى المسلمين . صحيح ان جميع المخططات للتطهير التى وضعت فى اول وهلة للقومية فى البلدين لم تنفذ لا لشىء الا لاستحالة ابعاد ما يجرى مجرى الدم فى العروق **ولكن الذى خسرته العربية ليس بالقليل** . على كل حال لا يرجى لها فى الظروف الراهنة الا الانكماش والتقلص والنقصان المحتوم لكل ما يتوقف

(1) مثلا (Gibb) . فى كتابه (Modern Trends in Islam) طبعة 1947 ص 116 .

عن الزيادة ـ وهذا دليل آخر على ان **انتشار اللغة العربية مرتبط ارتباطا عضويا بانتشار الوعي الاسلامي الديني** ـ اعنى **الوعي الذى يدعمه الدراسة العلمية الهادئة** ، لا الذى يهيجه ويستغله اعوان الثقافات الاجنبية عن طريق هتافات جوفاء صاخبة .

(د) اما فيما يتعلق بالباكستان خاصة فان **اللغة العربية ظلت اللغة الاساسية فى برامج التعليم والتربية** المحتوية على العلوم اللسانية العربية والعلوم الدينية والعلوم العقلية ، لم يزاحمها فى ذلك الوضع العلمى والدينى والتاريخى طوال القرون المتتالية لا اللغة الفارسية ولا اية لغة اخرى من اللغات المحلية ، فان اللغة الفارسية ، حتى فى عهد الحكام المغول الناطقين بها ، لم تصبح لها مكانة رسمية فى البرامج التعليمية ، انما كانت تدرس خارجها بطريق غير منتظمة ودائما على هامش العربية ، اما اللغات المحلية فكانت سمة الجهل والحرمان من الثقافة والعلم لا غير، حتى اللغة الاردوية التى استعملت فى بعض المناسبات الادبية منذ بضعة قرون لم تكن لها ان تدخل مدرسة فى عداد مواد التدريس او تستقل عن اللغتين العربية والفارسية اللتين كانت دوما تستمد بهاءها ورونقها منهما وتفتقر اليهما لجميع ضرورات العلم والثقافة ، اذن **لم يكن استعمال اللغة الاردوية فى بعض المناسبات الادبية الا كالاحماض** من قبل المثقفين ثقافة علمية عربية . ولكن انقلب الوضع انقلابا جذريا حينما لجأ الانجليز الى جميع وسائل الترغيب والترهيب لادخال نظام التعليم الانجليزى فى المستعمرات الهندية ، فكانت النتيجة ان **تبوأت الانجليزية مكان العربية** كلغة العلم والثقافة فى المدارس والجامعات الحكومية واضطرت العربية الى الخمول كسلطان مخلوع عن العرش فانزوت مع العلوم الدينية الاسلامية الى المكاتب والمدارس الحرة غير الحكومية التى سرعان ما فقدت تأثيرها فى المجرى العام لشؤون البلاد وادارتها ، هكذا سادت الانجليزية سيادة مطلقة قرنا كاملا واكثر ، ولم تكن سيادتها شرا خالصا لولا انها عملت ما هو ادهى وانكد ، فانها بذرت فى نفوس المسلمين والهندوس على السواء فكرة تمجيد لغة الام والتعلق بأهدابها تعلق الولد بأمه وتقديس اللغات المحلية او على الاقل تقديمها على اللغات الاجنبية بما فيها العربية كأداة طبيعية للتزود من العلم والثقافة ايا كان نوعهما ؛ وبدأت هذه الفكرة تنبت وتؤتى ثمارها فكان الخصام بين المسلمين والهندوس بشأن تعيين « لغة الام » و « لغة البلاد العامة » والقدر المحتمل من الكلمات العربية فيهما ، **فاعلن الهندوس رفضهم للكلمات العربية والخط العربى بصفة خاصة** ، اما المسلمون فانهم تصلبوا وصمدوا امام الحركة العدائية من قبل الهندوس الا انهم فى الحقيقة كانوا انفسهم قد قطعوا صلتهم العلمية والدراسية باللغة العربية منذ ان اقبلوا على الانجليزية، فبدأ بعضهم يجمجم باتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة الاردوية وبالغاء الفرق بين السين والصاد والزاى والذال مثلا فى الكتابة اسوة بعدم التمييز بين الحروف المتقاربة فى النطق العامى الهندى ، واخيرا لجأ معظمهم الى الدعاية لتبسيط وتيسير اللغة الاردوية وهم لم يعنوا بالتبسيط والتيسير غير الاقلال من الكلمات العربية والاكثار من الكلمات الهندية المحلية مكانها مع انهم لم يجرؤوا على التصريح بالنفور من العربية ، بل اعتذروا من موقفهم ذلك بالصعوبة العملية والخضوع امام الواقع ـ اذن ما هو الواقع ؟ الواقع ان **اللغة العربية اصبحت بمثابة اليونانية واللاتينية** بالنسبة الى عامة مسلمى الهند منذ تغلب الانجليزية وسيطرتها على برامج التعليم والتربية والادارة الحكومية ، على كل حال اصبحت الاردوية جزءا من مقومات القومية لمسلمى الهند ولزت فى قرن مع الانجليزية بعد ان كانت ردفا للعربية، ثم كان الاستقلال والتقسيم وقيام دولة الباكستان على اساس دينى عاطفى فقط ، اقول «عاطفى» فقط ، لان حركة الباكستان كانت حركة جماهير الشعب بكل معنى الكلمة ، اى ان جماهير المسلمين المضطهدين هبوا يطالبون بحقهم فى العيش بحريتهم وكرامتهم فاعطى القواد والزعماء السياسيون اسم الباكستان لذلك الهدف الاجمالى ، وتم كل شىء على عجل بحيث لم يتأت لاحد من المسئولين والباحثين الاختصاصيين ان يصرف عنايته الى درس السبل والمناهج المؤدية الى الغاية المنشودة ووضع مخطط شامل لاحداث ذلك التطور الذى يقتضيه فكرة « مجتمع دينى عصرى » ـ وقد نتج من عدم الاستعداد الفكرى هذا ان تعذر الاتفاق على دستور للدولة الناشئة ، كذلك ارتفعت الاصوات من الشوارع والاندية الشعبية والاحزاب السياسية مطالبة بالاسلام والاردوية بدل العلمانية والانجليزية فى دور العلم ومناهج التربية ، وقد نسي الجمهور وتناسى المسئولون ان **الاسلام والاردوية لن يستقيم امرهما الا بالعربية** ، بل ربما ظنوا ان اللغة العربية تقف عقبة كأداء فى سبيل تعميم الاسلام لتقوية العاطفة الدينية وتوجيهها نحو بناء الوطن الجديد ، فلذلك اعرضوا عن ذكر العربية فى صمت وعمدوا الى

جرد الفكر الاسلامى فلموا بعض جوانبه المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والادارة المدنية والاخلاق العامة فكونوا منها فسيفساء التعاليم الاسلامية وسموها «الثقافة الاسلامية» تارة و «النظرية الاسلامية للحياة» تارة اخرى وضمنوها كمادة اجبارية للتدريس فى برامج التعليم المختلفة ، لا شك ان لجنة التعليم القومى واللجان الاخرى التى نيطت بها مهمة النظر فى التغييرات الواجب ادخالها على برامج التعليم من حين الى حين اوصت دائما بضرورة اللغة العربية للدراسات الاسلامية الاصيلة من القرآن والحديث والفقه وما اليها ، الا ان تلك التوصيات اهملت فى مرحلة التنفيذ جريا باقصر الطرق واسهلها وراء النتائج العاجلة من الحماس الدينى وتكريسه لاعراض النهضة القومية ، نعم ربما كانت الاطعمة المجففة المعباة فى العلب ايسر تناولا واوفر للوقت ، الا انه بصرف النظر عن جدوى مثل هذه الدراسات الاسلامية الرخيصة الجاهزة باللغتين الاردوية والانجليزية ، يجب علينا ان نسجل واقع **الاستغناء عن اللغة العربية كالاستغناء عن فن الطهي** وعملية الطبخ فى استعمال علب الاطعمة ـ اما بشأن الاردوية فقد دوت الارجاء بمزاعم طائلة عن ثروة اللغة الاردوية ومرونتها وصلاحيتها لتوعية جميع العلوم الحديثة بالنقل والترجمة ، بما فيها صياغة المصطلحات اللازمة ، الا ان تلك **الادعاءات اصبحت هراء وكلاما فارغا بعد انقطاع صلة الاردوية بالعربية ، لان العربية بكثرة موادها وسهولة الاشتقاق منها، هى التى تكفلت رفد الاردوية بالمصطلحات والكلمات والتعابير العلمية الدقيقة ،** تلك التى اشاد بها البيرونى منذ قرون ، اما العنصر المحلى فى اللغة الاردوية فلايجدى فتيلا لان الاردوية **انما وجدت لحاجات البيت والسوق** وليس لها عهد بتحمل اعباء العلم والفن منفردة عن سندها الكلاسيكى ووزرها الثقافى والتاريخى فى اللغتين العربية والفارسية ، ثم ان اللغات الهندية المحلية التى اخذت منها الاردوية بنصيب ليس لها من البنية وطرق الاشتقاق ما يمكنها من تأدية المعانى المختلفة بكلمات قصيرة وبتغييرات يسيرة مطردة داخل الكلمات، ولذلك نرى ان حركة الترجمة الى الاردوية سارت سيرا حثيثا مستقيما وقويا متشددا مادام مارسها رجال مثقفون ثقافة عربية ، ثم ضعفت وتعثرت لما اغتصبها بدون استحقاق احداث مثقفون ثقافة انجليزية ، والآن نشاهد عجبا من امر دعاة الاردوية الذين يجهلون العربية والفارسية ولا يدرسون غير الانجليزية ، فانهم ينادون منذ عشرين سنة بجعل الاردوية لغة رسمية فى الباكستان وبجعلها وسيلة للتعليم العالى فى الباكستان الغربية، انما جل اعتمادهم على الفرامين والاوامر الحكومية كما لو كانت المسألة مسألة سياسية بحتا بينما المكتبة الاردوية لاتزال تفتقر الى الكتب وماليها وبذلك تزداد كل يوم تأخرا عن ركب العلوم والحضارة الجديدة ، واذا عمد احدهم الى الترجمة او التأليف بالاردوية اضطر الى السطو (بدون اجازة علمية) على الكلمات المولدة من العربية فجاءت مشوهة محرفة عن اصلها فى النطق وفى المعنى ، وضاعت كلها على النشء الجديد الذى، بطبيعة دراسته وبيئته، معذور فى الاستيحاش من الكلمات العربية والاستئناس بالكلمات الانجليزية ، وسيستمر هذا الوضع بل يشتد يوما فيوما لان دعاة الاردوية هم فى الوقت نفسه دعاة تجديد الرخصة الانجليزية كلغة ثانوية اجبارية مصاحبة للاردوية تفاديا للتدهور العلمى المخوف وتسترا على الشعور الخفي بعدم كفاءة الاردوية للحاجات العصرية ، فهكذا تنبنى الدعاية للاردوية على عقد اتفاقية للدفاع المشترك والتعايش السلمى بينها وبين الانجليزية ضد العربية المهملة الساقطة من الحساب تماما .

ثم ان **دراسة اللغة العربية هى التى دعمت التقريب بين المسلمين الناطقين باللغات المحلية** المتباينة فى الاقاليم الهندية المختلفة، وهى التى خففت من حدة التعصب للغة الام ، كما انها هى التى اثرت فى اللغات الاقليمية وتأثرت بها بحيث **لم توجد الاردوية الا كنتيجة لتفاعل العربية (والفارسية بدون شك) مع البيئة الوطنية** وتعامل المسلمين مع ابناء البلد ، ولكن القوميين المثقفين ثقافة انجليزية انخدعوا بوجود اللغة الاردوية ومدى انتشارها فظنوا انها بذاتها (اى مستقلة عن العربية) تكفى للربط بين الناطقين بلغات محلية متباينة فى المناطق المختلفة ، الا انهم منوا بخيبة امل مريرة حينما اثبتت الوقائع الدامية فى الباكستان الشرقية ان **لا كرامة للاردوية بعد عقوقها العربية**، واخيرا رضخوا للضغط السياسى واعترفوا بالبنغالية كلغة رسمية لدولة الباكستان بالاضافة الى الاردوية ، وسرعان ما وجدوا انفسهم امام مشكلة اخرى هى اشبه بالمهزلة ، فان قضية الكرامة القومية ضد سيادة اللغة الانجليزية انتهت فعلا بتثبيت قواعدها كأداة وحيدة لا بديل لها للتفاهم بين الناطقين بالبنغالية فى المنطقة الشرقية والناطقين بالاردوية فى المنطقة الغربية ، وحتى فى المنطقة الغربية بدأت اللغات المحلية مثل اللغة السندية واللغة الافغانية (فشتو) تنكر سيادة الاردوية، على كل حال انحل الرباط الثقافى بين

المناطق التى تسودها لغات مختلفة وبدات هى تسير على خطوط متوازية لا يرجى لها الالتقاء ابدا ما دامت اللغة العربية مبعدة مطروحة يجحد فضلها ويتعمد اغفالها ، والآن هم لا يجدون مخرجا من هذا المازق الا باجبار كل ناطق بالاردوية على تعلم البنغالية والعكس بالعكس ، وتارة يتخبطون فى خلق مزيج من اللغتين البنغالية والاردوية معتمدين على الكلمات المشتركة او المتقاربة بينهما ، وتارة اخرى يحاولون استمالة اهل المنطقة الشرقية **الى اتخاذ الخط العربى للغة البنغالية وتقريبهم من الاردوية عن طريق القرآن** (القراءة فقط بدون فهم المعنى) فالغاية تنتهى الى الاردوية لا غير ! والعلاج الناجع لهذه المعضلة هو **اعادة الوضع التاريخى للغة العربية كاساس الدراسات الدينية والادبية ،** ولاسيما اذا كان جميع المسلمين ، مهما اختلفت لغات امهاتهم ، مستعدين لها عن رغبة وطواعية فى الحاضر كما فى الماضى ، وكانت دراسة اللغة العربية المشتركة مصدر التقارب فى الثقافة العامة واللغات الدارجة فى المناطق المختلفة ولن يزيد التقارب المنشود فى المستقبل بالنكوص عن اللغة العربية بل بالرجوع اليها، لقد كان المرحوم آغاخان بعيد النظر ، سديد الرأى وصادق العزيمة اذ تقدم فى بداية نشاة الباكستان بالنصح **لجعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة الجديدة ،** وحتى اذا كان اقتراحه طوباويا ولم يكن من السياسة العملية اتخاذ العربية كلغة رسمية لبلاد مستعربة رزحت تحت نير الاستعمار الثقافى حتى فقدت روح الاستعراب وران عليها الاستغراب ، فانها اى **اللغة العربية هى اللغة الوحيدة الصالحة لان تكون لغة الدراسة المشتركة بين المنطقتين** الشرقية والغربية فى جميع مراحل التعليم كي تزاحم الانجليزية فى ذلك الوضع مزاحمة فعالة وتجنب البلاد الويلات والمشاكل، بله المهازل التى مضى الالماع اليها ـ نعم ! ذهب اقتراح آغا خان ادراج الرياح لان الوعي الدينى العلمى لم يوجد ، والوعي السياسى القومى يتبع التفكير الغربى فيما يتعلق بمستلزمات القومية ، ومنها اللغات المحلية، اما الدين فلا بأس بالترهات والبدع بشرط ان تمد فى الهاب الحماس للوطن .

وفى الآونة الاخيرة اجترا بعض الدهاة على القول بان **اللغة الاردوية اغنى من حيث الادب الاسلامى من اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة التركية بمجموعها،** كبرت كلمة تخرج من افواههم فانها مؤامرة سافرة ضد العربية لم يسبق لها مثيل حتى فى ايران وتركيا فى العصر الحاضر ، انها مؤامرة استغلت فيها العاطفة الدينية، بل القومية والوطنية ، للحط من قيمة العربية ، الا ان مجرد فكرة استغلال العاطفة الدينية لصالح اللغة القومية تنم عن شعور خفي بالتلازم بين الاسلام والعربية ، وسيبقى ذلك التلازم حقيقة ملموسة وحاجة طبيعية وضرورة علمية الى الابد والله خير الماكرين .

ما من شك ان مصادر الاسلام ومراجع العلوم الاسلامية كلها بالعربية ، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، واحاديث النبى الذى اوتي جوامع الكلم هي ايضا بالعربية ، ثم ساهمت جميع الامم الاسلامية ، العربية منها والاعجمية على السواء ، فى تدوين العلوم الاسلامية من الفقه والاصول والتفسير والحديث كلها بالعربية ، كذلك نحا المسلمون كلهم ، العرب منهم والمتعربون والعجم المستعربون ، نحا كلهم نحوالبيرونى بالضبط فى نقل وتدوين جميع العلوم العقلية الدخيلة والفنون التعليمية والتطبيقية باللغة العربية مفضلين اياها على اللغات التى جبلوا عليها ، واستمر هذا الوضع الى ما قبل قرنين تقريبا اي الى ما قبل احتكاك المسلمين بالامم الغربية المستعمرة ، ثم بدات حركة لم تظهر خطورتها الا فى الآونة الاخيرة، الا وهى حركة النقل والترجمة ، فيما يخص مصادر الاسلام ومراجع العلوم الاسلامية ، من العربية الى اللغات الاعجمية ، لا ننكر ان الفرس مثلا الفوا بعض الكتب فى العلوم الاسلامية (والدخيلة التى لا تعنينا فى سياق كلامنا هذا) منذ القرن الرابع الهجرى ولكن الغرض منها لم يعد التيسير على المبتدئين وانصاف المتعلمين مع اشعارهم والتاكيد عليهم بحاجتهم الى العربية ، اما حركة **الترجمة فى العصر الحاضر فهى ترمى الى الاستغناء عن العربية ،** لقد تبين ذلك من اقوال اولئك الذين يجهلون العربية فيعادونها ، كما تبين ذلك من النتائج العملية فانهم سلخوا الدراسات الاسلامية وجردوها من العربية تماما حتى فى الجامعات والمعاهد العليا مما جعل الدين الحنيف مضغة فى افواه الجاهلين المتفرنجين . ومن الغريب المؤسف ان الدراسات الاسلامية فى جامعات اوربا وانجلترا واميركا مقترنة دائما بالدراسات العربية جريا على الطريقة العلمية الخالصة ، مهما كلفهم ذلك من جهد وعناء ، بينما تلامذة الغرب القائمون على شؤون التعليم فى بلادنا يحتالون للتملص من اللغة العربية والاعتماد على التراجم والمؤلفات بالانجليزية واللغات المحلية التى لا تغنى عن

الاصول ابدا ولاسيما اذا كان المترجمون والمؤلفون انفسهم غير متقنين للغة العربية (1) .

ويجدر بنا الآن ان نقدر ما افاء على الاسلام من نفع او ضرر من جراء تراجم القرآن والحديث واصول الاسلام ، فلشيء ما لم يتكلف اسلافنا التراجم فيما مضى، كما اسلفنا القول فيه ، ولا يعدمنا الدليل على ان الترجمة كانت تعتبر تجريحا لكرامة الكتاب الذى يجب ان ينقل ويدرس بحرفه وبنصه، وكما اعجبت بالروح الاسلامية الخالصة عند اخواننا المغاربة الذين ثاروا وقتلوا اثنين مغرورين منهم اجترءا على ترجمة القرآن الى اللغة البربرية وذلك فى القرن الماضى لا ابعد منه (2)، كذلك رجت الهند رجا حينما بدات تراجم القرآن الى الفارسية تارة والى الاردوية تارة اخرى تظهر وتروج بفضل جلة العلماء من اسرة الشاه ولى الله الدهلوى منذ قرنين فقط لقد ظن اولئك العلماء الاعلام ، بحسن النية من غير شك، انهم كانوا بصنعهم ذلك يسدون حاجات دهماء الشعب الذين لم يساعفهم القدر ان يتعلموا فى المدارس ومعاهد التعليم حيث التدريس مقتصرا على العربية ، الا اننى واثق من انهم لو بعثوا من مراقدهم وشاهدوا ما يحدث اليوم من الاستغناء بالتراجم عن الاصول العربية والتخلى عن الآداب العربية تماما بدل التشويق لها عن طريق التراجم لندموا على ما فعلوا وتبرأوا مما لم يكن فى حسبانهم ، اعنى السماح للتراجم بالدخول الى المدارس ومعاهد العلم ، اذن الترجمة كالدرهم المبهرج يزاحم ويطرد الدرهم الخالص من السوق ، كما يقول علماء الاقتصاد ، وحق على المسلمين ولاسيما العرب منهم ، ان يتنبهوا الى **ضرورة نشر اللغة العربية** بدل ان يبذلوا جهودهم لنشر التراجم فيما بينهم ، لان المسلم لن يكتمل فهمه الصحيح للاسلام كما انه لن يتجاوب ويتفاهم مع مسلمى العالم الا عن طريق اللغة العربية ـ **فلنصر على ان تكون لغة القرآن من مرفقات الاسلام ولنحث المسلمين الاعاجم ان يتقدموا فى استعرابهم وذلك باستمرار تلقيح لغاتهم وآدابهم المحلية بالدراسات العربية الاسلامية** كما كان عليه الحال الى ما قبل عهد الاستعمار .

وبصرف النظر عن الدراسات العربية المقترنة بالعلوم الاسلامية ، لا مجال للتفاؤل بمستقبل الآداب العربية البحت فى البلاد الاسلامية غير العربية ايضا ، لان اللغات والآداب الكلاسيكية ، وعلى راسها الآداب العربية ، كان لها مكان محترم مرموق فى نظام التعليم الانجليزى مادام الانجليز مشرفين عليه ، فهم لم يسمحوا ابدا للغات المحلية النامية ان تزاحم اللغات القديمة الكلاسيكية فى برامج التعليم والتربية ، وليس ذلك بدعا منهم طالما هم تمسكوا بدراسة اليونانية واللاتينية فى بلادهم ، اما بعد الاستقلال فقد قفزت اللغات المحلية الى القمة بين عشية وضحاها وطغت على اللغات الكلاسيكية لان كل لغة محلية اصبحت الطفلة المدللة للقومية الهوجاء . اذن نتاكد مرة اخرى من ان **اللغة العربية لن تفلح فى البلاد الاعجمية الا اذا استندت الى الدين .**

حقا لقد طال بنا القول فى الاوضاع السائدة فى البلاد الاسلامية المستعربة ، وتلك لعمرى اوضاع خطيرة ، لعل اخواننا العرب لو وقفوا عليها لغيروا وجهة نظرهم الى اللغة العربية، **فانها اما ان تكون لغة قومية للبلاد العربية** فتنحصر داخل حدودها وتصعب عليها البقاء ازاء اللهجات الدارجة ، او **تكون لغة القرآن والاسلام فتصبح اللغة الاولى** بالنسبة لجميع المسلمين ـ العرب منهم والعجم ـ وتساير الاسلام الى سائر بقاع الارض . كذلك يجب على **المسلمين غير العرب ان يخلصوا ولاءهم للغة القرآن** وذلك بالتخلى عن فكرة تمجيد اللغات القومية والمحلية **واتخاذ خطوات ايجابية لاعطاء اللغة العربية الاسبقية والافضلية** فى برامج التعليم وتقوية ربط اللغات المحلية بها ، والاحتفاظ بكرامة القرآن العربى بمنع دخول ترجمته الى معاهد التعليم العالى وحظر دراسة العلوم الاسلامية الا باللغة العربية . واخيرا يجب التحذير من الاغلوطة الشائعة ان وطأة اللغات القومية والمحلية انما تقع على الانجليزية ، كلا بل ان وطأتها تقع فى المرتبة الاولى على لغة القرآن والعلوم الاسلامية كما ان وطأة اللهجات الدارجة انما تقع على العربية الفصحى ، لا على الانجليزية او الفرنسية ، فى البلاد العربية .

---

(1) لقد اتفق للدكتورة بنت الشاطىء الالتقاء بالهند ببعض هؤلاء المترجمين والمفسرين للقرآن من غير ان يعرفوا اللغة العربية فثارت ثائرتها لحماية الكتاب « من عبث المترجمين وخطأ الشراح وعدوان المقتبسين » ـ انظر مقالها فى الاهرام 2ـ3ـ1964.

(2) انظر عثمان الكعاك : البربر ، تونس 1956، ص 116 .. كذلك تاريخ الاندلس ملىء بالتشاحن والتطاحن بين العرب والبربر الا ان بربريا واحدا لم يفكر ابدا فى تمجيد اللغة البربرية ضد العربية !!

لغة القرآن هي المقوم الأساسي لوحدة المسلمين

بقلم الأستاذ محمد صغير حسن المعصومي (باكستان)

ظهر الاسلام لنشر السلام وتعميم الامن فى العالم وسادت اللغة العربية فى العالم عندما تدفق الدين الحنيف وانتشر فى الخافقين ، وقد كانت هذه اللغة قبل الاسلام محدودة فى نطاق جزيرة العرب رابضة فى الخمول .

فالقرآن الكريم الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بضع وعشرين سنة هو **الكتاب الاول الذى لقن العرب لاول مرة الهداية** ، وبين لهم قواعد المجتمع الانسانى واوضح الاصول والمبادىء التى لابد منها لتنظيم هذا المجتمع وبلورة حياته الثقافية والاقتصادية والسياسية .

ومن المحقق عند المؤرخين ان لغة امرىء القيس حامل لواء الشعر العربى ورائده لم تكن لغة منسجمة مع ثقافة الاسلام وانما كان الافتخار باللغة العربية فيما بين قبائل العرب فقط ، فاكثرهم كانوا غير مثقفين وغير مهذبين ، حتى ان اليهود والنصارى لم يعتنوا ءانذاك بترجمة كتبهم الدينية العبرية الى هذه اللغة .

ولا مراء فى ان الاسلام استحدث كلمات كثيرة فى معانيها الخاصة التى لها صبغة دينية نحو الصلاة والصوم والزكاة والصدقة وعديد من الالفاظ التى تتعلق بالمعاملات والعبادات فى الاسلام فصارت هذه الكلمات شائعة بين المسلمين فى كل ناحية من نواحى العالم وما زالت هكذا الى يومنا هذا . وعندما خرج المسلمون من قلب جزيرة العرب وبلغوا كلمة التوحيد الى اقصى الشرق والغرب **لقنوا كلمة الشهادة باللغة العربية ، وعلموا القرآن الكريم وشرحوه على منهج سليم** كما فعل جلة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فسارت فى ركبهم اللغة العربية ، اى لغة القرآن الكريم ، الى الاقاصى والادانى فنالت درجة عليا عند المشارقة والمغاربة الذين انهالوا على هذه اللغة وافتخروا بالمحاورة بها وتأدبوا بآدابها وهكذا عمت الثقافة الاسلامية بين الناس فى عهد الامويين وعهد العباسيين ، فأخذ اهل الاسلام العلوم والفنون من الاغريقيين والايرانيين والهنادكة ، وتقدموا الى اسنى المقاصد واعلى الدرجات، ودارت هذه العجلة فى بغداد والقاهرة والقيروان وغرناطة وقرطبة ، وكثير من بلاد المسلمين التى اصبحت بفضل الاسلام كعبة العلوم والفنون .

وقد عمل المسلمون بالاحكام القرآنية فى القرون التى كانت اقرب الى عهد الصحابة والخلفاء الراشدين ، وسلكوا على النهج النبوى ، على صاحبه الصلاة والسلام ، وقادوا الانسانية وشادوا الدين ،

ثم دب الضعف فى معتقداتهم فاستكانوا فى مساعيهم وذلوا وتقهقروا فى مجالاتهم الدينية والعلمية والثقافية ، وغلبت عليهم الاقوام التى كانت فى وقت ما تحت سيطرتهم فسرت بين المسلمين امراض مختلفة جعلتهم على هوة الهلاك .

فالقرآن موجود كما كان فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، موجود بكلماته الخالدة، وبيانه الحي، ولكن ليست هناك اعمال ولا افكار ، تتفق وتلك الروح الخالدة ، فليست هناك سوى اصوات جردت من معانيها ، ونتيجة لذلك اخذ التقليد ينمو فاحاط بكل طبقة من المسلمين .

لقد اثرت اللغة العربية فى سائر اللغات التى كانت اداة تفاهم بين المسلمين على اختلاف مناطقهم فلغة السواحلى والملطية مثلا يشملها كثير من الكلمات العربية، واللغة الاردوية المتداولة بين المسلمين فى الهند فيها كثير من الكلمات العربية والبنجالية كذلك . وقد احتال الخصوم بالهند للرسم الهندى (السنسكرتى) للاردوية واصروا على ترك الخط العربى عداوة للمسلمين والاسلام فلم ينجحوا . ولنا احسن مثال فى اللغة الفارسية التى اقتبست الكلمات العربية واساليبها بعد الفتح الاسلامى ، فتولدت من ذلك لغة جديدة فقدت خصائصها القديمة لسيطرة الثقافة الاسلامية عليها وقد ظهر فى هذه اللغة الجديدة من الشعراء مثل عباس المروزى والعطار وابن الرومى والنظامى ، والسعدى والحافظ والعراقى والامير خسرو والجامى وغيرهم ، فكثير من اقطار آسيا وافريقيا وباقى البلاد اعتضدت اللغة العربية وتعاليم الاسلام، فقويت شوكتها ودونت كثيرا من العلوم والفنون بالعربية ، فالحكماء والفلاسفة مثل الفارابى ، وابى حامد الغزالى ، وابى الريحان البيرونى ، والشيخ الرئيس ابن سينا ، والسمرقندى ، والمرغينانى وقاضى خان وامثالهم ، ممن صنفوا بالعربية كان لهم اعتزاز بلغة القرآن.

فطريق الخلاص اذن هو الرجوع الى الاسلام ولغة القرآن الكريم ، والتمسك بالاخلاق الفاضلة التى تكمن فيها اسباب الفوز والفلاح، وعوامل الرقي والنجاح. فنزول القرآن الكريم باللغة العربية حجة على انها هي **اللغة الفريدة التى تنسجم مع تعاليم الاسلام** وهي اللغة الرئيسية عند المسلمين فى سائر اقطار العالم ، وهي الرابطة الوحيدة فيما بينهم ، فلا بد من الحفاظ على لغة القرآن واتقانها لضمان التفاهم بين المسلمين .

المسلمون

في باكستان تواقون إلى العربية فيجب تبسيط طرق تدريسها

بقلم الاستاذ محمد جمال الدين عبد الوهاب

(باكستـــان)

1) الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية لا يحتاج الى دليل ـ يشهد التاريخ ان السابقين الاولين من الفاتحين انتشروا فى اقطار آسيا وافريقيا ، فلما اضمحلت الدعوة الدينية توقف انتشار الثقافة العربية الاسلامية ولغتها .

2) المسلمون مع اختلاف السنتهم والوانهم يعتقدون ان اللغة العربية هى لغة دينهم ، فهم يتلون القرآن بها ويقراونها فى جميع صلواتهم فهموا معناها ام لا .

3) كانت العربية هى اللغة العلمية المتداولة فى بلادنا قبل الاستعمار الانجليزى ثم صارت الانجليزية لغتنا الرسمية غير ان تدريس العربية فى المدارس الدينية ظل مستمرا ولذلك نجد الآن الوفا من هذه المدارس التى يبلغ عدد طلابها اكثر من ثلاثة ملايين فى باكستان الشرقى والغربى وتدرس اللغة العربية فى الجامعات والكليات الرسمية ايضا .

4) ان اللغة المعتادة ، الآن هى الانجليزية التى ستبدل قريبا باللغتين الاوردية والبنغالية ولكن الشعب الباكستانى يطمح الى ان يتعلم ويفهم لغة نبيه صلى الله عليه وسلم فلووجد طريقا سهلا لتعلمها فلاشك انه سيسعى الى تحصيلها . فاقتراحى بهذه المناسبة هو العمل على نشر اللغة العربية المبسطة على منهج Basic English وذلك بترك الكلمات المغلقة والعبارات الغريبة واستعمال اسلوب عربى مبين ونشر ذلك بالاذاعات والجرائد ـ فنستطيع آنذاك أن نقر اللغة القرآنية كلغة رسمية لجميع بلاد المسلمين وهو الحل الوحيد لاحياء الاخوة الاسلامية والتضامن بين المسلمين .

5) الشعب المغربى الشقيق يستطيع ان يقود العالم الاسلامى فى نشر الثقافة ومآثر الاسلام . نسأل الله تعالى ان يكلأ المغرب بعين رعايته تحت ظل عاهله العظيم صاحب الجلالة الحسن الثانى متع الله المسلمين بطول بقائه وجعل المغرب فى عهده منارا لاشراق النور الاسلامى والثقافة العربية فى العالم انه على ذلك قدير .

شعور المسلم بقداسة لغة القرآن يفسح المجال لانتشارها في انحاء المعمور

للأستاذ عبد الرسول عبد النبي الفردان

استاذ الاجتماعيات
(معهد كرزكان)
البحرين

ان اللغة العربية من لغات العالم الحية ، وهي لغة سامية ، يتكلم بها اكثر من مائة مليون عربي في انحاء المعمور ، وقد شرفها الله قدرا واعلاها منزلة ، فجعل القرءان ناطقا بها ، وهي لغة خالدة باقية ، خلود وبقاء القرءان ، لم يتسرب اليها دخيل كغيرها من اللغات ، اللهم الا ما شذ مما ليس له تاثير مباشر في اللغة ذاتها.

وبما ان اللغة العربية هي لغة القرءان المجيد ولغة الدراسات الاسلامية (تفسير وحديث واحكام ومختلف فروع الفقه وتشريع عقلي ونقلي) ، وعلى راسها علوم القرآن الكريم) ، فان دراسة ذلك يقضي الالمام بها للتزود باكبر رصيد ممكن من فقهها الواسع الكبير .

لا يمكن ، لاي مسلم عربي او اعجمي والحالة هذه ان يدرس الاسلام ويتعلم اصول الدين وفروعه الا بتعلم اللغة العربية .

فهذا التوافق والتلازم هو الذي سبب انتشار اللغة العربية في اجزاء كثيرة من العالم ، مثل ايران وتركيا (واربا الغربية ، سيما انجلترا وامريكا) واندونيسيا وافغانستان وغيرها ، ولا يخلو بلد فيه مسلمون الا وبه مركز اسلامي لتعليم القرءان الكريم واصول الدين الاسلامي الحنيف واحكامه ، ودراسة اللغة العربية . ففي ايران على سبيل المثال تظهر لنا المطابع كل يوم مؤلفات عربية غاية في الاتقان وجودة الطبع في تفسير القرءان الكريم والحديث النبوي الشريف ، ومختلف كتب الادب والتاريخ والشعر . وفي لواء خراسان توجد كلية اسلامية تدعى « كلية المعقول والمنقول » للدراسات الاسلامية واللغة العربية وآدابها. ومن بين اساتذتها مدرسون ايرانيون تبحروا في اللغة العربية، لكي يفهموا طلابهم امور دينهم الحنيف بواسطتها . فكل مسلم غير عربي سواء كان ايرانيا او هنديا او تركيا لابد له من تعلم اللغة العربية قبل الشروع في التفقه في الدين الاسلامي .

وقد اجاب شاعر النيل المرحوم حافظ ابراهيم حيث قال في شان هذه اللغة العظيمة :

« وسعت كتاب الله لفظا وغاية »

وهكذا فالراي القائل بوجود علاقة بين الاسلام واللغة العربية ، راي صائب لا شك فيه ، ولولا الاسلام كما تاتى للغة العربية ان تنتشر في العالم ، كما انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرءان ما انتشر الاسلام .

ومن جهة اخرى فالوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعترى لغة الضاد من قوة وضعف. هذه حقيقة واضحة لا جدال فيها في كل بلد اسلامي .

ان الفكر الاسلامي قد تاثر بلغة القرءان وان المسلمين على اختلاف لغاتهم وقومياتهم قد عنوا باللغة العربية اشد عناية ، ليتسنى لهم تلاوة القرءان المجيد وتفسيره ودراسة الحديث النبوي الشريف وفهمه ، وقد انكبوا على دراسة مختلف فروع هذه اللغة من فلسفة ومنطق وبلاغة وبيان وبديع ونحو وصرف ، وحتى علوم العروض ، ودرسوا أوزان الشعر وقافيته وبحوره ، فاستطاعوا التمييز بين غث الحديث وسمينه وبين الحديث الصحيح والموضوع والشعر الركيك والجيد البليغ . نشطوا فى ذلك واتسعت اللغة وانتشرت آدابها . فظهرت طبقات الشعراء والنحويين فكثر الحديث وازدادت الرواية ، ونشط التاليف فى علم الرجال ، وكثر الجدل بين العلماء ، وذلك فى مختلف العصور الاسلامية ، كالعصر الاموي والعصر العباسي الاول والثاني الى يومنا هذا.

فنجد كثيرا من الكتب الدينية الاسلامية المطبوعة باللغة العربية ناطقة بفصيح لسانها وبديع بيانها ، شاهدة على صدق قولنا ، مترجمة للاسلام ومبادئه الراسخة وعقيدته الصالحة موضحة ببيان جلي الارتباط الوثيق بين انتشار الاسلام ولغة العرب، فصدرت هذه الكتب الى البلاد الاسلامية المختلفة ليدرسها المسلمون ويفهموا دينهم الحنيف بواسطة لغة القرءان الكريم ، وهكذا فان هذه اللغة خالدة خلود الزمان ما دامت هي لغة القرءان الخالد ودستور الاسلام الاكبر .

وللغة العربية مؤهلات ذاتية تجعلها لغة العلم فضلا عن مميزاتها كلغة للشريعة والآداب فهي متسعة الآفاق ، غنية بمفرداتها ومترادفاتها وكناياتها وايماءاتها وموادها التي وصفت دقائق المعاني وبسائط الاشياء وابعاض المركبات وجزئيات المفردات وارق الاحوال ، فلكل مفهوم كلمة ولكل حال دلالة .

هذا بالاضافة الى مرونتها البالغة وقابليتها الفياضة للنحت والاشتقاق .

واللغة التي يكون لها هذا الرصيد العظيم لا يمكن ان يضيق لها مجال كلغة للفكر والعلم .

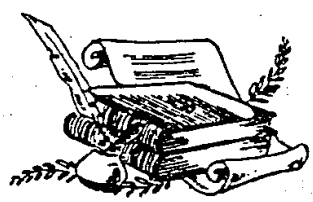

إمكانيات إصلاح اللغة العربية لتوازي لغات الحضارة الحديثة

للأستاذ محمد تازروت

تفضل جناب الاستاذ محمد تازروت وهو معروف خصوصا بتاليفه « فى مؤتمر المتحضرين » الذي أصدره سنة 1954 فى خمسة اجزاء — فبعث الينا بجواب عن الاستفتاء نختصر فيما يلى اهم الافكار التى انطوت عليه (تجدون نصه الكامل بالفرنسية فى مكان آخر) :

فقد اجاب عن السؤال المطروح فى موضوع ارتباط انتشار الاسلام بانتشار اللغة العربية قائلا : ان العلاقات بينهما أمر بديهي لا يقبل الجدال وقد تجلى ذلك فى تاريخ الخلافات والسلطنات والمملكات والجمهوريات الاسلامية ، وهو يرى ان هذا الارتباط قد يكون توضيحه أبلغ بمقارنة مستوعبة بين عقيدة التوحيدالتي اختص بها اليهود والمسيحيون والمسلمون وبين مذهب ما بعد الطبيعة الذي تشبث به الصينيون والهنود وقدماء اليونان والرومان وذلك ما حاول أن يبنيه فى مؤلفه المشار اليه

ومن آراء الاستاذ أيضا أن التوراة والانجيل والقرآن لا تختلف فى جوهرها لان كلا من هذه الكتب انزل بلغة كان وجودهاسابقا للوحي الذيأصبح عاملا لنشرها ولاكتسائها صبغتها الكلاسيكية .

ولئن تعددت الروايات فيما يخص التوراة والانجيل عند اهل الكتاب لاسباب اهمها التخلص من العاطفية الوثنية والرجوع الى العقل والعداوة بين النصارى واليهود ، فالقرآن لم تشبه شائبة منذ ان اثبتت روايته الاصلية فى عهد الخليفة عثمان .

ثم ان الاستاذ يعبر عن عدم اقتناعه بفكرة مسايرة انتشار اللغة العربية لازدهار او انحطاط الحضارة الاسلامية مدعما وجهة نظره بمثال الاتراك السلاجقة والعثمانيين الذين ءامنوا كما آمن الذين جاءوا من قبلهم بل وفاقوا الفاتحين الاولين لبلاد الفرس والرومان بما ظهر من التعمق والجمال فىأدبهم فأمست لغة الاسلام تشيع مع الفتوحات وتفرض نفسها فى قيام الصلوات وفى باقي الشعائر الدينية الى ان انهزمت الامبراطورية التركية فى اوربا وتسلط الاستعمار على المسلمين فى آسيا وافريقيا فحال بينهم وبين النهوض كما وقع ذلك فى عهد الخديوى محمد علي . اذ ذاك دخلت العربية فى طور بدات تفقد فيه طابعها التقليدي وشخصيتها الادبية .

وفيما يتعلق بمدى تاثير الفكر الاسلامي عن طريقة لغة القرآن فى اللهجات أو اللغات الاقليمية .. يعتقد الاستاذ تازروت ان تلك اللهجات تكاثرت واختلفت بسبب الصعوبات الناتجة عن الصرف وتعدد المترادفات والاضداد وقلة الحروف الملحقة بأواخر الكلمات وعدم وجودالمعاجم الابجدية . واما اللهجاتالتيليسلها أصل عربي كالبربرية فانها أصبحت تستمد الالفاظ الكثيرة من لغة الاسلام وتحرفها تحريفا زادت خطورته بسبب عدم وجود كتابة خاصة بها من شأنها أن تلقي اضواء على تفهم تلك الالفاظ ان لم تكن سببا لمنافستها .

ولكي تحتل العربية المكانة اللائقة بها بين سائر اللغات الاجنبية يرى الاستاذ انها محتاجة الى اصلاحين : اصلاح لغوى مستعجل يرمي الى تعويض المعاجم الاشتقاقية بمعجم أبجدي ، واصلاح يتعلق بالقواعد يهدف الى وضع كتاب شامل فى النحو يفي بكل ما يحتاج اليه تعليم النطق وضبط الكتابة والاشتقاق والصرف والتركيب مع تعداد الحروف الزائدة فى أوائل وأواخر الكلمات وربطها بالمترادفات والاضداد — التي توجد بكثرة — حتى يتأتى التعبير بكل دقة عن جميع مفاهيم الحضارة العصرية .

وقد لاحظ الاستاذ فى هذا الصدد أن الازدواجية لا تجدي نفعا لان معظم المسلمين لا مناص لهم من تراثهم اللغوي والادبي واللجوء الى غيرها مصيره الفشل الذريع .

ويختم الاستاذ بحثه فيؤكد فيما يخص تأثير اللهجات المحلية على العربية ان لغة القرآن هى التي كانت وما زالت تسيطر وتؤثر على غيرها بحكم العقيدة والدين .

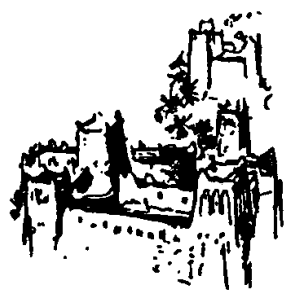

ارتباط العربية بالاسلام تلقائي غير مفروض على الشعوب الاسلامية

للدكتور أحمد الضبيب

(جامعة الرياض)

ظهر الاسلام فى الجزيرة العربية بين قوم يتكلمون العربية ، ونزل القرءان الكريم بهذه اللغة كما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بها فارتبطت اللغة العربية بالاسلام منذ ذلك الوقت واصبحت لغة هذا الدين لا نزاع فى ذلك ولا جدال .. ولكن الاسلام مع ذلك ليس دين العرب فحسب بل هو دين عالمي يستهدف البشر جميعا ويهدي الناس كافة فهو اذن لا يقتصر على أولئك الذين يتكلمون العربية وانما هو دين لكل الامم بكل لغاتها واجناسها .

وابان الفتوحات الاسلامية حمل العرب الاسلام واللغة العربية الى البلاد المفتوحة وكان ان تقبلت شعوبها الاسلام طوعا او كرها ولكنها لم تتقبل العربية الا بعد صدام طويل بين العربية وبين لغاتها المحلية حققت العربية بعده انتصارا كاسحا دائما فى بعض المناطق كالشام والعراق ومصر وخاصة على الصعيد الشعبي **حيث توارت لغاتها المحلية نهائيا** من عالم التخاطب العادي **وحلت محلها اللغة العربية** تدريجيا . كما حققت انتصارا مؤقتا فى فارس وما وراءها . فما ان عاد الفرس الى الاحتفاء بتراثهم القديم واعادة بناء حضارتهم السابقة حتى بدأ الاهتمام بالعربية يقل واخذت الفارسية تزدهر من جديد وخاصة في العصر السلجوقي .

وكان من مظاهر الصراع بين العربية من جهة واللغات الاقليمية من جهة أخرى ، كالفارسية مثلا تلك الحركات الشعوبية التي استهدفت تاريخ العرب وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم واخذت تفاضل وتوازن بين ما عند العرب وما عند غيرهم . وتمادت هذه الحركات المتطرفة حتى استهدفت اقدس كتاب حملته الامة العربية الى العالم وهو القرءان الكريم ، فقد روى عن الحسن بن سهل وزير المأمون انه عندما سئل عن رأيه فى القرءان الكريم قال : « حسن ككتاب كليلة ودمنة » (*)

وقد صمدت اللغة العربية فى هذه الحرب على اعتبار انها لغة الاسلام التي نزل بها القرءان والتي يتفوه بها المسلم ايا كان جنسه فى صلواته ومناسكه **فارتبطت بالاسلام ارتباطا وثيقا ولكن ارتباطها بالاسلام لم يفرضها دائما على الشعوب المسلمة** ولم يكن بمقدورها فى كثير من الاقطار الاسلامية ان تدخل الى مختلف طبقات الشعب فتصبح لغة التخاطب التي يستعملها الناس فى حاجياتهم اليومية . ونحن نرى فى كثير من الاقطار الاسلامية غير العربية **ازدواجا في اللغة** اذ يحتفظ الفرد بلغتين : لغته المحلية (كالاوردية او الفارسية او التركية) ولغته الدينية (اللغة العربية). وقد حالت دون استعمال اللغة العربية لغة شعبية فى هذه المناطق ظروف كثيرة اجتماعية وسياسية

(*) انظر : يوهان فك : العربية ص 84 (ترجمة عبد الحليم النجار : القاهرة ـ 1951 م) ، وقارنه بما جاء فى كتاب مضاهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما اشبهها من اشعار العرب لابي عبد الله محمد بن حسين اليمني (تحقيق د . يوسف نجم) بيروت 1961 م ص 2 .

وغيرها . كما ان الشعوب الاسلامية الاخرى التي تقبلت اللغة العربية كلغة شعبية مكنت لها ذلك ظروف اجتماعية عديدة من اهمها الاختلاط المباشر والهجرات الجماعية الضخمة التي انتقلت من الجزيرة العربية واستوطنت هذه البلدان واستطاعت ان تعيش على مر التاريخ الاسلامي ، لم تزعج عن اماكنها بسبب الحروب أو الثورات الداخلية أو النعرات العنصرية فمكنت بذلك للعربية ان تستقر وان تنمو وان تصبح لغة الشعب .

وهكذا فان انتشار الاسلام يمهد لانتشار اللغة العربية ، ولا شك ان بقاء هذه اللغة فى الاماكن التي دخلها الاسلام مرهون بالظروف الاجتماعية والسياسية المختلفة التي تسيطر على تلك الاماكن .

اما **انتشار العربية فلا يعني بالضرورة انتشار الاسلام** وليس كل من نطق العربية معتقدا بالاسلام او مؤمنا به .. وهناك من العرب انفسهم من يتحدث العربية ويكتبها ويعتبرها لغته وجزءا من حضارته وتراثه ولكنه مع ذلك لا يؤمن بالاسلام ، وما ذلك الا لان **اللغة** فى حد ذاتها **اداة اجتماعية** تؤدي اغراضا معينة لمستعملها بصرف النظر عن اهداف هذه الاغراض ، وشان العربية فى ذلك شأن اللغات الاخرى ، وانظر الى الانجليزية فى هذا العصر ، اليست اللغة الثانية والرسمية فى الهند وباكستان ؟ وانظر الى عدد المسيحيين فى هاتين الدولتين تجدهم قلة اذا ما وازنت بين عددهم وعدد المسلمين او البوذيين وذلك بالرغم من ان الانجليزية قد صدرها الى شبه القارة الهندية قوم مسيحيون .

والخلاصة ان **انتقال ديانة ما يستتبع انتقال لغتها المقدسة معها ، ولكن انتقال لغة ما لا يستتبع انتقال ديانة اصحابها .**

وليس لدينا من واقع لهجاتنا المحلية ما نستطيع الحديث فيه عن صلة الاسلام بهذه اللهجات ، لان هذه اللهجات لم تدرس دراسة علمية على هذا الاساس ، غير ان دخول بعض الصيغ الدينية البحت فى كلامنا الدارج يتجلى فى الادعية المختلفة التي يلهج بها ابناء الشعب فى الجزيرة فى حالات الشدة والرخاء والرضا والغضب ، وكذلك فى بعض الامثال والحكم التي تشيع بين العامة فى هذه البلاد مما يؤكد تأثيرا دينيا قويا على مفردات اللغة وتراكيبها .

ويبدو — وان كان الامر يحتاج الى دراسة اعمق — ان الفئة المتدينة من ابناء الشعب فى الجزيرة العربية هي اقرب الفئات ولوعا باللغات العربية الفصحى والتقاطا لمفرداتها وتشبها بأساليبها وقدرة على تعلمها واستيعابها نشهد ذلك فى الطلبة الذين ينشأون فى بيئات دينية فنجدهم اقرب الى تعلم العربية وتقبل قواعدها من اولئك الذين نأت بهم بيئاتهم عن الثقافة الدينية . وفى هذا ايضا ما يدل على ان الشعور الديني يهيىء لتفهم اللغة العربية وانتشارها ..

العربية خالدة بخلود القرآن كدستور لدين الإنسانية : الإسلام

بقلم أحمد محمد جمال

استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

ان الواقع التاريخى للغة العربية وللدين الاسلامى ـ خلال اربعة عشر قرنا ـ يثبت حقيقة التلازم والارتباط بين انتشار كل منهما وازدهاره بمساعدة الآخر .

هذا الى جانب حقيقة اخرى واضحة وثابتة وهى ان فى كل من الدين الاسلامى واللغة العربية من القوة الذاتية والاستعداد الاصيل ما يكفل له الغلبة والانتصار .

فاللغة العربية ـ ذاتها ـ لغة حية ادت رسالتها فى الحياة خير اداء وعبرت فى عصورها الاولى عن حاجات المجتمعات التى تتخذها لغة لها تعبر بها عن مطالبها وآلامها وعلومها وآدابها وفنونها وما زالت مستعدة للتعبير عن الحياة وما جد فيها ومستعدة ان تتسع اكثر من ذى قبل لكل جديد مبتكر ومخترع حديث كما يقول الاستاذ احمد عبد الغفور عطار فى كتابه (الفصحى والعامية) .

واللغة العربية ـ ايضا ـ من اغنى لغات البشر ثروة لفظية تستوعب حاجات الامة الحسية والمعنوية كما يقول الاستاذ مصطفى السقا فى مقدمة كتاب (المعجم العربى) للدكتور حسين نصار .

والعرب منذ اواخر العصر الجاهلى مهتمون بلغتهم معتزون بتراثها الادبى وقد قيل (الشعر ديوان العرب) ولكن اهتمامهم واعتزازهم بها ازداد مع ظهور الاسلام لان الله عز وجل اختارها لغة لدينه قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا وسياتى تفصيل ذلك فيما بعد ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاز باللغة العربية وحفظ التراث اللغوى وتنقيته من الدخيل الاعجمى اثناء الفتوحات الاسلامية وبعدها وعلى الرغم من ان الاستعمار العربى كان يعمل لهدم اللغة العربيةبحسبانها لسان الدين الاسلامى الذى ما يزال يحاول هدمهبالدعوة الى استخدام اللهجات العامية لغة للتاليف والكتابة كما فعل اللورد (دفرين) السياسى البريطانى حين طالب بتدوين العلوم باللغة العامية المصرية وكما حاول المستعمرون الفرنسيون فى الجزائر الا ان هذه الدعوات والمحاولات الاستعمارية قد باءت بالخيبة والفشل .

وليس ادل على خطأ هذه الدعوات والمحاولات وخداعها وافترائها ـ وان صدرت احيانا من بعض الكتاب العرب من راى الكاتب الانجليزى (هكسلى) الذى قال ان كتابة العلوم والآداب باللغة العامية يضعف المواهب العلمية ويقضى على ملكة الانشاء الفصحى لذلك ينبغى ان نرقى بعقول العامة الى فهم

لغة العلم والادب العالية لا ان ننزل بالعلماء والادباء الى مستوى العامة وننتقل الآن الى الحديث عن اثر الاسلام فى انتشار اللغة العربية وسنروى اقوال بعض ائمة اللغة والادب مختصرة عن حقيقة التلازم القوى بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام .

ونبدا بالازهرى الامام اللغوى المشهور فهو يقول فى مقدمة كتابه (تهذيب اللغة) : « الحمد لله على ما اسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة وهدانا الى تدبر تنزيله والتفكر فى آياته والايمان بمحكمه ومتشابهه والبحث عن معانيه والفحص عن اللغة العربية التى نزل بها الكتاب والاهتداء بما شرع فيه ودعا الخلق اليه واوضح الصراط المستقيم به وهداهم الى ما فضلنا به على كثير من اهل هذا العصر فى معرفة لغات العرب التى نزل بها القرآن ووردت سنة المصطفى النبي المرتضى عليه السلام . »

هذا النص من مقدمة (التهذيب) لاحد ائمة اللغة الاعلام كاف لان نبين الباعث الاساسى على الاهتمام باللغة العربية وتدوينها وتصحيحها الا وهو (الاسلام) قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا .

والقرآن نفسه قبل كلام الازهرى وامثاله من علماء اللغة يؤكد حقيقة هذا الباعث الاساسى للاهتمام باللغة العربية والاعتزاز بتراثها العلمى والادبى .

فقد من الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى العرب الذين بعث فيهم ومنهم بقوله عز وجل (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقوله (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون) وقوله (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقوله سبحانه (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) الخ ..

فنزول القرآن الكريم بالعربية ـ كما يتضح من آيات القرآن نفسه ـ دليل اهميتها وافضليتها وباعث نهضتها وصاحب الفضل الاكبر والاثر الاظهر فى نشرها وخلودها وهى ـ ايضا ـ لانها اغنى اللغات بيانا واقواها برهانا كانت ولا تزال عاملا مساعدا لنشر الاسلام والاقبال عليه ويكفى دليلا على ذلك اختيار الله لها لسانا لدينه العام والاخير وهو الاسلام ومنة بذلك على العرب خاصة والمسلمين عامة .

وقد روي عن الامام الشافعى رضي الله عنه انه قال (لسان العرب اوسع الالسنة مذهبا واكثرها الفاظا والعلم بها عند العرب كالعلم بالسنن عند اهل الفقه) .

ويقول الازهرى فى مقدمته «ان **تعلم العربية** التى يتوصل بها الى تعلم ما تجزىء به الصلاة من تنزيل وذكر **فرض على عامة المسلمين** وان على الخاصة التى تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم الاجتهاد فى تعلم لسان العرب ولغاتها التى بها التوصل الى معرفة ما فى الكتاب (القرآن) ثم فى السنة والآثار واقاويل اهل التفسير من الصحابة والتابعين من الالفاظ الغريبة فان الجهل بذلك جهل بجملة علم الكتاب الخ ...

ثم يذكر الازهرى من اسباب قيامه بتاليف كتابه النصيحة الواجبة على اهل العلم لجماعة المسلمين كما جاء بها التوجيه النبوى (الدين النصيحة) اى ان دينه حمله على ان يضع كتابه فى اللغة العربية لافادة الناس ما يحتاجون اليه والدفاع عن لغة العرب التى جاء بها القرآن وجاءت بها السنن والآثار .

ويقول الاستاذ العقاد رحمه الله فى مقدمة كتاب (الصحاح) للاستاذ العطار (ولقد قيل كثيرا ان اللغة العربية بقيت لانها لغة القرآن وهو قول صحيح لا ريب فيه ولكن **القرآن الكريم انما ابقى اللغة لان الاسلام دين الانسانية قاطبة** وليس بالدين المقصور على شعب او قبيل وقد ماتت العبرية وهى لغة دينية او لغة كتاب يدين به قومه ولم تمت العبرية الا لانها فقدت المرونة التى تجعلها لغة انسانية وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها ابناؤها منذ قرون .

ثم يضيف الاستاذ العقاد (ان هذه الفضيلة الانسانية التى لا تفرق بين العربى والاعجمى ولا بين القرشى والحبشى لهى التى انهضت لخدمة اللغة اناسا من الاعاجم غاروا عليها من حيف الاعجمية ـ اى انهم غاروا عليها من لغة امهاتهم وآبائهم لانها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الاسلام .

وستبقى اللغة العربية ما دام لها انصار يريدون لها البقاء ولم ينقطع انصارها فى عصرنا الحاضر بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون ويتلاقى ابناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها لانهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والالسنة والافكار .

ان العقاد يعنى بما قدم ان **انسانيـــة الاسلام وعالمية تشريعه الحكيم هى التى ساعدت على انتشار اللغة العربية التى هى لغة كتابه (القرآن)** الذى وحد فى المؤمنين به (مقاصد) الضمائر والالسنة والافكار على الرغم من اختلافهم فى مواقع البلاد. ويقـــول الدكتور حسين نصار فى كتابه (المعجم العربي) : «لم تنهر اللغة العربية بانهيار الدولة الاموية وذلك بفضـــل القرآن الذى احاط العربيـــة بهـــالة من القـــداسة والجلال غمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته فاستمرت حية تتوارثها السنة جيل بعد جيـــل وان السبب المباشر الذى اظهر الدراسات اللغويـــة هو ارتباطها بالدراسات الدينية واتحادها فى النشأة فقد انزل القرآن كتاب العربية الاعـــظـــم على الرسول العربى الكريم ليدعو قومه الى سبيل الرشاد فكـــان بلغتهم وعلى اساليب كلامهم .

(وكان الرسول صلى الله علـــيه وسلـــم ثـــم الصحابة من بعده المرجع فى تفسير القـــرآن ثم جاءت الحركة العلمية الاولى عند المسلمين التـــى شملت فى مدة وجيزة جميع العلوم التى عرفها العالم القديم فما اتصل بالقرآن كان اولها ظهورا حيث ظهرت كتب (غريب القرآن) ثم كتب (غريب الحديث) وكان آخر الظواهـــر التى امدت الدراسات اللغوية بالروافد ظاهرة التدوين العلمى حيث وضعت معظم العلوم العربية فى اواخـــر العصر الاموى واوائل العهد العباسى كعلوم القـــرآن والحديث والفقه والاصول والنحو والرياضة والمنطـــق والكلام (والفلســفة الخ..)

نكتفى بهذه الآراء والنظريات لائمة اللغة والادب قديما وحديثا كحجة على مدى التلازم والارتباط بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام اذ هى لسانه المبين وهو روحها النفاذ .

اما الاسئلة الجانبية الملحقة بالاستفتاء فنجيب عنها بايجاز .

1 ـ أن الـــوعي الاسلامى والـــوازع الـــدينى لا يقويان او يضعفان تبعا لضعف لغة الضاد او قوتها بل يقويان او يضعفان بعوامل اجتماعية وثقافية وتربوية ايجابا وسلبا .

2 ـ الملاحظ ان للفكر الاسلامى عن طريق لغـــة القرآن تأثيرا كبيرا فى السنة غير العرب من المسلمين فهم يحاولون فى اعتزاز ان يقلدوا العرب فى لغتهـــم وافكارهم وسلوكهم ويرون فى العرب ولسانهم قـــدوة حسنة لان القرآن نزل عليهم وبلغتهم .

3 ـ اللغة العربية يجب ان تحتل المكانة الاولى فى كل بلد اسلامى بصفة عامة وفى كافة البلاد العربيـــة بصفة خاصة وفى بلدى منزل القرآن ومولد الرسول ومهبط الوحى بصفة اخص .

ـــ ارى انه تبعا لانتشار الاســـلام ينتشـــر القرءان وتنتشر اللغة العربية التي انزل بها نظرا لكثرة التالين او الحافظين للقرءان بين المسلمين .

ـــ هناك علاقة متينة حتمية بين الاسلام والعربية ولكن انتشاره لا يتوقـــف على العربيـــة لان عوامـــل الانتشار والتوسع كامنة في مبادئه وقواعده .

ـــ تاثر الفكر الاسلامي الى حد كبير بلغة القرءان العربية وتقدم تبعا لتقدمها ، وقد ظهر اثر ذلك حتى لدى الجاليات الاسلامية الموجودة خارج المنطقة العربية والوطن الاسلامي .

ـــ اثرت اللهجات الاقليمية في العربية في بعض الاقطار غير العربية كالفارسية والقبطيـــة والهنديـــة والاندونيسية والماليزية وغيرها .

ـــ كل المسلمين وفي ضمنهـــم الجزيـــرة العربية موقنون بوجوب الرفع من مستوى العربية واحاطتها بهالة من الاجلال والتقدير وجعلها تفوق غيرها من اللغات اعتبارا لماضيها المجيد وتقديرا لما اسدته للحضارة العالمية كلها من خدمات جلى .

الاستاذ سعيد مندوس
المملكة العربية السعودية

اللغة العربية تضيء دور الإسلام

للاستاذ عبد القدوس الأنصاري

رئيس تحرير مجلة « المنهل »
(جدة)

كل من له ادنى المام بالاسلام وباللغة العربية يدرك شدة الترابط بينهما ويدرك شدة التفاعل والانسجام القائم بينهما .. فحيثما انتشر الاسلام سادت اللغة العربية ، وحيثما سادت اللغة العربية وجد الاسلام طريقه الواضح النير الى القلوب .. والافكار.. وعلى هذا فالاسلام واللغة العربية متفاعلان فيما بينهما ... الاسلام يدعم اللغة العربية لانها مطية انتشاره السليمة الاساسية فى ربوع العالم ، واللغة العربية تضيء دور الاسلام وتجعله يشع ساطعا قويا فى الآفاق التي تدخل اليها او تؤثر فيها .. وبالجملة فالاسلام رافد للغة العربية من حيث تفتح انوار اشعاعها ، وبيانها ، واللغة العربية رافدة له فى نفس الوقت من حيث الافصاح عن مراميه السامية وشرح مبادئه النامية بطريقة مبسطة بعيدة عن التعقيد والتأويل والالتواء .. وقد ادرك المستعمرون من دراساتهم للانسجام التام والتفاعل الدائم فيما بين الاسلام العظيم واللغة العربية الكريمة فعملوا بجد وبحرص ودهاء على تفتيت هاتين القوتين المتحدتين والفصل بينهما لاضعاف شأن الاسلام عن طريق اضعاف اللغة العربية ، فعملوا فيما عملوه على تذليل اللغة العربية الفصحى التي هي وعاء الاسلام فى كتابه المنزل وحديث نبيه المرسل وفقهه وآدابه وعلومه .. واحلال اللهجات العامية فى محلها .. ونفخوا فى هذا البوق بكل ما فى وسعهم ولكن حصن اللغة العربية المحاط بسياج الاسلام الضخم خيب ظنونهم ، وابطل سحرهم ومكرهم ، وحال بينهم وبين النجاح فى هذه العملية الاستعمارية الماكرة ولم تقو اللهجات العامية على ان تحل محل اللغة الام الاصيلة كما اراد المستعمرون الماكرون لا فى صحافة ولا كتب ولا اذاعة ولا مرناء .. ولكن المستعمر ان انهزم فى افق يعود من افق جديد .. ان شعاره عدم اليأس واخشى ما اخشاه أن يلج على العرب من ناحية اضعاف حصن لغتهم الفصحى من طريق اذاعة اللهجات الشعبية وتقويتها ودعمها ودعم آدابها من طريق او آخر حتى يصلوا الى غرضهم الدفين من هذه الجهة التي يلاحظون أنها تحظى بشيء كبير من العناية الناتجة عن خلاص فى حفظ لون من تراثها .. ان الاستعمار كالوسواس الخناس ، يدخل الى شرايين الحياة فيسمم الصالح منها بقدر ما يجد الثغر المؤهلة لذلك ..

العربية لغة المستقبل لأنها لغة الإنسانية

بقلم زيد بن عبد العزيز بن فياض

مدير عام المكتبات ــ الرياض

الصلة بين الاسلام واللغة العربية ساطعة كالشمس فى اشراقها كيف لا والقرآن نزل بلسان عربي مبين على رسول عربي كريم والاسلام وهو خاتم الاديان واكملها جاء لهداية البشرية واسعادها دنيا وأخرى فى جميع شئونها على مستوى الفرد والجماعة وعلى نحو يحقق الغاية المثلى فى الدين والسياسة والاقتصاد وهدوء النفس واطمئنان البال (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) .

لقد كانت الشرائع قبله لاقوام مخصوصين اما الاسلام فهو للناس أجمعين ولذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة .

وكيف السبيل الى افهام مئات الملايين من الناس هذا الدين وذلك التشريع ما لم يكن بلغة تجمع بين السهولة والشمول ؟ وتحوي خصائص مميزة لا تتوفر فى اية لغة أخرى من لغات العالم لغة لا تستعصى على الفهم ولا تنبو عن الذوق ولا تعجز عن البيان ومن لطف الله بعباده أن نزل القرآن بلسان عربي على رسول عربي .

« والعرب هم افهم من غيرهم واحفظ واقدر على البيان والعبارة ولسانهم اتم الالسنة بيانا ونمييزا » .

ولابدع بعد ذلك أن يكون القرآن بلغة العرب . ولم يكن من قبيل الصدفة أو الاعتباط اختيار الله لرسول من العرب خاتما للنبيئين ودينه اكمل دين وشريعته اعظم شريعة . ولا غرابة ان يقع الترابط بين الدين واللغة وان يكون كل واحد منهما سببا لانتشار الآخر : الدين بنقائه وبراهينه ويقينه وتحقيقه للسعادة الدنيوية والابدية واللغة العربية بوضوحها وسلاستها واتساع افقها وتنوع مدلولاتها كما قال عنها حافظ ابراهيم :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
انا البحر فى احشائه الدر كامن
فهل سالوا الغواص عن صدفاتي

ومعرفة اللغة عامل قوي فى فهم الدين وادراك معاني القرآن الكريم فمعرفتها جزء من الدين وتعطى الوسيلة فيه حكم الغاية لان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب حسب القواعد الاصولية المعلومة .

« فان الله لما انزل كتابه باللسان العربي وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي وجعل السابقين الى هذا الدين متكلمين به لم يكن سبيل الى ضبط الدين ومعرفته الا بضبط هذا اللسان وصارت معرفته من الدين وصار اعتياد التكلم به اسهل على أهل الدين فى معرفة دين الله واقرب الى اقامة شعائر الدين واقرب الى مشابهتهم للسابقين الاولين من المهاجرين والانصار فى جميع أمورهم (1) »

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص 162 ــ 163

والمسلم مكلف شرعا ان يتدبر القرآن وكيف يتأتى له تدبره اذا لم يكن يعرف اللغة العربية ومفروض عليه قراءة الفاتحة فى كل ركعة من صلاته ولا يجوز قراءتها فى الصلاة مترجمة الى لغة اخرى والالفاظ المشروعة فى الصلاة والصيام والحج والادعية والاذكار : كيف يؤديها اذا لم يعرفها ويجد نطقها بالعربية وكيف يفهم التفسير والحديث اذا لم يعلم اللغة العربية وكيف يعرف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسلف هذه الامة اذا لم يكن له المام باللغة العربية ان ذلك كله مما يدعو المسلم الى العناية باللغة العربية وفهمها لان بواسطتها يفهم الدين . اذا فان الدين يدعو الى نشر اللغة العربية والى بثها فى اصقاع الدنيا حتى تكون عالمية وهى لغة عالمية بحق تجد صدى فى النفوس وتشوقا للاطلاع على مفرداتها ومراميها واسرارها . فهى ذات جرس اخاذ ونبرات صريحة ومعان غزيرة ومدلولات متنوعة كل يجد فيها بغيته وينال مراده فى غير حصر او اعياء ودون تكلف او عناء فيها اللفظ الرقيق البالغ فى الرقة غايتها وفيها الكلم القارص والقول الجزل والخطاب الرصين والجمل الحاوية لكل مقام ما يناسبه ولكل حال ما يوائمها .. وليس المرء بحاجة الى انتحال الدليل وتكلف الحجة على جمال هذه اللغة المظيمة وتقبل النفوس لها لان ذلك واضح للعيان وجلي فى التبيان لا يعتري فيه الا معاند . ويكفي انها الآن لغة لمائة مليون نسمة تمتد رقعة اراضيهم بين قارتين من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي وكانت ابان النبوة وتنزل الوحي من السماء لغة اهل الجزيرة العربية وحدهم وقد انتشرت فى اوقات مزدهرة من العصور الاسلامية من الصين حتى الاندلس وانطوت فيها لغات عدة كأمس الدابر بعد ان رضي اهلها باللغة العربية التي وجدوا فيها بغيتهم وعثروا فيها على ضالتهم وما برح المسلمون من غير العرب يتفوهون بكلمات عربية كثيرة وفى تركيا وايران المثل الحي على ما نقول . هذا مع ما اصاب المسلمين من بلاء الاستعمار . والمحاولات الكثيرة والجهود الكبيرة التي بذلت وتبذل لقطع صلة المسلمين بدينهم ولغة قرآنهم ورسولهم . ولولا قوة هذا الدين وتكفل الله بحفظه وما فى لغة العرب من خصائص حباها الله بها لكان المستعمرون أعداء العرب والمسلمين قد قضوا على الدين وعلى اللغة العربية ومن العجب ان يظل الدين واللغة رغم تكالب الاعداء وتوالى المحن قويين عزيزين وان فى الجزائر التي رزحت تحت نير الاستعمار قرنا وثلاثين سنة لمعجزة من معجزات القرآن (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فبقي الدين بها صامدا كالطود وما برحت اللغة العربية سامقة تلفظ العجمة الدخيلة وتنبذ رطانة المستعمر المطرود .

« كتب جول فرن قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الارضية حتى يصلوا او يدنوا من وسطها ولما ارادوا العودة الى ظاهر الارض بدا لهم ان يتركوا هناك اثرا يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخرة كتابة باللغة العربية ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره للغة العربية قال : انها لغة المستقبل (1) »

لقد كان فهم اللغة العربية سببا لانتشار الاسلام بين القبائل العربية فى جزيرة العرب ذلك ان بلاغة القرآن وفصاحته واعجازه مما يبهر العقول ويحير الالباب فوقف البلغاء والفصحاء مشدوهين امام بلاغته الباهرة . وقد عجزوا عن الاتيان بسورة من مثله او آية وفيهم المكذبون المعاندون الذين يودون معارضته ويتمنون القدرة على ان يأتوا بمثله وانى لهم ذلك وهو كلام الله رب العالمين (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

وحين ادعى من المشركين من ادعى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساحر وكذاب وانه تلقى الكتاب من شخص اعجمي تحداهم الله ان يأتوا بمثله او بمثل سورة منه فظهر عجزهم وبان خطؤهم . فتيقن الكثيرون منهم صحة هذا الدين وسلامته وبعده عن السحر والكهانة والافتراء ودخلوا فيه طائعين — بعد ان شهدوا من البراهين ما يقنع ومن الحجج ما يجلو الشك ويزيل الارتياب . ولقد كان الدين هو الآخر سببا فى انتشار اللغة العربية فقد اقبلت البلدان والشعوب التي اعتنقت الاسلام لما علمت وضوحه ويسره وعدالته وشموله لخيري الدنيا والآخرة على تعلم اللغة العربية وتفهمها مما سبب انتشارها على نطاق واسع لم يعد محصورا فى جزيرة العرب وما حولها وانما امتد آلاف الاميال وحتى نسيت شعوب كثيرة لغاتها الاصلية واصبحت اللغة العربية لغتها الوحيدة بها تعتز واليها تنتمي عن قناعة واطمئنان

---

(1) انظر ص 12 من كتاب القياس فى اللغة العربية تاليف : محمد الخضر حسين — القاهرة — سنة 1353 — .

لانها لغة القرآن العظيم وتحتوي على ما يريده المرء في ارقى لغة واجملها .. وضعف اللغة العربية دليل على ضعف الدين في النفوس فكلما اعرض الناس عن لغة القرآن وتعلقوا بلغات اجنبية شغفوا بتلك اللغات وقلدوا اهلها وشابهوهم في اخلاقهم وعاداتهم ونتج عن ذلك استخفاف بلغة العرب وابتعاد عن فهم الدين ودراسته . وللغة دور مهم جدا في التأثر والمشابهة . ونظرة الى بعض المثقفين ثقافة اجنبية تعطي المثل الصارخ على مدى اعجابهم بأولئك الاجانب واعتزازهم بعاداتهم واخلاقهم واشادتهم بكل ما لديهم من حرية مزعومة وتفكير حر وانطلاق بلا حدود وتتشدق بحضارتهم ورقيهم وقد يطعنون في الاسلام واحكامه وتشريعاته وفي الاخلاق الكريمة والمثل الرفيعة في بلاد المسلمين ويتهكمون باللغة العربية وآدابها . وما ذاك الا من اثر البعد عن الدين والجهل باللغةالعربية والحكم على الشيء قبل تصوره !

ومنذ بزوغ الاسلام واللغة العربية عنوان على الاسلام تقوى بقوته وتضعف بضعفه ويتمكن اذا عزت ويهون اذا ذلت وقد تختلف مظاهر الضعف وانواعه فقديكون تشبثا بالخرافات والوثنياتوالتفاهات وقد يكون الحادا وشيوعية وماسونية ووجوديةوانحلالا يتمثل ذلك في القرامطة والباطنية واتباعهم من جهة وفي عباد الاولياء والصالحين ومشيدي الاضرحة على القبور من جهة ثانية . ان لغة العرب التي بها نزل القرآن هي لغة تفي بجميع المتطلبات في اللغة وان تأثير الفاظ القرآن واللغة العربية في اللهجات واللغات الاقليمية من غير العرب كثير من الصعب حصره وفي **اللغات المختلفة في البلدان الاسلامية او التي تقطنها اغلبية مسلمة الفاظ عربية صميمة** هيمنالكثرة بحيث لا يمكن استيعابها واحصاؤها . فاللغة الفارسية والاردية والتركية فيها من لغة العرب الشيء الكثير. وتأثير الفكر الاسلامي واللغة العربية واللهجات لغير العرب من المسلمين هو من الكثرة والوضوح مما لا يحتاج الى جدل ولا سبيل الى نكرانه ولا ريب ان اللغة العربية قد اطل عليها التحريف قديما بسبب اختلاط اهل الجزيرة العربية بالاعاجم لذا امر الامام علي رضي الله عنه ابا الاسود الدؤلي ان يضع قواعد للغة العربية لتكون بمنأى عن التحريف والضياع والف سيبويه امام النحاة « الكتاب » وقام علماء الاسلام من عرب وعجم بتأليف القواميس والمعاجم وكتب النحو لتمييز لغة العرب من لكنة الاعاجم ولبيان ما هو لغوي فصيح وما هو منتحل مدخول لئلا يختلط الحابل بالنابل ويضيع الصحيح بين السقيم ولم تسلم لغة التخاطب غالبا من اللحن والتحريف وان سلمت الكتابة في اعظم الاحيان من هذا الداء الوبيل . وصار في كل قطر لهجة يعرف بها فيها من مخالفة القواعد العربية والتراكيب النحوية ما فيها . وان كانت لغة العرب ليست مجهولة لديهم اذا حدثوا بها او سمعوها على ان الحديث بها سليم من الاخطاء النحوية والتراكيب العربية ليس بامكان كل احد ان يأتي به على نحو متكامل .

واللهجة في نجد من اقرب اللهجات الى العربية والالفاظ غير العربية منها قليل ومنها ما هو بلغة احدى قبائل العرب الكبرى غير قريش وهي تميم كتسهيل الهمزة مثلا فيقولون راس بدلا من راس وما يتكلم به اهل نجد فيمكن ارجاعه الى اصل عربيغالبا وان شابه بعض من التغيير الطفيف هذا من ناحية الالفاظ ومدلولاتها .

اما من ناحية القواعد العربية من نحو جر المنصوب ورفع المجرور ونصب المرفوع فهذا كثير بين العامة ولا يقدر على تمييزه الا من عرف قواعد النحو كفن من الفنون العربية المهمة . واللغة العربية هي اللغة الاولى تخاطبا وكتابة في الدوائر الرسمية والشركات والمؤسسات وبين الافراد وفي المدارس والمجتمعات . وفي بعض المراحل الدراسية يدرس التلاميذ اللغتين الانجليزية والفرنسية ومع ذلك فان اللغة العربية هي التي تحتل المكانة البارزة والعناية الفائقة ولا تنافسها او تجاريها اية لغة اخرى وقد مضت قرون طويلة على الجزيرة العربية وما فتئت تولي اللغةالعربية من العناية ما هي به جديرة وظلت هي اللغة الاولى ليس معها منازع او منافس . وبعد فان العالم الذي يسعى للتقارب والتفاهم ويكون المنظمات الدولية لتبادل الراي واستقرار السلم والتعارف بين الامم في حاجة الى لغة موحدة يستطيع بواسطتها ان يجد الوسيلة الفضلى لتفاهم ولابد من أن تكون اللغة المطلوبة وافية بالغرض واضحة الاساليب غنية بالفاظها ومفرداتها واشتقاقاتها وتعريبها ونحتها لتساير التطور وتتمشى مع الاحتياجات الجديدة والمخترعات الحديثة .

وليس هناك لغة تفي بهذا الغرض سوى اللغة العربية التي بها نزل القرآن واستمرت على مدى القرون المتطاولة قوية منتشرة متفرقة استمدت منها لغات كثيرة الفاظا وعشقتها امم فنسوا لغاتهم

القديمة وفضلوا اللغة العربية عليها لما فيها من جمال وجزالة واتساع .

وفى كل يوم يزداد المتكلمون بهـا والدارسـون لاساليبها وبيانها والمشيدون بعظمتهـا فى الشـرق والغـرب . ولم تكـن اللغة العربية بهذه الصفـات الفائقة صدفة واعتباطا فهى اللغة التي نزل بهـا القرآن الكريم على رسول عربي بعثه الله الى الناس اجمعين وجعل شريعته للبشر كافـة . لذا فلا غرو ان تكون **اللغة العربية على ارقى مستوى واعلى درجة من التبريز والتفضيل على سائر اللغات** فصمدت قوية شامخة على الرغم من تكالب الاعـداء والمحـاولات اليائسة لتحطيمها ومحوها من الوجود . ان فضـل اللغة العربية جلي لايحتاج الى براهين ولكن لا باس من ذكر بعض الاقوال الحصيفة والنعوت الصادقة للغة العربية العظيمة .

قال الامام الشافعي فيما رواه السلفي باسناده : ينبغي لكل احد يقدر على تعلم العربية انيتعلمها لانها اللسان الاولى .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية (1)

واما اعتياد الخطاب بغير العربية التـي هـى شعار الاسلام ولغة القرآن حتى يصير ذلك عـادة للمصر واهله ولاهل الدار وللرجال مع صاحبه ولاهل السوق او للامراء او لاهل الديوان او لاهل الفقه فلا ريب ان هذا مكروه فانه من التشبه بالاعاجم .

ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا ارض الشام ومصر ولغة اهلهما رومية وارض العـراق وخراسان ولغة اهلهما فارسية واهل المغرب ولغة اهلها بربرية عودوا اهل هذه البلاد العربية حتىغلبت على اهل هذه الامصار مسلمهم وكافرهم وهكذا كانت خراسان قديما ثم تساهلوا فى امر اللغة واعتـادوا التخاطب بالفارسية حتى غلبت عليهم وصارتالعربية مهجورة عند عند كثير منهمولا ريب ان هذا مكـروه . وانما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتـى يتلقنها الصغار فى الدور والمكاتب فيظهـر شعـار الاسلام واهله ويكون ذلك اسهل على اهل الاسلام فى فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف بخلاف مـن اعتاد لغة ثم اراد ان ينتقل الى أخرى فانه يصعـب عليه . واعلم ان اعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلـق والدين تاثيرا قويا بينا ويؤثر ايضا فى مشابهة صـدر هذه الامة من الصحابة والتابعيـن ومشابهتهم تزيـد العقل والدين . وايضا فان **نفس اللغة العربية مـن الدين ومعرفتها فرض واجب** فان فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا بفهم اللغة العربية وما لا يـتـم الواجب الا به فهو واجب .

وقال ابن فارس فى فقه اللغة :

« **لغة العرب افضل اللغات** واوسعها قال تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الاميـن . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربـي مبيـن) فوصفه سبحانه بابلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان وقال تعالى (خلق الانسان علمه البيان) فقدم سبحانه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه وتفرد بانشائه من شمس وقمر ونجم وشجر وغير ذلك من الخلائق المحكمة والنشايا المتقنة فلما خص سبحانه اللسان العربي بالبيان علم ان سائر اللغـات قاصرةعنـه وواقعة دونه (2)

وقال الفارابي فى ديوان الادب :

« **هذا اللسان كلام اهل الجنة** وهو المنزه من بين الالسنة عن كل نقيصة والمعلي من كل خسيسـة والمهذب مما يستهجن او يستشنع فبين مباني باين بها جميع اللغات من اعراب اوجده الله وتاليف بين حركة وسكون حلاه به فلم يجمع بين ساكنين او متحركيـن متضادين ولم يلاق بين حرفين لا يأتلفان ولا يعـذب النطق بهما او يشنع ذلك منهما جرس النغمة وحسن المسمع كالغين مع الخاء والقاف مع الكاف والحـرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافتعال مـع الصـاد والضاد فى اخوات لهما والواو الساكنـة مع الكـرة مع الكسرة قبلها والياء الساكنة مع الضمة قبلها فى خلال كثيرة من هذا الشكل لاتحصى (3)

وقال السيد رشيد رضا : « انه لما كان الاسلام دينا اصلاحيا عاما لجميع البشر كان من اصوله **دعوة الامم** كلها الى التوحيد فى الدين والشرع **واللغة التي هى اعظم مقومات الامـم النفسيـة والسياسيـة والاجتماعية** لتكون الامة الاسلامية بهـم متحـدة لا

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص 206 .
(2) المزهر فى اللغة وانواعها للسيوطي ج 1 ص 321 — 322
(3) المزهر ج 1 ص 342 — 343

يفصل بين افرادها ولا جامعاتها شيء من اختلاف الانساب والاوطان .

كما انه لما كان الاسلام دين التوحيد دينا عاما لكل البشر وكان من مقاصده ان يؤلف بينهم فرض عليهم **توحيد اللغة** فخرجت هذه اللغة عن ان تكون لغة شعب واحد منهم ولولا ذلك لم تؤثرها جميع الشعوب الاسلامية على لغاتها حتى عم انتشارها فى المشرق والمغرب مع الاسلام » .

وقال الاستاذ حسين الهمداني الباكستاني : « انه **ليس فى مكنة العالم الاسلامي ان يحكم اتصالاته او يدعم روابطه الااذا اتخذ اللغة العربية لغة مشتركة** اتقن دراستها وواجبنا اولا ان نتخذ الحروف المطبعية العربية حروفا بها نكتب لغاتنا، فعلى العالم الاسلامى ان يخطو هذه الخطوة وان يتخذ العربية لغة واحدة ».

واللغة العربية من الروابط المتينة بين الشعوب الاسلامية لانها لغة القرآن والتحدث بها والكتابة على قواعدها واساليبها مما يقرب صاحبها من السلف الذين يدرسون اللغة ويعنون بها لتكون مساعدا لهم على فهم القرآن وتدبره وكان ابن عباس وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما يستشهدون بالاشعار التي قالها شعراء العرب عند تفسير الآيات ويحفظون من الشعر الشيء الكثير .. ومعرفة لغة العرب سبيل لاقتفاء السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان حيث كانوا يتحدثون بهذه اللغة ويتعمقون فى فهمها وسيلة لفهم الشريعة اصولها وفروعها ..

فان « اللغات من اعظم شعائر الامم التي بها يتميزون » . ولهذا كان كثير من الفقهاء او اكثرهم يكرهون فى الادعية التي فى الصلاة والذكر ان يدعى الله او يذكر بغير العربية ..

فاما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها او لم يقدر عند الجمهور وهو الصواب الذي لا ريب فيه . بل قال غير واحد انه يمتنع ان يترجم سورة او ما يقوم به الاعجاز (1) وقد رأيت بحثا جيدا لاحد المعاصرين وهو الاستاذ انور الجندي فى كتابه : « اللغة العربية بين حماتها وانصارها فاحببت ايراده لما فيه من فوائد :

« كانت مخالفة للنواميس الطبيعية التي عرفت لمختلف اللغات فقد ظهرت شابة مكتملة دون ان تمر بمرحلة طفولة او تتعثر فى طريق طويل . وكان نضوجها من الاعاجيب التي شغلت كل الباحثين والعلماء .

والاعجب من هذا انها عاشت قرابة الفوخمسمائة سنة وهى تؤدي مهمتها على نحو متحرك تجاوبت فيه مع الزمن والتطور تفردت حتى بين اللغات السامية باطراد الاوزان وقواعد التعريب وقواعد الاعراب .

واستطاعت ان تجري مع الحضارات وتلبى مطالبها ، وقد اكد الباحثون ان **بقاء اللغة العربية على هذا النحو يكاد يكون معجزة من المعجزات** وليس اعجب من هذا ونحن ندرس هذه اللغة ان نجدها غنية غناء لا حد له .

فقد قال الخليل فى كتاب العين : ان عدد ابنية كلام العرب المستعمل والمهمل (12,305,412) كلمة ولعله اراد ما يمكن تكوينه بتركيب احرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثى والرباعي والخماسي .

وقال الحسن الزيدي : ان عدد الالفاظ العربية 6,699,400 لفظ لا تستعمل منها الا 5620 لفظا والباقي مهمل .

وقد **كان الاسلام عاملا ضخما من عوامل اللغة العربية** وبالرغم من انها خرجت من الجزيرة واتجهت الى الفرس والهند والشام ومصر وعبرت البحار الى افريقيا الجنوبية فالاندلس فانها استطاعت ان تحتفظ بفصاحتها ووحدتها وكيانها رغم اختلاطها بلغات اخرى . بل انها استطاعت ان تزيح هذه اللهجات وان تملي لغتها على هذه الامم فان لم تسيطر سيطرة كاملة اثرت تأثيرا كبيرا بروحها وافكارها .

وفى الشام وما بين النهرين سادت العربية على اللغات السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية ..

وفى مصر سادت العربية وحلت محل اليونانية والقبطية والسريانية قبل ان ينقضي القرن الاول الهجري ...

وقد انتشرت الحروف العربية بانتشار الحضارة الاسلامية وكتبت بها اللغات التركية والفارسية والاردية والافغانية والكردية والمغولية والبربرية والسودانية والابجية والساحلية كما كتبت بها لغة اهل الملايو وغيرهم ممن يبلغون 250مليونا ماعدا نحو90

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص 402

مليونا يكتبون اللغة العربية بالخط العربي وقد حدث هذا منذ الف سنة لهذه الامم الكثيرة وبه دونت آدابها وعلومها وفنونها . وقد رصدت الابحاث المتعددة عن مكانة اللغة العربية **وانها اضخم اللغات ثروة** واصواتا ومقاطع وحروفا وتعبيرات حتى انها تفوق اللغة الانجليزية فى عدد الاصوات اذ بها 28 حرفا غير مكررة فى حين أن اللغة الانجليزية بها 26 حرفا ومنها مكرر (1) .

وفى اللغة العربية حروف لاصوات لا توجد فى كثير من اللغات الاخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف .

وقد اشتهرت اللغة العربية بالثراء من ناحية الالفاظ عن طريق المترادفات كثرة واضحة (400 اسم للاسد) (300 للسيف) (200 اسم للحية) (255 للناقة) (170 اسما للماء) (100 اسم للخمر) (70 اسما للمطر) كما تنوعت في الاساليب والعبارات كالحقيقة والمجاز والتصريح والكتابة .

ومن هذا الغنى والوفرة جاءت مقدرتها الكبرى فى غزو الامبراطوريتين العظيمتين الفرس والروم وخاصة الاولى التي نبغ منها كثيرون أمثال الفيروزا بادي وابن المقفع وابى نواس وابي حنيفة وقد تحولت **اللغة العربية بعد الاسلام من لغة الشعر الى لغة الشرع والفقه واصبحت لغة علمية** وترجمت عنها عشرات من المؤلفات الفلسفية والعلمية (2)

ولو ذهبنا نستعرض الاقوال ونستطلع الآراء فى فضل اللغة العربية وميزاتها لطال البحث وخرج عن هدفه ...

ولكن بعض الناس قد يقول : هذا الرأي لاهل اللغة فى لغتهم ومن أين لنا أن أصحاب اللغات الآخرين يؤيدون هذه الاقوال ويعتبرونها عادة ليس باعثها التعصب والهوى ؟

وهذا التساؤل مدفوع بداهة بما تشتمل عليه اللغة العربية من خصائص وما تحويه من مميزات يشهد بها من عرف اللغة العربية من غير اهلها ممن لم ينقد للتعصب الاعمى وخلا من الاغراض السيئة .

ولسنا فى شك من عظمة لغتنا العربية حتى نحتاج الى شهادات من المستشرقين . وانما نذكر امثلة نرد بها على تساؤل قد يورده متفلسف او متحذلق . وليعلم من يردد كلمات يسمعها دون ان يدرك مغزاها من جهة ذوي النوايا المشبوهة من القدح فى اللغة العربية ورميها بالجمود والتخلف والزعم الباطل انها صعبة تستحيل على الفهم وينغلق دونها الذهن ان هذه الآراء لا تمت للحقيقة بصلة .

وليس من مرامنا ايراد الكثير من الامثلة . ونجتزىء بالقليل عن الكثير والمثال عن التوسع. والحر تكفيه الاشارة ! .

وقد اعترف بفضل اللغة العربية وشمولها وصلاحيتها لان تكون **لغة عالمية** كثير من المستشرقين. من ذلك ما قاله المستشرق ارنست رينان فى كتابه تاريخ اللغات السامية : « من اغرب المدهشات ان تنبت تلك **اللغة القوية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري** عند امة من الرحل . تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها وكانت هذه اللغة مجهولة عند الامم من يوم علمت ظهرت لنا فى حلى الكمال الى درجة انها لم تتغير اي تغير يذكر حتى انها لم يعرف لها فى كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة لا نكاد نعلم من شأنها الا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى **ولا نعلم شبيها لهذه اللغة** التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة (3) »

وقال مثل ذلك فرينباغ الالمانى حيث قال : « ليست **لغة العرب اغنى لغات العالم** فحسب بل الذين نبغوا فى التاليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد .

ويقول : ريتشارد كوتهبل : « **لا يعقل ان اللغة الفرنسية والانجليزية تحل محل اللغة العربية وان** شعبا له آداب غنية متنوعة كالآداب العربية ولغة مرنة لينة ذات مادة **لا تكاد تفنى لا يخون ماضيه ولا** ينبذ ارثا اتصل اليه بعد قرون طويلة عن طريق آبائه واجداده » .

---

(1) **حوت اللغة الانجليزية نحو الف كلمة عربية**وهناك نحو 270 كلمة من اصل عربي تستعمل بكثرة فى اللغة الانكليزية .

(2) اللغة العربية بين حماتها وخصومها ص 3—6

(3) القياس فىاللغة العربية ص18 واللغة العربيةبين حماتها وخصومها لانور الجندي ص 25

ان التباين الجزئي الذي يبدو بين اللهجات العربية لابد ان يزول وعليه فسيكون لدينا **منطقة عربية تتكلم لغة واحدة شاملة .**

كان للعربية ماض مجيد وفى مذهبى انه سيكون لها مستقبل باهر .

ويقول مرجليوت استاذ اللغة العربية فى جامعة اكسفورد : « **اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقة** ...

ويقول وليم ورل المستشرق الامريكى : « ان اللغة العربية لم تتقهقر فى ما مضى امام اى لغة اخرى من اللغات التي احتكت بها وينتظر ان تحافظ على كيانها فى المستقبل كما حافظت عليه فى الماضي **وللغة العربية لين ومرونة يمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات هذا العصر .**

وتتحدث جريدة يوركشير بوست الانجليزية عن انتشار اللغةالعربية بين الشعوب الاسلامية وأهميتها ثم تقول : ولا مراء ان فى **اللغة العربية من اعظم ينابيع المعرفة التي يغترف منها العالم** ، ويزداد عدد المتكلمين بها يوما بعد يوم وتتسع حدودها .

ويقول سردنسون روس : « **العربية لغة القرآن والحديث وتاثيرها فى العالم الاسلامي** حق لا ريب فيه ليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الاصلية للكتب المقدسة بذلك الشان الخطير كما هو فى الاسلام ويرجع هذا فى اساسه الى ذلك **التاثير المعجز الذى احدثه القرآن فى نفس كل من اعتنق الاسلام .**

من اجل ذلك كان لزاما على من يتقبل الاسلام ان يتقبل معه اللغة العربية تلك اللغة التي نزل بها القرآن وهنا نجد لغة حية يتكلمها اولئك القوم الذين دعوا سكان الممالك التي فتحوها للدخول فى الدين الجديد .

ويقول جورج سارتون : « وهكذا كانت العربية لغة الضاد ولغة الوحي ولغة اهل الجنة اكد الرسول وجوب قراءة القرآن باللغة العربية . ان **اللغة العربية من اجمل اللغات فى الوجود** . ان خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جدا ويمكن لتلك المفردات أن تزاد بلا نهاية ذلك لان الاشتقاق المتشابك والانيق يسهل ايجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج اليه كل انسان على نظام معين .

وهكذا **يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الاعلى فى التعبير عن المقاصد .**

ويقول يوليوس جرماتوس : « ان **للغة العربية مقاما ممتازا بين جميع لغات العالم فان** تاريخها متصل غير منقطع منذ الف واربعمائة سنة. اما اللغة العربية فقد ثبتت على عاديات الزمن واحتفظت بكيانها كأنها اثر من آثار القدم ..

وقد كان لمرونة اللغة العربية وبلاغتها اثر فى نفوس الفرس ومن بعدهم الاتراك حتى انهم اقتبسوا طائفة من الالفاظ العربية حلت محل ما يقابلها من الالفاظ التركية والفارسية وقد اصبح **وجود الالفاظ العربية فى تينك اللغتين من متممات الفصاحة والبلاغة.**

وفى وسع الكاتب ان يورد مئات من الامثلة على ذلك (1) .

وختاما نسأل الله ان يوفق العرب والمسلمين للنهوض بلغتهم والاعتناء بها توصلا الى فهم الدين ومقاصده وغاياته والى نشره بين الامم وأن يشعر علماء المسلمين بواجبهم حيال لغة القرآن فيبذلوا الجهود ويكرسوا الاوقات للعناية بها ورد الشبهات التي يروجها اعداء الدين والعرب ووضع المؤلفاتالتي تساعد على امتدادها وتقريبها الى الاذهان .

ونتمنى ان يلتفت المثقفون الى دراسة اللغة العربية دراسة وعي واستنباط وتذوق وان لا يغتروا بأقاويل واهية تدعو الى الصد عنها والى الزهد فيها وتحية للعاملين فى سبيل دينهم الحق وأمتهم المجيدة .

---

1) انظر كتاب اللغة العربية بين حماتها وخصومهافقد اورد فيه هذه الاقوال بتوسع .

اللغة الولوفية بالسينغال ...
أصبحت بفضل القرآن أداة تثقيف وتربية

بقلم فضيلة شيخ الاسلام الحاج ابراهيم نياس

سنغال (مدينة كاولاخ)

تحية لمكتب تنسيق التعريب فى العالم العربى ، وواها له ! فهو جهاز نشيط دائب الحركة ، ومن اهم فروع الجامعة العربية . واننى لآمل ان يتوفر لهذا المكتب كل الوسائل اللازمة لاداء رسالته الكبيرة الضرورية ، حتى نرى شجرة التعريب فى مستقبل قريب ، وهى ثابتة الاصل ، باسقة الفروع ، وارفة الظل ، فيكتمل للامة العربية ملامحها ، وتتسق قسماتها ، وتستعيد الضاد هيبتها ، وتصبح الفصحى هي الرباط الوثيق لسائر اقطار هذه الامة الكبيرة المنتشرة فيما بين المحيط والخليج ..

واننى فى الواقع لكبير الاهتمام بنشاط مكتب التنسيق .. هذا ، خصوصا منذ عامين حيث اتيحت لى فى صيف عام 1966 فرصة الاجتماع بمديره المسؤول الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الذى زودنى — جازاه الله خيرا — بمجموعة طيبة من مطبوعات المكتب ، اطلعت فيها على ابحاث مفيدة ممتعة ومطمئنة . ولذلك كله رحبت — مسرورا — برسالة المكتب .. التى تضمنت نص الاستفتاء الخاص بعلاقة الاسلام باللغة العربية ، والذى يدعو اهل العناية بهذا الموضوع الى الادلاء بآرائهم فيما اذا كان هناك تلازم او ترابط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ؟ وهل الوعي الاسلامى يقوى ويضعف تبعا لما يعترى لغة الضاد من قوة او ضعف فى الاقطار الاسلامية ..؟

وانا ارى بكل صراحة : ان اللغة العربية ، على عظمتها ورغم خصائصها التى لا تنكر ... ما كانت لتخرج من جزيرتها لولا هذا الحدث الضخم الذى تم — بفضل الله — منذ اربعة عشر قرنا .. وهو نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين .. ذلك الكتاب العزيز الذى سارت العربية فى موكبه حيثما اتجه فأصبحت بسببه لغة عالمية يعنى بها ويقدسها جميع المسلمين فى المشارق والمغارب. واذكر اننى قد قمت سنة 1963 برحلة من سنغال بغرب افريقيا الى الصين بأقصى الشرق فما حللت ببلد الا ووجدت فيه من يكلمنى بالعربية فصيحة بليغة ويحيينى بتحية الاسلام !

لا جرم انه لولا هذا القرآن الكريم لبقيت العربية لغة اقليمية محصورة . واذا كتب لادبها ان ينمو ويتطور فسوف يكون — على احسن تقدير — على مستوى ادب جارتها الفارسية.. فاللغة الفارسية لغة ادب وفن وفلسفة منذ قديم — ولكنها ظلت لغة اقليمية قل من يعرفها من غير ابنائها . واما لغة

الضاد فقد انطلقت من اسار الاقليمية كما قلت منذ ان جعلها الله ـ جلت قدرته ـ لغة التنـــزيل ، ولسان الوحي ، واساس الاسلام ، وترجمان عباداته ، ورباط الروح .. فهي ـ والحالة هذه ـ لغة تستمد شرفها ، وتستقي روافدها اساسا من الاسلام . ولا تضمن لنفسها بقاء ولا خلودا الا بهذا الاسلام. وهذه حقيقة بدهية لا تحتاج الى برهان اللهم الا اذا احتاج النهار الى دليل .

هذا ـ وان اختيار العربية لغة لكتاب الله انما هو حلقة فى سلسلة اختيارات بديعة هي بعض فضل الله علينا وله المنة ! فقد اختار لنـا الاسلام ورضيـه لنا دينا ، واختار لهذا الدين كل ما له علاقة بانتشاره فى العالمين ، ولا غرو فهو تعالى « اعلم حيث يجعل رسالته» واعلم بما يكفل لهذه الرسالـة النجـاح والتوفيق . فقد اختار من البشر محمدا بن عبد الله صلى الله عليه وسلم حاملا لهذه الرسالة، وهو اكمل الناس خلقا وخلقا ، واشرفهم حسبا ونسبا . واختار لها من البقاع الحرمين الشريفين : منطقة حماها بقدرتـه من الفساد الذى ظهر فى البر والبحر يومئذ . وجعل لاهلها استعدادا لحمل رسالة الاسلام . وانـزل قرآنه الكريم بلسان عربي مبيـن .. واختـار لهـا عصر النبى الذى عاش فيه خير القـرون ، وهـم صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يـزال يختار لهذا الدين دعاة هداة فى كل زمان ومكان. وهذه عقيدة كل مسلم موفق ، وكم جرت بها اقلام اهل العلم عبر العصور للبرهنة على ان ارتباط اللغـة العربية بالاسلام مسألة بدهية، وحقيقة سافرة يجب ان لا تعزب عن الاذهان : فقد ذكر العلامة اللغوى ابو منصور الثعالبى فى مقدمة كتابه الجليـل فقـه اللغة .. « بأن من احب الله احب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن احب النبي العربي احب العرب ، ومن احب العرب احب اللغة العربية التى بها نزل افضل الكتب ، على افضل العجم والعرب ، ومن احب العربية عني بها ، وثابـر عليهـا وصـرف همته اليها » .. «والاقبال عليها من الديانة. اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد . ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفـها ، والتبـحر فى جلائلها ودقائقها الا قوة التيقـن فى معرفة اعجـاز القرآن وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة **الذى هـو** عمدة الايمان لكفى بهما فضلا يحسن اثـره ، ويطيب فى الدارين ثمره » .

والوعي الدينى ولا شك يقـوى ويضعـف تبعـا لامتداد لغة القرآن او انكماشها ، وحسب قوتهـا او ضعفها فى البلاد الاسلاميـة مبدئيـا . اذ مـن المستحيل بداهة الاستغناء بترجمة معـانى القـرآن وتعاليمه عن تناولها مباشرة باللغة العربية .. بل ان وظيفة الترجمة فى حد ذاتها تفرض وجود مترجمين فقهاء للغة التنزيل .. ذلك « لان الاسلوب العـربى بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهر القرآن ، ولا يمكن التجاوز عنه بتة » كما يقول الشيخ محمد الغـزالى .. فلابـد اذا لنشر الـوعي الاسلامـى الحقيقى من نشر اللغة العربية حتى يتحمل الرسالة على الاقل دعاة مستعربون يجيدون العربية ويتضلعون فى آدابها ، ويتعمقون فى اسرار البلاغة وفنـون الكتابة . واعتقد ان بوسع كل مسلم ان يلج العروبة من هذا الباب الواسع الذى فتحـه الرسول عليـه السلام على مصراعيه : فقد روى الحافظ بن عساكر قال : « جاء قيس بن مطاطية الى حلقـة فيـها سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، فقال : هؤلاء الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هـذا الرجل، (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا وهذا (مشيرا الى غير العرب من الجالسين) فقام اليه معاذ بن جبل رضى الله عنه فاخذ بتلابيبه ثم اتى النبى صلى الله عليه وسلم فاخبره بمقـاله .. فقام النبى صلى الله عليه وسلم مغضبا يجـر رداءه حتى اتى المسجد ، ثم نودي : الصلاة جامعة فاجتمـع الناس فخطبهم قائلا « ياايـها النـاس ان الـرب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية باحدكم من اب ولا ام ، **وانما هي اللسان فمن تكلم بالعربيـة فهو عربى**». فالرسول عليـه الصلاة والسلام انمـا يرشد بهذه الكلمة الى حقيقة ارتباط الوعى الاسلامى بفقه اللغة العربية ، ويشير الى حقيقة اخرى وهى **أن العربية ـ وهى لغة القرآن ـ يجب ان تتحرر من الاقليمية والعنصرية الضيقة** ، لتصبح اداة تفاهم بين جميع المسلمين على اختلاف اجناسهم والوانهم ... واذا راجعنا التراث الاسلامى فى سـائر عصوره راينا ان المسلمين قد لبوا هذا النداء المحمدى .. فنبغ كثير من غير العرب وبرزوا فى شتى فنون العلم والمعرفة . ومن منا ـ انصار لغة القرآن ـ لا يعرف ولا يعجب بأمثال الشيرازى ، والسندى ، والحلبى ، والزنجانى ، والجبـرتى والافغـانى والاشمـونى ، والقلقشندى ، والصقلى ، والقيـروانى والمـراكشى والصنهاجى ، والقرطبى ، والفيروزابادى، والبخارى وغيرهم من سلفنا الصالح الذين تدل نسبة كل منهم

على اصله غير العربى . مع ان الفصحى تتهلل عند ذكرهم . ذلك لان **العربية** لم تعد لغة اقليمية محصورة وانما هى **لغة عالمية بفضل القرآن الكريم** الذى يومن به ويقدسه المسلم حيثما كان . وهذا من اهم اسباب القوة فى هذا الدين ، وقد اثر عن السلف كلم طيب يصور الحق كل الحق وهو قولهم الاسلام بالعرب يبقى ، وبغير العرب يقوى . ولا غرو فالعرب مادة الاسلام ، وعزهم عز الاسلام، وذلهم ذله كما جاء فى الاثر . وقد فطن اعداء الاسلام واعداء الامة العربية لاهمية الربط بين العروبة والاسلام فراحوا يشوهون جمال اللغة العربية ، ويهولون من صعوبة قواعدها الى حد الدعوة الى الغاء الاعراب ، وتغيير حروف الكتابة العربية . وانا اتحدى هؤلاء المهولين بقوم من المسلمين غير العرب اعرفهم فى عدة اقطار، قد برعوا فى اللغة العربية وآدابها براعة تامة بحيث انهم يستمعون بالدهشة والاستغراب الى كل هذا الضجيج الذى يثار حول اللغة العربية المظلومة ..

ولكن ذلك كله متوقع ممن يريدون استضعاف الامة العربية ، وعزلها عن الامة الاسلامية .. وانما الداهية الدهياء هى ما يلاحظ بكل اسف من وجود بعض من مثقفى العرب ، يساندون حملة التشهير بلغة التنزيل من حيث يشعرون او من حيث لا يشعرون . هؤلاء المثقفون شرذمة قليلون فتنتهم الحضارة الغربية ، فأورثتهم امراضا واغراضا نلمس آثارها فى الصحف السيارة وفيما تنشر لهم « دور النشر » من ابحاث ومؤلفات ، وهو اتجاه خطير ليس على الدين فحسب، بل على الامة العربية عموما ذلك « لان الذين يتعلقون اللغات الاجنبية ــ كما يقرر الرافعى فى كتابه وحي القلم ــ ينزعون الى اهلها بطبيعة التعلق ، ان لم تكن عصبيتهم للغتهم قوية مستحكمة من قبل الدين او القومية ، فتراهم اذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم ويتبرأون من سلفهم، وينسلخون من تاريخهم ، وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ، ولقومهم واشياء قومهم . فلا يستطيع وطنهم ان يوحي اليهم بأسرار روحه ، اذ لا يوافق منهم استجابة فى الطبيعة ، وينقادون بالحب لغيره ، فيتجاوزونه بالحب وهم فيه ، ويرثون دماءهم من اهلهم ، ثم تكون العواطف فى هذه الدماء للاجنبى ، ومن ثم تصبح عندهم قيمة الاشياء بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيال المتوهم فيها ، لا بالحقيقة التى تحملها ». وهذه الذلة اورثوها من ذل لغتهم وهوانها عندهم ، ولهذا السر « ترى المستعمر يفرض لغته فرضا على الامة المستعمرة ويركبهم بها ، ويشعرهم عظمته فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها فيحكم عليهم احكاما ثلاثة فى عمل واحد : اما الاول فحبس لغتهم فى لغته سجنا مؤبدا واما الثانى فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا ، واما الثالث فتقييد مستقبلهم فى الاغلال التى يصنعها ، فأمرهم من بعدها لامره تبع »

وبالنسبة لتاثير لغات المسلمين فى العربية . وتأثرها بها فان لغاتنا معشر المسلمين فى سنغال مثلا لم تؤثر فى نطقنا العربى وفى تعابيرنا العربية شيئا ابدا اللهم الا آثار عجمة تظهر عند البعض نتيجة لعدم اتقانهم اخراج الحروف لاسباب تاريخية وسياسية لن اتعرض لها فى هذا المقال .. ولكن هذه **اللغات تاثرت الى حد بعيد بلغة القرآن ، فلغتنا الولوفية مثلا قد اصبحت بفضل القرآن اداة تثقيف وتربية جيدة ..** وقد تسربت فيها مفردات عربية (اسلامية) كثيرة . وكثير من شعرائنا بهذه اللغة قد تقيدوا باوزان البحور العربية ، وراعوا فى اشعارهم الكثيرة المتعددة المواضيع : احكام العروض العربى .. اضف الى ذلك كله عقليتنا التى اصطبغت بالصبغة القرآنية وتأثرت بما فى القرآن الكريم من اساليب التعبير ، ووجوه التصوير والتصرف فى افانين الكلام .. ثم يأتى الحرف العربى الذى اتخذه المسلم السنغالى مثل اخيه الافريقى منذ قرون لتدوين ما يريد بلغته الولوفية .. وقد ظهرت اخيرا بادرة طيبة تستحق التشجيع وهى ان بعض **المثقفين المسلمين من شبابنا قد جنحوا الى وضع مؤلفات بلغة وولوف مستعملين الحروف العربية ...** ولبعض هذه المؤلفات قيمة علمية وفكرية كما لو كتبت باحدى اللغات الحية تقريبا .. وتلك ولا شك خطوة اخرى نحو التقرب الى لغة القرآن ، ووسيلة ناجحة للاسراع بحملة محو الامية .

وقد اذهب الى ابعد من ذلك لاقول ان **سنغال** ــ كغيره من الاقطار الافريقية ــ **لم يحطم قيود الامية الا بفضل القرآن** العربى المبين ، وهى حقيقة تاريخية لا ريب فيها . فاللغة الفرنسية مثلا ــ وهي اليوم اللغة الرسمية لجمهورية سنغال ــ يرجع تاريخ بداية نشرها عندنا الى مائة وخمسين عاما تقريبا ، فقد كان السيد جاندار اول مدرس انتدبته الحكومة الفرنسية لافتتاح اول مدرسة فرنسية فى **سين لويس** بسنغال، وهى الاولى فى عموم غرب افريقيا ايضا وذلك فى عام 1816 م. بينما يسجل مؤرخ هذه المدرسة الاستاذ جوزيف غوشى فى كتابه : ما يدل

على تقدير الحاكم الفرنسى مسيو روجى لمنهج التعليم الذى وجدوا عليه المسلمين السنغاليين حتى فى قراهم وان ما كانت ادارة المدرسة الفرنسية تعتبره منهجا مبتكرا لتسهيل تعليم الاولاد انما هو مألوف ومطبق عمليا فى سنغال قبل وصول الفرنسيين . ولا غرو فى ذلك ابدا اذا تذكر القارىء ان القرآن الكريم قد دخل بلاد السودان الغربى (على حد تعبير المؤرخين العرب) منذ عهود سحيقة .

انها اذا **لغة القرآن** التى يتطلع اليها المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، **وهى اللغة الثرية ذات القابلية العجيبة للتطور، وهى الوعاء الامين للتراث الاسلامى والعربى** ، وهى اللغة التى وصفها البروفسور هنرى باستيد استاذ الحضارة المغربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس بانها «**اكثر لغات الوجود روحانية**» (لوموند 6 ـ 8 ـ 66) حتى ان بعض القسيسين فى بيروت يخططون الآن بجد لاحلالها محل اللغة اللاتينية فى مجال تثقيف الشبيبة وتربيتهم الروحية .. واخيرا هى **اللغة القومية لست دول افريقية** .. فرجائى ان تكون مكانتها فى بلدى وفى سائر الاقطار الاسلامية مكانة سامية. وان تولى العناية اللازمة فى سائر الاوساط. واننى بهذه المناسبة لاهيب بالحكومات العربية والاسلامية ، وبالهيئات والمؤسسات الاسلامية ، وبأهل اليسار من الافراد ، وباصحاب الفكر وخبراء التربية والتعليم ان يتعاونوا لحماية لغة القرآن ونشرها ، وتيسير تعليمها كما فعلت الامم «القوية» بلغاتها ، فان فى سخاء هذه وتضحياتها لعبرة لاولى الالباب . ولله در شاعر النيل حافظ ابراهيم اذ يقول على لسان اللغة العربية :

... وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف اضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق اسماء لمخترعات

انا البحر فى احشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

فياويحكم ابلى وتبلى محاسنى
ومنكم وان عز الدواء اساتى

فلا تكلونى للزمان فاننى
اخاف عليكم ان تحين وفاتى

ارى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز اقوام بعز لغات

اتوا اهلهم بالمعجزات تفننا
فياليتكم تاتون بالكلمات

ايطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوادي فى ربيع حياتى

ولو تزجرون الطير يوما علمتم
بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله فى بطن الجزيرة اعظما
يعز عليها ان تلين قناتى

حفظن ودادى فى البلى وحفظته
لهن بقلب دائم الحسرات

وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق
حياء بتلك الاعظم النخرات ...

ايهجرنى قومى عفا الله عنهم
الى لغة لم تتصل برواة ..

الفكر الاسلامي ولغة القرآن عنصر ثقافي تطعم به اللغة القومية

بقلم الأستاذ مصطفى الزرقا

خبير الموسوعة الفقهية بالكويت
والاستاذ بكلية الشريعة (دمشق)

ان نواة الجواب على السؤال الاصلى نجدها فى عبارة للمستشرق الفرنسى كود فروا دومومبين عن التلازم بين تقرب لغة اى شعب اسلامى من لغة القرآن وبين قوة اسلاميته ، حيث يقول دومومبين فى الفصل الاول من كتابه «النظم الاسلامية» ما يلى:

« ونستطيع القول بشىء من المبالغة : ان نظم اى شعب اسلامى تكون اكثر اسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن . فباتخاذ هذا المبدأ نستطيع ان نضع فى الصفوف الاولى من المسلمين اولئك الناطقين باللغة العربية ، وان كان منهم من تكلم العربية بعد الفتح الاسلامى ، كحالة سكان سوريا والعراق ومصر والمغرب » (1)

اننى شخصيا من القائلين بصحة هذا المبدأ الذى قرره دومو مبين . وبالاستناد اليه اقول :
ان التلازم قائم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية .

اما مدى هذا التلازم فاننى ارى ان هذا التلازم حده الادنى هو ان يتعلم المسلم غير العربى آيات من القرآن ، وبعض السور القصار مع فاتحة الكتاب لاداء صلواته المفروضة . وحده الاعلى ان يستعرب الشعب كله استعرابا تاما ، كشعوب شمال افريقيا والعراق بعد الفتح ، حيث اصبحوا شعوبا عربية لا يمكن التمييز فيهم بين العرب الاصليين الوافدين بعد الفتح وبين سكان البلاد الاصليين .

وبين هذين الحدين (الادنى والاعلى) لانتشار اللغة العربية مع انتشار الاسلام مراتب لا تحصى درجاتها فى مقدار ما تأخذ الشعوب التى تدخل بالاسلام من اللغة العربية . وقد يتعلم الشخص المسلم قراءة القرءان كله بالنص العربى ، ويحفظ مقاطع كثيرة منه غيبا . وقد يتعلم العربية وقواعدها فيجيدها كتابة اكثر مما يجيدها قراءة وحديثا . وقد يتخصص بعلوم الشريعة والفقه فيجيد العربية كتابة ونطقا الى درجة الخطابة فيها كأبنائها الفصحاء حتى انه قد يصبح من كبار شعرائها . والامثلة على هذا فى التاريخ الاسلامى كثيرة معروفة . ومن

(1) النظم الاسلامية للمستشرق دومو مبين ، ترجمة الدكتور فيصل السامر والدكتور صالح الشماع، طبعة دار النشر للجامعيين ــ مطبعة حداد فى بيروت ــ ايلول 1961) .

الامثلة العصرية على هذه الاجادة كتابة وخطابة الاستاذ الجليل العلامة الهندى الشيخ ابو الحسن على الحسنى الندوى ، والشيخ حبيب الرحمن الاعظمى وكثيرون سواهما .

ومما تجب ملاحظته ان خطبة الجمعة وصلوات الجماعة فى البلاد الاسلامية غير العربية ذات اثر كبير فى فهم العامة كثيرا من الالفاظ العربية وائتلاف سمعهم لها بما يقرأ فيها من القرآن جهرا ، وبما يرد فى خطبة الجمعة من آيات قرآنية واحاديث نبوية ومواعظ عربية ولو امتزجت بشروح من خطيب الجمعة باللغة القومية المحلية .

وكذلك يقال فى دروس المساجد وقصصها الدينى لما تتضمنه من استشهادات بنصوص دينية .

الاسئلة الايضاحية :

1) نعم لولا الاسلام لما انتشرت العربية ، ذلك لان اللغة ايا كانت لا يمكن ان تنتشر الا باحد عوامل اربعة : **الفتح القومى ، والسهولة** (نطقا وقواعد) ، **والتجارة الخارجية ، والدين .**

أ ـ فالعرب قبل الاسلام لم يكن ليمكن ان يكونوا قوة فاتحة فى العالم تبسط سيادتها ولغتها كما هو معلوم من امرهم فى الجاهلية .

ب ـ واللغة العربية على سعتها ودقتها وخصائصها الفريدة ومزاياها الجمة ليست سهلة النطق ولا القواعد على غير اهلها ، كما هو معلوم ايضا .

ج ـ والعرب قبل الفتح الاسلامى لم يكونوا ذوى تجارة خارجية عالمية ، ولا يمكن ان يكونوا كذلك فى حياتهم القبلية المعروفة ، ولاسيما انهم ليسوا امة بحرية . فكانت تجارتهم موسمية محصورة فى داخل الجزيرة العربية نفسها بين شمالها وجنوبها ، وتجارتهم الخارجية رحلة سنوية الى الشام ذهابا وايابا فى فترة قصيرة ليس فيها اقامة تجارية ولا تعامل دائم . وما سوى ذلك ليس له شأن يذكر .

د ـ فلم يبق الا العامل الرابع ، وهو الدين السمح الذى قاد الفتح ، وبسط سيادة الاسلام فى العالم بعد ان جعل من العرب البداة امة حضرية نظامية ذات رسالة عالمية، وذات قانون داخلى وقانون دولى .

واستتبع هذا ايضا انطلاق التجارة مع الفتح الاسلامى ، فتوافر العاملان : الدينى الذى يدعو الى اخذ اللغة العربية لمعرفة اصول الدين العربية ، والعامل الاقتصادى الذى يدعو الى اخذ اللغة العربية ايضا لمصلحة الاكتساب ، لان هذه **اللغة عندئذ اصبحت الاداة الوحيدة للتفاهم فى التبادل التجارى** بين الاقوام المختلفة فى البلاد المفتوحة على الاقل (وما اوسع رقعتها فى الارض) لانها لغة الدين المشتركة التى تنتشر عمليا بدافع الدين وما استتبعه من فتح وسيادة وحكم ، ومن تعامل بين شعوب البلاد المفتوحة على اختلاف لغاتها حين اصبحت اقطارا متعددة فى دولة واحدة لغتها الرسمية المشتركة **هى العربية لغة الدين والقرآن والصلاة .**

2) اما الشق الثانى من السؤال الايضاحى (لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام) فجوابى عليه : لا ، بالنفى لا بالايجاب ، لان الاسلام رسالة تدعو الى منهاج واخلاق نظرية وعملية تقيم الحياة على افضل طريق للانسانية ، بقطع النظر عن لغة دستورها (القرآن) وعروبتها . ولكن عربية القرآن جعلت اهل اللسان ، اى العرب انفسهم ، يتذوقون فيه مذاقا من البلاغة الرفيعة لا يتذوقه سواهم .

فالاسلام دين صالح للانتشار على مقياس ونطاق عالميين بسبب الطريق القويم الحكيم الذى شقه للبشر فى الحياة ، وبسبب الاسس والمبادىء والقواعد الحكيمة المعقولة التى تتلاقى مع الفطرة البشرية السليمة ، وتؤلف نظاما وسطا معتدلا بين طرفي الانحرافات الشاذة فى الفكر او فى العمل . ولذا كان من اهم ما يلحظه راصدوه من اعدائه المستعمرين والمبشرين اليوم بالديانات الاخرى انه ينتشر مع التجار المسلمين ، ولو من غير العرب ، (كجماعة التبليغ فى الهند ، ومعظمهم تجار يلتزمون بتبليغ الاسلام) فى كل قطر يدخلونه ، ولو بقى الداخلون فيه على لغتهم .

فليست العربية وكونها لغة القرآن سببا لانتشار الاسلام ، بل الصحيح هو العكس : اى ان انتشار الاسلام هو السبب الاعظم لانتشار العربية .
فقد قال الله تعالى فى القرآن العظيم :

« يايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

فمن الواضح ان هذا الاحياء الذى فى الاسلام ليس منوطا بلغة نصوصه ، بل بمحتواه من نظام واسس ومناهج حياة .

ان كل ما اوضحته فى جواب هذا السؤال الايضاحى الاول ينطبق على واقع بيئتى الاقليمية ، وهى سورية فى تاريخها المعروف مما لا حاجة الى الاطالة فى ذكره .

2) نعم من الملحوظ ان **الوعي الاسلامى والوازع الدينى فى البلاد الاسلامية ، عربية وغيرها ، يقويان ويضعفان بقوة اللغة العربية وضعفها ،** اعرف هذا فى تاريخ بيئتى السورية ، وفى سائر البلاد الاسلامية ذلك لان انتشار الاسلام وتأثيره فى النفوس وان لم يتوقف على العربية ، لا شك ان انتشارها وازدهارها معه يزيده تأثيرا ويجعل الشعوب احسن فهما له واتصالا مباشرا بنصوصه وتذوقا لها وتأثرا . فمن المشاهد دائما فى عصرنا اليوم ان صيرورة الناس ذوى ذوق رفيع فى العربية وادبها وبليغ كلامها يزيد من تأثرهم بالقرآن وما فيه من روائع العظات ، وبالسنة وما فيها من جوامع الكلم . بل ان كثيرا من المسيحيين من ادباء العربية وكتابها البلغاء يتأثرون بسماع القرآن فى الاذاعات تأثرا كبيرا ومنهم من يستظهر كثيرا من آياته حفظا وتجرى على لسانه فى كثير من المناسبات .

فهذه البلاغة العربية الاخاذة تضيف تأثيرا اضافيا لمضمون الاسلام ومحتواه .

على ان هذا الارتباط بين قوة العربية والوعي الاسلامى هو اشد واقوى بين اهل اللسان فى البلاد العربية نفسها ، ذلك لان هؤلاء طريق صلتهم بالاسلام هى اللغة العربية ، لانها لغتهم ، فمتى ضعفت اللغة ضعفت هذه الصلة . اما غير العرب فصلتهم بالاسلام عن طريق لغتهم القومية ، فلا يتأثر الوعي الاسلامى فيهم بضعف العربية كما يتأثر هذا الوعي بضعفها بين العرب انفسهم . (ومثال ذلك تركيا اليوم ، حيث تبين ان **الوعي الاسلامى فى الشعب التركى المسلم هو فى صعود رغم ما لقيت العربية فى بلادهم من محاربة** فى العهد الاتاتوركى المعروف) .

لكن انتشار العربية فى شعب غير عربى لا شك انه يعطى هذا الشعب تذوقا جديدا اضافيا يزيد فى نفوس ابنائه الحس الاسلامى ، لانه يصلهم بمنابع الاسلام مباشرة .

3) ان اللهجات العامية المنحرفة عن الفصحى فى كل لغة (ومنها العربية) تهذبها الثقافة ورقي المستوى العلمى فى البلاد ، ويقربها ذلك من الفصحى التى هى لغة العلم والكتابة ، ويعدل كثيرا من انحراف اللهجات العامية ، ويستبعد فى المحادثات العادية كثيرا من الالفاظ العامية التى تمجها اسماع المثقفين ، وليس لها نسب فى اصل اللغة ويغنى عنها غيرها من الفصيح الاصيل . حتى ان من المشهود انه برقي الثقافة العامة وانتشارها يضعف الفارق الكبير فى اللهجات والالفاظ العامية بين بلد وآخر فى القوم الواحد ، وتتهذب لغة المحادثة وتتقرب من الفصحى بكثرة ما يدخل فيها بين المثقفين فى احاديثهم العادية من اللفظ الفصيح . هذا امر ملحوظ بل ملموس ، ونشاهده فى بيئتنا وغيرها .

وبناء على هذه الملاحظة يبدو بديهيا ان **انتشار لغة القرآن فى الاقاليم الاسلامية غير العربية** او الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية او الاسيوية يؤثر حتما فى لغاتها القومية ، بما يحمل القرآن اليهم من معان جديدة لا يعبر عنها تعبيرا دقيقا الا باسمائها العربية ، مثل (صلاة ، صوم ، حج ، زكاة) الخ ... ومن مفاهيم اسلامية اوجدتها الشريعة والثقافة الاسلامية ، مثل (فقه ، حلال ، حرام ، واجب ، سنة ، حديث ، طهارة ، نجاسة) الخ ... وهذا التأثير يقع من حيث ان **الفكر الاسلامى ولغة القرآن هما عنصر ثقافى ولغوى جديد تطعم به اللغة الاقليمية .**

هذا بالنسبة الى اللغات الاقليمية فى البلاد الاسلامية غير العربية او جالياتها فى بلاد الغرب .

اما بالنسبة الى اختلاف اللهجات فى البلدان او الاقاليم المختلفة لابناء لغة واحدة قومية ، فان هذا التأثير يضعف جدا فيما ارى ، لان الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن انما ينصب تأثيره على اصل اللغة القومية بما يوجد فيها من الفاظ وتعابير واسماء عربية لمعان ومفاهيم اسلامية، كما اوضحته آنفا، اما اختلاف اللهجات فلا شأن للفكر الاسلامى فى ازالته ولكن قد يخففه فقط ، فان **لغة القرآن لم تمح فوارق اللهجات بين ابناء البلاد العربية نفسها،** بل بقي اختلاف اللهجات العربية قائما بين مصر وسورية والعراق وتونس ، والمغرب الخ ...

4) انني شخصيا في كلامي العادي وحديثي باللهجة العامية احرص على ان انتقي افضل اللهجات الموجودة في المدن السورية ، واقربها الى اللهجة الفصحى ، وان اجتنب ما ينبو عنه ذوقي ، او اللهجة الفصحى من اللهجات والالفاظ العامية في بلدي . لذلك اشعر ان اللهجة الاقليمية العامية في بلدي (مدينة حلب من سورية) لا يوجد منها في تعابيري العربية المحلية (اي كلامي العادي العامي بغير الفصحى) سوى خمسين في المائة او اقل. والخمسون الاخرى تقرب كثيرا فيها لهجتي العامية من الفصحى.

والحظ ان تأثير اللهجة الاقليمية عند سواي اكثر .

5) يجب ان تحتل العربية في بلادي مكانة الصدارة . واقصد بذلك انه لا يجوز ان يكون هناك احد في بلادي لا يعرف العربية ، وانما يعرف بدلا منها لغة اجنبية .

فالواجب ان تكون اللغة العربية وهي لغة الام في بلادي هي اللغة الاساسية ، وكل لغة اخرى اجنبية تكون لغة مساعدة بحسب حاجة الثقافة العامة والاخصاء العلمي ، والاطلاع على المصادر الاجنبية للمعرفة .

العربية لغة خلدها القرآن

للدكتور أحمد شوكت الشطي

استاذ بكلية الطب (مخبر الجنين)
(جامعة دمشق)
ورئيس منظمة الهلال الاحمر السوري

1) ان الصلة بين الاسلام وانتشار اللغة العربية امر مسلم به ولا يحتاج الى مناصرة لانه حقيقة وليس رايا.

اقول ذلك لان الراي يحتمل وجود راي معاكس له ، واما الحقيقة فلا تتقبل الا نفسها واذا وجد راي ينكرها فعلينا رد هذا الراي الى الصواب . اما الحقيقة التي لا مجال لاي شك فيها فهي **انه لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم** لا بل اقول **بانه لولا رسالة الاسلام المعبر عنها بالقرآن لما كان العرب الآن الا فى بقع معزولة** من صحارى الجزيرة العربية . فالاسلام بقرآنه نهض بالعرب ، وبه خلدهم وكان محورانطلاق حضارتهم ، ولولاه لكان العرب قوما بلا حضارة لا ذكر لهم فى التاريخ .

وانه ليطيب لي ان استشهد عن اثر الاسلام والقرآن بالعرب لا بكتاب مسلمين فقد يقال ان العاطفة الدينية عندهم تتغلب عليهم فينطقون بوحيها لذلك ارجح نقل اقوال كتاب عرب غير مسلمين ، فكلمات عرب ملحدين ، فآراء رجال ليسوا عربا من المتدينين او ممن لا يعترفون باي دين

تقول الآنسة زيادة (1) فى احدى مقالاتها (2) « من ذا الذي لايعرف للكتاب الكريم فضله فى بقاء هذه اللغة حية ، ومن ذا الذي يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام حيا » .

ويحلو لي ان استشهد ايضا بمقاطع من اقوال الاديب الكبير اللبناني خليل مطران (3) عن اثر القرءان والاسلام فى العرب والى القاريء بعضها :

قال العرب فى الجاهلية الشعر فما امتدت النفس فى جيده الى اطول من المعلقات ، وقالوا النثر فما يوشك المتخلف منه ان يملأ صحائف كراس صغير، على الشتات بين المعاني والاغراض ، فلما اراد الله ان يبدي للعالمين **آية من آيات قدرته ، انزل كتابه المبين كتابا عربيا** . ومم اتخذ مادته ؟ من ادوات تلك اللغة . لم يخلق معجما جديدا ، ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة ، بل اخرج من ماثور ما الفه العرب واصطلحوا عليه وتفاهموا به ، تلك المثاني والمثالث التي حيرت الالباب ، وملات النفوس بالعجب العجاب ، انزلها في كلامهم ، الزمها حدود لسانهم ، ومعانيها وراء كل حد ، وهذا هو سر الانشاء ، وسحر الابداء .

اخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية لغة استقل بها ، فلم تجار ما فيها ، وهيهات ان تشبه بها محاسن الشعر ، وعيون النثر فى الجاهلية ، ولم

---

1) مي زيادة ــ 1895 ــ 1941 : ولدت فى الناصرة . اديبة لبنانية مسيحية .
2) المقتطف : تطور اللغة العربية للآنسة مي زيادة ج 77 ص 249 ــ 251 .
3) مطران ــ خليل : 1871 ــ 1949 : ولد فى بعلبك ، شاعر واديب لبناني ماروني هاجر الى مصر ، لقب بشاعر القطرين (سوريا ومصر)

يجارها ما بعدها في البلاغة والفصاحة مكانها من الاعجاز ؛ ثم جاءت روائع الحديث معقبة من مكان دان على ما هبط به الوحي ، ونور الوحي منحدر اليها كتحدر شعاع الشمس من قمم الجبال الشماء ، الى رؤوس الهضاب المتضامة بجانبها ، فاتصلت به أسباب التأصيل والتفريع ، واتسعت وتشعبت ذرائع التحويل والتوسيع ، لغة جديدة تدفقت اليها جداول الفصاحة القديمة من نواحيها المتعددة ، فاذا الحوض الذي افضت اليه بحر عذب يهيء الري والغذاء ، للحدائق الفيحاء التي ازدهرت بها الحضارة العربية الاسلامية ، من هذه اللغة الجديدة استعار الخلفاء الراشدون ـ ناهيك منهم بالامام علي ـ جمال بيانهم وجلال تبيينهم . تكلموا بكلام هو من صميم مادة العربية ، لكنهم جاءوا بمعان بديعة في صور شائقة غير مسبوقة. فكانت هنيهة من الدهر ، سنوات معدودة تم فيها **التحول الاعظم في لغة الضاد ، وطلع فجر جديد ، على البيان العربي في الحقبة التي تلت ظهور الاسلام** الى ما ناهز خمسة قرون ، وفي الضوء الساطع الذي اضاء به ذلك الفجر امم المشرق كافة ، اخرجت القرائح اعاجيبها عقلا ونقلا وفقها وسياسة ، وابدت السجايا في مختلف تلك الامم ضروب زينتها باللهجات الفصحى كما ابرزت الالباب كوامن قواها في استصلاح كل شأن من شئون الحياة .

ولقد بلغ من اعجاب كبار الادباء المسيحيين في القرن التاسع عشر بالقرآن الكريم ان حفظوه ومن بين هؤلاء اليازجي (4) الذي كان له من القدرة على الاقتباس من القرآن الكريم ما لم يكن ليتسنى لرجل شدا شيئا من سوره او الم بها المامة المطلع السطحي فقد جاء في مقاماته ذكر الآيات دون تبديل فيها او تغيير ، ودون تقديم او تأخير كما انه لم يقتبس آية واحدة مرتين في ستين (5) مقامة .

اما عن نشر الاسلام وانتشار العربية به فأمر مذهل على راي الغربيين ، حير المفكرين وما زال يحيرهم . على انني لست ارى في ذلك ما يحير اذ نجمت سرعة انتشار الاسلام من بساطة تعاليمه واخلاص المؤمنين الاولين به ومن احترامه جميع الاديان واشادته بعظمتها وتقديس كتبها ، ومحاربته للعنصرية واعتباره الانبياء جميعا اخوانا عملوا في سبيل انساني وجعله ايضا العمل الصالح مقياس الفضائل ، وحسن الاخلاق ينبوع الشمائل .

وكان في الرسالة العربية التي احتضنت مبادىء الاسلام والرغبة في التعرف عليها ما نشر العربية وعممها ودعمها وخلدها ولولا جمود الجامدين من رجال البعثات العربية الاسلامية التي طالب بها الوثنيون لاختيار دين لهم عن طريق هدايتهم لانتشر الاسلام اكثر من ذلك ولكن رجال البعثات على اختلافها تركوا لب الاسلام وبحثوا عن امور فرعية فلم يوفقوا ولو كانت لديهم المرونة التي امر بها القرآن الكريم للاقوا نجاحا كبيرا .

ولقد كانت شخصية الرسول الامين والتعاليم التي اوحي اليه بها وصورة تعميمها ذات اثر كبير حتى على الملحدين من قدماء ومحدثين وعرب وغربيين نذكر من بينهم الدكتور شبلي شميل الذي كتب الى العلامة المغفور له محمد رشيد رضا بكتاب يقول فيه : انت تنظر الى محمد كنبي وتجعله عظيما وانا انظر اليه كرجل واجعله اعظم . ونحن وان كنا في الاعتقاد على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في الحق والحق اولى ان يقال (6) .

---

4) اليازجي (الشيخ ناصيف) : 1800 ـ 1871 ولد في كفر شيما (لبنان) شاعر تعلم مبادىء العربية على راهب ، اكمل ثقافته على نفسه .

5) جاءت مقاماته في مجمع البحرين بـ 350 صفحة من امثلة استشهاده فيها بالقرءان الكريم قوله : انت في ضيافة الوالد والولد ، ما دمت حلا بهذا البلد ص 143 .

6) ولقد نظم في هذا الصدد الدكتور شبلي شميل قصيدة نقتبس منها الابيات الاتية :

دع من محمد في مدى قرآنه ... ما قد نحاه للحمة الغايات
اني وان اك قد كفرت بدينه ... هل اكفرن بمحكم الآيات
او ما حوت في ناصع الالفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو انهم عقلوا بها ... ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه ... رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والد ... ها بطل حليف النصر في الغارات
من دونه الابطال في كل الورى ... من سابق او حاضر او آت

يقول الرياشي (7) فى مؤلفه « نفسية الرسول العربي » : لقد تعدد المؤرخون فى كتابة ثورات الشعوب ولكن المجال لا يزال فسيحا للكلام عن الثورة الكبرى ، التي اثارها الرسول العربي على الظلم والعبودية ، وعلى حب الاثرة والعادات الوثنية ، ثورة طاهرة بما علم فيها من الرحمة والعفو ، نافعة بما غذاها من العلم ، غنية بما اورثها من صبر الجهاد وقناعة النفس ، واني (8) ارى ان قراءة نفسية الرسول العربي لا تنحصر فائدتها بالمسلمين ، بل تتعداها الى ابناء الطوائف الاخرى ، لان كثيرا من الناس لايزالون على جهل مطبق بسيرة محمد الامين ، ففي درس فضائلها والاطلاع على اخلاق صاحبها افضل وسيلة لانارة الاذهان وتقريب القلوب .

يفخر بالرسول العربي مائة مليون وخمسون مليون من الاميركيين ، الاسباني الاصل ، العربي الدم والعصب ، المنتشرين فى اميركا الجنوبية خاصة والعالم عامة . ان هؤلاء الاميركيين الذين يفاخرون فى أصلهم العربي ، ودمهم العربي ، وجمال عيونهم العربية ، وفراستهم العربية ، ومجد اجدادهم العرب ، يحنون لمعرفة حقيقة نبي اجدادهم ونفسيته ، وتاريخ العرب وعلوم العرب وآداب العرب ، يحنون الى اجدادهم العرب الذين انشأوا مدنية باهرة فى عصور الظلمة الاوروبية ، انشأوا مدنية تفضل فى معظم نواحيها مدنية اليوم ، مدنية القرن العشرين ، قرن النور كما يدعون . **انشا العرب برسالة القرآن مدنية عربية** تطهرت من الاحتكار وسلطان المتمولين وفتنة المراة والاضطهادات الجنسية والرق السياسي والمالي ، والربح الحرام ، والمقامرة والسكر .

وياتي فى طليعة هؤلاء المفاخرين بالانتماء الى العرب فيلاسباسيا (9) .

ثم يتابع الرياشي الكلام الى ان يقول : ان محمدا كان للعالم اجمعين ، للعروبة عماد ، وللعرب فخر ، ولمحبي اللغة حجة ، وللمسلمين امام ، ولغير المسلمين رسول الرحمة والسلام .

ولم يحدث ان اعتبر شخص واحد عند اي طائفة من طوائف الجنس البشري المثل الكامل للانسان فقلدت افعاله بمنتهى الدقة ، كما حدث للنبي الامين. ولقد استطاع محمد فى سحابة عمره ان يهيء الوسائل لنشوء امة فتية وان يضع حجر الاساس لامبراطورية ما لبثت ان حوت بين اطرافها المترامية اجمل مقاطعات العالم المتمدن فى ذلك الحين ، ثم يقول : ظل المشككون الجاحدون يسالون الرسول اية معجزة : معجزة غير علمية وغير خلقية يسالونه ان يغير نظام الكون فينقل الحجر باشارة ويوقف الشمس بكلمة والرسول العظيم يعلم قوله تعالى : « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (10) » فيقول بلسان القرآن « سبحان ربي ! هل كنت الا بشرا رسولا (11) » .

ثم يقول الرياشي : كتبت فصولا ثلاثة عن نفسية الرسول ووقفت محترما متهيبا ، قرات ابحاثي الثلاثة لعقلاء النصارى فلما رايت وشعرت من كلهم تشجيعا واستكبارا واعجابا اقدمت . ولكني اقدمت وفي داخل شعوري هاتف ينادي انك لن تدرك يا هذا من نفسية الرسول العربي العالمي ، ومن دينه ، واحاديثه وشرعه غير اشعة ، غير اشعة فحسب . اذن بتلك الاشعة استنير ، وبنورها اسير ، وبلمعانها وهديها اباحث عشاقه وخصومه .

اما امين نخلة فيقول فى الرسول : محمد نغمة لا كلمة ، وليس على بسيط الارض عربي لا ينفتح لها صدره وترج جوانب نفسه ، **فمن لم تاخذه بالاسلام**

---

7) كاتب اديب ومفكر لبناني من الطائفة المارونية .

8) القول للرياشي .

9) فيلاسباسيا : شاعر اسباني يفخر باصله العربي وبانحداره من السلالة الاموية يتغنى بمجد العرب ويبكيهم فى خطبه وقصائده المفعمة بالروح العربية ومنها شدوه غرناطة العربية وقوله فيها :

غرناطة ، اواه غرناطة ما انت الا خرب قابعة (جمع خراب)
تحمل اسراب السنونو الى افريقيا انباءك الفاجعة
هناك ابناؤك من بأسهم
باكون ، لا من يأسهم

وتشعر وانت تقرا قصيدته هذه انك امام عربي يغلي دم العروبة فى عروقه .

10) الفتح 48 آية 23 .

11) : الاسرى 17 آية 92 .

اخذته بالعروبة ، ومن لم تاخذه بالعروبة ، اخذته بالعربية ، ومحمد لا تستطيع طائفة من العرب ، ان تنفرد بالتباهي به ، فهو فضلا عن كونه للخلق كلهم ، حيث يتشبهون باكرم الآدميين فى حفظ النفس ، وحفظ الجار ، لاجدر أن يكون للعرب كلهم ، حيث نتشبه ـ فوق ذلك ـ بابلغنا فى الفصحى وانهضنا في الجلى ، يوم حط الكفة بعرب ، وشيلانها باعجام . ولقد جعل محمد هذه الدنيا عربية بحتا فاستنزل (12) كتاب الرسالة بلغة قومنا ، وحاط ديانتهم بها ، بل اتى ببرهانه منها يوم زف هذا المعجز المخلد بين الحلق والحنك .

ثم خاف أن ينشطر القوم فجمع بـ (من أحب العرب فقد أحبني) حيث المخافة من الفرقة ، ولم حيث المخافة من الشتات كانما الشرط عنده ، الحب للعرب .

جمع محمد اليه بفضل العربية فى رسالته ، والعربية في اصله ، القلوب العربية من كل ديانة ، فمحمد اذن للعرب قاطبة ، فى لغة الكتاب والحديث وفي فتح العقول (13) .

ولقد كان من غايات الاسلام واهداف رسوله **تعريب الشعوب الاسلامية** . وقد رجح الامام الشافعي وجوب تعميم اللغة العربية ، ووجوب تعلمها على كل مسلم ، ليفهم القرآن الكريم ، ولقد كان الصحابة الكرام ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين ، يلقنون الناس الدين على وجه يبعثهم على تعلم العربية من انفسهم ولذلك لم يمض على انتشار الاسلام ، فى بلاد الروم والفرس وبلاد افريقيا وغربي اوروبا ، زمن يسير ، حتى **علت اللغة العربية ، على لغات هذه الامم** ، بل نسختها ، من غير مدارس ولا معلمين ينصرفون الى تعليم اللغة ، **وما كان انتشار اللغة العربية مماشيا لانتشار الاسلام الا بوازع نفسي** يفعل ما تفعله السياسة والمدارس ، وما وقف هذا السير الا يوم ضعفت الدول العربية .

ينادي بهذا الراي ايضا ابن تيمية (14) اذ يقول: انه لما كانت العربية شعار الاسلام واهله ولا سبيل الى فهم القرءان العربي المبين ، والسنة العربية الا بتعلم لسان العرب والمران على التكلم به ، والتعايش مع العرب ، ولما كانت اللغة العربية للاسلام ليست لغة فحسب ولكنها عقل وخلق ، ولما كانت اللغة لاتنقل الى عارفها الفاظها وصيغ الكلام بها فقط ، ولكنها تنقل عادات اهلها واخلاقهم وعقليتهم ، وطرائق تفكيرهم ، فان ابن تيمية يرى تبعا لذلك وتحقيقا لنظرياته عن العرب ولسان العرب **ان رسالة القرآن ضمنت تعريب الشعوب الاسلامية بنشر اللغة العربية بينهم** حتى انه يقول فى ذلك ان نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب .

ولنا ان نتساءل الآن ؟ ما هو راي الغرباء عن لغة القرآن فى القرآن ، البعيدين عما دعا اليه من ايمان ؟ انهم عديدون ، وجميعهم بعظمته مقرون ، وبسمو التعاليم التي جاءت فى آياته معترفون .

يقول جان جاك روسو فى القرآن : من الناس من يلم بشيء من العربية فيقرا القرآن دون ان يدرك عمق معانيه فيعطي عنه رايا لا انصاف فيه ، ولو انه سمع محمدا يمليه ، بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وذلك الصوت المقنع المطرب ، المؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤيد القرآن بقوة البيان لمد يديه الى محمد قانعا بما بشر به وما انزل عليه .

ويقول هنري دي كاستر : **ان القرآن يستولي على الافكار** ويأخذ بمجامع القلوب .

ويقول ارفينغ واشنطن : يحوي القرآن اسمى المباديء واكثرها فائدة للمجتمع واخلاصا للانسانية .

---

12) : انزل عليه ولم يستنزل فى نظر الاسلام .

13) : يقول فى ذلك محبوب الخوري الشرتوني من شعراء المهجر :

قالوا : تحب العرب قلت احبهم ... يقضي الجوار علي والارحام
فمحمد بطل البرية كلها ... هو للاعارب اجمعين امام

ومما يقوله الدكتور نقولا فياض فى صاحب الرسالة :

الشرق شرقي أين لاحت شمسه ... ودم العروبة في دمي وعظامي
لي في هوى وطني كتاب خالد ... يبقى على المكتوب من ايامي
سجلت نصرانيتي فى متنه ... ونشرت بين سطوره اسلامي

14) : ابن تيمية (تقي الدين احمد ابن تيمية) : (1263 ـ 1328 م) ولد فى حران قرب دمشق . فقيه حنبلي اتقن القرآن والحديث والفقه والكلام وسلك على سنة الاقدمين .

ويقول الكس لوازون : القرآن آيـة البلاغـة وسجل الاخـلاق .

ومما قاله لوبـون : حسب القرآن جلالة ومجدا ان الاربعة عشر قرنا التي جرت عليه لم تستطـع ان تخفف ولو بعض الشيء من تأثيره الذي لايزال غضـا كان عهده بالوجـود امس .

يقول الاديب الفرنسي كلود فاريـر : **ان آيـات القـرآن رائعـة** ، فى تلاوتها نغمة بديعـة ، تأمـر بالشجاعة والاقدام ، تعلـي شأن الامانـة ، تشجب الكذب والخيانة ، ترفع كلمة الحق ، تأمـر بحمايـة الضعيف ، ولا تقر عبـادة او عبودية الا لله العلـي القديـر اللطيف .

ومما قاله فى القرآن جيمس متشنر : ان القلوب تخشع عند سماعه وتزداد ايمانا بسمو اهدافه النبيلة الانسانية وكثيرا ما قطعت اوزانه بدقـات الطبـول واصداء الطبيعـة .

ويقول جوته الفيلسوف الالماني : **ان تعاليـم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية .**

واخيرا يعترف جميع دارسيه بانـه ليس بين المسائل العلمية المنكشفة حديثا مسالة تتعارض مـع الآيات القرآنية **فالانسجام تام بين تعاليـم القـرآن والقوانيـن الطبيعيـة .**

ويقول ستشلدريـك الحكيـم الالمانـي : ليس **القـرآن** كتاب دين فحسب ، بل هو **اعظـم هاد الى سعادة الفرد والمجتمـع** ، وقـد اثر فى نفسي من اول ما اطلعت عليه ، مع انني قرأته مترجما ، لم تستوعب الترجمة روائـع معانيـه .

ولا غرابة بعد ذلك ان يؤمن كثير من العظمـاء بالقرآن وبالاسلام او يتظاهرون بذلك لغايات وياتي فى مقدمة هؤلاء نابليون الذي شعر بمكانة القرآن واثـره العظيم فكان يفتتح كثيرا مـن مراسلاتـه باسم الله الرحمن الرحيم كما جاء فى رسالته التي وجههـا الى شعب مصر ، وان يسمي نفسه فيها الشيخ الكبيـر وان يصغي الى السيرة النبوية تقرأ ليلة المولـد في الجامـع الازهـر (15) .

لقد انكر صدق ايمان نابليون برسالة القـرآن الخالدة المؤرخون الفرنسيون واثبتها مؤرخر الانجليز وينقل عن لانفري نقله عن نابليون قوله : لقد كتب لـي منذ بدء العالـم ان لا اخدع ولا اخدع بـل لاثبت ان القرآن الكريم تنبأ عما كان وعما سيكون .

وسواء اكان نابليون ومن هم على شاكلته متحلين بالايمان بتعاليم القرآن ايمانا حقيقيا او ايمانا يقصدون بـه خداع الناس فان ذلك يبين فى كلتا الحالتين عظمة القرآن واثره الكبير فى نفوس من اطلـع عليه ووعـى معانيه من عظماء الانسـان .

اما اثر القرآن فى تخليد العرب فامر اكيد وحدث عظيم حتى انني لا اتردد فى القول بانه لولا القرءان لما وجد العرب الآن .

ايها القاريء الكريم : لك ان تتهمني بما تشاء اذا لم تعجبك كلماتي ، فتزعم ان تراثا دينيا اثر فى ضميري ووجداني وان ايمانا قويا شغل جناني فانطق لساني ، وان كلماتي وليدة عاطفة دينية ، لم تحـررها حيـاة جامعية عربية وغربية ولا عقل يدعو الى تفكير عميـق ورويـة .

حنانيك ايها القاريء الكريم : تعال الي بعـد ان تجرد نفسك عن كل رأي غشوم ، وقارن معي بين الامم الغربية والامة العربية ، وابحث معي عن تباعد شعوب الامم اللاتينية وتداني شعوب الامة العربيـة وتساءل معي الم يكن اللاتين عبر التاريخ امة واحـدة ؟ لـم انقسموا فى سالف الزمان الـى فرنسيين وطليـان وبرتغاليين ، واسبان ، الم يكن العامل الاكبـر فى ذلك اللهجة اللاتينية الخاصة بكل قطر من هذه الاقطـار ، تلك اللهجة التي تطورت مع الزمان فخلفت قوما خاصا بهـا فى كـل مكـان .

تأمل معي يا اخي الكريم فى لهجتنا الاقليميـة افلم تكن معرضة لما تعرضت اليه اللهجـات اللاتينية ؟ كم اتمنى يا اخي القاريء ان تستمـع الى اسبانـي وبرتغالي يتكلمان ، انك لو فعلت او قدر لك ان تفعـل ذلك ؛ لرايت بينهما من التقارب والتداني ، ما هو اكثر من تقارب العربية المحكية بين اقليم واقليم . فمـا السبب الذي باعد بينهما فجعلهما قومين ؟ وما السبب

---

15) : راجع تفصيل ما نشر عن ذلك فى الاعداد 55 ، 56 ، 59 من مجلة العرب .

الذي قارب بين التونسي والفلسطيني والمصري واليمني والجزائري والاردني والليبي والمغربي فجعل من السكان فى كل هذه الاقاليم اخوانا يرجعون فى لغتهم الاصيلة الى نفس اللسان ويهتدون بهدي لغة واحدة هي لغة القرآن . اذن **ان القرآن موحدهم وجامع شملهم** ولولاه لكانوا امما مختلفة واقواما مختلفي اللسان ، ولعلك تدرك بعد ذلك لم استمات الاستعمار فى تشجيع اللهجات المحلية وتشجيع العرب على التاليف فيها املا منه أن ينتزع بعض القوة من هذا السياج القدسي ، ذلك القرآن المبين الذي تسور العرب به فحماهم من الزوال وكتب لهم الخلود مهما تبدلت الاحوال فى هذا الوجود .

ما ذا عسى يكون شان العرب لولا القرآن ، لقد حكمهم العثمانيون اكثر من ستمائة عام ، كان جزء واحد منها كافيا لتبديل امم بامم واقوام باقوام ؛ اين الرومان ؟ اين الآشوريون ؟ اين البابليون ؟ اين الفينقيون ؟ اين الفراعنة ؟ انها امم واقوام كانت فى هذه البلاد ثم اندثرت ولولا معالمها الباقية لطواها النسيان. مع ان هذه الامم لم تتعرض للنكبات التي تعرض لها العرب ومع ذلك فما زال العرب موجودين ، وسوف يبقون خالدين ، يحميهم القرآن وينبههم الى ما يلحق بهم الذل والهوان ويدعوهم الى نبذ الظلم ، وتعميم الرحمة ومقاومة الطغيان ، انهم حملة رسالته الازلية ، الرسالة الخالدة الحق وسدنة تعاليمه الابدية ، فهم باقون ما بقي القرآن .

وهكذا فان **العرب امة خلدها القرآن فرفع شانها فى كل مكان .**

2) ان شعوركل فرد فى اي بلد عربي هو ان يعطي للغة العربية اسمى مكان ؛ ونقصد اللغة الفصحى التي يتفاهم العرب بها مهما اختلفت ديارهم وتباعدت اقطارهم لانها اصدق رمز لعبقرية الشعب العربي وتراثه الروحي وقيمه الخالدة . ولو رجعنا الى اللغات العامية في البلاد العربية ، لرأينا انها ليست سوى اشكال وصيغ محرفة ، مختصرة او مختزلة لتعابير اللغة الام تحورت قليلا او كثيرا ، وكل هذه الاشكال والصيغ ترد ، عند الاقتضاء الى اصلها الفصيح .

واما الذين يقولون بابدال اللغة العربية باللغة العامية فهم اناس مغرضون او خائروا العزيمة كسولون او مقلدون او اجراء دعاية اجنبية حاولت بشتى الصور زعزعة مكانة القرآن فى حفظ العربية والعرب وتخليدهما .

لقد رأى العرب من المحن والنكبات ما لا يطيح بلغتهم فحسب بل وبهم ايضا لولا القرآن وحمايته للغة وللعرب ، فهو حارسهما الامين وهاديهما الى الصراط المستقيم اذا ضل بالعرب السبيل عن الطريق القويم .

ويطيب لي ان الحق بموضوع اللغة العربية ابحاثا تتعلق باعتبار اللغة العربية لغة التدريس سواء فى الجامعة او فى غيرها .

يثير البعض بين الفينة والفينة آراء يزعمون انها تعبر عن راي الكثيرين تتهم اللغة العربية بالعجز عن استيعاب مصطلحات العلم الحديث .

لا يقول بهذا القول الا حفنة من اناس درسوا هذه القضية دراسة سطحية فسطروا حصيلة دراستهم فى تقاريرهم او فى الصحف او المجلات ، ولدى البحث لا بل التحدي تبين انهم افراد ، اصحاب غايات ، او جاهلون بما تحمله العربية ، سيدة اللغات من سعة فى النحت والتركيب ، والمفردات والتعريب ، تجعلها قادرة على استيعاب ما فى العلوم جميعها من تعابير ومصطلحات .

هذا واذا كنا نواخذ الغريب عن اللغة العربية فى طعنها بمثل هذه المفتريات فنرى ان ازدراءها من قبل مواطنين وادعاءهم عجزها عن مسايرة التقدم العلمي امر يصح نعته بالعجب العجاب .

ان اللغة العربية لغة رسمية فى بلاد شاسعة عظيمة تشمل ارجاء واسعة فى قارتين عظيمتين وانها موضع احترام وتقدير واعجاب لدى شعوب تعد مئات الملايين . ان تاريخ اللغة العربية لينبذ فكرة اتهامها بالعجز وان ماضي الحضارة العربية ليأنف من هذا الاتجاه وان عمل كلية الطب الرائد فى دمشق وعمل غيرها من كليات جامعة دمشق ليدحض الادعاء بعجز اللغة العربية عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة كما ان انتشارها الواسع وتقدير مقامها الرفيع في كرتنا الارضية ليحتم علينا الاستفادة من قيمها التي لاتحاكيها فيها لغات تنافسها فى الذيوع والانتشار ولكن ليس لها من الاصالة ما للغة العربية . وهذا ما حدا باليونسكو الى اعتبار **العربية لغة رسمية** بين لغات هذه المنظمة العالمية .

موقف العرب فى المشرق والمغرب من اللغة العربية كما اراه : يختلف ذلك ، فمنهم المواطنون العرب في سورية ، فانه لايرمي اللغة العربية فيها بالعجز واحد منهم الا امكن رد قوله الى نقص فى الكفاءة اللغوية لان القائل به فى الغالب خريج مدارس اجنبية ، ضعيف باللغة العربية ان لم يكن جاهلا بها تماما على ان هذه الفئة لو كلف افرادها انفسهم بعض العناء فى التعرف على لغة بلادهم لتذوقوها وعادوا من انصار التدريس بها ولقنعوا بخصبها .

اما المواطنون فى البلاد العربية الاخرى فيختلف موقفهم عن موقف العرب السوريين ، ففي لبنان قناعة تامة بمقدرة اللغة العربية على الاستيعاب ولكن موقفهم من اللغة وان كان موقف تأييد قوي ولكن نظرا لوجود كليتي طب تدرسان بلغة اجنبية وعدم حاجة لبنان في الوقت الحاضر الى كلية طب ثالثة تجعل موقفه المؤيد غير مدعوم باندفاع يتولد عادة من شدة الحاجة . وهذا ما لم يقع فيه لبنان لكثرة عدد الاطباء فيه بالنسبة الى البلاد العربية الاخرى ، ومع ذلك فهناك الجامعة العربية فى لبنان التي تدرس بالعربية كما ان لبنان يظهر تمسكه باللغة العربية فى كل ناحية من نواحي تقدمه وازدهاره .

اما فى الاردن وفي السعودية والكويت فالولاء للغة العربية شديد والكليات التي تقام او ستقام فى تلك البلاد لاترضى عن اللغة العربية حسب تخميني بديلا الا اذا كانت الكلية كلية لغات طبعا . اما فى مصر والعراق والجزائر وتونس وليبيا وغيرها من بلاد المغرب فالامر يختلف عما هو عليه فى سوريا . فلقد وجدت فى بعضها كليات فرض التدريس فيها بلغة انكليزية او فرنسية فنتج من ذلك وجود هيئة مدرسة الفت التدريس بتلك اللغة واخذ فريق منها يلقن نفسه تلقائيا عدم استطاعة اللغة العربية لمسايرة الركب العلمي فأصبح خصما للتدريس بها عاجزا عن الافلات من الاغلال التي قيد بها نفسه ، والعقدة التي لم يحاول حلها بل اخذ ينفث ، زيادة فى تعقيدها ، انها خصومة غريبة وامرها عجيب لانها ليست وليدة سوء نية او انحراف قصد ، انها خصومة لا شعورية ترتد الى الخوف من التجربة او الى الجهل باللغة او الى انانية مفرطة حالت دون تضحية الخصم البريء للغة بالوقت اللازم لسد نقائصه فى معرفة لغة بلاده ، او التوسع فيها او نبش كنوزها او الى تقزز اعتراه من التمادي فى المزايدة والمناقصة بهذا الموضوع وفقدان التنسيق فيه ، على ان فريقا آخر يضم الاكثرية جرب فنجح وعاد من انصار التدريس باللغة العربية او وقف ينتظر عملا حاسما تقوم به جهات مسئولة عربية تضع الامر فى نصابها وتزيل البلبلة التي لحقت بالمصطلحات واختلاف الآراء فى صلاحها وتفضيل بعضها على بعض .

وفي كل حال ان الحركة العلمية تتمخض فى البلاد العربية لاحلال اللغة العربية محل اللغات الاجنبية انى وجدت .

اما عن تشجيع الاجنبي العرب على عزوفهم عن التدريس بلغة بلادهم فأمر طبيعي بالنسبة له ومقاومة رغبته امر طبيعي بالنسبة لنا . انني لا اشك مطلقا في تشجيع الغرب المستعمر على مقاومة اللغة العربية ودليلي المقاومة العنيفة التي لقيتها اللغة العربية يوم تسلط الاجنبي على مصر ، فلقد كانت لغة التدريس فى مدرسة ابي زعبل ــ قصر العيني فيما بعد ــ أول كلية طب وجدت فى مصر فاتقن اساتذتها الاجانب اللغة العربية والفوا فيها وتحمسوا لها ، وكانت مصر فى تلك الفترة سيدة نفسها ، وما ان تبدل الحال وتسلط الاجنبي عليها حتى راى ــ الاجنبي ــ فى دعم اللغة العربية ما يهدد كيانه ، فاحكم الخطة لتبديل اللغة وسط مقاومة عنيفة انتصر فيها للغة الرجال والنساء من العلماء والادباء .

وما ان تولى زمام ادارة الكلية الطبية فى مصر مديرون اجانب حتى جعلوها بريطانية انكليزية اكثر مما هي عربية مصرية ، فعاد التدريس باللغة الانكليزية مبدأ قنع به بعض الاطباء المصريين حتى عهد قريب . ولقد انقلبت الآية الآن وسوف لاتمضي سوى سنوات معدودات حتى تصبح لغة التدريس العالي فى مصر عربية وكذلك الامر فى العراق .

اما عن التقزز الذي اعترى المخلصين من فوضى المصطلحات باللغة العربية فلا بد من ايجاد حل له ويخيل الي أن ذلك من كبريات اهداف المكتب الدائم لتنسيق التعريب .

ما هي **ازمة المصطلحات العلمية العربية** ولا سيما الطبية منها وما هي قضيتها ؟

صاحبت قضية المصطلحات العربية فى الطب والصيدلة اليقظة الفكرية فى البلاد العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر ، والغريب فى الامر انها بدت بسيطة واخذت تتعقد حينا بعد حين ، حتى جعلها كثرة البحث فيها محاطة بالاشواك لا يمد لها الباحث يده

كتابخانه

دون أن يجد ما يخزه منها مع أن تبسيطها يسير اذا صحت النية وحسن التخطيط وابتعد عن التفاصح وابعدت اللجان العديدة وعهد بالامر الى أيد محدودة .

قلت انها بدت بسيطة ، لان مدرسة قصر العيني استطاعت بعدد محدود جدا من المترجمين ، وبنخبة ممتازة من رجال اللغة الذين احسن اختيارهم ليكونوا مصححين او مراجعين فاخلصوا النية وعقدوا العزيمة فساهموا فى تهذيب اللغة فى عدد من الكتب نشرت بالآلاف ، تعد فى زمانها اذا ما قورنت بمثيلاتها من الكتب الغربية معادلة لها اتقانا فى الطبع ، وحسنا في الايضاح ، وبساطة فى اللغة مع فصاحة حقيقية .

وكان جهد أساتذة الكلية الاميركية الاول في بيروت ايضا موفقا فى انتقاء المصطلحات العربية ، فقد كان لفان ديك ولابنه ولور تبات معرفة بدخائل اللغة العربية وتعمق فيها وولع بها يحاكي ولع اللغويين من ابنائها الذين عاشروهم وصادقوهم وتتلمذوا عليهم لا بل عايشوهم معايشة كاملة . وهكذا وضع هؤلاء الاساتذة كتبا باللغة العربية زودوها بالمصطلحات اللازمة .

ثم جاءت بعدئذ كلية الطب بدمشق فاحتضنت اللغة العربية العلمية وانحت باللائمة على الجاحدين بها وكأنها خاطبتهم بقولها : نسبوا اليك العجز عن الابداء ، والتقصير عن الافهام ، وما انت العاجزة القاصرة ، وانما هم العاجزون القاصرون ، ليتهم احبوك عشر ما احبك البيروني الفارسي الاصل الذي يؤثر عنه قوله : انه لاحب الي ان اهجى بالعربية من ان امدح بالفارسية .

لقد نمت اللغة العربية فيما مضى من الزمن ، بالاشتقاق والمجاز والتعريب والنحت والتركيب افليس من الممكن أن تنمو اليوم بعد تطور العلوم بهذه الوسائل نفسها ؟

لقد خدمت المجامع العلمية اللغوية فى بلاد العرب اللغة العلمية خدمة تذكر ، على ان نقاد هذه المجامع من اعضائها وغيرهم يرون ان خدمتها اللغة العلمية ومنها الطبية لا تتناسب مع كفاءة العاملين فيها وما خصص لها من موازنات مالية واسعة وما تستطيع أن تعمله لو وضعت تخطيطا تباشره وتنفذه . واننا على ضوء اختباراتنا فى كلية الطب بدمشق وبحوثنا الشخصية نسمح لانفسنا بالقول ان اكثر ما وضع من الالفاظ صالح لا غبار عليه وقد فرضه استمرار استعماله . ولا يعني ذلك عدم جواز تبديله اذا وجد ما هو اصلح منه ، فان بين الالفاظ الموضوعة ما لا بد من تبديله كما ان هنالك اعدادا ضخمة من التعابير الحديثة والالفاظ الجديدة تحتم اللجوء الى التعريب والتركيب لوضع ما يقال بها ، على ان يكون التعريب منسجما مع الذوق العربي وان تكون نتيجة التركيب غير نابية عن الاسماع ، لاتبعد الكلمة المركبة عن اصلها أو اصولها فان لم يتحقق ذلك فيها جاءت عبئا جديدا على النشء واللغة .

ويبدو لي ان تنفيذ الاقتراحات الآتية يساعد على حل ازمة المصطلحات وشطط التفاصح فيها :

آ ـ : تاليف لجنة من عدد محدود من المشتغلين بالمصطلحات الطبية وتوحيدها على ان ترتبط بجامعة الدول العربية .

ب ـ : تعتمد هذه اللجنة المعاجم الطبية التي سبق وجودها فى البلاد العربية .

ج ـ : يطلب من المؤلفين فى العلوم الطبية فى البلاد العربية التقيد بما جاء فيهما من الفاظ عدا المركبة منها التي اشتط بعضهم فيها شططا ابعدها عن الذوق العربي وجعلها فى نظرنا نابية كريهة وعبئا على اللغة العلمية والعربية معا .

على اننا لانقصد بذلك اغلاق الباب دون استعمال المؤلفين كلمات افضل مما جاءت فى المعاجم الموجودة لان عددا من الكلمات الواردة فيها جديرة بالنقد وفي اللغة ما هو اصلح منها .

د ـ : لا بد للجنة فى نظرنا من الاستعانة بالتنقيط او بالاشارات لتيسير لفظ بعض الكلمات التي شاع استعمالها وذاعت معرفتها بين جميع الناس بحيث لايمكن لكلمة اخرى أن تحل محلها ، ونقصد بالتنقيط والاشارات اضافة نقطتين على حرف (ف) لضمان النطق بحرف V الافرنجي واضافة نقطتين على حرف (ب) لضمان النطق بحرف P الافرنجي وزيادة خط على حرف (ك) لضمان النطق بحرف G الافرنجي فى بعض تراكيبه .

ان الاجماع على تنفيذ اقتراح من هذا القبيل يسمح لنا بتعريب كلمات عالمية ذائعة الشهرة مثل كلمة الفيتامين واللفظ بها كما يجب ، تلك الكلمة التي لايعدلها ما اقترح لها من ترجمة سواء كانت الكلمة المقترحة هي محرضات ام حافزات ام كلمة

حيمينات (16) التي لم تصحح الخطأ مع بعدها عما اصبح ذائعا ومألوفا واعني بذلك كلمة الفيتامين التي عاد الباعة المتجولون ينادون بها ، وقس على هذه الكلمة عددا كبيرا من الكلمات العالمية التي ينقذنا استعمالها من البحث عن بديل لها لا يمكن أن يعدلها بوجه من الوجوه .

هـ ـ : تضع اللجنة معجما جديدا للمصطلحات تجدد طبعه حينا بعد حين وتثبت فى كل طبعة جديدة جميع المصطلحات الحديثة كما تبدل فيه الكلمات التي ثبت وجود ما هو افضل منها وتضمنه الكلمات التي ولجت باب العلم من جديد واقترحت لها مصطلحات مناسبة .

و ـ : على جميع المؤلفين فى الموضوعات العلمية التي توفرت معاجمها الجديدة أن يتقيدوا بها وأن يلحقوا بكتبهم العلمية الجديدة معجما يبين الكلمات التي يرون تبديلها مذيلة بشروح تبرر أفضليتها لتستطيع لجنة عليا للمصطلحات دراستها وتقرر رفضها أو قبولها باثباتها فى طبعات المعجم المقبلة .

ز ـ : تؤلف لجنة فرعية فى كل بلد عربي تساعد اللجنة العليا بعملها وتجمع لها عناصر المواضيع التي تبحثها فى مؤتمرات سنوية .

ح ـ : تعقد مؤتمرات سنوية باشراف اللجنة العليا يحضرها مندوبون عن كل لجنة فرعية .

ط ـ : يوسع نطاق الجامعة العربية الثقافي الممثل فى صدد التعريب بالمكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الرباط فتؤلف فيها لجان للمصطلحات العلمية تسير فى عملها على هدي لجنة المصطلحات الطبية وتوحيدها ، اما أن يترك الحبل على الغارب ليتصرف كل مؤلف على هواه دون الرجوع الى مرجع اعلى أو الى معجم معتمد يعاد طبعه المرة تلو المرة فامر يحدث بلبلة بدانا نشعر بها اليوم ، فقد كثر المشتغلون باللغة العلمية وزادت الاصطلاحات واخذ العلم يبثنا فى كل يوم بالجديد منها ، واخذت لغة العلم المعربة تتدهور وبتنا نميل الى الاعتقاد بأن **التاليف العلمي الذي لا يتقيد بتنسيق لغوي عامل فى بلبلة اللغة .**

لقد اتخذت خطوات ايجابية فى موضوع التعريب في اقطار العروبة ابرزها :

1 ـ : جهود الاتحاد العلمي العربي .

2 ـ : جهود المجلس الاعلى للعلوم .

3 ـ : جهود مؤتمر التعريب ومكتبه الدائم بالرباط .

4 ـ : جهود مجامع اللغة والجامعات يضاف الى ذلك جهود الجمعيات والهيئات والافراد في كل بلد عربي .

ويحلو لي اكمالا للبحث ان اذكر بعض المحاذير التي تنجم من التدريس بلغة اجنبية . انني لا اتناول البحث عن المحاذير القومية فى اقرار التدريس بلغة اجنبية محل اللغة العربية لان ذلك مسلم به واكتفي بالبحث عن بعض المحاذير العلمية العظيمة الشأن . لقد بينا فى كلماتنا السابقة استطاعة اللغة العربية استيعاب المستحدثات العلمية الجديدة وانه من السخف المستهجن ان نشذ عما سارت عليه اكثر دول العالم الصغيرة والكبيرة منها باحترام اللغة الوطنية والعمل على التدريس بها . ولو فرضنا جدلا أن هنالك منفعة في التدريس بلغة اجنبية فما هي اللغة المفضلة : اهي الانكليزية أم الروسية أم الفرنسية ام الصينية ؟ فاذا قيل ان اللغة الانكليزية سيدة لغات العلم اليوم فقد نافستها على هذه السيادة اللغة الروسية وها أن اللغة الفرنسية سائرة فى اتجاه الدخول فى حلبة المتسابقين على هذه المنافسة ، وقد يجيء يوم تستعيد فيه اللغة الالمانية مكانتها او تسمو اللغة الصينية فتجدد ماضيها الحضاري البعيد . زد على ذلك أن فى جعل التدريس بلغة اجنبية ما يحتم ايجاد جيل من المدرسين يتقن تلك اللغة وهذا غير واقعنا ، فبعثاتنا منتشرة فى العالم ومن طلابنا من يدرسون بالفرنسية وبالبلغارية وبالبولونية والروسية والانكليزية والالمانية وغير ذلك من لغات العالم .

وانه لمن السهل الاستفادة من هؤلاء جميعا وكفاءاتهم والحاقهم بالتدريس العالي اذا كان التدريس لغته عربية ، والا فيضيق نطاق الفائدة منهم وقد ينعدم فى موضوع التعليم .

ان هذه الملاحظات كلها مضافة الى العوامل القومية تحتم علينا محاربة التدريس بلغة اجنبية ، روسية كانت أم انكليزية ام صينية ، وتدعونا الى دعم التدريس باللغة العربية وعدم السماح بأن تحل لغة اخرى محلها فى التعليم العالي .

---

16) : لا يخفى أن الفيتامينات ركبت من كلمتين فيتاس ومعناه الحياة واسيد آمينة ومعناها الحوامض الامينية مع انه تبين خطأ هذه التسمية فان الفيتامينات لا صلة لها بالحوامض الامينية .

يتضح مما أسلفناه أن الدعوى بعجز اللغة العربية عن استيعاب المصطلحات الحديثة زائفة ترتد الى جهل باللغة العربية وخور فى العزيمة عن دراستها أو الى مادية تصرف عن تخصيص بعض الوقت لتعلم العربية وتحضير الدروس فيها . الا اننا لانعني بذلك امكان اكتفاء الطلاب العرب بلغة العرب فقط ، بل لا بد لهم من أن يتمرسوا على دراسة العلوم بلغة اجنبية ليستطيعوا متابعة الدرس بعد التخرج ، وهذا ما تبنته كلية الطب بدمشق وهو الحرص على التدريس باللغة العربية مع السعي الى معرفة الطالب باللغة الاجنبية . ان الكتب التي وضعها اساتذة الطب ، والمقالات التي نشروها والمحاضرات التي القوها وفرت للطالب الاطلاع على المستحدثات العلمية أثناء دراسته فى كلية الطب ، ولكن الذي يضمن للطالب استمرار النظر فيما استحدث من نظريات وعمليات وآراء وخبرات يتوقف عليها قيامه بعمله العلمي على اكمل وجه ، هو أن يكون عارفا بلغة اجنبية تساعد على تثقيفه بعد التخرج في معاهد اختصت بذلك أو يعينه على التعرف بالمستحدثات فى المجلات التي يستطيع الرجوع اليها . فما هي سبل تعليمه اللغة الاجنبية ؟

الواقع ان حل هذه المشكلة يجب أن يهيأ له قبل الدراسة الجامعية واثناءها ، وقد انتبهت الى ذلك وزارة التربية والتعليم فى سوريا فجعلت دراسة اللغة الاجنبية واجبة بعد الدراسة الابتدائية وزادت من عدد ساعاتها وهي ساعية الى ان تجعل **سلم علامات اللغة الاجنبية عالي الدرجات** وفى ذلك كله ضمان للتقدم العلمي عند الشباب الجامعي فى مستقبله . ولكن لا بد فى كل حال من حلول موقتة ، فقد وضعت جامعة دمشق وخاصة كلية الطب فيها حلولا لم يبلغ واحد منها الهدف المرجو منه ، اذ جاءت النتائج بعيدة عن نيل الارب ولقد تمثلت الحلول باساليب مختلفة ، منها تدريس اللغة الاجنبية كمادة دراسية من قبل اساتذة خبراء باللغة غير فنيين . وقد جابه هؤلاء الاساتذة طلابا ذوي كفاءات لغوية مختلفة ، فمنهم الخبيرون باللغة ومنهم من ضعفوا ضعفا تختلف درجاته . فساروا بسير الاضعف كما يقضي بذلك المنطق ، فاهمل الطالب الخبير دروس اللغة الاجنبية وعاد عنصر شغب فيها حتى انقلبت بعض الدروس الى مهازل مضحكة مبكية . على أن الضعفاء فى اللغة الاجنبية انفسهم لم يعيروا أي اهتمام للدروس اللغوية . لقد رغبوها لغة شاملة لمفردات علمية فاذا هي بعيدة عنها ، لذلك استعيض عن الاساتذة غير الفنيين باساتذة فنيين حاولوا افادة طلاب استضعفوا العناية باللغة الاجنبية واهملوها فكانت نتائج تدريسهم افضل ولكنها بعيدة عن بلوغ الهدف . وقد لجأ بعض الاساتذة الى تدريس جزء يسير من الابحاث بلغة اجنبية ، فلم يشجعوا على الاستمرار ، على ان لهذه الطريقة محذورا كبيرا هي ترغيب الطلاب عن اللغة العربية بدلا من ترغيبهم فيها .

وقد ادلونا بدلونا بين الدلاء فوضعنا الى جانب كتابنا العربي فى الجنين تذكرة معجمية له باللغات الثلاث : العربية ، والانكليزية ، والفرنسية ، فاقبل الطلاب عليها سواء كانوا خبيرين بلغة اجنبية او غير خبيرين بها ، ذلك لانهم وجدوا فيها ضالتهم ، وقد حفظها الكثيرون منهم عن ظهر قلب ، واطلعنا بعض الاساتذة على عملنا فحبذوه وتحمسوا له . ويخيل الينا ان الطريقة التي اتبعناها تضطر الاستاذ لتلخيص المعلومات باللغة العربية جهد المستطاع ، وهذا ما يتلهف اليه الطالب بشوق وحسرة اذ يسهل عليه دروس المادة مكثفة ايام الفحص بينما يدرسها موسعة اثناء الدراسة كما أن ذلك يزوده بخلاصة اجنبية وعربية عن المقرر يتفهمهما على ان هذه الخلاصات تنفع ايضا الطالب الخبير باللغة الاجنبية اذ يجد فيها زبدة مركزة تساعد على تعرفه باللغة الاجنبية العلمية فيالفها الفة واجبة لا غنى له عنها اذ بدونها لايستفيد الطالب من اللغة الاجنبية التي يتقنها ، ذلك لان للغة العلمية طابعا خاصا لا بد من تمرين الطالب الخبير باللغة الاجنبية عليه والتمرس فيه حتى يستطيع فهم الابحاث العلمية وما جد عليها فى اللغة المذكورة .

ولقد جربنا ذلك مع فئة من طلابنا الخبيرين المتقنين لاحدى اللغتين الانكليزية والفرنسية بأن عرضنا عليهم كتبا باللغتين المذكورتين وطالبناهم بترجمة بعض نصوصها الى العربية فتعثرت خطاهم وكأنهم لا صلة لهم باحدى اللغتين المذكورتين . وقد عكسنا الآية فطالبناهم بترجمة نصوص علمية من العربية الى الانكليزية او الفرنسية فظهر ارتباكهم ايضا . على أن دراسة هؤلاء الطلاب لخلاصات بلغة عربية واجنبية يخلق انسجاما بين لغتهم واللغة الاجنبية التي تعلموها واللغة العلمية الاجنبية التي لم يألفوها ، ومتى وجد هذا الانسجام تم الحصول على المقصود . وهكذا فان وضع خلاصات بلغة اجنبية للكتب المؤلفة باللغة العربية ييسر على الطالب الجاهل باللغة الاجنبية متابعة البحث بها بعد حين او الافادة منها بعد تخرجه كما انه يعلم الطالب الخبير باللغة الاجنبية لغتها العلمية فى الكتب والمجلات الاجنبية فيفهمها ويستسيغها .

العربية مدينة ببقائها وخلودها إلى الإسلام غير أن ارتباطها بالتراث أصبح الآن أوثق من ارتباطها بالدين

بقلم الدكتور عمر الدقاق
وكيل كلية اللغات بجامعة حلب

ورد فى تاريخ ابن عساكر الحديث النبوى التالى للرسول محمدعليه السلام: «ياايهاالناس انالرب واحد، والاب واحد وليست العربية فى احدكم من اب ولا ام ، وانما هي عربية اللسان ، **فمن تكلم بالعربية فهو عربي** » . وهذا الحديث ينطوى على راي قيم ونظر سديد فى موضوع التشابك بين اللغة العربية والدين الاسلامى . وهو ينسجم من جهة اخرى مع النظرية الحديثة للقومية التى تجعل **رابطة اللغة فى راس مقومات الامة** . والجدير بالذكر ان هذا الحديث النبوى كان فى الواقع محاولة لتفسير وضع جديد واجهه العرب للمرة الاولى ، وهو اشتراك العرب وغير العرب فى العقيدة الاسلامية الجديدة . وكان ذلك من الرسول ردا على تساؤل الصحابة عن مدى عروبة سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى .

وما من ريب فى ان حال اللغة العربية من هذه الزاوية: زاوية ارتباطها بالاسلام وانتشارها بانتشاره وانحسارها بانحساره ظاهرة فريدة بين اللغات . **فالاسلام فى فجر عهده وضحاه لم يحمل الى معتنقيه من الشعوب لغة القرآن ولسان العرب فحسب بل حمل اليهم فوق ذلك قيما حضارية ومثلا فكرية** تعدت نطاق العقائد والعبادات الى مظاهر العمل والسلوك . وقد نجم عن ذلك كله اخذ وعطاء وتفاعل حي بين ثقافة العرب والثقافات الاخرى التى تعانقت جميعا فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

وهكذا غدت **العربية** فى العصور الوسطى **اللغة السائدة فى المضمار العلمى والحضارى** ، اذ وسعت معارف العرب وسائر المسلمين واكتسبت بذلك غنى واقتدارا ومضاء .

وان التلاحم الذى حدث قديما بين العربية والاسلام كان ذا فائدة متبادلة لهما كليهما ، مما ادى الى تفاعل خلاق . على ان **اللغة العربية** ـ فى رايي ـ **افادت من الاسلام اكثر مما افاد الاسلام من العربية.** ونحن هنا نتجاوز عن الغرم الذى لحق بالعربية نتيجة اعتناق غير العرب للعقيدة الاسلامية مما ادى الى فشو اللحن فيها فى وقت مبكر وانتشاره على نطاق واسع . فهذا الغرم ظاهرة طبيعية فى لغة تنطلق وراء حدود موطنها وهى ضريبة الذيوع والانتشار . ان كون القرآن عربيا والرسول محمد عربيا وان عقيدة الاسلام انبثقت فى ارض العرب وحملها العرب الى الناس كافة .. بالاضافة الى ان العربية كانت لغة الفاتحين تمتد تبعا لازدياد نفوذ المسلمين فى ارجاء الارض .. كل ذلك جعل من **العربية** قديما **لغة عالمية** ومكنها من ان تكون **وعاء لحضارة اسلامية غنية** وشاملة ومتعددة الجوانب ، كما غدت فضلا عن ذلك موضع تقديس المسلمين كافة على اختلاف قومياتهم. ولهذا اصبحت لغة العرب وآدابها موضع عناية سامية من قبل اولئك المسلمين بحيث غدت مدينة فى قدر كبير من ازدهارها الى جهودهم المباركة . ونجم عن ذلك ايضا انه بالحروف العربية كتبت اللغة التركية وما تزال تكتب الفارسية والملايوية والاوردية ، كما ان تراث العربية ما زال يحظى حتى يومنا هذا بعناية بالغة فى الهند وباكستان واندونيسيا وايران والافغان .

ولو افترضنا جدلا ان القرآن كان قد نـزل باللغة الفارسية على رجل من الفرس وحمله الاعاجم الى سائر الامم لما تغيرت النتائج كثيرا فى راينا . لان العقائد والمذاهب والافكار لا تنتشر او تنحسـر تبعا لتبنيها لغة دون لغة ، وانبثاق دعاتها فى قوم دون قوم . على حين يبدو جليا انه **لولا ذلك الترابط التاريخى الوثيق بين العربية والاسلام لبقيت لغة الضاد لغة قومية فحسب ،** شانها فى ذلك شان لغات سائر الامم فى عصرها ، ولظلت محصـورة داخـل نطـاق المتكلمين بها ، ولما اتيح لها ان **تتجاوز فلكها الطبيعى الى الآفاق الرحيبة بصورة فذة ليس لها نظيـر فى تاريخ الانسانية .**

ولابد من القول ان **العربية مدينة ببقائها وخلودها الى الاسلام ،** وبتعبير اخص الى القرآن ، اذ لولاه لكان مصيرها مختلفا ، وربما كانت لهجاتها قـد تمايـزت وتباعدت او انزوت واندثرت على غرار ما حدث لكثير من اللغات ومنها اللاتينية ، ومنها ايضا اليونانيـة الحديثة التى غدت مباينة ليونانية هو ميروس الى حد كبير . بل اننى اجنح الى ابعـد من ذلـك فارى ان **بقاء العربية لغة واحدة حية متماسكة بفضل القرآن هو الذى حافظ على وحدة الامة العربية وعصمها من ان تتفتت الى شعوب تبعا لتفتت العربية الى لغات.** ومثل هذا الامر الذى حدث بالنسبة الى الناطقيـن باللاتينية مثلا كان بوسعه ان يحدث على مر العصور بصورة اقوى من وجهة نظر علم الاجتمـاع وعلـم السكان ، وذلك لانتشار العرب على رقعة مكانيـة شاسعة تمتد من المحيط الاطـلسى الى الخليـج العربى . اذ **ليس كاللغة ما يمسك الكيـان القـومى** ويعصمه من الذوبان فى لجة الاقوام الاخرى . وهذا ما يفسر لنا كثيرا من محاولات طمس اللغات القومية لدى الشعوب تمهيدا لاذابتها او امتصاصها على غرار ما كان من خطة الاتراك الاتحاديين فى سياسة التتريك الجائرة تجاه العرب ، او ما كان من سلطات الاحتلال الفرنسى فى محاربة العربية فى الجـزائر امـلا فى دمجها بفرنسة ، اذ الامة التى تحافظ على لغتها تمسك بمفتاح شخصيتها .

على ان هذا الحال من التلاحم بين العربيـة والاسلام لم تعد له هذه النتائج الباهرة التى تحققت فى الماضى . ولابد لنا اليوم من ان نلاحظ التغيـر الذى طرأ على الاوضاع والافكار والمنازع لدى الشعوب فى هذا العصر .

ولعل من ابرز هـذه الظـواهر الحـديثة ان **العامل الدينى فى تكوين الامم ورسم سياستها قـد** تضاءل دوره ، كما سادت نزعة الفصل بين **الديـن** والدولة فى الغرب وسرى هذا الاتجاه الى الشرق ، على حين يبدو جليا وبصورة مطردة تعاظم الشعور القومى وطغيانه على سائر النزعـات مـن دينيـة او امـميـة .

فمع ان العربية ستبقى ابدا وثيقة الاتصـال بالاسلام تبعا لان القرآن ـ كتاب المسلمين ـ عربى، فان **علاقة التلازم هذه بين العربية والاسلام لم تعد علاقة لغة بدين بقدر ما اصبحت علاقـة لغـة بتـراث .** وكان من ابرز مظاهر هذه العلاقة **الاسهام الفعـال للمسيحيين العرب فى اعلاء شان العربيـة** لغتهـم القومية برغم انهم لا يمتـون بسبب الى العقيـدة الاسلامية . وما ذلك الا لان الاسلام بحضارتـه ولغته غدا تراثا اصيـلا يشمـل العـرب كـافة على اختلاف عقائدهم .

ان طموحنا الى اعلاء شان العربيـة ينبغـى ان يتركز فى اطار الوطن العربى ، قبل العالم الاسلامى باعتبارها اللغة القومية وجامعة الشمل والعامـل الاساسى فى وحدة العرب ، وذلك فى العمـل على تضييق الفروق الكبيرة **بيـن لهجـاتها العاميـة المتباعدة ،** وجعل العربية من جهة اخرى امة متطورة غنية بالمصطلحات العلمية المستحدثة تتسع للتعبير عن المنازع المتجددة فى مختلف وجوه النشاط الذهنـى للانسـان المعاصر .

وان الازدياد المطرد لشان العربية فى الوطـن العربى تبعا لتعاظم المشاعر القومية عند العرب يقابله اليوم نفوذ محدود للغة الضاد فى الدول الاسلامية ، وذلك للاسباب نفسها ايضا ، من استقلال الدين عن الدولة ومن غلبة النزعة القومية وبالتالى سيـادة اللغات الوطنية للشعوب الاسلامية . ويبدو مثلا ان **تاثير الفكر الاسلامى فى لغة الاتراك واذهانهم توقف او انحسر** الى حد كبير عما كان عليه من قبل حيـن وضعت العربية مياسمها على التركية وجعلتها مدينة بالفضل اليها . **والعربيـة اليـوم فى سائـر البـلاد الاسلامية مقصورة** الى حد كبيـر على ناحيتـين : الاولى انها لغة العبادة فى الصلاة والاذان ونحوهما ، والثانية انها تحظى باهتمام محدود داخل النطـاق الاكاديمى فى مضمار البحوث والدراسات ، وهذا ما نلمسه جليا فى الباكستان والهند وايران ..

ان اللغة العربية فى الاقطار الاسلامية لا تواجه اللغات القومية فحسب بل تواجه ازدياد نفوذ اللغات الاجنبية الحية فى تلك الاقطار ايضا ، كالانجليزية فى آسيا والفرنسية فى افريقيا . وغالبية المسلمين من غير العرب لا يفقهون شيئا من آيات القرآن اذا تلوها فى المصحف ، بله الذين يقرؤونها خلال طقوس الحج وسائر العبادات بالحروف اللاتينية .

ان العلاقة بين اللغة العربية والعقيدة الاسلامية طرا عليهما اليوم تبدل واضح، فلم تعد علاقة تلازم تقتضى بالضرورة ان يكون ازدهار العربية نتيجة حتمية لتعاظم الوازع الدينى ، او ان خمول هذه اللغة العربية يستلزم حتما اضمحلال الوازع الدينى . وبتعبير آخر ان **العلاقة بين اللغة العربية والاسلام فى طابعها الراهن لم تعد علاقة سببية تبلغ حد التفاعل والتأثير المتبادل** . فعلى الرغم من الترابط بين العربية والاسلام تبعا لجذور تاريخية باقية ومتجددة فانهما **يسيران فى طريقين متوازيين** قد يلتقيان فيتعانقان او يفترقان فيتباعدان ولكنهما بأية حال **لا يتعارضان** .

ان الظاهرة المميزة للاجيال العربية الحديثة تتجلى فى محبتهم المطردة للغة الضاد ، وغيرتهم عليها ، وتفانيهم فى خدمتها ، شأنهم فى ذلك شأن السلف الصالح، مع اختلاف فى طبيعة الحافز بين الامس واليوم . فعلى حين كان الدين وخدمته العامل الفعال فى الاقبال على العربية غدت النزعة الوطنية والعاطفة القومية فى هذا العصر الدافع الرئيسى فى سبيل رفع شأن العربية . وهذا ما يفسر ضآلة مساهمة المسلمين من غير العرب فى مضمار الدراسات العربية بالنسبة الى ما كان عليه حالهم فى سالف العصور وفى مقابل ذلك نلمس ــ منذ فجر النهضة حتى اليوم ــ لدى العرب غير المسلمين وبخاصة فى لبنان وسوريا والمهجر احتفالا كبيرا بالعربية وتراثها .

والحقيقة الساطعة التى تثلج القلب ان **العربية فى ازدهار مطرد** داخل وطنها وبين اهلها مما يبشر بانطلاقها الى آفاق ابعد لا تحد . **فالهوة بين العامية والفصحى آخذة فى الضيق،** وهذا واقع نلمسه لدى مقارنة عامية هذا الجيل فى القطر السورى مثلا بعامية الجيل الذى قبله ، بل ان هذا الفارق ليبدو واضحا بين لغة الآباء ولغة الابناء تحت سقف البيت الواحد ، وذلك بفضل انتشار التعليم على نطاق واسع ، وذيوع اجهزة الاعلام كالصحافة والاذاعة والتلفزة وتغلغلها المطرد فى اوساط الشعب . يضاف الى ذلك ان تجربة التعريب الرائدة فى سوريا خلال نصف قرن مضى من الزمن قد اثبتت نجوعها واتاحت للعربية بفضل فيض المصطلحات العلمية الموضوعة ، وتدريس الطب باللسان العربى ... مزيدا من **الانفتاح على الفكر العالمى** ومنجزات الامم الاخرى . ونحن نلاحظ بثقة واعتزاز **أن لغة الضاد ماضية قدما فى كل يوم لتغدو اللغة الرسمية فى** كثير من المؤسسات العالمية والهيئات الدولية ، ولتتربع بجدارة الى جانب اللغات القليلة السائدة فى ارجاء المعمورة . وان اقرار العربية مؤخرا لغة رسمية فى منطقة اليونسكوالدولية يعد نصرا مبينا فى سلسة انتصارات هذه اللغة العريقة الخالدة .

غير ان **الطريق ما زال شاقا وطويلا امام العربية** حتى تتبوأ المنزلة الرفيعة التى نطمح اليها بين سائر اللغات الحية المتطورة . وما ذلك الا لان **ضعف اللغة رهن بتخلف اهلها** ، وازدهارها منوط بتقدمهم .

ان المرحلة الحضارية الحاضرة التى تعيشها الامة العربية تقتضى منا ان نفتح عينا على لغتنا القومية وعينا اخرى على اللغات الاجنبية السائدة . اما **مبالغتنا فى فضل العربية** ومزاياها الفائقة واشاحة وجوهنا عن مزايا بعض اللغات الاخرى **فنزعة سلبية ضارة** قوامها استعلاء غير واقعى، وقد آن لها ان تنقضى بانقضاء مرحلة تحقيق الذات التى تجاوزها العرب ، لان **مثل هذا الشعور قد يؤدى بفكرنا الى العزلة عن المعطيات الحضارية** لدى سائر الامم . **ان لغتنا على اصالتها وطاقتها الذاتية الخلاقة ما تزال قصيرة الباع متخلفة عن بعض اللغات العالمية فى مضمار العلوم والتكنولوجيا** . كما ان **انصرافنا فى مقابل ذلك عن اللغة العربية** فى هذا المضمار **امتهان لانفسنا** وحكم جائر على لغتنا القومية بالعجز والعقم.

ان غالبية الامم تطمح بداب الى ان تجعل لغتها القومية هى السائدة فى وطنها . وهذه الغاية بالنسبة الينا ضرورة حيوية وحتمية ، لانها تنبع من شعورنا بشخصيتنا وايماننا بحقيقتنا وادراكنا لاصالتنا وثقتنا بلغتنا . غير ان هذا كله ينبغى الا يحول بيننا وبين **الاتكاء على اللغات الاجنبية ما دام هذا الاتكاء ضروريا** لنا فى وصلنا بتطور الانسانية الخلاق . هذه مرحلة قد تطول ، ولكنها لابد ان تبقى فى نظرنا مرحلة ، وان نضع نصب اعيننا ضرورة تجاوزها فى قابل ايامنا الجادة ، حين تستطيع العربية الوقوف على قدميها ، وتغدو الوعاء الرحيب لجميع المنازع الفكرية والمعطيات الحضارية .

العربية معجزة القرآن

وانتشارها من عوامل انتشار الإسلام

للدكتور عبد السلام الترمانيني

كلية الحقوق ـ جامعة حلب ـ سوريا

الاسلام مرتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا ، وهو عامل أساسي من عوامل انتشارها ، ذلك ان القرءان الكريم ، وهو رسالة الاسلام الى الانسانية ، قد نزل بلغة العرب الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته ، ولا يتأتى فهم مقاصده فهما سليما الا عن طريق اللغة العربية .

ان اللغة العربية ليست لغة تعبير فحسب وانما هي الى جانب ذلك لغة ايقاع وتصوير ، وقد كانت معجزة القرءان فى الصور البيانية الرائعة التي صقلت معانيه وجلت مقاصده ، فاستأثرت باحساس العربي وملكت عليه لبه وآمن منقادا لسحرها الحلال ، وهي التي فجرت طاقاته ودفعته الى نشر رسالة الاسلام .

وقد اثار الفتح الاسلامي دهشة الشعوب التي كانت تعيش فى ظل نظم سياسية استبدادية ، وتبدلت فى انظارها صورة العربي التي كانت تعرفه قبل الاسلام، ورات فى سلوكه ودعوته ما حبب اليها الاسلام ، فاسلم منها من اسلم ، وعاش فى ظله من آثر البقاء على دينه . وكان لابد لتلك الشعوب ان تتعلم اللغة العربية لتفهم سر الدعوة الجديدة التي بدلت من مفاهيم الحياة وتستكمل ايمانها بمعرفة مقاصدها . ومن هنا كان الاسلام عاملا اساسيا من عوامل انتشار اللغة العربية.

كذلك كان انتشار اللغة العربية من اسباب انتشار الاسلام ، ذلك لان معرفة هذه اللغة دلت على المعرفة بالقرءان ، باعتباره اصفى مورد من مواردها واعذبه واقربه الى النفس الانسانية ، وقد وجدت فيه كل ضمانات الحياة الحرة الكريمة ، فآمنت بدعوته وانقادت لشريعته .

ونحن لا نحصر الشواهد على ما نقول من واقع بيئتنا التي نعيش فيها وانما نستمد الشواهد من جميع البلاد والاقاليم التي انتشر فيها الاسلام . فما فتحه العرب المسلمون كان انتشار الاسلام فيه من أسباب انتشار اللغة العربية ، وما انتشرت فيه اللغة العربية كان من أسباب انتشار الاسلام .

ولا ريب ان وهن اللغة العربية وضعفها قد ادى الى وهن الوعي الاسلامي وضعف الوازع الديني . فاللغة العربية الخالصة ، هي التي تنقل الى القلب صور المعاني الرائعة التي تتجلى فى تراث الرسالة الاسلامية ، فتتحول الى وازع يزع الانسان عن الشر ويحضه على الخير ، فاذا وهنت لم تعد قادرة على نقل تلك الصور الى القلب وتبليغه معانيها ومقاصدها ، فيخلو من الوازع .

ان احياء اللغة العربية ضرورة لازمة لاستيعاب معاني القرءان وتحقيق غاياته ، وهو ضرورة لاحياء الوازع الذي يزع القلوب عن الضلال . وهذه الضرورة لا تقتضيها مصلحة المسلمين فحسب ، وانما تقتضيها مصلحة العالم الذي فسد يقينه وتحكمت بمصيره القوى الطاغية التي لا يردها وازع ولا يصدها عن الشر رادع .

ومن اجل ذلك يجب ان تحتل اللغة العربية مكان الصدارة فى جميع البلاد العربية والاسلامية .

المسلمون الأعاجم اتخذوا لغة القرآن لغة للفكر والعلم
دول إسلامية تتخذ العربية لغة رسمية .

للدكتور عبد الرحمن حميدة

دكتوراه الدولة في الجغرافيا من السوربون
استاذ بكلية الآداب من جامعة دمشق

نعم ، هناك تلازم وارتباط وثيقان ما بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، اذ يكفي ان نشير الى ان رقعة العالم العربي الحالية تعادل اكثر من اربعة امثال مساحته قبل ظهور الاسلام ، والعكس صحيح ايضا ، اذ ما ان افل نجم الحكم الاسلامي عن شبه جزيرة ايبريا (البرتغال واسبانيا) حتى تقوضت اللغة العربية هناك من اركانها وتقلص ظلها بسرعة مذهلة فاقتصرت على بضع مئات من المفردات المشوهة . وانا لنلمح نفس الشيء فى عصرنا الحاضر تماما .

فعلى اثر الثورة البلشفية ، عام 1917 ، في روسيا القيصرية وظهور الشيوعية كسلطة حاكمة فحسب بل معادية للدين Laïc ليست علمانية Antireligieux ، توقف نشاط الدراسات العربية والاسلامية فى مراكز هامة من مراكز الثقافة العربية الاسلامية مثل باكو فى جمهورية آذربجان ، وقازان عاصمة التتار ، وبخارى وسمرقند في التركستان فضلا عن الكف عن استعمال الحروف العربية فى الكتابة المحلية القومية . هذا ويمكن ان يقال نفس الشيء بالنسبة لتركيا الكمالية التي أدت علمانيتها Laïcisme ، اي فصل الدين ، وهو الاسلام ، عن الدولة الى ابطال الكتابة بالحروف العربية وحتى الكلمات العربية واتخاذ كلمات طورانية الاصل واوروبية عوضا عن مثيلاتها فى العربية ، وقطع اكثر ما يمكن من الصلات التي تشد الاتراك الى الاسلام وبالتالي الى العرب . واذا كانت اللغة العربية تدرس وتدرس فى كثير من الجامعات الاجنبية فسبب ذلك يعود لدوافع عديدة ، اقتصادية وسياسية ، وغالبا تبشيرية ترمي الى تقويض الاسلام والقضاء ، بالتالي ، على اللغة العربية ذاتها .

ومن نافلة القول التنويه بما اصاب اللغة العربية من اهمال ومضايقات ابان الحكم الاوروبي الذي هيمن على اقطار المغرب العربي الاربعة واعني بها : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، حتى راح اهل الغيرة والحمية يتباحثون فى مصير اللغة العربية والاسلام فى البلاد المذكورة الى ان اذن الله بزوال الكابوس الغاشم ، وراحت اللغة العربية تسترد مواقعها السابقة ، واصبح التعريب الشغل الشاغل لدى المسئولين عن الثقافة فى المغرب العربي .

ـ نعم ، انا اقول مع القائلين **بوجود علاقة سببية بين الاسلام واللغة العربية** وما سبق لي ان قلته آنفا يؤيد هذه العلاقة بين الاسلام ولسان الضاد اللذين كان سيرهما متوازيا تقريبا خلال التاريخ الاسلامي . هذا كما **انتشرت اللغة العربية بصفتها لغة القرآن** والعبادات والشريعة بين الشعوب التي اعتنقت الاسلام الحنيف ، اذ لا يمكن للمسلم أن يلم بمقومات دينه دون ان يكون لديه زاد معقول من الالمام باللغة الفصحى . اضف الى ذلك ان الامم الاسلامية ـ من

غير العرب ــ فضلت قراءة القرآن كما انزل ، دون ان تلجأ الى ترجمته الى لغاتها الاصلية خشية أن تؤدي ترجمته الى ضياع رونقه وبلاغته .

واذكر كاستدلال على ذلك ما نلاحظه في عالمنا العربي من سهولة تمثل Assimilation المسلمين من غير العرب ــ كالشركس والاكراد والبربر والفرس في الامة العربية وتعربهم بسرعة فائقة في حين تظل الجماعات غير المسلمة ، كالارمن والآشور وزنوج جنوبي السودان ، والاقليات الاوروبية في اقطار المغرب ، عاتية على التعرب والتمثل ، محافظة على لغاتها ، متفردة عن محيطها ، باستثناء السريان وبقايا الآراميين نظرا لشدة قرب لغتهم من العربية .

لا اشك ابدا ــ سواء اكان الامر يتعلق ببلدي ام بالبلاد الاسلامية الاخرى ــ بأن **الوعي الاسلامي والوازع الديني يمتدان ويتقلصان كلما اعترى اللغة العربية الضعف واستفحلت الامية والجهل ،** وتباعدت الشقة بين الفصحى واللغة الدارجة ، بحيث يصبح فهم وادراك القرآن والحديث بعيدا عن متناول سواد الجماهير . ولكن **ليس ما اقوله بقاعدة مطلقة** اذ نجد ان بعض الاقوام الحديثة العهد ، نسبيا ، بالاسلام تكون اكثر تمسكا بتعاليم الدين ، حتى المغالاة، علما بانها ابعد من العرب بكثير عن فهم الاسلام وتعاليمه . والغريب أن نلاحظ أيضا ان العرب خاصة ، والمسلمين عامة ، كانوا يتمسكون بدينهم ، وهم تحت نير الحكم الاجنبي ، اكثر من تمسكهم ، بعد نيل الاستقلال . ولعل ذلك يعود الى ان الجماهير كانت تعتقد حينذاك ان تركها للاسلام ، وقيمه الخلقية الرفيعة ، هو الذي اوقعها تحت وطأة الاستعمار وبلائه ، في حين ان الكثيرين من المثقفين ، المسحورين بآراء المبشرين والمستشرقين ، راحوا يجاهرون ، بعد الاستقلال ، بان سبب تخلف المسلمين هو الاسلام ، مع العلم بان الاسلام كان الباعث على التقدم والازدهار والمعرفة في البدء ، فكيف ؛ يصبح عنصر تأخر ورجعية حاليا ؟ هذا مع ان الاسلام كدين لم يطرأ عليه اي تبديل او تحويل وما زال القرآن بخير وسلامة .

ــ ان اثر الفكر الاسلامي ، الناجم عن لغة القرآن ، في اللغة الاقليمية واللهجات ، في الاقطار الاسلامية غير العربية ، او لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية أو الاسيوية ، اقول ان **اثر الفكر الاسلامي واضح جدا** لدى هذه الشعوب ، سواء في لغة التخاطب اليومية أو في آدابها . كما أن شدة اعجاب هذه الاقوام بالعربية واعتزازها بها جعل كتابها وعلماءها ، بالماضي ، يتخذون **العربية لغة الفكر والعلم** كالفارابي والخوارزمي وابن سينا وسواهم ، كما ان **الاسلام يسر لهم تعلم العربية** بصورة مدهشة . واذكر ان ميرزا محمودوف ، وزير التعليم في جمهورية تتاريا ذات الاستقلال الذاتي في الاتحاد السوفياتي يجيد العربية كتابة وكلاما بطلاقة لم اعهدها في اي مستشرق آخر ابدا . واؤيد ما ذهبت اليه بالرغبة التي ما زالت تبديها بعض الشعوب الاسلامية غير العربية ، في **جعل اللغة العربية لغة رسمية** كالباكستان ، او كما حدث عمليا في **الصومال** التي اصبحت فيها العربية اللغة الرسمية حتى لتعتبر نفسها عضوا ، غير منتسب بعد ، في الجامعة العربية .

ــ ان **تأثير اللهجة الاقليمية** السورية في التعابير العربية المحلية **قليل ومحدود** وفي تناقص مستمر .

ــ وارى ان **تحتل اللغة العربية مكان الصدارة** ، بلا منازع ، بالنسبة للغات الاجنبية لا سيما في تدريس التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، **باستثناء المواد العلمية** البحت ، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء ، طالما لم يتم بعد اتفاق شامل بين المختصين في العالم العربي على تعريب المصطلحات الاساسية فضلا عن الاختلافات في ترجمة بعض المصطلحات بين مختصي القطر الواحد .

بعد أن فقدت اللغة اليونانية سيادتها أصبحت اللغة العربية :

لغة رسمية للعلم والثقافة

للأستاذ عبد القادر الرحباوي

مدير تفتيش الآثار والمتاحف
في الجمهورية العربية السورية

1 — من الطبيعي جدا ان يكون هناك تلازم وارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية اذ **لولا الاسلام لما اتيح للغتنا العربية ان تنتشر** فيما وراء العالم العربي بل حتى فى بعض اقطاره .

2 — اذا كان انتشار اللغة العربية مرتبطا بانتشار الاسلام فان العكس غير صحيح وبمعنى آخر لا يمكننا القول بانه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرءان لما انتشر الاسلام .

فالاسلام كعقيدة ودستور ومبادىء واخلاق جدير بالانتشار فى المجتمعات البشرية على اختلاف الوانها ولغتها ، وليس لزاما لهذه المثل والعقائد لكي يتقبلها الناس أن تكون منزلة بلغة معينة او باللغة العربية ذاتها،لا سيما ان الاسلام لم يأت للعرب وحدهم وانما للعالمين جميعا . ولكن بما أن القرءان نزل بلغة العرب وان الله اصطفى رسوله عليه السلام من العرب فقد أصبح للغة العربية شأن آخر يميزها عن اللغات الاخرى واصبح لزاما على العرب ان يعنوا بلغتهم لكي يفهموا معاني القرءان ومبادىء الاسلام ولزاما كذلك على المسلمين من غير العرب ان يتعلموا اللغة العربية لكي يفهموا الاسلام المتمثل بالقرءان وهو بلسان عربي، وبسنة الرسول من اقوال وافعال ، والرسول عربي . وفعلا فقد **أقبل على تعلم العربية فى صدر الاسلام** وما بعده كل من ضح اسلامه وحسن أيمانه من ابناء الشعوب غير العربية .

3 — نلاحظ بأنه لم يكن بين بلدان العالم العربي المعروفة اليوم من كان عربيا صرفا قبل انتشار الاسلام سوى الجزيرة العربية ، وكانت بلاد الشام تقطنها بعض القبائل العربية الموزعة فى نواح مختلفة فيها ، وهي قبائل نازحة من الجزيرة العربية منذ أمد غير بعيد ، بينما كان سكان المدن القدماء من بقايا الشعوب التي عرفت بالسامية والتي هاجرت هي ايضا من الجزيرة العربية ، كما يرجح أكثر العلماء ان دفعات حدثت فى الالف الرابع والثالث والثاني قبل الميلاد ، وكانت لغاتها تعتبر من اللغات السامية أو على الاصح من اللغات العربية البائدة ، كالآرامية والنبطية والفينيقية والاكادية. ولقد **أدى الاسلام الى زوال هذه اللغات القديمة ، او اللهجات العربية القديمة ،** كما نفضل القول ، الى **احلال لغة القرءان لغة رسمية للعلم والثقافة محل اللغة اليونانية** التي كانت هي اللغة الرسمية ولغة الثقافة فى الشام قبل الفتح . ان ما قلناه عن الشام يمكن ان يقال عن العراق ، الذي كان محاطا بمراكز وامارات عربية مما جعل المؤرخين العرب يميزون بين عراقيين : عراق العرق وعراق العجم .

أما استعراب باقي البلدان العربية كعراق العجم وبلدان شمالي افريقيا (مصر — السودان — تونس — الجزائر — المغرب) ففي رايي أن ذلك حدث تدريجيا **وكانت مقومات هذا الاستعراب** ثلاثة امور :

الاول : انتشار الاسلام وهو كدين عربي فى كل مظاهره ومصادره .

الثاني : كون اللغة العربية لغة الحكام اذن فهي اللغة الرسمية السائدة .

الثالث : استيطان كثير من القبائل العربية وتمازجها مع سكان البلاد الاصليين .

وهناك عامل رابع قد يكون اقل شأنا الا ان اثره لا ينكر فى هذا الاستعراب الا وهو وجود جاليات وعناصر من اصل عربي قديم فى كل من مصر وشمالي افريقيا ترجع الى هجرات الفنيقيين واقامتهم جاليات على طول ساحل شمال افريقيا فى الالف الاولى قبل الميلاد. ولا ننسى هنا دولة قرطاجة الشهيرةالتياقامها الفينيقيون السوريون فى وسط افريقيا الشمالية .

اما انتشار اللغة العربية فى بلدان العالم الاسلامي الاخرى فكان ضعيفا محدودا . فقد ظلت هذه الشعوب تحتفظ بلغاتها القديمة رغم دخولها فى الاسلام ، وان تعلم اللغة العربية لم يتح لغير نفر قليل منهم ينحصر فى طلاب العلم وفى العلماء والموظفين ذوي الصلة بالحكام الفاتحين .

4 — **لا اعتقد بان الوعي الاسلامي والوازع الديني لهما صلة بضعف اللغة العربية وقوتها** . ان العكس هو الصحيح واكبر مثال على ذلكشعوب شمالافريقيا. فقد كان **تمسكها بدينها هو الذي حال دون القضاء على اللغة العربية** فيها رغم الجهود الجبارة التي بذلها المستعمر من اجل القضاء على عروبة هذا الجزء من العالم العربي ، كما هو معروف . وفى الهند وباكستان وغيرها نجد بيئات اسلامية تتمسك بدينها وتتمتع بوعي اسلامي ووازع ديني دون ان يكون للغة العربية تأثير على هذا الحماس الديني ، بينما نجد بيئات عربية صرفا فى سورية ولبنان ، اللغة العربية فيها على احسن ما تكون عناية وقوة ، ولكن الكثيرين من ابنائهما مع ذلك ابعد ما يكونون عن الوعي الاسلامي والوازع الديني ومع ذلك فاننا لا ننكر بان قوة **اللغة العربية وسلامتها فى اية بيئة اسلامية تساعد كثيرا على فهم الاسلام** والتمكن منه والتمسك به عن وعي وعمق . لان الاسلام كما ذكرت دين عربي بمظاهره ومصادره .

5 — اشرت الى الكيفية التي انتشرت بها اللغة العربية فىالبلدان الاسلامية غير العربية والى مدىهذا الانتشار ، ويمكن القول بأن تأثير الفكر الاسلامي كان يظهر فى اللغات المحلية والاقليمية على الشكل التالى :

أ — **اقبال فئة ممن حسن اسلامهم على تعلم اللغة العربية** لغة الدين والعقيدة كي تساعدهم على فهم القرءان والحديث وما يتصل بهما من كتب السيرة والتفاسير . وبذلك نشأت طبقة المتعلمين والعلماء التي اتقن افرادها اللغة العربية اتقان اهلها لها .

ب — فى العهود التاريخية التي كان الحكم فيها عربيا صرفا كانت هذه البلدان تتأثر بالحكم العربي وكانت اللغة العربية لغة الحكام والموظفين او بعبارة اخرى لغة **السلطة الحاكمة التي يحرص على اجادتها الكثيرون** من المنتفعين فضلا عن كونها **لغة الدين** الامر الذي ساعد على انتشار اللغة العربية وطغيانها على اللغات المحلية واضعافها لها **وادخال كثير من الالفاظ العربية** فى بنيتها مما لا يزال باقيا حتى اليوم فى هذه اللغات .

ولكن ضعف الحكم العربي فى هذه البلدان ، الذي بدأ يظهر فى العهد العباسي الثاني وقيام دول اسلامية مستقلة عن الخلافة العباسية تحكمها اسر حاكمة محلية غير عربية ادى الى **انحسار نفوذ اللغة العربية تدريجيا** .

6 — ان تأثير اللهجات المحلية او اللغة العامية فى سورية أو فى بلاد الشام ضئيل . ويخف هذا التأثير كلما زادت العناية باللغة الفصحى وبسلامة التعبير بها لدى الافراد والاوساط المثقفة .

7 — لا جدال ان المكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية بالنسبة للغات الاجنبية هي المكانة الاولى فهي لغة الكتابة ولغة التخاطب ولغة العلم فى كل فروعه ومستوياته ، وتأتي اللغات الاجنبية بالدرجة الثانية بل يجب أن تأتي مكانتها واستعمالها بعد اللغة العربية في كل مكان ، فى البيت وفى العمل الحكومي وغير الحكومي وفى نواحيالتعليم المختلفة،وحتى فى المدارس الاجنبية. وهذا مطبق فعلا عندنا فى سورية ، ويجب ان يطبق فى كل بلد عربي . اما **اللغات الاجنبية كلغة ثانية فضرورتها من اجل الاطلاع على مصادر المعرفة الاجنبية والبقاء على صلة بما يجد فى العالم الخارجي** ، فى نواحي العلم والتقنية ولاستخدامها اداة لا غنى عنها فى التعامل والتفاهم مع العالم الخارجي غير العربي .

بفضل الإسلام أصبحت اللغة العربية لغة عالمية

للأستاذ محمد أبو الفرج العش

محافظ المتحف الوطني بدمشق
استاذ محاضر فى كلية الشريعة
جامعة دمشق

I — التلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية :

آ — اللغة العربية موجودة قبل الاسلام تتكلمها القبائل العربية فى الجزيرة العربية وفى أطراف العراق والشام . لو لم يظهر الاسلام بين العرب ، فماذا كان يقدر لهذه اللغة أن تكون ؟ :

1) تظل اللغة العربية متعددة اللهجات بتعدد القبائل ، وهذا ما ينقص من شأنها كلغة .

2) تظل اللغة العربية لغة محلية تؤدي ما يناسب البيئة والحاجات المحلية .

3) تظل قاصرة فى التعبير اي أن الاسلوب الادبي يبقى جافا : الجمل متقطعة منفصلة لا ترابط فى الافكار، الخيال والتصور فيها ضعيف ، الكلام جزل، والمفردات غير منتقاة : اعني **لو ظل العرب منكمشين فى جزيرتهم لظلت اللغة العربية تخضع الى عوامل التفتت والتقهقر،** واذا احسنا الظن نتوقع لها الجمود .

4) لو لم يات الاسلام ، وقدر للعرب أن يكونوا دولة او ما شابه ذلك، وانيخرجوا غازين من جزيرتهم، فهل كان يقدر لهم أن يرسخوا اقدامهم فى الاراضي التي يحتلونها ، اذا لم يكن لديهم رسالة روحية ذات مثل عليا ، تجمع ما بينهم من جهة ، وتقنع اهالي البلاد المفتوحة بالاذعان لهم . اعني أن العرب لو انساحوا فى الارض بدون رسالة لكانت حركتهم اندفاعا مؤقتا ينشد الغنيمة ، لا يلبث أن ينكسر وان يتمزق الشمل ، ولما كتب للغة العربية الانتشار .

ب — ما هو اثر الاسلام فى اللغة العربية .

1) توحيد اللهجات وبخاصة عندما انتشرت ، ولقد انتشرت موحدة بلغة القرآن الكريم .

2) الثروة العظيمة من المفردات الجديدة التي استعيرت من اللغات الاخرى ، والتي اشتقت من أصل اللغة لتساير الحركة الكبيرة ، والتي نحتت وصقلت وربما ابتكرت لتعبر عن المجال الحيوي الجديد .

3) القرآن الكريم مصدر ثابت راسخ ، يرجع اليه للتأكد من سلامة اللفظ وبناء الجمل وفصاحة المعنى وضبط النحو والصرف ..

4) صقل الاسلوب ، حسن الاداء ، التعبير عن الخيال والمشاعر .. كل ذلك حصل للغة العربية بسبب انتشارها بفضل الاسلام بين الاقوام الاخرى التي تأثرت منها وأثرت فيها .

5) استنباط قواعد اللغة والاملاء والنحو والصرف.. ضبط بحور الشعر ، ملاحظة الفروق فى المعاني (فقه اللغة) .. الخ هذه الابحاث اللغوية تمت على ايدي العرب والعلماء الاعاجم . وكان الاعاجم بحاجة اليها ، فعنوا بها ، وحسنوها ، وطوروها .

6) تقدم فن الكتابة وتنوع الخطوط وانتشارها .

7) كثرة عدد المتكلمين والكاتبين باللغة العربية من الاعاجم ، فهم لو لم يدينوا بالاسلام لما احبوا لغة القرآن فتكلموا بها وكتبوا بها وافتخروا بها . لا ننسى ما قاله البيروني : **« انه لاحب الي ان اهجى بالعربية من ان امدح بالفارسية »** .

8) **أصبحت اللغة العربية بفضل الاسلام لغة عالمية ، كتبت بها العلوم والفنون** واضحت قادرة على التعبير فى جميع المجالات .

9 — لو لم يدعم الاسلام اللغة العربية لما بقيت الا فى مجالات ضيقة وفى حالة تقهقر .

10) لو لم تنتشر اللغة العربية انتشارا واسعا بفضل الاسلام لما اهتم الآن العلماء المحدثون هذا الاهتمام باللغة العربيةوآدابها وقواعدها .

*

2 — لنجيب عن مدى ارتباط وتلازم انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية . نسأل انفسنا : « ماذا حل باللغة العربية عندما ضعف الاسلام فى النفوس؟ »

1) عندما ضعف الاسلام فى نفوس الحكام اساءوا الاستعمال، فنشبت عليهم الثورات ثم حدثت الانفصالات عن جسم الدولة الواحدة ، فتفتتت القوى وطمع الطامعون من خارج المملكة نعدد منهم : الزط ، الزنج المجوس (ومن ورائهم الحركات المنحرفة) الصليبيون، الموغول ، البعثات التبشيرية ، الاستعمار، الصهيونية

كلما قوي الاسلام فى النفوس تعود بعض اجزاء البلاد العربية والاسلامية الى الاتحاد او الوحدة فتدفع الخطر مثال ذلك : جهود الزنكيين فى توحيد القوى ضد الصليبيين ثم جهود الايوبيين ثم المماليك .. وعندما يعود الضعف للاسلام فى القلوب تنفرط القوى ويقوى امل الطامعين فى التغلب . وانا نجد من خلال ذلك **نهوض اللغة العربية بنهوض المسلمين وتضاؤلها بتخاذلهم .** لو انا تتبعنا فى التاريخ وتاريخ الادب مراحل ازدهار اللغة العربية والادب العربي ، لرايناها فى اغلب الاحيان تطابق مراحل **عز الاسلام ووحدة العرب والمسلمين** تحت لواء الاسلام .

لا يخلو الامر طبعا من شواذ ، لكن النتائج العامة لا تؤخذ من الشواذ .

2) فى عصر الجمود والانحطاط منذ القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية ماذا حل باللغة العربية فى بلاد العرب وفى البلاد الاسلامية ؟

— المستعمر فى البلاد العربية وبخاصة فى شمالي افريقية حاول فى مدى سنين طويلة ان يقضي على اللغة العربية ويحل محلها لغته الاجنبية ، وحاول ان يضع من قيمة اللغة العربية ويصمها بانها غير خليقة بمسايرة الحضارة وتطور العلوم .. الخ .

لم ينجح الاستعمار بمحاولته فى الاوساط الاسلامية ، ونجح بعض النجاح فى الاوساط غير المتدينة . لماذا ؟ — لان الاسلام حفظ لغة القرآن، ولان **القلوب المؤمنة لا يمكن ان تقتنع بان لغة القرآن السماوية لغة غير جديرة .**

— المستعمر فى البلاد الاسلامية سواء اكان محتلا لها أم صاحب نفوذ فيها حاول ان يقضي على اللغة العربية كلغة فكر ودين . نجح المستعمر الى حد بعيد فى مخططه ، لكن اثره كان ضعيفا فى كل بؤرة اسلامية حق . فما زال اثر المستعمر من مكان ، الا وارتد احترام اللغة العربية الى النفوس بفضل رسوخ الاسلام .

— نحن الآن امام تجربة جديدة فى يقظتنا الحاضرة وربما فى نهضتنا المستقبلة كعرب وكمسلمين . فبالقدر الذي نعود فيه الى انفسنا ونعود الى الحق ، نجد انفسنا اقرب الى الاتحاد والوحدة ، وبالقدر الذي نكسبه فى هذا المضمار نصبح اعزة اقوياء ، وبقدر ما نكون اعزة ، فانا نرفع من قيمة لغتنا فى الداخل والخارج ، ونصبح موضع اهتمام وتقدير الجميع .

اجوبة عن الاسئلة الايضاحية :

1 — لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم .

— ضمنت الجواب على هذه النقطة فيما سبق ..

2 — لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

— يصح هذا القول اذا اتممنا الكلام فقلنا « لما انتشر الاسلام **فى البلاد العربية** » لان العرب يعشقون لغتهم . وانا لنذكر بعض الاخبار فى بدء الحركةالاسلامية التي تقول ان المشركين الذين جاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يسترقون السمع فيطربون لتلاوة القرآن ، فبعضهم كان يلين قلوبهم بسرعة فيسلموا ، وبعضهم تطغى عليهم مصالحهم واحقادهم فيصدوا انفسهم عن الاستجابة .

اما تعميم هذه الفكرة على الشكل المذكور اعلاه، فانه أمر قد يدرك ويعتقد به قلبيا لدى المسلمين المؤمنين بعد فهم القرآن والاسلام عن طريق الاحتكاك وحسن المعاملة وتقليد القدوة المتمسكة بالمثل العليا الاسلامية . ولكن لا يمكن التدليل عليه واقعيا . كيف يمكن أن نقنع بذلك الاقوام غير العربية ؟

ان المسيحيين العرب والمستعربين من سكان بلاد الشام مثلا عربوا كتبهم المقدسة ومارسوا

طقوسهم بها (بعضهم احتفظ لبعض الطقوس بصلوات تتلى باللغة القديمة) ظلوا على دينهم حتى الآن ، فلو كانت اللغة العربية كلغة للقرآن هي السبب فى انتشار الاسلام ، لما بقي المسيحيون على دينهم ، ولاعتنقوا الاسلام .

كيف يمكن ان يكون ذلك صحيحا بالنسبة للفرس الذين هم فى الاصل لا يقيمون وزنا للعرب ، وماذا كان يدريهم بأهمية اللغة العربية حتى يقبلوا الاسلام بسببها .

3 — يقوى الوعي والوازع الديني او يضعف تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف .

— الصحيح ان اللغة تقوى بقوة القوم الذي يتكلم بها . ويقوى القوم بقوة المبادىء الروحية والخلقية والاجتماعية التي يتمسك بها . فاذا كان الاسلام هو السبب فى عزة القوم ، فان اللغة تكون تبعا لقوةالاسلام وليس العكس صحيحا .

4 — مدى تاثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات او اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية او لدى الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية او الآسيوية .

1) الفكر الاسلامي الصحيح يحتم على المسلمين ان يدرسوا القرآن دراسة عميقة لا يتيسر ذلك الا بدراسة اللغة العربية ، ومتى تعمق المسلم بدراسة اللغة العربية الجميلة يحبها ، فيستعير مفرداتها ويتاثر بطريقة ادائها واسلوبها .. كل ذلك يرتد اثره فى اللهجات المحلية او اللغة الاقليمية لدى المسلمين فى اي مكان .

2) ربما لا يقف الامر عند هذه الحدود ، قد يتباهى المسلمون بالتحدث باللغة العربية وبالكتابة باللغة العربية — كما حدث ذلك قديما — اما حديثا فاني قد علمت ان احياء اسلامية فى بخارى حاليا ما زالت حتى الآن تتحدث بالعربية كلغة البيت والام . سمعت هذا الخبر اخيرا من المستعرب السوفييتي الاستاذ غريغوري شارباتوف فى محاضرة القاها فى جامعة دمشق فى 19 — 3 — 1968 .

5 — تاثير لهجتنا الاقليمية فى تعابيرنا العربية المحلية فى بلاد الشام . نسبتها ومداها .

1) اللهجة الاقليمية هي العربية العامية الدارجة، يخالطها امور كثيرة تنحرف عن العربية الفصحىنلخصها فى الامثلة التالية :

دمج عدة كلمات ونحت كلمة واحدة : شلونك — شو لونك — شي هو لونك — معناها كيف حالك .

ابدال حرف بحرف : تلفظ القاف كالهمزة ..
تغيير ترتيب الحروف : زوج تلفظ جوز

اهمال ضبط اواخر الكلمات ، والخطأ فى ضبط بعضها الآخر (مثلا واو الجمع والف التثنية ليس لهما مكان فى العامية) .

استعارة مفردات اجنبية : تركية ، فارسية ، افرنسية ، ايطالية ، انكليزية .. ولا تلفظ هذه المفردات صحيحا كالاصل .

وغير ذلك كثير .

2) ليس للهجة الاقليمية تاثير على اللغة العربية، بل العكس هو الصحيح كلما اقبل الناس على التعلم وتقوية اللغة العربية الفصحى كلما زالت من لهجتهم المحلية الادران والشوائب التي علقت بها . واني لاعتقد ان الاقبال على تعلم اللغة العربية الصحيحةاذا ظل مستمرا بحماس وشغف فى جميع البلاد العربية ، فان الفروق فى اللهجات الاقليمية ستتضاءل وتتضاءل حتى تختفي . والدليل على ذلك ان المتعلمين فى اقصى المشرق وفى اقصى المغرب يتفاهمون حتى ولو تكلموا اللهجة الاقليمية المصقولة بالتعلم ، بينما لا يمكن أن يتفاهم رجل من العامة فى المشرق مع اخيه من المستوى نفسه فى المغرب .

3) نسبة العامية فى اللغة العربية فى بلاد الشام تكاد تكون ضئيلة اذا ما قورنت بالعامية الموجودة في الاقطار العربية الاخرى . ويمكن هنا ان نلفت الانتباه الى أن نسبة العامية فى المدن الكبيرة فى بلاد الشام نفسها اعلى منها فى منطقة البادية وحوران والفرات . وتكاد تكون لهجات بعض القبائل البدوية قريبة من العربية السليمة .

6 — المكانة التي تحتلها العربية فى بلدنا بالنسبة للغات الاجنبية .

اللغة العربية فى بلاد الشام هي اللغة الرسمية ولغة العلم والكتابة والبيت والطريق ، ولا تستعمل اللغة الاجنبية الا لدراسة المراجع العلمية الاصيلة وللتفاهم مع الاجنبي . قد يشذ قليل من الاسر التي تلقت ثقافة اجنبية اكثر من الثقافة العربية ، فتتحدث فى البيت والمجتمع بلغة خليطة ، لكن هذا ممجوج ومستقبح .

منافذ الوعي الإسلامي إلى العقل لا تكون إلا عن طريق لغة القرآن

بقلم ثلة من أساتذة كلية الشريعة (دمشق)

نشرت مجلة «حضارة الاسلام» الغراء التى تصدر فى دمشق خلاصة آراء بعض رجال الفكر حول استفتائنا ننشرها شاكرين .

كان المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى العالم العربي فى نطاق جهوده المشكورة ـ قد بعث برسالة الى المؤسسات العلمية فى العالم العربي .. يطلب فيها الاجابة عن نقاط معينة تعالج علاقة الاسلام باللغة العربية فى القديم والحديث فى كل قطر من اقطار وطننا الكبير . ونثبت فيما يلى الجواب الموجز الذى اجاب به اساتذة كلية الشريعة فى جامعة دمشق .

1 ـ لا ريب ان هناك قدرا من التلازم بين الاسلام واللغة العربية ، بمعنى ان الاسلام كلما ارتفع شأنه وشاعت احكامه ازداد معه شأن اللغة العربية قوة ورفعة وانتشارا ، وان اللغة العربية كلما ارتفع شأنها وتوسع انتشارها وازدادت دوحة التعمق فيها والدراسة لعلومها ، ازداد بذلك امر الاسلام ظهورا واصبح العمل الفكري اليه اشد جلاء واستقامة ووضوحا .

وكيف لا يكون اشتداد الوازع الاسلامي اعظم سبيل الى قوة اللغة العربية والمزيد من انتشارها ، وان الاقبال على تعلمها انما يكتسب اذ ذاك معنى التعبد لله عز وجل والعكوف على فهم دينه واحكامه .

وقد فرغ الفقهاء من بيان انه يجب على المسلم ان يتعلم من اللغة العربية ما يبصره بحكم الله عز وجل فى كتابه وسنة رسوله مالا غنى له عنه، وفى ذلك يقول الامام الشافعي رحمه الله فى كتابه « الرسالة » :

(فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، ومهما ازداد من العلم باللسان الذى جعله الله لسان نبوته وانزل به آخر كتبه ، كان خيرا له) .

غير انه لا ينبغي ان يكون خافيا فى هذا الصدد ، ان مرد هذا التلازم انما هو نزول القرآن بلغة العرب، فلولا ان الله عز وجل اقتضت حكمته اختيار هذه اللغة ترجمانا لكلامه وتعبيرا عن خطابه لكان شأنها كشأن اي لغة اخرى بل ولنشأ التلازم الذى ذكرنا بين الاسلام واللغة الاخرى التى كانت الحكمة الالهية تختارها .

ومن هنا نعلم انه لا يمكننا ان نقول بحال : انه لولا ان اللغة العربية هي لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

2 ـ والواقع التاريخي الذى يبدأ من عصر البعثة النبوية الى يومنا هذا ، اعظم دليل وبرهان على واقع هذا التلازم الذى ذكرناه ، وفيما يتعلق بواقع بيئتنا السورية خاصة ، فان مما هو مشاهد ومعروف عندنا لكل احد انه عندما كانت البرامج التعليمية عندنا فى المدارس الابتدائية والثانوية تعنى كثيرا بتدريس القرآن والعلوم الدينية ، كانت الملكة العربية لدى الطلاب فى غاية القوة والاشراق وكانوا من اجل ذلك يهضمون فى دراستهم العربية منهاجا زاخرا بالعمق والقوة ، فلما قلت العناية اخيرا بالقرآن ودراسة ما يحف به من العلوم الدينية التى تبث الوازع الديني فى النفوس وتشد من ازره ضعفت الملكة العربية لدى الطلاب ضعفا بينا وخطيرا ، واصبح منهاج الدراسة العربية ، رغم ضآلته الشديدة بالنسبة للمنهاج القديم عقبة كأداء فى طريق الطالب لا يكاد يجتازها الا زحفا وجرا .. هذا بالرغم من حشد كل ما قد يظن انه ضمانة لتقوية الطلاب فى هذه المادة ، فى النظام الدراسي العام ، من مثل الاكثار من الساعات الدراسية واشتراط المزيد من الدرجات للنجاح فيها وما الى ذلك .

3 ـ ولا ريب ان من نتيجة التلازم الذى ذكرناه، ما هو واضح لكل متأمل من تأثر الوازع الديني والوعي الاسلامي بما يعتري اللغة العربية من قوة او ضعف، ونحن هنا لا بد ان نفرق بين العاطفة الاسلامية والوعي الاسلامي ، فأما العاطفة ، فلعل التلازم بينها وبين اللغة ضئيل ، ومرد ذلك الى ان للاسلام فى مجموعه سلطانا على الفطرة الانسانية اذا خلي وشانها ، فالفطرة تنقاد وتتأثر بالاسلام كعقيدة وايمان دون اي حاجة الى وساطة لغة ، اما الوعي الاسلامي وما يتبعه من الوازع الديني الصحيح، فان منافذه الى الفكر والعقل لا يكون الا عن طريق اللغة العربية .

ان بلدة اسلامية كتركيا مثلا، لا يعدم معظم اهلها عاطفة دينية متأججة رغم جهل عامتهم باللغة العربية ولكنهم لا يركنون اطلاقا الى اي ركن شديد من الوعي الاسلامي الذى هو وحده الذى يقدر ان يحمي افكارهم الدينية من اي تلبس او خداع ديني قد يتسلل اليهم.

ومن اجل ذلك يلاحظ ان الكيد التبشيري ضد الاسلام انما يستهدف تلك المناطق الاسلامية التى توجد فيها حرارة عاطفية نحو الدين ، ولكنها تعيش قاصية عن الوعي الاسلامي بسبب انحباسها فى سجن العجمة وانسداد المنافذ التى توصل افكار اهلها بحقيقة الاحكام الاسلامية وما تنطوي عليه من منهج وتنظيم .

4 ـ اما فيما يتعلق بمدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات او اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية ، فان الامر يختلف بالنظر الى اختلاف التاريخ .

فيما مضى ، وحينما كان سلطان الاسلام منبسطا على نفوس الشعوب الاسلامية وسلطاتها الحاكمة معا ، فقد كان تأثير الاسلام على اللهجات واللغات الاقليمية تأثيرا عظيما وكليا ، ولا يجهل احد ان معظم البلاد العربية اليوم انما كان اهلها اخلاطا من الاعاجم المختلفين ، ولا يجهل احد ان التاريخ القديم والقريب يملأ اذهاننابامم من الاكراد والاتراك والفرس والشركس والهنود تجردوا عن خصائصهم اللغوية ، وصقلت السنتهم اللغة العربية بتأثير من الفكر الاسلامي الذى سيطر على نفوسهم .

اما اليوم فمن المؤسف ان نقول : ان التأثير الاسلامي فى اللغات الاقليمية او اللهجات المحلية لم يعد قويا كما كان ، ذلك لان سلطان الاسلام قد انحسر مده ولم يعد يتجلى الا فى نفوس الشعوب الاسلامية كشعوب ، وهذا القدر لا يكفى لظهور اثر الاسلام ولغة قرآنه على اللغات الاقليمية او اللهجات العربية المختلفة .

5 ـ ان اللهجة الاقليمية التى تشيع فى تعابير اقليمنا السوري ، ليست من اللهجات البعيدة عن اللغة العربية الاصلية ، ومن ثم فان تأثيرها على اللغة العربية تأثير جزئي ولا ريب ان يضعف ويقوى حسب اختلاف التأثير الديني قوة وضعفا .

6 ـ ومع ان هنالك لهجة عربية اقليمية لدينا ، فان اللغة العربية الاصلية هي وحدها اللغة العلمية واللغة الدراسية فى شتى مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي ، ومهما كانت العلوم التى تدرس فان الاداة التعبيرية عنها هي اللغة العربية وحدها .

اما اللغات الاجنبية ، فشأنها كشأن المواد الدراسية التى يتلقاها الطالب فى المدرسة قصدا الى تتميم مقوماته الثقافية وتسهيلا لوسائل الترجمة والتعريب .

لولا الإسلام لما أصبحت العربية لغة عالمية

للواء الركن محمد شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العربي ببغداد
وعضو اللجنة المجمعية بالرباط

— 1 —

كان من فضل الاسلام على العرب ، انه وحد صفوفهم ، ووحد كلمتهم ، واشاع فيهم الضبط والنظام، وخلق فيهم انسجاما فكريا ، فاصبحوا يعملون تحت راية عقيدة واحدة ، لتحقيق هدف واحد ، هو اعلاء كلمة الله .

كانوا قبل الاسلام ضعفاء ، فاصبحوا بالاسلام اقوياء ، وكانوا قبل الاسلام متفرقين ، فاصبحوا بالاسلام موحدين ، وكانوا قبل الاسلام مشركين ، فاصبحوا بالاسلام موحدين ، وكانوا قبل الاسلام مستعبدين ، فاصبحوا بالاسلام فاتحين .

وكان العرب قبل الاسلام متخلفين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا ، فرفع الاسلام مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية .

كان الفرس والروم سادتهم فى العراق وارض الشام ، وحتى الاحباش كانت لهم صولة وجولة ومكانة فى اليمن السعيد ، فاصبح العرب بالاسلام سادة الفرس والروم والاحباش وسادة امم اخرى لا تعد ولا تحصى من الصين شرقا الى قلب فرنسا غربا ، ومن سيبريا شمالا الى المحيط الهندي جنوبا .

وكان العرب اقل حضارة ومدنية من الفرس والروم خاصة ، فاصبحوا بالاسلام قادة الحضارة العالمية ورواد المدنية فى الدنيا .

وكانوا فقراء معدمين يسكنون الخيام فى الصحراء فاصبحوا بالاسلام اغنياء موسرين يسكنون الحواضر على ضفاف الانهار .

وكانوا من الناحية العسكرية لا يطمعون ان يحموا ارضهم من الفرس والروم وحتى من الاحباش ، فاصبحوا بالاسلام لا يطمع احد فى حماية ارضه من قوتهم القاهرة التي ملأت الارض سماحة ونورا وعدلا.

لقد كان للاسلام اثر اي اثر على العرب ، بدلهم من حال الى حال ، وجعل منهم امة لها مكانتها ولها اعتبارها ولها تأثيرها فى سير الاحداث العالمية ولها كلمتها المسموعة بين الامم .

ان الاسلام هو الذي جعل من العرب قوة ضاربة وجدت لها (متنفسا) فى الفتح الاسلامي العظيم .

ولو لم ترفرف رايات الفاتحين شرقا وغربا ، لما كان للعرب المسلمين مكانة بين الامم فى النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، لذلك يمكن القول بأن اثر الاسلام عسكريا فى العرب ، هو الاساس الاول لمكانتهم السامية بين الامم ، لان الدول لا تحترم غير الاقوياء ، والقوي وحده هو الذي يستطيع ان يؤثر فى سير الاحداث العالمية ، سواء كان هذا التأثير هدفه الخير للعالم كما فعل المسلمون الاولون، ام كان هدفه الشر والخراب والدمار كما فعل جنكيزا خان والتاتار قديما والاستعمار باشكاله وصوره حديثا.

وقد انتصر العرب بالاسلام ، فكان انتصارهم انتصار عقيدة لا مراء .

وكان من بعض نتائج الفتح الاسلامي ، ان العربية اصبحت لغة عالمية .

— 2 —

ولكن القول بأن انتشار اللغة العربية بين الامم الاخرى . كان نتيجة من نتائج الفتح لا يغني عن كل قول .

فالواقع ان **القرآن الكريم ، كان له اعظم الاثر فى انتشار اللغة العربية** بين الامم ، فهو كتاب الاسلام الاول وكتاب العربية الاول ايضا .

نزل القرآن الكريم بالعربية : (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (1) ، وقال تعالى : (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا) (2) ، وقال تعالى : (قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (3) ، وقال تعالى : (وهذا لسان عربي مبين) (4) ، وقال تعالى : (نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) (5) ، وقال تعالى : (وكذلك انزلناه حكما عربيا) (6) ، وقال تعالى : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (7) .

وخرج العرب المسلمون الذين اختزنتهم الصحراء قرونا طويلة : القرآن الكريم فى يد ، والسيف فى يد اخرى ، يدعون الناس الى دينهم ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم له ما لهم وعليه ما عليهم .

وكانت تعاليم الاسلام فى القتال واضحة المعالم جازمة الاهداف : الاسلام ، او الجزية ، او القتال .

وانتشر الاسلام بين الامم انتشارا عظيما ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا فى فترة مد الفتح الاسلامي العظيم الذي ابتدأ سنة احدى عشرة الهجرية (632م) وانتهى سنة ثلاث وتسعين الهجرية (711 م) ، وكان مع قادة الفتح الاسلامي وجنوده قادة الفكر الاسلامي وجنوده : يدعون الى الله على بصيرة ، ويبشرون بدينه على هدى ، ويعلمون العربية لغة القرآن الكريم، ويلقنون القرآن للناس عقيدة ولغة .

وبعد انحسار مد الفتح الاسلامي العظيم ، كان هناك مد آخر لا يقل خطورة واثرا وتأثيرا من مد الفتح الاسلامي ، هو مد الفكر الاسلامي علوما وآدابا وفنونا ، وكانت **لغة الفكر الاسلامي هي العربية** لغة القرآن الكريم .

كان على كل مسلم من غير العرب ، أن يتعلم العربية أو قدرا معينا منها ، ليستطيع أن يصلي ويتفهم مبادىء دينه الحنيف .

وبرز فى ميدان قادة الفتح وقادة الفكر رجال من غير العرب ، جعلوا العربية لغتهم واعتزوا بها ودافعوا عنها واهتموا بأمرها — لانها لغة دينهم ولغة عقلهم .

برز من قادة الفتح فى ميدان المغرب العربي وحده أبو المهاجر دينار وموسى بن نصير وطارق بن زياد .

وبرز فى ميدان قادة الفكر ما يضيق عن الحصر، يكفي ان نذكر منهم سيبويه امام النحو والصرف والبخاري امام الحديث الشريف وأبا حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي امام الفقهاء ... الخ ..

— 3 —

لقد كان **للقرآن الكريم اعظم الاثر فى انتشار اللغة العربية** ، حتى اصبحت فى العالم لغة الحضارة والمدنية قرونا طويلة .

وكان **للفتح الاسلامي العظيم اعظم الاثر فى انتشار اللغة العربية** ، بحيث اصبحت **لغة عالمية** لها شأن حاسم فى قيادة الحضارة العالمية .

وحين انتهى الفتح الاسلامي بعد أن بلغ مداه وحقق اهدافه ، بقي **القرآن الكريم** الحارس الامين للعربية **وهمزة الوصل بين الشعوب الاسلامية .**

ولولا الاسلام لما تأتى للغة العربية أن تنتشر فى العالم ، **فتؤثر فى كل لغات العالم تقريبا .**

---

1) الآية الكريمة فى سورة يوسف (12 : 2) .
2) الآية الكريمة فى سورة طه (20 : 112) .
3) الآية الكريمة فى سورة الزمر (29 : 28) .
4) الآية الكريمة فى سورة النحل (16 : 102)
5) الآية الكريمة فى سورة الشعراء (26 : 195) .
6) الآية الكريمة فى سورة الرعد (12 : 27) .
7) الآية الكريمة فى سورة فصلت (41 : 3) .

ان لغة القرآن الكريم ، قد خالطت كل لغـــات الشعوب الاسلامية واثرت فيها أعظم التأثير .

والذين لا يعرفون التركية والفارسية والاوردية والبنغالية — مثلا — يستطيعون حين يصغون الـى المتكلمين بها ، أن **يفهموا كثيرا من مفرداتها لانها عربية خالصة .**

وليس فى ذلك عجب ، لان شعوب تلك اللغات بعد اسلامها ، اقتبست من لغة القرآن الكريم الـذي نتلوه صباح مساء كثيرا من المفردات العربيـــة الفصيحة .

ولكن العجب أن تغزو لغة القرآن شعوبا غيـر مسلمة ، فتجد **فى اللغة الانكليزية والفرنسية والالمانية** ... الخ ... **كثيرا من المفردات العربية .**

والاعجب من ذلك أن يؤلف مستشرق روســي حديث معجما عن : **اللغة العربية فى اللغة الروسية ! !**

لقد أصبحت العربية بعد الاسلام وبالاسلام لغة حضارة ، غمرت بأنوارها الدنيا وغطت كل اللغات فى العالم تقريبا .

وكانت جامعات بغداد ودمشق والقاهرة وتونس والمغرب والاندلس ، هي الجامعات المعتمدة فى العالم كله .

وكان طلاب العلم والمعرفة يقصدون هـــذه الجامعات من شتى انحاء العالم .

وقد كان من خريجي جامعات الاندلس بعـض الذين اصبحوا بابوات فى روما .

فلما **ضعف العرب ضعفت العربية** ، فليـس الضعف فى العربية ولكن الضعف فى العرب انفسهم .

ولقد بذل الاستعمار القديم والحديث قصارى جهده لترسيخ أقدام الاستعمار الفكري فى عقول العرب ونفوسهم ، **فشكك فى مقدرة اللغة العربيـــة وفى طاقاتها وبث اراجيفه دعوة للعامية ومطالبة بكتابـة العربية بحروف لاتينية .**

وهذه الدعوات مريبة دون ادنى شك ، هدفها جعل الشعب العربي شعوبا وجعل القرآن الكريم غير مفهوم المعاني والمباني الا للذين يدرســـون العربية الفصحى .

ولكن هذه الدعوات المريبة لن تنجح ابدا ، ما دام حارس العربية الاوحد وهو القرآن الكريم موجودا وصدق الله العظيم : (انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون) (1) .

— 5 —

فى عام 1964 زرت الباكستان برفقة الرئيـس المرحوم عبد السلام عارف .

وصلينا الجمعة فى مسجد (كراجي) الكبيـر ، فكانت خطبة امام الجامع بالعربية وحدها .

وبعد انقضاء الصلاة ، سأل المرحوم الرئيس عبد السلام امام الجامع : « لماذا لا تخطب بالعربيـة والاوردية ليفهم السامعون من غير العرب ما تقول ؟ »

وأجاب الامام فورا : « لا ادنس منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة غير لغة القرآن الكريم » .

ووقتها همست فى اذن الرئيس : « هل نحـــن قوميون أم هؤلاء ؟ » .

وأوينا الى دار الضيافة ، وجلسنا ليلا نتحـدث وكان الخدم على باب الغرفة يتطاردون بحفظ القرآن الكريم .

واستقبلنا رئيس الجامعة الاسلامية فى (دكا) عاصمة باكستان الشرقية بخطاب ، كان بلغة الجاحظ لا بلغة القرن العشرين .

وكان فى نية حكومة الباكستان أن تتخذ العربية الفصحى لغة رسمية ولا تزال هذه نيتها حتى اليوم ، لو عاونت الحكومات العربية بصدق وأمانة واخـلاص فى هذا المجال .

ان كل مسلم على وجه الارض يقدس اللغـة العربية ويفضلها على لغته الاصلية ، اذا كان هـذا المسلم ملتزما بتعاليم دينه الحنيف .

ذلك لانه يعتقد ، بأن العرب هم الذين نقلوه من الظلمات الى النور ، وانهم ابناء الصحابة الكرام وابناء قادة الفتح الاسلامي العظيم وجنوده ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم والقرآن الكريم بلغتهم ... **وهذا** ما كان يردده الباكستانيون على أسماعنا من الرئيس ايوب خان حتى أصغر رجل فى الباكستان .

---

1) الآية الكريمة فى سورة الحجر (15 : 9)

لقد رايت بعيني رجلا باكستانيا اراد ان يتلمس احدنا بيده فلم يستطع لشدة الازدحام ، فما كان منه الا ان لوح بيديه فى الهواء نحونا من بعيد ثم لامس بيديه قلبه ووجهه لتناله (البركة) من العرب .

والمسلمون غير الملتزمين بدينهم ، يعادون اول ما يعادون القرآن الكريم لغة وعقيدة ، وشواهد التاريخ الحديث كثيرة لا تعد ولا تحصى .

ان بين الالتزام بالدين الحنيف ، علاقة وثيقة بتبني اللغة العربية وانشارها ، ما فى ذلك ريب .

ولست انسى يوم كنت مسافرا على متن طائرة صينية شيوعية عام 1964 ، فلمست من المضيفة عناية خاصة بي حين عرفت انني عربي مسلم . ولم اكن اعرف انها مسلمة ، فاردت ان اكافئها بهدية نقدية جزاء خدماتها ، ولكنها قالت لي : « لا اريد الا ان تكتب لي بالعربية جملة : بسم الله الرحمن الرحيم ، لآخذها هدية ثمينة اقدمها لوالدتي المريضة فى الصين » .

ولما كتبت لها هذه الجملة المباركة ، طوت الورقة باعتناء واهتمام شديدين ، ثم قبلتها ووضعتها على صدرها بكل اجلال واحترام .. !

ترى ! **هل يدرك العرب اليوم ، اهمية التمسك بالاسلام، والدعوة الى التمسك به** لحاضرهم ومستقبلهم ولمصيرهم ؟ !

انهم بذلك يخدمون انفسهم قبل غيرهم ، ولكن ياليت قومي يعلمون !!

ورد علينا من الاستاذ كامل باقر الموسوي من الكوفة بالعراق جواب نقتطف منه ما يلي :

اللغة العربية موطنها الاصلي هو الجزيرة العربية ونعني اللغة المتداولة من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا اي اللغة العربية الشمالية (المضرية) حيث أن اللغة الجنوبية (القحطانية او الحميرية) قد انقرضت تماما عندما انفصلت عنها اختها الشمالية وهي لغة الحجاز والبحرين واليمامة ونجد، ولم يبق منها الا آثارها المنقوشة على خرائب اليمن ودولها القديمة فى حمير وسبا وحمير فكانت النقوش بالخط المسند وهي ابجدية مختلفة كل الاختلاف عما هو فى لغة مضر التي منها لغة القرآن الكريم .

ومن المعلوم ان اللغة العربية قد اقتبست كلمات اعجمية أصبح بعضها وكأنه عربي خالص ومن هذه الالفاظ ، قرطاس ، درهم ، دينار ، سجل ، كرسي قصر ، برنس ... الخ وقد دخلت بعض هذه الكلمات فى الشعر الجاهلي وفى القرآن الكريم كذلك والمعروف أن انتشار اية لغة يتم عن طريق التدوين او تبادل الرسائل وما الى ذلك ، وكل هذا لانعرفه عن العرب قبل الاسلام سوى ما نقراه عن الشعراء الجاهليين وكان من بين هؤلاء من يتنقل خارج الجزيرة العربية الى العراق والشام خاصة اما لاغراضه الشخصية او لغيرها مثل الاعشى وامرؤ القيس وكان فى العراق قبائل عربية عرفت بالمناذرة بعد تاسيسهم دولة بهذا الاسم وجعلوا الحيرة عاصمة لهم وكانت فى الشام دولة الغساسنة ولكن الغالب ان لغة هؤلاء ليست العربية كما ظهر ذلك فى نقوش آثارهم فكانت تكتب بالارامية بعكس المناذرة فان جلهم من العرب كما فصل ذلك الاستاذ جرجي زيدان فى كتابه « العرب قبل الاسلام » ، فاللغة العربية كانت محصورة اذن فى الجزيرة العربية وما حولها واستمر هذا الحال حتى القرن السادس الميلادي تقريبا ثم جاء الاسلام واخذ الرسول (ص) يدعو الى الدين الجديد داخل الجزيرة فى أول الامر وكان القرآن الكريم هو دستوره فانتشر فى عهد الخلفاء الراشدين بواسطة الفتوحات الاسلامية واتسعت رقعة نفوذه أكثر فى عصر الامويين والعباسيين حتى بلغ حدود الصين شرقا والاندلس غربا .

وبما أن لغة هذا القرآن هي العربية وان المسلمين ملزمون بقراءته فقد اصبح التلازم واضحا فى الاسلام واللغة العربية .

تلازم الاسلام والعربية يشهد به جهابذة العجم

للدكتور مصطفى جواد

عضو المجمع العلمي العراقي

اذاعت بعض وزارات الاعلام فى كثير من العواصم العربية نص الاستفتاء حول تلازم الاسلام واللغة العربية كما نشرته صحف ومجلات مع ردودعليه لم نتوصل باصلها نخص منها هذه الكلمة القيمة للدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العلمي العراقي فىمجلة الاذاعة والتلفزيون التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد البغدادية ونحن ننشرها شاكرين :

علاقة الاسلام باللغة العربية كعلاقة الشجرة بارضها ، فلا تحيا الشجرة من غير أن تستقر في ارض تنضم على نواتها او تحتضن غرسها حتى يستمر نماؤها وتطلع ثمارها او تزهر ازهارها ، فلا شجرة بغير ارض ولا اسلام بغير العربية ، وكيف لا يصح هذا القول ، واول ركن من اركان الاسلام هو الشهادتان شهادة الالوهية لله تعالى وشهادة النبوة لمحمد رسول الله ـ عليه السلام ـ ولا يكونان الا باللغة العربية ؟ وكيف لا يصح والقرآن الكريم عماد الاسلام انزل باللغة العربية ، ودعا كل مسلم الى فهم الفروض الاسلامية والواجبات الدينية وهي فى القرآن ، واكثر الامور الاسلامية المفصلة ، والآداب المحمدية المحصلة مذكورة فى السنة النبوية وهي باللغة العربية ؟ فانهم على تجويزهم رواية الاحاديث النبوية بالمعنى اوجبوا ان يكون بدلها من اللغة العربية ايضا .

وهذه الصلاة فى اوقاتها الخمسة وهي من اركان الاسلام والحج والعمرة لا تكون الا باللغة العربية فضلا عن القنوت والدعاء ، والتضرع والرجاء ، هذا فى الامور الاخروية ، اما الشؤون الدنيوية كخطبة الزواج والاقضية والعقود ومحاضر الاحكام فلم تكن الا باللغة العربية ولا تزال كذلك ، فلا عجب أن سايرت اللغة العربية الاسلام اينما سار فى سائر النواحي والبلاد والاقطار ، وكانت الفتوح الاسلامية فتوحا للغة العربية فى بلاد الفرس وبلاد الترك وبلاد الهند وشمالي افريقية وبلاد الاندلس ، وتوغلت العربية فى بلاد الصين مع صلات التجار القاطعين للبحار ، حتى لقد ذكر ابن بطوطة الرحالة انه سمع مغنيا فى الصين يتغنى باللغة العربية فى الثلث الاول من القرن الثامن للهجرة .

وبعد هذا التمهيد يحق لنا ان نقول **ان علاقة الاسلام باللغة العربية وثيقة جدا** ، فالاسلام كان اعظم الاسباب فى انتشارها فى المشارق والمغارب ، وقضائها على عدة لغات قديمة ، واقبال غير العرب على دراستها والتأليف فى كل الفنون بها حتى نحوها وصرفها ، ولذلك كان الشعوبيون وهم ملاحدة يرون فى اللغة العربية غولا تغتال لغاتهم ، فكانوا يقاومونها ويبغضون المعنيين بها كما يبغضون اهلها العرب ، ويحتقرون الذي يتكلم بها ، قال الامام ابو القاسم محمود بن عمر التركي الزمخشري فى مقدمة كتابه المفصل : « الله احمد على أن جعلني من علماء العربية، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وآبى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وامتاز وانضوي الى لفيف

الشعوبية وانحاز وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم الا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين ... ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه ، لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الابلج ، وزيغا عن سواء المنهج، والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة انصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك انهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية : فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية بين لايدفع ؛ ومكشوف لايتقنع ويرون الكلام فى معظم ابواب الفقه ومسائلها مبنيا على علم الاعراب ، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والاخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين ... فهم متلبسون بالعربية اية سلكوا غير منفكين منها أينما وجهوا ، كل عليها حيثما سيروا ، ثم انهم فى تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلها ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزقون اديمها ، ويمضغون لحمها ، فهم فى ذلك على المثل السائر (الشعير يؤكل ويذم) ويدعون الاستغناء عنها ، وانهم ليسوا فى شق منها ، فان صح ذلك فما بالهم لايطلقون اللغة راسا والاعراب ، ولا يقطعون بينها وبينهم الاسباب ، فيطمسوا فى تفسير القرءان آثارها ، وينفضوا من اصول الفقه غبارها » .

وقال الزمخشري يمدح لسان العرب : اللغة العربية :

وقل هل فشا فى الارض غير لسانهم
لسان يشع الضوء واليوم شامس ؟

به عج في امصارهم كل منبر
وطنت به في الخافقين المدارس

على ظهرها لم يخلق الله امة
تناسبهم في خصلة او تلابس

يقايس بين الناس حتى اذا انتهى
الى العرب المقياس طاح المقايس

وواحدة هاتيك تكفيك حجة
بساطعها تنشق عنك الحنادس

اجل رسول منهم وبلسنهم
اجل كتاب فاعتبر يا منافس

وقل للشعوبيين ان حديثكم
اضاليل من شيطانكم ووساوس

فمنذ عصر الزمخشري والعصور التي قبله والعصور التي بعده حتى هذا العصر كانت محاربة الاسلام فى كثير منها محاربة للعربية لانها دائما وابدا اليه تستند وعليه تعتمد ؛ كما ان محبة العربية تنشأ عن محبة الاسلام والمسلمين ، قال الثعالبي فى مقدمة فقه اللغة : « انه عز وجل لما شرف العربية وعظمها، ورفع خطرها وكرمها ، قيض لها خزنة وحفظة من خواص الناس واعيان الفضل وانجم الارض ، فنسوا فى خدمتها الشهوات ، وجابوا الفلوات ، ونادموا لاقتنائها الدفاتر ، وسامروا القماطر والمحابر ، وكدوا فى حصر لغاتها طباعهم ، واسهروا فى تقييد شواردها اجفانهم ، واجالوا فى نظم قلائدها افكارهم ، وانفقوا على تخليد كتبها اعمارهم ، فعظمت الفائدة ، وعمت المصلحة وتوفرت العائدة ، وكلما بدت معارفها تتنكر، او كادت معالمها تتستر ، او عرض لها ما يشبه الفترة، رد الله تعالى الكرة ، فأهب ريحها ، ونفق سوقها » .

فالعربية لغة مقدسة شرفها الله وعظمها بأن جعل الاسلام مستندا اليها ، فى قرآنه وايمانه وسنته وبيانه ، واحكامه ونظامه ، فمحبتها واجبة ، على كل مسلم ومسلمة ، ورعايتها لازمة راتبة ، **وهي والاسلام متلازمان** وفي الناس من اهل الملل الاخرى من يكره العربية لكراهيته للاسلام ، ومن الناس من يبغض الاسلام لبغضه العربية وهم اكثر من اولئك ، فمنهم من يدعو الى اللهجات العامية ومنهم من يدعو الى الاستبدال بحروفها ، وبعض الدول دعت الى تركها بتة وترك خطها بمرة لكراهة زعيمها للاسلام . فالتلازم ظاهر فى كل الاحوال وفي كل مجال ، **وقد انزوت اللغة العربية منذ عدة عصور من عدة بلاد بسبب التعصب للقومية** ، والدعوة الى عصور الجاهلية ، والانتقام من العربية بما فتحت من بلاد ، ونشرت من آداب ، ووطدت من الاسلام ، وبثت من علوم ، واوهنت أو اهلكت من لغات .

إيمان الشعوب الإسلامية بالقرآن :

فتح المجال للغة العربية

للدكتور : فاضل الطائي

رئيس مجلس البحث العلمي
وعضو المجمع العلمي العراقي

ان الارتباط ما بين الاسلام واللغة العربية ارتباط وثيق لا سيما الاسلام والعرب ، اذ لولا ايمان العرب برسالة النبي محمد (ص) لما انتشر الاسلام الى البلاد الاعجمية ، وبانتشار الاسلام وايمان الشعوب غير العربية بالقرءان انتشرت اللغة العربية فى مختلف امصار العالم ، ولولا الاسلام لما كان للعرب كيان شامخ وحضارة اصيلة وفتوحات واسعة، ولولا القرءان لما حافظت اللغة العربية على قواعدها واسسها عندما تعرضت البلاد العربية لشتى الغزوات الاعجمية ، واخيرا الاستعمار .

وخلاصة القول ان العرب قد نشروا الدين الحنيف وبانتشاره عمت اللغة العربية فى البلدان المسلمة ؛ ولولا القرءان لما تمكنا من الحفاظ على اللغة العربية سليمة .

ان العناية بالدين واجبة ، وحفظ القرءان على الغيب يقوي لغة حافظه ، فالذين يحفظون القرءان الكريم اكثرهم لا يلحن رغم جهل بعضهم بقواعد النحو والصرف .

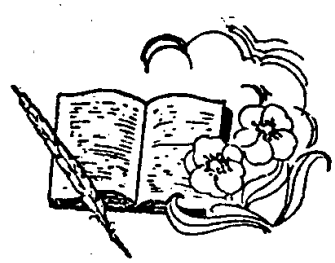

لولا الإسلام ما استطاعت اللغة العربية أن تكون لغة الحضارة الإنسانية . ولكن عدم انتشارها ليس عائقاً لترسيخ الروح الإسلامي

للأستاذ محمود الجومرد

مفتش التربية العام (بغداد)

ظهر الاسلام فى جزيرة العرب ، فنزل الكتاب المقدس قرآنا عربيا مبينا . وشاءت حكمة الله ان يرسل كل رسول بلسان قومه ليفهموا رسالته وليهتدوا الى الصراط المستقيم ؛ صراط الذين انعم الله عليهم . ودليل ذلك ما جاء فى القرءان الكريم (1) (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ؛ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) . والدعوة السماوية لا تفرق بين لغة ولغة ، وفرد وفرد ؛ ولون ولون ؛ وجنس وجنس ، ولكنها عامة شاملة ؛ تبدأ بذرة صغيرة فى بيئة تساعدها على النمو والحياة ، ثم تكبر وتزهر فتثمر ، وعندئذ لا يقف عندها حد ؛ ولا تعيقها السدود والقيود .

وهكذا نشأت دعوة الاسلام فى بيئة عربية ، حتى اذا ما ترعرعت بدات تنتشر ؛ وللعرب فضل نشرها . والاسلام فى جوهره قوة واندفاع وقابلية للتغلغل في أعماق الارواح الطيبة والنفوس المطمئنة والعقول الواعية ؛ لذلك كانت عوامل انتشاره كامنة فى جوهره مناسبة للظروف التي نشأ فيها ؛ وقد كان العالم يومئذ بين وثنية ومجوسية وطبقية ورق وعبودية واستغلال القوي للضعيف وحرمان المراة من حقوقها وفوضى فى الحياة الاقتصادية ؛ الى آخر الاوضاع التي سادت الشعوب البدائية والحضرية . فلما جاء الاسلام نظم الحياة وشرع لها القوانين وحفظ حقوق الضعفاء وساوى بين الناس ؛ واكرم الناس عند الله اتقاهم . كل هذه المثل العليا كانت تستهوي أرباب العقول والقلوب للدخول فيه واعتناق مبادئه .

وبفضل الاسلام ساد العرب وسادت اللغة العربية . وانتشار اللغة العربية كان لسببين : اولهما ان العرب كانوا هم الحكام الغالبين ، ولغة الحاكم دائما وابدا تسود وتطغى على لغة البلاد المحكومة لعوامل كثيرة — لسنا بصددها الآن — فتعلمها المسلمون وغير المسلمين ؛ وتحدثوا وكتبوا بها ؛ ولغة الحاكم تضعف كذلك بضعفه وتنقرض بانقراضه ، وهذا ما حدث للعرب ولغير العرب ، وتلك سنة الله فى خلقه ؛ ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والسبب الثاني هو ان القرءان وما فيه من اعجاز ؛ والشريعة الاسلامية وما فيها من أحكام ، كل هذا جعل المفكرين من المسلمين غير العرب يسعون الى تعلمها ودراستها ، فنبغ منهم خلق كثير فى الفقه وقراءات القرءان والنحو والصرف وفقه اللغة والادب ولو عددناهم لوجدناهم اكثر عددا وتأليفا وانتاجا من العلماء العرب فى كل ناحية من النواحي الدينية واللغوية والادبية .

---

(1) سورة ابراهيم الاية (4) .

لذلك فلولا الاسلام **ما استطاع العرب ان يجتمعوا ويتوحدوا وينتشروا في بقاع الارض** ويقضوا على اكبر دولتين في ذلك العهد : دولة الفرس ودولة الروم . **ولولا الاسلام ما استطاعت اللغة العربية ان تنتشر وان تكون لغة الحضارة الانسانية** قرونا عديدة .

ولكل دعوة انسانية ـ مهما كانت ـ أعداء واضداد ، وقد ظهرت جماعة من اليهود وهم (العيسويون) (2) اتباع ابي عيسى الاصبهاني اليهودي، وهؤلاء لا ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم يقولون : انه كان مبعوثا الى العرب خاصة دون العجم ، مستندين الى ان القرءان عربي ، والدعاة هم من العرب ، موهمين العامة بأن بعض الآيات التي وردت في القرءان تشير الى انه عربي وهو للعرب فحسب .

وفي القرءان الكريم تسع عشرة سورة تبدأ بذكر كلمة (الكتاب) واربع سور تبدأ بذكر كلمة (القرءان) وسورة واحدة تبدأ بذكر كلمة (الفرقان) ، وبين هذه السور ثلاث سور (مكية) وهي : 1) سورة (يوسف) وفيها الآية الثانية (انا انزلناه قرءانا عربيا لقوم يعقلون) ، و 2) سورة (فصلت) وفيها الآية الثانية (كتاب فصلت آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون) و 3) سورة (الزخرف) وفيها الآية الثانية (انا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون) . والآيات المكية نزلت قبل الهجرة والدعوة في بدئها ، وهي تنصب ـ كما يعلم دارسو التفاسير ـ على الاقناع والتوجيه والعبرة والموعظة ومناقشة المعاندين المكابرين ومخاطبة ذوي العقول من أهل مكة ، ومنها هذه الآيات الثلاث التي تخاطبهم وتقول لهم : ان هذا القرءان واضح وصريح وهو بشير ونذير بلغتكم الواضحة المفهومة وهي العربية .

وقد وردت الآية (42) في سورة (فصلت) قوله تعالى : (ولو جعلناه قرءانا اعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ءاعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهم عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) .

وكلمة (أعجمي) هنا تعني : الغامض غير الواضح او الساكت العاجز عن الاجابة ، وهذا ما أورده المفسرون جميعا . وكلمة (عجم) وهو فعل ثلاثي مجرد تجده في المعاجم اللغوية كلها يدل على الغموض والابهام ، ومعاني الافعال التي تحصل من زيادة (احرف الزيادة) عليه لا تخرج عن هذا المعنى .

فالدعوة الاسلامية دعوة انسانية ليست خاصة بقوم دون قوم وعنصر دون عنصر ، ولولا الاسلام ما انتشرت العربية وكانت لغة الاداب والعلوم ، **ولولا الاسلام لاصاب اللغة العربية من الضعف ما أصاب لغات الاقوام الاخرى** الذين ضعف حكمهم فانقرضوا .

ولعل كل ما ذكرناه يلخصه عبد الرحمن بن خلدون في (مقدمته) (3) فيقول : (اعلم أن لغة اهل الامصار انما تكون بلسان الامة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ، ولذلك كانت **لغة الامصار الاسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية** ، وان كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير اعرابه . والسبب في ذلك ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد لها ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين انما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما ان النبي صلى الله عليه وسلم عربي ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الالسن في جميع ممالكها ..... فلما هجر الدين اللغات الاعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا ، هجرت كلها في جميع ممالكها ، لان الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب ، وهجر الامم لغاتهم والسنتهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة ، ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره وان كان بقي في الدلالة على اصله ..... ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق ، وزناتة والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية ، فسد اللسان العربي لذلك ، **وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين ، وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر والكلام الا قليلا**

---

2) كتاب (التبصير بالدين وتمييز الفرق الناجية عن فرق الهالكين) . للامام الكبير ابي المظفر الاسفراييني) ص 122 .

3) كتاب : مقدمة ابن خلدون ص 266 . المطبعة البهية .

من الامصار ، فلما ملك التتر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ، ولم يبق لها رسم فى الممالك الاسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم ، وذهبت اساليب اللغة العربية من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب ، وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك ، وربما **بقيت اللغة العربية بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين** طلبا لها، فانخفضت بعض الشيء ، واما فى ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له اثر ولا عين ، حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه فى المجالس ، والله اعلم بالصواب)

فابن خلدون الذي عاش بين سنتي 1332 م – 1406 م ادرك هذه الظاهرة وهي **أثر الاسلام فى الحفاظ على اللغة العربية** ولولاه لاضمحلت وتغيرت وضاع أدبها ونحوها وصرفها .

أما سؤالكم : هل ان الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف وأن العكس بالعكس ؟ ؟ . لقد تهيأت لي فرصة الذهاب الى تركيا وزرت بعض جوامع ومساجد استانبول) فوجدت الجوامع ايام الجمعة تغص بالمصلين شيبا وشبانا واستمعت الى قراءة القرءان بترتيل رائع وصوت مؤثر رخيم ، وكان خطيب الجمعة يقرأ بعض آيات من القرءان الكريم ويفسر معانيها باللغة التركية ، والحاضرون ليس بينهم من يحسن اللغة العربية .

اما الاكراد فى شمال العراق فهم مسلمون متمسكون باسلامهم كل التمسك ، حتى ان معظم النساء لا يتركن الصلاة ، وقد انتشرت بينهم بعض الطرق الصوفية ، ولهذه الطرق اوقاف وتكايا كلها للعبادة ولاقامة شعائر الدين الاسلامي .

لذا فعدم نشر اللغة العربية ليست عائقا لترسيخ الروح الاسلامي اذا ما اهتمت الدولة المسلمة بتدريس القرءان فى مدارسها واعدت معلمي التربية الدينية اعدادا صحيحا وعنيت برجال الدين .

والعرب اذا ما ارادوا خدمة الدين الاسلامي واللغة العربية فعليهم ان يأتوا بشباب المسلمين من الاقوام المختلفة ويربوهم فى المراكز الدينية الاسلامية المنتشرة فى البلاد العربية ويعدوهم اعدادا صحيحا سليما ، وبذلك نضمن تفقههم فى الدين ونشره وتثبيته فى نفوس الاقوام المختلفة ، ونضمن كذلك احترام اللغة العربية وانتشارها بينهم .

أما السؤال الآخر : وهو مدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان فى اللهجات واللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية أو لدى الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية والاسيوية ؟؟ فنحن نعتقد بأن هذا التأثير محدد وقاصر على الكلمات الواردة فى القرءان والشريعة الاسلامية وليس لها مقابل فى لغات الاقوام غير العربية ، وعدد هذه الكلمات قليل ، وليس على القليل قياس ! ! .

العربية خالدة بخلود دستور الاسلام

ن . ع كلية الشريعة . (بغداد)

1) ان العلاقة بين الاسلام واللغة العربية غير خافية ، حيث أن الله تعالى اختارها اداة لوحيه ، كما ان الرسول الكريم استعملها لتبليغ رسالته وصنف المسلمون كتبهم بالعربية وصار الاسلام حيثما حل حلت معه أداته التي هي اللغة العربية .

ذلك ان خطب الجمع والاعياد لاتزال تلقى بالعربية حتى فى البلاد التي لاتفهم العربية ثم يجري شرح النص العربي بعد ذلك بلغة محلية .

ففي ايران وجدت المتحدث المسلم يذكر النص العربي ثم يشرحه بالفارسية وهذا ما يقوم به الافغانيون والباكستانيون واكثر الشعوب المسلمة .

وكل مسلم يلزم نفسه تعلم العربية تبعا لمدى تعلقه بالاسلام وذلك ليتأتى له ان يقرأ بها كتاب الله وحديث رسوله ويقوم بالمناسك من صلوات ودعوات وليتملى ايضا بدراسة النصوص الاسلامية من منابعها العربية .

ومن زار ايران وتركيا أو باكستان حتى افريقيا وروسيا يجد ان نظام تعليم اللغة العربية يتطور فى ظل الاسلام وتحت كنفه .

2) ولاشك ان العربية بما تمتاز به من سعة قد اعانت على انتشار الاسلام لكن لو فرضنا أن الاسلام نزل بلغة اخرى للاقى مثل هذا الرواج والانتشار لميزات ذاتية ليس هذا محل ذكرها ويتضح ذلك جيدا فى اسلام الملايين فى العالم وهم لايعرفون العربية لكنهم بعد اسلامهم يأخذون بتعلمها .

3) ان الوعي الاسلامي يؤدي تلقائيا الى العناية بالعربية لانها الوسيلة لفهم الاسلام لكن العكس غير لازم عدا خارج الاقطار الاسلامية حيث ان المعنى بالعربية فى الغالب يعتنق الاسلام ويدافع عنه .

ان الفرس والاكراد حين كانوا متحمسين للاسلام كان تعلمهم للعربية اقوى فلما فشت بينهم الافكار القومية صاروا يؤثرون لغاتهم على اللغة العربية .

ففي العراق مثلا اتسع نطاق تعليم العربية لكن ذلك لم يأت بالوعي الاسلامي . وفى لبنان مثلا دراسات للعربية ونشر للكتب قديمها وجديدها لكن الوعي الاسلامي ليس كذلك . والمستشرقون وتلاميذهم يتعلمون العربية لكن لم يجرهم ذلك لوعي اسلامي وان كنت أعلل بعض ذلك بالتعصب .

4) اما تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات أو اللغات الاقليمية فالذي يتيسر له زيارة بلد كايران مثلا يجد أكبر الاثر فى الفارسية للعربية فالخط عربي والكلمات كذلك واول اعلان يقابله هو (استعمال دخانيات اكيدن ممنوعت) . وهذه كلها مفردات عربية زيد فيها حرف أو اكثر . وقل مثل ذلك فى باكستان او افغانستان واقل من ذلك فى تركيا واذا كانت الحملة التي قادها مصطفى كمال قد قلصت المعالم العربية فى التركية بتغيير الخط العربي بالخط اللاتيني فان الكثير من المفردات ما زالت على اصلها العربي .

اما فى داخل العراق فاللهجات لدى الاكراد والتركمان والفرس تعج بالمفردات والتراكيب العربية كما أن الخط فى الكل ما زال عربيا واما مدى ذلك التأثير فليس بامكاني تحديده لكن يكفي أن نعلم أن العربي فى كثير من الاحيان يفهم كلام غيره لمجرد وجود العديد من الالفاظ العربية فى كلامه .

5) ان العربية لغة البلاد الرسمية فى العراق وباستثناء المرحلة الابتدائية من التعليم فى شمال العراق فان التعليم بالعربية ولكن الخطر كل الخطر يكمن فى النزعات القومية التي ربما جنت على العربية كما جنت عليها فى تركيا . وليس من ضمان غير بقاء روح الاسلام تشرق على هذه البلاد وسواها لتعيش العربية فى ظله .

انتشار اللغة العربية بفضل: قوة الإسلام السياسية والدينية

للدكتور ابراهيم عبد الرحمن محمد

الاستاذ بقسم اللغة العربية
(جامعة الكويت)

ليس هناك من شك فى أن ظهور الاسلام وانتشاره **كانت له آثار كبيرة على انتشار اللغة العربية خارج** الجزيرة ـ هذه حقيقة تاريخية ولغوية ، فقد كانت هناك ، قبل الاسلام ، أمم مختلفة تجاور الامة العربية ، وكانت هذه الامم تتكلم لغات مختلفة . ولم نسمع عن تأثر هذه اللغات باللغة العربية قبل ظهور الاسلام على الرغم من الاتصال المستمر الذي كان موجودا بين هذه الامم عن طريق التجارة وطريق الامارات العربية على حدود الجزيرة . فلما انتشر الاسلام خارج الجزيرة ، حدث ما يعرف فى علم اللغات **بالصراع اللغوي** ، ونعني به هذا الصراع الذي ينشب عادة بين لغة **الشعب المنتصر ولغة الشعب المهزوم** . وهو صراع حتمي ، ونتيجته دائما فى صف الفاتحين ، ولم يحدث فى تاريخ الصراع اللغوي الطويل الذي صاحب هذه الحروب المستمرة منذ نشأة البشرية حتى اليوم ان تغلبت لغة الشعب المنهزم على لغة الشعب المنتصر ، ولكن حدث ان احتفظت لغة المنهزمين بقوتها فى حالتين :

الاولى : عندما غزا الرومان القدماء اثينا القديمة ، ودمروا استقلالها ، ولكن هذه الهزيمة قد صاحبها انتصار ، او قل قد عوضها نصر ادبي ، فقد تأثر الادب الروماني بالادب اليوناني تأثرا واسعا ..

والثاني ، عندما احتلت فرنسا وبريطانيا بعض الاقطار العربية ، وقبلهما عندما فتحت تركيا العالم الاسلامي جميعه ، فعلى الرغم من الهزيمة التي نزلت بالامة العربية ، فى ذلك الوقت واستمرار هذا الاحتلال لفترة طويلة ، **فان اللغة العربية ظلت صامدة** ، ولم تستطع لغة الفاتحين أن تقضي عليها .

وهذا كله يقودنا الى تقرير حقيقة مهمة ، هي ان **اللغة العربية تستمد قدرتها على البقاء من قوة الشعب** الذي يتكلمها ، سواء اكانت هذه القوة سياسية أم دينية . وهذه الحقيقة بدورها تقودنا الى حقيقة اخرى اشد خطرا وابعد اثرا ، هي ان **انتشار اللغة العربية** خارج الجزيرة كان **نتيجة لتلك القوة السياسية والدينية التي اصابها العرب بفضل ظهور الاسلام** . واذا رحنا نبحث هذه القضية فى ضوء ظروف العصر الحديث ، اتضح لنا أن القوة السياسية والقوة الدينية لم تعودا ، كما كانتا فى القديم من الاسباب التي يمكن ان يعزى اليها انتشار لغة شعب من الشعوب على نحو ما حدث للغة العربية عند ما انتشرت فى فارس ومصر والشام . وانما صار العامل الفعال في انتشار اية لغة وسيادتها ، مرتبطا بقدرة هذه اللغة على السمو بأدبها ، وقدرة هذا الادب على اشباع عواطف القراء عن طريق ما يكتب بها من روائع الادب بأجناسه المختلفة : الشعر والمسرح والقصة . ولكن لا ينبغي أن نهول من قيمة هذا العامل الثقافي فى انتشار اللغات ، فقد انتشرت الترجمة ، وارتقت وسائل الاعلام ، كالاذاعة والتليفزيون والسينما والصحافة .... بحيث أصبح من الممكن الاستغناء بهذه الوسائل للتعرف على الثقافات الاجنبية من غير حاجة الى قراءتها فى اصولها اللغوية .

ونستطيع ان نقرر ، قياسا على ما تقدم ، أن الدين الاسلامي قد ساعد ، فى العصور القديمة ، على انتشار اللغة العربية ، ولكن **لاينبغي ان نتوقع ان يكون له دور مستقر فى انتشار هذه اللغة فى العصر الحديث** ، فقد اغنت عن هذا الدور وسائل الاعلام الحديثة ، وانتشار الترجمة المتخصصة ، كما ان ادبنا العربي الحديث لا يزال فى طريق التطور ، وهو يتأثر بالآداب الاجنبية الراقية اكثر مما يؤثر فيها .

بفضل اللغة العربية أصبحت الشعوب الإسلامية أغنى الأمم علماً وفكراً وثقافة في العصور الوسطى

للدكتور أحمد نصر الدين الغندور

استاذ الشريعة والعلوم الاسلامية
جامعة الكويت

كان العرب قبل الاسلام يتحدثون باللغة العربية ، ولكنه لم تتحقق وحدتهم فى الجزيرة العربية ، لان طبيعة البلاد فيها ، وتباعد سكانها ، وتفرقهم في الصحراء ، ادى الى صعوبة الامتزاج ، مما نجم عنه اختلاف اللهجات العربية ، حتى اصبحت هذه اللهجات وكانها لغات بعيدة فى اصلها العربي ، وكانت لهجة قريش اكثر اللهجات انتشارا .

وقد انغمس بعض العرب قبل نزول القرآن الكريم فى المسائل السياسية والاجتماعية ، وتناسوا لغتهم العربية ، وساعدت الامية على اهمال اللغة العربية احيانا ، بل ذهب البعض الى ان الاهداف الاجتماعية والاقتصادية انتصرت على الاهداف الادبية فى اسواق العرب .

اما وقد اصبحت اللغة العربية وحدها قبل الاسلام لا تستطيع ان توحد العرب ، وتجمعهم تحت راية واحدة ، فكان لا بد من اساس آخر يدعم هذه الوحدة ، فنزل القرآن الكريم كتابا عربيا ، يدعو الناس جميعا الى دين واحد ، يتضمن **وحدة اللغة** ، فكانوا يدخلون فى دين الله افواجا ، وحرصوا على ان يتفهموا لغة القرآن ، ووسعت اللغة العربية كتاب الله وسنة رسوله لفظا وغاية ، وصمدت لطغيان التتار ، وقهرت محاولات الفرس ، حتى امتد الاسلام من الجزيرة العربية الى اقصى الهند والصين ، ولولا ما طرأ على الاسلام من اختلافات سياسية ، وظلم بعض حكامه لدخل فيه اكثر البشر ، ولصارت اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، لغة لكل من دخل فى الاسلام من الامم غير العربية .

والتاريخ يدلنا على أن تمسك السابقين بقرآن الله العربي المبين حمل بعض الامم على تعلم لغة العرب . وها هي ذي **مصر** واخواتها العربيات ، **كالعراق والشام ، وتونس والجزائر ، والمغرب الاقصى قد تعلمت العربية** ، وصارت مهدا لها في عصرنا الحاضر ، ولولا ذلك لبقيت مصر على اللغة القبطية او الرومية ، والعراق على الفارسية وهكذا ، ولكان هذا نكبة على العروبة والاسلام .

ومما لا شك فيه ان الاسلام الذي جاء على يد رسول عربي بقرآن كريم خلدت به اللغة العربية وتقدست ، كان له من الاثر العظيم فى حياة البشرية وحضارتها ، وكان وما يزال القرءان اعظم الامجاد التي تفخر وتعتز بها الامة الاسلامية ، ولقد بلغ القرآن فى بلاغة اللغة العربية ذروة الاعجاز في الاسلوب والنظم والتاثير فى نفوس المؤمنين والكافرين على السواء ، لان اسلوبه الذي طرق فى اول عهده آذان البدو كان نثرا يفيض جزالة فى اتساق نسق ، لفعله اعمق الاثر فى نفس كل سامع يفقه لغة العرب . كما كان القرآن الكريم سببا فى تدفق الناس على الجزيرة العربية ، والظهور على اعظم ملوك الارض « كسرى وقيصر » وازالة الشرك والظلم ، ونشر التوحيد

والعدل ، ودخول الناس فى دين الاسلام مختارين ، واضعين نصب اعينهم تعلم اللغة العربية ، لعنايتهم بفهم القرآن الكريم .

وهذا الاسلوب العربي غير ما بانفس العرب وغيرهم ، مما جعل الوليد بن المغيرة المخزومي ينطق بأن القرآن الكريم هو الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه ، والذي يحطم ما تحته ، وصدق الله حيث قال : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ... »

ولقد صاح الاسلام بالبشرية صيحة دعاها بها الى الوحدة الانسانية العامة . دعاها الى ملة واحدة ، ودين واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسها واحد ، وربها واحد ، وكان مما دعاها اليه الوحدة فى اللغة ، لانه **لا يمكن الاتحاد والاخاء بين الناس ، وصيرورة الامة الاسلامية امة واحدة الا بوحدة اللغة** . وما زال العلماء يتمنون لو يكون للناس جميعا لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام . بجعل لغة القرآن ، لغة جميع المؤمنين بالله ، الخاضعين لشريعته .

لذلك كرر الله فى القرآن الكريم انه كتاب عربي ، وكرر الامر بتدبر وتفقه ما فيه ، حتى دعا غير المؤمنين الى تعلم لغة القرآن ، ليخضعوا لاحكامه « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين . على قلبك ، لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »

والدليل على الدعوة الى وحدة اللغة ما رواه الحافظ بن عساكر بسنده الى مالك ، عن الزهري ، عن ابى سلمة بن عبد الرحمن ، قال : جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل ، (ويعني النبي صلى الله عليه وسلم) . وان الأوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي الى نصره ؟ فقام اليه معاذ بن جبل فأخذ بتلبيبه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بمقالته ، فقام النبي مغضبا يجر رداءه ، حتى اتى المسجد ، ثم نودي : ان الصلاة جامعة . وقال : « ايها الناس ، ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحد ، **وليست العربية باحدكم من اب ولا ام ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي** » فقام معاذ ، فقال : ما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : « دعه الى النار » فكان قيس ممن ارتد فى الردة ، فقتل .

ولقد **ادى انتشار الاسلام الى انتشار اللغة العربية** ، وامتزجت الحضارات **وربطت اللغة العربية جميع البلاد الاسلامية برباط معنوي** ، وان اهل الامصار الاسلامية يزداد اسلامهم كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن الكريم .

كما ذاع النفوذ العربي ، **وسادت اللغة العربية** فى مختلف الارضين **بظهور علوم القرآن والسير وعلوم الرجال** ، وعلوم الفقه والاصول وتطلع المسلمين الى الوقوف على احوال الكون وتسخيره ، وتعميره ، وظهور علوم الرياضيات ، والفلك ، وعلوم الفلسفة ، والاديان والعقائد ، والطب ، وغير ذلك من شتى الفنون والعلوم التي الفت باللغة العربية ، ولم يكتمل القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوب **الاسلامية اغنى الشعوب علما ، وفكرا ، وثقافة ، واعتزازا بلغتهم العربية** .

وليس من شك فى ان الحريص على اللغة العربية يقض مضجعه ما آل اليه امرها الآن من انتشار اللهجات العامية فى البلدان العربية ، التي تفيض ركاكة ، وترضخ عجمة حتى نجد بينها وبين لغة العرب فرقا شاسعا ، ومما يؤسفنا اننا نجد الكثير من المثقفين من ابناء العرب ، لا يكاد لسانهم يستقيم باللغة العربية الفصحى ، ولكنها تتعثر بين شفاههم ، وكذا وسائل الاعلام يدور معظمها على الحديث بالعامية ، وهذا التهاون والتفريط فى صيانة اللغة العربية ربما يؤدي الى طمس بعض آثارها فى المستقبل .

ويزعم البعض من ابناء العرب ان التحدث بألفاظ عامية ممتزجة بالفاظ افرنجية نوع من معالم الحضارة ، ولون من سمات التقدم والمدنية ، حتى بعدت الشقة بين العرب ولغتهم ، وما علم هؤلاء العابثون بلغة القرآن انهم يخنقون باتجاههم المنحرف انفاس اللغة العربية فى حين انها اس امجادنا ، واسمى مقوماتنا .

وبعد ، فليس ثمة شك فى ان **بين الاسلام ولغة العرب ارتباطا وثيقا ، فالقرآن هو الحارس للغة العربية** من احداث الزمن ، وهو الذي كفل لها البقاء والدوام ، مهما دبر لها من سوء ، ومهما فرط اهلها فى الاعتزاز بالتحدث بها . وانه كلما قويت الصلة بالقرآن ، وتدبر الناس الفاظه ومعانيه كان للجميع ملاذا ، وللغة العربية حصنا واقيا .

تطور الوعي الإسلامي

رهن بسعة نفوذ اللغة العربية

للاستاذ زكريا البري

رئيس قسم الشريعة والدراسات الاسلامية (جامعة الكويت)

1 ـ اختار الله ـ سبحانه ـ العرب ليكونوا حملة الاسلام الى جميع شعوب الدنيا ، واصطفى من بينهم محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فبعثه اليهم رسولا من انفسهم ، و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وانزل الله تعالى القرءان بلسان عربي مبين ، وتولى الرسول بيانه بالسنة النبوية العربية ، « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

وتلقى عنه صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ هذا وذاك ، واضافوا اليهما اجتهاداتهم وتطبيقاتهم ، وحملوا ذلك الى جميع الامم والاجيال من بعدهم ، تراثا عربيا ، محفوظا فى الصدور ، أو مكتوبا فى السطور .

وكان من الحكمة الالهية فى انزال القرءان بلغة واحدة ، هي اللغة العربية ، مع أن رسالة الاسلام عامة لجميع الناس والاجناس ـ **ان يلتقي المسلمون** ـ مهما اختلفت لغاتهم وشعوبهم **على لغة واحدة ، هي اللغة العربية** ، التي حملت اليهم وحي السماء وهدايتها ، وفى ذلك تحقيق وحدتهم اللسانية والفكرية والاجتماعية والسياسية . فان اللغة الواحدة ـ كما يقول أحد الفلاسفة الالمان ـ تجعل من الناطقين بها كلاما متراصا خاضعا لقوانين ، اذ انها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الاذهان .

ومن هنا كانت قراءة القرءان العربي ركنا من اركان الصلاة ، وهي عماد الدين ، بحيث يجب على كل مسلم حفظ آيات منه ، يؤدي بها صلاته ، وكانت تلاوة القرءان فى ذاتها طاعة وعبادة .

وبجانب هذا وضع الفقهاء اللغة العربية فى مرتبة دينية خاصة ، حيث ذهب بعضهم الى عدم صحة عقد الزواج ممن يتكلم العربية الا بألفاظ عربية معينة لا يغني عنها غيرها من اللغات ، بل زاد بعضهم وطالب من لا يعرف العربية بتعلمها ما دام قادرا حتى يكون الزواج صحيحا .

لهذا ولغيره كانت **العربية هي لغة الاسلام** ، ولسان المسلمين ، وكان تعلمها أمرا مطلوبا ، ينبغي على كل مسلم ـ مهما كان جنسه وبلده ـ المبادرة اليه بقدر طاقته ووسعه ، حتى يؤدي الشعائر الدينية اداء صحيحا كاملا ، وحتى يزداد معرفة بالاسلام ، بالرجوع الى مصادره السماوية العربية الطاهرة .

وقد ادى ذلك الى **انتشار اللغة العربية بانتشار الاسلام** ، تسير معه وفى ظله ، اينما سار ، وكانت لها الغلبة الا فى احوال خاصة ، وقفت فيها رواسب الشعوبية حائلا بين بعض المسلمين ولغة الاسلام . فانحصرت اللغة العربية ــ حينئذ ــ فى ساحة المسجد والدراسة الدينية ، تؤدى بها الصلاة وشعائرها ، ويخطب بها فى يوم الجمعة ، ويتعلمها من يعدون انفسهم للتفقه فى الدين ، وانذار قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

وقد كانت مصر احدى البلاد التي انتشرت فيها اللغة العربية تدريجيا خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، حتى اذا ما جاء القرن الرابع كانت اغلبية شعبها قد تركت اللغة اليونانية ــ كلغة للدواوين ــ واللغة القبطية ــ كلغة للحديث الى اللغة العربية ، التي اضطر رجال الكنيسة فى هذا القرن الى ان يلقوا مواعظهم فى الكنائس بها ، بعد أن أصبحت هي اللغة السائدة بين الافراد ، لا فرق بين مسلم وغيره .

2 ــ **وكلما زادت المعرفة باللغة العربية زاد الوعي الاسلامي السليم** ، والمعرفة الصحيحة لاصول الاسلام وفروعه ، واحكامه واهدافه ، حيث تؤخذ من منابعها الاصلية ــ قرءانا كريما وسنة نبوية ــ دون أن يدخلها تحريف او تأويل .

اما الوازع الديني فانه لا يرتبط باللغة العربية ارتباط الوعي الاسلامي بها ، لان هناك عوامل اخرى تؤثر فى وجوده ويقظته ايضا ، ومن ذلك اساليب التربية ، والتقاليد الاجتماعية ، والاسوة التي يجدها المسلمون فى ائمتهم وقادتهم من الحكام والعلماء ، ومقدار العناية بالرد على الدعوات الالحادية ، والتيارات المعادية للاسلام .

3 ــ واللغة العربية تحتل فى بلدي مصر ، وفى الكويت بلد الجامعة ، المكانة الاولى . وتنص المادة الثالثة من الدستور الكويتي على أن « لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربية » .

وينبغي للبلاد العربية ــ بصفة خاصة ــ ان تعنى باللغة العربية العناية الكاملة حتى تكون لها ــ دون غيرها ــ السيادة كاملة فى بلادها : رسميا وثقافيا وشعبيا ، بحيث تصبح وسيلة الكتابة والتخاطب ، لا يعدل عنها الا للضرورة .

ومع ان معرفة **اللغات الاجنبية** مطلوبة بمقدار الحاجة اليها ، بل انها **من الفروض الاسلامية الكفائية** الواجبة فى المجتمع الاسلامي وفى حدود المصلحة ، فانه ينبغي الا يكون تعلمها على حساب اللغة العربية .

وقد بذل الاستعمار جهودا كبيرة فى التمكين للغته ، والتضييق على اللغة العربية ، ونجح فى ذلك بنسب متفاوتة فى بعض البلاد ، ولم ينجح فى بعضها الآخر . وكان للازهر ــ جامع الاسلام وجامعته ــ الفضل الاكبر فى هذا المجال .

وفى المكانة الاسلامية للغة العربية يقول الثعالبي: « من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن احب الرسول العربي احب العرب، ومن **احب العرب احب العربية**، ومن احب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته اليها . ومن هداه الله للاسلام ... اعتقد ان محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ خير الرسل ... **والعربية خير اللغات** ، وان الاقبال على تفهمها من الدين ، اذ هي اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد ، ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها .. الا قوة اليقين ، فى معرفة اعجاز القرءان ، وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة ، التي هي عمدة الاديان ، لكفى بها فضلا يحسن اثره ، ويطيب فى الدارين ثمره » .

ويقول الفقيه ابن تيمية : « **ويكره التخاطب والتعاقد بغير العربية لغير حاجة** ، وقد روى عن مالك والشافعي واحمد ما يدل على كراهية اعتياد المخاطبة بغير العربية لغير حاجة » . ويروي الاصمعي انه كان مما يخل بالمروءة فى عصره التكلم فى مصر عربي باللغة الفارسية .

واللغة العربية لغة سهلة ليس فيها صعوبة غيرها من اللغات ، والصعوبة التي يلصقها بها بعض اهلها وغيرهم ، سببها عدم العناية بدراستها ومعرفتها كما عنوا بغيرها .

وقد نشرت الصحف المصرية أن أستاذا بجامعة السوربون كتب فى صحيفة الموند الفرنسية ، يدعو الى تدريس اللغة العربية فى المدارس الفرنسية ، قائلا انها سهلة ، واسهل ما فيها كتابتها من اليمين الى اليسار، وهذا هو الاصل فى الكتابة .

لغة القرآن محت القبطية في مصر والبونيقية في الشمال الافريقي والنبطية في العراق واللاتينية في الشام

للأستاذ عبد السلام هارون
رئيس قسم اللغة العربية
(جامعة الكويت)

لا ريب أن الاسلام الذي نزل كتابه باللغة العربية ، ونطقت سنته باللغة العربية ، وانطلقت السنة صحابة رسوله بهذه اللغة ، وهي كلها في مجموعها من أصول التشريع الاسلامي — لا ريب أنه كان العامل الاول في انتشار اللغة العربية على نطاق واسع سريع في انحاء المعمورة قديما وانه لولا النكسات السياسية التي صنعتها الغارات التترية ، والنكسات الاجتماعية التي ساقتها التيارات الشعوبية ، لغطت هذه اللغة مساحة تفوق المساحة التي استقرت فيها الآن .

واللغة العربية قبل القرآن والسنة لم تكن تدور الا في نطاق محدود بين العراق والحجاز شرقا وغربا ، وتخوم الروم وبلاد اليمن شمالا وجنوبا ، فان تنقل العرب كان محدودا بهذه الجزيرة العربية ، ولم يكن لها أثر يذكر في البلاد المجاورة كالفرس والروم والاحباش . ولكن الوثبة الاسلامية ساقت هذه اللغة الى بلاد الصين شرقا والمحيط الاطلسي غربا في مدة لاتتجاوز القرن الاول الهجري بمقتضى الفتوح والدعوة الاسلامية وهو انتشار قوي في سرعته ، لم يعهد له نظير في اي لغة اخرى .

واذا اضفنا الى الفتوح والدعوة الاسلامية ظاهرة التاليف باللغة العربية التي بدات في أول امرها لتخدم القرآن الكريم والسنة النبوية ، في سرعة مذهلة ، بأقلام المسلمين من العرب والاعاجم ، ثم تطورت الى خدمة العلوم الكونية التي يحث الدين على تحصيلها بمقتضى الامر الديني بالنظر في ملكوت السموات والارض ، والى خدمة العلوم السياسية والتنظيمية والتاريخية التي اقتضتها سياسة الحكم الاسلامي لتنظيم الادارة وجباية الخراج ، وما استتبع ذلك من التأليف في علوم الجغرافيا وتاريخ الشعوب التي اظلها الاسلام . اقول : ان ظاهرة التأليف باللغة العربية التي يستطيع المطلع على كتب التصانيف ، مثل كتاب كشف الظنون لملا كاتب جلبي ان يدرك انها جاوزت في العدد مئات من فروع العلوم المختلفة ، تبارت فيها اقلام العرب والاعاجم كانت عاملا قويا في انتشار هذه اللغة الكريمة . ويكفي ان نذكر **أن صاحب اول كتاب في النحو العربي رجل أعجمي هو سيبويه** . ولا ريب انه لم يتوجه الى ذلك الا بالدافع الديني الذي ساقه الى خدمة لغة القرآن والحديث . وكذلك نلمح هذا الدافع في الكثرة الاعجمية من رجال الحديث ، والفقه الاسلامي والتفسير وعلوم العربية .

ولقد بلغ السلطان الديني **للاسلام أن استطاع ان يمحو اللغة القبطية في مصر** ، التي كانت تطورا من اللغة المصرية القديمة الحضارة ، في زمن وجيز وان

يقضي كذلك على **لغة القرطاجنيين** وغيرهم في **شمالي افريقية** ، وعلى **لغة النبط** في **شمالي العراق**، وان يقلص ظل **اللغة الرومية** من الاطراف الشمالية لبلاد **الشام** ، كما استطاع ان يغير وجه اللغة الفارسية بمنحها اكثر من 30 ٪ من الفاظها ، وكذلك امكن هذا السلطان ان يترك في جنوبي ايطاليا وصقلية وفي تركيا واسبانيا وجنوب فرنسا اثرا ظاهرا دامغا تتفاوت درجاته في القلة والكثرة .

ولم تستطع اية لغة اخرى ان تترك اثرا ملموسا في اللغة العربية الفصيحة التي حرصت على نقائها وصفائها ، ولا اثرا واضحا في لهجاتها العامية التي هي بطبيعتها اشد استجابة للغات الدخيلة .

اما القول بان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام فقول يحيطه التحفظ ، فالاسلام انما انتشر بمبادئه واصوله الفطرية السليمة . يدل على ذلك هذه الملايين المسلمة التي لاتعرف من العربية قليلا ولا كثيرا ، وهذه الآلاف التي تعتنق الدين الاسلامي من الاوربيين والامريكيين والافريقيين والاسيويين لا عن وراثة ورثوها ، ولا عن امة وجدوا عليها آباءهم ، بل بالقراءة والتدبر في لغاتهم الاجنبية التي يطلعون بها على مباديء هذا الدين الحنيف . على حين لا نجد هذه الاعداد في المعاصرين من معتنقي الديانات الاخرى الا بالارغام السياسي او التبشيري المتطرف .

ومن الحق ايضا ان اقول : ان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام بين من كانوا يتكلمون باللغة العربية في شبه جزيرة العرب ، ثم من جاء بعدهم من الاجيال التي درست العربية او صارت العربية لغتها. ذلك ان اعجاز القرآن ، وهو مظهر التحدي الصريح الذي نطق به القرآن في قوله « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرءان لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » كان هذا الاعجاز حقيقة واقعة الجمت العرب انفسهم وجعلتهم يدركون منطقيا ان مستوى بيان هذا الكتاب فوق مستوى البشر . ويسجل التاريخ عدة محاولات حاول اصحابها ان يباروا هذا القرآن او ان ينسجوا على منواله ، فباءوا بفشل واضح ، وكان هذا بمثابة الدليل القاطع على انه كتاب سماوي يحق للبشر ان يدينوا بدينه وان يؤمنوا به وبمن انزل عليه .

ومن هنا نستطيع ان نقول : **ان اللغة العربية من الاسباب الجوهرية لانتشار الاسلام** بين من يتكلمون العربية او يتعلمونها ، وليست هي كل الاسباب التي انتشر بها الاسلام .

واما ارتباط الوعي الاسلامي والوازع الديني بما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف فيمكن الاجابة عليه مما سبق من القول وهو **ان الاسلام ليس لغة وألفاظا ، وانما هو مباديء** ومثل عليا للبشرية جمعاء يستطيع المتدين ان يتمثلها في اي لغة وفي اية الفاظ كانت ، ما دامت تعبر عن تلك المباديء وتصور هاتيك المثل . **وهناك امم اسلامية معاصرة** لا تتكلم بالعربية ولا تفهم دين الاسلام بلغة العرب ، وانما **تستمد وعيها** الاسلامي **ووازعها الديني** من قبل لغاتها نفسها ، وفيها ائمة للدين يتعلمونه ويعلمونه بلغتهم كما هو الحال في اندونيسيا والملايو والباكستان حيث ترجم عدد كبير من امهات الكتب الدينية الى تلك اللغات ، والفت كذلك الكتب في مختلف مراحل الثقافة الدينية بين صغار المتعلمين وكبارهم ، وقامت الى جوار ذلك معاهد دينية وكليات اسلامية يدرس فيها الدين باللغات المحلية . ولكنا نستطيع ان نقول من زاوية اخرى : **ان الوعي الاسلامي الكامل** اي الادراك السليم لمفاهيم الاسلام **لا يتاتى الا بفقه لغة الكتاب وفهمها** ، وذلك الفقه والفهم انما يتسنى على وجهه الصحيح لمن كان له حظ فهم اللغة العربية نفسها ، وذلك لما يتطلبه النص العربي ولا سيما الديني منه ، من احساس لغوي خاص ، ومن دقة في ادراك مرامي الاساليب العربية .

واما الوازع الديني فانه لا يواكب اللغة العربية تلك المواكبة التي يجري عليها الوعي الاسلامي فانما يحكم هذا الوازع البيئة التي يعيش فيها المسلم . ونحن في عصرنا الحاضر قد نجد الوازع الديني في بعض البلدان غير العربية ذا سلطان اعظم من سلطانه في بلاد يتكلم اهلها بالعربية ، لان الوازع يتاثر بالبيئة الاجتماعية والبيئة السياسية اكثر من تاثره بالبيئة الثقافية ، لان الوازع من الظواهر النفسية التي تكون نتيجة لتفاعل المجتمع . ومن البديهي انه لا تلازم بين العلم بالدين والوازع الديني ، ففي الشعب الواحد نجد ان الوازع الديني يتجلى بسلطانه في الطبقات التي هي اقل ثقافة . وهذا امر تقره المشاهدة والعيان .

واما تاثير اللهجة الاقليمية في التعابير العربية المحلية فقد كان واضحا بعض الوضوح في العهد القريب الذي كانت وشائج العروبة فيه في شبه تمزق

بفعل الاستعمار ، وكانت لغة الصحافة ولغة المكاتبات متباينة فى بلادنا العربية وهذه الظاهرة الآن فى طريق الاضمحلال بمقتضى تقارب الشعوب العربية وسهولة الانتقال بين أطرافها . ونحن الآن فى الكويت نجد صدى كبيرا للهجتنا المصرية بين المواطنين الكويتيين الذين درسوا فى مصر ، أو قام بالتدريس لهم فى الكويت مدرسون مصريون ، أو الذين تفاعلوا مع وسائل الاعلام .

وكذلك نجد كثيرا من المصطلحات اللغوية السورية قد اخذت طريقها الى مصر ورسخت فيها ولا سيما فى ايام الوحدة السياسية القريبة . ومهما يكن من تقارب بين شعوبنا العربية فاني اعتقد أن لكل موطن من مواطن العروبة تراثا لغويا يسري فى دمائه ولا يمكن التخلص منه ، الا اذا امكن التخلص من الفولكلور الشعبي .

واما السؤال الاخير الخاص بالمكانة التي يجب ان تحتلها العربية فى موطني مصر بالنسبة للغات الاجنبية ، فاني اعتقد أن اجابته موحدة بين كل مثقف عربي ، وهو أن يكون **للغة العربية السلطان الاول** فى اللغات الثقافية المحلية ، وان تكون هي لغة العلم المحلية .

واعتقد أن المحاولات التي بدات فى الجامعات المصرية لتعريب التدريس الجامعي تتسم بكثير من النجاح وان كانت الجمهورية السورية قد قطعت في ذلك شوطا اطول من شوط الجمهورية العربية المتحدة . والامل معقود فى أن يتم تعريب التدريس الجامعي فى تؤدة وتنسيق حتى يصل الى المستوى العالمي .

لولا أن العربية لغة القرآن لكان مصيرها مصير اللاتينية

بقلم الدكتور عبد العزيز مطر
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها
(جامعة الكويت)

ليس من شك فى ان ثمة صلة وثيقة بين الاسلام واللغة التى نزل بها القرآن الكريم وجاء بها الحديث الشريف ، والف بها تراث المسلمين الخالد .

بيد ان هذه الصلة بين الاسلام واللغة العربية لا تصل – فى رأيى – الى درجة التلازم الذى فسر فى الفقرة الايضاحية للاستفتاء بانه : لولا الاسلام لما تأتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم كله ، كما انه لو لم تكن العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام .

وقد أسست هذا الراي على أدلة تجمعت لدي ، بعضها يؤكد ان **الصلة بين الاسلام والعربية حقيقة واقعة** ، بينما يدل بعضها على ان **هذه الصلة لا تصل الى درجة التلازم :**

اولا – ادلة الصلة الوثيقة :

1) بفضل الاسلام الذى جاءت دعوته بهذه اللغة، ونزلت بها معجزته البيانية الكبرى ، تجاوزت اللغة العربية حدود شبه جزيرة العرب ، وانطلقت تعم ارجاء العالم ، فقهرت اللغات : الآرامية فى العراق وسوريا ولبنان ، والقبطية فى مصر ، والبربرية فى شمال افريقيا ، والكوشبتية فى شرقى افريقيا . واثرت تأثيرا بالغا فى الفارسية فى ايران ، والتركية فى بلاد المغول ، والقوطية فى الاندلس ، والاردية فى الشمال الغربى من الهند .

وقد انطلقت هذه الانطلاقة الواسعة بالفتوح الاسلامية ، وبالجاليات العربية التى وفدت تدعو الى الاسلام بلغة القرآن . وساعدت على انتشارها **حرص الناس** الذين دخلوا فى دين الله **على تعلم هذه اللغة، ليفهموا القرآن والحديث واصول الدين .**

2) اتى على اللغة العربية حين من الدهر كان المقدر الا تكون فيه شيئا مذكورا لولا ان الاسلام حماها من الضياع فى عهود الاستعمار الذى توالى على الامة العربية فتعمد اهمال هذه اللغة ، وشجع نمو اللهجات المحلية التى بلغت فى كثرتها حدا كاد يلحق اللغة العربية فى تشعبها باللغة اللاتينية التى اصبحت عدة لغات هى الايطالية ، والفرنسية ، والاسبانية ، والبرتغالية ، والرومانية . كان هذا ممكنا بالنسبة للعربية لولا انها لغة القرآن .

3) كان لارتباط اللغة بالاسلام مظهرا آخر هو الاهتمام بتعلم اللغة العربية ، ودرس علومها ، والتأليف فيها ، عبر القرون الطوال ، مما اكسبها قوة ونماء ولقد جعل بعض اللغويين **تعلم هذه اللغة فرضا** على كل متعلق من العلم بالقرآن والحديث بسبب ، يقول اللغوي احمد بن فارس (ت 395 هـ) : « ان **العلم بلغة العرب واجب** على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب ، حتى لا غنى بأحد منهم عنه ، ذلك ان القرآن نازل بلغة العرب ، ورسول

الله (ص) عربى . فمن اراد معرفة ما فى كتاب الله – جل وعز – وما فى سنة رسول الله (ص) من كل كلمة غريبة ، او نظم عجيب ، لم يجد من العلم باللغة بدا »

4) ان تلاوة القرآن، وتفسيره ، وشرح احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحاديث الدينية ، فى الاذاعة، والتليفزيون ، وفى المواقف والمناسبات الاسلامية ، وحرص علماء المسلمين على استخدام الفصحى فى هذه المجالات ، كل هذا ساعد على تنمية الحس اللغوى بين المسلمين ، وعلى نشر آلاف من المصطلحات والكلمات الاسلامية ، تتخلل لهجات الاميين فيبدو فيها التأثير الدينى ، وتقترب من اللغة الفصحى .

5) وكان الحافز الدينى ، والحرص على **المحافظة على لغة القرآن** ، من اهم الاسباب فى **نشأة لون من التاليف يقاوم لحن العامة** ، تأسيا بالرسول (ص) الذى قال عندما لحن رجل بحضرته : « ارشدوا اخاكم» وكان لهذه المؤلفات الكثيرة اثرها فى تجنب اللحن ونشر الفصيح .

ثانيا – هذه الصلة ليست صلة تلازم :

1) من ادلة ذلك ان عدد المسلمين فى العالم الآن يبلغ 616.336.943 بينما يقل عدد المتكلمين بالعربية عن هذا العدد بكثير جدا . ذلك ان انتشار الاسلام ارتبط بانتشار اللغة بسبب الجاليات العربية التى صاحبت الفتوح الاسلامية ، وبسبب الارتباط بين الدين والدولة ، وان اللغة العربية كانت لغة المنتصر فى الفتح ، وهذا كله ساعد على نشر اللغة العربية .

2) بينما يوجد مسلمون كثيرون لا يعرفون من العربية الا كلمات يوجد كذلك كثيرون من غير المسلمين يجيدون العربية اما دارسين ومؤلفين واما اقليات تعيش فى بيئات عربية .

3) الثابت تاريخا ان الاسلام قد انتشر فى بلاد فارس دون ان تقضي اللغة العربية على اللغة الفارسية، رغم بقاء بلاد الفرس تحت حكم المسلمين امدا طويلا . وربما كان ذلك بسبب انتماء كل من اللغتين الى فصيلة لغوية مختلفة عن الاخرى فالعربية سامية ، والفارسية هندية اوربية .

كذلك لم تقو العربية على ان تقضي على اللغات الاسبانية على الرغم من بقاء الاندلس تحت الحكم العربى نحو سبعة قرون .

4) قد يسبق انتشار الاسلام انتشار اللغة العربية ، كما حدث فى مصر فان انتشار اللغة العربية ظل بطيئا طوال القرن الهجرى الاول **ولم تستخدم الدواوين اللغة العربية الا فى عام 87 هـ.** ويذكر المقريزى ان الخليفة المأمون كان يستعين بمترجم اثناء تنقلاته فى ريف مصر عام 217 هـ اذكانت القبطية ما تزال شائعة .

وهكذا نرى ان بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية علاقة وثيقة ، ولكن هذه العلاقة ليست علاقة سبب او تلازم .

من مظاهر إعجاز القرآن خلود اللغة العربية

بقلم قسم تفتيش اللغة العربية والتربية الدينية - الكويت

ليس من شك فى ان التلازم وثيق بين الاسلام وانتشار اللغة العربيـــة ، لكن درجـة هـذا التـلازم تختلف باختلاف الاحوال والاماكن التى تنتشر فيـها اللغة او ينتشر الاسلام ، ولكي يكون الأمـر محـددا فلابد من التفريق بين حالين هما :

نشر الاسلام فى عصره الاول على يد الصحابة المجاهدين ودعاته من الفاتحين ، ومحاولات نشره الآن بين من يؤمنون به عقيدة ، ولكن ينقصهم الالمـــام الوافى بتعاليمه ومبادئه ونظمه وتشريعاته او بين من لا يؤمنون به او بغيره من الاديان ممن يمكن تشبيههم بالوثنيين .

اما نشر الاسلام فى عصره الاول على يد الصحابة المجاهدين ودعاته من الفاتحين ، فقد استتبع نشر اللغة العربية ، لان الذين حملوا الاسلام الى غيرهم ممـــن لا يتحدثون العربية ـ حملوه سلوكا وعـدالة ومثـلا استهوت الامم الاخرى قد خلف فى الاسلام ، ثم رغب ابناؤها ان يعوا هذا الدين وعيا كاملا ، ويساهموا فى بناء دولته ، فتعلموا العربية لتكون صلتهم بكتـــاب الاسلام ونبيه مباشرة ، ومن هنا كان انتشار الاسلام سببا فى انتشار اللغة العربية .

وشاهدنا على ذلك مصر والشام والعراق وبلاد فارس (كذا!) من البلدان التى لم يكن ابناؤها يتحدثون العربية ، فانها بدخول الاسلام اليها واعتناق ابنائـها له اقبلت على العربية، فجعلتها لغتها وهجرت لغات كانت تتحدثها قبل العربية، ولم يكن قضاء اللغة العربية على ما قبلها من لغات خاضعا لسنن الاندثار اللغوى ، بل كان امرا يخالف المألوف فى هذا الشان مما يقطع بأن الاسلام كان السبب المباشر فى انتشار اللغـــة العربيـــة .

وفى هذا الجانب لا يمكن ان نتخيل فى عصر الاسلام الاول ان اللغة العربية كانت السبب فى نشر الاسلام ، لان سر انتشار الاسلام اصيل فيه مرتبط بقيمه وغاياته لا يرتبط بلغة ما ، وعلى هـذا فلـو ان الاسلام حمله قوم الى غيرهم بلسان غير عربى ، ولم يبدلوا من جوهره او ينقصوا من كماله لتهيـأ لـــه الانتشار بل ان واقع الاسلام الآن فى كثير من البلدان التى لا تتحدث العربية يؤكد هذا .

وقد نتصور ان **المستوى البلاغى الرفيع للقـرآن** الكريم فى اللغة العربية **كان سر الاعجاز** ، وبالتالى كان **سر انتشار الاسلام** الا ان هذا التصور لا يمكن ان يستساغ الا فى مجتمعات تتحدث العـربية قـــبل معرفتها القرآن الكريم، وما التزمه دعـاته اليـها من

تحل بكل ما جاء فى القرءان من خلق كريم ، ولا شك ان هذه المجتمعات لم تدرك بلاغة القرآن وروعة بيانه للنبي عليه السلام الا فى مرحلة متأخرة .

واما محاولات نشر الاسلام بين من يؤمنون به ، ولا يتحدثون العربية لتعريفهم بحقائق الدين وتفصيل احكامه ، فان الامم التى على هذا النحو نوعان :

1) امم انسلخت عن اللغة العربية منذ عهود بعيدة بدوافع ذاتية لا تتصل من قريب او من بعيد بعض ابنائها للاسلام ، ومثل هذه الامم لايرتبط انتشار الاسلام فيها بانتشار اللغة العربية ، او بالاحرى لا يرتبط المام ابنائها باحكام الاسلام المفصلة بمعرفتهم للغة العربية ، لان لغتهم التى يتحدثونها تكثر فيها الكتب التى تتحدث عن الاسلام ، ويكثر فيها العلماء الذين يعرفون الى جوار لغتهم لغة القرآن

ويمكن لهؤلاء ان يكونوا همزات الوصل بين المسلمين وبين المصادر العربية لدينهم، وكل ما تحتاجه مثل هذه الامم لانتشار الاسلام ان تقوم فى جامعاتها اقسام تتوفر على دراسة اللغة العربية والاسلام حتى نضمن الا ينقطع المورد الذى يمد هذه الامم بالدعاة الذين يجمعون بين الثقافة العربية وثقافة اممهم ، ولا نستطيع ان نعلق انتشار الاسلام فى هذه البلدان على انتشار اللغة العربية بها فى زمن يرتفع فيه صوت الوطنية مما يدفع كل امة الى التمسك بلغتها ، وليس ببعيد عن الاذهان امثلة لذلك ايران وافغانستان وباكستان والهند .

2) وامم اخرى لم تنسلخ عن اللغة العربية او تحاول الانسلاخ عنها ذاتيا ولكن اريد لها بفعل استعمارى مكير ان تتخلى عن العربية ، وحملت على ذلك مرغمة ، وظل بابنائها الحنين الى اللغة العربية متمثلا فى بقايا المعاهد الاسلامية ، وفرضت عليها لغات الاستعمار ، وهى لغات لم تكتب بها حقائق الاسلام على صورة تمكن من نشره والتعريف به ، بل كل ما كتب كان على لسان المستشرقين المتعصبين يدسون للاسلام، ويكيدون له ... مثل هذه الامم يرتبط نشر الاسلام والتعريف به فيها بنشر اللغة العربية بل ان نشر اللغة العربية فيها يكون فريضة تعادل نشر الاسلام وليس التلازم بين نشر الاسلام ونشر العربية فى هذه البلدان حينئذ تلازم ابتداء يمكن ان يكون سببا فى تعميمه على سائر المجتمعات التى تريد نشر الاسلام فيها ، بل هذا التلازم اشبه ما يكون بحتمية العودة الى طريق مألوف يسهل سلوكه عن طريق محفوف بالمخاطر، ومن الواضح ان المثال القائم فى الاذهان لذلك دول المغرب العربى التى ارغمت على هجر لغتها .

واما اولئك الذين لا يعرفون لهم دينا ، فنشر الاسلام بينهم يتوقف على تربية رعيل من الدعاة المؤمنين المجيدين للعربية ولغيرها من لغات الامم التى يراد الابتعاث اليها ، على ان يقوموا بهداية الناس ، سبيلهم الى ذلك الحديث اليهم بلغتهم ، ثم يأتى بعد ذلك تعليم اللغة العربية للراغبين منهم .

على ان هناك امرا لابد من الاشارة اليه هنا ، وهو انه لا يمكن للاسلام ان يستتبع انتشار اللغة العربية لو انتشر فى امم لا تتحدثها ، لانه لا يغيب عن الخواطر ابدا ان اقبال الناس على اللغة العربية فى بقاع باسرها ، بعد دخول الاسلام اليها ، كمصر والعراق وشمال افريقيا ، كان له اسباب اخرى الى جوار التعلق بالاسلام؛ تلك الاسباب هى اندماج الدعاة بأبناء هذه الدول مصاهرة ومعايشة ، ثم تمثيل هؤلاء الدعاة المتحدثين بالعربية لسلطة دولة تتخذ العربية لغتها الرسمية من مكاتباتها وارشاداتها، و انضواء الداخلين فى الاسلام تحت لواء الدولة العربية ، وحرصهم على ان يأخذوا مكانهم فيها ، وسعة صدور الحكام العرب من المسلمين للاستعانة بالراغبين فى خدمة الدولة الاسلامية ما داموا يجيدون العربية .

وقد راينا انه **حين انحسر ظل الدولة عن بعض البلدان هجرت العربية** ولم تعد تدرس الا فى المعاهد العلمية المتخصصة فى دراسة الاسلام .

الوعي الاسلامى واللغة العربية

وحين نتحدث عن مدى ارتباط الوعي الاسلامى والوازع الدينى قوة وضعفا باللغة العربية فى قوتها وضعفها ، نحب ان نحدد مدلول الوعي الاسلامى والوازع الديني ، فالوعي الاسلامى على ما نرى ادراك شامل للاسلام ، ومعرفة بمواقفه من مشكلة الحياة فى كل جوانبها .. والذى لا شك فيه ان الوعي الاسلامى فى هذا المعنى يقوى بقوة اللغة العربية وحياتها على السنة المسلمين ، لانهم جميعا يستطيعون فيما يعرض لهم من المشكلات ان يرجعوا الى القرآن والسنة والبحوث الاسلامية فى شتى المجالات ادبا وفقها وتوحيدا .

كما يضعف بضعفها لعجز الناس حينئذ عن ان يفهموا ما يقراون ، والازهر الشريف وغيره من المعاهد العلمية التى تعنى بدراسة اللغة العربية على مستوى

رفيع يمثل هذا الامر ، فالدارسون فيه وفى هذه المعاهد اكثر وعيا بالاسلام من سواهم ممن لا يجيدون العربية .

اما الوازع الدينى فهو حياة الدين فى الضمير واستلهامه فى كل ما يواجه المرء ، وهو امر لا يرتبط باللغة العربية فى قوتها وضعفها ، بل هو مرتبط اشد الارتباط بصدق الانسان فى معتقده ويقينه فى ايمانه، واستواء ظاهره بباطنه، وكم من امم يغلب على افرادها تقديس دينهم واحترام تعاليمه وحظها من العربية آيات من كتاب الله تصح بها صلواتها وتستقيم عبادتها .

لغة القرآن وتاثر اللغات واللهجات غير العربية بها :

وقد تأثر كثير من اللهجات واللغات الاقليمية فى البلاد اسلامية التى تتحدث غير العربية بالفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن فشاعت الفاظ عربية فى ثنايا هذه اللغات ، وبقيت لها دلالاتها ونستطيع ان نقدم بعض الامثلة الموجزة توضيحا لذلك على النحو التالى :

الفارسية : وفيها الكثير من الكلمات العربية ذات المدلول الدينى مثل: القرآن الكريم ـ الزكاة ـ الحج ـ الخمس ـ فسق .

زنجبار : ولغة سكانها السواحلية وقد دخل اليها كثير من الالفاظ العربية عن طريق الرحلات العربيةالتجارية لعرب الخليج والتى قاموا خلالها بعبء نشر الاسلام فى افريقيا الشرقية ، ومن امثلة هذه الالفاظ :

السلام عليكم وردها ـ صباح الخير ـ كذلك ـ بعض ـ الحج ـ الزكاة ـ امام ـ كتاب ـ مصحف .

موريتانيا : ويتحدث سكانها باربع لغات هى (فلانية ، سرقولابية ، وولوفية ، حسانية) وفيها جميعا كلمات عربية ، واكثرها استيعابا للكلمات العربية هى اللغة « الحسانية » ومن امثلة الكلمات العربية التي لا زالت فى اللغة الموريتانية (فلانية)

الحج ، النبى ، حلقوم ، هدر ، السكاة (تحريفا عن الزكاة) ، المام (تحريفا عن الامام) ، دفتر (الكتاب) قران (بالمد) تحريفا عن قرآن .

اريتريا : وفيها سبع لهجات ، وكثير من ابناء اريتريا يعجزون عن التفاهم فيما بينهم لاختلاف اللهجات التى يتحدث بها كل منهم ، فتكون اللغة العربية وسيلتهم الى التفاهم ، ومن الالفاظ العربية فى لهجات اريتريا : ـ صباح الخير ، السلام عليكم ، كافولك (تحريفا لكيف حالك) انتصركم بمعنى هل انتصرتم) معطن لمورد الابل ، صليكا بمعنى هل صليت ، الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء لاوقات الصلاة ، لالى اسما لليل ، نهار ، حموك ، كذاب ، صادق ، فاسق ، اسلام ، اسلاماى للمسلم ، الحمد لله ، دعاودى بمعنى ادعو ان شاء الله .

اللغة العربية فى الكويت

اما من حيث المكانة التى يجب ان تحتلها اللغة العربية هنا فى الكويت الى جانب غيرها من اللغات الاجنبية فهي المكانة التى تحتلها حاليا ، وهي انها اللغة الرسمية واللغة الاولى ولغة الدراسة والحديث بين الناس ، ولغة اجهزة الاعلام وذلك امر ليس مجال تساؤل بالعربية لغة هذه المنطقة منذ عرفت فيها حياة ، والاسلام دين ابنائها .

350 مليون مسلم يكتبون بالحروف العربية

بقلم الأستاذ مدير معهد المعلمين (الكويت)

ايماء الى ما ورد من المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الرباط حول علاقة الاسلام باللغة العربية، نرفق لسيادتكم الاجابة التى نراها ، نسأل الله ان تؤدي الغرض المرجو :

على الرغم من ان اللغة العربية ظهرت شابة مكتملة دون ان تمر بمرحلة طفولة او تتعثر فى طريق طويل ـ الامر الذى جعل لها مكانة ضخمة بين اللغات ، ودهش له كل الباحثين والعلماء ـ على الرغم من هذا كله فانه لولا الاسلام ما قدر لهذه اللغة ان تبقى بهذه القوة ، وان تنتشر بهذا الشكل .

وبخاصة وان اربابها لم يكونوا اصحاب حضارة حتى يقال : انها انتقلت الى الناس عن طريقها ومن يمن طالعها ان نزل بها القرآن الكريم دستور الاسلام والمسلمين الخالد حيث يقول سبحانه :

« حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » 41 الآيات 1 ـ 3 ،

« نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين» 26 الشعراء الآيات 192 ـ 114

وقد خرجت اللغة العربية الى الجزيرة واتجهت الى بلاد الفرس والهند والشام ومصر ، وعبرت البحار الى افريقيا الجنوبية والشمالية فالاندلس ، وظلت محتفظة بفصاحتها ووحدتها وكيانها رغم اختلاطها بلغات اخرى ، واستطاعت بفضل الاسلام ان تزيح لهجات هذه الامم وان تحل محلها ، ففى الشام وما بين النهرين سادت على السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية ، وفى مصر حلت محل اليونانية والقبطية والسريانية قبل ان ينقضي القرن الاول الهجرى، **فلما جاء القرن الثالث دخلت العربية الكنائس القبطية واصبحت لغة الدين والوعظ** ، وقد سجلت اوراق البردى فى معاملات جرت بين المسلمين والاقباط اسماء قبطية كتبت باللغة العربية .

وقد انتشرت الحروف العربية بانتشار الحضارة الاسلامية ، وكتبت بها اللغات : التركية ، الفارسية ، الافغانية ، الكردية ، المغولية ، البربرية ، السودانية ، الساحلية ، كما كتبت بها لغة اهل الملايو وغيرهم ممن يبلغون 250 مليونا ما عدا 100 مليون فانهم يكتبون اللغة العربية بالخط العربى حدث هذا كله نتيجة لانتشار الاسلام فى هذا البلد منذ اكثر من الف سنة ، وبها دونت هذه البلاد آدابها وعلومها وفنونها .

ولما دخل العرب المسلمون الاندلس وصقلية دخل في ثنايا الفتح الاسلامي اللغة العربية ، ولا يزال في الاسبانية والبرتغالية كثير من الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية .

ومما ساعد على انتشارها ايضا حرص الاسلام على ان تؤدي شعائره بها دون غيرها من اللغات .

ولئن مرت اللغة العربية قبل الاسلام بعدة مراحل هامة الا ان ذلك لم يتح لها فرصة الخروج خارج جزيرة العرب ، فلما جاء الاسلام **خرجت الى قارات آسيا وافريقيا واوربا** وانتشرت في الاماكن التي انتشر فيها الاسلام من الهند شرقا الى الاندلس غربا ، وكان لهذا اثره الكبير في **الافادة من الثقافات واللغات المختلفة التي اتصلت بها اللغة العربية .**

ومما يؤكد الترابط بينهما اننا نجد ان العربية كانت تنحصر بانحصار الاسلام كما حدث في صقلية والاندلس ، وان انحصرت احيانا نتيجة عوامل سياسية .

ولا يمكن مطلقا ان يغيب عن اذهاننا ان اختيار الله سبحانه وتعالى العرب في الحجاز لتنزل فيهم دعوته التي اراد لها ان تعم الدنيا ، وليتنزل فيهم كتابه بلغتهم — لم يكن هذا وذاك عفوا لخاطر ، وانما كان لحكمة يعلمها سبحانه ، وهو اعلم حيث يجعل رسالته.

فالحق الذي لا مراء فيه ان العرب حملوا لواء هذه الرسالة ، ونشروها بين الناس مستعذبين الموت في سبيلها .

وليس في مقدور احد ان يقول : ان اية جماعة غير عرب الحجاز كان في مقدورها ان تصمد للهزات والزلازل التي تعرض لها الاسلام في مهده .

ولا يخفى كذلك ما للغة العربية من تاثير وسحر مما لا نجده في اية لغة غيرها .

وهكذا فان نزول القرآن بلغة العرب قد ساعد على انتشار الاسلام

ومما لا شك فيه كذلك ان ضعف اللغة العربية يتبعه ضعف الوعي الاسلامي والوازع الديني .

ومرد ذلك الى ان القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وهما مصدرا الهداية للمسلمين — جاءا باللغة العربية ، فمتى ضعفت اللغة لا يتسنى فهم واستنباط ما فيهما من هداية ورشد .

ولهذا فأملنا ان تكون **اللغة العربية لغة ثانية على الاقل في جميع البلاد الاسلامية** التي يتكلم اهلها غير العربية فهي عامل وحدة ، وآصرة ترابط ولقاء .

والله ولي التوفيق .

ازدهار اللغة العربية رهن بتشبع الدولة بالروح الإسلامية

بقلم الدكتور عبد الرحيم بدر (الكويت)

اذا اردنا التحدث عن علاقة الاسلام باللغة العربية وجب ان نعرف مميزات اللغة العربية فيما يتعلق بقدرتها على التعبير عن الفكر بأشكاله. وكذلك مميزات الاسلام فى مدى علاقته مع لغة التعبير ، حتى يكون فى وسعنا ان نقدر اثر احدهما على الآخر، ونستعين بالملاحظة والتجربة لتأييد ما نذهب اليه . والواقع اننى اذا كتبت فى هذا الموضوع فان آرائى كلها ستكون مبنية على التجربة والملاحظة من بدئها الى منتهاها . فلست عالم لغة ولست عالم دين وانما انا كاتب علمى اكثر مما اكتب فيه هو علم الفلك ، واللغة هى وسيلتى للتعبير والدين يضع لى الحدود التى يمكن ان يصل اليها بحثى . وقد يبدو مما سأقول ان الموضوع ذاتي فى صلبه ، ولكن الكتابة عن التجارب الخاصة لا يمكن ان تكون الا ذاتية الطابع ، بيد انها موضوعية الهدف .

مميزات اللغة العربية ـ

لقد سمعت رأيا ، ووجدت بالتجربة صحة هذا الرأى ، يقول بأن **اللغة العربية هى اللغة الوحيدة التى خلقت كاملة او وجدت كاملة منذ ان عرفت .** ففيها من الغنى ما لا يعرف فى اى لغة اخرى ـ حديثة كانت ام قديمة . وقد يتبادر الى الذهن ان كثرة المترادفات هو المقصود بهذا القول . فطالما سمعنا من الاساتذة فى المدارس ان للاسد خمسمائة اسم او اكثر فى العربية . ان الكثرة من هذا القبيل لا اعتبرها مميزة . ان المترادفات تكون لها قيمتها اذا كان هناك فرق بسيط فى المعنى بين كل كلمة والكلمة التى ترادفها . كالفرق مثلا بين الكلمات المترادفة (احس) و (شعر) و (لمس) . ان لكل كلمة من هذه المترادفات الثلاثة معنى يختلف اختلافا طفيفا عن المترادفين الآخرين ، ولهذا فلكل مترادف قيمته. اما المترادفات الموضوعة لاسماء الاسد ، فقد يكون منها ما يعطى صفات معينة للاسد ، كالقوة والبطش والكبرياء والتيه والخيلاء وما الى ذلك . ولكنني لا استطيع ان اتصور للاسد خمسمائة صفة تحتاج الى خمسمائة اسم . فكثرة الاسماء المترادفة لا ارى فيها مميزة اذا كانت تحمل المعنى نفسه تماما دون اى اختلاف .

الواقع ان **اللغة العربية تتميز بميزة هامة عجيبة هى الاشتقاق** . فالكلمة الواحدة كأنها **مادة لدنة مطواعة تضغط وتمط وتلوى** بحيث تعطى فى النهاية المعنى المطلوب منها فى منتهى الدقة . فمن الفعل الماضى « فعل » يمكن ان نجد كلمات لا يستطيع حصرها امثالى من غير المتخصصين فى اللغة ـ مثل فعل وتفاعل وتفعل وانفعل وفاعل

وافعل ، ومن الصفات المشبهة والمبالغة نجد فعـــول وفعال وفاعل ومفعول وفعيل وفعالة ومفعل وما الى ذلك . المهم فى هذه الكلمات ان كل واحدة تختلـــف عن الاخرى اختلافا بسيطـا بحيث تـؤدى المعنـى الدقيق المطلوب منها فى الادب او العلم ، والـــذى تتطلبه مقتضيات الحضارات المتطورة دائما وابدا .

ولاضرب مثلا واقعيا من تجربتى الخاصة .

ان العلم الحديث بعد ان ازدادت المادة التـى يمكن ان يكتب فيها ، اصبح يستـدعى اختصـــار الاسماء الطويلة ، وليس اثقل على السمع من ذكـر اسم آلة من الآلات اذا كان يتركب هـذا الاسم مـن كلمتين او اكثر ، خاصة اذا كان ذلك الاسم يتكرر ذكره كثيرا فى البحث الواحد . وهناك آلة يستعملها الفلكيون تحلل الطيف ، واسمها فى الانجليزية (وفى كل اللغات الغربية فى الحقيقـة) Spectroscope وهى مكونة من مقطعين اولهما لاتينى ومعناه الطيف وثانيهما يونانى ومعناه منظار . وكنت اترجمها فيما اكتب من بحوث «بالمحلل الطيـفى » . وقـد كنت اشعر بثقل هذه الكلمة اذا كان البحث يستـــدعى تكرارها . وقد اطلعنى الدكتور فؤاد صروف عـــلى كلمة واحدة وضعها بالاشتقاق اسما لهذه الآلة وهى « المطياف » . وقد اعجبنى الاسم ووافقت شخصيا على استعماله فى كتاب بدائع السماء الذى ترجمته وقام الدكتور صروف بمراجعته . وقد ادخلته فى القاموس الفلكى الذى وضعته فى نهاية الكتاب .

وهناك مثلان آخران من كتاب بدائـع السمـاء ايضا ، وهما بالصدفة من كلمة واحـدة من اللغـة العربيـــة .

نعرف ان العرب الذين بلغوا بحساب المثلثـات درجة الكمال ، سموا زاوية النظر عند تقدير الابعاد فى مثلث (زاوية الاختلاف) . وهـذه الزاويـة هى المعروفة الآن فى اللغات الغربية باسم Parallax وهى اسم يتردد كثيرا فى بحـوث خاصة من عـلم الفلك . ولما كانت مكونة من كلمتين فان استعمالهـا ثقيل ، كمـا قلنـا . وفى اثنـاء البحث عن معنـاها فى القواميس وجدت فى قاموس النهضة لاسماعيل مظهر كلمتين اعجبت بهما ، لان كل كلمـة منهمـا تعطى المعنى الذى تدل عليه هـذه الزاويـة ، وهما « التزيح » او « التزييح » .

وقد فضلت اختيار الكلمة الاولى ، ووضعتهـا فى كتاب بدائع السماء وفى القاموس الملحـق به ، وقد وافق عليها الدكتور صـروف وفضلـها على اختلاف الزاوية المكون من مقطعين .

وفى اثناء الترجمة كنت اجد صعوبة فى ترجمة كلمة Displacement ، وهى تعنـى تغيـر موضع الشىء ، واستعمالها غير قليل فى الفلـك . ومـن السهل التعبير عنها بجملة اذا كان ذكرها لا يتكرر الا مرة واحدة. ولكنها اذا كانت تتردد كثيرا فيجب ان توجد لها كلمة واحدة تعطي معناها . وقد وضعت لها كلمة (انزياح) فى متن الكتاب وفى القـاموس ، وقد وافق عليها الدكتور صروف ، وقال انها موفقة.

ان كلمة التزيح ، وكلمة الانزياح ، تـدلان على اصطلاحين مختلفين فى الفلك ، لا علاقة للواحـــد بالآخر وكل كلمة منهما تعطى المعنى الدقيق للشىء الذى تدل عليه ، والكلمتان مشتقتان من اصل واحد هو زيح .

نرى من هذا اننا امام فيض من الكلمات يمكن ان نختارها من خلال عملية الاشتقاق ـ هذه الظاهرة الغريبة العجيبة التى تتميز بها اللغة العربية . واننى اتصور اننا اذا امسكنا بالمصطلحات العلمية الحديثة كلها فلن نجد كلمة واحدة يمكـن ان تستعـصي على اللغة العربية دون ان تجد لها مقابلا دقيقا جدا يعطى المعنى المقصود تماما . وارجو من القارىء ان لا يفهم من هذا اننى امهد الى فكرة ترجمة جميع المصطلحات العلمية الحديثة الى اللغة العربية بكلمات عربيـــة صرف مستغنيا عن جميع الكلمات التى دخلت الى العربية باللفظ الاجنبي ، فتفصيل هذا سأتكلم عنه فى حينه ، ان شاء الله .

انما الذى اهدف اليه هو اننا نمتلك كنزا فيه من الخيرات ما لا يتوفر لغيرنا من الامم . والواقع ان اللغات فى الامم المتحضرة فى العصر الحديث لم تستطع بذاتها ان تجاري الحـضارة ومتطلباتها فلـجأ بعضها الى بعض واعتمدت على الاغريقية واللاتينيـة وخرجت لنا بمصطلحات امكنها ان تجاري عصرها ، اما بطبيعتها فهى عاجزة حتما . اعرف هذه الحقيقة على الاقل فى الانجليزية والفرنسيـة . اما اللغـــة الروسية فمعلوماتى عنها معدومة عمليا ، الا ان اسماء بعض الاقمار الاصطناعية مثل لونا وكوزموس يدل على انها تعتمد ايضا على اليونانية واللاتينية .

وخلاصة القول ان لغات الحضارة الحديثة ولدت ونمت نموا طبيعيا ، ولما كانت ولادتها غير كاملة فقد اعتمدت فى نموها على اللغات المجاورة وعلى اليونانية القديمة واللاتينية ، وتفاعلت الى ان وصلت الحد الذى استطاعت فيه ان تجاري المدنية التى قامت فيها . وقد تميزت هذه اللغات على الغالب بميزة غير متوفرة فى اللغة العربية ، وهى ان كلماتها تتكون من مقاطع يحمل المقطع معنى خاصا به ، فأخذت تستعير المقاطع من بعضها وتكون الكلمات التى هى بحاجة اليها . ولا اعتقد ان لغة من هذه اللغات ، المتشابكة فى منشئها ، لها من ذاتيتها ومن طبيعتها المقدرة على مجاراة حضارة من الحضارات.

قد تكون للغة العربية مميزات اخرى ، ولكن الشىء الذى يهمنى فى الواقع من حيث مجاراة العلوم والآداب والفكر المتطور هو الاشتقاق والمقدرة على التعبير .

مميزات الاسلام ـ

وقد تكون مميزات الاسلام اكثر من ان احصيها، الا اننى فى حديثى هذا لن اتطرق الا الى مميزة هامة رئيسية ، قد تكون هي الاساس الذى تقوم عليه المميزات الاخرى ـ الا وهى ان **الدين الاسلامى دين العقل**. فهو لا يندفع الى المادية المتطرفة ولا الى الروحانية المتطرفة ، وانما يجعل العقل هو الحكم فى جميع الامور . وهو يضع تعاليمه بناء على العقل ، ويخاطب دائما اولى الالباب والذين يعقلون والذين يتفكرون . وهو يحترم العلماء الذين يخافون الله بناء على علمهم الذى يرشدهم اليه . واذا **كان العقل هو الاساس الذى تقوم عليه حضارة امة من الامم ، فمن المنتظر ان تنتشر هذه الحضارة وتمتد وتعمر طويلا** ، وهذا فى الواقع هو الذى كان .

فقد استمرت الحضارة الاسلامية عصورا طويلة من الزمن الى ان جاءت الشعوبية فنخرت فى عقلانية الحضارة وحولتها الى اى شىء آخر ما عدا العقلانية ، وجاءت عصور الظلام .

والواقع ان عصور الظلام هذه لا تعنى رجوع الناس عن الدين الاسلامى ، بل قد يكون الامر بالعكس ـ ففى هذه العصور امتد نطاق النفوذ العثمانى الى اوربا الشرقية والوسطى ، ونستطيع ان نقول ان المسلمين قد ازدادوا عددا . ولكن الكيفية التى اصبح الاسلام فيها كانت قد تغيرت . اجل ، اخذ الاسلام ينتشر ويمتد فى هذه العصور ، انما كان انتشاره وامتداده على اساس آخر ـ مجرد عبادات ووحدانية وقوانين عادلة وهذه بحد ذاتها دافع كبير لاعتناق هذا الدين والتمسك به ، وهى هدى من الله سبحانه وتعالى توحى لمعتنق الدين بالراحة النفسانية ـ ولكنها تفتقر الى **الدافع العقلانى** الذى اصبح مفقودا فى هذه الآونة . وفقدان الدافع العقلانى فى الدين ، ومجىء حاكم ظالم لا يعرف من الدين الا التقاليد التى جعلته خليفة للمسلمين هو الذى حول الطابع الحضارى للاسلام ، وجعل الحضارة الاسلامية العربية تقبع مدة طويلة من الزمن وينعدم فى الواقع تقدمها هذا اذا لم تكن قد فقدت كثيرا فى هذه الآونة من تراثها السابق .

وايضاحا لهذه النقطة اقول ، ان الدين الاسلامى ليس مجرد عبادات صادرة عن عقيدة يؤمن بها الانسان وحده فحسب بل انها بالاضافة الى ذلك **روح مجتمع** يشمل الجماعات بالاضافة الى الافراد ولما كانت السيطرة في القرون الاربعة السالفة في العالم العربى لخليفة لا يرتبط بالعروبة ويخشى على عرشه من الفكر الاسلامى الصحيح الذى يؤمن بالعقل ويدعو الى التفكير ، لهذا كان الضغط على هذه الظاهرة الحضارية .

واذا جاز لنا ان نقسم فى سبيل البحث المظاهر الاسلامية ، نستطيع ان نقول ان هناك ظاهرتين ـ ظاهرة اسلام الفرد **وظاهرة اسلام الدولة او المجتمع**. وللظاهرة الاخيرة **الاثر الاكبر فى ازدهار اللغة العربية وانتشارها وقيامها بالدور المطلوب منها فى تادية واجبها الحضارى .**

فعلاوة عن ازدهارها فى العصر الاموى والعصر العباسي الاول ، نجد انها استمرت فى التقدم فى العصور العباسية المتاخرة ، على الرغم من اضمحلال السلطة الزمنية للخليفة العباسى . وكان فى الفترات العباسية المتاخرة دويلات عديدة متفرقة فى انحاء الامبراطورية الاسلامية يحكمها امراء مختلفون ، وبعضهم قد لا يكون عربيا . ولكننا فى هذه الفترة نرى ازدهار اللغة العربية فى نواحى الفكر المختلفة من ادب وفلسفة وعلوم . وقد ظهر كثير من جهابذة الفكر فى هذا الوقت ، وكثير منهم لم يكن عربي الاصل ، وانما كان يكتب ويفكر باللغة العربية كالبيرونى وابن سينا . ويمكن للباحثين فى تواريخ رجال الفكر ان يجدوا الكثير من هؤلاء الذين لم يكونوا عربا فى اصلهم وانما كانوا مسلمين مؤمنين يعيشون فى امارة تحمل الروح العربية فى سلطتها

الزمنية ، ووجدوا من الطبيعى ان يتكلموا ويفكروا ويكتبوا باللغة التى حدثهم بها دينهم والتى نما بها تفكيرهم . وهذه الكتابات العربية التى قام بها هؤلاء المفكرون وكتبوها بلغة القرآن لا يمكن ان نكتفى بوصفها بأنها حضارة اسلامية فحسب بل انها حضارة عربية ايضا . من الصعب جدا ان نفرق بين العروبة والدين فى هذه الفترة من الزمن . ان الروح المتوثبة المنطلقة التى جاء بها الدين الاسلامى لم يكن يستطيع ان يتكلم عنها غير لغة الدين نفسه ، هذه اللغة التى تملك مميزة الاشتقاق . وبالطبع لا يمكن ان تخلو هذه الفترة من شعوبيين من الكتاب حاولوا جهدهم ان يجعلوا سبب هذا الانطلاق هو الدين الاسلامى وحده ، وان ينزعوا فضل اللغة العربية او العروبة كلها من الموضوع .

ارى ان البحث الذى اطرق اوسع من ان اوفيه حقه فى استفتاء قصير كهذا فهو فى الواقع ليس الموضوع الذى تخصصت فى الكتابة فيه وقد تكون السطحية فى بحث كهذا اكثر ضررا من اغفال البحث كله .

خلاصة ما اقصد اليه فى هذا الحديث هو ان **روح الدين الاسلامى اذا وجدت فى السلطة الحاكمة فانها ستدفع باللغة العربية الى الامام** ، وهذا ما يفسر لنا تقهقر اللغة والفكر الاسلامى كله فى فترة الحكم العثمانى .

دلائل تقدم اللغة فى عصور ازدهارها ـ

سوف لا اتطرق الى تقدم اللغة فى الادب والشعر والدين تاركا للمتضلعين فى هذا الشأن ايفاء الحديث حقه . ولكننى سوف اتناول ذلك بقدر ما يتيسر لى ، فافترض ان اللغة المتقدمة فى العلم هى التى تستطيع الايضاح عن المفاهيم العلمية سواء بالاسلوب او المصطلحات . ولا اظنني بحاجة الى ذكر البيان والبديع والاساليب البلاغية المتوفرة فى اللغة العربية . انما اقول ان العلوم بدات فى مطلع الدولة العباسية تترجم ، ثم اخذ يظهر من العلماء من يهضمون محتوياتها ، وسرعان ما ظهر الكندي الذى بدا يضع الاصول لعلم البصريات وعلم الاجواء ومختلف العلوم الطبيعية ، وبدانا نجد العلم العربى الاصيل النابع من علماء فهموا محتويات التراجم اليونانية وهضموها هضما جيدا واخذوا يزيدون عليها. وبطبيعة الحال بدات المصطلحات العلمية تظهر شيئا فشيئا ، ومع مرور الزمن ظهر فطاحل العلم فى القرون الوسطى كابن سينا والبيرونى والرازى وابن الهيثم ونصر الدين الطوسى وعبد الرحمن الصوفى. ونلاحظ فى خلال مراجعتنا لبعض هذه الكتب او كلها الملاحظات التالية :

1 ـ المصطلحات العلمية ـ غير اسماء الاعلام اصبحت كلها عربية خالصة ، ويلاحظ القارىء بساطة هذه المصطلحات الجديدة الخالية من التعقيد . فلا يشك احد مثلا ، بأن عبد الرحمن الصوفى عندما وضع كتابه صور الكواكب ، كان يعرف الزوايا ويقيس ابعاد النجوم عن بعضها بهذه الوسيلة بواسطة الاسطرلاب والسدس . ولكنه يذكر فى متن الكتاب اصطلاحات لا علاقة لها بالزوايا ، كالرمح والذراع والشبر والاصبع . فيقول ان النجم الفلانى يبعد عن النجم الفلانى بمقدار ذراع مثلا . او بمقدار رمح او شبر او اصبع . ويخال القارىء للكتاب ان هذه الاصطلاحات هى مسائل تقديرية من الصوفى . والواقع غير ذلك ـ فالرمح فى قياساته تساوى ما يعرف الآن بمسافة 14 درجة (كالمسافة التى تفصل بين نجم « بيت الجوزاء » Betelguese ونجم «رجل» Rigel فى مجموعة الجبار الذى يعرف ايضا بالصياد) ، والذراع هو سدس الرمح ويساوى درجتين وعشرين ثانية ، والشبر هو ثلث ذراع اما الاصبع فهو جزء من اثنين وثلاثين جزءا من الذراع .

وهذه التعابير البسيطة اذا اصبحت تدل على قياسات دقيقة دخلت نطاق العلم كمصطلحات علمية. ولا نجد ان العرب قد لجأوا الى تعابير اجنبية فى اصطلاحاتهم العلمية ، اذ كان فى لغتهم متسع لكل ما يطلبون .

2 ـ نجد كثيرا من الاصطلاحات مكونا من كلمتين ؛ مثل (اختلاف الزاوية) و (خط الزوال) . وقد تكون لهم حجتهم فى هذا الاختيار . فالكتب قليلة ان لم تكن نادرة ، والوقت طويل لقراءة الكتاب والتمعن فيه ، على عكس هذا الزمن الذى لا يجد الانسان الوقت فيه لكي يراجع مئات الكتب فى اي موضوع يشاء .

3 ـ نظرا لثقة العلماء فى انفسهم كانوا يبقون الاسماء التى تدل على اعلام على ما هى عليه مع بعض التعريب . فكتاب بطليموس حافظوا على اسمه تقريبا ـ المجسطى وكذلك اسماء المجموعات النجمية التى تدل على اعلام ـ مثل قيفاوس Cepheus

الذى يسميه الصوفى والبيرونى قيقاوس ، ولا ادرى كيف وقعا فى هذا الخطأ مع انه اسم ملك فى الاساطير اليونانية ، ولكنى ارجح ان اعجام الحروف بالتنقيط فى تلك الايام كان فيه مجال كبير للخطأ . ومثل برشاوش Perseus وقنطورس Centauris حتى ان بعض المجموعات التى تحمل اسماء عربية لم ينسوا ان يضعوا بجانبها اسمها الاجنبى. فالشلياق او السلحفاة لم ينس البيرونى ان يضع بجانبها اسمها الاجنبى اللورا Lyra وفى كتاب صور الكواكب للصوفى طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن يذكر اللوزا (باعجام الراء) ولا ادرى اذا كان ذلك نتيجة خطأ مطبعى ام ان الصوفى يقصد ذلك ، للسبب نفسه الذى تقدم ذكره عند الخطأ فى اسم قيقاوس .

اعتقد ان ثقتهم بعلمهم وتمكنهم منه هو الذى جعلهم ينصفون غيرهم من العلماء الذين سبقوهم ، وهم لا يرون عارا فى استعمال كلمات اجنبية اذا كانت لها قيمتها فى اسطورة من الاساطير وفى اسم شهير .

ونتيجة لذلك كله ، وضع العرب طابعهم على العلم كله، ووصل الينا من ذلك على الاقل اسماء النجوم التى بقيت عربية حتى الآن . وانى اقول انهم لن يصلوا الى هذه الدرجة الا بروح الاسلام التى كانت طاغية فى العصور التى ازدهر فيها العلم . وتقرير حقيقة كهذه دون اثباتات وبراهين تفصيلية قد لا يكون لها وقعها المطلوب فى النفوس التى تبحث الحقائق بحثا موضوعيا . ولكنى كما قلت فيما سبق اكتب مجرد ملاحظات رايتها فى تجربتى الخاصة ، اما التفصيل فاتركه للمؤرخين والبحاثين فى التاريخ .

عصور الانحطاط ـ

وفى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى احتل العثمانيون القسطنطينية ، واخذوا يتوسعون فى امبراطوريتهم شيئا فشيئا وسيطروا على كل العالم العربى وغير العالم العربى ، وراوا انهم ماداموا يدينون بالاسلام فيجب ان تكون لهم الخلافة ، وامكنهم تحقيق ما ذهبوا اليه . ولكنهم كانوا يتكلمون اللغة التركية العاجزة عن ايفاء الحضارة حقها ، ولم يستطع ايمانهم بالدين الاسلامى ان يجعلهم يتخذون من اللغة العربية لسانا . واصبحت لغتهم فى الواقع خليطا عجيبا من العربية المتركة واللغة التركية . واصبح الحفاظ على هذا النظام هو الاساس الذى تقوم عليه الدولة ، وفى اواخر عهدهم اصبحوا يدرسون اللغة العربية التى لا غنى لهم عنها باللغة التركية . هذا الازدواج فى شخصية الدولة بين الدين الصحيح والجنسية الحاكمة لم يؤثر فى مدى انتشار الدين الاسلامى على اساس العقيدة الفردية ولكنه اثر على الفكر تأثيرا كبيرا . وغدت روح الدولة اسلاما كهنوتيا اذا صح لنا هذا التعبير .

وكل ما استطيع ان اقدمه من اثبات على صحة كلامى هذا **هو انعدام العلماء** العرب ، او على الاقل انعدام اولئك الذين كان يمكن ان يحدثوا اثرا فى الفكر . وبالاضافة الى ذلك اصبحنا **نجد عجزا فى اللغة المستعملة** ، ونحن حتى الآن لم نفق الافاقة الكاملة من ذلك الكابوس المزعج الذى استمر حتى اوائل القرن العشرين . فقد مرت هذه القرون الاربعة من الزمن ، والحضارة تغذ السير ، والآلات المختلفة تظهر الى الوجود ، ولغتنا الفنية فيما سبق تفتقر الى كلمة « طاولة » . هذه اللغة التى يوجد فيها للاسد اكثر من خمسمائة اسم لم يعد فيها اسم واحد يدل على متاع موجود فى كل بيت تقريبا ، وهو ما يسمى بالعامية طاولة . هناك كلمات فى اللغة العربية مثل منضدة ومائدة ، ولكنى اظن هاتين الكلمتين لا تكفيان لانواع الطاولات الموجودة فى البيوت . وفى رايى ان هذا المتاع اذا كنا سوف ننضد عليه اشياء فيجب ان يكون اسمه المنضدة ، ويحق لنا ان نسميه مائدة اذا كنا قد خصصناه للاكل، وهنا خلاف جديد يظهر لنا . فمن الناس من يأكلون على مائدة لا ترتفع اكثر من شبر او شبرين عن الارض اكثر من ذراع . فأى هذه الاوضاع الثلاثة جدير باسم المائدة ؟ وبعد ذلك كله ، فهناك طاولات متعددة الانواع مختلفة الاستعمال ، فمنها ما يوضع فى الوسط فى غرفة الاستقبال ويوضع عليه الزهور، ويكون ارتفاعه اكثر من ذراع ، ومنها ما يؤدى الغرض نفسه ويكون ارتفاعه حوالي شبرين فقط ، ومنها ما يكون صغيرا جدا توضع عليه علب التبغ ومنفضة السجاير ، ومنها ما يكون طويلا جدا صغير المساحة يوضع فى زاوية الغرفة لكي يوضع عليه اص فيه شجرة صغيرة ، ومنها ما يخصص للكتابة ، وقد يكون فى هذا النوع درج او لا يكون . ويستطيع المتوسع ان يجد اصنافا عديدة جدا اكثر مما ذكرت. ليس لهذه الاغراض فى اللغة العربية الحديثة اسماء . حتى «طاولة» فهى ليست كلمة عربية .

والاغرب من ذلك كله ، ان كلمة « طاولة » كما يبدو مأخوذة عن الاجنبية Table وهذه بدورها مأخوذة عن اللغة العربية طبلية . وفى قاموس المنجد الطبعة الثامنة ـ (الطبلية) دراهم الخراج، ج طبليات. والعامة تستعملها لمنضدة مستديرة مثل الطبل يرق عليها الخبز او يؤكل عليها او نحو ذلك . وبناء على هذا تكون بضاعتنا قد ردت الينا بشكل لم نعد نتعرف عليه ولم يعد يتعرف علينا .

وقد استمر الانحطاط طوال هذه الفترة التى **اسميها بالعصور المظلمة . ولولا القرآن الكريم والدين الذى كان يدرس باصوله فى المعاهد الدينية كالازهر الشريف بالذات ، لعلم الله ما كان فى الامكان ان يحدث للغة العربية** . اننى ارجح ان يكون مصيرها الى الزوال والى الحفظ فى بطون الكتب الاثرية ، لاسيما وقد سبق لغيرها من اللغات التى كانت لسان حضارات عظيمة ان آلت الى هذا المصير ـ والاغريقية القديمة واللاتينية مثلان على ذلك .

وقد بدأ الشعب العربي يتململ منذ القرن الماضى ، وما انتهى الكابوس التركى حتى بدات النهضة الحديثة التى لا تزال حتى الآن فى بدايتها. ولكنها بداية غريبة حقا . انها بداية تعتمد على اسس عديدة يحتار لها الفكر ويضيع فيها . فمن الناس من يرى ان نعتمد على لغتنا وديننا ونستأنف السير فى الحضارة على هذا الاساس ، ومنهم من يرى ان اللغات الغربية التى اصبحت تفوق العربية حاليا فى غناها ، هي التى يجب ان تكون على الاقل لغة الدراسة العلمية ، ومنهم من يرى الانصراف الى الآداب الغربية وتعريبها ولا يهم شكل اللغة التى سيتم فيها هذا التعريب ، بل وصلنا الى امور هى فى منتهى الغرابة ـ فهناك دعوات الى ترك اللغة العربية الفصحى كلها واستعمال اللغة العامية ، ولما كان فى الشعوب العربية حوالي خمسين او ستين لغة عامية تختلف الواحدة عن الاخرى كان من المفهوم الضمنى الدعوة الى تقسيم العرب الى هذا العدد او اكثر من الفئات وتختص كل فئة بلغتها العامية ويصبح لها ادبها الخاص وتستغنى عن كل التراث العربى القديم الذى لم تعد له اهمية فى نظر هذه الفئات . وهناك دعوات اخرى منها كتابة العربية بالحروف اللاتينية وهذه لا استطيع ان ابدي فيها رايا لان قراءاتى عنها لم تكن مستوفاة .

على اية حال ، فقد بدات العربية تنشط كلغة معبرة عن المواضيع التى تطرقها، ولكن الاسس المهلهلة والدوامة الحضارية التى رمانا فيها المستعمرون دعت الى ظهور اخطاء كثيرة لا اود ان اذكر منها غير امرين يلفتان الانتباه ، فلست فى مجال تعداد الاخطاء ـ :

1 ـ اصبح كثير من المثقفين يؤمنون بالحضارة الغربية ايمانا يستصغرون به ما انتجته الحضارة العربية ولا يكادون يصدقون ان العرب كانت لهم كشوفهم وان آثارهم لا تزال واضحة فى العلم الحديث ، والفلك بالذات . ولهذا كانت تمر فى بعض الكتب القيمة اغلاط مستغربة . ففى كتاب « كيف ترقب السماء » ، تاليف برانلى ، وترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندى ، نشر مؤسسة فرانكلين ـ نجد ان نجم « مراق » يصبح اسمه « مراك » ، ونجم الدبة يصبح اسمه « دبهى » فهو يكتب بالانجليزية Dubhe ونجد ان نجم المئزر والذى يسمى ايضا بالعناق يصبح اسمه ميزار ، فهو يكتب بالانجليزية Mizar والواقع ان اسماء النجوم كما يقول اطلس نورتون Norton's Star Atlas فى الطبعة الرابعة عشرة سنة 1959 ، صفحة 52 « وكثير من اسماء النجوم والعناقيد ليس لها لفظ ثابت ، فهى محرفة او مشوهة عن اللغة العربية . فنجم ارنب يلفظ ارنب وارنب (بفتح النون او كسرها ونجم كف قد يلفظ كف وتشف ... الخ »

على اية حال ، فاذا كان هناك خلاف فى اللفظ فى كثير من اسماء النجوم ، فمما لا شك فيه ان الحروف تدل دلالة كبيرة على الاسم على الاقل لانه يكتب فى اللغة العربية دون شكل ، ومن السهل اخذ الحروف الصامتة من الكلمة الانجليزية وترك حروف العلة التى تقابل الحركات . وكلمات مثل دبة ومئزر ومراق لاتحتاج الى كثير من الجهد لكي يظهر اصلها العربى .

ولكن هناك كلمات كثيرة اخرى كاد التشويه يفقدها اصلها العربى ، ويلقى عبء معرفة اصولها على ما يقوم به البحاثون المتضلعون المختصون ، ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ابحاث الدكتور عدنان الخطيب التى اطلعت على قسم منها شخصيا ، وهى بلا شك تدل على مجهود كبير . وبالمثل يجب ان اشير الى المساعدات التى يحاول ان يرسلها لى الدكتور محمد هيثم الخياط ـ وكلاهما من دمشق . (الدكتور الخطيب عضو المجمع العلمى والدكتور الخياط استاذ فى كلية الطب) .

2 ـ الخطأ الثاني الذي اود ان اشير اليه هو اندفاع بعض من يكتبون الى اهمال اللغة العربية كوسيلة للتعبير اهمالا بشكل يبعث الحيرة والاستغراب . ومن المعروف ان اللغة العربية على الاقل ان لم تزد في قدرتها على التعبير على اية لغة اخرى فانها لا تقل عنها . ولا اتكلم خاصة عن الصرف والنحو واستعمال العربية العامية او الفصحى ، وانما اعني المقدرة على التعبير باى شكل من الاشكال . وسوف لا اضرب مثلا من الادب السوقي الرخيص ، بل من الادب العالمي المترجم الى العربية . واعني بذلك كتاب « النفوس الميتة» للكاتب الروسي نيكولاي جوجول، وقد يكون هذا الكتاب اشهر نص ادبي كلاسيكي روسي .

لقد نشرت دار اليقظة العربية السورية هذا الكتاب في سلسلة عيون الادب العالمي وطبعته طباعة جيدة وقام بترجمته انطون حمصي ويوسف بنا . ومن المفروض اننا نقرأ نصا ادبيا قد لا يحسن الكاتب روعة الاداء ولكنه على الاقل يعطينا معنى من المعاني، ولكننا في الترجمة المذكورة في الصفحة 12 عندما نقرأ التعليق على وصف السائق سليفان نجد ما يلي:

« ولكن الرجل الروسي .. يفخر بأنه يحافظ على علاقاته الاجتماعية بهز قبعة بسيطة لكونت اوبرانس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لاجل بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لمثل نصائح البلاط ان تتنازل للمعرفة ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوة الدسائس ، ليس من نصيبهم بالطبع الا نظرة احتقار من القارىء او ما هو اردأ من ذلك ، اعني السير قريبا منه ، دون اى اختلاف عن مشية القاتل ، اجل كل هذا محزن جدا ولكن فلندعه ولنعد الى تشيتشيكوف فيقول (ص15) :

« وان الكاتب ليعلم بأن هذا ليس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمي بالوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه السوداوتان (كذا) تشعان باللهب ... الخ» ويستمر المترجمان في الحديث بجملة اخرى يقولان فيها انه « اشقر الشعر بعينين زرقاوتين (كذا) »

قد لا يستحق هذا الكلام كل هذا التعليق ، ولكن الكتاب يعتبر نصا ادبيا وهو موجود في مكاتب كثيرة كمرجع عن الادب الروسي الكلاسيكي ، وقد طبع الكتاب لكي يكون كذلك . ولو شئت ان ارمي بالوان عديدة على قطعة من قشر القنب بكل بخل لادركت ان اللغة العربية اصبحت اعجز من ان تؤدي عملا . فأمر ترجمة كهذه لايمكن ان يعتبر جهلا في الترجمة ، لان من جهل الترجمة يعطي المعنى الخاطىء الذي فهمه ، ولكن القضية كلها **استهتار باللغة العربية وبالقراء العرب** . انها صرخة تقول « اذا اردتم ايها العرب ان تفهموا عبقرية جوجول ، ولا احد يشك على ما اعتقد بعبقريته ، فعليكم ان تقرأوه في لغة اخرى غير العربية .»

على اية حال ، فان **الاسفاف** الذي نجده غزيرا فيما ينشر في الاسواق الآن **ليس دليلا على عجز اللغة العربية** ، واذا تتبعنا طبيعة الناشر او هدف الكاتب من انتاجه نجده في الغالب بعيدا كل البعد عن الروح العربية وعن الطابع الاجتماعي الذي قامت بنشره الحضارة الاسلامية بظهور الدين الاسلامي .

بداية النهضة الحديثة في لبنان :

يجب ان لا نستغرب بداية النهضة الادبية والعلمية الحديثة في لبنان البلد العربي الذي تكثر فيه المسيحية ، وان تكون الريادة في هذا الميدان لاخواننا المسيحيين بالذات . فقد كان لبنان بوضعه الاجتماعي والديني اكثر البلدان العربية اتصالا بالغرب . وبناء على ذلك فقد اتيحت لهم الفرصة لكسب المذهب العقلاني الذي اخذت الحضارة الغربية تسير عليه ، ورأوا من واجبهم ان يبحثوا لغتهم ويكتبوا بها الادب والعلم ، بناء على الاساس الجديد. وقد ظهر من الآباء اليسوعيين ومن غير الآباء اليسوعيين من لبنان ممن قدموا للغة العرب والادب ما لا يجب ان يغمط حقه . واذا كان لي ان اشيد بشيء فان الناحية العلمية التي هي من اختصاص بحوثي هي التي يجب ان اذكرها . واخص هنا بفضل آل صروف ومجلة المقتطف . فقد قاموا بمجهود جبار في نقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية بقالب عربي ووضعوا اصطلاحات عربية جديدة وحاولوا احياء كثير من العلوم العربية والاصطلاحات العربية .

ولكن الذي يؤسف له حقا ان مجهودهم كان مجهودا فرديا ، اذ ما انقطعت مجلة المقتطف عن الصدور حتى وجدنا ان الحركة كلها قد وقفت في هذا الاتجاه ، وبدأت في الواقع حركة النهضة في اتجاه آخر، هو الاتجاه الغربي المحض . فقد ازدهرت دراسة العلوم لكن بطابعها الغربي وفي الجامعات التي تدرس باللغات الغربية ، حتى ان معظم الدراسات العلمية كانت تهدف في الواقع الى الكسب

المهني الحرفي الذى يستفيد منه المرء شخصيا ، وتنتهى الدراسة فى العادة بالوصول الى هذا الغرض. اما البحوث العلمية التى تهدف الى زيادة المعرفة او الى خدمة المجتمع ككل فلم نكن نجد لها اثرا ظاهرا ، لان التخطيط للمجتمع والموارد الرئيسية للبلد لم يكن من هم الحكومات التى كانت معظمها تحت السيطرة الاستعمارية .

على اية حال ، حتى بعد استقلال الدول العربية **لم تجر محاولات جدية لجعل اللغة العربية لغة العلم الا فى جامعة دمشق** . اذ اصبح الطابع الغربى هو الغالب على حضارتنا .

الضياع الجديد

لا نزال بعد نهضتنا التى مر عليها اكثر من نصف قرن لا نعرف فى الواقع اين نحن . فديننا الاسلامى يشدنا الى الروحانية والعقلانية والانسانية من ناحية ، ولكن الحضارة التى قدر لنا ان نجدها امام اعيننا هى حضارة غربية بطابعها المادى العنيف. انها عقلانية ولا شك من حيث انها تستعمل العلم والذكاء والتجربة بكل عبقرية وفن . ولكن هدفها هو المادة وهو يهزأ بالانسانية والشعور الانساني . وبين الدين والحضارة التى نعيشها نجد انفسنا ضائعين . فهل نستعمل اللغة العربية فى علمنا ؟ وهل نترك اللغات الاجنبية التى اصبحت مفاهيمنا جزءا منها ؟ وكيف يمكن ان نبدأ من جديد ؟ وما الفائدة من الرجوع الى العلماء العرب ما دامت الحقائق التى ذكروها اصبحت قديمة؟ وكيف لنا ان نضع مصطلحات جديدة لآلاف المصطلحات التى اصبحنا نعرفها بسهولة فى اصولها الاجنبية ؟ بل اننا وصلنا الى درجة اصبح الكثير منا يجد ان اللغة العربية اعجز من ان تفي بهذه المتطلبات .

ولكن اللغة العربية فى الكليات الادبية وفى المعاهد الدينية تزدهر وتنمو، والقرآن حافظ امين لها . انها لا تعجز الآن عن اداء المعانى والمصطلحات فى جميع الفروع الثقافية ــ ما عدا العلوم . فالى متى سوف يستمر هذا التناقض بين دراساتنا العلمية والادبية ؟ وهل سنبقى بلغتين او بأكثر ، العربية للآداب والشؤون الثقافية الاخرى ، والانجليزية او الفرنسية لشؤون العلم ؟

مجهودات مشكورة ــ

الواقع ان جعل اللغة العربية لغة العلم لا يمكن ان يحدث الا اذا اصبحت لغة التدريس فى الجامعات . واظن ان الجامعة السورية يجب ان تحوز على قسط وافر من الثناء بهذا الخصوص. فالاساتذة الذين يدرسون فيها يبحثون وينقبون عن اصول الكلمات العربية ويستعينون بالمجامع العلمية فى هذه المهمة ويخرجون لنا بنتاج هو ذخر فى الواقع . وكثرة الكتب التى تظهر فى هذا الميدان هي التي سوف تقرر رسوخ هذه الكلمات والمصطلحات . والواقع ان الاصطلاح او التعبير اذا وضع مجردا لم تكن له قيمته الى ان يستعمل . وكثرة الكتب العلمية التى تنشر هي التي ستكون حافزا لواضعيها لكي يجدوا التعابير والمصطلحات المناسبة لما يكتبون .

واذا اخذنا العلم مجردا من الحضارة الغربية واصبحنا ندرسه فى جامعاتنا باللغة العربية وزاد تمسكنا بالروح الاجتماعية الاسلامية العقلانية الانسانية فاننا باذن الله واجدون لغة غنية فياضة تغنينا عن كل لغة اخرى .

مصادر البحث :

1 ــ المنجد ــ الطبعة الثامنة ــ للاب لويس معلوف اليسوعى .

2 ــ القاموس المحيط ــ لمجد الدين الفيروزابادى

3 ــ قاموس النهضة ــ لاسماعيل مظهر .

4 ــ صور الكواكب الثمانية والاربعين ــ لأبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الرازى المعروف بالصوفى .

5 ــ القانون المسعودى ــ لأبى الريحان محمد ابن احمد البيروني .

6 ــ بدائع السماء ــ تأليف جيرالد هوكنز ــ ترجمة عبد الرحيم بدر .

7 ــ كيف ترقب السماء ــ تأليف فرنكلين براللى ــ ترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندى

8 ــ النفوس الميتة ــ تأليف نيقولاى جوجول ــ ترجمة انطون حمصى ويوسف بنا .

9 ــ Cassell's Latin Dictionary

10 ــ Webster's New World Dictionary

11 ــ Norton's Star Atlas

اللغة العربية انتشرت بفضل المد الحضاري للإسلام وفكره الثوري الجديد

بقلم الأستاذ عبد العزيز حسين

وزير الدولة السابق لشؤون مجلس الوزراء (الكويت)

عندما قامت الدعوة الاسلامية كانت في الجزيرة العربية لهجات عديدة ، فكان ان وحد الاسلام تلك اللهجات واصبحت لغة قريش هي لغة القرآن الكريم التي غدت منذ ذلك الحين تدعى اللغة العربية الفصحى.

لقد اختار الله العرب حملة لرسالة الاسلام فكان من منطق الامور ان تتوحد كلمة العرب لكي يكونوا اهلا لحمل هذه الرسالة وان تكون **اللغة الموحدة من اهم روابط هذه الوحدة .**

والدين الاسلامي رسالة حياة للبشر جميعهم ، فهو دين عالمي يهدف الى هداية الانسان في كل مكان والى نشر الحق والعدل في جميع اركان المعمورة ، وقد ضمن الاسلام القرآن الكريم سبل هدايته واودع فيه تشريعه ومواعظه ، فكان **القرآن مركز الاشعاع** للمسلمين ، وهو قد **نزل بلسان عربي مبين .**

ولكي يستطيع المسلم ان يعي امور دينه فان عليه ان يتفهم القرآن وآياته، كما انه لكي يؤدي بعض اركان دينه فان عليه ان يحفظ اجزاء منه باللغة التي انزل بها ، **فالدين** الحنيف الذي ترك في المسلمين كتابا لن يضلوا اذا اتبعوه **ربط المسلم بمعرفة مقدار من اللغة العربية** لكي يكون مسلما حقا . ان عالمية الاسلام ، دين التوحيد ، تتضح هنا في جمع المسلمين على لسان واحد ، فالقرآن كتاب التشريع والعظات ، قد انزل بلغة عربية تدخل في عبادات المسلمين فلا يتصور ان يوجد مسلم لا يحفظ الفاتحة وآيات اخرى من القرآن ، واذا كان مسلما حقا فان عليه ان يفهم ما يحفظ ، اذ ان التعبد بالقرآن لا يعني ترديد الآيات دون فهم لمعانيها ودون ادراك لمغازيها السامية . اذا فان كل مسلم يعرف قدرا من العربية، ولكي يكون اقدر على تفهم دينه والتمسك به فان عليه ان يعرف المزيد من لغة كتابه المقدس .

واننا نعلم ما دار من نقاش طويل حول ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الاخرى ، وما وصل اليه الفقهاء والباحثون من ان القرآن اذا نقل الى لغات اخرى فانه يغدو في اللغة الاخرى ترجمة لمعاني القرآن لا قرآنا، واذا لزم ان تؤدى الصلاة بآيات من القرآن عربية .

وقد **انتشرت الدعوة الاسلامية** بسرعة لم تنتشر بها دعوة اخرى ، **وصاحب انتشارها انتشار اللغة** العربية بين الامم التي دخلت الاسلام وبنفس السرعة المذهلة . ولا يمكن ان يعود ذلك فحسب الى نزوح

الكثيرين من العرب الى البلاد التى دخلها الاسلام ، او الى ان اللغة العربية هى لغة الحاكمين فى النظام الجديد، بل الى ان **الدين الاسلامى مرتبط كدين باللغة العربية لغة كتابه المقدس** . وان الذين اعتنقوا الاسلام ادركوا انهم سيكونون اقدر على فهم دينهم الجديد اذا هم تعلموا العربية واتقنوها . فانتشار اللغة العربية فى البلاد الاسلامية سببه الاسلام دينا والعرب حملة رسالة .

واذا كانت اللغة العربية قد لقيت مقاومة من بعض الامم التى دخلها الاسلام بسبب التعصب القومى من تلك الامم للغتها الاصلية ، فان هذه الامم التى لم تدرك تمام الادراك معنى عالمية الاسلام قد استعملت منذ ذلك الحين مفردات لا حصر لها فى لغاتها كما استعملت الخط العربى فى كتاباتها ، واختار الكثيرون من مفكريها وعلمائها **اللغة العربية لغة بحث وعلم وتاليف** ، وغدا من سمات العالم فيها ان يكون ضليعا باللغة العربية او عارفا بها .

اننا لا يمكن ان نتصور ان تكون اللغة العربية لغة العالم العربى كما نراه اليوم لو لم تكن الرسالة الاسلامية . كما اننا **لا نتصور ان تنتشر لغة ما دون مضمون حضارى** ، وقد حملت اللغة العربية حضارة الاسلام الى العالم فاعتنقت الكثير من الشعوب دين الاسلام وتبنت لغة القرآن. **وخلد الاسلام اللغة العربية** لان رسول الاسلام عربى ، وكتابه المقدس عربى ، يضاف الى ذلك ان اللغة العربية كانت من النضج والسعة والقدرة على التعبير بحيث صلحت لكي تحتوي الافكار الجديدة والثورة الجديدة والحضارة الجديدة ، ولو لم تكن كذلك لقصرت ان تواكب انتشار الاسلام او ان يتقبلها الناس لغة دين جديد ومجتمع جديد وحضارة جديدة . ولا ادل على ارتباط اللغة العربية بالدين الاسلامى من الاهتمام الذى لقيته قرونا طوالا من العلماء والباحثين بحيث نشأت **علوم عربية ارتبطت بالعلوم الاسلامية** ، واصبح من مستلزمات عالم الدين ان يكون عالما بالعربية .

ولا نستطيع ان نتخيل بطبيعة الحال ماذا ستكون عليه حال اللغة العربية لو اختار الله لقرآنه لغة غير الضاد ، او بعبارة اخرى لو اختار الله رسوله من غير العرب ... ولكننا نستطيع القول ان **اللغات لا تنتشر الا بدافع حضارى** ، وانها لا تنتشر الا اذا كانت صالحة لاحتواء الافكار الجديدة قادرة على التعبير عن حاجات الانسان المتطور وملتقية مع اسباب النمو والتقدم .

والاسلام قبل كل شىء عقيدة وايمان واسلوب حياة ، وليس الغرض من الاسلام نشر اللغة العربية ، ولكن اللغة العربية انتشرت لان الناس آمنوا بالدين الجديد الذى حمله اليهم العرب ، وتعلموا العربية لكي يزيد ادراكهم وفهمهم للدين الذى اختاروه .

العربية اللغة الأولى للمسلمين

بقلم الشيخ عبد الله علي العيسى
وكيل المحكمة الكلية (الكويت)

1) لقد كانت اللغة العربية قبل اشراق نور الاسلام محصورة بين القبائل العربية المشتتة فى شبه جزيرة العرب ، فلما انبثقت الدعوة المحمدية من مهبط الوحي وامتدت الى جزيرة العرب ثم تخطتها الى بلاد الفرس وافريقيا وبلاد الروم ـ كانت وسيلة الاسلام فى نشر الدعوة هي اللغة العربية فأصبحت بذلك **لغة الدولة فى اقطارها المتباعدة** ، وهيىء لها ان تكون **اللغة الاولى للمسلمين** فى شتى اقطارهم وعلى اختلاف لغاتهم، فالاسلام عندما اتخذ اللغة العربية وسيلته لنشر الدعوة انما اسدى لها اجل خدمة تقدم لاية لغة ذلك انها فى **خلال مائة عام اصبحت لسان تلك الامم** التى فتحت بلادها حتى ان مفكرى البلاد الاعجمية الذين اعتنقوا الاسلام كانوا يتبارون فى التاليف بلغة القرآن .

وهكذا كانت اللغة العربية مرتبطة بالاسلام رابطة التابع بالمتبوع وليست رابطة السبب بالمسبب التى تكون نتيجتها ـ لولا العربية لما كان الاسلام ـ فاللغة العربية نشطت تبعا لنشاط الدعوة الاسلامية ولولا ذلك لبقيت لغة لبعض القبائل العربية ولعلها بدون الاسلام كانت قد اندثرت ، فالقول بأنه لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر قول صحيح اما العكس فلا ، ذلك ان **قوة الاسلام لم تكن فى اللغة بل كانت فى روح العقيدة وقوة الايمان بها** ويعزز هذا الراى ان الاسلام فى العصور المتاخرة اي فى القرون الماضية القريبة حينما انتشر فى الشرق الاقصى وبلاد افريقية الشرقية بواسطة التجار المسلمين ، فقد انتشر بدون لغته العربية لعدم وجود السلطة بجانب العقيدة .

اما عن الاستشهاد بواقع بيئتنا الاقليمية وماضيها فى حقيقة الامر ـ لم تكن ماهولة الا منذ اربعمائة سنة تقريبا واما قبلها فكانت تتخذها بعض القبائل العربية ماوى من الغارات التى تشن عليها أو ترد عليها بعض القبائل للسقيا من آبارها المعروفة بكاظمة والتى يطلق عليها الجهراء فى زماننا هذا ـ فبيئة بلادنا حديثة التكوين على انها لم تعرف خلالها لغة لها غير العربية .

2) العربية لغة (الظاء) وليس كماجاء فى استفتائكم بأنها لغة (الضاد) فقد ورد فى حرف الظاء من لسان العرب ما نصه (روى الليث ان الخليل قال ـ الظاء حرف عربى خص به لسان العرب لا يشركهم فيه احد من سائر الامم) .

القول بأن لغة الظاء ضعفت نتيجة ضعف الوازع الدينى والوعي الاسلامى عند الناس قول صحيح يعززه

انك اليوم تجد اكثر المثقفين العرب لا يستطيع احدهم ان يكتب مقالا الا وخلفه مصحح لغوي يقتفي اثر هفواته ويتدارك اخطاءه ـ وكذلك تجد الغالبة العظمى من خريجي جامعاتنا العربية ما ان يكتب صفحة واحدة حتى تحصي عليه من الاخطاء اللغوية بل والاملائية ما يحيرك ـ واذا اردت العجب العجاب فحاول مع احدهم ان يقرأ لك من المصحف ما تيسر ، مع ان هذا الحكم ليس عاما فيمن نشأ في بيئة متدينة او تثقف بثقافة دينية .

اما عكس هذا القول ـ وهو ان الوازع الديني يتبع اللغة فان هي قويت تمكن الوازع الديني من النفوس واشتد وان ضعفت ضعف ـ فهو في رأيي غير صحيح والشاهد على ذلك ما تجده في بعض امم الاسلام من غير العرب فتجدهم **متحمسين للعقيدة ومتمسكين بها مع عدم معرفتهم للعربية** ـ ويجدر في هذا المقام ان ننوه بأن للعربية مكانة عظيمة في الاسلام ولو لم يكن لها فخر على غيرها الا نزول القرآن بها لكان ذلك اعظم واكبر فخرا ـ وما يجري في ايامنا هذه من دسائس ومحاولات لابعاد العرب عن لغتهم كاستبدال حروفها باللاتينية انما يقصد به انهاك اللغة وزعزعتها في النفوس وابعاد الاجيال عن لغة قرآنهم ودينهم .

3) اما مدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات او اللغات الاقليمية غير العربية فلا شك ان **للغة القرآن التي اكتسحت اللغات الاقليمية في غير البلاد العربية ايام الفتح الاسلامي ،** اثرا كبيرا على تلك اللغات **فبعضها اندثر** وحلت اللغة العربية مكانه والبعض اختفى الى ان انحسر ظل الحكم العربي الاسلامي عنها فظهرت تلك اللغات الى الوجود بفعل العصبية والشعوبية ولكنها بالرغم من ذلك لم تكن كما كانت في الاصل بل خالطتها العربية في كثير من الفاظها ومثالنا على ما نقول اللغة الفارسية التي يعتقد ان اربعين بالمائة من الفاظها المستعملة حاليا هي الفاظ عربية فضلا عن ان الحروف المستعملة في الفارسية الحديثة حروف عربية ، اما عن السؤالين الاخيرين فان لغتنا الاقليمية لغة عربية لا تخفى على اي عربي وان ما نتمناه للغة العربية في بلادنا وسائر بلاد العروبة ان تظل في المقدمة وان تكون اللغة الاولى لا ينازعها منازع .

شخصية المسلم تؤثر أكثر من اللغة في قوة الإسلام وضعفه .

بقلم الأستاذ عبد الله زكريا الأنصاري

(الكويت)

ان الله سبحانه وتعالى قد انزل كتابه العربى الحكيم على نبيه العربى الكريم باللغة العربية ، وهو عليم بكل شيء ، واختياره سبحانه نبيا عربيا ، فى امة عربية ، ووطن عربى ، لتبليغ رسالته الى الناس كافة ، انما هو دليل اكيد على ان هذه الامة هى الجديرة بحمل هذه الرسالة العظيمة ، ولهذا سارت هذه الرسالة جنبا الى جنب مع اللغة العربية ، لذلك فان الارتباط بين انتشار رسالة الاسلام وانتشار اللغة العربية وثيق ومتلازم ، فكلما انتشر الاسلام انتشرت اللغة العربية ، وكلما انتشرت اللغة العربية اصبح الاسلام اقرب الى عقول الناس وقلوبهم ، ذلك لان انتشار الاسلام فى بلد لا يتكلم العربية يجعله اقرب الى ان يتكلم ويتعلم اللغة العربية التى هى لغة القرآن ، كما ان الاسلام افاد فائدة كبيرة من اللغة العربية ، حيث انها اغنته بقواعدها واصولها وفلسفتها ، وساعدته على بلوغ ارقى مستوى بلاغى واروعه ، ولا يخفى ان مدى التلازم والارتباط بين اللغة العربية والدين الاسلامى الحنيف لم يحد منه الا دخول عناصر اعجمية حاقدة على العرب ، ومن ثم على الاسلام نفسه لارتباطه ارتباطا وثيقا بالعرب ، مما اثر تأثيرا بالغا على بعض النفوس الضعيفة من المستعربين او العرب الذين تأثروا بهذه العناصر الدخيلة فانجرفوا فى تيارات اهوائهم الشخصية ، واطماعهم الخاصة ، مما حد من انتشار الاسلام ، كما ان تلك العناصر الاجنبية الحاقدة ، حاولت ادخال الكثير من الاضاليل والاباطيل على الاسلام ، ودست عليه الكثير من التقولات التى ما انزل الله بها من سلطان . ومع ان دخول الاعاجم فى الدين الاسلامى وتعلمهم اللغة العربية صاحبه مبدأ «الشعوبية» الحاقدة ، التى ساعدت على تفتيت فكرة الوحدة العربية ، الا ان بعض علماء الاعاجم امدوا الفكر الاسلامى بخدمات لا بأس بها فيما قدموه من ابحاث ودراسات ، ولا شك ان العلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية هي ان **الاسلام اتى باللغة العربية** ، وهو اوثق سبب وامتنه ، اما سبب انتشار اللغة العربية فى بلاد غير عربية من هذا العالم فلا شك أن سبب هذا الانتشار هو تلك الرسالة العظيمة الخالدة وهى الاسلام الذى انزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا استدل على صحة هذا الرأى بواقع بيئتنا الاقليمية وبماضيها ، ذلك لان بيئتنا هذه وماضيها مرتبط ارتباطا كليا بلغتنا العربية اولا ، ثم بعد ذلك بديننا

الاسلامى ، واحب ان اؤكد هنا ان **الفكـرة العربيـة والفكرة الاسلامية متلازمان ، كلتاهما تغني الاخرى ،** وتساعدها على المضي قدما الى الامام .

واعتقد ان الـوعي الاسلامى والـوازع الدينى يقويان ويضعفان تبعا لما يكون عليه رجـال الدين مـن خلق وصدق واستقامة ، فرجل الدين له تأثير مباشر على الناس ، فاذا كان رجل الدين هذا غير جدير بتبليغ رسالة الدين ، فانمـا هـو يسيء اسـاءة بالغـة الى المسلمين ، اما بالنسبة للغة العربية ، فلا شك انها كلما قويت انتشر الاسلام ، وكلما انتشر الاسلام قـوي الايمان به ، وكلما ضعفت اللغة العربية اثر ذلك الضعف على الاسلام ثم الايمان به ، لكنى على كل حال اميل الى القول بأن **التأثير المباشر فى قوة الاسلام وضعفه يرجع الى رجل الدين نفسه .**

والفكر الاسلامى له تأثير كما اعتقد عن طريـق القرآن الكريم على اللهجات او اللغات الاقليميـة فى الاقطار غير العربية ، واعتقد ايضا ان الاسلام كلما كان قويا لدى اية بيئة من البيئات ، لا شك انه تارك تأثيرا على لهجة القوم ، وعلى لغتهم ، نظرا لقـوة ايمانـهم بالدين الاسلامى الحنيف وتأثرهم به .

واما تأثير اللهجة الاقليمية فى التعابير العربية ، فلست مؤمنا بها ، ذلك لان اللهجة انما هى فرع من اللغة واذا ما رأينا ان اللهجة الاقليمية منتشرة انتشارا واسعا فليس ذلك الا لان الناس يبحثون عن الطريقـة الاسهل التى يعبرون بها عن مشكلاتهم اليوميـة بدون قواعد ، وبدون نظام ينسق بين الالفـاظ ، وبدون ضابط يضبط الكلمات التى يعبرون بها ، ولعل اللغـة العربية هى التى تؤثر تأثيرا بالغا على اللهجة الاقليمية لقوتها وانتظامها .

والسؤال الاخير عن المكانة التى يجب ان تحتلها العربية فى بلدنا بالنسبة للغات الاجنبية ، فهى المكانة الاسمى والاعلى ! ولعل هذا السؤال موجـه الى غيـر العرب من الذين يدينون بالاسلام .

رابطة اللغة والدين ذات دلالة بليغة في مستقبل اللغة العربية

بقلم الأستاذ علي عبد اللطيف الجسار

(الكويت)

ان هناك تلازما وارتباطا بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، لقد كانت اللغة موجودة قبل الاسلام ولكنها محصورة فى بيئتها ومنابتها وهى بلا شك اللغة الحية الجديرة بانفاذ الدين الجديد الى اذهان الناس وعقولهم وليس ادل على ذلك من اختيار الله لها لتكون لغة دينه وشريعته واختياره لتبليغ رسالته الى الناس رجلا عربيا من بين قوم عرب اقحاح، ولما جاء الاسلام رفع من مكانتها حيث اوجب على الناس تعلمها ونشرها فى البلاد التى فتحها ، ولولا الاسلام لما انتشرت اللغة العربية فى معظم البلاد العربية اليوم ، ولولا القرآن وهو المنبع الاساسى للدين الاسلامى لتمكن الاتراك من تحويل العرب الى اتراك لانهم حكموا العرب قرونا عديدة ، ولقد كان للغة القرآن وهى اللغة العربية الفصحى اثر كبير فى نفوس العرب الذين تأثروا بسماع القرآن ودخلوا فى الاسلام ، فهم ادركوا بفطرتهم العربية أن القرآن كلام الله وليس بكلام مخلوق فدفعهم تأثرهم الى حمل الدعوة الاسلامية والمخاطرة من اجلها الى خارج حدود اراضيهم وديارهم، **فكان تأثرهم بالقرآن سببا من اسباب انتشار الاسلام** حيث جاهدوا فى سبيل الله رغبة فيما وعدهم به القرآن ، وقد قال المستشرق الالمانى «يوهان فوك» فى كتابه « ألعربية دراسات فى اللغة والاساليب » (لم يحدث حدث فى تاريخ العرب ابعد اثرا فى تقرير مصيرهم من ظهور الاسلام ففى ذلك العهد وقبل اكثر من الف وثلاثمائة عام رتل محمد (ص) القرآن على بني وطنه بلسان عربي مبين فتأكدت **رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد وكانت ذات دلالة عظيمة النتائج فى مستقبل هذه اللغة**) انتهى قوله . وبانتشار الاسلام انتشرت اللغة العربية .

أن القرآن هو الذى رفع ذكر العرب ومجدهم وبه عرف العالم العرب وفضلهم وبسببه انتشرت لغتهم وخاصة فى البلاد التى فتحها العرب المسلمون وصدق الله حيث يقول (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون) ويقول تعالى (فاستمسك بالذى اوحي اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقد تغلغلت ثقافة الاسلام فى احشاء الادب والفلسفة **وظل العالم المتمدن بعد الفتوحات الاسلامية يفكر بعقل الاسلام ويكتب بقلمه ويؤلف بلسان الاسلام ، فكان المؤلفون فى ايران وتركستان وافغانستان والهند لا يؤلفون كتابا له شان الا باللغة العربية .**

هذه نبذة يسيرة من بحر زاخر تدل على صلة الاسلام باللغة العربية وفضله عليها وارتباطه بها ، واما صلة اللغة العربية بالاسلام فهى صلة وثيقة قوية التلازم والترابط ، **وللغة اثر كبير فى نشر علوم الاسلام** ومحاسنه لان ما يكتب بها له اثر فى نفوس الناس اعمق مما يكتب بغيرها من اللغات الاخرى خصوصا فى المواعظ والنصائح .

اللغة العربية لغة مرنة ، لذلك فان العرب الذين واجهتهم بعض الاشياء مما اخرجتها الطبيعة فلم يكن لها اسم مألوف فى حياتهم كانوا يضعون لها اسماء تعرف بها كمستخرجات البحار وانواع النباتات والحيوانات التى تنتج فى غير اقليمهم مما يدل على مرونة اللغة العربية وسعتها لكل ما يطرأ فى الحياة من شيء يحتاج الى اسم يعرف به، ولعلم الله بسعة اللغة العربية ومرونتها جعلها الله لغة القرآن والحديث المصدرين الاساسيين للدين الاسلامى ، **واستطاعت اللغة لمرونتها وسعة افقها ان تكون اداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان وفى العهد العباسى كانت خلاصة هذه الثقافات الاجنبية كلها مدونة باللغة العربية** ومما لا شك فيه ان العرب فى العصر العباسي واجهوا صعوبة شديدة فى نقل الذخيرة العلمية الاجنبية الى اللغة العربية ولكن اللغة العربية بخصوبتها وسعة مداركها خرجت من ذلك المازق منتصرة ظافرة ولا غرابة فى ذلك فهي لغة الدين الذى اختاره الله خاتما لجميع الاديان السماوية وقال فى حقه (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) وهى لغة العلم والفلسفة والادب وقد اضمحلت بجانبها فى ذلك العصر كل لغات البلاد التى فتحها الاسلام ولكرامة اللغة العربية على الله فقد اوثق الصلة بينها وبين دينه حتى اصبح **من الدين التثقف بها** ، ولم يجز النبى (ص) قراءة الفاتحة فى الصلاة لمن يحسن العربية بغيرها ويكفيها فخرا واعتزازا انها لغة القرآن والحديث . وهى بلا شك اطول لغات الامم عمرا واغزرها خصوبة

وخلاصة هذه العجالة المقتضبة ان للاسلام فضلا كبيرا على اللغة العربية حيث نقلها من اقليمها الضيق الى محيط واسع ولما دخل اللحن فى اللغة العربية بسبب الفتوحات الاسلامية واختلاط العرب بغيرهم من ابناء البلاد المفتوحة اهتم العرب بالنحو وازدادت الحركة من اجل تدوينه فبذل مجهود كبير توج بكتاب (سيبويه) **وما كان يوجد كتاب سيبويه لولا القرآن** لان العرب خافوا ان يتسرب اللحن الى الآيات القرآنية .

وللغة العربية فضل على المسلمين حيث حفظت احكام دينهم وتراث آبائهم واجدادهم وفسرت كلام الله وكلام رسوله لهم وحفظت ادب الادباء وعلم العلماء وفقه الفقهاء .

العربية كانت عوناً للإسلام على صهر الشعوب في بوتقة إسلامية الفكرة عربية الأسلوب

بقلم الأستاذ عبد الله العقيل

وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية
(الكويت)

ان الجواب الذى لاجدال فيه عن السؤال الاول، فى صورتها لمجملة، هو الايجاب وتقرير وثاقة الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار العربية ، والادلال ببعد مدى هذا الارتباط وعمقه ، واصالته ورسوخه .

وللاجابة عنه جوابا شافيا نتتبع الاسئلة الايضاحية .

1) ـ ان الذى يتأمل العلاقة بين الاسلام واللغة العربية يجد ان دين الاسلام باعتباره وضعا الهيا ينظم تفكير الانسان وسلوكه بأكمل صورة عرفتها البشرية ما هو الا عقائد وافكار واحكام ومبادىء ذات معان ودلالات . ولابد لتلك المعانى من قالب لفظى وشخوص نطقية ترتسم عليها تلك المعانى **فالاسلام من جهة يحمل عوامل بقائه فى ذاته ، ويشق طريقه باشعاعه وهديه ،** مما لا يصحح قول القائل : « لولا العربية لما انتشر الاسلام » ويحتم تحويل تلك العبارة الى (**لولا العربية لما اتسع ظهوره ورسوخه فى النفوس** ، والتأثير والروعة لكتابه. ومن جهة اخرى فالاسلام قد وجد فى اللغة العربية التى اختارها الله له من بين اللغات ، مركبا حسنا واناء صافي الاهاب صادق التعبير عن عمق ذلك الدين ودقة مفاهيمه ووضوح مبادئه ، وسعت ذلك الكتاب الحكيم لفظا وغاية ، ولم تضق عما فيه من مبادىء وعظات ..

كما ان **اللغة العربية قد وجدت فى الاسلام سلكا ينظم جواهرها** ويحسن تنسيقها ، فيسلط الاضواء على متخير تلك اللغة حين يمنحه صفة التداول ، ويؤخر عن الاستعمال ما لا تخلو عنه كل لغة من غريب المعنى او حوشي اللفظ . فيكفل لتلك اللغة عوامل البقاء والانتشار ثم ينطلق بعد ذلك متيحا لها الانتشار مع انتشاره حتى يمكن ان يقال : **حيثما ركز الاسلام وضعت نواة التعريب .**

ولنستعرض فى ايجاز ما قدم كل من هذين الشقيقين للآخر من حسنات كان من نتيجتها تلك العلاقة الوثيقة . **فبالنسبة لفضل الاسلام على العربية :**

1 ـ حينما اختار الله لكتابه اللغة العربية فانزله بها قد اعطى اللسان العربى « صفة القداسة » وبوأ اللغة العربية منزلة روحية يعترف لها بها كل من اعتنق الاسلام دينا وارتضى كتابه دستورا ، فاذا باللغة العربية التى كانت تدعى (لغة عدنان وقحطان) يصبح من ابرز اسمائها (**لغة القرآن**) ، واستتبع هذا ان يشعر لخدمتها وابتغاء الخير لها كل مسلم مهما كان لسانه الذى تعلمه مع لبن امه فراينا **اكثر واضعى معاجم العربية من غير ابنائها كالصاغاني والفيروز ابادى وابن منظور الافريقى** ـ وشبه ذلك فى مصنفى كتب النحو والصرف والادب فاكثر مؤلفيها هم من العرب محبة

ولسانا لا دما وولادة ـ ويؤكد ذلك ان تلك العلوم اللسانية كلها لم تبعث العزائم على وضعها وتدوينها الا لخدمة القرآن كما يعرف من حوادث وضعها . .

2 ـ وبعد منحه اياها ذلك الاعتبار وتلك المكانة ، اعقب ذلك بالوسائل العملية التى تحقق انتشار هذه اللغة وجريان الفاظها على كل لسان ، فالاذان الى الصلاة بكلمات من لب العربية ، وكذلك الاذكار والادعية وبعضها مناسك فى فريضة الحج. وكان من اركان الصلاة (القراءة) ولا تصح الا بالعربية ، فيستدعي ذلك ان يعكف كل مسلم من غير العرب على تعلم ما يقيم به صلاته ثم لن يشبع نهمه بالاقتصار على فاتحة الكتاب وصور منه بل تنشط الرغبة فيه الى جمع كتاب الله فى صدره والنظر فى معانيه ومبانيه واذا بهذا **المسلم الاعجمي ينقلب عربي اللسان** يسعى لصالح تلك اللغة مخلفا وراءه لغة آبائه واجداده .

3 ـ واذا سما المسلم الاعجمى ايضا الى مرتبة الاجتهاد واستنباط النصوص ؛ فمن ابرز الشرائط المرسومة لهذه المرتبة ان يتمكن من العربية معرفة وفهما ، لانها هى السبيل الى استنباط الاحكام من معادن النصوص ؛ وهى **الاداة لتمييز الدلالات المختلفة التى تحتويها الفاظ القرآن والحديث** ، وبخاصة آيات الاحكام فى كتاب الله العربى المبين ، والمستوى المطلوب للمجتهد لعله من ارفع المستويات فى معرفة اللغة العربية ، تبعا لدقة آيات الاحكام وصفة العموم والايجاز فى تلك الآيات .

4 ـ لقد قدم الاسلام للغة العربية عوامل البقاء والشيوع حينما اصطفى منها لغة قريش ـ مع قدر صالح من لغات او استعمال القبائل الاخرى ، وذلك حينما جعل لهذه اللغة المختارة عمادا تدور حوله هو القرآن المنزل بلسان قريش من بين العرب ، كما انه بهذا قد اراح العربية من معايب لفظية عرفت بها بعض القبائل كالعنعنة والكشكشة والكسكسة لا مجال لتفصيلها ، وطوى بهذا اكثر الحوشي من الالفاظ والمستغلق من المعانى فاصبح ذلك حبيسا فى المعاجم الكبرى او موءودا وراءها . . .

ولولا هذا الصنيع لتمددت اللغة العربية، وتنوعت مشتقاتها الى حد ان تصبح تلك الاستعمالات القبلية لغات مستقلة تحوج الى التراجم . . كما حدث ذلك فى اللغة اللاتينية وما تفرع منها من لغات انقطعت صلتها بها تماما .

5 ـ وتعرضت العربية لنكبات خانقة من حملات الشعوبيين وارجافهم ، ثم من جوائح الغزاة التتار ، والصليبيين ، والمستعمرين آخر الامر وما مكروا به لاذابة مستعمريهم فيهم وازالة عوامل التميز واشدها بعد الدين : اللغة ، فكان **الاسلام هو الصرح المنيع** دون تلك الحملات ، وكان هو الموقد الدائم الاشعاع لمحو تلك الظلمات عبر العصور

هذا ما يشار اليه ـ لا على سبيل الاستقصاء ـ من ايادى الاسلام على اللغة العربية مما يؤول الى **الحكم القطعى بانه لولا الاسلام لما انتشرت العربية .**

اما خدمة العربية للاسلام : فلا شك ان العربية كان لها اثر بارز فى حياة دين الاسلام ، بحيث لم يكن ليتاح له ما اتيح من سعة انتشار لولا ما اقتضته الحكمة الالهية باختيار تلك اللغة القوية الغنية المتجددة الحياة . ولا نقول لولا العربية لما انتشر الاسلام فان فى ذلك مغالاة ؛ لان سبب **انتشاره هو ما فيه من هدي واصلاح وتنظيم** ، وانما سعة الانتشار هذه مردها اتخاذه العربية لسانا وما ادى اليه كونها لسانا للاسلام بأن يصبح العرب هم اللبنة الاولى فى صرحه العظيم من بين الشعوب ؛ وكان ذلك كسبا لمعادن نفيسة من البشر تتقن فهم دعوته وتحسن اخراجها للناس حتى بلغت دعوة الاسلام ما بلغته من ظهور وانتشار .

1 ـ وذلك لان **العربية** وفت بجميع الاغراض التى تطلبها فيها الاسلام باعتبارها (لغة الاسلام) ـ ولا اقول (لغة دينية) له لانها **ليست لغة العبادات والطقوس كما هو الحال فى اللاتينية ، بل هى لغة القرآن والحديث** بما فيهما من نظم شاملة للحياة فى شتى جوانبها الروحية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية فهى بهذا **لغة الاسلام** ـ وتوفيتها بأغراض الاسلام ظاهر من انها وسعت كتاب الله الفاظا ومبادىء ، وكانت فيها الكفاية للتعبير عن المعانى المختلفة والعلوم المتعددة التى ولدت بعد نزول القرآن وورود السنة كالتفسير واصوله والتجويد والقراءات ومصطلح الحديث واصول الفقه والفقه ؛ بل العلوم الاخرى التى تجددت فيها الحياة باحتضان الاسلام لها وعناية علمائه بها كالعلوم العقلية والاجتماعية . . . **حيث زودت اللغة العربية علوم الاسلام بكل ما احتاجته من مصطلحات ومفاهيم واساليب** ، وكان فى هذا صيانة للاسلام من العوز الى لغات اخرى يخل اعتبارها بما يحرص عليه من عوامل الوحدة بين معتنقيه .

2 ـ انها بما احتوته من اساليب بلاغية ووسائل بيانية كانت استجابة صادقة لما اراده الله فى كتابه (القرآن) من نزوله على وجه الاعجاز فى الفاظه ومعانيه ومبادئه ، خلاف ما كانت عليه الكتب السماوية التى لم يكن لفظها معجزا ، ولذلك لعبت بها التراجم التى كانت تعتبر هى الكتاب نفسه فى حين ان القرآن العربي ،لنزول والاسلوب تعالى عن الترجمة باستحالة مادية ، واعتبر ما وضع له من ترجمات : نقلا لمعانى القرآن لا لالفاظه .

3 ـ ان **اللغة العربية** ـ بما تميزت به من خصائص ـ قد **ساهمت فى انتشار الاسلام** وعمق تأثيره ، من جهة ان غلبتها على اللغات الاخرى التى كانت لدى الشعوب الاسلامية ـ بعوامل قوتها الذاتية بعد عامل اعتبار الاسلام لها ـ جعلت مسلمى تلك الشعوب اقرب الى فهم الاسلام بفهم كتابه والتعمق فى اسراره وحكمه ، ولا شك أن **العربية كانت بهذا عونا للاسلام على صهر الشعوب فى بوتقة اسلامية الفكرة عربية الاسلوب** ، ومن الواضح ان عوامل الوحدة كلما ازدادت وتوثقت زادت فى تماسك الكيان الاسلامى وضمنت بقاءه .

ومن هذا العرض السريع يتبين أن التلازم بين الاسلام والعربية على اشده ، وان سببية الاسلام للعربية اكيدة لا مراء فيها . اما اثر العربية على الاسلام فهى ليست سببا لاصل انتشاره ، بل كانت عاملا بارزا من عوامل امتداده وخصيصة فى خصائصه الهامة، كما هو الحال فى العوامل الاخرى لسعة انتشار الاسلام مثل اختيار المنطقة الوسط (جزيرة العرب) والامة القادرة على حمل امانة التبليغ لما فيها من احتفال بالمبدأ ودفاع عن الفكرة ، واصطفاء محمد بن عبد الله لرسالة الاسلام وخاتما للانبياء . فهذه العوامل كلها ـ ومنها كون العربية لسانا للاسلام ـ ذات اثر كبير فى انتشار الاسلام بالشكل الذى حصل .

ومن الحق أن يقال : **ان صلة العربية بالاسلام صلة حاجة وافتقار** ، ونتيجة ما افادته من تلك الصلة تحقيق البقاء لها والانقاذ من مصير العدم الذى كان يتهددها ، اما **صلة الاسلام بالعربية فهى صلة رفه وكمال** لتحقيق مصلحة تحسينية لا حاجية ولا ضرورية بالمصطلح الاصولى ـ اذ لولاها لما اتسع انتشاره ولا استوفى اغراضه الكمالية ، اما مجرد الانتشار فهو ليس بحاجة الى العربية او غيرها لان عوامل البقاء موجودة فيه بما يحتوى عليه ذاتيا من نظام هداية وسبيل فلاح للانسانية جمعاء .

2) ـ من الملحوظ بوضوح ان الوعي الاسلامي بالنسبة للمثقفين والوازع الدينى بالنسبة لهم ولغيرهم يقوى كل منهما كلما كانت لغة الضاد فى قوة وازدهار ، ذلك لان **المعانى الدينية والعلوم الشرعية التى هى المنابع الثرة لتغذية الوعي الاسلامي قد صيغت بلغة القرآن** ، ولا يمكن التعلق الشديد بتلك المنابع الا بتوفر وسيلة الاستقاء واهلية الانتفاع ، وذلك يرتفع ويهبط بخط بيانى مواز لما تكون عليه العربية تماما .

وبالاستناد الى بعض ما مر سابقا من افكار لامناص من التسليم بأن **تجديد الدين ومواصلة الاجتهاد الفقهى والفكرى رهن بالتمكن من ادواته** واولها ان يكون من يسمو الى الاجتهاد قد ثقف اللغة وتمكن من درك دلالاتها وفهم اساليبها وذلك كله يسهل حينما تكون الفرص مهيأة فى صعيد المجتمع لامداد المجتهد بتلك المكنة بيسرة وسهولة ، كما كان يحصل فى عصور الاسلام الاولى حيث كانت العربية فى ازهى عهودها ، وكان علماؤهم ومجالسهم العلمية فى الغاية من الكثرة والقوة ، فرافق ذلك وفرة المجتهدين وتجديد الدين بالمجددين .

ونقيض ذلك ما حصل فى عهود ضعف العربية ضعفا حقيقيا باعتزالها كلغة رسمية كما حصل فى الخلافة العثمانية ، او ضعفها حكميا بالالتفات الى استظهار قواعدها دون تذوق ولا تعمق كما حصل فى عهود المماليك وما تلاها ، ولذلك لم يكن لتلك العصور ان تجود بالمجتهدين الا ما ندر .

وكذلك الحال بالنسبة للوازع الدينى فانه يسير بتناسب دقيق مع قوة العربية وضعفها ، لان تأثير القرآن والحديث فى المخاطبين بهما لا يتم الا بادراك مراميها والانتباه لما فيهما من هدى ووعظ وتبشير وانذار وذلك كله مصوغ بأساليب عالية لا يحس بقوتها الا من كان له من العربية نصيب كاف **فالوازع الدينى والوعي الاسلامى متناسبان قوة وضعفا مع حال اللغة العربية** فى كل زمان ومكان .

3) ـ ان تأثير الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن فى اللهجات الاقليمية فى البلاد العربية وفى اللغات المحلية فى البلاد الاسلامية التى لا تنطق بالعربية ـ كبير جدا . وتبدو معالمه فى القديم والحاضر . اما فى القديم فقد كان من نتائجه **تعريب رقاع واسعة بعد الفتح الاسلامى حتى اصبحت عربية اللسان والتجنس كالمغرب كله والعراق والشام**

ومصر والسودان فانمحت بعض اللغات المحلية ، وضمر بعض آخر منها . كما كان **للحروف العربية هيمنتها على جميع تلك اللغات** الى زمن قريب اما الآن فان النتيجة نفسها تبدو بصورة اضعف بسبب النعرات القومية التى اذكيت نارها ، حيث نجد مئات بل آلاف الالفاظ العربية الشرعية منبثة فى تضاعيف تلك اللغات مع بعض التراكيب او القطع القصيرة التى هى من قبيل الادعية والاذكار ، مع **تطلع دائم الى التعريب** الفردى او الجماعى لتلك الشعوب الاسلامية فى آسيا وافريقيا .

ومثل ذلك الاثر نجده فى اللهجات الاقليمية فانها مهما كان لها من فشو ورواج فهي تقصر عن ساحة العلم **فالدروس الدينية ـ حتى للعامة ـ والخطب والمواعظ، كل ذلك بفضل القرآن لا يزال باللغة الفصحى النقية ،** ولاجل ذلك يشعر كل فرد ان من متممات الدين تقوية نفسه فى العربية ومضاعفة علمه بها .

وفى هذا المجال لابد من المقارنة بالفكر الدينى ـ غير الاسلامى ـ لبعض العرب الذين ما زالوا يدينون بالمسيحية ، فهم قد انساقوا نهائيا مع لغاتهم المحلية ولهجاتهم الاقليمية ، بل ان كتابهم الدينى رغم انه لا يؤثر لغة على لغة ولذا تناولته التراجم المختلفة ـ كان حظه من العربية ضئيلا جدا ، وكانت ترجمته العربية فى غاية الركاكة بل هى اشبه بالعامية او الاجنبية المترجمة ترجمة حرفية مما سوغ للاديب البارع مصطفى صادق الرافعى ان يدعو لغة الانجيل بالجملة الانجيلية ، واثبت بالوقائع انه كان هناك تعمد فى ذلك تحاشيا من الجملة القرآنية التى هى فى الذروة من الفصاحة والبيان ، وفضلا عن ذلك فان معظم الدعوات الى العامية حمل رايتها من لم يحمل قط الفكر الاسلامى ملة او تعلقا . ويتبين ذلك من الكتاب النفيس (تاريخ الدعوة الى العامية) للدكتورة نفوسة سعيد ومن كتاب (اباطيل واسمار) للاستاذ محمود احمد شاكر .

فالفكر الاسلامى بفضل القرآن عاصم من قواصم الغارات المختلفة على لغة الضاد من المستعمرين والمبشرين والمستغربين .

4) ـ من الواقع المؤلم ان يكون للهجة الاقليمية هنا تأثير فى التعابير العربية المحلية ، وهذا امر لا تنفرد به الكويت بل قد لف العالم العربى كله . واذا اخذنا بالتقسيم الخماسى للهجات الاقليمية الى (حجازية ـ وسورية ـ وعراقية ـ ومصرية ـ ومغربية) فان اللهجة الاقليمية فى الكويت مزيج من (الحجازية والعراقية) بسبب الجوار المشترك .

وهذه اللهجة فيها عوامل قرب من الفصحى بل ايغال فيها احيانا فى الالفاظ او التراكيب ، كما ان فيها عوامل رداءة فى العربية وحياة بعض الاساليب المهجورة او المعايب اللفظية (كابدال الجيم ياء ، وحذف بعض الحروف من وسط الكلمة او ادغامها ، وتحريف ضبط بعض الالفاظ) وكذلك فيها عوامل اجنبية محض ، حيث قد تسربت كثير من الكلمات (الانكليزية) وتقلبت على الالسنة كانها عربية حتى ان بعضها اخذه التصريف والاشتقاق مع كمية وافرة من اسماء الادوات فى السيارة وغيرها من الاجهزة الحديثة .

وفضلا عن ذلك فان هناك قسطا من لغة الاذاعة والتلفاز ـ على قلة ـ والمسرح ـ على كثرة ـ لا يزال باللهجة العامية الكويتية ، وهذا كله خطر ماثل على الفصحى ، ولذا ينبغى تحامى الكلمات الاجنبية باحياء الكلمات المغنية عنها ، ولو على سبيل المجاز او الاشتراك او التسمح فى تحديد الماهيات ، وباسلوب التعريب الذى نهجه الاقدمون ومكنوا به اللغة من هضم عدد من الكلمات وتمثلها حتى غدت جزءا من العربية . اما بالنسبة للهجات المحلية فينبغى تحاشيها نهائيا فى مجالات الثقافة الخاصة او الشعبية ، ويجب تحديد تداولها فى السوق فقط الى حين ، ولذلك استحسن الدكتور محمد محمد حسين تسمية تلك اللهجات باللهجة السوقية ولا ينبغى ان تجاوز السوق الى لغة الثقافة الشعبية فى الاذاعة ونحوها ولا يسوغ ان يبقى لها حظ فى الادب الا ما كان من قبيل الامثال الشعبية مع الاستغناء عما له نظير فصيح لانه يحوز صفة العموم والتداول الواسع لكل من يمت الى العربية بسبب.

5) ـ ان المكانة التى يجب ان تحتلها العربية هنا بالنسبة للغات الاجنبية هى مكانة الصدارة والاغلبية وهذا ما تصبو اليه الآمال بالاهتمام بالعربية فى التعليم واشتراط درجات لها اكثر من غيرها من المواد **والواقع ان اللغة الانكليزية** ـ بوصفها اللغة الاجنبية هنا ـ **لها حظ وافر من الاهمية يخشى منه** اذا لم يضاعف الاهتمام بالعربية ، ولذلك يجب ان تكون للعربية منزلة خاصة لاتساميها فيها لغة اخرى مهما كانت الحاجة اليها ماسة فى البعثات او المصطلحات العلمية، وينبغى ان ينشط التعريب للفظة والاسلوب ، والامل معقود على مكتب تنسيق التعريب الدائم التابع للجامعة العربية ان يحقق تلك الامانى ، وفق الله القائمين عليه الى ما فيه خير العروبة والاسلام .

القرآن أقوى حصن لحماية اللغة العربية

بقلم الاستاذ عبد الرزاق البصير (الكويت)

ان اللغة العربية كانت محصورة أو كالمحصورة فى شبه الجزيرة العربية . واذا تجاوزتها الى العراق أو الشام فان هذا التجاوز ضعيف لا يكاد يؤثر فى تلك البلاد . كان هذا الحال قبل سطوع نور الاسلام فلما قدر الله لهذه الامة ان تجتمع قوتها ويلتئم شتاتها وتتفتح منافذ الفكر لها وينبسط سلطانها على جميع البلاد التى انتشر فيها الاسلام ، اصبحت لغة هذه الامة منتشرة بين الشعوب الاسلامية . وشتان بين ان يتحدث عشرة ملايين مثلا بلغة من اللغات وبين ان يتحدث بها اكثر من مئة مليون . اقول شتان بين الحالتين فان اللغة تكتسب قوة وتطورا حينما يكثر المتحدثون بها ولاسيما اذا ما كانت تلك الشعوب مختلفة الاجناس لها حضارات ومدنيات قديمة عريقة .

وهذا ما حدث للغة العربية بعد انتشار الاسلام اذ انها كانت قبل ظهوره لغة سكان شبه الجزيرة العربية المنتشرة فى مشارف الشام والعراق . اما بعد انتشار الاسلام فانها اصبحت **لغة كثير من الشعوب الاسلامية** وذلك بفضل **الدين الحنيف** وبفضل نزول **القرآن** الكريم . فان لهذا الكتاب العزيز فى قلوب المسلمين مكانة جليلة لا تعادلها مكانة اذ انه يتلى صباح مساء . سواء كان ذلك فى اوقات الصلاة او فى غيرها .

ولسنا فى حاجة الى ان نشير الى ان الذكر الحكيم يتضمن كل ما جاءت به الشريعة السمحة من تطور وتجديد فى العقول والافكار مما احدث فى العرب بصورة خاصة وفى المسلمين بصورة عامة تغييرا شاملا فى كل مجال من مجالات الحياة بما فيها اللغة العربية . فقد زاد فى مدلولات كثير من الفاظها الامر الذى زادها قوة على قوتها وعمقا على عمقها .

ولقد اجمع الباحثون على أن **القرآن الكريم** كان ولا يزال **من اهم الحصون التى حمت اللغة العربية** من الضياع ، ولاسيما فى العهود المظلمة التى اصبح فيها التدريس بغير اللغة العربية ، والتفكير العربى مشلولا او كالمشلول ، فلولا كتاب الله العزيز لضاعت اللغة العربية فى عالم النسيان .

ومما لا شك فيه ان **الاسلام قد خلق علوما كثيرة** منها ما يتعلق باللغة نفسها ومنها ما يتعلق بالدين كعلم النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع وعلم التفسير وعلم الفقه وعلم الاصول وعلم الحديث الى غير ذلك من العلوم الاسلامية الكثيرة ، ومن المعروف ان كل علم له اصطلاحاته الخاصة بمعنى انه يأخذ الالفاظ اللغوية ويطلقها على اصطلاح بعينه مما يزيد معانى اللغة فيجعلها واسعة عميقة ، من ذلك مثلا لفظة المجاز والاستعارة والمصدر والاستنباط والزكاة والصوم والصلاة وغير ذلك كثير . فان هذه الكلمات كانت معروفة عند العرب فى الجاهلية ولكن مدلولاتها زادت بعد الاسلام .

على ان تفصيل ما ذكرت يحتاج الى سفر من الاسفار . ان قوة اللغة العربية وانتشارها بسبب ظهور الاسلام وانتشاره متلازمان بصورة اكيدة . ولا يفوتنى هنا ان اشير الى ان لغتنا العربية لا يمكن ان تتحمل كل هذا التوسع والاستيعاب لكل ما طرأ على حياة الامة العربية من تطور وتقدم فى جميع مجالات الحياة لا يمكن ان تحتمل هذا كله لولا اصالتها وقابليتها العجيبة مما ادهش المنصفين من العلماء الاجانب الذين تعمقوا فى دراسة لغة القرآن .

مما تقدم يتضح انى من الذين يقولون بوجود علاقة سببية بين الاسلام واللغة العربية وانه لولا الاسلام لما تأتى للغة العربية ان تنتشر فى العالم .

اللغة العربية نبتت وتطورت بمقتضى ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي

للأستاذ رشاد داغوث

(بيروت)

1 — اختار السيد المسيح (عليه السلام) اللغة السريانية ، للجهر برسالته ، وهو العبراني مولدا ونشأة ولغة .

وفي تعليل ذلك يورد المؤرخون ، واصحاب اللاهوت ، ان السبب كان شيوع هذه اللغة بالذات — اللغة السريانية — في الهلال الخصيب ، مربع الحضارة السامية (1) من بقاع المشرق الواسعة . في حين كانت اللغة العبرانية تعيش في قوقعة مغلقة . ولما كان صاحب الديانة النصرانية يريد ان ينشر رسالته ، على أوسع مدى — ومن ثم في العالم باسره — فقد لجأ الى اللغة السريانية الواسعة الانتشار .

2 — ومثل هذا يصح قوله في الاسلام ، واختياره اللغة العربية للتعبير عن ذاته . فكان القرءان عربيا ، وكان ان قراه الرسول عليه السلام بأجمل لهجات العرب وارقاها ، مقدمة لنشر الاسلام في العالم باسره .

وليس بخاف الآن ان جميع الشعوب السامية ، من بابليين واشوريين وكلدانيين وامورين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب واحباش ، كانوا في زمن ما ، قبل تباينهم ، يعيشون شعبا واحدا ، في مكان واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، هي اللغة السامية الام (2) .

وربما كانت هذه اللغة الام هي اللغة العربية بالذات ، لغة القرءان الكريم !

3 — ونظرة عابرة ، على ما في القرءان الكريم من سعة في الالفاظ ، وبالتالي في الافكار — وما فيه من فنية في التعابير والاساليب ... تحمل الينا الاقتناع بأن اللغة العربية ، كانت ، اذ ذاك ، قد بلغت مستوى رفيعا من التكامل العضوي ، والفكري ، والجمالي ، معا .

ولا يتأتى ذلك الا للغة منتشرة ، تضم العديد من العناصر والشعوب والثقافات ... على مدى قرون متطاولة .

ونظرة مماثلة على ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ، تحملنا على الاقتناع بأن التنزيل الكريم لم يختر عبثا هذه اللغة دون سواها — من اللغات او اللهجات السامية المعاصرة — او هي تدلنا — على الاقل — على ان ذلك الاختيار لم يكن اتفاقا بل مقصودا .

4 — وقد احصي عدد الالفاظ العربية ، فبلغ على ما قاله حمزة الاصفهاني : (052 ر 350 ر 12) اثني عشر مليونا ، وثلاث مائة وخمسين الفا ، واثنتين وخمسين كلمة ، ما بين مشتق وجامد وعلم . اما المشتقات المستعملة وحدها ، فقد بلغت ، لذلك الحين ، سبعين الف كلمة (3) .

في حين احصي ما استعمله العهد القديم (التوراة) من الكلمات ، فبلغ (5642) خمسة آلاف وست مائة واثنتين واربعين كلمة ...

واكثر قليلا من ذلك ما استعمله العهد الجديد (الانجيل) ، اذ بلغ (6.800) ستة آلاف وثمان مائة كلمة .

5 — كما ان امة العرب ، خلافا لما يزعمه المغرضون ، **هي الممثلة الحقيقية للعنصر السامي** ، بكامل خصائصه ومقوماته (4) .

وعليه ، فان هذا الغنى الفكري ، وتلك الخصائص العظيمة ، جعلت من الجزيرة العربية — على حد ما رواه استرابون المؤرخ الرومي — **بلدا يعيش في اكتفاء ذاتي**. الامر الذي اطمع فيها كل طاغية ... وليس في العالم اليوم بلد يعيش في الاكتفاء الذاتي — اذا استثنينا الولايات المتحدة الامريكية .

6 — نورد هذا للخلوص الى القول بان **اللغة العربية نبتت وتطورت بمقتضى ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي** (5) ، في بيئة غنية ، منوعة الموارد المادية والبشرية . ثم تطورت بالاشتقاق ، والقلب ، والابدال والنحت ، والتعريب ، قبل الاسلام وبعده — على مدى عشرات القرون — من التاريخ المكتوب او المعروف ، ومن التاريخ غير المعروف ولا المكتوب .

وكان للعرب ، في ذلك الزمن السحيق ، دول : منها دولة « اليمن السعيدة » — كما كان لابناء عمومتهم المذكورين آنفا — دول ، في بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وفينيقيا او ارض كنعان .

ثم اصاب هؤلاء وهؤلاء انحطاط ، فطغى عليهم المستعمرون ، من الشرق ومن الغرب .

7 — واخيرا جاء الاسلام ... بعد تلك الفترة فاتخذ لغة العرب الرفيعة الغنية والغنية بالفكر ، سبيله الى التعبير ، والتشريع ، وانشاء الدولة — لانها لغة حية ، واسعة الانتشار في العالم السامي — وهو العالم المتمدن لذلك الحين . فنهض العرب ، من جديد ، ومعهم الساميون الآخرون الذين دخلوا في الدين الاسلامي — اذ استأنسوا بلهجتهم او تعلموها بيسر وسهولة ، لما بين هذه اللهجة العربية الجميلة الفصيحة — ولهجاتهم من صلات لم تنقطع ، وان وهنت ، على مر الزمن ، وبفعل المسافات .

8 — وهنا نتوقف قليلا لنتساءل عن مدى التكافل بين الاسلام واللغة العربية ؟ وبتعبير آخر ، هل كان يتأتى للاسلام ان ينتشر لولا هذه اللغة ؟ وهل كان للغة العربية ان تنتشر لولا الاسلام ؟

وقبل الجواب بالتحديد ، وان صعب ذلك — نلاحظ ان اللغة العربية حلت في القرن الثامن او التاسع الميلادي — في لبنان مثلا — محل اللغة السريانية، دون ان يحتل الاسلام فيه كامل مكان النصرانية . وقد سارع السكان اذ ذاك — وقد تعلموا التحدث باللغة العربية — الى كتابتها بحروف سريانية (6) .

كما ان الاسلام ، كدين سماوي ، انتشر في اقطار غير عربية ، وما برح اهلها المسلمون لليوم يجهلون اللغة العربية ، بصورة عامة .

وهنا نصل الى القول بان **الاسلام لم يكن عاملا — الا بقدر ضئيل — في انتشار هذه اللغة** . وان اللغة العربية ذاتها لم تكن سبيلا وحيدا لانتشار ذلك الدين الحنيف ، في العالم بأسره .

الاسلام كدولة ساعد على توسيع الرقعة التي يتكلم اهلها — او تكلموا لفترة طالت او قصرت — باللغة العربية . وذلك ابان ازدهار تلك الدولة . فلما سقطت العواصم الاسلامية ، في الشرق وفي الغرب ، ظلت هذه اللغة حية ، في مواطنها ، وحيث استقرت بصورة نهائية ، ثم تابعت انتشارها بمحض قدرتها وحيويتها وطاقاتها الذاتية .

تلك القدرة التي جعلت ، من اللغة العربية ، اداة للتعبير عن أروع الشعر ، وجعلت منها — حتى في العالم الغربي — **حاضنة للثقافة اليونانية** ، من فلسفة ارسطو الى طب جالينوس ورياضيات اوقليدس — كما جعلت منها حاضنة للادب الشرقي وخياله المبدع ، من امثال ابن المقفع الى قصص الف ليلة وليلة .

9 — وليس القول بان اللغة العربية تعيش بكفالة الاسلام ، الا من قبيل القول بان دين محمد (صلعم) قام بالسيف ... والعقلاء غير المغرضين يعلمون ان الدين الاسلامي لم يقم بالسيف ، وان لجأ الى القوة احيانا — ككل عقيدة — في سبيل دعم الحق او في سبيل الدفاع عن النفس .

10 — وفي واقع البيئة — التي نعيش فيها — دليل ساطع على ما ذهبنا اليه . وهو هذه النهضة اللغوية والادبية الحديثة التي اسهم فيها لبنان — بشطره المسيحي — فكان علماؤه اللغويون وادباؤه وشعراؤه — هنا وفي مصر ، وفي سائر مهاجرهم — من معلمي اللغة العربية ، وباعثي امجادها ، ومحيي كلماتها في الكتاب وعلى اللسان — منذ منتصف القرن الثامن عشر للميلاد — في العالم العربي بأسره .

وذلك ، يوم كان المسلمون انفسهم يكادون ينسون لغة القرءان ، فيتكلمون هذه اللهجات العامية — على اختلافها بين قطر وقطر بل بين حي وحي من

مدينة ـ وهي جميعها حصيلة الانحطاط ، ومن رواسب الاستعمارين الفكري والسياسي المتماديين ـ منذ استولى الاعاجم على الحكم فى بغداد وسواها من عواصم الاسلام .

فى هذه الاثناء ـ خلال قرون الانحطاط والظلام ـ كانت مدارس الاديرة فى جبل لبنان ، والصوامع ، ورهبانها ، وكهنتها ، يعكفون ، كائمة المساجد ، وشيوخ الجامعات العربية الاسلامية ، فى شمال افريقيا ومصر والعراق على درس اللغة العربية وتدريسها ، الى جانب اللغات الاخرى التي تستدعي الحياة الكهنوتية دراستها ـ من سريانية ويونانية ولاتينية .

11 ـ وهذا الواقع اثمر ثمرتين هما اولا : استمرار التلاقح بين لغتنا واللغات الاخرى ، وبالتالي اغناء هذه اللغة العربية بالمفردات والتعابير والاساليب .

وثانيا : تأثر الكتابة العربية ببعض الاصطلاحات السريانية ، وتأثر النطق ايضا . فحرف السين مثلا يرسمه المتعلمون ، فى المدارس الكهنوتية ، تعلوه شارة خاصة شبيهة بنقاط الشين (8) ـ والجيم ـ الحرف القمري فى اللغة العربية ، يلفظونه كأنه حرف شمسي. والتاء المربوطة ، يلفظونها ، عند الوقف ، تاء مبسوطة ـ لا هاء ـ كما يقتضي ذلك علم التجويد ، وحسن اخراج الحروف .

وهناك تأثير ابرز ، فى اللغة العربية المحكية ، فى كثير من القرى اللبنانية ـ فى الشمال ـ وبعض المدن ـ تأثير جاء اليها من السريانية بالذات . ومثاله لفظ الألف ـ حرف المد المعروف ـ كأنه (واو) . فطرابلس ، تلفظ هناك (طروبلس) ـ تأثرا باللهجة السريانية ذاتها التي تأثر بها كتبة الوحي . فخطوا (صلاة وحياة ...) هكذا (صلوة ، حيوة ...) في المصاحف الشريفة .

كما اننا نجد كثيرا من الكلمات الكنعانية (الفينيقية) ما برحت لليوم جزءا من اللغة المحكية ـ التي هي اساسا حصيلة تشويه أو تحريف للغة العربية وما سبقها ، وما دخل فيها من الالفاظ الاعجمية المحرفة ـ الامر الذي يشجع دعاة احلال العامية محل اللغة الصحيحة ، على المضي فى دعوتهم .

كما يشجع بعض الفئات على العمل لبعث الحروف الفينيقية (الكنعانية) .

12 ـ ومن الفضول ان نذكر هنا بقيمة اللغة فى حياة كل امة ، على صعيد الثقافة العامة أو القدرة الانتاجية ، والمشاركة فى الحضارة الانسانية .

ولساننا العربي اغتنى،على مر القرون ـ بتلاقحه مع الالسنة الاخرى . وجاء التعريب ، بعد الاشتقاق ، ليزيد فى ثروة هذا التراث اللغوي الذي لا مثيل له ، لدى سائر الامم .

وما علينا اليوم الا ان نتابع السير على هذا الطريق المعبد ـ وبسرعة ـ ودون تحديد لنطاق الاشتقاق أو التعريب ـ .

13 ـ والخلاصة ان **اللغة العربية**،فى انتشارها لم **تكن عالة على الاسلام** . ولا انتشر الاسلام بفضل اللغة العربية . انما كان ثمة بينهما تبادل فى التأثر والتأثير كما كان مثله بين المسيحية واللغة السريانية ـ اولا ـ ثم بينها وبين اللاتينية وما تفرع منها ، فيما بعد .

ولا شك ان كل تيسير وازدهار يتناولان اللغة العربية يؤولان الى انتشارها ، كما يسهلان ادراك الاسلام على حقيقته ـ فى أوساط المسلمين اولا ـ ثم فى الاوساط الاخرى .

الهوامش :

1) ـ تاريخ العرب ج 1 الطبعة الرابعة للدكاترة فيليب حتي وجرجي وجبور .
2) ـ المصدر نفسه ج 1 ص 10
3) ـ الاشتقاق والتعريب ص 12 للمرحوم الشيخ عبد القادر دارغوث الشهير « بالمغربي » مطبعة الهلال بمصر 1908 .
4) ـ تاريخ العرب ج 1 الطبعة الرابعة .
5) ـ الاشتقاق والتعريب المذكور آنفا .
6) ـ وقد نشأ عن هذا الخليط من اللفظ العربي والحرف السرياني ما يعرف للآن باللسان «الكرشوني» وبه كتبت اسفار كنسية كثيرة .
7) ـ ذلك لان « السين » فى العربية هي (شين) في السريانية : سمس (السريانية) هي (شمس) العربية .

لا تلازم بين اللغة وانتشار الاسلام

للدكتور محمد عبد الرحمان مرحبا

جامعة بيروت العربية ـ لبنان

اني لا اجد اي **علاقة او تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية** ، فالمعلوم ان الكثيرين دخلوا في الاسلام (هنود واتراك و ...) عن يد دعاة مسلمين ليسوا عربا ، فاللغة العربية كانت مجرد اداة من الادوات التي استعملها الاسلام لنشر تعاليمه لا سيما وان قطاعا كبيرا من العالم العربي لا يدين بالاسلام .

وها نحن في لبنان قد تحدث عندنا حزازات طائفية بين المسلمين والمسيحيين ، وهذه الحزازات لها عوامل كثيرة ليس من بينها عامل اللغة العربية فهي لغة الجميع .

ان الوعي الاسلامي والوازع الديني لا يقويان او يضعفان عندنا تبعا لما يعتري اللغة العربية من قوة او ضعف بل تبعا لعوامل سياسية يعززها الاستعمار والرجعية والجهل .

وانطلاقا من هذه النظرة ايضا لا ارى اي **تاثير للفكر الاسلامي في اللهجات او اللغات الاقليمية** من الاقطار الاسلامية غير العربية لا لشيء الا لاني لا **أرى علاقة بين الاسلام واللغة العربية** اللهم الا العلاقات التاريخية .

ان اللغة العربية يجب أن تحتل المكانة الاولى في بلدنا مسلمين ومسيحيين بالنسبة الى الفرنسية او الانجليزية ، وهذا ما هو واقع بالفعل ويعمل المسؤولون عندنا على الاهتمام به .

انتشار اللغة العربية مقياس للوعي الاسلامي

للدكتور عبد الوهاب البرلسي

مدير جامعة اسيوط

ينبغي قبل الاجابة على السؤال المطروح للاستفتاء ان نعبر حقب التاريخ الاسلامي كله ونعود الى العصر الجاهلي فى الجزيرة العربية ، لنتعرف على حال اللغة فيه .

كان العرب الذين يقطنون الجزيرة العربية لغاتهم مختلفة ، والسنتهم شتى ، فلغة هذيل تختلف عن لغة اسد ، ولسان تميم يختلف عن لسان قريش ، وهكذا الشأن بالنسبة لسائر قبائل العرب .

غير ان قريشا كانت افصح العرب ، وارقاهم لغة ، واعذبهم لسانا . وقد اعانها على ذلك ما كان لها من نفوذ ديني واقتصادي وسياسي بين سائر القبائل.

كانت قريش جيرة البيت الادنين يقومون بسدانته وكان العرب جميعا يحجون اليه ، فأتاح لها ذلك ان تأخذ من لغات القبائل اعذب كلماتها وارقاها ، وتضيفها الى لغتها فتثيرها .

قال ابن فارس : « كانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها ورقة السنتها اذا اتتهم وفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب » .

كذلك كان لموقع الحجاز المتوسط نوعا ، وسهولة الوصول اليه ، وقوعه على طريق القوافل الرئيسي الذي يمتد من الشمال الى الجنوب ، ان اتيحت لقريش فرصة نادرة للقيام بنشاط تجاري واسع ، شمل اسواق صنعاء ، وموانى عمان ، واليمن ، وبلاد الحبشة، ومصر ، والشام ، والبلاد الواقعة فى حوض البحر المتوسط . وقد استفادت قريش من اشغالها بالتجارة فوائد مادية ومعنوية وادبية على جانب كبير من الاهمية . فكثرة اسفارهم ، ومخالطتهم لأقوام مختلفين كالفرس والروم من ذوي المدنيات القديمة والادب التالد ، ووقوفهم على شئون السياسة واساليب التجارة واحوال الامم الاجتماعية والادبية ، ارتقى بمداركهم ، وثقف عقولهم ، وشحذ اذواقهم وصقل لغتهم واثراها بالكثير من الكلمات التي اخذوها

من لغات هذه الامم (1) حتى وصلوا الى مستوى فكري ولغوي لم يصل اليه اهل البدو .

وقد حقق النفوذ الديني والاقتصادي لقريش نفوذا اساسيا قويا فى سائر بلاد العرب فى العصر الجاهلي . واساليب السياسة تستلزم درجة عالية فى فن التعبير لا تتاتى الا للغة راقية غنية طيعة .

وهكذا اجتمعت لقريش فى الجاهلية كل اسباب الفصاحة والبلاغة والرقي اللغوي . ولقد كان للفصاحة شأن عظيم عند العرب فعدوها مع الرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث . ومن امثالهم « جمال المرء فى فصاحة لسانه » ، واثر عنهم انهم قالوا : « اشتهر اليونان بالحكمة واهل الصين بالصناعة والاعراب ببلاغة المنطق » .

وكان تفوق العرب فى الجاهلية فى الشعر ، وكان ميلهم اليه ميزتهم الثقافية الوحيدة. وقد لعب شاعرهم ادوارا هامة فى حياتهم الاجتماعية ، فاذا اشتبك قومه فى معركة كان لسانه فعالا كشجاعتهم . اما فى السلم فقد تثير قصيدته القبيلة وتدعو خطبته النارية الى الاضطراب والانشقاق .

وكان الشاعر ممثل القبيلة وخطيبها وعالمها ومؤرخها ، وكان فوق ذلك صحافي يومه ، ولذلك اغدق عليه الامراء هداياهم الثمينة كسبا لعطفه . فشعره كان اداة فعالة فى تكوين الراي العام . وكان اغداق العطايا على الشاعر تحاشيا لهجوه يعرف عندهم (بقطع اللسان) .

والعرب يفوقون شعوب الارض جميعا باستحسانهم التعبير اللفظي واعجابهم به ، وباثارة الكلم لنفوسهم .

فلما شاء الله ان يبعث بخاتم رسله وانبيائه ، واختار محمدا القرشي لابلاغ رسالته ، انزل عليه القرءان الكريم معجزة قولية على درجة لا تسامى من الفصاحة والبلاغة ، اذهلت العرب كما اذهلت قريشا على فصاحتها وبلاغتها .

ولقد كان هذا الاعجاز فى اعتقادهم اسطع برهان على صحة الاسلام ، ولذلك يمكن القول ان فوز الاسلام كان فوز لغة ، وكان على اليقين فوز كتاب . ومن هنا تاتي العلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية .

ثم كان الفتح الاسلامي وانتشار الدعوة فى الامصار خارج الجزيرة العربية ، **فانتشرت اللغة العربية بانتشار الدعوة** ، واخذ المسلمون من غير العرب يقبلون على تعلم اللغة العربية لغة القرءان الكريم — مع اقبالهم على الدين الحنيف ليعرفوا احكام دينهم الجديد ويقيموا شعائره .

ولم تمض على وفاة النبي عليه السلام مائة عام حتى اصبح العرب اصحاب دولة عظيمة امتدت ارجاؤها من بحر الظلمات غربا الى حدود الصين شرقا ، ومن جبل اورال شمالا الى حدود السودان جنوبا . ودخل فى دين العرب وفى لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والاجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل حتى فى اخبار اليونان والرومان .

---

1) يؤيد ذلك ما ورد فى القرءان الكريم — الذي نزل بلغة قريش — من كلمات كثيرة ليست فى الاصل عربية مثل :

اباريق : حكى الثعالبي فى فقه اللغة انها فارسية ، وقال الجواليقي : الابريق فارسي معرب ومعناها طريق الماء .

استبرق : اخرج ابن ابي حاتم عن الضحاك انه الديباج الغليظ بلغة العجم .

اخلد : قال الواسطي فى الارشاد : اخلد فى الارض ركن بالعبرية .

اسفار : قال الواسطي فى الارشاد هي : الكتب بالسريانية والقيوم هو الذي لا ينام بالسريانية ايضا .

اكواب : حكى ابن الجوزي انها الاكواز بالنبطية . واخرجها كذلك ابن جرير عن الضحاك .

سندس : قال الجواليقي هو رقيق الديباج بالفارسية ، وقال شيدلة هو بالهندية .

الصراط : حكى النقاش وابن الجوزي انه الطريق بلغة الروم . وكذلك جاء فى كتاب الزينة لابي حاتم .

فردوس : هو البستان بالرومية **والقسط والقسطاس** هو العدل بالرومية ايضا .

اليم : قال شيدلة هو البحر بالقبطية .

مشكاة : اخرج ابن ابي حاتم عن مجاهد قال: المشكاة الكوة بلغة الحبشة .

وأصبح **القرءان الكريم هو الكتاب الذي يعتمد عليه المسلمون في تعلم اللغة العربية** . ولولا الاسلام لما تأتى للغة العربية أن تنتشر في العالم هذا الانتشار . ومن هنا كان التلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية في عصوره الاولى .

ووطننا مصر أصدق مثال على صحة ما نقول . فقد كانت مصر قبل الفتح العربي تتخذ اللغة القبطية أداة للتعبير ، فلما دخل أهلها في دين العرب اتخذوا اللسان العربي **وأصبحت اللغة العربية لغتهم الرسمية،** كما أصبح القرءان الكريم عندهم كتابا مدرسيا ينهل منه كل طالب علم . وما يزال القرءان في الازهر وهو أعظم جامعة اسلامية في العالم ، أساسا لمناهج الدراسة والتهذيب .

ولقد كانت **اللغة العربية** وستظل دائما **المقياس الصحيح للوعي الاسلامي** والوازع الديني يقويان بقوتها ويضعفان بضعفها ، ونجد في مصر الدليل الساطع في ابان العهدين التركي والعثماني حينما ضعفت اللغة العربية نتيجة غلبة العنصر التركي على الحياة العامة ، فتفشى الجهل وكثر الفساد وشاعت الخرافات وانتشرت البدع . فلما قويت اللغة العربية في العصر الحديث بعد ان نقلت اليها علوم الحضارة الحديثة ، وانتشر التعليم ، قوى الوعي الاسلامي والوازع الديني بازدهار العلوم الدينية وكثرة البحوث الفقهية التي ساهم في نقلها الى الناس وسائل الاعلام الحديثة كالمذياع والتليفزيون بالاضافة الى الكتب والصحف العامة والمتخصصة والندوات والمؤتمرات . ويؤدي الازهر من خلال معاهده وكلياته والمجالس التي تتبعه أعظم دور في هذا المضمار .

وينبغي الا نغفل الدور العظيم الذي لعبته اللغة العربية في نقل الحضارة الانسانية وأثرائها . فعندما ورث العرب المدنيات القديمة التي ارتفعت معالمها على شواطيء الرافدين وعلى سواحل البحر المتوسط الشرقية وفي وادي النيل ، واقتبسوا القيم من مآثر الاغريق والرومان واضافوا اليه الكثير مما ابتدعوه ، أصبحت اللغة العربية خلال بعض القرون الوسطى **لغة العلم والثقافة والتقدم والعمران في العالم قاطبة** . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كتبت بها في المدة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظم مما كتب بأية لغة أخرى . وقد نقل هذا التراث الى أوربا في عصورها المظلمة ونشر فيها فكان له الفضل في بزوغ فجر اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي كله يتمتع حتى اليوم بثمراتها . ولا يزال اثر اللغة العربية ظاهرا في لغات الغرب التي استعارت منها الكثير **من المفردات العلمية والفنية التي حواها الفكر الاسلامي** .

ولعل **اكبر أثر** تركه الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان انما كان **على اللغة الفارسية** . فالعقلية الفارسية كانت من أسبق العقليات التي اشتركت في تدوين الفكر الاسلامي سواء كان في الادب شعره ونثره، أم في علوم الدين أو الفلسفة . فمنذ القرن الرابع الهجري بدأت الحضارة الاسلامية ــ مدونة باللغة الفارسية ــ تسير جنبا الى جنب مع اللغة العربية كلغة لهذه الحضارة . وبدأ العلماء يكتبون باللغة العربية واللغة الفارسية في الموضوع الواحد . فلم تكد نهضتهم تقوم حتى **غلبوا الالفاظ العربية على الالفاظ الفارسية** . وايران الاسلامية (فارس القديمة) تكتب الفارسية بالحروف العربية واكثر من ستين في المائة من كلمات لغتهم عربية ، ومقياس البلاغة عندهم وفرة الالفاظ العربية والقدرة على استعمالها .

وغني عن البيان ان **لغة القرءان الكريم لها أكبر الفضل في التقريب بين البلاد العربية والاسلامية في العصر الحديث** لانها اللغة المكتوبة فيها جميعا ، ولها في القرءان نموذج يحتذي .

وانا لندعو الله منزل القرءان ان يوفق الاقطار العربية جميعا في احياء لغة القرءان فتستعيد مكانتها في وجدان ابنائها وعلى السنتهم وتستوعب علوم الحضارة الحديثة وتشارك في تقدمها .

القرآن دعامة الوحدة بين العروبة والإسلام

يجب أن يأخذ القرآن المكانة الأولى في الدراسات الجامعية .

للدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

استاذة كرسي اللغة العربية وآدابها
(جامعة عين شمس)

1) التلازم او الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ليس فى حاجة الى جديد يقال ، بعد الذي شهد به الواقع التاريخي من ان اللغة العربية تدين بحيويتها وبقائها وسعة انتشارها ، الى نزول كتاب الاسلام بها ، فانتشرت معه حيثما اظل لواءه تلك الاقطار التي اعتنقت الاسلام دينا ، واستبدلت بلغة كتابه لغتها القديمة .

فالقضية من هذه الناحية ، غير مطروحة للبحث والنظر ، الا ان تكون فى حاجة الى التفسير التاريخي لحركة انتشار العربية بانتشار الاسلام ، فى المنطقة المعروفة بالوطن العربي الاسلامي ، حيث نرى نحو مائتي مليون عربي من وادي الرافدين الى اقصى المغرب والسودان ، تربطهم وحدة اللسان بما تعني من وحدة الفكر والوجدان ، الى جانب الروابط الاخرى من وحدة العقيدة والتاريخ والمناخ المادي والمعنوي .

هذه الامة بدأت بالاسلام تاريخها المشترك واخذت منه لسانها الواحد ، ولقد عاشت شعوب المنطقة نحو الف عام قبل الاسلام ، خاضعة للحكم الروماني او اليوناني او الفارسي ، وحاول الغزاة ان يفرضوا عليها عقائدهم ولغاتهم وقومياتهم ، لكنهم خرجوا منها جميعا لم يتركوا وراءهم قومية رومانية او يونانية او فارسية .

وجاء الاسلام فتم له فتح هذه الاقطار فى اقل من قرن ، وترك لها حرية العقيدة واللسان ، فلم تلبث ان اعتنقته دينا عن طواعية واختيار ، ثم بدأت تتعرب من الجيل الاول بعد الفتح ، فلم يمض جيل او اثنان حتى تم تعربها ودخلت فيما يعرف فى التاريخ بدور العروبة الصريحة .

وعن طواعية كذلك ، تخلت عن لغاتها الاولى ، لهذه اللغة العربية ، لغة القرءان ، كتاب دينها .

لقد كان لمصر مثلا لغتها القومية قبل الفتح الاسلامي ، ثم لما اسلمت بدأت من عصر الفتح تتعلم لغة دينها . وتشهد وثائق من البردي ــ فى دار الكتب بالقاهرة ومكتبة البرتينا فى فيينا ــ بأن محاولة التعرب اللغوي بدأت مبكرة ، اذ نجد نصوصا عن عصر الفتح باللغتين المصرية والعربية معا ، ثم نجد نصوصا عربية خالصة من الرسائل والمعاملات التجارية بين افراد الشعب .

ولا مجال للقول بأن المصريين انما تعلموا العربية لمجرد كونها اللغة الرسمية ، فلغات الغزاة قبل الاسلام كانت لغات رسمية ، وظلت اللغة المصرية معها لسان الشعب لم يتخل عنها للغة اجنبية .

* * *

والعربية لا تدين للاسلام بانتشارها فحسب ، ولكنها تدين له كذلك بكل علومها الاصيلة التي نشأت اساسا لخدمة كتاب الاسلام : فمع اتساع الدولة الاسلامية واختلاط الالسن والثقافات وفشو العجمة، نشطت حركة الجمع لتراث الفصحى ، فى القرن الثاني الهجري ، قصدا الى حماية لسان الامة ولغة كتاب دينها . ومن هذا التراث الاصيل صنفت معاجم اللغة لخدمة الفاظ القرءان ، ووضع علم النحو واللغة لتوجيه اعرابه ، وصنفت كتب البلاغة لمعرفة اسراره فى التعبير والبيان كما الفت علوم الاسلام باللغة العربية : دونت اصول الفقه والشريعة وكتب الحديث والتفسير ، والسير والتاريخ والبلدان ، والفلسفة الاسلامية. والى العربية ترجم تراث الفكر والعلوم القديمة ، وبالعربية الفت كتب العلوم من طب وكيمياء ورياضيات وفلك...

واكثر الذين صنفوا هذه الذخائر التي ملأت دور الكتب الاسلامية من نيسابور الى فاس وقرطبة ، كانوا من الشعوب التي تعربت بعد الاسلام ، لا يقتصر ذلك على العلوم الطارئة فحسب ، ولكنه يتجاوزها الى صميم علوم العربية والاسلام .

2) ولا اظن ان الوعي الاسلامي فى عصرنا او فى اي عصر مضى ، كان يقوى او يضعف بما يعتري اللغة العربية من قوة او ضعف . بل الصحيح انها التي تتأثر بالوعي الاسلامي قوة وضعفا . ومهما تختلف على تفاوت الوعي الاسلامي بين قطر وآخر من اقطار الوطن العربي ، فالذي لا ريب فيه ان **وجود القرءان الكريم قد كان حارسا لقدر من هذا الوعي** لم يخذل الامة فى عصور محنتها ، وبفضله بقيت العربية تتحدى ذرائع الغزو .

ويجب أن نفرق هنا ، بين الوعي الاسلامي وبين المستوى الثقافي او العلمي للشعب : لقد امتحنت هذه الامة بالغزو الصليبي والاعصار التتري ، فكان لها من الوعي الاسلامي ما حرس وجودها . ثم لما غشيها الحكم العثماني نشت فيها الامية حتى اسلمها الى الاستعمار الذي تقاسم تركة الرجل المريض ، كان وعيها الاسلامي وحده ، هو المشعل الذي اضاء مسراها فى غشية المحنة ، وقاومت به عوامل التذويب والادماج والموت ، وخاضت به معارك التحرير الباسلة .

كان القرءان هناك فى ذلك الليل الطويل ، كتابا للاميين ينسخ اميتهم بكلمات الله . وفى المدرسة القرءانية تلقوا زاد وعيهم ، ومن ثم بقيت اللغة العربية فى كتابنا الاكبر ، متصلة بالوجدان العام للامة ، على تتابع العصور والاجيال ، رغم غشية الامية وضراوة الغزو الاستعماري لميادين الثقافة ووسائل الفكر واجهزة الاعلام .

وبقدر ما للقرءان الكريم من نفوذ على الضمير الشعبي ، كان له **الدور القيادي فى وحدة هذه الامة العربية** من اقصى المشرق الاسيوي الى اقصى المغرب الافريقي ، يلتقي ابناؤها فكرا ووجدانا ولسانا ، عبر الحواجز الفاصلة والاسوار العازلة .

من هنا قلت واقول ان **الوعي الاسلامي هو الذي يحمي اللغة العربية** حتى فى الاقطار التي ضري فيها الغزو الفكري ، وهو الذي يرهف ضميرها القومي ويشحذ نضالها لتحرير لسانها وحماية وجودها ، وليس الوعي هو الذي يتأثر باللغة العربية قوة وضعفا، فهناك اقطار يتألق فيها الوعي الاسلامي رغم ضعف اللغة العربية فيها ، وهناك اقطار لم يسرق المستعمر لسانها وتعد من مراكز اللغة العربية نشرا وتاليفا ، مع فتور الوعي الاسلامي فيها .

3) اما فى خصوص مدى تاثير الفكر الاسلامي، عن طريق لغة القرءان ، فى اللهجات أو اللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية غير العربية فمبلغ علمي أن هناك فى الاقطار الاسلامية غير العربية ، **مراكز قوية لنشر اللغة العربية ، معتمدة اكثر ما تعتمد ، على القرءان الكريم** . واذكر منها على التحديد ، **الهند واندونيسيا وايران وتركيا** ، حيث اعلم ان لعلماء الاسلام فيها دراية بالعربية ونشاطا سخيا فى خدمتها ونشرها . وجامعة حيدر اباد الاسلامية تنهض بعبء جليل فى خدمة اللغة العربية بكتاب الاسلام، وجمعية علماء الاسلام فى تركيا، لها نحو سبعين فرعا فى انحاء البلاد التركية ، واكاد اقول ان مدارس القرءان فيها ، وهي تبلغ بضع مئات، توشك ان تحدث تطورا بالغ الاثر ، فى حياة الاسلام والعربية بتركيا .

4) العربية واللهجات المحلية

وقد تابعت الاتصال باللهجات المحلية فى مصر وفى سائر اقطار الوطن العربي . واقرر هنا ان **هذه اللهجات لا تعدو ان تكون لهجات عربية تاثرت بعوامل صوتية واقليمية** . ونحن نبالغ كثيرا فى تصور هوة سحيقة بين هذه اللهجات وبين الفصحى ، مع أن **اللهجات غنية بالالفاظ الفصحى** ، وقد آن لنا ان نكف عن نظرة العداء وفكرة الخصومة بين العربية ولهجاتها الاقليمية ، فنقدر ان ظاهرة الازدواج اللغوي ظاهرة طبيعية ، وان اللهجات العامية ، لهجات عربية وليست

لهجات لغات اجنبية . وقد تاثرت كل لهجة بعوامل حتمية اختلفت بها طريقة النطق والاداء ، ودلالات الالفاظ ، لا بين قطر وآخر فقط ، بل بين اقليم واقليم من القطر الواحد . نحن فى مصر مثلا ، تختلف لهجة الصعيد عن لهجات الوجه البحري ، ولهجة البوادي عن الثغور ، ولهجة الريف عن الحضر . ويرجع ذلك الى عوامل تاريخية واخرى اجتماعية : فمع الفتح الاسلامي هاجرت قبائل عربية شتى الى مصر واستقرت فى مناطق مختلفة ، فتركت كل قبيلة اثر لهجتها على اللهجة المحلية للمنطقة التي استقرت فيها. ومع الزمن تأثرت لهجات العواصم والثغور بالجاليات الاجنبية فاخذت بعض الفاظها وعربتها ، على حين بقيت لهجات القبائل العربية فى المناطق البعيدة نسبيا عن الاختلاط ، كالريف والبادية والواحات دون ان يبلغ الامر بلهجات العواصم والثغور ، الخروج عن ان تكون لهجات عامية فى العربية ، ودون ان يمس الموقف جوهر الوحدة اللغوية التي تقوم اساسا على الفصحى ، لغة القرءان الكريم ، بل تبقى هذه **الفصحى اللغة المشتركة التي يتم بها التفاهم على المستوى العام لاقاليم القطر الواحد** ، ولاقطار الوطن العربي كله على اختلاف لهجاته . ومن ثم تحيا الفصحى متحدية كل ذرائع الغزو بفضل هذا القرءان الذي اعطانا لساننا المشترك وضمن وحدتنا اللغوية .

وفى رايي ، ان من اجدى ما يقوم به مكتب تنسيق التعريب بالرباط ، الدعوة الى **تاليف لجان فى كل قطر عربي** ، تعكف على استخلاص الالفاظ الفصحى التي تدور على السنة الشعب فى كل لهجة محلية ، **وتكون هذه الالفاظ من فصحى العامية ، هي اساس التعليم فى حركة التعريب وفى مراحل المدرسة الابتدائية** ، بدلا من الالفاظ المعجمية المماتة . ولندرك ان الالفاظ الفصحى التي فى اللهجات العامية، ليست دنسا. ولنكف عن تصور انها ابتذلت بجريانها على السنة الجماهير ، فالواقع انها اخذت بذلك شهادة من الحياة ، بصلاحيتها للبقاء .

وقد حدث مرة ان امتحان بعض المدرسين المرشحين للاعارة لتدريس العربية فى الاقطار الشقيقة، ان كتبت موضوعا انشائيا بفصحى العامية ، وطلبت الى عدد من المدرسين ان يصححوه ، فاستبعدوا منه عشرات من الالفاظ ، وهي فصيحة وقرآنية ، واستبدلوها بالفاظ اخرى دونها فصاحة ، وكانهم حسبوا ان كل ما يجري على السنة العوام ، قد خرج نهائيا من اللغة العربية ! وهذه هي الماساة التي ارجو ان يواجهها مكتب تنسيق التعريب بما يضع حدا حاسما لها .

5) مكانة العربية بين اللغات الاجنبية

والمكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية في اي بلد من وطننا العربي بالنسبة الى اللغات الاجنبية، لا يجوز فى رايي ان تكون موضع خلاف ، فالامر امر وجود ومصير لهذه الامة ، وانما الذي ينبغي ان يتجه اليه النظر ، هو مقاومة اثر طغيان المترجمات التي تنشرها فينا مؤسسات للغزو الفكري فاحشة الثراء ، فتروج للبضاعة الوافدة بما تسخو فى الانفاق عليها وتدق لها طبول الدعاية واجراس الاعلان ، على حساب الفكر القومي الذي يجب ان تكفل له الحماية من هذه المنافسة الخطرة، لتظل له المكانة الاولى فى ثقافة الامة.

واعتقد ان **القرءان الكريم يجب ان ياخذ المكانة الاولى فى الدراسات الجامعية** ، لا من حيث هو كتاب شريعة ودين فحسب ، ولكن من حيث هو كتابنا الاكبر الذي يمنحنا ذوق العربية الاصيل وبيانها المعجز ، ويعطينا القيم والمثل التي ترسخ فكرنا القومي وتمده بأصول فى الاجتماع والفكر والقضايا الحيوية ، يكون لنا من اصالتها ما يحمي اصالتنا فى دوامة التيارات الوافدة من شرق وغرب .

ونحن مهما تتعدد لهجاتنا المحلية وتتغير فنوننا الشعبية ومذاهبنا الاقتصادية والسياسية ، يبق القرءان الكريم كتابنا المشترك الذي نلتقي عنده . وانفراد القرءان بهذا الدور القيادي الخطير الجليل فى تاصيل وحدة شعوب الوطن العربي وتقرير مصيرها وضمان تفاهمها المشترك والتقائها الفكري ، هو الذي يجلو الاهمية القصوى لجدوى المحاولة فى اعطائه المنزلة الاولى فى مدارسنا وجامعاتنا .

القرآن مصدر انطلاق

للأستاذ محمد سلام مدكور
رئيس قسم الشريعة الاسلامية
بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة

نعم ان هناك ارتباطا بينا بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ولكي نتصور هذا الحكم بوضوح فان علينا ان نفرض ان اللغة العربية ظلت قاصرة على التخاطب او الخطابة او الكتابة او النظم فى الجزيرة العربية وحدها ، مع اعتبار ان رسالة النبي محمد صلوات الله عليه رسالة عامة كافة مصداقا لقول الله سبحانه : « وما ارسلناك الا كافة للناس » فهل كان يمكن ان اولئك المكلفين بما ارسل به محمد فى غير الجزيرة العربية يتفهمون ذلك الدين الجديد حتى يقوموا بتكاليفه وينهضوا بأعبائه ؛ ولهذا فان الواقع الطبيعي المستمد من منهج محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه انهم بدأوا ينفذون رسالة الاسلام بلغة العرب ؛ وكان المرسل اليهم من الامم الاخرى يضطرون الى ترجمة ما يبعث اليهم من النبي او اصحابه كما تدل على ذلك كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك ورؤساء الامم المحيطة بهم . وهذا يدعو الى ان **تتعلم الامم المختلفة لغة الاسلام وهي اللغة العربية** حتى تستطيع ان تتجه الى هذا الدين الجديد وتسير على وفق مناهجه .

واذا كانت هناك ترجمات من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وقعت فى عصور الخلفاء العباسيين فمن بعدهم فانما كان يدعو الى ذلك القصد الى تزويد الامة العربية بثقافات يستطيعون ان يتعايشوا بها مع الامم الاخرى التي دخلت فى الاسلام .

وقد دل الواقع التاريخي الطبيعي ايضا على ان الامم التي دخلت فى الاسلام من الفرس والروم والهنود وغيرهم **اقبلوا اقبالا عجيبا على دراسة اللغة العربية** واوغلوا فى تصنيف الكتب وتنويع العلوم التي تخدم القرءان والسنة النبوية ، وكان لذلك اثره العظيم في خدمة تفسير القرءان الكريم ودراسة السنة النبوية .

فسيبويه واضع النحو فى اوائل العصر العباسي، **وعبد القاهر الجرجاني** امام البلاغة الاول **والسكاكي** امامها الثاني فى عرف البلاغيين ثم **ابن جرير الطبري** امام المفسرين بالآثار **والزمخشري** امام المفسرين بالصناعة العربية الذي قيل فيه وفى السكاكي : لولا الاعرجان لضاعت بلاغة القرءان ، وكثرة كاثرة من امثال هؤلاء لم يكونوا من عناصر عربية ، وانما كانوا من عناصر اعجمية دخلت فى الاسلام فشمرت عن ساعد الجد لدراسة اللغة العربية فى مفرداتها وفى اساليبها وفى معارفها وفى آدابها مما سلط الاضواء المنيرة على الاسلام حتى دخل الناس فيه افواجا وامما ، وحتى **غزت لغته كثيرا من الامم** حتى يستطيعوا التعمق في تفهم احكام الدين وثقافاته المختلفة .

وفى الائمة المجتهدين الامام الاعظم **ابو حنيفة** النعمان الذي اخذ عنه بالمباشرة او الوساطة كثير من الائمة ؛ لولا تعلمه لغة العرب لما استطاع ان يصل الى ما وصل اليه فى مراتب الاجتهاد . فهذا الخضم الجم

من المؤلفات العربية ، الذي كان مادة للمسلمين وغير المسلمين كالمستشرقين وعلماء اوربا الذين اقتبسوا كثيرا من العلوم والمعارف والمدنيات والحضارات من معارف الاسلام ، فلم يكن ليتسنى لهم ذلك **لولا تعلمهم اللغة العربية** واعتبارها أساسا لفهم ثقافات الاسلام التي لها اكبر الاثر في تصحيح الحقائق وتهذيب النفوس واصلاح السلوك ووضع نظم العدالة .

وبهذا يظهر اننا نناصر الراي القائل بوجود **سببية بين الاسلام واللغة العربية** فان دين الاسلام هو الذي تسبب في انتشار اللغة العربية على الوجه الذي اشرنا اليه وجعلها مصدر اشعاع روحي وعقلي وخلقي باعتبار انها هي التي تصور مبادىء ذلك الدين وما يدعو اليه من السمو في مختلف النواحي .

وحقا **لولا الاسلام لما تاتى للغة العربية ان تنتشر في العالم** هذا الانتشار لانها كانت لغة قوم جاهلين محصورين في جزيرتهم مشتملين على انفسهم غير ظاهرين على غيرهم تضعف قوتهم اختلافاتهم وتفككهم وخروج بعضهم على بعض ، وتسلط القوي منهم على الضعيف مما ادى الى ايقاعهم تحت سيطرة امتين ، هما : الفرس والروم ، فلما جاء الاسلام انتشلهم من وهدتهم وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم حتى كانوا هم الغالبين ، وصارت **لغتهم** في فترة وجيزة **تغطي منطقة فسيحة من البلاد من غرب اوربا الى شرق آسيا وشمال افريقيا** وغير ذلك .

واذا اردنا ان نستدل على صحة هذا الراي بواقع البيئة الاقليمية وماضيها ، فاننا نجد مصر قبل الاسلام ، كانت تلهج بلغات مختلفة ، هي اللغة القبطية ولغة الدول المستعمرة . فلما دخلها الاسلام بنوره اتجهت الانظار اليه وتطلع العلماء الى الرغبة في التزود منه ، وكان هذا سبيلا الى تعلم اللغة العربية ، ثم تجلت محاسنها في معارفها وفي آدابها حتى غزت هذه اللغة ما عداها من اللغات ، وصارت لغة التخاطب والكتابة والشعر والعلم بمختلف فروعه .

وقد اعان **لغة العرب** على تحقيق ذلك الظفر والظهور انها **لغة حية فتية** تتميز بشبابها في كل عصر **وتتسع لكل ما يجد من صور الحضارة** ومظاهرها ومختلف الثقافات والمعارف ، وهذا المعنى يزداد وضوحا كلما اتجه المجتمع الانساني نحو التقدم والرقي ، فان **اللغة العربية** تجد نفسها **غير عاجزة عن مسايرة كل جديد ، والتعبير عن اغراضه ومراميه .**

ونستطيع ان نقول تبعا لذلك ان قوة اللغة العربية معنى ذو اثر صالح في تقوية الوازع الديني لان **التعمق في دراسة اللغة العربية يستتبع لا محالة التعمق في فهم روح التشريع** الاسلامي الذي جاء بها القرءان الكريم والسنة النبوية ـ ولهذا يحتاج طلاب الدين الاسلامي دائما الى دراسة اللغة العربية ويجعلون ذلك وسيلة من وسائل السير في تعرف معاني القرءان الكريم والسنة النبوية على هدى وبينة فيكونون أبعد من غيرهم من العثار في فهمها . حتى ان العلوم التي تخدم القرءان والفقه وتعتبر بمثابة موازين للفروع الفقهية كعلم اصول الفقه تجعل من موادها وأركانها ما يسمونه باللغويات التي ترشد من اراد التوسع في فهم الاصول الى الوقوف على بحث ما يهم في اللغة العربية ، كما انه من المتفق عليه انه يشترط في الشخص ليتحقق فيه وصف الاجتهاد ان يكون على علم باللغة العربية . وعلى عكس ذلك نجد ضعف الكلمة العربية كثيرا ما يكون سبيلا الى التخبط والزلل وعدم الامن من العثار لمن اراد الاستقلال بالبحث ، ولم يكتف بأن يكون تابعا لغيره وآخذا عنه ، مما يدل على أثر اللغة العربية في تفهم الدين ومدى الحاجة اليها لذلك . كما يدل على **اثر الدين الاسلامي في انتشار اللغة** واتساع افقها، وهذا القدر كاف في ايضاح ما هنالك من تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة .

اما تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرءان في اللهجات فان ذلك يظهر مما دل عليه البحث التاريخي في لهجات العرب من انها كانت منتشرة ومختلفة اختلافا بينا ، فلما جاء القرءان الكريم بلغة قريش وآثر لهجاتها على لهجات غيرها من القبائل كان حرص المسلمين على لغة القرءان مما يزهدهم في مختلف اللهجات عدا لهجة قريش التي جاء بها القرءان ، وان كان القرءان لا يخلو من بعض اللهجات الاخرى تيسيرا على تلك القبائل التي يصعب عليها ان تنطق بلهجة قريش ، كما يتبين ذلك في بعض القراءات التي تختلف بين المد والقصر والتسهيل والهمز والاطالة وغيرها مما يتبين في موضعه من كتب القراءات، وهذا لا ينفي ان الاصل في القراءة هو القراءة بلهجة قريش وان وجود غيرها في القرءان من باب الترخيص الذي من شأنه ان يكون عند وجود العذر .

وقد نص ابو عبيدة معمر بن المثنى على ان قراءة القرءان كانت أولا بلهجة قريش ، فلما انتشر الاسلام

ودخلت فيه قبائل عربية مختلفة امر رسول الله أن يقرىء كل قوم بلهجتهم تيسيرا عليهم ، ولهذا فاننا نذهب مع المحققين من العلماء الى أن غير العرب ممن تستعصى عليهم حروف بعض الكلمات التي ليست في لهجاتهم فان الدين يرخص لهم أن ينطقوها بما تتسع له قدرتهم ، ولا يكلفهم أكثر من ذلك كي لا يشق عليهم ، وهذا يدخل كما اشرنا فى الرخصة التي تقتضي التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم .

والملاحظ أن المصريين أكثر الناس قربا الى لهجة قريش وأخذا بطريقتهم فى الترتيل ، وقد يكون للازهر ومكاتب تحفيظ القرءان الكريم التي يشرف عليها من اخذوا بكثير من تعاليمه فى اللغة العربية مباشرة أو بواسطة من ينبثون من أبنائه فى مختلف نواحي القطر المصري ، واذا كنا نرى فى بعض اللهجات غير المصرية ، كما فى المغرب ، بل فى الحجاز نفسه ، شيئا من البعد عن لهجة قريش ، واللهجات العربية الاصيلة ، فان ذلك يرجع الى ما طرأ على الالسنة من تغير بمعاشرة مختلف الامم فى بلاد الحجاز ، والى ما تتاثر به بلاد المغرب من اللغة البربرية الاصيلة التي تزاحم اللغة العربية ، ولعل ايثارهم قراءة ورش يرجع الى قرب لهجتها من لهجاتهم ، ولهذا فاننا لا نستطيع أن ناخذ عليهم كثيرا من المآخذ فى ترتيل القرءان الكريم .

وبعد هذا كله تتجلى الاجابة على السؤال الاخير ، وهو أن اللغة العربية يجب أن تحتل فى بلادها فضلا عن غيرها من البلاد العربية والاسلامية **المكانة الرفيعة** والا تؤثر عليها لغات أخرى للمحافظة على الدين من ناحية والاستمساك باصوله وفروعه ولانها هي **اللغة التي** يمكن أن **تقرب وجهات النظر وتيسر التخاطب بين المسلمين** ، حتى تجتمع صفوفهم وتتحد كلمتهم .

هذا فضلا عما اشرنا اليه من انها لغة حية قوية وما نشير اليه الان من انها **لغة علم وادب وفن وحقائق وعواطف** وكل ذلك لا تستغنى عنه امة حية تنشد النهوض وتسعى اليه .

التلازم واضح بين الإسلام واللغة القرآنية

بقلم : ثلة من أساتذة كلية العلوم

(جامعة عين شمس)

توصلنا من حضرة عميد كلية العلوم بجامعة عين شمس بجملة اجوبة عن موضوع الاستفتاء لزمرة من اساتذة الكلية الافاضل ننشرها شاكرين .

1 — علاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية

من المعلوم ان الاسلام عقيدة وشريعة بيانهما الاول فى القرآن الكريم العربي المبين ويتفرع عن ذلك انه يجب على المسلم ، بقدر استعداده العقلي والادبي وتهيؤ الفرص له ، ان يعرف القدر الضروري لكل مسلم من اركان وشروط صحة العبادات اطاعة الله تعالى ، وصحة المعاملات انصافا وتعاونا مع عباده . وبعض هذه العبادات مثل الصلاة ، التي هي عماد الدين ، يتعين فيها قراءة ما يتيسر من القرآن العربي مع التسبيح والتكبير والتشهد بالفاظ عربية بقدر الامكان . ولاشك ان المستنيرين من المسلمين لا يكتفون بهذا القدر الضروري بل تسمو بهم نفوسهم الى طلب علم اكثر زيادة فى التقرب الى الله تعالى وكسبا لمنزلة الصالحين من عباد الله دنيا ودينا وفوق هؤلاء واولئك درجات ارفع وامكن ممن يطمعون فى مراكز الامامة والتدريس والقيادة والحكم بما يرضي الله ورسوله وعملا بقول الله تعالى لرسوله الاكرم ولامته المهدية الى سبل الرشاد « وقل رب زدني علما » فيدعوهم هذا الطمع المشروع لكل مسلم ، بصرف النظر عن جنسيته او منزلته المادية بين قومه بل عن موقفه العدائي السابق ضد الاسلام والمسلمين الى الاستزادة من علوم الدين لكن بشرط ان يعد كل منهم نفسه اعدادا سليما وكافيا لما يرشح نفسه للعمل فيه باحراز القدر الكافي من الفقه الضروري لهذا العمل ، واساس ذلك **حظ وافر من القرآن** العربي الكريم . ولما كان طلب القرآن واجبا على كل مسلم ومسلمة مع تفاوت منازلهم وآمالهم كما سبق وهو الامر المتوقف على **اجادة اللغة العربية** — كل بقدر ما يلزمه وما تصبو اليه همته وما يدفعه اليه ايمانه — صار **طلب اللغة العربية واجبا لان ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب اذ انه** ترتب عليه وجودا وعدما . وعليه فيخلص من هذا الشرح الموجز **ان الاسلام حينما انتشر كان مظهره قرآنا عربيا وشريعة مراجعها عربية** وهو الامر الذي لم يختلف فى موطن من مواطن الفتح الاسلامية فى **القرنين** الاول والثاني الهجريين (السابع والثامن الميلادين) وقد امتدت فيما بين حدود الصين شرقا وبلاد المغرب واسبانيا غربا .

وينتج من هذا القول غير المحتاج الى مزيد شرح ان علاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية كتابة وقراءة ومخاطبة وتاليفا فى علوم القرآن والعظة والحديث والادب والاجتماع قام به شموس هدى ورشاد **وان كانوا اعاجم اروما وموطنا** لكنهم نهلوا من مورد القرآن الكريم **فاستعربوا** وسعدوا واسعدوا والله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء من عباده ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا .

وعلى خلاف ذلك لما نزح الاسلام عن الاندلس، لم يبق من اللغة العربية الا ما حوته بطون دور الكتب أو تحلت به اطلال القصور والمساجد ، او ما بقي فى اللغة الاسبانية من الفاظ عربية محرفة .

2 — ماذا لو لم تكن اللغة العربية هي لغة القرآن؟

هذه النقطة مجرد افتراض ، وجواب الافتراض بالطبع افتراض مثله ؟

والحق والله تعالى اعلم ان لغة القرآن لم تكن هي العربية الا لزوما وتبعا لكون الرسالة أراد الله توجيهها المباشر — وان كانت للناس كافة — الى امة الجزيرة العربية بلسان رسوله الصادق الامين محمد العربي القرشي عليه وعلى آله افضل الصلاة والتسليم

اما لماذا كانت الرسالة الخاتمة موجهة اولا الى هؤلاء العرب فذلك لان الجزيرة مع غلبة الشرك فى انحائها واقلية اهل الكتاب فيها — كان سكانها من بدو ومن حضر اقرب للفطرة والاسلام دين الفطرة ، اما الاقاليم العريقة فى الحضارة فقد كانت كلها واقعة اما تحت سيطرة الروم الذين عرفوا بالترفع عن الاجناس والطغيان عليهم من بدء تكوين دولتهم حتى انهم لم يعتنقوا المسيحية الا بعد ثلاثة قرون من ميلاد المسيح عليه السلام وبعد ان اشبعوا المسيحيين وغيرهم من الوان العذاب حرقا وتقتيلا ، ولم ينفعهم اعتناقهم المسيحية ، التي شعارها المحبة والسلام للجميع من داء الغلظة والطغيان فضلا عما ران فى عقليتهم من بقية الشرك الاغريقي القديم وتعدد الآلهة عندهم فالله للحرب واله للخمر واله للجمال واله للشعر الخ ، واما وقعت بقيتهم تحت سيطرة الفرس التي طغت حتى لكأنها قبست من النجوم التي عبدتها والنار التي قدستها صواعق تعذيب وتدمير واسواط تحكم واستعباد من قديم الزمن حتى اضطروا انبياء الله ورسله نوحا وابراهيم ولوطا ويونس واسماعيل واسحاق ويعقوب الى الهجرة من بلادهم سعيا وراء سلامتهم وسلامة رسالات الله الملقاة على عواتقهم صلوات الله عليهم اجمعين وسلامه لهذا كله اقتضت حكمة مولانا الكريم — وهو اعلم حيث يجعل رسالته ان تكون الرسالة الخاتمة — يبزغ كوكب هداها فى سماء الجزيرة العربية ولزم عن ذلك ان تكون **الرسالة باللغة العربية** وبهداية الرسول العربي عليه افضل الصلاة والسلام .

وفى هذا يقول الله تعالى « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » البقرة 143 .

وامة وسطا اي متوسطة فى المكان والصفات والمزايا بين الامم وما ذلك الا لان خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وامته يؤمنون بسائر الكتب المنزلة والرسل اذ يقول الله تعالى فى محكم كتابه الكريم : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله » (البقرة 185) بخلاف اهل الكتب السابقة اليهود والنصارى يقول كل منهما للاخر لستم على شيء من الهدى وحسن المآل وفى هذا يقول الله تعالى « قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب » (البقرة 113) . وما زادوا بعد رسالة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام الا تفرقا اذ يقول سبحانه وتعالى « وما تفرق الذين أتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ، وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (البينة 4) .

ويتضح من هذا كله انه **لو كان القرآن بغير لغة العرب ، لما استطاع الرسول العربي ان يؤديه** ولما استطاعت الامة العربية ان تتقبله وفيه يقول القرآن الكريم : « ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا مؤمنين » (النحل 103) .

3 — الوعي الاسلامي واللغة العربية

هذه ظاهرة مدركة بالعقل وملموسة بالحواس ، ولا ادل على ذلك من انصراف غالبية المسلمين فى هذا الزمان مع تمتعهم بلا ريب بدرجات متفاوتة من الايمان عن الانصات والتدبر فى مجالسهم للقرآن الكريم وما ذاك الا لعجز معظمهم عن فهم ما يتلى عليهم من آيات وجود الله وقدرته وسرد قصص السابقين بما حوت من دروس وعبر وتعداد الكثير من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى وتبيان احكام العبادات والمعاملات التي هم فى شوق وحاجة ظاهرة اليها — بدليل الاقبال على المحاضرات والمواعظ المشتملة عليها ، اما من القرآن الكريم مباشرة — مع اسلوبه السهل المعجز البليغ الممتع قد انحطت قدرتهم على تفهمه ولو جملة لاول وهلة واصبحوا لا يعنون الا بهتافات الاستحسان لمشاهير القرآن ، او بذكر الله والصلاة على رسوله الكريم كلما ادركوا شيئا تفتح له قلوبهم طربا او وجلا . وما ذلك الا من طول ما اوجد المستعمرون بينهم وبين تعلم القرآن الكريم على وجوه كاملة صحيحة خشية ان يؤدي بهم مثل هذا التعلم بلا شك الى الجهاد فى

سبيل الله لتخليص أوطانهم واعلاء كلمة دينهم ونشر آدابهم وأحكامهم الكفيلة بسعادتهم دينا ودنيا .

أما وقد تحررت معظم البلاد الاسلامية فقد تفتحت أبواب العلم الى رياض من الصلاح والفلاح والحمد الله .

أما عن قوة اللغة العربية أو ضعفها تأثرا بالوعي الاسلامي فالجواب عليه متداخل مع الاجابة على السؤال الاول من الاستفتاء .

4 و 5 — ما هو مدى تأثير الفكر الديني فى اللهجات ؟

لما كانت الاجابة المفيدة عن هاتين النقطتين لا يمكن صدورها الا من علماء مختصين بمقارنة اللهجات واقتفاء أصولها وأسبابها فناسف لان تخصص هيئة التدريس فى كلية العلوم الحديثة لا يتيح لهم الفرص لخدمة هذا الغرض النبيل .

6 — المكانة التي يجب أن تحتلها العربية بالنسبة للغات الاجنبية

لاشك انه يجب ان يكون **للغة العربية السيادة والاولوية فى دراسة العلوم والآداب كلها** على السواء، مع التمهيد الضروري لتمكين المتفوقين والمتخصصين وحدهم من بعض الدراسات العليا باللغات الاجنبية المتنوعة ليكونوا وسطاء فى تبادل الافكار والعلوم والمخترعات مع دول العالم المختلفة اللغات أما الكافة فحسبهم من ذلك ما يساعدهم على التفاهم اذا اقتضى التعامل ذلك ومن حسن حظ المسلمين أن فريضة الحج تجمعهم من أرجاء المعمورة مع اختلاف السنتهم والوانهم فتعطيهم الفرصة — اذا حاولوها — لتبادل اللغات أيضا والله الموفق والهادي لاقوم سبيل والحمد لله رب العالمين .

القوة الايجابية في العالم

الإسلام أكمل بجامعة اللغة ووحدة العقيدة

للأستاذ عبد الرحيم السايح

من علماء جامعة الازهر

ان العالم الاسلامي يربض على الثروات المعدنية الهائلة ويتربع على الكنوز الثمينة ، ويملك من الحقول البترولية ، اجداها نفعا ، واكثرها ثراء وسخاء ، واقواها تدفقا ودفعا . ويتبوأ استراتيجية هامة ، ويشغل من خريطة الدنيا حيزا جغرافيا عظيما .

فالاطار الخارجي الاقصى للعالم الاسلامي يصل شمالا حتى اعالى الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض 60 درجة شمالا ، ويترامى جنوبا حتى نهاية افريقيا عند الراس على خط عرض 35 درجة جنوبا .

اما شرقا بغرب فنحن مع الاسلام من خط طول 120 درجة شرقا حيث الفلبين الى حوالي 20 درجة غربا ، عند الراس الاخضر ، فهذه شقة تبلغ 95 درجة بالطول ، ونحو 140 درجة بالعرض اي حوالي ربع وثلث محيط الارض على الترتيب ، أو ما يعادل نصف دورة الليل والنهار ، ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي .

ومحيط العالم المسلم يتحدد اساسا بنصف الكرة الشمالي اولا ، وبنصف الكرة القديم ثانيا ، فالاسلام جنوبي خط الاستواء اطراف أو أصابع ثانوية وهو فى العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة .

ويمكن أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة فنقول : ان الاسلام يمتد فى قوس محدد من بكين الى كازان الى بلغراد فى الشمال ، أو فى قاطع من فرغانة الى غانة ـ كما كان يقول مؤرخو الاسلام ـ أو فى قاطع آخر من جبل طارق الاطلس الى سنغافورة جبل طارق الهادىء ، أو من مالاجا بالاندلس الى ملقا بالملايو ، الى قبال المورو بالفلبين ، كذلك يمكن أن تحدد قاعدة العالم الاسلامي فى الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال ، حتى قبائل التاجال بالفلبين ، او من غينيا الى غينيا الجديدة ، اما الطول فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي والليمبوبو .

وتلك أبعاد لا تقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم .

فالاسلام دين عالمي أو كوكبي ـ بلا مراء ـ رغم ما يدعيه البعض من انه دين جزئي ، أو اقليمي أحيانا ، أو من أنه دين « افريقي » احيانا أخرى . اذ يوشك الا تكون هناك دولة فى عالم اليوم ، لايتمثل الاسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما فى استراليا وغرب اوربا مثلا .

وبالعالم الاسلامي قابليات بشرية فائقة والمسلمون يمثلون تقريبا 15 ٪ من مجموع سكان هذا الكوكب الذي يبلغ اليوم قرابة 3300 مليون نسمة .

وبعبارة أقرب وأوجز ، يمكن أن نقول : ان واحدا من كل ستة أشخاص يدين بالاسلام ومناطق العالم الاسلامي تعد ـ عند الباحثين والدارسين ـ من أقاليم النمو السكاني السريع .

فالعالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا ، الى المحيط الاطلسي غربا ، مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ، ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بأنها :

* تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان ؛ بعيدة عن القطبين ، وسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين ، ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

* وأنها تمتلك من شواطيء البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانيء العالم ، كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من أخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

* وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء .

* وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

* وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة فى منأى عن الانشقاق الملحوظ في المذاهب الاخرى ، ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك أمور تجعل العالم المسلم قوة ايجابية مرهوبة الجانب ، مخطوبة الود ؛ يتهيب العدو بأسها ؛ ويخشى سلطانها ، وتجعله أيضا مهيأ للاسلام فى بناء الحضارة الانسانية ، واعادة صنع الحياة ، وانقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع ، وما لهما من خصائص ومميزات ، وما بهما من كنوز وخيرات ، ومن الحديث عن خصائص العالم الاسلامي التي بز بها غيره ، الى الحديث عن الاسلام نفسه : فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التي جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتقه .

العقيدة التي تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ أرقى صورة واشكاله ، عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذي لا شريك له في ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا احد »

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعو ويعبد غير الخالق الذي ابدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس أو يعترف بوجوده فى هذا الكون الفسيح « اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله » ، والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية فى حدود الحق والفضيلة والشرف وباعتبار هاتين الحقيقتين ـ التوحيد الخالص ، والاجتماعية ـ أمكن للاسلام أن يقيم المجتمع على أسس القيم الاخلاقية العليا ، وان يرضي مطالب الروح والجسد ؛ حتى ترافقا فى اعتدال ؛ وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي أمكن للاسلام ان ينتشر فى أركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المباديء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة التي تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها ؛ وتعطي كل مطمح من مطامح الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من اخص خصائصها : انها تبعث فى روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر ؛ وروح الثقة فى غير اغترار ، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل .

والعقيدة الاسلامية قوة لا تدانيها قوة فى شد الاعصاب وشحن الدماء بالتضحية والفداء ونكران الذات . واثر الايمان بالعقيدة السليمة يبرز بوضوح فى الدعوات التي غيرت وجه التاريخ . لذا يعمد أصحاب الدعوات الى اختيار العناصر المشبعة بروح العقيدة ، ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يريدون (الكم) بل يريدون (الكيف) .

ذلك ان العقيدة هي الروح التي تحرك الجسد وتبعث فيه الحياة ، والرعيل الاول من المسلمين كانوا اساتذة الدنيا بقوة عقيدتهم وايمانهم بربهم . وقد لاقوا آلاما شديدة لو صبت على غيرهم لتغير موقفهم، ولكن الايمان بالعقيدة حين يخالط قلب المسلم يحيله الى انسان فوق العادة .

فبلال الحبشي ، وعمار بن ياسر ، ومصعب بن عمير ، وصهيب الرومي . ضروبوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة وصدق النية وقوة الايمان . وهم الذين لم يدرسوا كتب الفلسفة ولم يقراوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرءان الكريم وتتلمذوا في مدرسة محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة .

وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وطارق بن زياد وموسى بن نصير قادوا الدنيا وفتحوا البلاد وهم الذين لم يدرسوا في الكليات ولم يقراوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرءان العظيم وتتلمذوا في مدرسة محمد رسول الله عليه السلام .

فالايمان بالعقيدة هو الجذوة المتقدة **والقوة الخلاقة** ، التي تكون النفوس وتشحنها بانبل القيم واسماها ، وتبنيها على الحق والاباء والعزة والكرامة .

والاسلام : دين ومجتمع وحضارة :

دين : لانه عقيدة توحيد وتنزيه لله ـ سبحانه وتعالى ـ تعتقدها القلوب وتدين بها ، وتنطق بها الالسنة في كل صلاة وذكر ، وتتزكى بها النفوس ، فتنجلي عنها كل شدة وبؤس .

ومجتمع : لانه ليس طائفيا ولا عنصريا ، ولا متعصبا ولا جاهلا ، ولا جامدا ولا خامدا ولا يتوخى استعباد جنس لجنس ولا قوما لقوم، ولا طائفة لطائفة، « انما المؤمنون اخوة » . « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن » .

والفرد في المجتمع الاسلامي جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمي به، وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد ، لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح العام ، والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله ومسؤولين امامه عن اعمالهم . « كل نفس بما كسبت رهينة » . « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ؛ والاسلام الحنيف حينما جعل الفرد مسؤولا امام الله عن اعماله والمسؤولية تقع عليه وحده الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الفرد الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والدفع البناء وفي الوقت نفسه الفرد لبنة من لبنات المجتمع المسلم ، وعضو من اعضائه ، يعمل لصالح الجماعة ، والجماعة تسعى لخير الفرد .

والاسلام لا يعترف بالقهرية التي يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية ، لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

فالاسلام دين اجتماعي يرقى بالمجتمع الى اسمى ما قدر من سلام ورخاء وتعاون وتكافل وتساند وتوادد « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » .

قال المستشرق الفرنسي (ماسينيون) : « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الاولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري .

وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض حافل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات » .

وقال المؤرخ الانجليزي (توماس كارليل) : « وفي الاسلام صفة اراها اشرف الصفات واعظمها ، وهي المساواة بين الناس ، وهذا يدل على صدق النظر وصواب الراي ، والاسلام لم يقنع بجعل الصدقة سنة محبوبة بل جعلها فرضا على كل مسلم وجعلها قاعدة من قواعد الاسلام » .

وقال العلامة (ليود وروس) : « ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طرا ، الاولى قول القرءان « انما المؤمنون اخوة » والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال » .

آراء كوكبة من الباحثين وكبار المستشرقين فيها انصاف واعتراف بقيم الاسلام ، وذلك حينما يكتبون لمرضاة العلم فى ذاته . وحين لا تقتادهم السطحية .

وحضارة : لانه متصل بشؤون الحياة فى الحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التبلور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ، ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ، ويتدخل فى جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالاضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة في الارض بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها ، واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة اوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها ، وياخذ قسطا من عنايتها الا وله فى الاسلام هدى وبيان واهتمام .

وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعمقها الا وله فى الاسلام عرق ينبض واصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة ، وجامعة اللغة العربية ، واشترك المجتمع فى مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

ونخلص من كل ما سبق : الى ان **الاسلام دين عالمي** . ولهذه العالمية كان الاسلام وما زال ملائما لجميع الاجناس البشرية ، وقد اثبت منذ ظهوره حتى اليوم انه **الدين الذي يتلاءم مع كل عقل وتفكير ، ويتجاوب مع تطور الزمن .**

وان آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي فى وضع يسمح له ان ينمي فلسفته الخاصة به ، المتميزة عما عداها والتي تنبع من الفكر الاسلامي النير ، وتستمد عناصر وجودها من كتاب الله القرءان الكريم وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك دون ان يتبع المجتمع الاسلامي اي شكل من الاشكال التي يعافها الاسلام وتمجها الفطرة الانسانية الصافية .

واذا كان المجتمع الاسلامي ، له من المميزات ما لا يتوفر لغيره ، وله من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح له أن تكون له فلسفته الخاصة بوجوده . فهل يمكن لحضارته أن تعود الى اشراقها من جديد فتنقذ الانسانية من هوة الفوضوية وتقشع عنها السحب الداكنة والاعاصير المقلقة ، وتزيل الاصفاد والقيود المحيطة بكل تقدم ، والمعرقلة للنهوض ، وتعيد للعالم الانساني السلام الحقيقي والحق والعدل والنور والامن والاطمئنان ؟ .

ان تعاليم الاسلام الغراء صالحة لكل زمان ومكان؛وفى الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفيل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ، ولكن **ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم** ومجدهم والتمسك باسس القيم والاخلاق الاسلامية . والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابضة بالسمو ، المليئة بالجذوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية ـ كما كانوا من قبل ـ اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التي حث الاسلام على الاخذ بها » .

وقال العلامة وامبرى : « ان روح نظام المسلمين هو الدين ، والذي احياهم هو الدين ، والذي يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتي « **ان الشرق الاسلامي هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور جديد فى حياته السياسية ،** وهو دور يمكن ان نسميه : دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية؛ وبما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذي تركه لهم اجدادهم » .

والدكتور سميث أستاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو يرى : « انه لو امكن اثارة التماسك الاسلامي فى سبيل أغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية لأمكن أن تصير **هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم** » .

وكلام أولئك الافذاذ من ائمة البحث وكوكبة الاستشراق قد يكون انصافا ولمرضاة العلم فى ذاته بعيدا عن السطحية والاغراض التعصبية .

وقد يكون بمثابة التحذير لاقوام اوربا الحاقدة على الاسلام والمسلمين . ليعرف الاوربيون أن المسلمين اذا اجتمعت كلمتهم فى ظل العمل بالاسلام . كان ذلك خطرا على الاستعمار والاستعباد والظلم .

وعلى اي حال وسواء كان هذا أو ذاك فان العالم العربي والاسلامي لا ينهض الا برسالته التي وكلها اليه رسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام والايمان بها والاستماتة فى سبيلها ، وهي رسالة مشرقة قوية واضحة لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ، ولا أفضل ، ولا أيمن للبشرية منها .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون فى فتوحاتهم الاولى ، والتي بلغوا بها ذروة ما قدر لهم من سؤدد ومجد وسلطان .

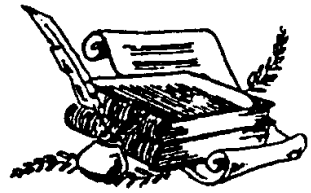

مستقبل العربية مرتبط بمستقبل الإسلام

للأستاذ علي راضي أبو زريق

القاهرة ـ مدينة البعوث الاسلامية

لا شك ان اللغة العربية عند نزول القرآن كانت قد وصلت قمة ما يمكن أن تصل اليه لغة .

وكان نضج اللغة العربية يتمثل فى طرفين:

اولهما : اللغة نفسها بما فى حروفها ومخارج اصواتها من كفاية للتعبير عن اي صوت قد يحتاجه الانسان ، وابرز دليل على هذا تسميتها بالضاد ، وذلك لامتيازها بهذا الصوت (الضاد) عن غيرها من لغات الارض ، ثم بما فى تعبيراتها من كفاية لجوانب الحياة وقد ظهر هذا واضحا فى القرآن الذي نزل بلسان عربي وشمل كل اصول الحياة ونواحيها (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) ثم بما اتسعت له العربية فيما بعد من مستحدثات الحضارة وما نقل اليها من افكار وفلسفات لم تكن فيها اصلا .

وثانيهما : الناطقون بهذه اللغة ، فقد عملت الطبيعة على اعدادهم اعدادا خاصا جعلهم اهل لغة ولسان قبل كل شيء وذلك بما هياته لهم الطبيعة من ضيق فى العيش وفراغ فى الوقت ، فضيق العيش منع القوم من الاتجاه الى الدنيا والاهتمام بأمورها المادية . وفراغ الوقت تعاون مع ضيق مجالات الحياة ليوجه القوم الى القيم الجمالية ، ودور اللغة فى هذا لا يخفى على أحد .

ومع هذا فان اللغة العربية وقت نزول القرآن لا يمكن أن نسميها لغة الا من باب المجاز ، فالفوارق واسعة وواضحة بين لهجات القبائل المتعددة ، فكان ابن القبيلة المعينة لا يفهم لهجة القبيلة الاخرى ، وعدا عن اللهجات الكثيرة المتباينة كالطمطمانية والكشكشة ولغة اليمن ولهجة قريش ، هذه اللهجات التي يذكرها لنا تاريخ الادب العربي تفصيلا ، فقد ذكرت لنا كتب السيرة وقائع صادقة منها مثلا ان وفدا يمانيا كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نوى الوفد سفرا فسألوا رسول الله بلهجتهم (هل من امبر امصيام فى امسفر) فاجاب رسول الله (ليس من امبر امصيام فى امسفر) فكيف بالله يفهم القرشي معنى هذا الكلام . اما رسول الله فعندما سئل عن معرفته لهذه اللهجات اجاب (علمني ربي فاحسن تعليمي).

ويحكي لنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، انه سمع مرة احد المسلمين غير القرشيين يقرأ كلاما في الصلاة لم يفهم منه عمر شيئا ولا سمعه من رسول الله ، فهم بقتل الرجل ، ثم انتظر حتى اتم الرجل صلاته فامسكه عمر من ثيابه وسار به الى رسول الله واخبر الرسول بالخبر ، فامر الرسول الرجل بأن يقرأ فقرأ فقال الرسول (هكذا نزلت) ثم امر عمر بأن يقرأ نفس السورة فقراها فقال رسول الله (هكذا نزلت) فعجب عمر والمسلمون فقال رسول الله (ان هذا القرآن نزل على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منها).

ولنرجع قليلا الى الوراء وننس نزول القرءان ونقف أو نتقدم قليلا متجاهلين الحادث العظيم ولنطرح على انفسنا هذا السؤال : هل كان هناك اي داع لتوحيد العربية لو لم ينزل القرآن ، بل هل كان يمكن ان تقترب اللهجات العربية من بعضها لو لم يكن كتاب الله ؟ واظن ان العقل والتاريخ يجيبان بصوت واحد لا والف لا ، ففي اوربا كانت اللغة اللاتينية لغة الدولة والادب والفن ، ولم تنقض فترة من الزمن طويلة حتى اصبح لكل اقليم من اقاليم اوربا لغة قومية خاصة لا تربطها بلغات الاقاليم الاخرى اية صلة ، فهل كان يمكن ان يكون مصير العربية افضل من هذا المصير او حتى مثله ؟ لا اظن ذلك فان العرب كانوا اكثر تفككا

وتباعدا من أوربا ، فقد كان للاخيرة دولة واحدة بينما كانت الامة العربية قبائل لا يربطها الا حد السيف أو سنان الرمح .

واضح اذن أن القرآن هو السبب الاول والاخير فى توحيد لهجات اللغة العربية وجعلها لغة واحدة .

والقرآن قام بهذا الدور بما فهمه المسلمون الاوائل عنه انه دستور الحياة والدولة ومصدر القوانين والسلطات وكتاب العقيدة ومنهاج العبادة ومنظم الاخلاق . فالدولة لا تكون شرعية اذا اهملت آية واحدة منه ، وكل انسان فى الدولة مسؤول عن تطبيق القانون والمحافظة عليه بل المطالبة بتنفيذه بأمانة اذا لزم الامر ذلك . وهو كما قلنا كتاب عبادة يرجع اليه فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة المسلم ، ولا تقبل صلاته، التي يمارسها خمس مرات يوميا ، الا بتلاوة آيات منه ، كما أن قراءته فى ذاتها عبادة يؤجر الله عليها .

وليس هذا فحسب ، فالقرآن كلام الله لا يمكن ترجمته وتبديله وذلك لان طبيعة المعجزة القرآنية لا تتم الا اذا بقي على حاله ، فاعجازه فى بلاغته ، وبلاغته مرتبطة باللسان العربي ، وهذا هو الذي رفع مكانة اللغة العربية فاصبحت مقصدا بعد أن كانت وسيلة تفاهم ككل لغات الارض ، فدراسة اللغة العربية بدقة وعمق ، ودراسة اساليب الجمال العربية اصبحت الوسيلة السليمة الفعالة لفهم القرآن الكريم الذي ذكرنا اهميته فى حياة المسلم الخاصة والعامة .

ونخرج من هذا بنتيجتين هما :

1 ـ أن القرآن اعطى اللغة العربية معنى اكثر من كونها لغة .

2 ـ أن اللهجات العربية توحدت عندما وجدت الحاجة لذلك .

اذن لابد من حاجة وضرورة لتوحيد اللهجات لا للغة العربية فحسب ولكن لاية لغة .

وبما أن اللغة شيء يستعمله كل الناس المثقف وغير المثقف والامي والمتعلم بنفس النسبة ولنفس الغرض ، فلا بد ان يكون الداعي لتوحيد لهجات لغة ما **امر عظيم يدفع الناس** من اعماقهم ولداخل نفوسهم ، **ولا يجذبهم جذبا** ولا اظن ان امرا ما يستطيع ان يجذب الناس لتوحيد لهجاتهم (مهما عظم) ، لان الناس مهما كانت معادنهم قوية فانهم دائما يميلون الى الاسهل ، والاسهل هنا ، هو ما شب عليه اللسان ، وهذه حقيقة تؤكدها تواريخ لغات الارض جميعا ، اذ كانت دائما تميل للتعدد والتباعد والتباين فيما بينها.

والآن والامة العربية تعيش ظروفا تشبه ظروفها قبل الاسلام ، نستطيع أن نقول انه لا يمكن للهجات العربية الموجودة حاليا أن تلغى ، ولا بد للعاميات من أن تستفحل وتدخل خضم الادب لتسهل على الشعوب العربية فهم أدبائها ، خاصة وانه لا توجد ضرورة لتوحيد اللهجات العربية ، فالنظم السياسية مختلفة والعقائد مشتتة واكثرها مستورد من امم اخرى ، فليست العربية بذات بال فى هذا الصراع ، بل ان السياسي العربي مضطر لاستعمال كلمات واصطلاحات لا تمت لتاريخ هذه الامة بصلة ، ذلك لان دعوته السياسية تكونت فى ظلال لغة اخرى بعيدة عن العربية.

واعتقد بهذا ، اننا نكون قد وصلنا الى نتيجة حاسمة وهي أن مشاكل اللغة العربية ليست مشاكل فنية بقدر ما هي مشاكل سياسية وفكرية ، وهذا بالطبع ينطبق على المشكلة العربية الاولى وهي اللهجات العامية .

وبالتالي نستطيع ان نقول ان اللغة العربية لن تأخذ طابعها المميز ولهجتها الفصحى الواحدة ما لم تدع لذلك ضرورة ماسة تدفع الانسان العربي من داخله للتخلي عن لهجته السهلة ودراسة اللغة الفصحى ولا يمكن أن تكون هذه الضرورة غير القرآن ، اقول هذا بلا تحفظ ولا تحيز ، وذلك للآتي :

1 ـ لن ينزل قرآن آخر ، ولن يوجد كتاب له قداسة القرآن واهميته ، اذ انه لا انبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

2 ـ المباديء المستوردة لا تحتاج للغة العربية بل ستكون سببا فى انهيارها .

3 ـ مجرد الدعوة للوحدة العربية وبثها فى نفوس العرب على اي اساس كان غير الاسلام لايدعو اطلاقا لتوحيد اللهجات العربية ، ولا يمكن ان يكون دافعا للتخلي عن اللهجات المحلية.

فعندما نعود الى القرآن وندخله كل جوانب حياتنا وعلى كل المستويات ، عندها فقط ، تصبح اللغة العربية الواحدة ضرورة وواقعا ويقبل عليها كل العرب بل وغير العرب من المسلمين ، لان اللغة العربية الواحدة تصبح فى ذلك الحين لا مجرد لغة بل جزءا اساسيا فى الاسلام .

ونحن لا نريد العودة الى القرآن من اجل العربية (بالطبع) ولكن نعود اليه عندما نتيقن انه الطريق الوحيد لخلاصنا .

الرافعي وراية القرآن

« ان هذه العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالدا عليها فلا تهرم ولا تموت لانها أعدت من هذا الازل فاكا دائرا للنيرين الارضيين العظيمين كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذة السحر لا يملك معها البليغ أن يأخذ ويدع » .

(تحت راية القرءان للرافعي ص 9)

« انما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ والتاريخ صفة الامة . والامة تكاد تكون صفة لغتها لانها خاصتها الطبيعية التي لا تنفك عنها ولا قوام لها بغيرها فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الامة واتصال الامة بها وجدتها الصفة الثابتة التى لا تزول الا بزوال الجنسية وانسلاخ الامة من تاريخها واشتمالها جلدة امة اخرى » .

(ص 46)

« انما القرءان جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما حتى يأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط ولولا هذه العربية التي حفظها القرءان على الناس وردهم اليها واوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الايام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقامت » .

(ص 57)

« فانك لتجد المسلمين يختلفون فى كل شيء حتى فى الدين نفسه ولا تجدهم الا شعورا واحدا بالروح الدينية العربية التي مساكها الكتاب والسنة فى عربيتهما الفصيحة وهي لاسبيل الى التغيير أو التبديل فيها » .

« ولن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين الا وجدت له مثلها فى اللغة وان كنا لا نقول بالعكس » .

(ص 62 و 63)

« فبقاء القرءان على وجهه العربي ، مما يجعل المسلمين جميعا على اختلاف الوانهم من الاسود الى الاحمر كأنهم فى الاعتبار الاجتماعي وفي اعتبار انفسهم جسم واحد ينطق لغة التاريخ بلسان واحد » . . . الخ .

« وان اعجب ما يروعنا من الجنسية العربية فى القرءان انها تابى الا ان تحفظ على اهلها تلك الصفات العربية من الانفة والعزة والصوت والقلب . وما يكون من هذا الباب الاجتماعي الذي لايزال يمنح للشعوب من مقاصير الارض » .

(اعجاز القرءان ص 93 و 94)

خلود العربية وعالميتها كلغة للقرآن

للأستاذ بهاء الدين الأميري

(الـربـاط)

العلاقة بين الاسلام واللغة العربية قائمة ومتينة واصيلة الى درجة تكاد تجعل الامر بعيدا عن أن يكون موضوع تساؤل ، ومن الواضح ان اللغة العربية قد استفادت من الاسلام مزيتها الكبرى فى البقاء غير متأثرة بما تتأثر به لغات العالم اجمع من تبدل يقطع عبر القرون آخر تراثها عن أوله .

هذا فضلا عن استفادة العربية من الاسلام في جوانب اخرى حضارية واجتماعية وفيلولوجية . فقد استتبع انتشار الاسلام انتشار العربية تلقائيا وادى قيام الحضارة الاسلامية الى استجابة اللغة العربية لسائر اغراض هاته الحضارة فى الثقافة والاجتماع وفقه اللغة .

وقد كان شرع الله الذي انزله قرءانا عربيا وكان حفظ القرءان فى ذاته ولغته وكل ما يتعلق به من قبل الله سبحانه وتعالى بحيث لم تستطع العصور الطويلة والمؤامرات العنيدة والاحداث الجسام ان تنقص منه آية او تزيد فيه رواية ، وكانت الصلاة لا تتم الا بالقرءان العربي ، وهي عماد الدين ، وكان الاسلام داعيا دائما الى الفهم والنظر والادراك ، فقد تأتى من كل ذلك ان يكون لكل مسلم مهما كانت قوميته النصيب الكافي من الثقافة القرءانية وبالتالي من الاطلاع العربي .

لقد اختار الله بحكمه وعلمه الاسلام دينا للانسانية جمعاء ، ومر به فى مراحل من التكامل تتلاءم مع المستويات البشرية المتلاحقة ، فكان يبعث به الانبياء والمرسلين الى أقوامهم وبيئاتهم بالشكل الذي يلائمها، حتى اذا بلغت الانسانية بعلم الله وحكمه مبلغا من طاقة الجدارة المختزنة ، وحازت قسطا من قابلية الاشعاع المبدع ، شاءت ارادة الله ان يتوقف ركب النبوة والرسالات عند محمد صلى الله عليه وسلم فبعثه جلت قدرته خاتما للانبياء والمرسلين ، واخذ الاسلام منذ ذلك الحين صفة جديدة فاصبحت له علمية خاصة وعالمية ممتدة ، وكان من انساق النواميس الالاهية وفق مقتضيات هذه العالمية ان تكون للاسلام لغة تمتد بامتداده وتخلد لخلوده وتستوعب حاجاته الحضارية فى سائر مرافق الحياة ، وهكذا جاء التلازم بين خلود الاسلام وخلود اللغة العربية .

وغني عن القول ان احكام الله جل وعلا منزهة عن الاعتباط ، فكما ان الله اعلم حيث يجعل رسالته وانه منزه عن عدم استيعاب الجدارة من كل اطرافها حين يجعل الرسالة هنا او هناك ، فكذلك الشأن في اللغة العربية التي هي لغة هاته الرسالة ، فان اختيارها كذلك منزه عن الاعتباط ، وقائم على اساس متين من جدارتها وقابليتها للنهوض بحق هذه الرسالة الخالدة نهوضا تام الكفاءة ، كامل الاستيعاب .

واما التساؤل عن انه لو لم تكن العربية لغة القرءان ، هل كان الاسلام ينتشر كما انتشر فانه من قبيل الجدل الفلسفي لان الواقع قد قام على غير ذلك على انه مما لا شك فيه ان الله لو اختار للاسلام العالمي لغة غير العربية تكون لغة قرءانه لاختارها بشكل تؤدي فيه مهمتها على النمط الذي ادته العربية لما اختارها لذلك ، فالاسلام هو الاصل والله هو الحكيم العليم القدير الجدير ، فهو اعلم بدينه وبما يحف به هذا الدين .

واننا لنلمس بوضوح وجلاء تلازما فى فترات الازدهار والانحسار الحضاريين بين الاسلام والعربية، كما نجد كل الذين حاولوا او يحاولون النيل من الاسلام او التصدي لحربه ان ينالوا من العربية ويتعمدوا لحربها ، والحديث هنا مبسوط الجوانب ، طويل التاريخ ، لا يتسع له استجواب مرتجل كهذا ، ولعلنا نستطيع فى المستقبل ان نكتب فى بعض جوانبه ، فحسبنا الآن ما تقدم ، وشكرا لمكتب تنسيق التعريب ولرجاله المخلصين جهادهم ، والله غالب على امره .

نفحات الإسلام

اكتسبت العربية مرونة خلاقة وأصبحت لغة ثقافة وحضارة

للأستاذ محمد زنيبر

استاذ في كلية الآداب (الرباط)

ان المسألة التي تطرحونها فى استفتائكم واضحة سهلة ، لا تضع اي مشكلة فى الجواب . ولست اعتقد أن هنالك من يجادل فى كون اللغة العربية مدينة بانتشارها فى العالم وبالاهمية التي ادركتها فى التاريخ للقرءان . وبلغ من اهمية اللغة العربية فى أول الاسلام ان عددا من اللغات الحضارية بالشرق والغرب انمحى امامها ، اما بصورة نهائية او لمدة طويلة . فقد انقرضت اللغة اللاتينية بافريقيا الشمالية . وهنالك لغات اخرى مثل السريانية والآرامية والنبطية والقبطية انزوت فى بعض الاوساط الخاصة الضيقة ولم يعد لها ذكر . اما الفارسية ، فقد تخلت لمدة قرون عن دعواها كلغة ثقافية ، وغدا العلماء والمثقفون والمفكرون الفارسيون لا يستغنون عن العربية كلما ارادوا ان يكتبوا او يؤلفوا او ينظموا الشعر ، وكان اعظم شرف وفخر لهؤلاء الفارسيين هو أن يبرهنوا عن تفوقهم فى الكتابة باللغة العربية ، وكانوا بالفعل اول من خدم هذه اللغة . ولنذكر هنا ، على سبيل المثال ، المكانة التي ادركها بعض الفارسيين ككتاب فى العربية مثل الزمخشري ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وابى بكر الخوارزمي، والجرجاني . ولم تسترجع اللغة الفارسية مكانتها الا رويدا رويدا تحت عامل اليقظة القومية ، من جهة ، وانحلال الوحدة الاسلامية التي كانت تتمثل فى دولة الخلافة العباسية ، من جهة اخرى . على ان اللغة العربية طبعت اللغة الفارسية الحديثة بطابع نهائي .

فهل ادركت العربية هذا الانتشار ، وهاته الاهمية لمزايا لغوية تختص بها ولا توجد فى لغة اخرى؟ هذا ليس بصحيح . فاللغة العربية اذا نظرنا اليها من وجهة علمية بحت لا تتفوق على اللغات الاخرى فى شيء، بل اننا اذا نظرنا الى وضعها فى اول البعثة الاسلامية ، نجدها متأخرة من حيث المرونة والملكة التعبيرية بالنسبة للغات حضارية معاصرة كاليونانية واللاتينية. وهذا امر طبيعي ومعقول لانها كانت لغة بدو يعيشون فى الصحراء وينتمون الى مجتمع بسيط التركيب لا تتجاوز حاجياته الاوليات الاساسية فى العيش . نعم **اكتسبت اللغة العربية مرونة فيما بعد واصبحت لغة ثقافة وحضارة** ؛ ولكن ذلك تطلب زمنا ليس بالقليل .

والذي بوا اللغة العربية المكانة الممتازة هو القرءان ، هو الدين . فقد اصبحت العربية مقدسة لانها لغة الكتاب المقدس . واصبح واجبا على المسلم أن يعرفها ولو بصورة مجملة ليستطيع اداء بعض الشعائر الدينية . وهكذا اقبل عدد من أبناء الشعوب المفتوحة على اللغة العربية . وما اهل القرن الهجري الثاني حتى اصبحت لغة ثقافة وكتابة . فالعلماء والمحدثون والقصاص يقرئون بها الجمهور فى مساجد المدينة والبصرة والكوفة . والكتاب من امثال عبد الحميد وابن المقفع يوسعون نفسها ويلينون قناتها لتستجيب لضرورات الحضارة الاسلامية الناشئة . وقطعت العربية اشواطا كبيرة وادركت درجة التفوق، فاكتسبت الى جانب مزاياها كلغة دينية مقدسة ، مزايا اخرى ترجع الى ذاتيتها ودورها الاساسي كلغة امبراطورية عظيمة تلج الحضارة من كل الابواب ، وهكذا فرضت وجودها فى العصر الوسيط ، ولم يقتصر نفوذها على المسلمين وحدهم ، بل انها انتزعت اعجاب طوائف غير مسلمة ، كما نرى فى مثال

المسيحيين بالاندلس الذين كانوا يثيرون سخط القساوسة لاقبالهم الشديد على اللغة العربية .

ومع ذلك ، **فالفضل في انتشارها بآسيا وافريقيا يرجع قبل كل شيء الى القرءان** . فنحن نعرف من التجربة التاريخية التي عاشتها الانسانية الى اليوم انه لا يكفي ان تكون اللغة جميلة متطورة مرنة راقية لتعرف الانتشار . فهذه اللغة اليونانية وهي ما هي في تاريخ العلم والحضارة لم تتجاوز حدود بلادها ، اللهم الا ما كان من الاوساط العلمية التي ظلت تهتم بها في اروبا لانها مصدر غنى من مصادر الاشتقاق والنحت في ميدان ابتكار المصطلحات العلمية الجديدة . وهذه اللغة الفرنسية التي رغم تفوقها وجمالها ومزاياها لم تحظ بالذيوع الذي حظيت به اللغة الاسبانية ، مثلا . وكل هذا يدل على انه ليست هنالك علاقة بين انتشار اللغة ودرجة تفوقها ورقيها . بل هنالك عوامل تاريخية عاطفية هي التي ميزت بعض اللغات في العالم وجعلتها محظوظة نوعا ما .

وفي مثال اللغة العربية لا شك ان هذا العامل التاريخي العاطفي هو القرءان والدين . هذا فيما يخص الماضي ، طبعا . اما في الزمن الراهن ، فقد انضاف الى **العامل الديني** عامل آخر هو **العامل القومي** . فقد دخلت الشعوب العربية منذ القرن التاسع عشر في عهد جديد من تاريخها فاستيقظت من سبات القرون الوسطى وتحررت من السيطرة الاجنبية ، سيطرة الاتراك العثمانيين الذين كانوا يستعبدونها باسم الدين والاخاء الاسلامي ، وسيطرة الغزاة الاوربيين الذين جاءوا في حملاتهم المتوالية لاستعمار العالم . وشعرت الشعوب العربية المختلفة وهي في غمرة المعركة التحريرية ان هنالك روابط قوية تجمع فيما بينها برباط وثيق . واهمها هي رابطة الثقافة والفكر التي تتمثل في اللغة العربية التي عاصرت الاجيال والقرون وعبرت الاحقاب والعصور وهي صامدة تمثل استمرار نوع من الثقافة والفكر والحضارة . وقد اصبحت اليوم من اقدم اللغات واعرقها . وكل هذه اسباب وجيهة جعلت الشعوب العربية الناهضة اليوم تتشبث بهذه الشجرة العميقة الجذور ، الباسقة الفروع التي تحدت الزمن بشبابها المتجدد . وهذا العامل القومي هو الذي جعل اخواننا العرب المسيحيين في البلاد العربية لا يقلون اسهاما عن العرب المسلمين في خدمة لغتهم ونشرها .

انتشار اللغة العربية كان :
نتيجة حتمية للفتوح الاسلامية

للأستاذ إبراهيم حركات
الربـــاط

1) ان انتشار اللغة العربية نتيجة حتمية للفتوح الاسلامية ونشر الاسلام . ولكن ينبغي أن ندخل فى الاعتبار . 1) استعمال اللغة العربية كلغة للكتابة وقراءة القرآن . 2) انتشار العربية كلغة علم وثقافة .

فبالنسبة للنقطة الاولى سادت العربية كلغة لتدريس القرآن وكخط تكتب به لغة اخرى كما في الباكستان وتركيا (قبل عهد مصطفى كمال) .

وبالنسبة للعربية كلغة علم وثقافة فقد تمكنت من فرض نفسها فى جميع الشعوب التي فتحت لها صدرها . وانما حدث ذلك طبعا عن طريق الفتوح ودخول عدد من الشعوب طواعية فى الاسلام بواسطة الدعوة ، ولولا الاسلام لبقيت العربية كصورة فى نطاقها الضيق ، ولولا ان لغة القرآن هي العربية ، لما وجد الاسلام ايضا انصارا كثيرين .

والسبب بسيط وهو **ان تعاليم الاسلام انما كان مصدرها الرئيسي هو القرآن** وحيث انه نزل بالعربية فقد تحتم على كل من اقبل فى الماضي على الاسلام ان يدرس العربية ليحفظ القرآن ويفهمه ، وليس الامر كذلك فى الانجيل والتوراة اللذين حرفا وكانا فى معظمهما من أسلوب اشخاص متأخرين عن عيسى وموسى عليهما السلام .

ولا جدال فى ان المسيحية لم تنتشر اكثر من الاسلام الا عن طريق الاستعمار أولا ، ثم بواسطة التبشير ثانيا ، ولا يسمح المقام مع الاسف بأكثر من هذه الاشارة حول المقارنة بين انتشار الاسلام والمسيحية .

2) مبدئيا ، ليس من الضروري ابدا أن يكون لمجموعة من الشعوب والدول التي تعتنق نفس الديانة لغة واحدة ، ولو أن وحدة اللغة بالنسبة لهذه المجموعة تزيد فى تقوية روابطها فى جميع المجالات : فى الثقافة والاقتصاد والتعارف الانساني الخ ..

فنحن نرى مثلا ان المسيحية تشكل مجموعة من الاجناس والشعوب فى كل قارات العالم وليس بينها اية وحدة لغوية ، والبوذية تنتشر فى بضع دول من الشرق الاقصى وليس بينها اية روابط لغوية .

غير أن الاسلام يمتاز بميزة اجمع عليها كل الذين درسوا بشيء من التعمق ، القرآن الكريم الا وهي أن الكتاب المقدس يجمع بين التوجيه الروحي والعملي فى الحياة . وبالتالي فالاسلام دين سياسي وحضاري وروحي ، ولكي يعرف الاسلام على حقيقته ويهتدى بهدي أعلامه وأئمته لابد من الاطلاع العميق المباشر على علومه الخاصة من فقه واصول وقراءات وما الى ذلك ، **وهذه العلوم لغتها هي العربية ، وليس لغير الاسلام من الديانات السماوية هذه العلوم** . وكل هذه المواد يجب ان تأخذ طريقها جنبا لجنب مع علوم الفضاء والذرة وسائر العلوم البحت ، بقدر يتدرج على مختلف مراحل التعليم ، مع اعادة النظر فى مضمونها وطرق تبليغها ، ولو كانت العربية اللغة الاولى لنشر الوعي الاسلامي بين دول الاسلام لكان الوعي الديني اقوى واعمق مما هو الآن ، حيث يدخل الى دين الاسلام عدد من الاجانب ، واكثرهم لا يعرف عنه الا الشكليات ، لانه يجهل لغته الاساسية . ويستحيل ان تخوض أسرار هذا الدين على نطاق شامل لغة غير العربية .

والمغرب نفسه كدولة اسلامية قد تقهقر فيه الوعي الديني لاسباب كثيرة ، منها أن اغلب الذين انيط بهم نشر هذا الوعي بقوا دون المستوى علما بلغتهم ، كما لم تتجدد الطرق ولا الاساليب فى اقرار الوعي الاسلامي على جميع المستويات ، خصوصا في المعاهد والمؤسسات التعليمية ، ومن جهة اخرى فمعرفة العربية وحدها لا تكفي فى تغيير نظرة الشباب الصاعد الى الاسلام والتوجيه الديني بوجه عام ، ومن ثم فالذي يناط به التوجيه الديني ونشر الوعي فى نطاق اللغة العربية ، يجب :

1) ان يتقن لغة القرآن وعلومه .

2) ان يتوفر على ثقافة عامة ولو بنصيب محدود.

3) ان يحيط علما بمضمون تاريخ الديانات السماوية الاخرى عن طريق لغة اجنبية أو اكثر .

4) ان يتتبع عن كثب ، اهم ما يقال عن الاسلام ويحاول الربط بين العلم والدين من غير تعصب .

فكم لدينا فى المغرب والعالم الاسلامي من مثل هذا النموذج للدعوة الاسلامية ؟

3) اما معرفة مدى تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن فى اللهجات واللغات الاقليمية فى الاقطار الاسلامية أو لدى الجاليات الاسلامية ، فهو موضوع لبحث واسع يحتاج الى تضافر الهيئات والمنظمات المجمعية التي لم تقم بعد بمثل هذه الدراسة المركزة فى ميدان اللهجات المقارنة ، فالجواب الفردي والحالة هذه ، بمجرد حكم عام ، ربما كان سابقا لاوانه ، ومع ذلك فالسؤال وجيه يلفت النظر الى موضوع لم يكد يهتدى اليه احد . مهما كان الامر فقد حملت العربية الى كل الاقطار الاسلامية كميات كبيرة من المصطلحات اكتسحت لغات أخرى كان لها ارتكاز أعظم من قبل كالفارسية والتركية ، كما دخلت الى اقطار غير اسلامية كايطاليا واسبانيا المسيحية ، وتوزعت مجموعة من مصطلحاتها لغات أخرى كالفرنسية والانجليزية والبرتغالية ، وكانت هذه المصطلحات فى ميدان الفلسفة والشريعة والفلاحة ومظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، غير أن الاقطار الاسلامية ذات اللغة غير العربية اخذت بنصيب اكبر كفارس وافغانستان ، وكذلك الشأن عند الجاليات الاسلامية كما فى الهند وروسيا ويوغوسلافيا .

واذا تحدثنا عن مدى تأثير اللهجات الاقليمية نفسها فى اللغة العربية الدارجة فالامثلة تحتاج الى دراسة واسعة ولنأخذ مثال المغرب ، فاللهجة الاصلية به هي البربرية وهي بدورها تشكل عدة لهجات وقد كان التفاعل قائما بين هذه اللهجات اقوى واشمل، وللتأكد من ذلك يكفي الاستماع الى أي حديث يجري بالبربرية والعربية المتداولة ، ولكن لا جدال فى تأثير العربية نفسه فى هذه اللهجات ، وللمستشرقين في ميدان اللهجات البربرية من الدراسات ما يؤكد ذلك (دراسات روني باسي) و (كولان ووليام مارسي وفيليب مارسي وغيرهم) .

4) اما فى هذه المكانة التي يجب أن تحتلها العربية بالنسبة للغات الاجنبية ، فيجب طبعا **أن يكون للعربية المكانة الاولى حتى فى الميدان العلمي** ، ولكن يجب الاهتمام بتوحيد المصطلحات انطلاقا من الجهد الطيب الذي تبذله الجامعة العربية عن طريق المكتب الدائم للتعريب ، غير انه يلزم أن لا تكون العربية وحدها ، بل يجب دراسة اكبر قدر ممكن من اللغات التي توسع هي نفسها آفاق العلوم النظرية والتطبيقية .

العروبة مدينة للإسلام الذي فجر طاقات العرب في بوتقة إنسانية

للأستاذ الحسن السائح

رئيس مصلحة التعليم الاسلامي
(الربـــاط)

العروبة لم تعرف قبل الاسلام الا بمفهوم ما تعطيه الصحراء للحرية من ابعاد وللعواطف من مشاعر ، وللاخلاق من عوائد واعراف ، ولكن الاسلام اعطى للعروبة قيمة لغوية قبل كل شيء حيث كان القرءان كتاب العربية الاكبر ، فحملت اللغة العربية الاسلام ثم شارك فى اغنائها واثرائها كل الذين دخلوا الاسلام ، ولذلك لم تكن العروبة ذات نزعة قومية عرقية او انتربولوجية ، وانما كانت العروبة صاحبة الفضل فى فهم الدعوة وتبليغها ، كما كانت فرنسا ذات فضل فى نقل معاني الثورة الفرنسية ، وكما كانت الروسيا ذات فضل فى حماية الماركسية ، ولذلك فالعروبة اعتزت بالاسلام ،ولم تضق به فى اي ظرف من ظروفها ، بل اعزها واعانها ، وكانت عبقريته وفلسفته التجديدية اعظم محرك للعروبة ومجدد لها ايضا في مختلف الظروف ، ولم تكن العروبة فى ظل الاسلام متعصبة ولا طائفية ، بل نعرف ان كثيرا من الشعراء كالاخطل وآخرين من بني تغلب ظلوا على نصرانيتهم وظل الشاعر العربي المسلم يردد :

فقومى وان كانوا نصارى احبهم
(ويشتاق قلبي نحوهم ويذوب ؟)

اما الاسلام فلم يضق بالعروبة كجنس ، بل ان الرسول عليه السلام يقول : « من تكلم العربية فهو عربي » ، كما لم يضق بالبربرية ولا بالطورانية ولا بالكردية او غير ذلك من اللهجات ، لانه يحارب اللوثية والعرقية ولا يقرهما .

ولم يضق بالاديان الالهية ، بل اقرها واصلح ثقافتها ونماها وحرسها ، واستفادت منه المسيحية واليهودية لانه خاتم الاديان ، جاء بعد الموسوية والمسيحية فهو يعترف بهما رغم ان معتنقيهما لا يعترفون برسالة النبي عليه السلام .

ولذلك فالعروبة المسلمة لا تتضايق بالاقليات الطائفية فهي تعترف بها وتساندها .

والعروبة المسلمة ليست عنصرية ولا طائفية وانما هدفها تحقيق الوحدة الانسانية ضمن المثل العليا والعدالة الاجتماعية وتطوير العمل البشري لاثراء الحضارة .

ونحن فى المغرب كانت ارضنا ارض البربر ذوي الاصل الحميري العربي فى نظر اغلب المؤرخين ، واستفدنا من الحضارة البونيقية الشرقية الممثلة في التراث الفينيقي والقرطاجي ، ثم جاء الاسلام فلم يشعر المغاربة بازدواجية الشخصية ولا الفروق العرقية ، وانما امتزجوا امتزاجا جديدا على اساس وحدة المجتمع ، واستعرب البربر فى عدة اقاليم ، كما تبربر العرب فى بعض النواحي غير شاعرين بالتفرقة اللغوية ما دامت الوحدة العقائدية تلاحم بين المتساكنين في المغرب .

واذن فالعروبة مدينة للاسلام والاسلام ليس مدينا للعروبة . ساعد الاسلام على اثرائها وحملته وهي فخور به .

اللغة العربية مرآة تنعكس عليها قيم الاسلام

للأستاذ محمد عبد المالك الكتاني

(فـــاس)

يبدو لاول وهلة ان العلاقة التي يمكن ان تقوم بين الدين واللغة لا تعدو ان تكون علاقة عادية كالتي تكون بين كل الافكار او الحركات الفكرية التي تظهر فى بيئة من البيئات وبين لغة تلك البيئة . وقد يكتب لتلك الافكار او الحركات من الانتشار خارج اللغة التي نبعت فيها اكثر مما يتحقق لها من الانتشار بلغتها الاصلية كعموم الافكار الفلسفية والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية . ولكن المتمعن فى العلاقة القائمة بين الاسلام واللغة العربية يجدها تتجاوز هذا الحد بحيث تصبح **اللغة العربية هي المرآة التي تنعكس فيها قيم الاسلام** وتعاليمه وثقافته وحضارته وتتصل بها اتصال الشمس بشعاعها ، والمرآة بمنعكساتها ولا يلبث الاسلام ان ينتشر خارج الجزيرة العربية فلا يدخل بلدا الا ويفرض على اهله عن اقتناع تلقائي تعاطي العربية والاندماج فيها وبالتالي التخلي عن اللغة المحلية تدريجيا . هكذا **سار الاسلام وانتشار اللغة العربية جنبا الى جنب في البلاد المفتوحة .**

هذه الظاهرة الملحوظة فى تاريخ الاسلام وانتشار اللغة العربية معه تؤكد التلازم القائم بينهما . فقد فتح المسلمون بلاد فارس وما وراءها فنشروا فيها تعاليم الاسلام ولغة القرءان ، لانهما متلازمان ، كما فتحوا مصر والشام وما وراء مصر غربا من اقطار الشمال الافريقي وبلاد اسبانيا، ونشروا فى هذه الاقطار جميعها اللغة العربية . ولا مجال للجدال فى ان هذه الاقطار كانت لها حضارتها المتفاوتة ولغاتها واصالاتها القومية، كما انه لا جدال فى انها ساهمت فى بناء الحضارة العربية الاسلامية وانماء الثقافة العربية لدرجة انها تناست او كادت لغاتها المحلية واندمجت اندماجا كليا فى كيان الامة العربية بعواطفها وثقافتها وتاريخها ، فاصبحت اليوم الامة العربية التي كانت محدودة في شبه الجزيرة العربية امة تستوعب اقطارا تمتد من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي يرجع الباحث الى تاريخها القديم فتختلف به مسارب التاريخ ما بين مجاري الحضارات الفرعونية والفنيقية والفارسية والقوطية والبربرية .

فلماذا كانت العلاقة بين اللغة العربية والدين الاسلامي بهذا القدر من التواشج والالتحام ؟ يرجع ذلك الى امرين :

الامر الاول أمر يعم اللغات الانسانية ، وهو سنتها او قانونها الذي لا يتغير ، وفحواه ان **اللغة هي الصورة التي تتجسد فيها قومية الامة وخصائصها الفكرية والوجدانية** ، اذ اللغة مؤسسة اجتماعية أو ظاهرة اجتماعية بهذا المعنى الذي يجعلها أمرا ضروريا لكل اجتماع بشري بالمعنى المألوف ، وبالمعنى الذي لا يتأتى لمجتمع ايجاد التواصل الانساني الا به ، ولا تثبيت قوالبه واشكاله الا بواسطته ، فكأنها الكيان

الاجتماعي الحقيقي للامة بكل ما يتسع لـه معنـاه او محتواه من مضامين اخرى كالتقاليد والقيم ومناحي التفكير والوان الميول والاذواق ، كل ذلك يتجسد في اللغة كما تتجسد قيم التبادل الاقتصادي فى قطع المسكوكات وأوراق العملة ، فضلا عن كونها تعكس طاقات ونزعات فى النفس لا تخفى على من يتاتى له ان يوازن بين اللغات على ضوء هذا الاعتبار .

والامر الثاني يهم هذه اللغة ولا يهم سواها ، وهو الدين الاسلامي ، فالدين الاسلامي بالنسبة للمجتمع المسلم هو البوتقة التي تنصهر فيها الشخصية المسلمة، وطابعه هو الطابع العام لحقيقة الجماعة الاسلامية كما كانت او كما ينبغي ان تكون . ولا عبرة هنا بما قد يرين على هذه النفسية المسلمة فى وقت من الاوقات من ادران تحجب عن عين الرائي واقع الشخصية الاسلامية هذا الدين الاسلامي كان بتاثيره العميق بالقدر الذي اشرنا اليه ، وذلك بفضل رسالته التي تلائم الفطر الانسانية ، وبفضل القرءان ذلك الكتاب السماوي المعجز الذي بلور تلك الحقائق كلها فى صيغته المعجزة التي نلحظ فيها معطيين :

المعطي الاول هو مضمونه الروحي الذي يتصل بالنفس ويهيمن على الفكر ويخاطب لطائف الانسان من روح وعقل وقلب ، ويسري فى كيانه سريان الشعاع فى اديم المرآة . وحسبك من ذلك ان **المسلم لا يخاطب فى صلاته خالقه الاعلى بلغة اشرف من لغة القرءان** ولا بتعبد يستقطب توجهات الروح والفكر وسبحاتهما اسمى من تعبير القرءان . لانه وحده افضل صيغة لخطاب الادنى للأعلى كما كان خير صيغة لخطاب الاعلى للادنى .

المعطي الثاني هو **اعجازه اللغوي** الذي ظل مناط الاحتجاج لنبوة الرسول عليه السلام وللحقيقة التي تقررها الآية : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين»

على ضوء هذا التقديم يمكن الاجابة عن الاسئلة المطروحة بكل يسر ، **فالعلاقة السببية بين الاسلام واللغة العربية علاقة وطيدة** ، اذ لولا **الاسلام لما كان لهذه اللغة ان تحل محل لغات عالمية فى العصر الوسيط، وتصبح لغة ازهى الآداب الانسانية فى عصر الاسلام الذهبي** . وما كان اغنى امم اللاتين والهند والفرس والسريان وغيرهم عن استبدال لغة العرب فى بعض حقب التاريخ بلغاتهم . **وهذه اللغة بدون الرسالة الاسلامية ليست سوى لغة امة شاعرة بلورت مشاعرها فى لغتها** ، وهذه ليست بالمزية التي تتغلب بها لغة على لغة ، اذ لكل امة من تلك المزية حظها الموفور بالقدر الذي يجعل كل امة تتعصب للغتها وتتعاطف معها دون غيرها . ولكن هذه العلاقة السببية لا تنعكس ، بمعنى انه **لا يصح القول بانه لولا اللغة العربية لما انتشر الاسلام** ، لان اللغات لا تنتشر لمزايا فنية خاصة بها ، فالمزايا صفات نسبية وحظوظ مشتركة يصبغها الانسان الاجتماعي على لغته ، وانما **تنتشر اللغات بالافكار الجديدة والاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية ونفوذها مما تشمله الحضارة .**

ولا نعتقد ان المغرب قد استعرب عبر تاريخه الاسلامي الا لما يكمن فى هذا الاستعراب من تحقيق تواصل مباشر بالاسلام واندماج مع الحاملين لرسالته وانصهار فى بوتقته بصورة تلقائية . والا لما كان له ان يؤثر لغة من اللغات على لغته المحلية ، وهو قد عرف دخول اللاتينية وانتشارها فى الشمال الافريقي وصيرورتها اللغة الرسمية والادبية وقبلها اللغة البونيقية فى فترة من فترات تاريخه ، ولكنه ظل بنجوة منهما الى ان **جاء الفتح الاسلامي واذا بالعربية تحمل ذلك الاشعاع الديني والحضاري** الذي لم يجد بدا من التاثر به والاندماج فيه . على انك لو ازلت من كل لغة عالمية عامل الغلبة السياسية او الاشعاع الحضاري او النفوذ الاقتصادي لبطل طابع العالمية فيها وانحصر تاثيرها ضمن بيئتها المحدودة .

وهذا التلاحم بين العربية والاسلام له دليل ثان هو الجواب نفسه عن السؤال الثاني ، وهو ان **الوعي الاسلامي والوازع الديني يقويان ويضعفان تبعا لما يعتري لغة الاسلام** الاولى من قوة وضعف فى البلاد الاسلامية الناطقة بها حتى ان المستعمر الذي استولى على هذه البلاد ورام ان يطمس معالم الاسلام في مجتمعاتها باعتباره قوة هذه المجتمعات لم **يفرق في نظره للاسلام بين الدين واللغة** ، فحاول ان يقضي على الوعي الاسلامي السليم بضرب حصار على اللغة العربية وثقافتها والتمكين لثقافته الاجنبية حتى ينسف بذلك القاعدة الاساسية التي تقوم عليها شخصية المجتمعات الاسلامية . والواقع انه استطاع ان يحقق من مؤامرته قسطا غير ضئيل فى هذا المضمار ، وذلك عندما زلزل ثقة الاجيال التي نشات فى حكمه بلغتها

الوطنية ، واقام جيلا من الناطقين بلغاته منفصلين عن ثقافتهم ودينهم ، وربما استخدمهم فى الاستخفاف بأصالتهم الوطنية وتراثهم الحضاري .

أما الشعوب الاسلامية غير العربية فلا يمكن تجريدها من روحها الدينية الاسلامية لمجرد انها ليست شعوبا عربية ، ولكن الذي نفترضه – مع اطلاعنا المحدود على لغاتها – انها **بدون العربية لا تستطيع التواصل بعمق مع الاسلام بالقدر الذي يتاح للعرب انفسهم** . فلو اتيح لها ان تستعرب لكانت اقوى تفاعلا مع الامة العربية واكثر تلاحما مع الكيان الاسلامي . وذلك ما يمكن التعبير عنه بالفراغ الديني الذي استغلته اللغات والثقافات الغربية غداة سيطرتها عليها فى جعلها تنتمي فى اتجاهاتها انتماءات اجنبية او تظل طافية على سطح الحياة الدولية تجرفها التيارات .

ومع ذلك **فالفكر الاسلامي فى تلك البلاد لم يكن له بد من التاثر بلغة القرءان** كما لم تخل تلك الشعوب بحكم روحها الدينية من تعلق بالعربية وايمان بعظمتها. بناء على ذلك كله نستخلص العبرة التالية وهي انه **لا نهضة صحيحة للامة الاسلامية الا بتحررها من التبعية اللغوية والثقافية والرجوع الى استجلاء اصالتها الحضارية والثقافية التي قامت على اساس الاسلام واللغة العربية .**

تلازم الإسلام واللغة العربية

للأستاذ عبد الجليل

فاس — باريز

(تجدون فى غير هذا المكان النص الاصلي بالفرنسية لهذه الكلمة)

ان انتشار اللغة العربية قد نتج لا محالة عن انتشار الاسلام الا ان هذه اللغة ما لبثت أن اصبحت بفضل من أسلم من فرس وغيرهم لغة عالمية للآداب والفلسفة والعلم وكان لها بعد ذلك ابلغ الاثر على الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى ولم يكن فى وسع اية نعرة سلالية لغوية او دينية أن تقضي على هذا الاشعاع الكوني سواء فى أوربا (بالنسبة للغة الطب والصيدلة والفلك) ولا فى الاقطار الاسلامية غير العربية .

ومما يلاحظ فى خصوص ارتباط العربية بالاسلام ان تقلص هذه اللغة فى اقطار اسلامية يثير مشاكل عقائدية مما يدعو الشباب الى الاخذ من العربية بنصيب لا يقل عن المامهم باللغات الاوربية والامريكية والا كانوا مسلمين جغرافية كما يقول الشيخ رشيد رضى فى مجلة « المنار » .

وقد تاثرت بلغة القرآن كل اللغات غير العربية التي اعتنق اهلها الاسلام فقد تم ذلك بالنسبة للفارسية التي انطبعت بمصطلحات وصيغ عربية ثم بعدها التركية فالاوردية واخيرا الملوية ذلك ان اللغة العربية قد تسربت الى اللغات الاخرى عن طريق الراووق الفارسي وتحتل العربية فى المغرب من الآن المكانة الاولى نظرا لكون الدارجة نفسها تعتبر اقرب اللهجات الى الفصحى بعد العاميتين التونسية والفلسطينية غير ان التجربة برهنت على أن معظم الشبان الذين حصلوا على تكوين غربي ليس لديهم المام كاف باللغة العربية بخلاف جلالة ملكنا الشاب فانه يتقن العربية كل الاتقان بجانب الفرنسية .

ولا يكفي اتهام عهد الاستعمار ولا سطوه على اللغة ولا التغني بامجاد العربية ولا وضع المعاجم بل يجب البحث عن المساوي لاستئصالها بتبسيط اللغة وتسهيل تلقينها على الكهول والشباب معا فالعربية من اروع لغات العالم ولكن من اصعبها ايضا والواجب يقضي بايجاد الوسائل لتدريج الصعاب وتنحية العارض منها وعدم اضافة مصاعب جديدة تفتعلها اذواق شخصية عند المعربين .

لولا الإسلام لكانت العربية مجرد لهجة

للأستاذ محمد الحاج صدوق

نقدم فيما يلي نص الاجوبة التي وافانا بها السيد محمد الحاج صدوق معربة عن الفرنسية (تجدون النص الفرنسي فى مكان ءاخر)

من البديهي انه لولا الاسلام لكانت اليوم اللغة العربية مجرد لهجة محصورة الاستعمال فى نطاق جزيرة العرب .

ويرجع الفضل فى نشرها الى رجال كانت لهم عقيدة جديدة عن العالم ومصير الانسان ، فسعوا فى تبليغها لاهل البلاد الذين اتخذوا العربية لغة لهم .

ولم يتحقق هذا التعريب الا فى الاقطار التي كان بها هؤلاء الدعاة . واما فى سواها فان الاسلام قد استطاع ان ينتشر انتشارا متفاوتا بفضل طاقاته الخاصة وان لم يصحب ذيوعه التعريب .

واذا كانت جبال المغرب ومناطق آسيا الشاسعة (تركيا وايران والهند واندونيسيا) وافريقيا السوداء قد افلتت من التعريب رغم ان الاسلام قد تغلغل فيها ، فان البلاد التي خرجت من حظيرة الاسلام مثل اسبانيا قد اندثر التعريب فيها .

ومن الملاحظ انه حيثما دخل الاسلام بدون تعريب صار التعبير عن مظاهر الحضارة وعن النظريات المجردة يعزز ويستكمل بألفاظ عربية كما تجلى ذلك عند الاتراك والايرانيين والهنود والبربر وغيرهم .

هذا وان انتشار اية لغة وازدهارها ونفوذها كل ذلك موقوف على حيوية الشعب الذي يتكلمها ، وهي حيوية تبرز فى المجالين الادبي والمادي وتكسب اللغة كأداة لخدمة النشاط الثقافي المنظم قيمة كبرى وبذلك يعظم قدرها داخل موطنها الخاص وخارجه . وعلى عكس ذلك فان جمود الشعب الذي يتكلم بها وعدم الاهتمام بها يؤديان لا محالة الى عدم تقديرها واضمحلالها .

عدم تعادل انتشار الاسلام واللغة العربية في العالم

للأستاذ كارل كلير
من جامعة لوزان

تفضل الاستاذ كارل كلير فاجابنا عن الاستفتاء بآراء ننشرها معربة نظرا لموضوعيتها وان كان جنابه اعتذر في مقدمة مراسلته عن عدم تعمقه واختصاصه في المسالة المطروحة للبحث (وتجدون النص الفرنسي في مكان ءاخر من هذا العدد)

الجواب عن السؤال الرئيسي :

يتبين بصفة لاتقبل الجدال بعد نظرة خاطفة على خريطة الاديان في العالم انه لا تعادل بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية لان العالم الاسلامي يتضمن عدة اقطار هامة يتكلم اهلها بغير اللغة العربية ، منها الفرس والباكستان وماليزيا واندونيسيا وتركيا وان كانت في الحقيقة ـ وهذا امر طبيعي ـ قد ادخلت على لغاتها عددا كبيرا من المصطلحات العربية كما اتخذ بعضها الحروف العربية للكتابة ، . ويرجع السبب في ذلك قبل كل شيء ، الى **نفوذ القرآن** ثم الى **التاثير البالغ الذي كان للفاتحين والتجار المسلمين** . على انه ، رغم وجود الالفاظ الدخيلة والكتابة بالحروف العربية ، لا يمكن بوجه من الوجوه ان يخطر ببال احد ان يعتبر اللغة الفارسية او الأردية او التركية « كلهجات » عربية لان الفارسية ـ كغيرها ـ ليست لهجة وانما هي لغة هندية ـ اوربية تاتي لثروتها ان تتسع بما دخلها من الكلمات والتعابير العربية التي نشاهد الآن طائفة من المحافظين المتطرفين يحاولون اقصاءها وتطهير الفارسية منها .

وبناء على ما تقدم فالجواب عن سؤالكم الاول هو النفي بدون ادنى تردد ، اللهم الا اذا كان مدلول الانتشار هو تسرب الالفاظ العربية وتعليم القرآن في البلاد الاسلامية التي لاتتكلم بالعربية . ومما لاشك فيه ان مثل هذا التاويل لايقبله علماء اللغة .

الجواب عن الاسئلة الاضافية

1) يدل الاعتبار التاريخي المجرد على ان انتشار الاسلام في عهده الاول قد تكاثرت عوامله التي نجدها في رسوخ العقيدة التي دفعت الى الدعوة وفي الضرورات الاقتصادية والدمغرافية السياسية وغيرها . الا انه بعيد جدا عن الاحتمال ان تكون العربية كلغة قد قامت بدورها في الفتوحات التي حققها دعاة الاسلام من العرب ، وليس من الممكن ان تعتبر العربية كلغة في حد ذاتها سببا لنشر الاسلام وان كانت اداةالوحي ولغة الفاتحين المسلمين .

2) يبدو لي أن تاريخ العقيدة والتزهد الاسلامي ما زالا في حاجة ماسة الى الدراسة وليس في وسعي ان اجيب عن هذا السؤال .

3) ان هذا الموضوع جد معقد لان تاثير الفكر الاسلامي يختلف من بلد لآخر ، وفي ظني انه تحقق في قطر كالقطر الهندي خصوصا بواسطة اللغة الفارسية التي وجدت في العربية منهلا كانت تقتبس منه لتنمية ثروتها دون ان تستمد من لغة الضاد بصفة مباشرة .

4) لهذه المسالة علاقة بالبلاد الاسلامية طبعا وحسبي فيما يخص سويسرا ان اجيب بانه ينبغي قبل كل شيء ان يعترف الخبراء اعترافا واسعا بامكانية دراسة العربية كاداة لغوية وادبية وفلسفية.

العربية أداة طيعة لنشر الفكر الاسلامي

للأستاذ ميشون
(جنيف)

(تجدون فى غير هذا المكان النص الاصلي باللغه الفرنسية لهذا البحث)

ان الارتباط بين انتشار كل من اللغة العربية والاسلام مظهر بديهي، الا ان طبيعة ومدى هاته الرابطة لا يمكن ادراك غورها الا اذا سلمنا بفكرة « تدبيرات العناية الالهية » والتخطيطات الربانية والحكمة الخالدة التي سبقت بازليتها تحقيق المعطيات التاريخية فى هذا العالم . فليس هنالك بمقتضى هذه الفكرة مجال للصدفة لان العربية قد اختيرت كلغة للقرءان بفضل الخصائص والمزايا التي هيأتها لتكون اداة مواتية لاداء هذه الرسالة .

وفى نفس الوقت اضفت الصبغة العالمية لهذه الرسالة على العربية نوعا من قوة الانتشار لا تتمتع به اية لغة اخرى . فالمسلمون من صينيين وملويين وفرنسيين عندما يؤكدون تعلقهم بالاسلام يستعملون الفاظا عربية لانها تعبر عن قوة معنوية بدهت أرواحهم وقلوبهم .

ومن الجلي انه لولا الاسلام لما عرفت العربية ذلك الذيوع الذي اكتسبته بفضل الفتوح ورسل الدعوة وافواج العلماء الذين نشروا علم اللغة لاسباب دينية فى جوهرها . وقد كانت العربية من جهة أخرى الاداة التي تفضلت بها العناية الالهية لتحقيق هذا الانتشار، ولحمل رسالة الاسلام الى جميع الآفاق مع الاحتفاظ لها بالتماسك والوحدة . ومن ابرز مظاهر هذا الارتباط نسبة تأثير البيئة الجغرافية والملابسات التاريخية . واذا كنا نلمس اثر معالم الاسلام على الافراد والمجتمع، واذا كانت هذه المعالم لم تتغير على مدى الاحقاب فان ديموميتها ناتجة جوهريا عن طبيعة القرءان الذي « لا يخلق على كثرة الرد » وعن الصيغ والآيات والدعوات الدينية التي ينطق بها بلغة الضاد كل مسلم اينما كان.

وقد شعر المسلمون ، وخاصة فى القرون الاولى، ومن بينهم العجم ان الدراسات اللغوية تساعد على تفهم رسالة القرءان سواء فى مدلولها الظاهر ام في مغازيها الباطنة الصوفية .

ومن هنا انبثقت ابحاث مدرستي البصرة والكوفة فى فقه اللغة والنحو والبيان . فلهذا توجد علاقة بين الابحاث اللغوية وبين المظاهر الاخرى وخاصة منها الدينية (كعلم الكلام وحركة الطرق الصوفية) ، كما يتجلى ذلك فى ازدهار الابحاث الدينية والصوفية فى نفس الوقت الذي ازدهرت فيه المصنفات الادبية فى ابرز عصور الحضارة العربية الاسلامية بالاندلس وافريقية الشمالية او بالشرق . الا ان هذه الرابطة ليست مطلقة ولا لازمة كما يشهد بذلك الوضع في اقطار غير عربية (تركيا والجزر الهندية) اشتهرت بقوة ايمانها دون ان تتعرف على لغة الضاد بها سوى اقلية من العلماء . اضف الى ذلك وضعية الثقافة العربية الحديثة التي تستلهم من الغرب البعيد عن الاسلام .

اما فى خصوص تأثير العربية على اللغات واللهجات الاخرى فقد كان قويا اذا اعتبرنا وفرة المصطلحات الدينية والافكار المجردة والالفاظ العلمية المقتبسة من العربية فى التركية والفارسية والاردية والملوية .

وارى ان العربية يجب ان تكون لغة منتقاة في التدريس بفرنسا كلغة ثانية سوية مع الالمانية والانجليزية .

موسوعة المغرب العربي

- مقترحات حول التصميم العشاري لموسوعة المغرب العربي

للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)

- الذوق العربي فى الموسيقى الاندلسية

للاستاذ محمد الفاسي

- من مآسي الفردوس المفقود

للدكتور زكي المحاسني

- المستعربون الاسبان فى ظل الحكم العربي

للدكتور أسعد حومد

- الطب العربي فى اسبانيا

للاستاذ فيديل فرنانديس
تعريب الاستاذ محمد ابو طاهر

286

مقترحات حول :

التصميم العشاري لموسوعة المغرب العربي

بقلم الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
استاذة كرسي اللغة العربية وآدابها
(جامعة عين شمس)

1 — وزع المكتب مشروع ما انجزه من اعلام الاشخاص والمدن المغربية حرف الالف . وارى من المجدي أن يركز الاهتمام اولا على البدء باعداد قائمة الكتب والمصادر لكل ما يتصل بالمغرب العربي . فعملنا الموسوعي ، يحتاج قبل كل شيء الى تسجيل المصادر، سواء بالنسبة الى الاعلام أو العلوم والفنون والآداب . وفوات بعض الاعلام والمواد ، يهون بالقياس الى فوات بعض الكتب الامهات، ومنها كتب الطبقات وتراجم الرجال .

وفى مذكرة المكتب عن الموسوعة ، اشارة الى الانتفاع بجهود الوثاقين الاوربيين ، امثال برسون وفرانك وبالبيس .

فهل اتجهت لجنة الموسوعة الى موسعة بروكلمان التى اعدت منها طبعة جديدة باشراف سزجين ، وصدر المجلد الاول منها ؟

والى دائرة المعارف الاسلامية ، التي عجزنا مع الاسف عن اكمال ترجمتها الى العربية ، فلم نصل بعد ثلث قرن من البدء فى الترجمة الا الى حرف الطاء ؟

ويهمني ان توزع علينا قائمة باسماء المراجع التي جمعها المكتب ، لعلي استطيع ان اراجعها على ما اعلم من مصادر الدراسات العربية للادب والعلوم الاسلامية بالمغرب ، ومنها ما قد يفوت الدارسين لكونه لا يحمل عنوانا مغربيا صريحا ، مثل كشف الظنون لحاجي خليفة ، وفهارس كتاب كراتشكوفسكي عن تاريخ الادب الجغرافي العربي ، وخزائن الكتب العربية فى الخافقين لفيليب دي طرازي . . .

2 — ويقال مثل هذا فى قائمة الاعلام الموزعة علينا من مكتب التعريب ، لحرف الالف . والاولى في رأيي أن يعد المكتب اولا قائمة بكتب التراجم والطبقات الخاصة بالاعلام ، اذ يسهل علينا نحن الملقين والمعقبين ان نراجع هذه الكتب على ما نعرف من كتب الطبقات ، بقدر ما يصعب علينا مراجعة قوائم الاعلام نفسها .

وعلى سبيل الايضاح ، اذكر مثلا انني راجعت قائمة الاعلام الموزعة علينا لحرف الالف ، على ما في كتابي :

البستان فى ذكر العلماء والاولياء بتلمسان لابن مريم .

وتعريف الخلف برجال السلف : لابي القاسم الحفناوي .

فلاحظت غياب أسماء لاعلام فيها ، من القائمة الموزعة علينا . ولست ادري هل ياتي ذكرهم فى حرف آخر غير الالف ؟ وذلك ما لا سبيل الى القطع به الا بعد استكمال القوائم الى حرف الياء ، حيث يغلب ان يشتهر الشخص بكنيته او لقبه او نسبه ، على ما هو

معروف للمشتغلين بالدراسات العربية والاسلامية . واقترح ان يكون اسم الشهرة هو الاساس للفهرس البيبليوجرافي ؛ على ان يذيل بالاسم كاملا . ويكرر ايراده مع الاشارة الى اسم الشهرة ، فمثلا يأتي « الاخضري » في حرف الالف ، ويكرر في حرف العين، هكذا :

الاخضري : عبد الرحمن ، صاحب الدرة البيضاء في الفرائض ، والجوهر المكنون في البلاغة ، والسلم في المنطق .

عبد الرحمن : انظره في الاخضري .

وكذلك في المقري ، يورد التعريف به في حرف الميم ، ويشار اليه في أحمد بن محمد : انظره في المقري.

والزواوي صاحب المنظومة الجزائرية ، يشار اليه مرتين في « ابي العباس ، وفي احمد بن عبد الله الجزائري » .

والفبريني ، صاحب عنوان الدراية في علماء بجاية . يذكر في حرف العين ؛ ويشار اليه في (ابي العباس احمد) .

والونشريسي ، صاحب المعيار المعرب في فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب ، يذكر في حرف الواو ويشار اليه في (احمد بن يحيى) .

وابن زكري ، الفقيه الاصولي البياني المنطقي ؛ يذكر في حرف الزاي ؛ ويشار اليه في (احمد بن محمد ابن زكري) .

على ان استيفاء الاعلام بالمراجعة ؛ لا يمكن الا بعد استيفاء قوائم بكتب التراجم وطبقات الرجال ، وهذا هو ما نحتاج اليه اول ما نحتاج ، فيما نتناول من دراساتنا لعلوم العربية والاسلام واعلامها .

مع خالص التحية وصادق التقدير .

عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطيء

(اللسان العربي) : احلنا هذه المقترحات على السكرتير العام الموقت لموسوعة المغرب العربي الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الامين العام للمكتب الدائم ؛ فاجاب بما يلي :

نشكر الاستاذة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطيء على ملاحظاتها ومقترحاتها الوجيهة ونغتنم هذه الفرصة لابداء التوضيحات الآتية في خصوص مسطرة العمل في الموسوعة :

اولا : موسوعة المغرب العربي ، هي هدف ثان ستعمل اللجان الاقليمية في الجزائر وطرابلس وتونس والرباط على تحقيقه بعد الهدف الاول المباشر الذي هو اعداد موسوعة في كل اقليم ، والواقع ان هذا المشروع قد قطع اشواطا بعيدة في كل من تونس (بفضل مجهود اخينا الاستاذ عثمان الكعاك) ، والمغرب في حين لم يتم لحد الآن اي شيء في طرابلس والجزائر .

ثانيا : العمل التحضيري الذي يقوم به المكتب الدائم يخص مصادر معلمة المغرب الاقصى فقط ، وقد اعد لائحة طويلة للمراجع العربية والفرنسية والالمانية والاسبانية ورتبها في جزازات تبلغ العشرة آلاف ، قد جعلت رهن اشارة البحاثين الذين في وسعهم الوقوف عليها في عين المكان بمقر المكتب بالرباط او مراسلتنا لامدادهم بما يحتاجون منها

ولا تمثل القائمة حرف (ا) التي وجهناها لمن يهمهم الامر سوى نموذج تمهيدي تضم بضع مآت من بين آلاف الاعلام والمواضيع العامة .

ثالثا : نشرنا في اعداد سابقة مذكرات حول مسطرة ترتيب الاعلام حسب الاسم أو الكنية ، واحيانا حسب الاختصاص (الطب او الفلك او العلوم الخ .) واردفنا هذه المذكرات بايضاحات جديدة ، وجهناها الى الاساتذة الذين ابدوا رغبتهم في الاسهام في الموسوعة من مستشرقين وعرب .

رابعا : اصدرنا نشرتين عن المصادر الالمانية والانجليزية ؛ ويصعب الآن على المكتب ـ نظرا لقلة الوسائل ـ نشر المراجع الكاملة بالفرنسية والاسبانية والعربية ؛ وان كنا قد رتبناها ترتيبا علميا تسهيلا للاستفادة منها ، وذلك بالنسبة لكل علم او موضوع حضاري ؛ ففي خصوص ابن خلدون مثلا : ادرجنا في الجزازة الخاصة به كل المراجع التي اهتمت بمظهر من مظاهر نشاطاته الفكرية او السياسية ؛ بحيث يتأتى للباحث ان يستفسرنا عن المصادر التي تتصل باختصاصاته في كل موضوع بذاته .

ومع ذلك فهنالك بالنسبة لاعلام المغرب الاقصى مصنفات جردناها بكاملها ، تجدون هنا لائحة عن اهمها بالاضافة الى مصادر اخرى لم نذكرها ، نعتبرها مرجعا عاما عند الاقتضاء (مثل معلمة بروكلمان وكشف الظنون لحاجي خليفة او بعض فهارس المصنفات المقربة كدليل المؤرخ للاستاذ عبد السلام بنسودة) :

اللائحة الاولى لمراجع موسوعة المغرب الاقصى

الاعلام (للزركلي) المقصد الاحمد (عبد السلام ابن الطيب القادري) طبقات المفسرين (للسيوطي) ممتع الاسماع (محمد المهدي الفاسي) رياض الجنة او المدهش المطرب (عبد الحفيظ الفاسي) (جزءان) البستان (ابن مريم) الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب (ابن فرحون) اظهار الكمال فى مناقب اولياء مراكش سبعة رجال (العباس بن ابراهيم) تكملة الصلة (ابن الابار) الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام (عباس بن ابراهيم) انس الفقير وعز الحقير (ابن قنفد) نشر المثاني (للقادري) الضوء اللامع (السخاوى) التشوف فى رجال التصوف (التادلي) الدرر البهية (للفضيلي) شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية (لمحمد مخلوف) دوحة الناشر (ابن عسكر) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (الفشتالي) الروض العطر الانفاس باخبار الصالحين من اهل فاس (ابن عيشون الشراط) الذيل والتكملة (ابن عبدالملك) خريدة القصروجريدةالعصر (للعماد الاصفهاني) (قسم شعراء المغرب)ط تونس1966 البيان المغرب (لابن عذارى) تاريخ تطوان (لمحمد داود) المعجم فى اصحاب ابي علي الصدفي ، فهرسة ابن خليفة الاموي الاشبيلي ، تاريخ علماء الاندلس (لابن الفرضي) كتاب الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم (لخلف بن عبد الملك بن بشكوال) تاريخ ابن خلدون ، نظم الجمان (لابن القطان) كشف الحجاب (أحمد سكيرج) المغرب العربي فى العصر الوسيط ج 3 من اعمال الاعلام (لابن الخطيب) درة الحجال (لابن القاضى) جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس (لابن القاضى) بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس واستاذ وطبيب، العبر فى خبر من غبر (للذهبي) الموسوعة الاسلامية ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (لابن بابا) معجم البلدان (بكامله) شذرات الذهب فى اخبار من ذهب (لابن العماد) طبعة القاهرة 1351 مناهل الصفا (الفشتالي) الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة (ابن حجر العسقلاني)

الذوق العربي في الموسيقى الأندلسية

بقلم الأستاذ محمد الفاسي

رئيس جامعة محمد الخامس سابقا
وزير الدولة المكلف بالثقافة والتعليم الاصلي

ان الموسيقى التي نطلق عليها اسم الموسيقى الاندلسية كنا نسميها بلغتنا العامية « الآلة » تمييزا لها عن الموسيقى التي تؤدى بدون آلات ، وهي « السماع » وكان المثقفون من ادباء ومؤرخين يسمونها موسيقى بدون أى نعت . وقد هممت مرارا بالكتابة حول هذا الفن البديع بعد أن قضيت السنين الطوال فى خلسة من مختلف المشاكل والواجبات فى مدارسته ، والبحث عن اصوله والاستماع الى اكابر الفنانين من امثال الاساتذة : البريهي ، والمطيري ، والجعيدي ، والحاج عثمان التازى ، رحمهم الله ، وغيرهم من المحترفين والهواة .

واريد قبل الدخول فى صلب الموضوع ان احدثكم عن بعض الذكريات ، لأبين لكم الدوافع التي حفزتني للاهتمام بهذه الناحية من مظاهر الحضارة .

لما كنت طالبا بباريس ، كان من حسن الصدف ان تعرفت بالمغرب قبل سفري الى فرنسا بأحد الادباء الفرنسيين هو الكاتب « اميل ديرمنكيم » ، مؤلف « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم . وكان هو الذي أوحى الي بالذهاب الى فرنسا لمتابعة الدراسة العالية بعد ان احصل على شهادة البكالوريا لان المدرسة الثانوية الادريسية آنذاك لم تكن تؤدي الا لشهادة الدبلوم ، ولما حللت بباريس كان لي هذا السيد الفاضل احسن دليل على روح الحضارة الغربية الحق وكان مولعا بالفنون الجميلة من رسم ونحت وموسيقى ، فكان كل يوم احد يأخذني الى المتاحف الكبرى وبالخصوص الى « متحف اللوفر » . وفى الليل نذهب للحفلات الموسيقية التي تعطى فى قاعات خاصة مثل كافووبليل ، ولم اكن افهم تلك الموسيقى ولا اتذوقها وانما كانت تظهر لي انها شيء عظيم يبهر بقوته ونظامه وكانت الاجواق تتركب من اكثر من مائتي عازف بمختلف الآلات والحاضرون صموت كأن على رؤوسهم الطير لا يهمسون وكأنهم لا يتنفسون . تظهر عليهم امارات الاكبار والاجلال لما يسمعون ، وكان صديقي « ديرمنكيم » قبل الدخول وبعده يشرح لي المعاني التي ينطوي عليها برنامج الحلقة ويحاول أن يجعلني ادرك تلك المعاني واحسها، وكثيرا ما كان يعزف لي على البيان بمنزله قطعا لبتهوفن وشوبان وموتسارت وغيرهم من اساطين الموسيقى الغربية مبينا أن الالحان تؤدي معاني بدون الفاظ ، وان كل من كانت له ثقافة موسيقية وذوق سليم عندما يسمع قطعة ولو لم يتقدم له سابق معرفة بها يفهم ما اراد أن يعبر عنه مؤلفها فصرت اقول مع نفسي من ذلك الوقت وقد اخذت المس شيئا طفيفا مما كان يلقنني اياه استاذي المتطوع : حيث ان الامر هكذا فلا شك ان موسيقانا هى بدورها تعبر عن معان خاصة وكل نغمة من نغماتها تترجم .

ولا جدال انها موسيقى عربية اندلسية مغربية صميمة ولدت على ضفاف دجلة والفرات ونمت هناك تحت تاثيرات مختلفة فارسية ورومية ، مكنتها من الاسس العلمية التي ترتكز عليها ، ونقلها الى الاندلس « زرياب » الموسيقي البغدادي الشهير ، وهناك تاثرت من جديد بعوامل مغربية ، لما كان من الاتصال الوثيق بين العدوتين وقد حقق علماء تاريخ الموسيقي انها لم تتاثر مطلقا بالجانب الاسباني وانها بالعكس اثرت فى الموسيقى الكنسية مما لا نزال نلمسه فى ما يسمى بالموسيقى « الكريكورية » وقد سمعتها بكنيسة بباريس ، وهى اقرب شىء لموسيقانا. وقد انتقلت من ذلك الوقت الى المغرب كما انتقلت الى تونس حيث تسمى « المالوف » والى الجزائر حيث تدعى « الغرناطي » كما انها بالمغرب لم تركد فى الاول بل نمت وزاد فيها المغاربة طبوعا وميازين وادخلوا فى الميازين المعروفة صنائع جديدة ، لذلك لا اعتبرها اندلسية محضة ، اذ هى على الحالة التي اوصلها اليها المغاربة موسيقى مغربية لها اصول اندلسية عراقية .

والآن ما هى هذه الموسيقى ؟ انها مجموع وحدات موسيقية كبرى تدعى كل واحدة منها نوبة ، وقد اختلف فى اصل هذه الكلمة ، واقرب شىء الى القبول هو انه عندما كان الموسيقيون الكبار يأمرون من لدن الخليفة بالعزف يتقدم كل واحد بما اخترعه ، ويعزف دوره ، ثم تاتي نوبة غيره ، وهكذا كل واحد يقوم بتادية « نوبة » فاطلقت لفظة « نوبة » على مجموعة موسيقية ، ثم ان النوبة تكون لها نغمة خاصة تدعى طبعا . ويتكون الطبع من نقط خاصة ، ويقول ابو عبد الله محمد ابن الحسين الحايك فى مقدمة الكتاب ، الذي جمع فيه اشعار الآلة التي كانت معروفة فى وقته ، « وطبوع كثيرة يطول ذكرها وتنتهي الى ثلاثمائة وستة وستين كما وقفنا عليه فى غير ما تاليف » وكأنه يريد ان يقول : انه كان لكل يوم من ايام السنة الشمسية حتى الكبيسة منها طبع خاص ولهم ولوع بمثل هذه الموافقات من ذلك على سبيل المثال ما ورد فى آخر مخطوط حديقة الازهار فى شرح ماهية العشب والعقار لابي القاسم الغساني (1) : « وجملة ما احتوى عليه هذا الشرح من المفردات دون المكرر 365 مفردا بعدد ايام السنة » .

اما الطبوع التي كانت لها نوبات ، اي وحدات موسيقية كاملة بكل ميازينها، فلا ندري كم كان عددها والغالب على الظن ان الموسيقيين كانوا اذا ارادوا ان يضعوا قطعة موسيقية للتعبير عن عواطف خاصة يؤلفون بعض النغمات الى بعضها ، حسب احساساتهم واذواقهم ، فيتكون منها طبع . ثم ينظمون او يختارون شعرا معروفا يؤدي معانى تلك العواطف المناسبة للطبع ، ويسبكونها فى ميزان خاص ، اي حسب ايقاع مضبوط له وحدة ايضا تؤدى فى زمن محدد ، وتسمى هذه الوحدة « الدور » . وقد كان عدد الميازين كذلك كبيرا الا انه انحصر عند اهل الاندلس فى اربعة وزاد المغاربة ميزانا خامسا هو « الدرج » والميازين الاربعة الاخرى هى « البسيط » ولا علاقة له بالبحر العروضي المسمى بذلك الاسم على الاقل فى الصورة التي آل اليها هذا الميزان اليوم وربما كان فى الاصل الاول يتركب من اشعار من بحر البسيط فقط ، ثم يليه «القائم ونصف» ثم «البطايحي» و « القدام » ، ولا ندرى وجه تسميتها بهذه الاسماء. اما الدرج فقد ادرجه المغاربة فى البطايحي لذلك اطلقوا عليه هذا الاسم والدرج لا وجود له فى المالوف ولا فى الغرناطي ويطلقون بالجزائر وبتونس هذه اللفظة على القدام ، ويعرف الميزان ويضبط بما يسمى (التوساد) وهو الضرب باليد اليمنى على راحة اليد اليسرى او بالآلة المسماة « الطر »

وهكذا فان كل نوبة كاملة عند المغاربة تتركب من خمسة ميازين وحيث ان مجموع النوبات التي بقيت محفوظة عندنا احدى عشرة ، فمجموع ميازين الآلة خمسة وخمسون ومن هنا يقال : « ضربت عليه الخمسة والخمسون » ولكن فى الواقع ضاع منها ثلاثة وهى (قائم ونصف الرصد) و (قائم ونصف الحجاز المشرقي) و (درج رصد الذيل) وان كان من جهة اخرى لنا الامل فى العثور على بعض الصنائع منها بفضل تنقيب جمعية هواة الموسيقى فى مختلف المراكز التي حافظت ببلادنا على هذا التراث الجليل .

وبعد ان عرفنا من اي شيء تتركب النوبة ينبغي ان نعرف كذلك اجزاء الميزان ، كل ميزان يتركب من قطع موسيقية مستقلة تسمى كل واحدة منها (صنعة) وتجمع على صائع . وكل صنعة لها وحدة خاصة وتؤدى فى زمن محدود يعرف بعدد ادوارها ، فالصنائع الصغيرة تتركب من ثلاثة ادوار الى عشرة والمتوسطة من عشرة الى عشرين

(1) مخطوط الخزانة العامة رقم 1686

والكبيرة من عشرين الى اربعين ، او اكثر . وهناك بعض الصنائع العظيمة قد تبلغ ستين دورا وهي قليلة ولا يحفظها عادة الا المبرزون من الآليين وكبار الهواة ، وهى صعبة التادية وتكون لها روعة وجلال مهما كانت المعاني التي تؤديها النغمة . ومن هذه الصنعات الكبيرة (تصدرة بسيط رمل الماية) ، اما الشعر فى الموسيقى فما احتيج اليه قبل كل شيء الا لايداعه النغمات حسب ترتيب خاص لتحفظ ، لان العرب لم يهتدوا الى وسيلة لتسجيل النغمات بالكتابة ، وان كانوا عمدوا الى محاولات فى هذا الباب لا أريد أن اتعرض لها الآن . ولم يكفهم الكلام لجعله يطابق كل أجزاء الانغام التي يعبرون بها عن عواطفهم ، فعمدوا الى حروف وحركات يكررونها من نوع ما نراه فى الاغاني الشعبية الغربية التي لها شبه من هذه الناحية فقط بموسيقانا لكونها وان كتبت فانها تلقن بالحفظ اذ المقبلون عليها هم من طبقات الشعب التي لا تحسن قراءة الكتابة الموسيقية فيحفظون الالفاظ ومعها كثير من الترديدات من نوع (طرا لالالا لير وطير ونطرطير ونطوطير ونطير) الغريب ان نفس هذه الحروف هى التي تستعمل كذلك فى هذه الترجيعات عندنا من مثل (يالالان طيري طان) ونحوها والتي تسمى (التراتن) . والدليل على ان الكلام كله لم يقصد به الا حفظ النغمات هو ان كل قطعة تغنى أولا بالالفاظ ثم تعزف ثانيا بالآلات فقط ؛ وذلك ما يسمى (الجواب) وكثير من القطع الموسيقية التي كانت فى أصلها مجردة عن الكلام (وهو ما يسمى بالتوشية) ، قد ضاعت . لانها لم يكن لها جسم ترتكز عليه لتحفظ وتنقل من جيل الى جيل .

والصنائع من حيث اللغة ومن حيث العروض أربعة انواع : اولا الصنائع ذات الشعر العربي الفصيح، وهى نوعان : اما أن يكون نظمها فى أحد بحور العروض العربي الستة عشر ، واما ان تكون من نوع (التواشيح) . وهناك الصنائع ذات الشعر العربي باللغة العامية الاندلسية وهو ما يسمى الزجل . والصنائع التي باللغة العامية المغربية — وهى من نوع ما يسمى « الملحون » فى غير «الآلة» وهى من زيادات المغاربة فى هذه الموسيقى ، فيسمى « برولة » وهذه البراول تكون فى ميازين القدام . وتتركب منها كل الادراج لانها من اختراع اهل المغرب، كما قدمت . ولكن الصنعة الاولى من الدرج تكون دائما بشعر عربي فصيح فى بحر الكامل ، كما يتخلل الدرج بعض الصنائع البسيطة من بحور الخفيف او الوافر البسيط او المتقارب . مثل هذه :

يا ذات المحيا الجميل — بالعنس طلعت بدر التمام
والشمس الواسمة — فاق جمالك طلعت الثريا
يا مولات التهليل — حرمت جمالك ياتدالعلام
بجمالك حاكمة — زرني يازينة السميا
ما زال الليل طويل — اغزالي كان غشاك المنام
مولاتي فاطمة — خدي راحة سندي عليا
بالحسن يا غزالي — ربي عطاك صولي
والنوم ما زهى لي — سمعي غنا سجولي
يا عنس الغوالي — لا تنهري رسولي

حظرة نقيم لك ياريم يا لحظ الرشا النايم

بين السرور والنعايم — سالي سليم ماتى هميم
ويعود فرحنا دايم — فرج الكريم لنا يديم

وهى قصيدة ملحون تلحن فى الآلة وكثير من براويل الآلة يعرف اسماء شعراء الملحون المغاربة الذين نظموها .

ثم ان تادية الصنائع تكون اما بكيفية بسيطة اى يكون تلحين الشعر كانه مجرد انشاد بدون تقطيع ولا ترجيع ولا زيادة ، تلك التراتين التي اشرنا اليها ، وهذا النوع يسمى تخليلة وكثيرا ما يكون فى القدام ويكون فى بحر البسيط مثل :

لا فرق الله شمل العاشقين ابدا
حتى يعود الحصا غصنا بأوراق
وتنبث الخمر فى أحشاء شاربها
ويضحك الكاس عجبا من الساق

وتارة تكون التادية متنوعة تحتوي على تكريرات وترجيعات وتراتن ، وهذا ما يسمى بالشغل ، فالصنعة المشغولة هى المحتوية على هذه الاشياء التي تعطيها صبغتها الخاصة وبنسبة كثرتها او قلتها تكون صعبة أو سهلة ، ومن أمثالها :

انعم لي وجد — يا حلو الكلام
يكفيك الصد — الجفا حرام
من ريقك وجد — داوي المستهام
رشفة شفا — ريقك يا غزال
من بعد الجفا — امحلا الوصال

ثم ان الصنائع أربعة انواع ، من حيث عدد الابيات التي تتركب منها ، ومن حيث القسم الذي يتم فيه التلحين . وابسطها ما يتركب من بيتين ، ينشد الاول ويكمل فيه تلحينه ، ثم يجاب عنه اي يكرر

عزفه بدون كلام . ثم يقال البيت الثاني على هـــذا النحو ، والنوع الثاني وهو يتركب كذلك من بيتين الا ان التلحين يتم الشطر الاول ، ويكـون الشطـــر الثاني مثل الاول والشطر الاول من البيت الثاني ويسمى الكرسي يكون له تلحين خاص ، ويجاب عنه ، والشطر الثاني منه يلحن مثل الشطرين الاولين ويكـــون كالخروج ، والنوع الثالث هو الصنعة الخماسية لانها تتركب من خمسة أبيات تلحن على هذه الصـــورة : البيت الاول هو الدخول يلحن بكيفية خاصة ، ثـــم يليه بيتان يلحنان مثله ويسميان وسط الصنعـــة . ويقال لهما « الكرش » كذلك ، والبيت الرابع يلحـــن بكيفية أخرى ، ويسمى « تغطية الصنعة » . والبيت الخامس يلحن مثل الثلاثة الاولى ويسمى « الخروج» ويتم تلحين الصنعة على هذا فى البيت الاول والرابع لان الثاني والثالث والخامس تكرير للاول ، والنوع الرابع هو الصنائع السباعية وكيفية تلحينها انيكون البيت الاول هو « الدخول » فينشد شطره الاول ويجاب عنه ، وتارة يعاد وتارة لا يعاد . ثم ينشد الشطـــر الثاني ، ثم يلي الدخول « الوسط » ويتركب مـــن اربعة أبيات يلحن أولها بكيفية خاصة وتكون الثلاثة الاخرى مثله ثم يقال البيت السادس وهو « الخروج » ويكون كالاول على العادة فى مطابقة الخروج للدخول، ثم يقال البيت السابع ويلحن على نحو أبيات الكرش. ويختلف عدد الصنعات فى كل ميزان الا أن كيفيـــة توزيعها داخلها تتبع نظاما واحدا هو الذي نريد ان نشرحه الآن وهو ما يسمى « بالميزان المكـرط » فى اصطلاح أصحاب الفن . فأول ما يبتـدأ به ما يسمـــى « بالمشالية » وهو نوع افتتاح تنسجم اثنـــاءه الآلات ويستعد منه الفنانون لمواجهة الميزان ، وكانت المشالية فى الماضي تصطبغ بصبغة ارتجال يقوم به رئيـــس الجوق فينتقل من نغمة الى نغمة غير متقيد بقاعدة ولا ميزان خاص . ولكن ذلك ، مع انخفاض المواهب ، آل الى نحو فوضى لا تليق بما يجب أن تتصف به الموسيقى من انتظام وتناسق ـــ ففكر أحد كبار الموسيقيين وهو سيدي عمر الجعيدي رحمه الله فى ادخال اصلاح على المشالية وذلك بأن رتب العزف الصامت على بعـــض القطع ، تنتخب من عدة نغمات ، والمشالية اليوم حسب النظام الجاري به العمل تترتب من عراق العجم ورمل الماية ورجوع لعراق العجم والحجاز الكبير والحجاز المشرقي والعشاق ورجوع للحجاز المشرقي ورصد الذيل ، ثم الاختتام كذلك بالحجاز المشرقي ، وتسمى (المشالية الكبرى) تدخل فيها ست نغمات ومـــن الممكن أن يدخل فيها النغمات كلها ، وهذا نوع ابتكار لا يمس بهذا التراث ولا يفسده . هذا وهناك مشالية صغيرة يقتصر فيها على الحجاز المشرقي ، ومـــن الطبوع ، « طبع الزيدان » وقد ضاعت نوبته وبقيت بعض الصنائع مدمجة فى نوبة الرصد .

لقد زادني الزيدان شوقـــا على شوقـــي
الى المصطفى خيـــر البريـــة احمـــــدا
واطربنـــي بعـــد السكـــون فصـــرت لا
احـــب مـــن الاشيـــــاء الا محـــمـــــدا

اما ما يسمى بالبغيمة فهي قطعة صغيرة بـــدون كلام ولا تنطوي تحت ميزان من الميازين الخمسة ولكل نوبة بغيمتها ، وهى التي تعطى خصائص النقط التي تتكون منها نغمة النوبة ثم ينقلون لعزف توشية النوبة وهى قطعة بدون كلام كذلك ولا تنطوي تحت ميزان خاص . ولكن الفنان الحاج ادريس ابن جلون يرى أن ميازين كل تواشي النوبات من البسيط . وهنـــا ينبغي ان أشرح معنى التواشي وأنواعها . فهـــذه المجموعات الموسيقية التي نطلق عليها اسم التواشي من اجمل ما تحتوي عليه الآلة فهى مقطوعات تؤدي بدون كلام الا أن ذلك عرضها للضياع ، لذلك عمـــد بعض الهواة الى تعمير بعضها . ومن ذلك توشية « غريبة الحسين » التي عمرها الشاعر العلامـــة سيدي حمدون ابن الحاج رحمه . والتوشية كما يدل عليه اسمها نوع من التطريز والتزويق . وهنـــاك اربعة انواع من التواشي أولها : تواشي النوبة وهـــى التي أشرنا اليها وتعزف قبل البسيط لانه أول ميزان فى الترتيب المغربي ولكن يمكن أنتعزف قبل أي ميزان، ولكل من نوبات العشاق والرصد ورمل الماية والماية ورصد الذيل واصبهان توشية واحدة ، ولكل مـــن غريبة الحسين والاستهلاك وعراق العجم والحجاز الكبير توشيتان . اما الحجاز المشرقي فيمتاز بكونه له سبع تواش ، وعليه فعدد تواشي النوبات احدى وعشرين توشية والنوع الثاني تواشي الميزانيـــن القدام وقائم ونصف . وهذه التواشي تعزف قبـــل الشروع فى الميزان ولكل قدام توشيـــة وتتبعـــه فى الايقاع كما أن لكل قائم ونصف توشية من وزنه كذلك باستثناء غريبة الحسين وعراق العجم فقد ضاعتـــا وباستثنـــاء قائم ونصف الرصد والحجـــاز والمشرقي الضائعين مطلقا وعليه فعدد تواشـــي الميازين ثمـــان عشرة توشية والنوع الثالث تواشي داخل القـــدام وتعزف فى أواخر بعض الصنعات من القدام فى كـــل

النوبات وتبلغ عددها نحو الخمس والاربعين والنوع الرابع تواشي داخل البطايحي والقائم ونصف ، ومن الغريب ان ميزانها درج فكأنها كذلك من اختراع المغاربة وزياداتها وهي قليلة لا توجد الا فى نوبات ثلاث وهى الماية « البطايحي : تنتان » وعراق العجم (البطايحي : واحدة) الحجاز الكبير (البطايحي : تنتان ، القائم ونصف : واحدة) ويوجد درج واحد فيه توشية داخلية من هذا النوع هو درج المشرقي (صنعة يا مليح) وعليه فعدد تواشي هذا النوع الرابع سبع . ومجموع تواشي الآلة نحو التسعين، والسر فى الابتداء بها هو تهييج النفس وتنبيه السامع على غرار اساليب الشعر العربي القديم حيث كان الشعراء يقدمون التغزل والتشبيب بين يدي اغراضهم ، وقد تنبه لهذا المعنى شاعر سبتة مالك بن المرحل . واذا ضربنا مثلا بتوشية قدام الحجاز الكبير نلاحظ ان الصنعة الاولى منهتسمى (التصدرة) وتكون عادة بطيئة تتلوها صنعات تشبهها وتسمى (الصنعات الموسعة) الا ان كل واحدة تكون اسرع من التي قبلها ، ولكن ليحس الفرق بين صنعتين متصلتين ثم يظهر فى احدى الصنعات ، تسمى (القنطرة الاولى) بعض الاسراع تتلوها صنائع من نوعها ثم تاتي الصنعة التي تسمى (القنطرة الثانية) وفى كثير من الميازين لا يظهر الانتقال من البطء فى الايقاع الى الخفة والاسراع الا فى هذه الصنعة التي كثيرا ما يطلق عليها اسم القنطرة مطلقا ، بحيث اذا قيل القنطرة يقصد بهذا التعبير القنطرة الثانية ، اما الانصراف فهو مجموع الصنائع التي تلى القنطرة الى نهاية الميزان وتكون كلها سريعة الا أن التادية تزيد سرعة كلما اقترب الموسيقيون من الختام ، وقد يقف احيانا الجوق وسط تادية الميزان ويعمل عند ذلك احد المستمعين الى (البيتين) ثم بعد ذلك تستمر تادية الميزان ويسمى القسم الذي يليه « البيتين » (التغطية) والصنعة الاخيرة من الميزان تسمى (القفل) .

هذا ما يجب معرفته كمقدمة لتفهم هذه الموسيقى السامية التي تمتاز بايقاعاتها الفريدة التي لم يبلغها اي نوع من انواع الموسيقى العالمية بشهادة كبار المتخصصين لدراستها من الغربيين امثال فارمر الانجليزي ورواني والبارون بيير لانجي الفرنسيين ودي لاريبالاسين الاسباني وغيرهم ، وان الاهمية المعطاة للميزان او الايقاع فى الآلة جعلت هؤلاء الباحثين يولونه عناية خاصة مع بيان تنوعه داخل قواعده الثابتة من تادية وئيدة وخفيفة وسريعة ، ومع سكتاته ووقفاته ، ولكنهم لم يتعدوا هذه الناحية فى بحثهم ومنعتهم طبيعتهم الاجنبية من التعمق فى معرفة ما تنطوي عليه نغمات « الآلة » من معان وقد اعترف بهذا رواني حيث يقول بعد أن اشار الى ما يذكر من ان كل نغمة تناسب وقتا خاصا من النهار : « وليمكننا ان نفهم الآن هذه الرقائق يجب أن نحيي من جديد الفكرة العربية وان نحس مثل ما كان يحس المعاصرون لمطربي غرناطة وتكون لنا عقلية موسيقية مجردة عن تربيتنا الفنية وشبيهة بعقلية مسلمي بغداد والمدينة واشبيلية (2) لكل هذه الاعتبارات انصرف الغربيون كما قلنا لدراسة الموسيقى عند العرب من الناحية الخارجية فقط اي بالاستناد الى العلوم الموسيقية النظرية عند امثال الفارابي ومن الناحية التطبيقية فيما بقى من التراث الموسيقى الى هذا العصر بالمشرق والمغرب ، واما تذوقها وتفهم معانيها فهذا شيء فقده حتى اصحابه لم يجرؤ احد من الباحثين على ولوج هذا الباب لانهم لم يجدوا ما يستندون عليه ، وما يفتح ولو نافذة صغيرة على هذا العالم الساحر المقفل ، ومن اغرب النصوص التي وقفت عليها للدلالة على أن معاني الموسيقى زالت من ذاكرة العرب انفسهم هو ما رايته اخيرا فى احدى رسائل ابن حزم العظيم ، وذلك حيث يقول فى رسالة مراتب العلوم :« منها ما درس رسمه ودثرت اعلامه ... ومن ذلك علم الموسيقى واصنافها الثلاثة فان الاوائل يصفون انه كان منها ما يشجع الجبناء وهو اللون ونوع ثان يسخي البخلاء واظنه الطنيني ونوع ثالث يؤلف بين النفوس وينفر وهذه صفات معدومة من العالم اليوم جملة » (3)

فاذا كان اهل الاندلس والمغرب نسوا هذه المعاني منذ القرن الخامس ، فقد حافظوا لنا مع ذلك

---

2) دائرة معارف الموسيقى ج 5 ص . 2860

3) رسائل ابن حزم الاندلسي ص 59 — 60 ، وفى تعليق على هذه الفقرة عن مفاتيح العلوم ان النوع الثالث يسمى التاليفي وان الاول منها افحلها وهو يحرك النفس الى النجدة وشدة الانبساط ، ويسمى الرجلي والثاني يحرك النفس الى الكرم والجراة ويسمى الخنثوي والثالث يولد الشجى والحزن ويسمى النسوي (مفاتيح العلوم ص . 140)

على كثير من الطبوع والنغمات بدون ان يعرف لا الهواة منهم ولا المحترفون ما الذي يثير منها الانبساط وما يعبر عن الحزن والاسى فان فضل هذه الاجيال المتعاقبة التي مكنتنا من التمتع الروحي بهذه الذخيرة الفريدة لفضل عظيم . لذلك اراني ايضا احس بأن هذا الباب الذي الهمت الى فتحه سوف يكون له اكبر الآثار على دراسات موسيقانا . واذا كنت توصلت الى معرفة معاني الطبوع المستعملة ، فان الطبوع التي لم يبق منها الا صنائع قليلة ادمجت فى النوبات الاحدى عشرة التي كابرت الدهر وافلتت من الضياع يتطلب تفهم معانيها مراسا طويلا بعد أن تفصل هذه الصنعات عن جاراتها وتؤدي مستقلة ، ثم ان المعاني التي ساحدثكم عنها بالنسبة لكل طبع تكون نقطة الارتكاز فى تلك النغمة ، وعليه فكل المعاني المتقاربة لها وكل العواطف الشبيهة بها يمكن أن يدركها من رهف حسه وصفا ذوقه . واني اعتقد ان هذه المعاني من الوضوح بحيث أن من يسمع لحنا من هذه الالحان للمرة الاولى بعد أن يلقن معناه يدركه ويحسه ، الا انه ليتمكن من هذه المعاني وتشرب نفسه معرفتها ينبغي أن يسمعها مرارا . واترك الآن بعض التعاليق الضرورية على هذا الموضوع الى ما بعد اطلاعكم على هذه المعاني .

ونبتديء بطبع العشاق فهذه النغمة تدل على انبثاق الحياة وما يستلزمه من طفوح وانشراح فكل معاني الحيوية والنشاط والازدهار والتفتح نحسها فى نغمة العشاق حيث يخيل اليك عند سماعه كأن الماء يفور من انابيب الصهاريج ، أو يتفجر من عيون ويتدفق فى قوة عارمة ، لذلك كانت جل الاشعار التي لم تغير وبقيت على اصلها تصف الصباح وتدفق المياه وتفتح الازهار ، وفصل الربيع والشباب ، ولذلك ناسب ان يعزف هذا الطبع فى الصباح . وهذا كل ما بقى من معرفة معاني العشاق واما فى الواقع فالموسيقى اية كانت تناسب وتطرب فى كل وقت وزمان ، ومن امثلة هذا الطبع :

قم باكر الاصباح	الفجر لاح
امزج كؤوس الراح	راحا براح
اشرب وطب وافرح	مع الملاح
قم واغتنم قبلة	مندون رقيب
لله ما احلا	وصل الحبيب

وننتقل الآن للحجاز المشرقي ، ويطلق عليه عادة اسم المشرقي مختصرا فهذه النغمة يمكن أن تعتبر المعبرة عن كل مميزات هذه الموسيقى بل عن كل صفات الفن المغربي والاندلسي فهى تدل على كل معاني الحلاوة والرقة واللطف والحسن اذ هى كالنقوش البديعة التي تتجلى فى الآثار الفنية المرينية ، ويمكن ان نقول ان الاحساس الذي يستولي على النفس عند مشاهدة النقوش الجبسية والخشبية فى المدرسة العنانية مثلا بفاس هو نفس الاحساس الذي توحيه الحان الحجاز المشرقي ، وليس من الصدف ان تكون التواشي السبع التي تكلمت عنها من هذه النغمة ، فهى عنوان الفنون المغربية على الاطلاق ، وانني كنت فى هذه السنين الطويلة وانا اتلمس هذه المعاني عندما اتوصل الى ادراكها بالنسبة لطبع من الطبوع ، وانكر ان اهل الفن كثيرا ما يتذكرون اشياء كانوا يسمعونها ولا يعيرونها كبير التفات حتى اذا حدثتهم بما احسه عند سماع النغمة الفلانية يقولون لذلك كنا نسمع كذا وكذا مما له اتصال بالمعنى الذي اكتشفته وشرحته لهم ، ومن هذا القبيل ما قيل لي عن الحجاز المشرقي من انه يؤلف بين القلوب وانه طبع الاحبة ، ومن شأن الحلاوة والرقة واللطف والحسن أن يؤلف بين القلوب وان تكون الرابطة بين الاحبة . اما نغمة اصبهان فانها تعبر عن الاستعطاف والتودد والرجاء والرحمة ، وكل معاني التوجه بذل ، وخضوع لنيل المرغوب ، وقد كنت بقيت اتحسس المعنى العميق لهذا الطبع حتى كنت يوما انصت لقدام اصبهان فاحسست كأن ايديا تمد متشفعة ضارعة ، فقلت هذه النغمة تعبر عن معاني الاستعطاف ، ومن العجب انه فى نفس تلك الساعة التي تجلت لي فيها معاني هذه النغمة القيت السؤال على احد المستمعين ممن كان يبحث مثلي فى جماعتنا عن معاني الآلة قائلا له : ماذا تعبر عنه هذه النغمة ؟ فأجاب فى الفور : تعبر عن الاستعطاف وعلى اثر هذا تخيل الاستاذ عبد الكبير الفاسي فى توشية القدام قصة غرامية يدور محورها حول الرجاء والاستعطاف فاذا سمعتها وطبقت عليها تلك المعاني تظن كأن واضع التوشية فكر فى تلك القصة ، ثم بعد ذلك صرت اسمع أن المتسولين يتلمسون الصدقات بنغمة اصبهان وانه يقال ان خرصة الجنة تطرق باصبهان ، بل قال الحايك فى كتابه « ان ملائكة الرحمن وحور الجنان يسبحون بنغمة الاصبهان » ومن امثلتها :

يا صورة قمر فى البشر — لا تهجر محبك
ياسلطان جميع الصغار — آش يطفي لهيبك
تسحرني بذوك الشفار — المولى حسيبك
اعلاش ياكحيل العيون — بذوك الجفون
اللي قدر الله يكون — آش انه احتيالي

اما الرصد فانه يدل على الاباء والنخوة والعزة والكبرياء ، وقد كان واضعه اميرا عظيما له نفس شماء وابتلى بغرام متأجج وابت عليه همته ان يتنازل فهو كلما غلبته عاطفته والجأته للخضوع تربأ به تلك العزة المتمكنة من نفسه عن ان يظهر بمظهر الذليل فيرجع لعزته ، لذلك نحس عند سماع نغمات الرصد كأن فارسا يحاول ان يسوس فرسا جامحا فيجذب اللجام اليه فتغلبه ثم يحاول وهكذا وهو فى نفس الوقت يعبر بالنسبة للمعشوق عن معاني التيه والدلال وكل هذه المعاني تدور حول الاباء والنخوة .

نهوى من الغزلان — ظبيا شرود
يزري بغصن البان — بين القدود
وحسنه الفتان — يسبي الوجود
قد اسمرت عيناه — هذا الغزال
لمغرم يهواه — يرسل نبال

اما رصد الذيل فانه يعبر عن معاني الاستسلام والصبر والخضوع للقدر والرضى بما قضى الله وتحس عند سماعه بهدوء وسكينة يتسربان الى النفس ، ولهذا يقولون (اذا طال الليل فعليك برصد الذيل) لان من شأن ذلك الاستسلام ان يسلمك الى النوم من شأن تلك السكينة ان تساعد عليه .

ومن امثلتها :

يا من نقض عهدي — وخان المودة
اسرفت فى البعد — وهجرك تعدا
يا غاية القصد — عبيدك تفدا
تبدلت طباعك — وانا على العهد باقي
تهجر ما عليا — اش يلك بهجري

وقد وصلنا الى النوبة السادسة وهى غريبة الحسين والمعاني التي تعبر عنها هى الاسى والحزن والخشية التي تثير العبرة ، فنغماتها شجية والحزن الذي يتجلى منها حزن عميق صامت ينبعث من أعماق القلب ، وهى بهذه المثابة تعبر كذلك عن العاطفة الدينية الصوفية ، وقد قيل لي بعد ان لمست هذه الصفات ان ما يقوله مشيعوا الجنائز هو فى نغمة غريبة الحسين ، ويحكي عن سبب وضع هذه النوبة قصة ان لم تكن صحيحة من حيث التاريخ فهى تعبر أصدق تعبير عن هذه المعاني ، فقد قالوا ان أحد الامراء يسمى الحسين كانت له حظية يحبها ثم وقع منها ما جعله ينبذها ويهجرها ، فلجأت الى الموسيقى تتسلى بها عن محنتها وتودعها حر جواها وحزنها ، فوضعت هذه الالحان ، فلما بلغت مسامع الامير صفح عنها وقربها ، وقد كانت غريبة منفردة حتى كانت تنعت بغريبة الحسين لذلك سميت هذه النوبة التي الفتها باسمها ، وهذه القصة من نوع الاساطير التي يقال عنها انها اصح من التاريخ . ونرى كذلك (الحايك) يقول عن غريبة الحسين : « هذا الطبع ونغماته والحانه تثير فى قلوب المستمعين الرافة والتحنن وسكبان عبرات المقل » ومن امثلة توشية غريبة الحسين التوشية المعمرة وهى :

هل لي من مداوي الهوى
يداوي سقامي عاجلا
قلبي الهوى انكوى
ودمعي ثراه سائلا
نجمي فى الهوا هوى
وحبي تراه مائلا
عن لقائي ما نوى
ان يكن لدى واصلا
بغيتي منيتي
عالج يا طبيب سقمي ودائي
عسى عن قريب نبلغ منائي
عالج يا طبيب قلبي الكئيب
بوصل الحبيب دمعي اجمع من غير رقيب
فى روض عجيب منعم خصيب
يقول الاديب ما ابدع يعجبني الاريب
الزهر : معتبر : للنظر :: لمن حظر

والنوبة السابعة هى عراق العجم ويعبر هذا الطبع عن معاني اليأس والخيبة وانقطاع الامل فى المحبوب وفى كل المتمنيات ، وانك تحس عند سماعها كمن يندب حظه وكانك تسمع عويله ، وهنا يجب أن أنبه الى كل هذه المعاني فى كل الطبوع تعبر عنها الالحان مجردة عن الاقوال ، وان أعظم فساد منيت به هذه الموسيقى ، انه عندما فقدت هذه المعاني لم يبق الموسيقيون يربطون بين الاقوال والالحان بل صارت البراعة عندهم ان يعمدوا الى ابيات من نفس البحر المنظومة فيه الاشعار الاصلية ويجعلونها عوضا عنها ويسمون هذا الافساد التركيب ويفتخرون به ، وكانوا يفعلون هذا من جهة للتفوق على صغار

المتعلمين الذين لا يستطيعون ، فينفرد حافظ الشعر الجديد بالانشاد ومن جهة اخرى للهرب من بعض المعاني التي يتشاءم منها ، واوضح مثال لهذا تصدرة قدام عراق العجم ، فقد غيروا بيتيها الاولين ولكنهم تركوا بقية الابيات على ما كانت عليه ، فصار اول الصنعة .

اقبلت دولة الرضى ومضى الهجر وانقضى

والبيت الرابع يقول :

يوم بانوا احبتي ضاق بي وسع الفضا

وعليه فلا شك ان اول الصنعة كان ادبرتدولة الرضى لا اقبلت ومن الدليل على هذا ان اهل تطوان يستعملون كتصدرة لهذا القدام :

عندما جئت للديار ودموعي للخدود
وفؤادى على الجمار نارها وقود الخ ...

وهى انسب لمعاني عدم بلوغ الاماني ، ومن اعجب ما يتصل بهذا الطبع ما حكاه احد الشيوخ وكان حاضرا بالمشور بفاس يوم 30 مارس سنة 1912 بعد توقيع معاهدة الحماية قال : « وكان الجو مكفهرا والشمس مغطاة بالسحب القاتمة والنفوس مكتئبة والقلوب مفعمة حزنا والجوق الموسيقي اخذ يعزف قدام العراق العجم فاحسسنا كأن تلك النغمات تندب حظنا وتبكي على مصيرنا » .

ومن امثلة تصدرة درج عراق العجم :

لو كان شوقي كيف دعاني دعاك
لكان طرفك دائم يرعاني
انا نعاين يكمل سعدي معك
وانت ينقص بلعاني
حب الحبيب اعداب
للقلب لا راحة فيه
لولا دموع الهداب
ما كان ما يطفيه
الناكر الكذاب
يظهر ولو يخفيه

واما نغمة الماية فهى التي كانت من اسباب اقبال الشباب على الآلة وتذوقها بما سمعوا من بعض نغماتها التي تعلمتها ثلة من الفتيات . وصرن ينشدنها بصوت رخيم جميل فانها تدل على الافتراق والابتعاد وانتهاء مجالس الفرجة والسلوان . لذلك كانت جل اشعارها تعبر عن معاني الغروب ووصف العشايا واصفرار الشمس كما يصفر وجه العاشق عندما يبتلى بفراق معشوقه ، ولذلك ايضا اختاروا لها من الاوقات العشية واول الليل .

وقد كان ذكر لي الفقيه العلامة الاديب الشاعر ابو العباس الازموري رحمه الله وكان قاطنا بابن احمد وكانت تجمعني واياه بعض المجالس الادبية ، وكان له ولوع بالموسيقى: ان السلطان مولاي الحسن رحمه الله كان يتشاءم من الماية لانها تنذر بالفراق وتشتيت جمع الاحباء لذلك كان يامر المطربين بعزف نوبة العشاق فى العشية ، ومن امثال العامة « عكس القضية ، فى العشية » ولا ادرى هل هذه القولة ترتبت عما ذكر ام هو مثل قديم ، ومثال صنعة البطايحي :

فى كل الغروب وكل العشيا
لوعتي تظهر وحالي يشتهر
نفنى ونذوب ويظهر عليا
وانا نهيم اكثر ولا تعدر
ما هى القلوب اشر لي من جنيا
ومن يطقيصبر على شمس النهار
افني يا شمس وفروز ومعنى
اخرج بكري واعجب
تجد اوراق الجنان مرشوش
مفضض ومذهب
صنعة من قائم ونصف الاستهلاك
اتلفت بالحسن منك لبي
فكيف لا يا هلال عيدي
احسن ملكي ان تطير عن جفني الوسن
سلمت انت يا حسن اما انا ففي المحن
لو كنت يوما راحم صب
ما كان هجرك فى مزيد
يا ساكنا فى مهجتي
ومن اليه صبوتي
احماك جد بعطفة
يا بغيتي ومنيتي
جد وصالي

وبعد الفراق ياتى التذكار وهذا ما يعبر عنه طبع الاستهلال ، الذي اعتبره شخصيا اجمل ما فى الآلة والذي يكلل مدينة فاس بباقة من الفخر التالد لانه ولد على ضفاف وادي الجواهر ، وهو الطبع

الوحيد الذي نعرف بالضبط اسم واضعه وتاريخه ، واسمه الحاج علال البطلة كان أيام السعديين ويقال انه كان من الموسيقيين المرموقين وكان له باع طويل فى فنه وقد كان قريب عهد بالعصر المريني الذي ازدهرت فيه كل الفنون فى بلادنا وقد كانت الروح الابتكارية لا تزال حية فوضع هذه النغمة الجديدة وضمنها معاني أوحت له بها ولاشك كثرة مخالطته لتراثنا الموسيقي ، وقد كان لا يزال يزخر بطبوعه الكثيرة المتنوعة التي تذكر بعصر ازدهار حضارتنا ايام الموحدين والمرينيين ، وقد لاحظ انه رغم كل هذا فان بوادر الركود بدات تظهر فعمل على انعاش هذا الفن وأراد أن ينفخ فيه روحا جديدة فكان تاليفه لهذا الطبع تحت تأثره بهذه الظروف لذلك كانت هذه النغمة تعبر عن الذكريات الحلوة والمجيدة وتحيي للمستمع أيام السلوان الخالية وتستعرض مباهج الحياة التي تمتع بها الموسيقى الموهوب الذي توفق فى تشخيص كل هذه العواطف والافكار فى مختلف ميازين الاستهلال، ويقال ان سبب تسميته بالاستهلال انه لما كان أول ما عزفه فى حفلة بالقصر أمام الامير السعدي ، وقد استهلت بعزف هذا الطبع الجديد فسمى الاستهلال .

وان « البيتين » اللذين ينشدان للاستهلال كما وردا فى كناش الحايك ينمان عن المعاني التي يعبر عنها هذا الطبع وهذان البيتان هما :

بالاستهلال الذي تنمق ذكره
لحضرة فاس أصله ذوي الكرم

ترنم واشد وكن به مولعا
فنغمته الحسنا تهيج لى الغرام

وعلى ما فيها من اعوجاج فان قوله « فنغمته الحسنا تهيج لي الغرام » تعبر عن فحوى معنى الاستهلال لانها تجعله يتذكر الغرام ويستحضره ، ويتذكر الايام الحلوة الجميلة التي انصرمت ، والتذكر يستدعي الحسرة والتفكير فى هجر الحبيب مما يقتضي محاولة الاتصال به بالرسل والكتب ثم وصف هيام العاشق عند التذكر وكل هذه المعاني نحس بها ونلمسها فى الاستهلال .

بقى علينا أن نتكلم على طبعين عظيمين هما رمل الماية والحجاز الكبير ، أما رمل الماية فقد كان فى اصل كلامه فى التغزل ونحوه مثل ما هو الشأن فى كل النوبات ليناسب الكلام مع المعاني التي تؤديها نغمات كل طبع ، وقد فكر أحد العلماء من رجال القرن الثاني عشر وهو أبو العباس احمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي وكان له باع طويل فى العلوم الموسيقية وعنه أخذ الحايك التطواني جامع اشعار الآلة ، فكر هذا العالم الجليل فى تخصيص طبع رمل الماية لتمجيد النبي صلى الله عليه وسلم لان المعاني التي يعبر عنها هذا الطبع هى العظمة والجلال والعزة والسمو وكل صفات الكمال البشري فكانت نغمات رمل الماية انسب نغمات الموسيقى للتعبير عما يكنه المسلم المخلص من تقدير واجلال لمقام الرسول عليه السلام، وتوجد فى بعض الكنانيش القديمة الاشعار التي كانت تلحن فى رمل الماية قبل ان يخصص هذا الطبع للمديح وقد نتج عن هذا التحويل ان اخذ الموسيقيون « الاليون » يحيون ذكرى المولد النبوي كل سنة بأن يجتمعوا بفاس فى ضريح أبي السعود الفاسي فى الصباح المبكر من يوم عيد المولد وينشدوا كل ميازين رمل الماية بدون آلات وانما بالتوسيد فقط اعترافا منهم بفضل أبي العباس الفاسي فى هذا المضمار ، وقد استمرت هذه السنة الى أوائل هذا القرن ثم توقف العمل بها بعد وفاة كبار الموسيقيين ، وكنا نسمع بهذا فى عائلتنا أيام طلبنا العلم ونتاسف على أن ضاعت هذه السنة فاردت مع ابن العم الزعيم علال الفاسي احياءها ، فوجدنا عند كبار المعلمين اذاك تحبيذا وتاييدا وكان ذلك منذ اكثر من خمس وعشرين سنة ، واقيمت بعد ذلك حفلة موسيقية رائعة حضرها العلماء وهواةالموسيقى وكل الموسيقيين الكبار ، وكان اكثرهم لا يزالون على قيد الحياة ، وشيخهم الفنان الشهير البريهى قد كان سبق له فى صغره أن حضر الاحتفالات التي كانت تقام بهذه المناسبة فكان اداة الوصل بين الماضي والحاضر ، وقد استمرت عادة اقامة هذا المهرجان كل سنة الى ان توقف لعدة اسباب ، وعسى أن توفق جمعية هواة الموسيقى باتفاق مع العائلة الفاسية الى احيائها من جديد ، وقد حكيت لكم هذه القصة لما يظهر خلالها من عناية واهتمام بالموسيقى فى كل الاوساط ، وان صنعة « صلوا يا عباد » هى تصدرة البسيط .

صلوا يا عباد دايم على اشرف الورى
وارضوا عن العشرة الكرام البررة

صنعة من بسيط الحجاز

للـه يوم عمنا فيه التهاني والسرور
نظم فيه شملنا نلنا الاماني والحبور

واخيرا نتكلم على الحجاز الكبير ويطلق عليه عادة اسم الحجاز باختصار وقد اخترت ان اختم به الكلام على النوبات الاحدى عشرة لما تعبر عنه نغماته من معان عميقة سامية تثير فى النفس بالخصوص للحالة التي يكون عليها الانسان عندما يبلغ أوج السعادة ويرى كل امانيه تتحقق ويحس بنعيم الاطمئنان ولذة الهناء حتى انها تعبر على ما يظهر لى احسن تعبير عن المقامات الروحية السامية والحالات النفسية التي تبلغها بعض النفوس بعد مجاهدات صوفية مما يعبرون عنه بالفناء وقد تضفي هذه المعاني من جهة اخرى على نغمات الحجاز الكبير حلة من الجلال والبهاء تجعل المستمعين يتاثرون لها وترغمهم على الانصات بوقار واجلال .

وهكذا نرى أن النغمات التي يتركب منها مجموع هذا التراث الفني الفريد لا يزال رغم ضياع اجزائها الكثيرة ذخيرة ذات بال تقدرون معي اهمية هذا الاتجاه الذى اريد أن أوجه فيه المشتغلين بالفن الموسيقي فى بلادنا ، ولا شك انه سيكون لنشر الثقافة الموسيقية بهذه الصورة فى المدارس وفى المعاهد الخاصة اثر فى احياء روح الابتكار بين الموهوبين .

وعسى أن نوفق الى استخراج كل النغمات الاخرى التي ضمت الى النوبات الباقية حتى يمكننا ان ندرس معانيها وسوف يكون فيها ميدان واسع لمن يريدون التعبير بواسطة الانغام عن احساساتهم وعواطفهم .

من مآسي الفردوس المفقود

للدكتور: زكي المحاسني

(دمشق)

« السيد الكامبياذور » (*)

« السيد يقرب منا نحن العرب ، فاسمه من عندنا، وحياته امتزجت بتاريخنا في الاندلس ، « هورودريك » روي دياز البيفاري ، الملقب بالسيد الكامبياذور وسماه عرب الاندلس « القمبيطور » و « الكنبطور » . أحاط بأخباره ضباب كان ينكشف حينا فيبدو « السيد » ضاحيا في المعركة متألقا بالشعر ، وحينا يستتر مثل الخيال .

مررت على أخباره في مصنفات الاندلس فاذا العرب ينظرون اليه نظرة شذراء مقيتة ، فلقد حملهم هو عليها بما صنع في أمصارهم ، اذ خلف الدمار والتقتيل . ورآه مؤرخو قومه أعطية مجد وصاعقة حرب فأحاطوه بالتهاويل ونسجوا عليه التمجيد .

يبدأ ظهوره في اسبانيا أيام بني هود ، وكانوا أصحاب حاضرتهم سرقسطة « Saragosse » كان شابا مغوارا تحدر من دماء اسبانية وتمرس بالحرب والقتال، قربه بنو هود اليهم لينضم الى مواكبهم في الحرب ، وكانوا يحاربون به جيرانهم العرب في جلاد ذلك العهد من ملوك الطوائف في الاندلس ، حين ضعف سلطان المسلمين ، وهب كل متسلط فيهم ينصب نفسه أميرا ولو في رقعته الصغيرة . ويكون مملكة وجيشا في بلد أو بلدين، معتصما بالحصون . وقد دب التخالف والنزاع بين هؤلاء الامراء ، فكانوا في عدوان مستديم يثب فيهم مدع على عرض أو يقتل أو ينبذ أو يشرد . وتاريخهم في ذلك التنابذ والخلاف صفحات سود لم يشهد الزمن لها مثيلا في سير الامم . فان الاسبان كانوا يتربصون بهم المتالف. وضعفاؤهم يستعينون بملوك الاسبان . وكان هؤلاء يفرطون في النكايات بين العرب ليخلو لهم وجه الظفر ، وليستردوا منهم بلادهم التي احتلوها منذ اجتاز اليهم الفاتحان العربيان طارق بن زياد وموسى بن نصير ، وفي غمرات ذلك التخالف والتعادي بين ملوك الطوائف قام « السيد الكنبيدور » بلعبته الكبرى ، فاذا هو يصبح في

(*) شرح ليفي بروفنسال معنى كلمة (Campeador) في اللغة الاسبانية القديمة وهي اللغة الرومانسكية اللاتينية (Champion) ومعناها في العربية المعروفة بالاندلس يومئذ هو (صاحب الفحص) Dominus Campi وقد اعطى بروفنسال كلمة الفحص معناها القديم اذ كانت تدل على الحقول والمروج ، فيكون معناها الاصيل (سيد المروج) وقد وجدت معنى الفحص عند الفيروز آبادي — وهو يعني — بالاسماء خاصة — (الفحص كل موضع للسكن ومواضع في الغرب — يريد الاندلس — وهي فحص طليطلة واشبيلية . اما المعاجم الفرنجية فأكثرها على ان معنى الكنبيدور ، البطل وقد رسم اسمه لسان الدين ابن الخطيب الكنبطور ورسمه المقرى القنبيطور . وكلمة السيد « علم اندلسي اضافي لا يزال معروفا الى اليوم في شمال افريقيا وهو (سيدي) وبالاسبانية Mio Cid ويلفظ رودريك بالاسبانية « رودريكث » . Rodriguez

النصف الثاني للقرن الهجري احد أبطال الحروب الاسلامية الاسبانية ، فيشكل جيشا من الاسبان يأتمر بأمره ، وله اتباع ومندوبون ودار قيادة فى سرقسطة لحماية مليكها من غوائل الجيران وكان صاحب سرقسطة فى اواخر القرن الخامس الهجري « يوسف بن أحمد بن هود » (1) ومتن صلاته مع الفونسو السادس ملك قشتالة وجعل يعاهده ويهاديه وكان « السيد الكنبيدور » احد رجالات جيشه ، فأهداه الى بني هود يذود عنهم ، وكانت سرقسطة التي خدم « السيد » ملوكها حاضرة كبرى للعرب فى الشمال تزخر هي وبلنسية (2) بهم ، قامت فيها حضارة عربية أخذت تراثها عن الشرق من دارات أمية ومرابع بغداد ، واكتست أنواف الحضارة الاسبانية . لكن بني هود الذين سكنوا الى الفونس السادس والى «رودريك» (3) لم يطل بهم هذا السكون، فلقد كانت أطماع العاهل الاسباني بعيدة فى استرداد أرضه ، فكان أن تنكر « السيد » لبني هود وطمع بمن جاورهم فتخطى الى بلنسية التي كانت تنعم بالهدوء وترمي بأعينها الخائفة مثل طير يرصده الصياد .

وكانت الاندلس منذ استهلالة القرن الخامس للهجرة قد أحست بميدانها وأوشك زلزالها السياسي أن يظلها زمنه ، وكان انحلالها مثل خدر عرا الاعصاب ثم دب فى الاطراف ، حتى كانت الفزعة الكبرى التي فزع بها الاندلسيون الى ملوك الشمال الافريقي مستنجدين، وأرسلوا القصائد النواحة المرنة والوفود الداعية المحزونة بابتهالاتها حتى استجاب « يوسف بن تاشفين » ملك مراكش ، لا استجابة المغيث الحادب وانما عون الطامع المتربص (كذا) . وقد تولى طلب الغياث باسم ملوك الطوائف « المعتمد بن عباد » وخاضا الحرب متكاتفين فدحرا الجيوش الاسبانية التي كان يقودها ثلاثة ملوك فيهم الفونسو السادس ملك آراغون ، واتيح للعرب يومئذ فى الاندلس بتلك الهبة من كبواتهم أن يؤخروا مصيرهم الدامي أربعة قرون . ثم انقلب ابن تاشفين على المعتمد واستولى على ما فضل من يد الاسبان فى دارات الاندلس الرميمة وفى تلك البارحة من نوازل الزمن هب « السيد الكنبيدور » فغزا بلنسية شر غزوة .

لقد حاصرها عشرين شهرا ، ثم دخلها صلحا ففر منها القادر بالله بن ذي النون وكان فيها لاجئا وكان يحميها قاضيها « أبو المطرف الجحاف » بعد أن أقره عليها ابن تاشفين ولم يكن « السيد » طامعا فى حيازة بلنسية ليكون أميرها ، فقد كان بطوقه ذلك ، وانما طمع بالكنز الثمين الذي تركه فيها القادر بالله عند القاضي ابن الجحاف — كما يروي المؤرخون الاسبان والفرنسيون اذ يقول قائلهم : ان القادر بالله « اللاجىء » الى بلنسية كان يملك من الالطاف والتحف ما يساوي كنزا من الكنوز . وهو تراث جواهر وعقود كانت لهارون الرشيد وهبها لزوجته الفضلى زبيدة . ولما حدثت الحرب بين ابنيه بعده الامين والمأمون وقتل الامين وفى حوزته تلك الجواهر من صوب أمه ، وقعت فى أيدي النهاب ، وصار أمرها الى تجار حملوها الى المغرب ، حتى صارت الى الخليفة الاموي « عبد الرحمن الثاني » ملك قرطبة (4) وكان يجد هؤلاء الملوك فى الاحتواء عليها — كما ارى من خلال تحليلي النفسي — شعورا غريبا فيه كثير من الفرحة والشماتة . فقد عاشوا فى المغرب يتلهفون على المشرق منذ اطاح بهم اهلوه وراء البحار ونجا منهم الامويون الذين اقاموا على الشواطىء الغربية مملكة للعرب فى الاندلس وكان بين تلك الجواهر عقد من الفيروز المندور كانت تلبسه السيدة زبيدة وتتيه به بين نساء الخليفة ببغداد .

فلما اشتد الحصار على بلنسية فر منها القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن ذي النون (5) مستخفيا بلباس امرأة ، فلحق به من عرفه فقتله بأمر ابن الجحاف وخلا الجو لقاضي بلنسية ابن الجحاف — كما يقول فيكتور بيكيه — فأخفى الكنز الذي كان فى حوزته . وحين فك « السيد » الحصار عن بلنسية ودخلها مصالحا ، اتخذ سبيل الخداع لدى القاضي ، وترصد غرة منه للوثوب عليه . وكان « السيد » أقدر من أن يحاط به ، فملك زمام الحكم فى بلنسية ، واحضر القاضي الى مجلس العدول والشهادة واحضر وجوه الاسبان من أعوانه ، وطالب القاضي بكنز القادر بالله . فأنكره . فاشهد عليه « السيد » أنه ان وجده ليحرقنه بالنار ، فرضى القاضي ابن الجحاف بهذا الشرط الوبيل . ويذكر

---

1) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري ،طبعة السعادة بمصر سنة 1949 ج 6 ص 198 .
2) Valence
3) سمى عرب الاندلس الفونس « اذ فونش » ورودريك « لذريق » .
4) هذه الرواية الخاصة بكنز زبيدة تظهر جلية عند (فيكتور بيكيه) فى كتابه (اسبانيا العرب) « L'Espagne des Maures » طبع الناشر « بوكار » بباريس سنة 1946 ص 134 .
5) يسميه لسان الدين بن الخطيب (ذنون) ويسميه ابن بسام (ذا النون) .

مؤرخو العرب واخصهم لسان الدين بن الخطيب (6) ان القاضي احتوى مال القادر بالله . لكن فكتور بيكيه يدين ابن الجحاف باخفائه ، وبعد حين سعى الى « السيد » « الكنبيدور » كما يقول هذا المؤرخ ، احد عبيد القاضي فدله على مكان الجواهر ، فاستخرجها « السيد » وقدم القاضي لمشهد الانتقام .

ودنا يوم القاضي ابي المطرف بن الجحاف فشهدت بلنسية يوما لا ينساه الدهر ، فقد حفر اعوان « الكنبيدور » حفرة في ساحة عامة انزلوا فيها القاضي الى نصفه ، ورصوا عليه التراب ، وحلقوه من حوله بالحطب الجزل والقش الهشيم .

وأمر به « السيد » فاضرمت عليه النار ، وجعلت تلفحه ، فكان من القاضي ثبات الرسل والصالحين كان يصرخ (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم جعل القاضي الشهيد — كما يروي لسان الدين ابن الخطيب والمقري — (7) يجذب العيدان والدفوف ليقربها الى جسمه بيديه الكليلتين ليسارع في احراق نفسه تخلصا من العذاب . ولما ذاب جسمه ، وصعدت روحه الى بارئها تشكو ظلم الانسان للانسان ، هب اهل بلنسية مستصرخين لهذا الهول . ثم ان « السيد » هم باحراق اولاد القاضي الصغار فركض اليه المسلمون والنصارى معا يعطفون قلبه عليهم حتى تركهم . ثم قدم العلماء والاعيان فأحرقهم « السيد » جميعا واخذ سائر اهل بلنسية بالعذاب . وكان ممن أحرقوا يومذاك الشاعر ابو جعفر البتي .

يقول ابن بسام في الذخيرة ان اهل بلنسية كانوا يومئذ في غشاوة من الموت . ويصفهم لسان الدين بأن صراخهم كان يتجاوب امام المحنة . وقد حدد فيكتور بيكيه هذه المحنة بيوم 25 يونيو (حزيران 1094 للميلاد) .

كذلك عاش « السيد الكنبيدور » عيشة محارب سالب للعرب ومناصر لهم ، ثم خاذل لعهدهم وشاقه أن يعيد في تاريخ الطغاة سيرة (نيرون) محرق روما . وصار به عنته الى أن استقل ببلنسية وضرب باسمه عملتها فلم يك تابعا لحكومة الاسبان ولا مظاهرا للمسلمين .

ولم يجد العرب بعد هذه النكبة الاندلسية الا بكاء شعرائهم عليهم ، فكانت المراثي عزاءهم ومنها قول ابن خفاجة مخاطبا بلنسية :

عاثت بساحتك الظبا يا دار
ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد في جنانك ناظر
طال اعتبار فيك واستعبار

لقد كانت حياة « السيد » ملبوكة بالمعارك ، وكان شعاره قوله : « رودريك يخسر اسبانيا . ورودريك يستردها » ولم يهنأ « السيد » باستيلائه على بلنسية طويلا ، فقد انهكه المرض وباتت نهايته قريبة . لقد ارسى اواخر حياته جيشا لحرب المرابطين فهزم وتشتت شمله وانكسر باجمعه فاحدثت له هذه النازلة قهرا جسيما ، فمات سنة 1099 للميلاد الموافقة لعام 492 للهجرة (8) .

وحاولت زوجته (شيمين) قريبة الفونس السادس أن تحكم بلنسية ، لكنها اخفقت قبل انقضاء عامين على موت زوجها « السيد » فتركت بلنسية وارادت ان تحمل معها جثة « السيد » ثم بدا لها ان تحرقها ، وخرجت من بلنسية لا تلوي على شيء ، يعينها ملك اسبانيا ، وعيناها تفيضان بالحسرات عند نهر الوادي الكبير .

* * *

ان اخبار « السيد » الكنبيدور » قد استقيت اول امرها من التاريخ اللاتيني قبل عام 1233 من كتابات (Des Gesta Roderici Campidorti)
وراحت حياة « السيد » وقصته خبرا مشاعا في اغاني الشعب الاسباني المسماة Romancero وانسكبت خلال السنين المتعاقبة ، في روح ملحمة شعبية سميت « قصيدة السيد » (Cantate del Cid) وقد وضع فيها « رامون ميناندير بيدال » كتابا منفردا درس فيه

---

6) و (7) « اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » نشر بروفنسال الذي اعطاه اسم تاريخ اسبانيا الاسلامي ، طبع دار المكشوف ببيروت سنة 1956 ص 182 ، 203 . ونفح الطيب الطبعة السابقة ص 199 . ولم يفصل القول في اخذ بلنسية واهلاكها « عبد الملك بن سعيد الاندلسي في كتابه (المغرب في حلى المغرب) وقد نشر مخطوطه القسم الخاص بالاندلس وحققه صديقنا الدكتور شوقي ضيف استاذ الادب العربي بجامعة القاهرة طبع دار المعارف بمصر سنة 1953 ج 2 ص 300 .

8) كان مولده عام 1030 للميلاد .

تاريخها الشعبي وألف بين ابياتها . وقد رويت في ثلاثة اناشيد ، كل منها يسمى Cantor . وقد نظر الدكتور بيدال ما في هذه الاناشيد من عناصر روح « السيد » وشواهد التاريخ ، وذكر الترجمات الحرفية لها من اللفظ الاسباني القديم الى اللغة المعاصرة ، وتقرى ما فيها من أسباب الغناء والرقص الشعبي والحماسي وكيف قلدت في الادب الفرنسي وما احاط باناشيدها من الابهام وما لها من القيمة في الفن والتاريخ (9) .

لقد زوق (رامون بيدال) هذه القصيدة الشعبية ونسج عليها أدبا رفيعا عاليا رفعها الى مصاف الملاحم الاسطورية . فهي اليوم ترداد كل لسان مثقف باسبانيا، تبعث في النفوس ذكرى حروب « السيد » العتيقة ومغامراته في الانتقام والغرام . وكانت هذه الملحمة لا تخلو ، كما يقول عميد الادب الاسباني نفسه من مقاطع ظهر فيها المسلمون اعداء لابد من قتالهم (10) .

لقد أوحت حوادث الحب في هذه الاغنية الشعبية التي كانت ملحمة الاسبان مسرحيتين شعريتين وضع أولاهما الشاعر الاسباني « غيوم دوكاسترو » (Guilhelm de Castro) سنة 1618 فمهد السبيل بعمله الادبي للشاعر « كورنيي » العظيم 1636 الذي اعطى ادب أمته اغلى منحة مسرحية في الشعر الكلاسيكي . وكان القدر سخره لتخليد « السيد » بمسرحيته الفائقة . وقد احتفظ كورنيي بالطابع القديم لسيرة « السيد » ولزم الاسماء التي وردت فيملحمته الاسبانية وفي مسرحية دو كاسترو ، لكنه ادخل على الحوادث اسهابا وتنويعا ومفاجآت اقتضاها الفن المسرحي الكلاسيكي ، وقد ادار حوادث مسرحيته على البطلين « رودريك » الذي هو « السيد الكنبيدور » و « شيمين Chimène » محبوبته . وقد أساء والد شيمين وهو « دون غوميس » الى والد السيد وهو « دون دييخ » اذ صفعه على وجهه وكانا عظيمين اقطاعيين . فلم يستطع الشيخ دون دييخ لوهن جسمه أن يرد الصفعة ، فندب ابنه « السيد » لينتقم له من ضاربه « الكونت » فتقدم رودريك يحدوه الشرف الى مبارزة دون غوميس والد محبوبته ، فقتله .

وهنا يهب اعصار الرواية ، فتقلب « شيمين » على «السيد» وتشكوه الى الملك ليقتله بقتل ابيها منكرة حبها « للسيد » وكانت تراه قبل فعلته الآثمة ، منية الحياة وأمل الروح . ولم يرهب رودريك فقد تقدم اليها بسيفه وهو يقطر بدم ابيها طالبا ان تأخذ هي بيدها الثأر بقتله ، معلنا انه قتل اباها ليمسح عن مجد أبيه تلك الصفعة المهينة ، وليكون في نظرها جديرا بالمحبة المنيعة .

وتتحاور على مسرحية « السيد » لكورنيي خمسة فصول عنيفة . من ارق ما جاء فيها هذه النجوى المحزنة من حوار بين « السيد » وشيمين .

— لم خلف لنا آباؤنا آلاما ودموعا ؟ .
— من كان يتصور ما نزل بنا ، يا رودريك ؟ .
— من يمر بخاطره مصابنا ، يا شيمين ؟

ولا يجد الصفاء سبيلا الى القلبين المتحابين ، فيبرز الى المسرح منافس جديد هو « دون سانشو »

---

9) La Epopa del Cid طبعة « كالب » بمدريد سنة 1951 ص 99 .

10) افتتحت مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد عددها الاول سنة 1953 بمقال ضاف عن (اسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والاسلام)كتبه لها خاصة كتحية اسبانية للدراسات المصرية رامون بيدال « اظهر فيه تاثير الشعر العربي على الشعر الاسباني وورد فيه قوله الجميل : (لا تعجب ان يؤثر الشعر العربي في شعر الاسبانبل اعجب أن لا يكون قد أثر) ص 19 .

وفيه كانت بين الدكتور رامون ميناندیز بيدال وبيني مواسلات « منذ اكثر من عشر سنين وقد كتب مقالا » عني كما كتبت عنه وجاء في كتبه كلمة (عصر السيد) مكررة ومعادة فاقترحت عليه لما للسيد من مآثم — ان يسمي عصره بعصر المعتمد بن عباد » فقبل ذلك ووعد بابدال تلك التسمية في طبعات كتبه الآتية — وله من الكتب ما اربى على المائة .

وفي عام 1960 بلغ من العمر الخامسة والتسعين فاحتفت بذكرى هذه السنين الغالية اسبانيا بأجمعها وامريكا اللاتينية وسفارة الجمهورية العربية السورية بمدريد والمركز الثقافي العربي بمدريد واثناء المأدبة التي اقامتها السفارة السورية للرئيس العظيم الدكتور رامون ميناندیز بيدال لهذه الذكرى وقف محييا واخرج من جيبه قصيدتي التي حييته بها وقد نشرت بمجلة الاديب البيروتية آنئذ وطلب الى السفير الاديب ان يتلوها بالعربية امام الحضور وقد كتب لي السيد السفير أن شعورا شاع في نفسه ملأها اعتزازا حين عرف ان أحدابناء قومه وهو المحاسني صديق لهذا الاديب العظيم .

خاطبا لشيمين . فيتصدى له رودريك ، يدفعه عـــن حبيبته بالمبارزة ، فيحكم الملك الاسباني بين الرجلين ان من قتل الآخر فله العروس شيمين .

ثم لا تلبث شيمين ان ترى بعد المبارزة ، وهي والهة مراعة ، دون سانشو ماثلا معافى . فتكاد تصرع وتهجم عليه ، ضاربة على صدره بيديها ، لاعنة ، لانه قتل حبيبها الاوحد . وفى ثورة قلبها المفجوع تعلن انها تحب « السيد » على الرغم مما أثمت يداه . واذا بالسيد رودريك يبرز لها من وراء سارية وهو حي سليم .

لكن دموع شيمين لا تجف على أبيها فيمهلهـــا « فيرناندو » ملك كاستيليا (11) سنة قبل ان تزف الى « السيد » حتى يتاح لدموعها الغالية ان تجف ..

وقد صور النقاد الغربيون مسرحية كورنيي (انها نشيد الرحيل الى عهد عظيم حافل ببطـــولات الادب والتاريخ (12) وكانت فجر العهد التحليلي لنـــوازع النفوس فى الشعر والنثر والقصة والروايات المسرحية حيث تصطرع المحبة والبغضاء ويتقاتل الغرام مـــع المطامع ، ويسود الشرف والاباء والواجب على كـل شيء .

ودخلت فى تعابير الادب العالمي عبارات من هذه المسرحية التي كفلت لشاعرها الخلود فارتقى كلامها فى بعض روائعه الى درجة القول المأثور والحكم البالغة . ومن اجمله قول « السيد رودريك وهو يبارز والـد حبيبته دون غوميس :

— انني فتى حقا ، ولكن النفوس الاصيلـة ، لا تنتظر من اقدارها عدد السنين ..

ولقد كنت افرغ من موضوع « السيد الكامبياذور» وقبالة تصوري ابو الطيب المتنبي شاعرنا الاعظـم الخالد البطل الذي كان يقول قبل « السيد » :

فما الحداثة عن حلم بمانعـــة
قد يوجد الحلم فى الشبان والشيـب

---

11) Castille وسماها العرب قشتالة .

12) طبعة هاشيت بباريس سنـة 1935 ص 192 (Corneille, Le Cid) وما بعدها فى آراء النقـــاد بمسرحية « السيد » لكورني .

المستعربون الاسبان في ظل الحكم العربي

للدكتور أسعد حومد
(دمشق)

الدكتور اسعد حومد من خيرة رجال الفكر والقانون فى سوريا الشقيقة وقد تفضل فخصنا ببحث من كتابه المخطوط « محنة العرب فى الاندلس » ننشره شاكرين :

حينما شرع المسلمون فى فتح الاندلس عام 92هـ (711 م) ، كانت نظريتهم فى معاملة الامم المغلوبة قد تبلورت وتكاملت ، ظهرت نتائجها الطيبة فى التطبيق . اذ اجتذب التسامح وحسن المعاملة ، وسهولة فهم الدين ، الملايين من ابناء تلك الامم الى الدين الاسلامي ، فكانوا قوة جديدة تتحمس لنشره ، وتدفع اذى اعدائه وخصومه فى ميداني الحرب والجدل .

ومنذ ان حقق المسلمون اول نصر لهم فى اسبانيا بداوا بتطبيق قواعدهم العامة دون تخبط او اضطراب، فوجد الاسبان من المسلمين عدلا ووفاء بالعهد ، وحرمة تامة للمجتمع القائم واعرافه ، وعدم تدخل فى شؤونه الدينية والدنيوية ، فدخلت افواج من الاسبان فى الدين ، وخصوصا الطبقات الفقيرة والفلاحين ، الذين حررهم الاسلام من ربقة العبودية ، ورفع شانهم وساواهم بمن كانوا فى جيش الفتح من المسلمين السابقين ، وهي امور لم يكونوا يطمعون او يحلمون بها اذ كانت غريبة عن روح العصر ، وعن تقاليد المجتمع الغربي فى ذلك الحين ، اما الذين ارادوا الاقامة على دينهم ، فقد ترك لهم العرب الحرية التامة في ممارسة دينهم ، وجعلوا لهم نوعا من الاستقلال الاداري والقضائي ، مارسوه باشراف كنيستهم ، واعيانهم .

ويحسن بنا قبل ان ندخل موضوع معاملة العرب للمستعربين الاسبان ان نعطي صورة عامة للقواعد التي وضعها الفقهاء المسلمون ، فى معاملة الامم المغلوبة التي قبلت العيش فى ظل الحكم الاسلامي .

وقد شرع الله الاسلام دينا عاما ، وفرض على المسلمين القيام بدعوة الناس اليه ، وهدايتهم الى الحق من ربهم ، والنور الذي اتى به الانبياء والصديقون لتبلغ دعوة الله اكبر عدد ممكن من بني البشر فيعرفوا طريق الخير الى الله وتنقطع معاذيرهم ، وتقوم الحجة عليهم (1) : (ليلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ليهلكَ من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة) (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا) ، (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

ولكن الله فرض على النبي والمسلمين ان تكون الدعوة بالحسنى والموعظة الحسنة ، لان الغاية من

1) ــ التشريع الاسلامي لغير المسلمين ــ عبد الله مصطفى المراغي ص 13 .

الدعوة ، هي تعريف الناس بالخالق ، ونشر الخير على الارض ، لا الافساد وازهاق الارواح واذلال البشر . قال الله تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) . وغاية الدين هي ابلاغ الدعوة ، لا اجبار الناس على الاخذ بها ، لان الله خلق الناس وخلق لهم عقولا تميز بها بين الخير والشر ، وبين الصالح والطالح من النظريات والآراء . وقد كره الله ان تفرض العقيدة على الناس فرضا ، لان ذلك ينفرهم منها ، ويحملهم على الاخذ بها ظاهرا ، ونبذها باطنا ، مع ان الغاية من الدعوة هي اقناع الناس بها اقناعا حرا بريئا ، لتتغلغل افكارها ومبادئها فى اعماق نفوسهم ، فيكونوا لها مخلصين وعلى التقيد بها حريصين . لذلك جاءت آيات كثيرة فى القرءان الكريم ، توجب التزام الدعوة بالحسنى ، وعدم اكراه الناس على ترك ما يعبدون ، للدخول فى الاسلام ، حتى ولو كان ما يعبدون حجارة واصناما :

— لا اكراه فى الدين .

— ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة .

— وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين .

— انك لا تهدي من احببت،ولكن الله يهدي من يشاء

— ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن .

— ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا ، افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .

— فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ظل فانما يضل عليها .

— ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك.

— ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، واولئك هم المفلحون

— فان اعتزلوكم ولم يقاتلوكم والقو اليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا .

ولذلك فان الاسلام لم يفرض على المسلمين القضاء على الاديان الاخرى ، وانما فرض عليهم دعوة الناس اليه بالحسنى ، وشرح محاسنه بالرفق واللين، وبعد ذلك (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما ارسلناك عليهم حسيبا) ، ولهذا يعتبر المسلمون ممن يقبلون التعايش الحر ، مع اتباع الديانات الاخرى ، ولا يتبرمون بوجود هذه الديانات ولا يرسمون سياسة خاصة للقضاء عليها .

ولم يترك المشركون العرب ، الدعوة الجديدة تظهر بينهم بدون مقاومة منهم لها ، وايذاء للنبي وللمسلمين وتابعوا بغيهم وعدوانهم . حتى اضطروهم الى الهجرة من بلدهم مكة الى الحبشة مرتين ثم الى يثرب . لذلك شرع الجهاد للدفاع عن النفس اولا ، وللسماح للدعوة بان تنتشر بحرية دون ان يكون هناك عائق يضغط على ارادة من يريد اعتناقها . (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير .) وبعد ان دانت الجزيرة العربية كلها بالاسلام ، كان على المسلمين ان يحملوا الدعوة خارج الجزيرة . ولكن كانت هناك ، على حدودهم الشمالية والشرقية ، مملكتان قويتان ، هما مملكتا فارس وبيزنطة (الروم) فأرسل الرسول الى ملكيهما رسالتين يدعوهما الى الاسلام ، فرد ملك فارس ، ردا قبيحا ومزق الرسالة ، ورد ملك الروم ردا جميلا . ولكن المملكتين لم تكونا على استعداد للسماح للدعوة الاسلامية بان تنتشر بحرية فى الاراضي الخاضعة لهما ، لذلك كان لابد للدعوة الاسلامية من ان تحطم هذين السورين المنيعين ، لتنطلق بعدها فيما وراءهما، وتبلغ اسماع بني البشر ، فكانت الحرب ، وكان تحطيم الامبراطوريتين العظيمتين فى القادسية واليرموك .

وقد اوجب الدين على المسلمين الا يأخذوا اعداءهم على حين غرة ، والا يقاتلوهم غدرا وغيلة ، وانما اوجب عليهم :

ا — ان يدعوهم الى الاسلام ويعرفوهم به اولا، ويشرحوا لهم تعاليمه ، ويعلموهم بانهم ان اسلموا ، صاروا مع المسلمين يدا واحدة ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، لا ميزة لواحد منهم على واحد الا بالتقوى .

ب — اذا رفضوا الاسلام ، خيروا بين امرين :

ا — اما ان يقبلوا دفع الجزية للمسلمين ، وحينئذ يتركهم المسلمون آمنين فى ارضهم وبيوتهم ، ويصبحون فى ذمة المسلمين ، الذين يكلفون بالدفاع

عنهم وعن أرواحهم وأموالهم . فان عجز المسلمون عن حمايتهم لم تكن لهم عليهم جزية .

2 ـ واما ان يرفضوا الاسلام والجزية ، فلا يبقى امامهم غير القتال .

واذا مضت مدة ولم يردوا على المسلمين بشيء، ينتظر المسلمون مدة تكفي لان يبلغ رئيس القوم ، جماعته شروط المسلمين ، فان لم يردوا بعد ذلك ، وجب على المسلمين قتالهم .

هذه القاعدة العامة في اعلان الحرب على الامم الاخرى ، وهذه هي الشروط التي كان يعرضها المسلمون على جميع الامم التي حاربوها ، ولم يستثنوا غير فئتين من الناس :

1 ـ المشركين العرب ، الموجودين في داخل جزيرة العرب .

2 ـ والمرتدين عن الاسلام ، بعد الدخول فيه .

فهاتان الطائفتان ، كان على المسلمين تخييرهما بين احد امرين : الاسلام او القتال ، ولا تقبل منهم الجزية .

واعتبر الاسلام الحرب والقتال شرا لابد منه ، شرع للضرورة ، وبما ان الضرورة تقدر بقدرها ، لذلك لم يجز الاسلام قتل من لا يحارب ، حتى لو عثر عليه اثناء القتال . ومن هؤلاء : المراة والشيخ الهرم الفاني ، والمقعد والاعمى ، والصبي ، والمجنون ، ومن لا يقدرون على قتال ، والراهب الذي لا يخالط الناس، اذا كان في صومعته والمترهب في كنيسته او داره ، اذا اطبق عليه بابه . وجعل الاسلام كل من لا يجوز قتله اثناء المعركة لا يجوز قتله بعدها ، حتى ولو اخذ اسيرا، الا اذا كان قد ساعد المحاربين بقول او راى ، ما عدا الصبي والمعتوه، فانه لا يحل قتلهما، ولو اخذا اسيرين، لان القتل عقاب للمقتول على ما جنى ، والصبي والمجنون ليسا اهلا للعقل (1) .

عقد الذمة « او الامان المؤبد »

تعريفه ـ عقد الذمة ، هو عقد يتولاه الامام او نائبه من جانب ، والذمي من جانب آخر على ان يترك القتال من الجانبين مؤبدا .

ركنه ـ وركنه لفظ العهد او الدلالة على قبول الجزية ، كأن يدخل رجل من أهل دار الحرب ، ارض الاسلام ويقيم فيها اكثر من سنة .

شروطه ـ يشترط في عقد الذمة ثلاثة شروط :

ا ـ ان لا يكون المعاهد من مشركي العرب .

ب ـ ان لا يكون المعاهد مرتدا عن الاسلام .

جـ ـ ان يكون العقد مؤبدا ، فان حدد له وقت لم يصح عقد الذمة .

آثاره ـ يترتب عليه من الآثار عصمة المال وعصمة النفس .

صفته ـ هو عقد لازم بحق المسلمين ، ولا يملكون نقضه بحال من الاحوال . اما بحق الذمي فهو غير لازم ، ويمكنه نقضه في احدى الحالات الآتية :

ا ـ ان ينقضه الذمي باسلامه .

ب ـ اذا لحق الذمي بدار الحرب .

جـ ـ اذا غلب العدو على موضع فحاربه المسلمون عليه .

ويرى الامامان : مالك وابن حنبل ، ان هناك اربعة امور تجعل الذمي بريئا من ذمة الشرع :

ا ـ الكفر بالله وذكره بما لا يليق بجلاله .

ب ـ ذكر كتابه بما لا ينبغي .

جـ ـ ذكر دينه بما لا ينبغي .

د ـ ذكر رسوله بما لاينبغي .

وحينئذ ينتقض عهده اشرط ذلك ام لم يشرط.
وقال ابن القاسم : ان الامور التي تنقض عهد الذمي ثمانية :

ا ـ ان يجمعوا على قتال المسلمين .

ب ـ ان يزني احدهم بمسلمة .

جـ ـ او يصيبها باسم النكاح .

د ـ او يفتن مسلما عن دينه .

هـ ـ او يقطع على المسلم الطريق .

---

1) المراغي ـ ص 27 .

و ـ او يؤوى للمشركين جاسوسا .

ز ـ او يعين على المسلمين بدلالة ، فيكاتب المشركين باخبار المسلمين .

ح ـ او يقتل مسلما او مسلمة عمدا (1) .

ويبسط المسلمون سلطانهم على اراضي اعدائهم باحدى صورتين :

1 ـ بالحرب اذا قهروا عدوهم فى ساحة المعركة، وغلبوا على ارضه وداره .

2 ـ بالصلح والعهد ، اذا قبل العدو ان يجنح للسلم ، ويتعاقد مع المسلمين ، وحينئذ يكون على المسلمين مسالمته ومصالحته ، عملا بقوله تعالى : (فان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) .

وتختلف المعاملة التي يعامل بها الشعب الداخل، تحت سلطان المسلمين ، باختلاف الطريقة التي خضع بها (الحرب او العهد والصلح) . وفى كل حال تفرض على الارض ضريبة هي الخراج او العشر ، وضريبة على الرجال المعتملين ، القادرين على الحرب ، هي الجزية .

الخراج :

هي ضريبة تتوجب على ارض الحربي ، اذا صار ذميا ، واقره المسلمون على ملته ، وهو نوعان :

ا ـ خراج مقاسمة ـ وهو ان يؤخذ جزء شائع من غلة الارض كالخمس او العشر او نحوهما .

ب ـ خراج وظيفة ـ وهو فرض مبلغ مقطوع على الارض بحسب نوع زراعتها ، كما لو اخذ من الارض المروية قفيز بر عن كل جريب ، ومن الارض غير المروية المزروعة كرما مثلا ، عشرة دراهم عن كل جريب من الارض ، وهكذا .

والخراج يتعلق بالارض ، فيتوجب عليها ولو عطلها صاحبها او اسلم او باعها لمسلم .

وللخراج ستة انواع :

1 ـ ارض استأنف المسلمون احياءها ، فهذه ارض عشر لا يجوز ان يوضع عليها خراج باتفاق الائمة .

2 ـ ارض اسلم اهلها طوعا من غير قتال ـ فهذه ارض تدفع العشر ولا خراج عليها .

3 ـ ارض استولى عليها المسلمون عنوة وقهرا من عدوهم ، وفيها قولان :

ا ـ قول يجعلها غنيمة للمسلمين ، تقسم بين الفاتحين كالمنقولات، وتكون ارض عشر لا خراج عليها.

ب ـ وقول آخر يجعل الامام بالخيار ان شاء قسمها على المجاهدين ، فتكون ارض عشر لا خراج عليها ، وان شاء ضرب عليها خراجا ، يكون كالاجرة ، فهذه ارض عشرية ـ خراجية ، فاذا تركها الامام بيد غير المسلمين ففيها الخراج ، سواء ازرعوها او لم يزرعوها ، ولا عشر عليهم .

4 ـ ارض صالح عليها اصحابها على ان تبقى فى ايديهم وحينئذ يضرب عليها الخراج ، وتكون الارض لهم ، فهذا الخراج يعتبر جزية منهم ، ما اقاموا على شركهم ، وتسقط عنهم بالاسلام ، واذا بيعت لمسلم سقط عنها الخراج .

5 ـ ارض جلا عنها اهلها ، فاستولى عليها المسلمون بغير قتال ، فهذه حكمها حكم الارض المأخوذة عنوة ، تترك وقفا ، ويضرب عليها خراج يكون اجرة تؤخذ ممن تستقر فى يده سواء اكان مسلما او غير مسلم ، ولا تتغير باسلامه ولا بذمته .

6 ـ ارض صالح اهلها المسلمين على نزولهم عنها ، فتعتبر ملكا للمسلمين ، وتقر بايدي اهلها غير المسلمين بالخراج . ولا يسقط هذا الخراج بالاسلام .

ويقدر الخراج بحسب ما تحتمله الارض ، فيمكن ان يزاد وينقص ، لانه غير مقدر شرعا . وللامام ترك الخراج واسقاطه او تخفيفه ، بحسب ما يراه فى مصلحة المسلمين . ولكن لا يجوز له ذلك فى الجزية (2) .

وقد فرضت الجزية بقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهو صاغرون) . واجمع الفقهاء على ان الجزية تؤخذ من اهل الكتاب ومن المجوس . وقد تردد عمر بن الخطاب فى اخذها من المجوس ، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف ، بان

---

1) الشعراني ـ كتاب الميزان ج 2 ص 162 .
2) المراغي ص 126 .

الرسول اخذها من مجوس هجر ، وقال (سنوا فيهم سنة اهل الكتاب) .

واختلف الفقهاء فى معنى (الجزية) ، فقال بعضهم انها مشتقة من الجزاء ، أي العقوبة . وقال صاحب المغني انها مشتقة من كلمة جزاه ، بمعنى قضاه ، كقوله تعالى : (لا تجزي نفس عن نفس شيئا) ، فتكون الجزية مثل الفدية وقدرها الحنفية بـ 48 درهما فى السنة تؤخذ من الغني ، و 24 درهما من متوسط الحال ، و 12 درهما تؤخذ من الفقير الصحيح السليم ، المعتمل (اي الذي يمارس عملا) . ولا يتعين فى استيفاء الجزية اخذها بالذهب والفضة ، بل يجوز اخذها مما تيسر من اموالهم من ثياب وسلاح وحديد ونحاس ومواش وغير ذلك . ولا تفرض الجزية على الصبي والمراة والمجنون والشيخ الفاني والاعمى ولا على المريض الذي لا يرجى برؤه ، وان كانوا موسرين، لان هؤلاء ليسوا من اهل القتال .

اما الرهبان ورجال الدين ، فان كانوا ممن يخالطون الناس فى مساكنهم ومعائشهم فعليهم الجزية اما اذا كانوا منقطعين الى صوامعهم وعباداتهم ، فلا تجب عليهم الجزية .

وتسقط الجزية بالاسلام ، وبالموت وبمضي سنة على عدم استيفائها ، لانها ضريبة متجددة . ولا يحل تكليف اهل الذمة ما لا يقدرون عليه ، ولا تعذيبهم لحملهم على ادائها ، ولا حبسهم ولا ضربهم (1) .

ولا تؤخذ الجزية من مشركي العرب ولا من المرتدين . ورضي عمر بن الخطاب ان ياخذ من نصارى تغلب العرب ، الذين يعيشون خارج الجزيرة العربية ، الصدقة مضاعفة ، بناء على طلبهم لانهم وجدوا فى دفع الجزية اساءة لهم كعرب .

كيف اراد الائمة معاملة اهل الذمة

أ ــ قال رجل من ثقيف: استعملني علي بن ابي طالب على (بزرج سابور) ، فقال لي : لا تضربن رجلا سوطا فى جباية درهم ، ولا تبيعن له رزقا ، ولا كسوة شتاء ولا صيف ، ولا دابة يعتملون عليها ، ولا تقيمن رجلا قائما فى طلب درهم . قال قلت : يا امير المؤمنين اذا ارجع اليك كما ذهبت . قال علي رضى الله عنه : وان رجعت كما ذهبت ، انا امرنا ان ناخذ منهم العفو (يعني الفضل . ــ رواه ابو يوسف فى كتاب الخراج)ــ.

ب ــ وجه ابو يوسف خطابا للخليفة هارون الرشيد ، يعظه فى حسن معاملة اهل الذمة وكان مما جاء فيه :

(وقد ينبغي يا أمير المؤمنين ــ ايدك الله ــ ان تتقدم فى الرفق باهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (صلعم) والتفقد لهم ، حتى لا يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم الا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن النبي : (من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه) ــ رواه ابو يوسف في كتاب الخراج .

ج ــ حينما سار سعد بن ابي وقاص بالجيش الى القادسية ، كتب اليه عمر بن الخطاب رسالة جاء فيها :

(ونح منازلهم ــ يعني العسكر ــ عن قرى اهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق بدينه . ولا يرزا احد من اهلها شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، فلا تنتصروا على اهل الحرب بظلم اهل الصلح) (1) .

د ــ وقال ابو بكر موصيا بعض قادته :

(ولا تقتلن احدا من ذمة الله ، فيطلبك الله بذمته فيكبك على وجهك فى النار) (2)

هـ ــ ومر عمر بن الخطاب على قوم اقيموا في بعض ارض الشام ، فقال ما شان هؤلاء ؟ فقيل انهم اقيموا فى الجزية . فكره ذلك وقال ، هم وما يعتذرون به ؟ قالوا : يقولون لا نجد . فقال لهم عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، ثم امر بهم فاخلى سبيلهم . (3)

---

1) التعصب والتسامح بين الاسلام والمسيحية ــ لمحمد الغزالي ص 160 .
2) طبقات ابن سعد ج 3 ص 137 .
3) الخراج لابي يوسف ص 71 .

و ـ ومر عمر بباب قوم عليه سائل يسأل ، وكان شيخا ضرير البصر ، فضرب عمر عضده وقال له : من اي اهل الكتاب انت ؟ قال يهودي . قال فما الجاك الى ما ارى ؟ قال اسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده ، وذهب الى منزله ، واعطاه مما وجده ثم ارسل به الى خازن بيت المال ، وقال له: انظر هذا واضرباءه ، والله ما انصفناه ، اكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والفقراء هم الفقراء المسلمون ، وهذا من المساكين من اهل الكتاب . ثم وضع الجزية عنه (1) .

ز ـ ولما دنا اجل عمر بن الخطاب ، اوصى الخليفة من بعده باهل الذمة خيرا ، وان يوفى لهم بعهدهم ، وان يقاتل من وراءهم ، والا يكلفهم فوق طاقتهم . وهناك الوف الامثلة غير ما ذكرناه على حسن معاملة المسلمين لاهل الذمة .

راي بعض المنصفين الغربيين

ويشهد المنصفون الغربيون من الكتاب والمؤرخين ورجال الدين ، على حسن معاملة المسلمين لمن كان تحت يدهم من الامم الداخلة فى عهدهم ، ومن امثلة ذلك :

ا يقول تريتون : (يصر الاسلام على وجوب اصطناع الرفق مع الشعوب المغلوبة على امرها ، ويوصي بحسن معاملتها ، والتزام العدل معها) (2) .

ب ـ وينقل تريتون شهادة للبطريك عيشويابه ، الذي تولى بطريركية انطاكية من سنة 647 الى 657 ، جاء فيها : ان العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون . انهم ليسوا باعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قسيسنا يمدون يد العون الى كنائسنا واديرتنا . (3) .

ج ـ ويقول رونسمان : (لقد خفف تبديل الحكومة ، بعد طرد المسلمين للبيزنطيين من سوريا ومصر ، ما كان يعانيه الخوارج على المسيحية ـ ويقصد بذلك النصارى الشرقيين ـ . وقد قال ميشيل السوري ، بطريرك اليعاقبة فى انطاكية ، الذي كتب تاريخه فى عهد الممالك الصليبية فى الشرق ، بعد خمسة قرون من الفتح : (ان اله الانتقام ، الواحد الكبير القدير ، بعث من الجنوب ابناء اسماعيل لينقذنا بايديهم من سلطة الرومان ، واذا كنا قد تكبدنا بعض الخسائر لان الكنائس التي انتزعت منا ، واعطيت الى انصار مجمع خلقدونية بقيت لهم ، الا اننا قد اصابنا خير ليس بالقليل ، بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم وغضبهم وحفيظتهم علينا ، هذا من جهة ومن جهة ثانية ، لقد سادت الطمانينة بيننا) (4) .

د ـ ويقول رونسمان ايضا : (ان النسطوريين كانوا يتفقون مع اليعاقبة فى هذا الراي ، وقد كتب مؤرخ منهم غير معروف الاسم يشيد بحكم العرب لهم ويقول : ليبارك الرب حكم العرب وليجعله اكثر تقدما وازدهارا) (5) .

هـ ـ ويقول رونسمان ايضا : (وليس للنصارى اي سبب يبرر شكواهم من انتصار الاسلام .. فقد كانوا اسعد حالا فى ظل الاسلام منهم فى زمن الاباطرة المسيحيين) (6) .

و ـ ويقول الكونت سيركور : (ومهما قيل في حكم العرب ، فان حظى الاسرى فى الحرب والمعتقين منهم ، كان لدى العرب افضل مما كان عليه لدى امة اخرى فى تلك الفترة التي كانت الحرب تقوم فيها في كل مكان بالنار والدم،وكانت حياة المغلوبين ملكا للغالبين، وتحت رحمتهم بدون تحفظ) (7) .

ز ـ ويقول سيركور فى موضوع آخر : (ان القرءان امر بحسن معاملة العبيد ، ولذلك فان حظ العبيد النصارى ، كان متعلقا بطبع اسيادهم ومزاجهم) (8) .

ح ـ ويقول سيركور فى موضع آخر : (وبالاختصار فان المستعربين فى الاندلس كانوا ـ حتى جاء حكم المرابطين يتمتعون بحماية رسمية .. وينتج من

---

1 . الخراج لابي يوسف ص 71 .
2 تريتون ـ اهل الذمة فى الاسلام ص 168 .
3 . نفس المصدر ص 149 .
4 رونسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج 1 ص 20 .
5 . نفس المصدر ج 1 ص 21 .
6 . نفس المصدر ج 1 ص 26 .
7 . الكونت سيركور ج 1 ص 27 .
8) نفس المصدر ج 1 ص 29 .

مجموع الاعمال السياسية ، ان عرب اسبانيا اتخذوا من التسامح اساسا لحكمهم وسيطرتهم، وقد تسامحوا مع رعاياهم المسيحيين فى كل شيء ، فى التقاليد وفي الدين وفى المؤسسات والعادات والاخلاق) (1) .

معاملة المسلمين لبيوت العبادة

تقوم خطة الاسلام فى معاملة الامم المغلوبة ، على عدم التدخل فى شؤونها الدينية ، وعلى السماح لها بممارسة عباداتها وطقوسها كما تحب ، وكما يوجبه عليها شرعها وتقاليدها ، سواء اكانت تلك الامم من اهل الكتاب او من المجوس او من غيرهم . وكثيرا ما كانت عقود الذمة أو الامان تتضمن الشروط التي يتفق عليها المسلمون مع اهل الذمة ، فيما يتعلق بامور بيوت العبادة . وكان الحكام المسلمون ، يحترمون تلك الشروط دائما ، ويتقيدون بها . وكان الفقهاء المسلمون يقفون حكاما عدولا ، ساهرين على مراقبة الالتزام بتنفيذ هذه الشروط . وقد قسم الفقهاء البلاد التي تحت يد المسلمين الى ثلاثة اقسام ، وكانت لهم آراء فى حق بيوت العبادة ، تختلف من ارض الى ارض بحسب القسم الذي تدخل فيه . ويمكن تلخيص الآراء التي استقر عليها راي الاكثرية بالتالي :

ا ـ بلاد انشأها المسلمون فى الاسلام ، وهذه البلاد تعتبر خالصة للمسلمين وللامام ان يجيز اهل الذمة ، للاستقرار فيها ، وفى ذلك اتفاق من الائمة . ولكن اذا كان هناك بيوت عبادة قائمة فى ارض خلاء ، وجاء المسلمون ، وبنوا فيها قرية او مدينة ، فان بيوت العبادة تبقى . ولكن اذا احدثت فى هذه البلاد بيوت عبادة حديثة ، جاز للامام هدمها (2) .

ب ـ بلاد انشئت قبل الاسلام ، واستولى عليها المسلمون عنوة وقهرا . وفى هذه الارض لا يجوز للذميين ، احداث بيوت عبادة لهم . اما بيوت العبادة القائمة يوم الفتح فيجوز ان يتركها الامام كلها لاصحابها او ان يترك بعضها ويستولى على البعض الآخر ، بحسب ما يراه موافقا للمصلحة . على اعتبار ان اخذ البلد عنوة يجعله وما فيه ملكا للمسلمين ، على قول . اما بيوت العبادة التي تبقى بيد اهلها فان لهم ان يصلحوها ويرمموها . اما اذا اهملوا العناية ببعضها حتى انهدم تماما ، فان الفقهاء يرون عدم السماح بتجديده .

ج ـ بلاد انشئت قبل الاسلام ، وافتتحها المسلمون صلحا ، وفى مثل هذه البلاد ، يستطيع اهل الذمة الاحتفاظ بمعابدهم ، ولهم احداث ما شاءوا منها ، اذا تم الصلح معهم على ان تكون الارض لهم ، ويدفعون الخراج للمسلمين ، ولم يكن فى الصلح ما يمنعهم من ذلك الاحداث .

واذا وقع الصلح على ان الدار للمسلمين ، ويدفعون الجزية ، فحكم المعابد فيما يقع عليه شرط الصلح (3) وتعتبر الشروط المدرجة فى معاهدة الصلح ـ او عقد الذمة ـ ، هي الاساس الذي يقوم عليه التعامل ، بين اهل الذمة والحكام المسالمين . فان اشترط فيها ان يحدثوا بيوت عبادة ، وان يرمموا ما رث منها وما انهدم او ان يوسعوا ما انهدم فانهم يستطيعون ذلك ، وليس لاحد ان يعارضهم فيه (4) .

وكان بعض الحكام المسلمين يتساهلون فى مراقبة الذميين فى التقييد بشروط العهد ، فيتجاوز أهل الذمة على الشروط ، ثم ياتي بعد ذلك حاكم متشدد، او تكون هناك ظروف خاصة فيطالب الحاكم الذميين بالتزام العهد وما فيه من الشروط . وقد يصل الامر بالحاكم الى درجة هدم بعض المعابد التي بنيت او جددت خلافا للعهد ، وما فيه من شروط .

ولكن الحكام المسلمين ، كانوا اجمالا اميل الى التساهل فى امور العبادة . وفى هذا الصدد يقول تريتون : (يتجلى لنا مما سبق عدة حقائق ، اولها ان الكنائس كانت تبنى بحرية تامة ، وكانت تشيد بموافقة السلطة ، واصحاب الامر والنهي ، بل واحيانا بمساعدتهم) (5) .

هل تتدخل الدولة فى الشؤون الدينية والقضاء

يقول الامام الشافعي : (ان الحكومة يجب الا تتدخل فى اي عمل من اعمال الذميين ، حتى ولو كان فيه ما يناقض الشرع ، ما دام لا يتعارض مع الوضع

---

1) كونت سيركور ج 1 ص 67 .
2) المراغي ص 108 . وابن القيم الجوزية ص 667 .
3) المراغي ص 108 .
4) ابن القيم الجوزية ص 699 .
5) تريتون ص 53 .

العام ؛ فاذا كان الذميون فى قرية ينفردون بامتلاكها ، فليس للحكومة ان تمنعهم من احداث كنيسة ، ولا من رفع بناء ؛ ولا تتعرض لهم فى خنازيرهم وخمرهم واعيادهم واجتماعاتهم ؛ وقد يقرض الذمي ذميا آخر دينا بالربى ، او يعقد نكاحا لا يجيزه الشرع الاسلامي، ومع ذلك فلا يجوز لاحد التدخل فيما فعلوه .

وافتى الائمة بانه لو تزوج مجوسي ابنته (والمجوس يحلون الزواج بالبنات) ؛ فولدت له ابنة ومات عنهما ؛ استحقت البنتان ثلثا التركة ، عملا بقواعد الشرع الاسلامي على اعتبار ان هذا الزواج صحيح فى شرع المجوس .

الحكم بين أهل الذمة

ترك الشرع الاسلامي ـ من حيث المبدأ ـ لكل طائفة ان تتولى حل خلافاتها بنفسها عن طريق محاكمهم الطائفية ، بحسب شرائعهم وعاداتهم واعرافهم . ولكن قد يستعصي حل قضية على الطائفة، او يشعر احد المتخاصمين بعدم الثقة فى محكمة الطائفة، فيرى اللجوء الى سلطة الدولة لتنصفه من خصمه ، والدولة بما لها من سلطة الولاية العامة ، وبما عليها من مسؤوليات حفظ الامن فى البلد ، ومنع الاضطراب فى المجتمع قد ترى من حقها التدخل لحسم الخلاف . وقد وضع الفقهاء قواعد تدخل الدولة فى المنازعات بين ابناء الطوائف غير المسلمة ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

1) تعتبر الشريعة الاسلامية ذات احكام عامة تشمل كافة المسلمين .

2) اذا رفع احد الذميين طلبا الى القاضي ، لمقاضاة خصمه ؛ فقد اختلف الائمة فيما يجب عمله :

أ ـ فئة تقول بوجوب القضاء بينهم ، اذا ترافعوا الى القاضي ، وحينئذ يطبق القاضي الشرع الاسلامي ، عملا بقوله تعالى « فان جاءوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم » . وتؤيد هذه الفئة قولها بما روى عن الحسن من قوله (خلوا بين اهل الكتاب وبين حاكمهم ، واذا ترافعوا اليكم ، فأقيموا عليهم ما في كتابكم) .

ب ـ وفئة تقول بان القاضي بالخيار ، بالحكم بينهم وعدمه ، وهو قول الامام مالك .

ج ـ وفئة تقول بوجوب الحكم بينهم بما فى الشرع الاسلامي ، وان لم يترافعوا الى القاضي ، استنادا الى ان الذمي تقطع يده فى السرقة ، مثلما تقطع يد المسلم ؛ فتكون الاحكام جارية عليهم وان لم يترافعوا . ولكن اكثر الفقهاء متفقون على انه يجب ترافع الخصمين لدى القاضي ، ورضاهما بحكمه ، وحينئذ يقضي بينهما بما فى الشرع الاسلامي ، سواء كان الامر يتعلق بالانكحة او حقوق العباد او حقوق الله، وذلك عملا بقوله تعالى : «وان احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع اهواءهم » .

ويقول عبد الله مصطفى المراغي : (ان الاصح هو انه يجب على القاضي الحكم اذا كان المترافعان او احدهما ذميا ؛ لان المسلمين التزموا بالذب عن الذمي، ورفع الظلم عنه . واذا طلب احد الخصمين احضار خصمه ، وجب اجبار الخصم على الحضور . اما اذا كان احد المتخاصمين معاهدا ، والآخر حربيا ، فلا يحكم القاضي بينهما الا اذا رضيا بحكمه ، واذا طلب احدهما احضار خصمه ، فلا يجب احضاره ولا اجباره على الحضور (1) .

ويتضح مما تقدم ان الشرع الاسلامي ترك للذميين مطلق الحرية فى ممارسة حقوقهم الدينية ، وادارة مجتمعهم ؛ وحسم النزاع بينهم ، بحسب شرعهم واعرافهم ، وان الحكام المسلمين تقيدوا بذلك بدقة على انه امر الدين .

هل كانت الدولة تتدخل فى اختيار رجال الدين ؟

عقد تريتون فى كتابه (اهل الذمة) فصلا بعنوان (الدولة والكنيسة) (2) ذكر فيه ان بعض الامراء المسلمين، كانوا يتدخلون فى انتقاء البطاركة، وتعيينهم. ويقول انه كان من المفروض ان يكون الشخص المنتقي لاعلى منصب ديني ، ممن يحوزون رضى الخليفة او نوابه ، لتسهل مهمته ، ويستطيع ممارسة سلطته بحرية اكبر .

---

1) المراغي ص 41 .
2) تريتون ص 80 .

ويقول ايضا : ان السلطة الاسلامية كانت تراقب أعمال رجال الدين غير المسلمين مراقبة دقيقة ، ويرى (ان البطريرك كان يعتبر موظفا حكوميا ؛ ولا بد في تعيينه من موافقة الخليفة ، ويدعم وجهة نظره هذه بالاستشهاد بالمرسوم الصادر الى « الانبا عبد يشوع » الثالث النسطوري ، الذي تولى البطريركية عام 1138 م ، فقد جاء فيه : (ان امير المؤمنين ، لما وكله الله اليه من امور عباده ، وحمله اعباءه في ارضه وبلاده ، يرعى الامة من اهتمامه عينا يقظى ، ويوليها في عامة متصرفاتها حراسة شاملة وحفظا . ويتفقد احوالها ... ويعم بذلك عموما يشترك فيه المسلم منها والمعاهد ؛ والداني والمتباعد ؛ وطوائف الملك من اهل الكتاب ، الذين حماهم الشرع وذمته .. ولما انهيت حالك الى امير المؤمنين ، وانك امثل اهل نحلتك طريقة ؛ واقربهم الى الصلاح مذهبا وخليقة .. وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع اليهم في الاستعلام عن سيرة امثالك ؛ وذكروا انهم تصفحوا احوال ذوي الديانات فيهم .. بحكم حاجتهم الى جاثليق ينظر في امورهم ، فاتفقوا باجماع من آرائهم على اختيارك للرئاسة في دينهم ، ومراعاة شؤونهم ، وتدبير وقوفهم ، والتسوية في الوساطة بين قويهم وضعيفهم ... الخ)، فاوعز امير المؤمنين باسعافهم فيما سألوه بالايجاب .. وبرز الاذن الامامي الاشرفي بترتيبك جاثليقا لنسطوري النصارى بمدينة السلام ، ومن يضمه منهم ديار الاسلام ، وزعيما لهم ولمن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد ..) (1)

ويذكر تريتون قصة اخرى تشير الى ان الاساقفة في مصر جاءوا اميرها حفص بن الوليد الحضرمي طالبين ان يأذن لهم في اقامة بطرك ، فسألهم ان يبدأوا اولا باختيار الرجل الذي يرونه اهلا ثم يحضرونه الى قصر الامارة فآثروا خايل من رهبان وادي هبيب ، وسألوا حفصا ان يأمر باحضاره من هناك لاقراره في منصبه (2) .

ومن الطبيعي ان يكون للدولة نوع من الرقابة على اعمال كبار رجال الدين ، فيما يتعلق باعمالهم الادارية ، وان يكون لها رأي في اختيار اكبر سلطة فيهم ، لان هذه السلطة الكبرى تتولى جزءا من سلطة الدولة وهي مسؤولة عن الامن والاستقرار ، واقامة العدل واحقاق الحقوق . ولكن يتضح من المثلين اللذين اوردهما تريتون ان الخلفاء او نوابهم كانوا يفوضون امر انتقاء الشخص المختار للسلطات المختصة في الطائفة ؛ ويستوثقون من كفاءته واخلاقه ؛ من وجوه ابناء الطائفة . وتبقى موافقتهم شكلية .

---

1) تريتون ص 82 .
2) ساويروس ـ سير البطاركة ـ ص 163 .

الطب العربي في اسبانيا

للأستاذ فيديل فرنانديس
تعريب الأستاذ محمد أبو طاهر

توصلنا من نجل الاستاذ الاسباني الكبير فيديل فرنانديس بشريط دقيق باللغة الاسبانية يحتوي على فصل من كتاب « الطب العربي فى اسبانيا » سيصدر بالاسبانية وقد اقتبسنا الفصل المتعلق بالقرن الحادي عشر ننشره شاكرين :

ان الاضطرابات الداخلية التي كانت تضني الحكم الاسلامي شيئا فشيئا قد بلغت أوجها فى المائة الحادية عشرة ، حينما اطلت عدة ولايات من بين اشلاء الدولة الاموية المنهارة ، يفترس بعضها البعض فى معارك طاحنة ، معطية بذلك للتاريخ أسوأ الامثلة فيما يسمى بممالك الطوائف .

ان الحالة الداخلية كانت غير مناسبة قليلا فى هذا العصر — القرن الحادي عشر — لغرس العلوم . أما اثناء ازدهار الخلافة ، فان وحدة الوطن واستقراره وراحته سمحت بغرس الفنون والآداب . وبفضل تلك الوحدة والاستقرار والراحة ، وبفضل الهدوء النفساني الذي يتسبب فى جو سلمي يتسم بالثراء ، أمكن لمدارس كمدرسة مسلمة أن ترى النور ، وأن تبرز الى الوجود عبقريات كعبقرية أبي القاسم . ان الثقافة قد وصلت حدا لا يضاهى ، وان الشخصيات البارزة فى الدولة ، محتذية حذو السلطان قد شملت العلماء برعايتها وعنايتها .

وبانهيار النظام الامبراطوري فى اسبانيا فان ابناء المنصور لم يقنعوا بمهمة الوزراء ، وحينما هموا بانتحال الخلافة تسببوا فى حرب اهلية امتدت من قرطبة الى الولايات . وبذلك تزعزعت الدولة القوية ، وبرز من جميع الجهات من بنيان بني امية المتهدم اقطاعيات صغيرة ، اصحابها اما أثرياء ، واما سادة ، واما — بكل بساطة — قطاع طرق مخيفون ، ملوحين جميعا بشعار الملوك فى ابراجهم ، مؤسسين فى الاراضي التي يصل اليها نفوذهم ممالك مستقلة .

ثورات ومجازر كانت تصبغ الحقول والمدائن يوميا بالدماء . لم يكن هناك احترام لاحد . حتى نفس ابي القاسم قد قتل فى احدى هذه الثورات الدموية. وهذه المعارك الداخلية قد منعت كل عمل فى ميدان الدراسة والثقافة . ولهذا تسببت بكل وضوح فى تقهقر العلم الذي طالما أضاء بنوره معالم الخلافة .

ولهذا كان القرن الحادي عشر لا يمثل شيئا بالنسبة للطب العربي الاسباني . ان مدرسة مسلمة كانت لا تزال تعيش ايامها الاخيرة . حيث ان تلامذته قد شرعوا فى دراسة التاريخ الطبيعي والجغرافيا والفلاحة وظهر العبريون ، الذين شرعوا يستعيدون شيئا فشيئا نشاطهم ، ويستولون على مالية أولئك الملوك الصغار .

ان الغزو المرابطي والموحدي الذي سيوحد الامبراطورية الاسلامية فى الغرب الاسلامي يهيىء اصحابه نهضة ثقافية ستعطي فى القرن الثاني عشر تحت وحدة الحكم انبثاقا غير مشكوك فيه لمدرسة طبية اسبانية .

وبينما اسبانيا ، بوجه عام ، تعيش هادئة منظمة تحت الخلافة القرطبية ، كانت العلوم والفنون قد ازدهرت ، ولكن الملوك الصغار فى جريانهم الاجرامي يتسببون فى انكساف الثقافة .

وبمجرد استتباب الامن والنظام من جديد وهدوء بعض الممالك نسبيا تبرز فى بعض البلاطات الصغيرة حركة ثقافية قوية يرعاها المسؤولون تشبها بالخلفاء .

ولهذا — نكرر القول — كان القرن الحادي عشر بمثابة كسوف فى تاريخ الثقافة المحمدية مثل واحة عكسيا كانت بين لمعان أبي قاسم ومسلمة وبين رونق اعطاه العلماء الذين نبغوا فى القرن الثاني عشر .

وخارج اسبانيا ، عامة ، اضاءت اثناء المائة الحادية عشرة شخصية كانت لها من غير نزاع قيمتها فى مجموع عالم الطب الاسلامي ، عبقرية دولية ، تتسم بالنجابة المثالية ، والسهولة الممتنعة والشمولية، روح استثنائية منذ ايام طفولتها الاولى ، الى اقصى حدود شيخوختها ، تعلقت بالدرس ، ذات مرونة لا توازى ، عالم ذائع الصيت ، على غرار مواطننا منديث بلابو ، الذي يساويه فى المعرفة ، موسوعي، وبالاختصار هو **ابن سينا** ، الذي بـ (قانونه) الشهير يحوم حول جميع اطراف العلم المعروف ، ويعتبر فى عالم التاريخ الطبي لابناء هاجر الحد الفاصل بين عصرين .

ان اسمه الكامل هو ابو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا ، يطلق عليه (الرئيس) ، ويمكن أن يكون هذا بسبب الوزارة التي شغلها ، كما يمكن أن تكون بسبب رئاسته على الاطباء ، وهي الميزة التي تساوي لدى المسلمين (ارشياطرا) Archiatra لدى الاغريق.

ولد فى ايران سنة 980 م وقد قالوا عنه انه كان فى جميع المناهج انموذجا لرجل غير عادي وشاذ . حياته الاجتماعية والخاصة تعتبر بمثابة ذكرى لمزيج مستحيل من الحرية والزهد . غير منظم . متمتعاالابهة والسخاء ، وبزهو يضاهي احيانا زهو خلفاء بغداد ، فى وفرة طبخ وكثرة حريم . وفى شيخوخته يبدو مريضا فيلج حياة المسكنة والاحسان ، فمع توزيع ثروته على الفقراء والمساكين ، يوزع هدايا عظيمة على العبيد والاتباع ، ويسلك نهج الصوفي التقي فى آخر أيامه الى ان لقي ربه سنة 1037 م

ومن خلال ما وصل الينا من تراجمه ندرك انه كان يتمتع بذكاء نادر ، حيث انه فى السابعة عشرة حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وتعلم الميتافيزيقا ، والرياضيات ، والمنطق . وحينئذ شرع فى تعلم الطب، وبدقة ملاحظاته الفائقة استطاع فى الحادية والعشرين من عمره ان يؤلف (**القانون**) وهو كتاب كامل تداوله اطباء الاسلام ، هذا وان الاضطرابات التي سادت اسبانيا يومئذ اخرت دخول (القانون) لابن سينا الى وطننا ، حيث انه لم يعرف الا فى القرن التالي . ولما ادخل الى اسبانيا من طرف مدرسة ابن زهر ترجم الى اللاتينية ، واصبح كتاب دراسة فى جميع جامعات الغرب خلال خمسمائة عام . وسنعمل فى هذه الصفحات على التعريف بابن سينا ، وبعالم مسلم آخر عاصره ، اعتنق المسيحية فيما بعد — وهو قسطنطين الافريقي — لانهما معا لم يعيشا فى اسبانيا ، ولم تكن لهما — فيما نعلم — علاقة مباشرة ذات أهمية . وهذا لم يقع بالنسبة الى علماء ثلاثة آخرين فى القرن الحادي عشر رغم اجنبيتهم كذلك ، ورغم عدم انتسابهم للسلك الطبي الاسباني ، ولكنهم يستحقون تنويهنا ، لان (الاسكوريال) تحتفظ بأكبر جزء من كتاباتهم ، وهم ابو الريحان البيروني Abú Rihan (1) وابو الفرج وابو القاسم Abul Casim

فمحمد بن احمد ابوالريحان Abú Rihan الذي يطلق عليه بعض المترجمين احيانا لقب (استاذ) أو (البيروني) نسبة الى بيرون بالهند، الف كتابا (2) فى المقاقير الطبية، والاحجار الكريمة ، والمعادن المستعملة فى العلاج ، وهو محفوظ بمكتبة الاسكوريال .

ولابي الفرج المعروف بابن Taleg المولود بالعراق فى نفس المكتبة مخطوط رقمه (888) ،

---

1) ننشر هنا بعض الاعلام بأسمائها اللاتينية مع الاسم العربي بكامل التحفظ وقد حاولت المجلة تصحيح بعض الاغلاط .

2) هو كتاب الجماهر فى الجواهر الفه للملك شهاب الدولة أبي الفتح مودود وله ايضا كتاب الصيدلة فى الطب وهو مرتب على حروف المعجم (عيون الانباء لابن ابي اصيبعة) (ج 3 قسم 1 ط . بيروت 1377 ص 30) .

يدرس النباتات المستعملة طبيا ، فصول : الحريفات (Piquants) ، والصمغيات والفواكه والقشريات والنباتات الذكرية والانثوية والجذور ، والثمار والحبوب والعصيريات .

ويبين أبو القاسم بن عمر بن علي الموصلي مؤلف مخطوطة يذكرها (كاسيري) Casiri تحت رقم (889) طريقة أصيلة للقضاء على غشاوة العين أو بياضها وهي الساد (Cataracte) مع وصف لبعض الادوية وتقنية العمليات الجراحية .

ان مدرسة مسلمة (Maslama) قد اعطت فى أواخر أيامها من هذا القرن شخصيات لامعة ؛ وسنفرد حديثا مختصرا لبعض هذه الشخصيات مع علماء آخرين عاشوا من سنة (1.000) الى (1.100) الميلادي .

ابن السمج Abén Esamedj رياضي وفلكي . طبيب الزيريين بغرناطة ، حيث انه مات فى بلاطهم سنة (1.029) عن سن تناهز التاسعة والخمسين . ولقد حفظ لنا التاريخ من آثاره : شروحه لاوقليدس كمدخل الى الرياضيات ، وأصل البشر ، والحسابات المستعملة فى التجارة ، وكتاب الرياضيات ، وجداول فلكية ، وتركيب واستعمال الاسطرلاب .

ابو القاسم أحمد عبد الله بن عمر بن الصفار Sofard رياضي ، وفلكي بطليطلة . تلميذ ، فيما بعد ، لمسلمة بقرطبة ، وطبيب أخيرا فى دانية Denia بالقرب من الامير محمد العامري. الف الاسطرلاب وجداول فلكية .

محمد بن عبد الله بن عمر بن Sofard اخوه ، فاقت شهرته فى تأليف كتاب عن الاسطرلاب كتاباته فى الطب .

ابو مسلم عمر أحمد ابن خلدون الحضرمي (3) Kaldum بن Adrami الاشبيلي ، تلميذ مسلمة، فيلسوف ، رياضي ، فلكي ، طبيب ، مات باشبيلية سنة (1056) .

ابو Hasam ابو الحسن بن سليمان المعروف بالزهراوي لازدياده بمدينة الزهراء مثل أبي قاسم Abul Casis . هو تلميذ مسلمة ، رياضي ، مؤلف كتاب فى الطب أجهله .

ابو الحكم Abul Hakan عمر عبد الرحمن بن احمد ابن علي (الكرماني) El Kermany قرطبي أو مالقي درس الرياضيات والطب بالشرق . استقر أخيرا بسرقسطة ؛ حيث اشتهر طبيبا جراحا ، مات عن سن تناهز التسعين سنة (1066) .

ابو العرب يوسف بن محمد طبيب قرطبي جليل قال عنه النقاد انه كان مدمنا للخمر مات مهجورا حوالي سنة (1038) .

ابو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش Bagunech الطيطلي. تلميذ مسلمة بقرطبة. ومحمد بن عبدون الجبلي وسليمان بن جلجل Abén Djoldjold طبيب ، فيما بعد ، لمليك طليطلة الظافر (4) اسماعيل بن ذي النون (Edaher ben Ismael Ben Dulnún) الذي كان صديقا حميما ومستشارا . مال الى تأليف شروح على القرآن، ثم كتب فى الفلسفة، والرياضيات، درس مؤلفات (غالينو Galeno) ، ولكن مترجميه يقولون عنه بأنه لم يمارس الطب قط ، وأنه لم يكن لديه ميل الى الطب . مات حوالي سنة (1052) .

ابو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير ابن يحيى بن وافد اللخمي Uafed Yaye المسمى بالدارجة El Lakmy (Abén Gaufif) أو Abén Uafed . ولد بطليطلة سنة (998) ، وتخصص فى دراسات حول (غالينو) وارسطوطاليس، وتفوق على جميع معاصريه فى معرفة الادوية . يقال عنه بأنه الف كتابا مكتملا منظما على هذه المواد ، ولكننا لم نعثر عليه . وكان وزيرا للامير ذى النون (؟). وحسب الخطيب ، فانه مات سنة (1074) . وان أحسن ما يروى فى حياته العلمية معرفته للعلاج والمادة الطبية ، يقول جمال الدين انه كانت لديه طرق خاصة لعلاج الامراض البطيئة والمزمنة ، وان علمه كله كان مبنيا على هذه الفكرة الاساسية : استعمال كل ما هو مستحيل من الاغذية فى علاج الامراض . اعرف له الكتاب الآتي : الادوية المفردة ، ترجم قسم منه الى اللاتينية بهذا العنوان (De Medicamentis Simplicibus

يقول مؤلف (كتاب الحكماء) ان هذا الكتاب كان يشتمل على (500) ورقة ، وان مؤلفه قضى فى تحبيره

---

3) يكنى أبا البقاء توفى عام 449 هـ (الذيل والتكملة لابن عبد الملك (القسم الثاني ص 439) له كتب اخرى ككتاب الوساد وكتاب تدقيق النظر فى علل حاسة البصر (عيون : ص 79) .

4) الظافر لا الظاهر (عيون الانباء ص 78) .

عشرين ربيعا . وله كتاب أمراض العيون ، يوجد بمكتبة الاسكوريال تحت رقم (828) . وهناك مخطوط نسبه كاسيري Casiri — خطأ — الى الرازي Razés ، ولكن الحقيقة ان الكتاب للمؤلف الذي نحن بصدد الحديث عنه . وهو عبارة عن مواد للجراحة بوصفات للامراض المختلفة ، يبتدىء من الراس فمعادلات لما يغرغربه (Gargarismes) ، فالشربة من الدواء (Potions) فالتدخين (Fumigations) ، فالمراهم (Cataplasmes) فالاكحال (Collyres) ، فالاقراص (Pastilles) فالحبوب (Pilules) الخ . وعن تفاصيل تقنية للفصد : (Saignée)

كتاب الفلاحة ، ذكره الخطيب .

كتاب الاحلام ذكره الخطيب ايضا .

كتاب حول القطعان ، ودراسة حول الدواء السري المعروف بـ (Kitab El Morits) Arramil الرميلي طبيب من المرية فى عهد ابن معن (ابن صمادح) ، الف كتابا حول الطب ، نجهل محتواه (5)

ابو محمد عبد الله بن محمد الازدي الذهبي فيلسوف وكيميائي . توفي ببلنسية سنة (1063م) (456 هـ) تاركا وراءه مقالة تحت هذا العنوان (الماء لا يغذو) :
(Que el agua no es un alimento)

ابن النباش Abén Anabach عرف بـ(El Badjay) لازدياده فى Berja من Béjar او يمكن أن يكون من Beja وهو محمد بن عبد الله بن خالد البجائي ؛ عاش بالقرب من مرسية ؛ واشتغل بالفلسفة والفيزياء وممارسة الطب .

أبو جعفر بن خميس Kamis الطليطلي ، كان طبيبا على طريقة افكار (غالينو) كما كان رياضيا .

Abud Hassam ابو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر الدارمي Kalef Edarmy علق على (غالينو) كما كان تلميذا لـ Abén Bagunech (6)

ابو بكر يحيى Yaye بن احمد بن الخياط El Kaiat . تلميذ مسلمة ، رياضي وفلكي . عاش فى بلاط المليك سليمان بن حكم بن الناصر ، وفيما بعد عاش فى بلاط الامير Yaye يحيى بن اسماعيل بن ذي النون مات بطليطلة عن سن تناهز الثمانين سنة (1095) (7) .

الخطيب ابو عمر احمد بن احمد بن الحجاج ، الذي ينبغي الا يخلط بالخطيب المشهور الذي علا نجمه بغرناطة فى أواخر ايام الحكم الاسلامي باسبانيا . مؤلف كتاب الفلاحة المسمى بـ (المغني) El Morny (El suficiente) كتبه سنة (1073) وقد ترجمه (Muller) . ينبغي أن يكون من مواليد قرطبة .

محمد Eteminy . لدينا كتاب له بمكتبة الاسكوريال تحت رقم (887) حديث و (882) قديم . وهو مخطوط ناقص بدون غلاف ، محطم ، مجلد تجليدا رديئا ، غاب ذكره عن قلم كاسيري الذي ينسبه خطأ الى احد المؤلفين الواردين فى ثنايا الكتاب . والذي يسميه كتاب الاختبارات الطبية . والحقيقة انه عبارة عن ملخص للملاحظات والمعلومات التي جمعها وحررها فى كتاب احد تلامذته Eteminy . والتحليل الذي سنخصصه فى فصل لاحق له اهمية خاصة ، لانه يوضح لنا كيف كان سير الخلاصات فى اسبانيا المسلمة ، وكيف كان يعمل منها دراسات طبية للتلاميذ .

ابو عبد الله (بعضهم يكتب أبو عبيد عبد الله) ابن عبد العزيز البكري المرسي ، يقال انه من عائلة ملكية . كان يعرف جيدا الادوية البسيطة وخواصها واستعمالها واسماءها وطرق ادارتها . الف كتابا — نجهل عنوانه — جمع فيه جميع اشجار الاندلس ونباتاته . كما الف كتابا عن محمد ، وآخر حول تغير الاعلام ، وعدة تآليف وجيزة حول الزهريات (Ombellifère) وحول الخنشار (Fougère) وحول فحم معامل الحديد ؛ (Forge) وحول الاسفار الى المغرب ؛ الذي يحتوي على ثروة نباتية يصفها بدقة ؛ ويقف بصفة خاصة عند (Forbium) الذي يعتبر سائلها اللبني مسهلا حسنا ، كما يقف على (Arganier) وهو شجر أركان أو عصا الحديد الذي يستخرج من ثماره زيت طبي .

ابو الفضل قشداي Kachdai حفيد قشداي ابن شبروط (Kachdai ben Chaprut) ولد

---

5) هو كتاب البستان .
6) هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن بغونش (العيون ص 80)
7) موافق 447 هـ (ص 81) .

بعاصمة المملكة الاسلامية الارغونية . لغوي عظيم ، وشاعر ، ورياضي ، ومهندس ، وفلكي ، وموسيقي، وفيلسوف ، وطبيب ، وفيزيائي . دخل الاسلام، وتوصل الى منصب الوزارة والى كاتب مليك سرقسطة ابي جعفر بن هود .

ابو عامر احمد بن عبد الملك ، عرف بفضل أبحاث (كاسيري) المعروف بابن شهيد : Abén Chechid من مرسية . خطيب وشاعر ، ورياضي وطبيب . مات بقرطبة سنة (1034) .

عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمران الوهراني مولدا ، والاشبيلي دارا ، مات سنة (1037) . وفي مكتبة (سكرومونتي Sacro Monte بغرناطة يوجد مخطوط يرجع الى سنة (1234) يحتوي على (600) ورقة ، يتناول (المادة الطبية) وعلى هوامشه ملاحظات من ناسخ ينبغي أن يكون طبيبا مسلما ، وهذا الكتاب عبارة عن وصف لمؤلف بنفس العنوان كتبه أبو القاسم خلف Abul Casin Jalaf Ben Ayax المتوفى سنة (1009) بقرطبة ، حيث كان طبيبا لعبد الرحمن الثالث .

عمر بن عبد الرحمن بن محمد بن علي (المشهور بـ Kermanense ، كان مولده بقرطبة ، وكانت دراسته بالشرق ، وكان مستقره بسرقسطة . مات سنة (1080) .

عبد الرحمن بن اسحاق بن الهيثم Abén Al Haitán ، عاش بقرطبة حوالي (1050) له كتب في المواد الغذائية ، والسموم ، ولم يصل الى شهرة مسلمة الخالدة كانت لديه بمالقة اثناء القرن الحادي عشر مدرسة طبية ذات أثر نسبي في علم شبه الجزيرة ، مشمولة برعاية الحموديين ، الملوك العلماء والشعراء الذين اشتهر من بينهم ادريس الثاني بثقافته .

ولدينا أخبار عن الكثير من تلاميذ هذه الجامعة الاسلامية ، نقلها بعناية (فيلين روبريس) (ولفوينتي الكانطرا) وهي الآتية : سعيد بن أحمد الذي كتب واصفا لمختلف الاناسي .

عبيدة بن عبد الله ذكره (Simonet)

عبد الرحمن أبو عبد الرحمن ، مخطوطاته محفوظة بالاسكوريال .

الشاعرة سعيدة بنت عبد الله الرازي El Rayi التي توفيت (1026) .

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الله El Kinesi المتوفى سنة (1017).

Al Abits Ben Raya Ben Ali Abú Ali كان يتمتع بسلطة تسليم الاجازات للمبتدئين تشهد بكفاءتهم .

عبد الله بن محمد ، كان محبوبا من طرف مليك غرناطة باديس بن حبوس ، توفي سنة (1046) .

عبد الرحمن بن مسلمة بن عبد الملك بن الوليد القرشي ابو عبد الله المطرف ، ولد سنة (989) ، كان يتمتع باحترام متزايد في مالقة واشبيلية وقرطبة حتى وفاته سنة 1054 ، ومؤلفاته محفوظة بالاسكوريال.

ابراهيم بن سليمان بن ابراهيم بن حمزة Hamiza ابو اسحاق البلوي El Balawi مات سنة (1056) .

ابو عبد الله بن السراج Aserrach ، كان شخصية مهمة جدا في البلاط الحمودي .

طاهر ابو الحسين ، ولد بمالقة ، واستقر بقرطبة ، مات بمكة سنة (1058) .

احمد بن ابي يحيى ابو العباس المشهور بدبلوماسيته حيث استطاع أن يرفع العقاب الاليم المفروض على جيران ملك غرناطة باديس ، حينما دخل مالقة خالعا مليكها الحاكم .

Abén Anlar وابن عربي و Abén Al Gabi اشبيليون ثلاثة من القرن الحادي عشر وفي هذا القرن على الارجح أو قبله بقليل كان هناك Abén Abd Er Rabihi الذي الف كتاب القلادة المحفوظ منه جزء بمكتبة الاسكوريال تحت رقم (1705) و (1710) قديم .

ابراهيم بن مخلد أبو اسحاق ، اشتغل بشاطبة Játiva حتى سنة (1069) .

ابن خلف بن معاوية العبدري المقري ابو اسحاق المسمى بالدارجة Axalufi مات سنة (1070).

احمد بن ايوب ابو جعفر El Samai Abx Chafar قاضي مالقة ، سفير مليكه في غرناطة ،دفن بمرية .

Ganim غانم بن الوليد بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي El Majzumi ابو محمد هو استاذ مجموعة من الاطباء الذين يمجدونه في كتبهم .

داود بن خالد El Jawlami ابو سليمان تلميذ السابق .

ابو عثمان تلميذ داود ايضا .

محمد بن سليمان بن احمد ابو عبد الله ، كان ضحية غضب الملك باديس .

ابن غانم Abén Ganim هاجر من مالقة الى بلاط المعتصم بالمرية ، وهناك حرر كتاب النبات. Taleh بن علي بن Taleh بن سلام El Hamadorú ابو الحسين ، ومحمد بن سعيد ابن محمد بن سعيد بن احمد بن مدرك عبد العزيز الغساني ، وابو عبد الله وابو الملك بن يحيى Yaye ابن محمد البكري ، والحسن بن محمد بن الحسن البناي ابو علي ، وعبد الرحمن بن قاسم ابو مطرب الاوبي Axabi ، ومحمد بن سليمان بن خليفة بن عبد الوليد ابو عبد الله ، ومحمد بن سليمان بن محمد ابن عبد الله بن Assabai ، ابو عبد الله ، وابو الحسن بن علي بن Terawa .. كلهم ذوو اهمية كبيرة من بين عدد كثير يذكرهم (غيلين روبليس) Guillén Robles ويمكن ان يضاف الى هؤلاء اولئك الذين ذكرهم لفوينتي القانطرا : Lafuente Alcántara

Maleh مالح بن احمد من المرية ، وعلي بن Taubet من غرناطة ، وسعيد بن احمد ابو القاسم ، واحمد بن عمر وكلاهما من المرية ، وعبد الله ابن Balkim ومالك بن محمد وكلاهما من غرناطة، وعبد الرحمن البكري Al Bagueri من La Guardi a (جيان) .